سلسلة نصوص تراثية

المبتدأ لوهب بن مُنبِّه

من كتب الحقبة التأسيسيَّة الإسلاميَّة



جمع ودراسة

محمد كريم الكواز

المركز الأكاديمي للأبحاث

المبتدأ لوهب بن مُنبِّه

المركز الأكاديمي للأبحاث

المبتدأ لوهب بن مُنبِّه

من كتب الحقبة التأسيسيَّة الإسلاميَّة

جمع ودراسة

د. محمد كريم الكوَّاز

المبتدأ لوهب بن مُنبِّه

من كتب الحقبة التأسيسية الإسلامية

Kitab al-Mubtada (Book of Creation) Wahb ibn Munabbih A. H.) earliest book from early ١١٤) Islamic era

جمع ودراسة: د. محمد كريم الكواز
تصميم الكتاب وغلافه
علي الحسناوي
الناشر:المركز الأكاديمي للأبحاث
العراق ـ تورنتو ـ كندا
The Academic Center for Research
TORONTO -CANADA
موثق بدار الكتب والوثائق الكندية
Library and Archives Canada
ISBN 9781927946916

http: / /www.acadcr.com
Email: info@acadcr.com
nasseralkab@gmail.com

بيروت ـ الطبعة الأولى 2020

توزيع : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر :
بيروت ـ لبنان7611-2047

الجناح ـ شارع زاهية سلمان ـ مبنى مجموعة تحسين الخياط

Fax: +961-1-830609
Tel:+961-1-830608
tradebooks@all-prints.com
Website:www.all-prints.com

المقدمة

بعد تحقيق كتابي الكسائي: «عجائب الملكوت»، و«قصص الأنبياء»[1]، وكتاب الثعلبي «قصص الأنبياء»[2]، مثَّل التفكير بجمع المبتدأ لوهب بن مُنبِّه (ت. 114 هـ)، وهو مفقود، لم تصل منه مخطوطة إلى الآن، ونحن نتبيَّن أهمية الكتاب، فهو يعكس مشهداً تاريخياً من مرحلة التأسيس الإسلامي، تنشط فيه الثقافة الإسلامية، فتربط تاريخ الإسلام بما سبقه من ديانات، عن طريق وصل نسب الرسول بآدم، ثمَّ يُصبح التاريخ الواصل والموصول أنموذجاً يُحتذى، وأسوة يجب تقليدها، لدى أجيال المسلمين في القرون اللاحقة.

ونتحسَّس إسهام الكتاب في تشكيل وعي أولي، أنتج صور الوجود، حاضره وماضيه ومستقبله، من خلال العبرة والموعظة، لا السبب والمسبِّب، فعاش العقل بين عجائب المخلوقات، وغرائب الكائنات، بين ملائكة ذوي ستة أجنحة، كلُّ جناح يسدُّ ما بين المشرق والمغرب، وأبالسة، يرسلون الجنود، أمامه وخلفه، وعلى جنبيه، مسلوب الإرادة، لا يتحسَّس الأشياء بحواسه، ولا يفكِّر في ذاته بنفسه، مستسلم لكتاب القضاء والقَدَر الذي لم يقرأه، طائع لساسة الأمر الذين لم يخترهم.

الكتاب من مرحلة التأسيس الإسلامي، نقف قليلاً لتحديدها، وقد ذهب الذهبي[3] إلى أن (العلم) كان محفوظاً في الصدور، أو في صحف (كتب) صحيحة غير مرتبة، قبل سنة (143 هـ)، وبعدها بدأ عصر تأليف الكتب لنشرها، وبغضِّ النظر عن مفهوم العلم الذي أراد به العلوم الدينية، وهناك كتب في مجالات أخرى، وبغضِّ النظر عن وجود صحف، (مسوَّدات كتب) أو كتب جاهزة للنشر، وبغضِّ النظر عن بُعد الكتب أو قربها من السلطة السياسية، وعن محدودية اطلاع الذهبي، وهناك حالات تخرج عن قياسه، لكن يمكن الاستئناس بقوله في تعيين مرحلة التأسيس الإسلامية، بشكل تقريبي، على أنها المدة من بدء ظهور القرآن الكريم في مكة، إلى منتصف القرن الثاني للهجرة، وفيها كتاب وهب.

وعملية الجمع تطرح إشكالية، تتكوَّن من مجموعة مشكلات، فكيف نشكِّل من مجموعة حبات متناثرة عنقودَ عنب؟، ومن يدرينا أن هذه الحبَّة، تعود إلى العنقود؟، ثمَّ أنتوصل إلى العنقود نفسه، أم نشكِّل عنقوداً آخر؟، ولكنَّ العمل في الكتب الثلاثة، وكثير من نصوصها لوهب بن مُنبِّه، كان مشجِّعاً على تنفيذ الفكرة.

---

(1) أبو الحسن، محمد بن عبد الله الكسائي، ليست له ترجمة، تُوفيِّ في القرن الخامس للهجرة.

(2) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، مفسر من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ، تُوفيِّ سنة 427 هـ. الأعلام 1: 212.

(3) تاريخ الإسلام 3: 776.

أما الشكر، فجزيله للدكتور عبد الستار جبر، ذلك أنه كان مناقشاً مثيراً أيام كان جمع الكتاب فكرة، لم تتجسَّد في عمل، وكان مراجعاً حريصاً بعدُ أن اكتمل الجمع، فقدَّم من الملاحظات الغني المثمر، وهذا من أفضال العلماء في وداد الأصدقاء.

شخصية المؤلِّف

لا بدَّ في البدء من التعرُّف إلى شخصية المؤلِّف، ولا تهمُّنا تفاصيل حياته، إلا من خلال شرفتها على الكتاب، فلعل المعلومات المستقيات من حياته، تلقي ضوءاً، يساعد على استيعاب الكتاب، ومن ثمَّ تقديمُه بشكل قريب إلى أصله، وأقدم من ترجم له ابن سعد (ت 230 هـ)، حين قال: «وهب بن مُنبِّه من الأبناء. يكنَّى أبا عبد الله ... أخبرنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن مُنبِّه الصنعاني ... قال: سمعت رسول الله يقول: يكون في أمتي رجلان: أحدهما وهب، يهب الله له الحكمة. والآخر غيلان، فتنتُه على هذه الأمة أشرُّ من فتنة الشيطان .... سمعت وهب بن مُنبِّه يقول: لقد قرأت اثنين وتسعين كتابًا، كلُّها أُنزلت من السماء. اثنان وسبعون منها في الكنائس، وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل، وجدت في كلِّها: أنَّ من أضاف إلى نفسه شيئًا من المشيئة، فقد كفر.... قال: لبث وهب بن مُنبِّه أربعين سنةً لم يسبَّ شيئًا فيه الروح، ولبث عشرين سنةً لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً. وقال وهب: لقد قرأت ثلاثين كتابًا نزل على ثلاثين نبياً ... مات وهب بن مُنبِّه بصنعاء سنة عشرٍ ومائةٍ في أول خلافة هشام بن عبد الملك»[1].

والترجمة ترسم صورة للشخصية، بعد أكثرَ من مائة سنة من وفاتها، ذات معالم معينة، ركَّز عليها ابن سعد في تصويره، وهي تومئ إلى اهتمَّامات المشهد الثقافي السائد أيام ابن سعد، تقوم تلك المعالم على أسس في عملية التاريخ للشخصية (الترجمة)، مرتبةً بحسب أهميتها، وهي: الأصل، والعقيدة، والثقافة من أهل الكتاب، والزهد والتعبُّد، وزمان الوفاة ومكانها.

الأبناوي

كان «ذو كباد» الجدُّ الثاني لوهب، من هراة في خراسان، ضمن جيش الفرس الذي أرسله كسرى إلى اليمن، لحرب الأحباش فيها، فانتصروا عليهم، وسيطروا على اليمن، وبقوا فيها، وتزوجوا من نسائها، فأولدوا من بنات اليمن جيلاً، سُمِّي: الأبناء، وكانت لهم منزلة اجتماعية،

(1) الطبقات الكبرى 6: 71. ولحديث الرسول رواية أخرى، في تاريخ مدينة صنعاء: 410.

أرفع من غيرهم[1]، بحكم سيطرتهم السياسية، وقد أسلموا[2]، عند مجيء الإسلام، حتى أن الرسول عيَّن أحدهم، وهو فيروز الديلمي والياً على صنعاء، وقد تُوفِّي هذا في خلافة عثمان، حين وُلد وهب[3]، ويُعَدُّ أبوه مُنبِّه من أهل اليمن[4]، وكانت أمه حِميرية[5]، فتغذَّى منها بحبِّ حِمير، فكتب كتابه «الملوك المتوجة من حِمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»، وكان مرجعاً في تاريخ اليمن[6].

أما ما شاع عن يهوديته، فيرجع إلى ابن النديم (ت 438 هـ) ، حيث كان يمثِّل لـمن أسلم من أهل الكتاب، فذكر فيهم وهب بن مُنبِّه[7]، وتابعه ابن خلدون (ت 808 هـ) على يهودية وهب، وكان ابن خلدون في السياق نفسه، سياق التمثيل لمن أسلم، فقال: وهؤلاء مثل كعب الأحبار، ووهب بن مُنبِّه، وعبد الله بن سلام وأمثالهم[8].

كان وهب يذهب إلى هراة[9]، ولا نعرف سبب قطعه المسافة من صنعاء إلى هراة، مع تعب الرحلة، ومشقة الطريق، إلا أن يكون لأمر مهم، كتفقُّد ممتلكات مثلاً، لكن المؤكد أنه كان يطَّلع على مجتمعات متعددة، لها ثقافات مختلفة، وهو يستعين باللغة الفارسية، لغةِ أجداده السائدة في

(1) وهب بن مُنبِّه بن كامل بن سيج بن ذي كباد، وكان من أبناء فارس. العلل ومعرفة الرجال لأحمد، رواية ابنه عبد الله 2: 522. وهي معلومة قديمة، ترقى إلى أحمد بن حنبل (ت 231 هـ). في حين نجد المتأخرين من المؤرخين ينتهون بجدِّه الأول (سيج). صلة تاريخ الطبري 11: 640. فتفوتنا المنزلة الاجتماعية العليا لتراتبية أسرة وهب. وذلك لأن «من كان من أهل اليمن له ذو، فهو شريف، يقال: فلان له ذو. وفلان لا ذو له. نفسه، وسِيَر أعلام النبلاء 4: 545.

وقد أملى إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني، نسب وهب، فقال: مُنبِّه بن كامل بن سيج بن أنعاس بن أطلاج بن شاه، وهو نسب طويل يصل به إلى ساسان المَلِك، أصل الساسانيين. تاريخ مدينة صنعاء: 405. وفيه إشارة إلى تحدُّر العائلة من أصول ملكية، فضلاً عن قول آخر فيه، هو أن مُنبِّه كان من آل الأكاسرة، ووقع إلى اليمن. نفسه: 406.

(2) قال باذان كبيرهم ، حين بعث الرسول، يدعوه إلى الإسلام: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم، وأسلمت الأبناء معه من فارس، من كان منهم باليمن. تاريخ الرسل والملوك 2: 656. وكانت الديانة السائدة في عهد كسرى أنو شروان الذي أرسل جيشه إلى اليمن، المجوسية، وقد «ثبَّت للمجوس ملَّتهم التي لم يزالوا عليها». نفسه 1: 422. فيكون أصل وهب من الفرس المجوس.

(3) تاريخ الرسل والملوك 3: 318، والإصابة في تمييز الصحابة 5: 290.

(4) تاريخ مدينة صنعاء: 405. بمعنى أن جدَّه الأول، كامل، وجدَّه الثاني، سيج يُعدَّان من الفرس، ويعني ذلك استمرار الثقافة الفارسية في محيط وهب العائلي، ومنها اللغة.

(5) من ولد الخليل الحِميري، تتكلَّم بالحِميرية. تاريخ مدينة صنعاء: 409.

(6) تاريخ ابن أبي خيثمة 1: 303.

(7) فمنهم عبد الله بن سلام، ويامين بن يامين، ووهب بن مُنبِّه، وكعب الأحبار، وابن التيهان، وبحيرا الراهب. الفهرست: 37.

(8) ديوان المبتدأ والخبر 1: 555.

(9) «يتفقَّد أمر هراة». تاريخ دمشق 63: 373. وتقع هراة غربي أفغانستان.

هذه البلدان[1].

وعندما روى وهب حديثاً للرسول في الإشادة بحمل الفرس للعلم، وكان السياق يظهر سلمان الفارسي مقصوداً[2]، فإن دلالته تنصرف إلى وهب أيضاً، كونه منهم، بل إن مفهوم «العلم» في منطوق الحديث، يجمع بينهما، وقد اكتسب وهب من ذلك لقب «عالم الناس»[3].

القَدَري المرتد

يلمِّح الحديث: «يكون في أمتي ...» إلى دلالات متراكمة، نحفر فيها، ونزيل الظاهر منها للوصول إلى طبقاتها العميقة، ففي الطبقة الأولى تنبؤ النبي بما سيكون، وهو حقيقة، لا يمسُّها شكٌّ، كما حصل مع مجموع ما تنبَّأ، وحدث بعد حين[4]، وفي الطبقة الثانية أن وهب بن مُنبِّه موهوب من الله تعالى بالحكمة، وغيلان غير موهوب بها، فهو أكثر شراً من الشيطان[5]، وفي الطبقة الثالثة أن الحكمة، وهي القول بالجبر، من الله، وخلافها، وهو القول بالقَدَر، من الشيطان، فيجدر بالمسلم أن يكون مع الله، يقتدي بمن جعله الله حاكماً، ويطيع أمره، ويلعن الشيطان، ويقتل اتباعه، من القَدَريين وغيرهم، وفي الطبقة الرابعة أن أقوال وهب تصدر عن الحكمة، والحكمة من الله، وتدخل في هذا مروياته عن أهل الكتاب، وجميع الأساطير التي صدرت عنه.

سنترك بقية الطبقات، ونعاين الطبقات المفتوحة من الدلالة، والحديث عن الرسول رواه إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن مُنبِّه الصنعاني (ت 210 هـ)، وعلماء الحديث يضعفون الحديث من حيث سنده[6]، وهو يعني لنا أشياء مهمة في البحث عن شخصية وهب، وتاريخية

---

(1) وكان يرجع بعض الألفاظ إلى الفارسية، كما في «سجيل»، قال بالفارسية: سنك وكل. جامع البيان 12: 527.

(2) «لو كان العلم عند الثريا لتناوله هذا الحي من فارس». تاريخ ابن أبي خيثمة 2: 768. وقد كرر ابن حنبل الحديث أربع مرات. مسند أحمد 8: 71، و13: 331، و15: 260، و16: 90. بلفظ قريب: «لو كان العلم بالثريا، لتناوله أناس من أبناء فارس»، وكان ابن حنبل فارسي الأصل. والتسهيل لعلوم التنزيل 2: 373.

(3) الحور العين: 106.

(4) جامع البيان 20: 69.

(5) غيلان بن مسلم الدمشقي، (قتل بعد 105 هـ): من بلغاء الكتاب، تنسب إليه فرقة الغيلانية من القَدَرية، كان يقول بالقَدَر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائماً بالكتاب والسنة فهو مستحق لها، ولا تثبت إلا بإجماع الأمة. قتله هشام بن عبد الملك. الأعلام 5: 124. ويلاحظ أن القَدَريين كانوا يحملون الخلفاء الأمويين مسؤولية أفعالهم، ولا سيما في قتل مناوئيهم السياسيين كالعلويين وغيرهم، وأن الخلافة ليست تكليفاً إلهياً، ولا وراثة في قريش، وهو ما سمي بالقول بالقَدَر، وكانت مرحلة سبقت ظهور المعتزلة على يد واصل بن عطاء (ت 131 هـ)، ويقابل القَدَريون الجبريين، وهم القائلون بالجبر، وإن الله تعالى قضى للإنسان قدره، فهو مجبور على أفعاله، وإن كلَّ شيء بقضاء الله، ومنه شخصُ من يتولَّى الأمر بين المسلمين، وهو ما استند إليه الأمويون، ومن بعدهم العباسيون، منذ التحارب على الخلافة، بعد وفاة النبي.

(6) تهذيب الكمال 31: 144.

كتابه، ذلك أن نسبة الحديث إلى الرسول، تعني إيجاد المسوغات الدينية المقبولة لدى عامة الناس، لمرويات وهب، وفتح الآفاق لتقبُّلها، والعمل على نشرها، في مقابل ما يتعلق بغيلان الطرف المنافس.

هناك منافسات أخرى، دخل التنبؤ من خلال حديث الرسول في ترجيح أحد المتنافسين فيها، وبيان أفضليته، ومن ثمَّ فضُّ النزاع بين أتباعهما، منها: «يكون في أمتي رجل، يقال له: محمد بن إدريس. أضرُّ على أمتي من إبليس، ويكون في أمتي رجل، يقال له أبو حنيفة. هو سراج أمتي»[1]، وبغضِّ النظر إلى مضمون الحديث وصحَّته، نتساءل عن المستفيد منه، ونجد أنه أتباع أحد الطرفين، يروِّج لبضاعته من خلال نسبة الحديث إلى الرسول، وإذا كان الحنفية هم المستفيدون من وضع حديث تفضيل أبي حنيفة، فإن إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل هو المستفيد من وضع حديث تفضيل وهب.

لا تزوِّدنا الموارد التاريخية بوجه استفادة إسماعيل من مرويات وهب، كما هي الحال مع غيره من رجال السند إلى وهب، وما بين أيدينا معلومات فقيرة، بخصوص تفاصيل حياته، هي أنه تُوفِّي باليمن، سنة 210 هـ وروى عنه كثيرون، فهم «طائفة» أو «خلق»[2]، ولكن كثرة الرواية عنه، تزيد المشكلة تعقيداً، إذ ما وجه استفادة هؤلاء جميعاً من الرواية عن وهب؟.

يفصح إسماعيل بن عبد الكريم نفسه عن الإجابة، حين ينقل عن وهب قوله إنه قرأ اثنين وتسعين كتاباً، فوجد فيها كلَّها: «أن من أضاف إلى نفسه شيئاً من المشيئة، فقد كفر»، سنؤجل البحث في الكتب الاثنين والتسعين، ونلاحظ أنه اختزل تراث أمم متعددة، يبدأ من فجر التاريخ مع البابليين والفراعنة، ويمرُّ باليهود والمسيحيين والمجوس وغيرهم، في تسويغ نزعة من نزعات خليفة أموي، يقطر سيفه دماً من رقاب أبناء دينه، حين نافسوه على السلطة.

أراد إسماعيل أن ينفي عن وهب تهمة القَدَرية، ففتح باباً لإثباتها، حيث إنه لا ينفي إلا شيئاً مثبتاً، وإلا لمَّا نقل عنه قوله، ويبدو أن وهب بن مُنبِّه كان مشهوراً بالقَدَرية، فقد نُقل عن الجاحظ (ت 255 هـ) أنه كان ينسب وهباً وأخاه هماماً إلى الاعتزال، وليس هذا فحسب، بل كان وهب قد ألَّف كتاباً في القَدَر، واشتهر عنه، وقرأه عمرو بن دينار[3]، لذا كان وهب من مشهوري القَدَرية بحسب ذلك، وعندما عدد ابن قتيبة (ت 276هـ) القَدَرية، ذكره فيهم[4]، وذكره أبو القاسم البلخي (ت 319 هـ)، في كتابه، وأشار إلى أن أصحاب وهب مشهورون

---

(1) الطبقات الكبرى 7: 96. والمتفق والمفترق 1: 588. وتاريخ دمشق 9: 430.

(2) تهذيب التهذيب 1: 415. وينظر الطبقات الكبرى 6: 74. و تاريخ الإسلام 5: 33. وذيل ميزان الاعتدال: 55.

(3) عمرو بن دينار من الأبناء من مواليد صنعاء، مثل وهب، تُوفِّيَ سنة 126 هـ. الأعلام 5: 77.

(4) المعارف: 625.

باليمن، في مدينة تيس ونيسان، وأكثر أهلهما يذهبون مذهب وهب[1]، وكذا هو عند عبد الجبار (ت410 هـ)[2]، وابن المرتضى (ت 840 هـ)، حيث قال: وأما اليمنيون، فمنهم وهب بن مُنبِّه، وهو مشهور بذلك[3].

لا نعرف عن قَدَرية وهب، وفي الاعتزال مذاهب كثيرة، إلا أنه كان يقول وأخوه بالعدل دون الاعتزال، بحسب عبارة الجاحظ[4]، والجاحظ من علماء المعتزلة، يعني بكلماته دلالات اصطلاحية، لا شك أنها تتطوَّر من جيل لآخر في طبقات المعتزلة، مما يشكل صعوبة في معرفة دلالة العدل والاعتزال عند الجاحظ، لذا سنستعين بالقاضي عبد الجبار، وهو أيضاً من علمائهم[5]، وقد وصفوا الله تعالى بالعدل المطلق، لأن الله تعالى، يختلف عن مخلوقاته الناقصة، ومن ثم، فالله لا يختار إلا الخير، ولا يظلم أحداً، والظلم من القبيح، ونفهم منه أن الحسَن، ومنه العدل، من الله، والقبيح، ومنه الظلم، من البشر، ونفهم أيضاً أن هذا المقالة كانت في زمان الأمويين الذين أخذوا بالجبرية التي ترجع الحسن والقبيح إلى الله تعالى.

أما الاعتزال، فلربما دل على مقالة المنزلة بين المنزلتين التي ظهرت في اعتزال واصل بن عطاء (ولد سنة 80 هـ وتُوفِّي سنة 131 هـ) لحلقة الحسن البصري (ت 110 هـ)[6]، ولا تنفصل هذه المقالات عن الجو السياسي العام، وأفعال ذوي السلطان فيه، فهي محاورات سياسية، تكشف مستوى الوعي بقرارات السلطة السياسية وأعمالها، وإذا قرأنا المقالة في تاريخيتها، فسيظهر أن المقصود بصاحب الكبيرة هو الخليفة أو الوالي أو الوزير أو غيرهم مما له شأن، لا الإنسان من عوام الناس، إذ ليس لهذا شأن فيما يجري.

أخذ وهب وأخوه بالعدل دون الاعتزال، فماذا يعني ذلك الآن؟.

قد تكون الإجابة بأنه اهتمَّ بمسؤولية الإنسان عامةً عن أفعاله، دون تخصيص المسؤولية بذوي السلطان، وهذا ما يتناسب مع الوعظ الذي شاع عن وهب في صنعاء وغيرها[7]، وتجنّب التطرق إلى صاحب الكبيرة، من المسؤولين السياسيين، فكان قريباً منهم، وقد التقى في دمشق،

---

(1) ذكر المعتزلة: 85.

(2) طبقات المعتزلة لعبد الجبار: 338.

(3) طبقات المعتزلة لابن المرتضى: 135.

(4) ذكر المعتزلة: 85.

(5) طبقات المعتزلة لعبد الجبار: 141. وفي الملل والنحل 1: 47. المقالة نفسها مع ذكر لغيلان الدمشقي.

(6) الملل والنحل 1: 48. وطبقات المعتزلة: 3.

(7) مواعظ وهب كثيرة جداً، منها في مصنف ابن شيبة 7: 184. ومثلها في حِلية الأولياء 4: 32، 33. وتفسير ابن أبي حاتم 9: 2913. والمحن: 396.

الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 هـ - 96 هـ)، أو سليمان بعده (96 هـ - 99 هـ)[1]، وعيَّنه عمر بن عبد العزيز الذي تولَّى الخلافة بين (99 هـ - 101 هـ)، قاضياً على صنعاء[2]، ولعل هذا ما يكشف السبب في أن يقصَّ أن إبراهيم حين رأى ملكوت السماء والأرض، لم يسأل عن شيء إلا عن غوطة دمشق، وعن جنتي سبأ بمأرب[3]، فدمشق موطن ولاة أمره، من الخلفاء الأمويين، وجنتا سبأ موطنه.

وقد تكون الإجابة أنه اهتمَّ بالعقل، كما اهتمَّ به المعتزلة، فهم يقدمونه على الكتاب والسنَّة؛ «لأنه يميز به بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنَّة والإجماع»[4]، وقد انفرد وهب بذكر خلق العقل في كتابه، فضلاً عن تفريعه عشرات الخصال منه[5]، مما لم يذكره غيره.

وقد تكون الإجابة أنه تراجع عن قوله بالقَدَر، كما يرى علماء السلطة[6]، فوجدوا في تراجعه مجالاً واسعاً لتثبيت الوجه الآخر من شخصية وهب، وجه القول بالجبر الموالي للسلطة، فيمكن لنا أن نتعرَّف على عقيدة مؤلِّف الكتاب، وموقفه من ولي أمر زمانه، من خلال ذكره جملة وهب: «من أضاف إلى نفسه شيئاً من المشيئة، فقد كفر»[7].

ويبدو أن وهب بن مُنبِّه لم يكن حازماً في أمر اعتزاله، إذ تنقل بعض الكتب حيرته أمام القَدَر[8]، ثمَّ وصل به الأمر إلى رفض التكلُّم فيه[9]، ومن ثمَّ إنكار الكتابة والقول بالقَدَر أصلاً[10]، فهل يعقل إنكار وهب أنه كتاب كتاباً في القَدَر، وهو الذي كتبه وشاع عنه، وهل يعقل إنكاره التكلُّم بالقَدَر، وهو مشهور به، وله اتباع عليه؟.

---

(1) الزهد لأحمد بن حنبل: 83. ومروج الذهب 3: 157.

(2) في العلل ومعرفة الرجال: 2: 396. وبحر العلوم 3: 361.

(3) تاريخ مدينة صنعاء: 433.

(4) طبقات المعتزلة لعبد الجبار: 139.

(5) المبتدأ: خلق العقل.

(6) وعّاظ السلاطين، كما سمّاهم علي الوردي، وهم أغلبية العلماء الموالون للسلطة السياسية الرسمية، من الوعّاظ الذين كانوا يعيشون على فضلات موائد الأغنياء والطغاة، فكانت معائشهم متوقفة على رضاء أولياء الأمر، وهم يغضون الطرف عما يقوم به هؤلاء من التعسف والنهب والترف، وقد وجد الطغاة في الواعظين خير معوان لهم على إلهاء رعاياهم وتخديرهم، فقد انشغل الناس بوعظ بعضهم بعضاً، فنسوا بذلك ما حلّ بهم على أيدي الطغاة من ظلم. وعّاظ السلاطين: 11.

(7) الطبقات الكبرى 6: 71. وتأويل مختلف الحديث: 80. والكشف والبيان 10: 144. وسِيَرَ أعلام النبلاء 4: 549. والقَدَر للفريابي: 223. والشريعة للآجري 2: 945. والمجالسة وجواهر العلم 3: 422. وغيرها.

(8) المعجم الكبير للطبراني 10: 262.

(9) المعرفة والتاريخ 2: 29. ويشير هذا الخبر إلى عزوف وهب عن القَدَر سنة 100 هـ.

(10) القَدَر للفريابي: 223. وقريب منه في سِيَر أعلام النبلاء 4: 551.

ضرب الحجَّاج

هناك خبر غريب بعض الشيء يتناسب مع حال وهب الغريبة أيضاً، يروي عن أبي الصيدا، صالح بن طريف الضبي، أنه قال: لَمَّا قدم يوسف بن عمر العراق، فأتانا خبره بخرسان، بكى أبو الصيدا، واشتدَّ بكاؤه وقال: هذا الخبيث شهدته ضرب وهب بن مُنبِّه حتى قتله»[1]، ووهب تُوفِّيَ سنة 114 هـ، فكيف قتله الحجَّاج الذي تُوفِّيَ سنة 95 هـ؟. ولكن ألا يكون ضربه بسبب قدريته، دون أن يموت؟، ويكون الموت من باب المبالغة في الخبر للتعبير عن قسوة الحجَّاج وتعسفه؟.

كان الحجَّاج والياً على اليمن، لهشام بن عبد الملك[2]، من سنة 106 هـ إلى سنة 120 هـ، وقد ضرب مجموعة من أعلام اليمن[3]، منهم عبد الرحمن بن أبي ليلى، ووهب بن مُنبِّه، ويبدو سبب ضربه عبد الرحمن بن أبي ليلى هو لإجباره عن التخلي عن تشيعه لخط الإمام علي بن أبي طالب[4]، أما سبب ضربه وهب بن مُنبِّه فلم يعرف[5]، هذا هو المشهور عن ضرب وهب، ولكن ابنه يفصح عن تشيع أبيه من خلال الأخذ بالمتعة، وهذا يعني أنه كان متشيعاً، يستحقُّ الضرب عند الحجَّاج[6].

يبدو أن هناك سببين لضرب وهب: شهرته بالاعتزال، وتشيعه لعلي بن أبي طالب، وذلك أن الأمويين، والحجَّاج وجه من وجوههم، كانوا يتعقَّبون شيعة الإمام علي بالقتل، فهم منافسوهم الأقوياء على السلطة، وبقي سبُّ الإمام علي على منابرهم طويلاً[7]، فلماً سيطر الأمويون على اليمن، كانوا يعاملون المعتزلة فيها على أنهم شيعة؛ وذلك لمحبتهم الإمام علي، فلذلك تعرَّض المعتزلة من الأبناء، ومنهم وهب بن مُنبِّه، إلى الضرب، وكان ذلك سبباً في الرجوع عن الاعتزال، قال نشوان الحِميري (573 هـ): ومن اليمن: وهب بن مُنبِّه وأصحابه، وهم أبناء فارس الذين باليمن، ثمَّ ارتدُّوا بعد ذلك عن الاعتزال، حين وليت بنو أمية اليمن، وكان بنو أمية يسمُّون

---

(1) الكنى والأسماء للدولابي 2: 677.

(2) «اليمن ولاها هشام يوسف بن عمر الثقفي، فقدمها لثلاث بقين من شهر رمضان، سنة ست ومائة، فلم يزل والياً، حتى كتب إليه، في سنة عشرين ومائة، بولايته على العراق. تاريخ خليفة بن خياط: 357.

(3) تتجلىَّ فظاعة الحجَّاج في إنجاز قوائم بأسماء من ضربهم. المحن: 469.

(4) الطبقات الكبرى 6: 168.

(5) المحن: 323. ومن المستبعد أن يضربه بسبب ولائه لعبد الله بن الزبير، فمن الطبيعي أن تكون لوهب صلة به بسبب تبعية اليمن لسيطرته، وقد يفد عليه، كما جاء في تاريخ مدينة صنعاء: 405. أن وهب بن مُنبِّه كان إذا قدم مكة على ابن الزبير، أجلسه معه على سريره ... فهو سيد قومه.

(6) تاريخ مدينة صنعاء: 449. وهناك أخبار تدل على اتصال وهب ببعض أصحاب علي بن أبي طالب، بعد المائة للهجرة. تاريخ مدينة صنعاء: 449، 466. وفتح الباب في الكنى والألقاب: 301.

(7) الأعلام 5: 50.

المعتزلة: شيعة، لمحبتهم علياً، فضربوا من الأبناء لهذا السبب اثنتين وسبعين رقبة، فارتدوا عن ذلك[1].

ونقل البخاري عن إبراهيم بن عمر بن كيسان الصنعاني أنه كان من أحسن الناس صلاةً، وأن في رأيه شيئاً[2]، ولم أجد توضيحاً لذلك الشيء الذي ألمح إليه البخاري عند من جاء بعده، إلا ما ترجح عندي من أنه يقصد التشيع للإمام علي، وأول من جاء به إلى صنعاء، رجل من أهل الكوفة، كان إبراهيم بن عمر بن كيسان، كان وهب يلتقي به[3].

ولتحديد تاريخ الرجوع عن القَدَرية، يمكن أن يكون مع نهاية القرن الأول للهجرة[4]، مع تولي محمد بن يوسف الثقفي اليمن، بعد أخيه الحجَّاج، وظل والياً عليها حتى وفاة عبد الملك بن مروان (96 هـ)[5]، وكان مقرباً منه، ويدخل عليه[6].

شيخ الجنّ

لم يخرج وهب عن إضافة صفة التقديس على صورته، فهي مثل صورة الثعلبي، مؤلف «قصص الأنبياء»، رأى أحدُهم النبيَّ في منامه، يُسمِّي الثعلبي بالرجل الصالح[7]، ووهب تنبأ له النبي بأن الله يهب له الحكمة[8]، فتشمل الحكمة الإسرائيليات التي نقلها من كتب اليهود والنصارى، ولا سيما أن النبي قد أمر بالتحديث عن بني إسرائيل، فقال: حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج[9].

هناك أخبار ترسِّخ التقديس في صورة وهب، مثل استمراره لمدة أربعين سنة لا يسبُّ شيئاً فيه روح، كناية عن عدم أذاه أي إنسان، وبقي عشرين سنة لا يتوضَّأ بين صلاة العشاء، وصلاة الصبح[10]، كناية عن قيامه الليل بالصلاة، ويعني عدم السبِّ ترفعه عن صغائر الأمور، وهذا يتأتى لآخرين غيره، وبقاؤه بلا وضوء طوال الليل يتأتى أيضاً لآخرين من العباد، ولكن أن يصلِّي الليل، وأمامه ضياء، كأنه بياض الشمس، فهذا ما ينفرد به وهب، وانفرد كذلك بحديثه

(1) الحور العين: 212.
(2) التاريخ الكبير 1: 308.
(3) تاريخ مدينة صنعاء: 430.
(4) المعرفة والتاريخ 2:29.
(5) تاريخ خليفة بن خياط: 293.
(6) الطبقات الكبرى 6: 70.
(7) قصص الأنبياء للثعلبي (مقدمة المحقق): 5.
(8) الطبقات الكبرى 6: 71.
(9) مسند أحمد 16: 125.
(10) الطبقات الكبرى 6: 71. وسِيَر أعلام النبلاء 4: 547.

مع الجن[1].

وهو ظاهر في وضعه من قبل محدِّث، يعلي من قيمة العلم الذي يحمله المحدِّثون، فيحتاج إليه الجن، كما الإنس، لكنه يفتح على تخصيص وهب بمنزلة خارقة لمنازل العلماء أمثاله، مثل منزلة النبي محمد ، حين خاطب الجن، ودعاهم إلى الإسلام، وما دام في الجن رواة، فلنا أن نتخيل شيخاً جنياً، يروي عن شيخه وهب ما سمعه عنه لتلاميذه من الجن، فهل سيروي لهم «الإسرائيليات وصحائف أهل الكتاب»[2]، وعندما تُوفيّ وهب، ازدحم الناس عليها، فقد كانت حدثاً جليلاً[3]، وفي أخباره أنه كان يرى الرؤيا فتقع[4]، فهو من أولياء الصوفية، كما عده أبو نعيم[5].

مع ابن عبَّاس

هناك أخبار مروية عن وهب، تبيِّن تحيُّر ابن عبَّاس (ت 68 هـ) في قضية القَدَر، وتحذيره من الخوض فيها[6]، ومنها بتفصيل سردي أكثر، لقاء وهب بابن عبَّاس، مع خادمه عكرمة، وذهابهم إلى قوم (مجهولين)، يخوضون في القَدَر، فكره أن يجلس إليهم، وخطب فيهم، مؤنباً لهم ومحذراً، بقوله: «يا معشر المتكلِّمين، فيما لا يعنيهم ... »، ويختمه وهب بانصراف ابن عبَّاس عنهم، ثمَّ تلقيه خبراً عن تفرقهم[7]، فماذا استهدف وهب بروايته هذا الخبر، وكان على قوله بالقَدَر؟.

خبر آخر، أورده الفسوي أيضاً، ووضعه عقب الخبر السالف في كتابه[8]، يستخدم ابن عبَّاس فيه وهباً للردِّ على من يختصم في القَدَر، قال له ابن عبَّاس: أخبرهم بما كلَّم به الفتى أيُّوب[9]، وهو يقصد إلى طرف من حديث أحد أصحاب أيُّوب، في قصة أيُّوب، في المبتدأ[10]،

(1) آكام المرجان في أحكام الجان: 129.

(2) سِيرَ أعلام النبلاء 4: 545.

(3) العلل ومعرفة الرجال 1: 422.

(4) سِيرَ أعلام النبلاء 4: 548.

(5) حِلية الأولياء 4: 23.

(6) المعجم الكبير للطبراني 10: 262.

(7) المعرفة والتاريخ 1: 252.

(8) نفسه 1: 525، 526.

(9) والحديث نفسه بأساليب قريبة في أخبار مكة للفاكهي 2: 122. والعظمة 1: 348. والمتفق والمفترق 1: 303.

(10) المبتدأ: قصة أيُّوب، أصحاب أيُّوب.

وقد رواها الطبري[1]، والثعلبي[2]، فيما بعد. فهل كان وهب يروي حديث الفتى قبل الرجوع عن الاعتزال، أو بعده؟.

ليس غرضنا التوصل إلى إجابة حاسمة، بل الكشف عن لقاء وهب بن مُنَبِّه بابن عبَّاس، وابن عبَّاس يتلقى من الإسرائيليات[3]، ربما كانت لقاءات متعددة، كلَّما كان موسم الحج، وربما كانت صحبة طويلة، فقد صحبه ثلاث عشرة سنة، وكان يأذن له بالوعظ مما قرأ في الكتب القديمة[4]، والعلاقة بينهما حميمة إلى حدٍّ أن يتوكَّأ ابن عبَّاس على وهب فيتحدَّثان، وفي المبتدأ مواضع كثيرة روى فيها وهب عن ابن عبَّاس[5]. وهذا طبيعي، إذا أخذنا فارق السن بينهما، وقد يروي وهب لابن عبَّاس، وقد يكون ابن عبَّاس راوياً عن وهب، قال وهب: «سألني ابن عبَّاس عن قصة بخت نصر، فقصصتها عليه[6]، وقد انعكس ذلك في الرواية عنهما، فكانت هناك روايات تبدل بأحدهما الآخر[7].

لغات وهب

على فرضية معرفة وهب أكثر من لغة، نتذكر أصوله الفارسية، ومن الطبيعي أن تستمر لغة الأجداد داخل العائلة، وقد استخدمها وهب في رحلاته، حينما كان يتفقد أمر هراة[8].

وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (86 هـ – 96 هـ)، أو في خلافة سليمان بعده (96 هـ – 99 هـ) قرأ وهب لوحاً من حجارة، في حائط مسجد دمشق، فيه كتابة يونانية[9]، وقد كانت

---

(1) جامع البيان 18: 499.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 141.

(3) ذيل لسان الميزان: 185.

(4) تاريخ مدينة صنعاء: 412.

(5) المبتدأ: الأرض والسماء، الريح. والملائكة والجن وإبليس: جبريل. وآدم وحواء: الركن والمقام.

(6) تاريخ دمشق 71: 357. والقصة في المبتدأ: دانيال.

(7) من ذلك حديث «السلسلة»، تسبه الكسائي في قصص الأنبياء: 559. وهو له في البدء والتاريخ 3: 102. وجاء في البداية والنهاية 2: 308. عن وهب. أما في قصص الأنبياء للثعلبي: 245. فالنسبة إلى الضحاك، عن ابن عبَّاس، ومثله قصة جرجيس، في تاريخ الرسل والملوك 2: 24 هي لوهب، وفي النبوة: 259. هي لابن عبَّاس. وقصة الحية وإبليس لابن عبَّاس في بحر العلوم 1: 44، وهي لوهب في تاريخ الخميس 1: 50. وغيرها.

(8) عن ابن المقفع، لغات الفارسية: الفهلوية والدرية والفارسية والخوزية والسريانية، فأما الفهلوية فاسم يقع على أصفهان والري وهمدان وماه نهاوند وأذربيجان، وأما الدرية، فلغة مدن المدائن، وبها كان يتكلَّم من بباب الملك، وهي منسوبة إلى حاضرة الباب، والغالب عليها من لغة أهل خراسان والمشرق، لغة أهل بلخ، وأما الفارسية، فتكلَّم بها الموابذة والعلماء وأشباههم، وهي لغة أهل فارس، وأما الخوزية، فبها كان يتكلَّم الملوك والأشراف في الخلوة، ومواضع اللعب واللذة، ومع الحاشية، وأما السريانية، فكان يتكلَّم بها أهل السواد. الفهرست: 25. والمعروف أن السريانية لغة مستقلة عن الفارسية، فلعله أراد لغات المناطق الخاضعة للفرس.

(9) الزهد لأحمد بن حنبل: 83. ومروج الذهب 3: 157.

الترجمة السبعينية للعهد القديم، من العبرية القديمة إلى اليونانية[1]، ومن كتب يونانية، أخذ وهب حديثه عن آدم، وأنه يتكون من أربعة أشياء: التراب والماء والهواء والنار[2]. وكانت مزامير داود ضمن العهد القديم بلغته اليونانية، فترجم وهب منه كتاب «زبور داود»[3].

وفي اللوح الذي قرأه وهب، رواية أخرى، تجعل الكتابة كتابة عبرانية، فإذا تجاوزنا مسألة خلط بعض الرواة المسلمين بين اللغات الأعجمية، لعدم معرفتهم بها، فربما كان وهب يجيد العبرية، تعلمها من نشأته ومعيشته في اليمن، حيث يتواجد كثير من اليهود، فكان من ذلك نقله قول اليهود بالعبرية[4].

وكان وهب على معرفة دقيقة باللغتين العبرية والسريانية[5]، وفي كتاب التيجان، يشير إلى أصل الكلمة العبري، ثمَّ الكلمة باللسان السرياني، كما في «شيث اسم عبراني، وتفسيره باللسان العربي خلف، وشايث باللسان السرياني»[6]، مما يدل على معرفته باللغة العبرية والسريانية أيضاً.

في ضوء فرضيتنا هذه يمكن أن نفهم دلالات أقوال من ترجم لوهب، مثل ابن سعد، أنه قرأ اثنين وتسعين كتاباً كلها نزلت من السماء[7]، وياقوت، حيث قال: «كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات»[8]. والذهبي، إذ قال: «وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات، ومن صحائف أهل الكتاب»[9].

(1) قام بها اثنان وسبعون عالماً من العلماء اليهود، في مدينة الإسكندرية، أيام الملك بطليموس الثاني فيلادلفوس سنة (285 – 247) قبل الميلاد. دائرة المعارف الكتابية 2: 348. ومن هنا جاءت التسمية على ما يبدو.

(2) ذهب جواد علي إلى أن في أحاديث وهب ما يرجع إلى أصل يوناني، وإلى الفلسفة اليونانية. أبحاث في التاريخ الإسلامي 2: 55.

(3) فهرسة ابن خير: 367.

(4) المبتدأ: في التيه.

(5) من ذلك أنه كان على معرفة بعدد حروف كل منها. الملوك المتوَّجة من حمير: 43.

(6) نفسه: 27. ترجم وهب معاني أغلب الأسماء في كتابه، باللسانين العربي والسرياني.

(7) الطبقات الكبرى 6: 71.

(8) معجم الأدباء 6: 2802.

(9) سِيرَ أعلام النبلاء 4: 545.

موارد وهب

ثلاثة أخبار

في ترجمة ابن سعد لوهب، خبران، مرويان عن وهب، الأول: «لقد قرأت اثنين وتسعين كتابًا كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل، وجدت في كلها: إن من أضاف إلى نفسه شيئًا من المشيئة فقد كفر. والخبر الأول مروي في سياق التحذير من القول بالقَدَر، من فكر المعتزلة، وهو يختزل ما جاء في اثنين وتسعين كتاباً مقدساً، نزلت من الله، في القول بالجبر، إذ يستحوذ على التراث الديني القديم، ويعيد صياغته بما يتوافق مع فكر السلطة السياسية الذي سيطر على حقب التاريخ الإسلامي كلها، ولو رجعنا إلى راوي الخبر عن وهب، وهو إسماعيل بن عبد الكريم (ت 210 هـ)، لوجدناه يشترك مع ابن سعد (ت 230 هـ) في بثّ ذلك الفكر، بطريق غير مباشر.

الثاني: «لقد قرأت ثلاثين كتابًا نزل على ثلاثين نبيا»، وهو مروي لبيان سعة اطلاع وهب، فهو قد اطّلع على ثلاثين من كتب الأنبياء، أي المنسوبة لهم المعروفة بأسمائهم، وفي القرآن الكريم إشارة إلى هذه الكتب: { وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ } سورة البقرة: 136. ومنها { صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } سورة الأعلى: 19. { وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } سورة النساء: 163.

وفي أول كتاب الملوك المتوّجة، قال: قرأت ثلاثة وتسعين كتاباً، مما أنزل الله على الأنبياء، فوجدت فيها أن الكتب التي أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتاباً، أنزل صحيفتين على آدم بكتابين، صحيفة في الجنَّة، وصحيفة على جبل لبنان، وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ، وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى نوح صحيفتين، صحيفة قبل الطوفان، وأخرى بعد الطوفان، وعلى هود أربعاً، وعلى صالح صحيفتين، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وعلى موسى خمسين صحيفة، وهي الألواح قال الله: { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } سورة الأعلى 18 – 19. وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد الفرقان – صلى عليه وآله وسلم، وعلى جميع النبيين –[1].

وفي كتاب قديم، من خزانة كتب المأمون (ت 218 هـ) نقل ابن النديم أن جميع ما أنزل الله تعالى من الكتب مائة كتاب وأربعة كتب، من ذلك مائة صحيفة أنزلها الله تعالى فيما بين آدم وموسى، فأول كتاب منها أنزله صحف آدم، وهي إحدى وعشرون صحيفة، والكتاب الثاني الذي أنزله الله على شيث، وهو تسع وعشرون صحيفة، والكتاب الثالث الذي أنزله الله

(1) الملوك المتوَّجة من حمير: 10.

على أخنوخ، وهو إدريس، وهو ثلاثون صحيفة، والكتاب الرابع أنزله على إبراهيم وهو عشر صحائف والكتاب الخامس على موسى، وهو عشر صحائف، فذلك خمسة كتب، مائة صحيفة ثمَّ أنزل تبارك وتعالى التوراة، على موسى بعد الصحف بزمان، في عشرة ألواح[1]. وبالمقارنة بين الخبر في التيجان، وفي المبتدأ، وفي الكتاب القديم، نتبيَّن ما يأتي:

النبي وعدد صحفه	(١) التيجان	(٢) المبتدأ	(٣) الكتاب القديم
آدم	٢	٢١ (صحف آدم)	٢١
شيث	٥٠	٥٠ (صحف أولاد آدم)	٢٩
إدريس	٣٠	٣٠ (صحف إدريس)	٣٠
نوح	٢	٢ (صحيفتا نوح)	...
هود	٤	صحيفة؟ (مبعث هود)	...
صالح	٢	...	...
إبراهيم	٢٠	٢٠ (صحف إبراهيم)	١٠
موسى	٥٠	...	١٠ + التوراة
المجموع	١٦٣		١٠٠ + التوراة

يتضح الاختلاف بين (1) و(2) في صحف آدم، على الرغم من وحدة المصدر، وفي الكتب الأخرى هي 10 صحف[2]. ولو نظرنا إلى (2) و(3)، لوجدنا تطابقاً، لكنه غير مطَّرد في صحف الأنبياء الآخرين. والتطابق بين (1) و(2) في آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم يؤكد كذلك وحدة المصدر، ويبقى الاختلاف في عاد وصالح وموسى موضع تساؤل.

وكانت قصتا عاد وثمود غير مذكورتين في التراث اليهودي، وذلك ما أشار إليه الطبري[3]. ومن ثمَّ عدم وجود مصدر كتابي، يهودي أو مسيحي، يُعوِّل عليه وهب في النقل، لذلك كان الاضطراب في ذكر عدد صحفهما، أما عدد صحف موسى (50)، فيبقى موضع تساؤل، ونحن نعرف اطلاع وهب على الكثير من تراث بني إسرائيل، ثمَّ ما الفرق بين الكتاب والصحيفة؛ فيتم الفصل بينهما[4]؟. أمامنا ثلاثة نصوص، تفصح عن آفاق ثقافة وهب، فهي تلم بالموروث الديني لمنطقة الشرق الأوسط كلها، وهذا ما نلم به في المبحث الآتي.

(1) الفهرست: 38.

(2) مثل ما في لباب التأويل 1: 143.

(3) تاريخ الرسل والملوك 1: 232.

(4) الكتاب يعني الصحف كما في تفسير مقاتل 3: 380.

قرأتُ ووجدت

كثيراً ما نقرأ عن وهب أنه كان يقرأ في كتاب، فوجد: «في التوراة»، أو «في بعض كتب الأنبياء»[1]، أو «في آخر ثلاثين سطراً من زبور داود»، أو «في كتاب شعيا»[2]، أو «في كتب الله المنزلة في ذكر الصالحين»[3]. وبغض النظر عن مضمون ما قرأ ووجد، فإن هذه النتف من الأخبار تكشف عن اطلاعه على هذه الكتب، وهي كما هو واضح، من التراث اليهودي القديم.

وقد «كان وهب بن مُنبِّه يرسل أخاه إلى الشام، يشتري له الكتب، ويجيء بها إليه، فيفسرها بالعربية، وكذلك ما نقل عن أهل الكتاب أنفسهم، دون أخذه من صحفهم»[4]. الأخذ الثاني عن أهل الكتاب أنفسهم، يشير إلى السماع عنهم، وهؤلاء منتشرون في المنطقة التي سكنها وهب، مثل اليمن، أو التي زارها مثل الحجاز، وبيت المقدس[5]، أو التي مرَّ بها في سفره من صنعاء إلى هراة في أفغانستان، وليس للرواية الشفاهية حدود، إذ هي تتنقل مع راويها أينما حلَّ، أما عن الأخذ الأول من الكتب، فيبدو أن مدن الشام، كانت مخزناً للتراث اليهودي والمسيحي، يصدِّر معارفه على هيئة كتب إلى من يريد، وكان عمرو بن العاص (ت 65 هـ) مثل وهب، يحدث عن كتب الشام، «مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل»[6].

ووهب معروف بالأخذ من تراث أهل الكتاب[7]، فكان جمع «المبتدأ» فرصة للوقوف على الموارد التي نقل منها، وقد نقل عن 40 كتاباً، عدا ما نقله عن قصص اليهود، وأساطير اليهود، والأساطير للشوك، وهذه الكتب تذكر كثيراً من موارد وهب الأصلية، يصعب الآن إحصاؤها بدقة.

وقد أحصيت اقتباساته منها، فكانت (235) اقتباساً، والاقتباس يعني أخذ المضمون (الفكرة) دون الأسلوب، وكان النقل عن التراث اليهودي 91٪، والنقل عن التراث المسيحي

---

(1) الزهد لأحمد بن حنبل: 71، 83.

(2) الزهد لابن أبي الدنيا: 23، 234.

(3) المحن: 57.

(4) الجامع لأخلاق الراوي: 2: 114. وقال: طلبت صحف إبراهيم عشرين سنة، فوجدتها في أرض الروم. تاريخ مدينة صنعاء: 434. فربما كانت من مشتريات أخيه.

(5) عن وهب بن مُنبِّه، قال: خرجت من منزلي، وأنا أريد بيت المقدس. الأولياء: 26.

(6) البداية والنهاية 1: 239. والزاملة البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع. لسان العرب: زمل، أي أنه حصل على كتب كثيرة، حمل بعيرين، من كتب بني إسرائيل، ووضع ابن الأثير يده على مرويات عبد الله بن عمرو من الزاملتين. ينظر البداية والنهاية 3: 477. و12: 207. و19: 240، 260.

(7) . «كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات». معجم الأدباء 6: 2802. كانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء». وفيات الأعيان 6: 35. «إنما غزارة علمه في الإسرائيليات، ومن صحائف أهل الكتاب». سِيَر أعلام النبلاء 4: 545

٪8، وفي التراث اليهودي كان النقل من التوراة ٪49، ومن خارج التوراة ٪51.

ويعني النقل من خارج التوراة، من التلمود، ومن كتب المدراشيم (الدراسات التفسيرية لأسفار موسى الخمسة)، وكتب الترجوم (ترجمات التوراة من العبرية القديمة)، وغيرها، وقد كان النقل من مدراش بريشيت رابا بنسبة ٪14، في حين كان بنسبة ٪37 من غيره، وفي التراث المسيحي كان النقل من الأناجيل ٪3، ومن خارجها ٪10.

من التراث اليهودي

ترجع كثرة اقتباسات وهب من التراث اليهودي إلى جملة عوامل، منها انتشار الثقافة اليهودية منذ زمان بعيد، في المنطقة (الشرق الأوسط)، فحيثما وجدت معابد لليهود، أو كنائس للمسيحيين، وجدت الثقافة اليهودية، وقد استغلَّ نفر من أهل الكتاب حاجة المسلمين هذه إلى الوقوف على «البدء»، أي: مبدأ الخلق والتكوين، وقصص الرسل والأنبياء، وكيفية توزُّع البشر، فأخذوا يفتعلون ويضعون على التوراة، والكتب اليهودية المقدسة، ما يبيعونه لهم أو يتقربون به إليهم، ادعاءً للعلم والفهم. قال الطبري: «كان ناس من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب، ويحدِّثونهم أنه من عند الله؛ ليأخذوا به ثمناً قليلاً»[1].

وكان المسيحيون يقدِّسون العهد القديم، على اختلافٍ بين طوائفهم، وقد ظهر السيد المسيح في الوسط اليهودي، ووصل التراث اليهودي من خلالهم، وهم الذين قسموا الكتاب المقدس إلى العهد القديم (كتب اليهود)، والعهد الجديد (الأناجيل وغيرها)، وهي بتعبير يونس القَس، أيام ابن النديم: الصورة القديمة، والصورة الحديثة[2].

ومنها علاقة المسلمين، بعد ظهور الدين الجديد، باليهود، فقد كان اليهود (بنو قريظة، وبنو النضير) قبل الإسلام، ملوكاً على الأوس والخزرج في المدينة، نصَّبهم مرزبان البادية الفارسي، وكانت الأنصار تؤدي خراجها إلى اليهود[3]، وكانوا أهل كتاب سماوي، فهم يمتلكون السيادة التاريخية والدينية، وكانت قريش، وكثير من القبائل العربية أمية، لا تمتلك ما يمتلكه اليهود[4].

---

(1) جامع البيان 2: 166. والمفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 2: 62.

(2) الفهرست: 39. و للتفصيل في انتشار اليهودية، ينظر المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 12: 78. اليهودية بين العرب، و12: 119. اليهود والإسلام، وينظر في انتشار المسيحية 12: 166، 171، 177، 183.

(3) المسالك والممالك لابن خرداذبه: 128. ومعجم البلدان 5: 83.

(4) ديوان المبتدأ والخبر 1: 555.

ومنها ورود كثير من تراث بني إسرائيل في القرآن الكريم، بأكثر من تراث المسيحيين[1]، يهمنا منها ما يتعلق ببدء الخلق، وقصص الأنبياء، فكانت هناك حاجة إلى تفصيل الإشارات القرآنية الموجزة إليها، ومنها انتشار اليهودية في اليمن، موطن وهب، وقد كانت قصة أصحاب الأخدود في اليمن، حيث أحرق الملك اليهودي مجموعة من المسيحيين[2].

وكانت التوراة موجودة، في زمن ظهور القرآن الكريم، وكثرةُ ذكرها فيه، تتَّخذ جملة محاور، منها تصديق القرآن لها، بمعنى أن ما في القرآن هو في التوراة[3]، والتشريعات المشتركة[4]، وغير ذلك، مما يدلُّ على تداول التوراة، وقراءتها، ومعرفة محتوياتها، بحيث يمكن الرجوع إليها بيسر وسهولة، فمن تحصيل الحاصل أن يقتبس منها وهب ما يريد، وقد نقل فعلاً من أسفار متعددة.

ونقل وهب من غير التوراة أكثر مما اقتبسه منها، وهذا يعني توافر الكتب بين يديه، من ذلك التلمود، وهو أحد الكتب القليلة التي لا يعرفها إلا القليلون جداً[5]، والراجح أنه اطلع عليه، وأخذ منه، وهو شريعة موسى الشفهية (المشنا)، في مقابل الشريعة المكتوبة في أسفار موسى الخمسة، الأولى من التوراة، وفيه (الجمارة) وهي مجموعة كتابات المعلمين الذين قاموا بتعليم التلمود بين (200 – 500) بعد الميلاد[6].

وينقسم التلمود من حيث موضوعاته، إلى قسمين: (الهالاخا)، وهي النظام (القانون) الذي عاش عليه اليهود في الماضي، ويجب أن يعيشوا عليه في المستقبل، و(الهاجاداه) وهي الأدب الذي أنشأه علماء اليهود بغية الوعظ والتهذيب[7]. يهمُّنا القسم الأخير منه، وهو الفقرات والمقاطع

(1) ذهب صابر طعيمة إلى أن أرض العرب، في منطقة الحجاز، كانت مقسمة بين نفوذ العرب ونفوذ اليهود، ففي بدء بعثة النبي محمد كانت قوة اليهود الاقتصادية والسياسية كبيرة جداً. التاريخ اليهودي العام 1: 14. وقد عكس القرآن الكريم هذه الحالة بدرجة أكثر من الصراع الإسلامي المسيحي، والآيات التي يظهر فيها بنو إسرائيل طرفاً مناوئاً كثيرة، منها في سورة البقرة: 40، 46، 83، 246، وغيرها، وأقل منها مع المسيحيين (النصارى)، ومنها في سورة المائدة: 14، 18، 51. وذلك يعود إلى أن المسيحيين لم تكن لهم مدن أو قرى خاصة بهم، «لم تكن لهم جاليات». المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 12: 196. تشكل قوة سياسية أو اقتصادية، مناوئة لقوة الدين الجديد.

(2) جامع البيان 24: 338.

(3) عن كعب ووهب أن فاتحة التوراة هي فاتحة سورة الأنعام، وخاتمتها خاتمة سورة هود. الجامع لأحكام القرآن 6: 382. وقال الطبري: «لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد وتصديقه واتباعه، نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل ففي تصديقهم بما أنزل على محمد تصديق منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة». جامع البيان 1: 561. ويلاحظ التأكيد على نبوة محمد فحسب، دون ما في التوراة مما جاء في القرآن، من عقائد وتشريعات وقصص.

(4) في تحريم بعض الأطعمة أو حلِّها. جامع البيان 5: 579.

(5) دائرة المعارف الكتابية 2: 395.

(6) نفسه 2: 396.

(7) التلمود البابلي 1: 34.

التي تعالج الجوانب الأخلاقية بأسلوب وعظي قصصي، حيث تتّسم هذه القصص بمبالغاتها الأسطورية المؤثرة في الوجدان الشعبي[1]. وقد نقل وهب منه كثيراً، لكننا أخرجناه من الإحصاء لوجود ما نقل في الموارد الأخرى.

ومن كتب المدراشيم، سننظر إلى مدراش بريشيت رابا، (مدراش التكوين الكبير)، وقد حاز على نسبة كبيرة منها، وهو من كتب المدراش القديمة[2]، يبدو أنه كان بين يدي وهب، فنقل منه كثيراً، ونقل منه ابن عبَّاس كذلك عملية فتق السماوات عن الأرض[3]، وشجرة التين التي سترت عري آدم[4]، وتعلُّم قابيل دفن أخيه[5]، وغير ذلك.

ويبدو أن هذا الكتاب كان عند كثيرين، غير ابن عبَّاس، مثل ابن مسعود، وناس من أصحاب رسول الله ، غير محددين إلا بأنهم جمعٌ، وذلك في نقلهم قصة الحيَّة[6]، ومجاهد في تحديد المسافة بين السماء والأرض[7]، ومقاتل في أوراق التين[8]، ومن خلال تراجم هؤلاء يظهر أن مدراش بريشيت رابا كان مع ابن عبَّاس في الكوفة، والمدينة، والطائف، ومع ابن مسعود في الكوفة والمدينة، ومع مجاهد الذي كان يسأل أهل الكتاب، في الكوفة وحضرموت، وبابل، ومع مقاتل في البصرة، وبغداد[9].

(1) موسوعة اليهود واليهودية 5: 217. وتقابل الهاجاده قصص الأنبياء في الثقافة الإسلامية، من حيث المضمون، ومن حيث ولع العوام بها.

(2) كلمة مدراش في العبرية، مشتقة من درش التي تعني درس، وهناك أربع وعشرون مجموعة مدراشية، تقسم بحسب المراحل التاريخية، وللمدراش أنواع، يعنينا منها المدراش الأجادي الذي يشرح أسفار التوراة بأسلوب قصصي، غايته الموعظة والعبرة. موسوعة اليهود واليهودية 6: 143.

(3) جامع البيان 18: 431. وقصص أهل الكتاب: 132.

(4) جامع البيان 12: 354. وقصص اليهود: 101، 344.

(5) جامع البيان 10: 225. قصص اليهود: 348.

(6) جامع البيان 1: 526. وقصص اليهود: 98، و343.

(7) جامع البيان 20: 167. وقصص اليهود: 56، 332، الحاشية: 31.

(8) تفسير مقاتل 1: 386. قصص اليهود: 101، 344.

(9) الأعلام 4: 95. و4: 137. و5: 278. و7: 281. ذهب أحمد أمين في فجر الإسلام: 162. إلى أن أكثر من ذكرنا من منابع القصص كتميم الداري، ووهب بن مُنبِّه، وكعب الأحبار، من أهل الكتاب من اليمن، وسأل عن السر في ذلك، وأجاب بأن اليمن كانوا أكثر حضارة، وقد استتبع هذا وجود مدارس يهودية أرقى مما كان ليهود الحجاز. وقد سبق أن تحققنا من انتساب وهب إلى المجوس، هذا أولاً، وثانياً لم تكن اليمن وحدها في الرواية عن أهل الكتاب، فقد وجدت الرواية تلك في جميع المناطق التي تواجد فيها يهود أو مسيحيون. وإن اشتراك غير وهب في النقل من مدراش بريشيت رابا يدل على توافر مصادر اليهود غير التوراة، وانتشارها وتداولها، مما يغري بتتبعها، ببحث مفرد، لرصد الناقلين عنها من المفسرين والمؤرخين القدامى، وذلك لتكوين قاعدة بيانات، تختص بمرحلة التأسيس الإسلامية.

ونقل وهب من مدراش تنحوما، قصة خوف يعقوب على أبنائه من العين[1]، وهو من الكتب القديمة التي كتبت بعد القرن الثالث للميلاد، وفي المدراش تفسير كامل شامل لإصحاحات أسفار التوراة، بحسب ترتيبها فيها، وهو من الكتب «التي تسرَّبت عن طريقها الروايات الإسرائيلية إلى تفسير ابن جرير الطبري»[2].

وأخذ وهب من كتب الأبوكريفا، وهي أسفار العهد القديم غير القانونية، أو غير المعترف بها، وهي مجموعة كتابات يهودية، أدبية شاملة، تستوحي الأسفار القانونية، وهي كثيرة جداً، كتبت باللغة العبرية أو آرامية، بين القرن الثالث قبل الميلاد، والقرن الثالث بعده، ثمَّ ترجمت إلى لغات متعددة[3].

منها سفر إسدارس الثاني، وفيه أن الله أملى على عزرا (كاتب التوراة) أربعة وتسعين سفراً، وأمره أن ينشر أربعة وعشرين منها، هي أسفار العهد القديم العبري، وأن يخفي الأسفار السبعين الباقية، فلا يطَّلع عليها سوى الحكماء من اليهود[4]، وكان وهب يقول: لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً، كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل[5]. إن الاختلاف في عدد الأرقام لا يلغي استمداد وهب مقولته من هذا السفر، وهو مكتوب في الشرق، في العقد الأخير من القرن الأول الميلادي، وله ترجمة عربية[6].

ومنها الحياة اليونانية لآدم وحواء، تفاصيل كثيرة من قصة الحيَّة وإبليس مع آدم وحواء، والعنوان الأصلي للكتاب هو «قصة وحياة آدم وحواء التي كشفها الله لعبده موسى والتي علمها رئيس جنده ميخائيل»، ويبدو أنه كتب باليونانية، بالاستعانة بمصادر عبرية أو آرامية، وهو شرح متمم لسفر التكوين، في قصة آدم، من ولادة قابيل وهابيل إلى موت آدم[7].

والكتاب من الكتب التي عثر عليها حديثاً سنة 1947، وكان في لفائف تعود إلى الأسينيين، وهم فرقة يهودية قديمة منعزلة، لم تذكر في العهد الجديد، كانوا يمارسون شعائرهم الخاصة شمال غرب البحر الميت، ما بين القرنين: الثاني قبل الميلاد، والأول للميلاد[8]، والواضح أن وهباً لم

---

(1) الإسرائيليات في تفسير الطبري: 117.

(2) الإسرائيليات في تفسير الطبري: 94. يفيد التعميم على تفسير الطبري في نقل رواة الطبري من هذا الكتاب، ويبقى تمحيص رواية كلِّ راوٍ عن مدراش تنحوما، وهو ما قمنا به مع وهب.

(3) أبوكريفا العهد القديم 1: 36.

(4) موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية: 49.

(5) الطبقات الكبرى 6: 71.

(6) دائرة المعارف الكتابية 1: 226.

(7) التوراة، كتابات ما بين العهدين 3: 23.

(8) موسوعة اليهود واليهودية 5: 325.

يقرأه، فكيف نقل منه؟، أكانت قصص الكتاب متداولة في المنطقة شفاهياً، فسمعها وهب من الأفواه؟، والأحفاد يرثون قصص الآباء والأجداد؟. أم كانت هناك مصادر أخرى، روت تلك القصص، نجهلها الآن؟.

يقود الاحتمال الثاني إلى مصادر وهب الأخرى، ومنها قصص اليهود، أو أساطير اليهود[1]، وقد قدَّم جزنبيرج لكتابه بأنه أول محاولة لتجميع كلِّ الأساطير اليهودية من المصادر الأصلية، وهي أنواع، منها كتب المدراش، مثل مدراش بريشيت رابا، وكتب الربِّيين، ومنها مدراش تنحوما، وكتب الأبوكريفا، ومنها الحياة اليونانية لآدم وحواء، وذكر أنواعاً أخرى[2].

ويقود الاحتمال الثاني أيضاً إلى الأساطير للشوك «الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة»، لعلي الشوك، وهو تنويعات على كتاب «الأساطير العبرية» لروبرت غريفز، ورفائيل باتاي، حيث جمعا فيه كثيراً من الأساطير البابلية والمصرية والكنعانية القديمة التي أدخلها اليهود في التوراة، فضلاً عن وثائق دينية سابقة للتوراة، مفقودة الآن، مثل كتاب «حروب يهوه»، وكتاب «يشار»، أما الوثائق الدينية التي دونت بعد التوراة، فكثيرة جداً، إذ كتب يهود أوروبا وآسيا وأفريقيا كتباً غزيرة، وكانت أما تفسيراً للشريعة، أو شروحاً تاريخية وأخلاقية، وفي الحالتين، كانت تحتوي على مادة أسطورية ثرة[3].

وقد وجدت، عند تخريج نصوص كتاب وهب، تطابقاً في محتوى كثير من القصص بينهما، مما يوضح اشتراك المؤلِّفين في الاستمداد من الكتب اليهودية القديمة عينها، ومن ثمَّ أخذ وهب منها في كتابه، وإلى أن تصبح تلك الكتب سهلة التناول، نكون قد قدمنا أمثلة أو عينات، من تراث مجهول أغلبه في الثقافة الإسلامية.

من التراث المسيحي

كانت إفادة وهب من التراث المسيحي أقلَّ من التراث اليهودي، أما الأناجيل، فهي معروفة[4]، وأما غيرها، وهو ما يُسمَّى بكتب أبوكريفا العهد الجديد، فمعرفتها أقلُّ من تلك، وهي أسفار لم تحظ بموافقة الكنيسة، فأصبحت عرضة للضياع، وسُمِّيت بالأبوكريفا أي المخفية، في أثناء إقامة شعائر العبادة، وقد كتبت في القرنين الثاني والثالث للميلاد، وتضم 46

(1) قصص اليهود، لويس جنزبرج، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2002.
وأساطير اليهود، لويس جنزبرج، ترجمة حسن حمدي السماحي، دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2007.
وأساطير اليهود، لويس جينزبيرج، ترجمة إدوارد وديع عبد المسيح، دار الكلمة، القاهرة، 2017.

(2) أساطير اليهود، عبد المسيح: 12.

(3) الأساطير للشوك: 5، 6، 7.

(4) في تاريخ مدينة صنعاء: 422. «كان جبريل، رجل نصراني، وكان وهب يتعلَّم منه الإنجيل». ولكن سعة اطلاع وهب تفوق معرفة رجل واحد، مما يجعلنا نميل إلى قراءة وهب كتباً كثيرة.

كتاباً، وتقسم إلى أربعة أقسام، هي الأناجيل، وأعمال الرسل، وكتب الرؤيا، والرسائل[1].

ومنها «إنجيل البداية ليعقوب،» وهو إنجيل مهم، ذلك أن أناجيل أخرى استمدت معلومات ولادة مريم منه، فأصبح كتاباً شعبياً، وكان الدافع إلى تأليفه تعظيم مريم العذراء برواية قصة ميلادها وطفولتها وزواجها، يقع في 19 إصحاحاً، تعود مخطوطاته اليونانية إلى القرن الثالث للميلاد[2]، وقد نقل وهب منه قصة حنة زوجة عمران، وبشارة مريم بالحمل، والحوار بين يوسف النَّجَّار ومريم، وموضع ولادة عيسى.

ومن إنجيل الطفولة لتوما، وهو يختصُّ بأحداث طفولة المسيح التي تُظهر معجزته، ظهر قبل عام 386 م[3]، قصة خلق عيسى كهيئة الطير، ومن الإنجيل المنحول (المزوَّر) لمتى، قصة مريم والنخلة، وهو يحتوي على 42 فصلاً، ألَّفه أحد أبناء الغرب باللغة اللاتينية، بعد القرن الخامس للميلاد[4].

ومن قصص القديسين نقل وهب بن مُنبِّه قصة جرجيس، وهو القديس الشهيد مار جرجس، وُلد بمدينة اللد في فلسطين، في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد[5].

وخرافة النائمين السبعة في أفسس، نقل منها قصة أصحاب الكهف، والقصة من التراث المسيحي الشامي باللغة السريانية، كتبها نثراً زكريا الفصيح[6]، وكذا قصة ذي القرنين، وهي في خرافة الإسكندر السريانية المكتوبة بين سنة 629 – 630م[7].

وكانت قصص الأنبياء العرب مثل عاد وثمود، مما لم يرد في التراث اليهودي، مشهورة في البيئة العربية، حتى قال الطبري: «وأمرهم (عاد وثمود وصالح) عند العرب في الشهرة، في الجاهلية والإسلام، كشهرة إبراهيم وقومه»[8]، وهناك كتب مغمورة كانت متداولة في اليمن،

---

(1) أبوكريفا العهد الجديد 1: 10، 46.

(2) نفسه 1: 51.

(3) نفسه 1: 64.

(4) المدخل إلى العهد الجديد (تاوضروس): 39.

(5) وتفصيل قصته في «سيرة القديس الشهيد مار جرجس، قصة حياته وعذاباته». على موقع hps: //www. lighbook.og.

(6) ولد في غزة، ودرس في الإسكندرية وبيروت، تُوفيِّ سنة 536م، ويوحنا الأفسسي ولد في آمد، وعين بطريكاً لمدينة أفسس في غرب تركيا، تُوفيِّ سنة 578 م، وكتبها شعراً مار يعقوب السروجي، ولد في مدينة على ضفاف الفرات، درس في مدينة الرها، في تركيا، تُوفيِّ سنة 521م. رائحة المسيح 2: 147، 148.

(7) القرآن في محيطه التاريخي: 281.

(8) تاريخ الرسل والملوك 1: 232. وكان قرب مساكن هؤلاء عاملًا على تذكيرهم بهم. تفسير مقاتل 3: 737.

تضمنتها، مع غيرها من أخبار العرب القدماء، مما رواه دغفل (ت 65 هـ)[1] في اليمن، موطن وهب، فأخذ وهب منها[2].

قال جواد علي: أود أن ألفت أنظار العلماء إلى أهمية روايات «وهب بن مُنبِّه» وأخباره، بالنسبة إلى من يريد الوقوف على الدراسات التوراتية والتلمودية في ذلك العهد؛ ففيها فقرات كثيرة زعم «وهب»، أو آخرون، قالوا ذلك على لسانه، أنها قراءات أي ترجمات أخذت من التوراة، ومن كتب الله الأخرى. وإذا ثبت بعد مقابلتها بنصوص التوراة والتلمود والمشنا وغيرها من كتب اليهود، أنها من تلك الكتب حقًا، وأنها ترجمات صحيحة، فنكون قد حصلنا بذلك على نماذج قديمة، لمواضع من تلك الكتب، قد تفيد في إرشادنا إلى ترجمات أقدم منها، كما تعيننا في الوقوف على النواحي الثقافية للعرب في ذلك العهد[3]. ولعل ما قدَّمتُ في هذا العمل خطوة على الطريق.

بعد هذا نقرأ لوهب: يقولون: عبد الله بن سلام كان أعلم أهل زمانه، وإن كعباً أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما، أهو أعلم أم هما ؟[4]. وهو لا يريد التلمذة عليهما، لأنهما ماتا قبل بلوغه سن التلمذة، إنما فيه موازنة بين علم حبرين من علماء اليهود، وبين علمه، وعبد الله بن سلام (ت 43 هـ)، وهو من علماء اليهود في المدينة، وكعب (ت 34 هـ) العلامة الحِبر، في اليمن، كان خبيراً بكتب اليهود[5]، فإذا اشترك الثلاثة في علم اليهود، فإن ابن سلام مطلع على كتب اليهود في المدينة، وكعب على كتب اليهود في اليمن، إما هو فقد اطَّلع على كتب يهود المدينتين، فضلاً عن إلمامه بكتب المسيحيين، وقد رأينا اطلاعه الواسع عليها، وأخذه منها، مما لم يتسنَّ لأحدهما.

(1) دغفل بن حنظلة بن زيد نسابة العرب، عاش في بلاط معاوية، وعلم ابنه يزيد، تُوفيَّ سنة 65 هـ. الأعلام 2: 340.

(2) تناقل تلاميذ دغفل في اليمن معلوماته جيلين على الأقل، أو ثلاثة، وكان منهم في أواخر القرن الثاني للهجرة عمرو بن مالك الشحري من قبيلة مهرة، استدعاه الخليفة العباسي الرشيد؛ ليسمع منه السيرة برواية دغفل. وهي مخطوطة الآن في مكتبة الأمبروزيانا، في إيطاليا تحت رقم (3G) بعنوان «السيرة برواية الشحري»، يحتوي الكتاب على أمر عاد وثمود وعدنان وقحطان، وغيرها من قصص العرب القديمة. التاريخ العربي والمؤرخون 1: 136.

(3) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1: 87.

(4) سِيرَ أعلام النبلاء 4: 546.

(5) نفسه 2: 414، و3: 490.

نشاطه المعرفي

تخصُّص وهب

كان وهب وكتابه في مرحلة التأسيس الإسلامية، قبل أن تستقرَّ التخصُّصات في القرون اللاحقة، وأول ما يظهر أنه لم يكن محدِّثاً، فيروي عن الرسول، أو عن الصحابة بسند معروف بين علماء الحديث، وعندما روى: سمعت رجلاً، سأل الرسول[1]، فإن قوله لا يُعدُّ حديثاً، لوجود مجهول في سنده، ولوجود مجهولين أيضاً بين وهب وذلك الرجل، فإذا روي الحديث، فلا يعتبر في الأحكام الشرعية شيئاً، وإنما يؤخذ به في الوعظ والزهد، وعندما قال الذهبي: «روايته للمسند قليلة»، فإنه يعني حديثين، الأول رواه عن أبي هريرة، لا عن الرسول تنطبق عليه شروط التحديث، وهو أيضاً لا يمَسُّ الأحكام الشرعية بصلة[2]. والثاني في أحكام الجنائز[3]، ومما يؤكد عزوف وهب عن رواية الحديث أنه لقي خمسة عشر صحابياً، ولم يروِ عنهم شيئاً[4].

ولم يشر ابن سعد (ت 230هـ) إلى تخصُّص وهب في ترجمته، ولكنه في ترجمة عبد المنعم بن إدريس، أحد الرواة عن وهب، قال: «روى كتب وهب، من أحاديث الأنبياء والعباد، وأحاديث بني إسرائيل»[5]. فاتضح الإطار العام لتخصُّصه، وهو ما عُرِف بالإسرائيليات، أي المرويات عن اليهود والمسحيين من أخبار بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وما يتعلق بذلك.

وعندما ألَّف الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ) كتابه، وجد أحاديث تنطبق عليها شروط الصحة عند البخاري (ت 256 هـ)، ومسلم (ت 261 هـ)، لكنهما لم يضعاها في كتابيهما، فاستدرك عليهما بجمع تلك الأحاديث[6]، ومنها عشرون حديثاً لوهب في قصص الأنبياء[7]، وفي قصة إسحاق، ذكر حديث وهب في أنه الذبيح، لا إسماعيل، ثمَّ علق بقوله: «هو باب هذه العلوم»[8]، يريد الأحاديث المروية عن أهل الكتاب، ويومئ من جانب آخر، إلى منزلة وهب فيها.

---

(1) الزهد والرقائق 1: 288.

(2) صحيح البخاري 1: 34.

(3) المستدرك على الصحيحين 1: 523.

(4) تاريخ مدينة صنعاء: 419. وهي ظاهرة جديرة بالتأمل، أفكان مكتفياً بالرواية عن أهل الكتاب، أم له أحاديث لم يقبلها الآخرون، مثل ما جاء في تاريخ صنعاء: 445، 446، 447، أم هناك أسباب أخرى؟.

(5) الطبقات الكبرى 7: 257.

(6) المستدرك على الصحيحين. مقدمة المصنِّف.

(7) نفسه 2: 597، 598، 609. وما بعدها.

(8) نفسه 2: 609.

ثم جاء ياقوت الحموي (ت 626 هـ) فصنف تخصص وهب بالأخباري، صاحب القصص، ثمَّ بين موارده، وهي «النقل من الكتب القديمة المعروفة بالاسرائيليات»[1]، وكرر الذهبي (ت 748 هـ) التصنيف، فقال فيه: الأخباري القصصي ... إنما غزارة علمه في الإسرائيليات[2].

ولما كان التاريخ، في مرحلة التأسيس، أخباراً، لم يتخذ شكلاً تاريخياً، متسلسلاً بحسب السنين، كما هو تاريخ الطبري مثلاً[3]، فكان الإخباري هو المؤرخ بالمفهوم الحديث، فهل يُعد وهب مؤرخاً، وهو موصوف بالأخباري؟.

قال جواد علي: هو في هذا الباب مثل «عبيد بن شَرْيَة» من طبقة القُصَّاص، لم يصل إلى مستوى أهل الأخبار[4]، فوهب هنا لم يكن أخبارياً، بل هو أقل مرتبة منهم[5]؛ لأنه روى ما روى من قصص بني إسرائيل، ومن أساطيرهم، ولكن الأخباريين أنفسهم لم يكونوا، بحسب عبارة جواد علي: «أول من وضع وصنع وافتعل، وجاء بالقصص والأساطير، على أنها باب من أبواب التاريخ، فقد فعل فعلهم اليونان والرومان والعبرانيون[6]. فكيف ينحط عمل وهب إلى مستوى أقلَّ من مستوى الأخباري؟.

ليس من اهتمامنا الآن الدفاع عن أهمية كتاب وهب، ولكن تتبيَّن من خلال وجهة نظر المؤرخين الآخرين، أهمية عمل وهب، فقديماً كان مبتدأ الخلق وقصص الأنبياء الفن الأول من فنون المعارف[7]، وحديثاً كان كتاب المبتدأ، كما ذهب عبد العزيز الدوري، أول محاولة لكتابة تاريخ الرسالات[8]، وقال شاكر مصطفى هو أول من وضع الهيكل القصصي لتاريخ العالم على أساس سلسلة الرسل والنبوات[9]، وقد أضفت قصص الأنبياء، كما رأى طريف الخالدي، التسلسل الزمني، والنظام على المواد المتناقلة مما قبل الإسلام، وإنما كانت مقدمة للكتابة

---

(1) معجم الأدباء 6: 2802.

(2) سِيرَ أعلام النبلاء 4: 544، 545. وميزان الاعتدال 4: 352.

(3) لأن التاريخ نفسه في صدر الإسلام ما زال بدائياً، ولم يصل بعد إلى الشكل الذي بلغه مع نهاية العصر الأموي والعصر العباسي. المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1: 115.

(4) تاريخ العرب قبل الإسلام 2: 165.

(5) «من عادة القُصَّاصين ورواة الأساطير والأباطيل الإغراب في كلامهم والكذب فيه لأسباب لا مجال لذكرها هنا، وعلى رأس هذه الطائفة وهب بن مُنبِّه، صاحب كتاب الملوك المتوَّجة من حِمير». المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 7: 96.

(6) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1: 75.

(7) المعارف: 3.

(8) نشأة علم التاريخ: 24.

(9) التاريخ العربي والمؤرخون 1: 138.

التاريخية، متَّسقة مع النظرة القرآنية[1].

مارس وهب القضاء والقصَّ[2]، فقد أمره محمد بن يوسف، أخو الحجَّاج، والي صنعاء بعده، بأن يقضي ويعظ، فكان على قصص الجماعة، وبقي عليهما إلى نهاية ولاية عروة بن محمد سنة 102[3]، وقد شهده عبد الصمد بن معقل (ابن أخيه)، وقد سأله أحدهم، فقصَّ عن نفر من العباد[4]، وفي تكرار كلمة «سمعت» في الرواية عن وهب، تتبينَّ أنه كان يقصُّ كثيراً من محتويات كتابه، مثل خلق العرش، قبل السماوات والأرض[5]، ومعنى الهيكل[6]، وكون الأرض على ظهر الحوت[7]، وكان يقصُّ أيضاً في مسجد منى، في مكة[8]، وهذا يحيل إلى الكتاب نفسه، وكيفية تلقيه.

كتب وهب

هل كتب وهب كتابه؟، سؤال تبدو عليه السذاجة ظاهراً، ولكن لو استرجعنا قلة الكتب، في زمنه، في مرحلة التأسيس الإسلامي، لكان السؤال جديراً بالإجابة والبحث، ولا يسعفنا الكتاب نفسه بالإجابة عن طريق التنقيب فيه، إذ لم تصل إلينا مخطوطة منه إلى الآن، وقد تفرَّق في بطون الكتب، وقد تصورته، عند بدء الجمع، أنه مِزَق متناثرة في الكتب دون ترتيب، فلا تمَّت العناية بالكتاب من خلال روايته كاملاً، كما رويت الكتب الأخرى، ولا نُقلت نصوصه بأسلوبها، وبنسبتها إلى كاتبها، كما يقتضي ما يُتخيَّل من الأمانة عند المؤلِّفين القدامى، وقد كان ابن هشام، صاحب السيرة أميناً، حتى في حذف جزء مهم من التاريخ العالمي، عندما حذف المبتدأ من عمل ابن إسحاق: المبتدأ والمبعث والمغازي[9].

سنعزف عن السبب الآن، ونعود إلى الإجابة، وفي ترجمة عبد المنعم بن إدريس أنه روى

---

(1) فكرة التاريخ: 67، 141.

(2) تشير ظاهرة الجمع بين القضاء والقصِّ إلى علو منزلة القصِّ وخطورته في الوقت نفسه، وقد تكررت عند آخرين، مثل أبي إدريس الخولاني، والمالكي الدينوري. سِيَر أعلام النبلاء 4: 272. و15: 428.

(3) وهي أول سنة من خلافة يزيد بن عبد الملك الذي حكم بين (101 هـ - 105 هـ). تاريخ مدينة صنعاء: 414.

(4) الزهد لأحمد بن حنبل: 143.

(5) تاريخ الرسل والملوك 1: 39. والمبتدأ: أول الخلق.

(6) البداية والنهاية 1: 25. والمبتدأ: الكرسي.

(7) العظمة 4: 1411. والمبتدأ: خلق الأرض والسماء. وكذا في تفسير عبد الرزاق 2: 354. و3: 107.

(8) سيرة ابن إسحاق: 132.

(9) قمت بجمع الجزء المحذوف، وصدر بعنوان «المبتدأ في قصص الأنبياء»، عن مؤسسة الانتشار العربي سنة 2006.

كتب وهب، من أحاديث العباد، وأحاديث بني إسرائيل، وكان يقرأها[1]، فيبدو أن لوهب كتباً، وهي:

الملوك المتوَّجة

وصل إلينا من كتب وهب «الملوك المتوجة من حِمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»، وهو مطبوع ضمن «التيجان في ملوك حِمير، عن وهب بن مُنبِّه، رواية أبي محمد، عبد الملك بن هشام، عن أسد بن موسى، عن أبي إدريس [؟][2] بن سنان، عن جده لأمه وهب بن مُنبِّه»[3]، فكتاب وهب مفقود الآن، وما وصل إلينا منه هو اقتباسات ابن هشام منه، من خلال رواية عبد المنعم له[4].

ومن خلال تفحُّص الكتاب يظهر أن كتاب «الملوك المتوجة» هو لابن هشام، وقد أشير إليه كثيراً بالقول: «وله مصنف في أنساب حِمير وملوكها»[5]، ثمَّ إنه، بعد إيراد جملة من أقوال وهب، يظهر بوصفه مؤلِّفاً للكتاب: «قال الذي ألَّف هذا الكتاب: إن أمة محمد اختلفت في الجنَّة»، ثمَّ يعقب «والكلام في هذا كثير غير أنا اختصرنا تأليف هذا الكتاب عن السلف الصالح»، ثمَّ يعود إلى الرواية عن وهب[6]،واسمه مذكور في أول السند كثيراً في الكتاب: قال أبو محمد، وهذا من تحصيل الحاصل.

وعند إمعان النظر في من يروي عنه تظهر سلاسل كثيرة[7]، منها سلسلة الرواة عن وهب، وهي: «حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي [؟] إدريس بن سنان

---

(1) ويكنى أبا عبد الله، وهو ابن ابنة وهب بن مُنبِّه. وروى كتب وهب من أحاديث الأنبياء والعباد وأحاديث بني إسرائيل عن أبيه عن وهب بن مُنبِّه، وذكر أنه قد لقي معمر بن راشد باليمن وسمع منه، وكان قارئاً لكتب وهب بن مُنبِّه وحكمته، مات ببغداد في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين ومائتين، وقد قارب مائة سنة. الطبقات الكبرى 7: 257. وكان ابن سعد (ت 230هـ) مؤلف الطبقات، معاصراً لعبد المنعم.

(2) على أغلفة المطبوعات من الكتاب: عن أبي إدريس بن سنان، عن جدِّه لأمِّه. وأراه غلطاً، والصواب: أبي إلياس بن سنان، وهو إدريس بن سنان، ابن بنت وهب الذي كان يروي عن جدِّه لأمِّه. التاريخ الكبير 2: 36.

(3) أبو محمد، عبد الملك بن هشام، روى سيرة ابن إسحاق بعد أن حذف المبتدأ منها، عاش بمصر حيث تُوفِّيَ سنة (213 هـ)، وأسد هو أسد بن موسى المعروف بأسد السنة، ولد بالبصرة، وتُوفِّيَ بمصر سنة (212 هـ)، روى أحاديث منكرة. سِيَر أعلام النبلاء: 8: 464. و10: 164.

(4) المغازي الأُوَل: 33. وموجز دائرة المعارف الإسلامية 33: 10181.

(5) وفيات الأعيان 3: 177. وسِيَرَ أعلام النبلاء 10: 429.

(6) الملوك المتوَّجة من حِمير: 18 – 21. ويتضح من عبارة «قال الذي ألف ...». أنها لأحد الكتبة عن ابن هشام، ولكنها تفصل بين ما له، وما لوهب.

(7) الملوك المتوَّجة من حِمير: 75، 120، 135، 145، 273.

عن جده لأمه وهب بن مُنبِّه أنه قال:[1]، مما يرجِّح أن يكون كتاب «الملوك المتوجة من حِمير»، لابن هشام، وقد روى محتوياته عن عبيد بن شَرْيَة، وعبد الله بن عمرو، وكميل النخعي، وابن عبَّاس، وابن حزم، إضافة إلى وهب بن مُنبِّه، لذا أجد أن المكتوب ملحقاً بالعنوان، وهو «رواية أبي محمد، عبد الملك بن هشام ... عن وهب بن مُنبِّه»، يحتمل التدليس، إذ الكتاب لعبد الملك بن هشام، ونُسب إلى وهب بن مُنبِّه.

كتاب المغازي

قال فؤاد سزكين: يبدو أن عدداً من المقتبسات قد وصلت إلينا منه في كتب التفسير، وكتب المغازي، والكتب التي تناولت تاريخ العالم، والراجح أن ابن قتيبة في كتابه المعارف ص 8 28-. كان قد اقتبس من هذا الكتاب، دون أن يكون لديه إجازة بروايته، مستخدماً في ذلك صيغتي: «قال»، «ذكر»، وهناك قطعة منه، وصلت إلينا في بردية قديمة جداً، موجودة الآن في هيدلبرج، وكتبت سنة 228 هـ رواها عبد المنعم، وتضم هذه القطعة أقاصيص من تاريخ اليهود، وترجع مادتها على الأرجح، إلى إسرائيليات وهب[2].

ورجعت إلى المعارف، فوجدت ابن قتيبة ينقل عن التوراة[3]، ثمَّ يذكر رواية وهب باسمه[4]، يعقبها بصيغة «قال» ثلاث مرات[5]، ثمَّ يعود إلى ذكر اسمه[6]، وليس هذا مهمّاً بقدر النتيجة التي نبغي الوصول إليها، وهي إن الروايات عن وهب في المعارف، هي نفسها في المبتدأ[7]، وهذا يعني أن ابن قتيبة كان ينقل من المبتدأ، وليس من كتاب المغازي، ثمَّ إن مخطوط المغازي يحتوي على تاريخ العقبة الكبرى، وحديث قريش في دار الندوة، وغزوة بني خيثمة[8]، ولا يحتوي على إسرائيليات وهب[9].

---

(1) نفسه: 9.

(2) تاريخ التراث العربي لسزكين م1، ج2 ص124.

(3) العهد القديم، سفر التكوين 2: 10 - 25، و3: 1 0 24.

(4) المعارف: 14. وأما وهب بن مُنبِّه، فقد ذكر: أن الجن كانوا سكان الأرض قبل آدم.

(5) نفسه: 15، 17.

(6) نفسه: 17.

(7) المبتدأ: إبليس، الحية، توبة آدم، حمل حواء.

(8) المغازي الأُوَل: 51.

(9) في معهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو في اليابان، مخطوطة بعنوان «إسرائيليات وهب بن مُنبِّه» تقع في ورقتين، فيها رواية عن وهب بن مُنبِّه، قال: كان في بني إسرائيل عابد، فلبث سبعاً لم يطعم هو عياله شيئاً، فقالت له امرأته: لو خرجت، فطلبت لنا شيئاً. وهي في 22 سطراً، ولوهب كثير منها، من القصص القصيرة الوعظية، خارج المبتدأ.

قصص الأنبياء أو قصص الأخيار

يوهم هذا الكتاب بأنه هو المبتدأ، أو هو كتاب لوهب، وقد قال حاجي خليفة: قصص الأنبياء: ولوهب بن مُنبِّه، وهو أول من صنف فيها، «قصص البرار وقصص الأخيار»[1]، ولكن قراءته تزيل التوهم، وتكشف عن هوية الكتاب، وقد قال فيه فؤاد سزكين: هذَّبه أبو عبد الله، محمد بن سعيد الحجري الذي رواه عن ابن هشام (ت 218 هـ)[2].

أوله «قال: حدثنا أبو محمد، عبد الملك بن هشام، عن أبي إدريس الخولاني، عن جده لأمه وهب بن مُنبِّه اليماني». وينتهي بخبر إبراهيم خليل الله مع النمرود، فهو ليس الذي رواه عن ابن هشام، إذ يخلو «الملوك المتوجة» من هذه النهاية، هذا أولاً. وذكر الحجري أنه ينقل من كتاب وثيمة بن موسى (ت 289 هـ)[3]، وهذا متأخر عن زمن ابن هشام، وهذا ثانياً. وكان الحجري ينقل من كتاب المبتدأ، حيث قال: «قال صاحب الحديث: فهذا ما بلغنا من قصة إبراهيم ومولده، من طريقة كتابنا المبتدأ»، وكرر عنوان الكتاب، فقال: «ونعود إلى ما كنا فيه من طريقة كتابنا المبتدا»[4]، وقصة إبراهيم المذكورة هي في المبتدأ لوهب[5]، وليست في كتاب ابن هشام، وهذا ثالثاً. وقد وجدت تفاصيل قصص كثيرة مذكورة في كتاب الحجري، وهي في المبتدأ لوهب، وليست في كتاب ابن هشام[6]، وهذا رابعاً. فليس كتاب الحجري هو تهذيب لكتاب ابن هشام، وليس «قصص الأنبياء أو قصص الأخيار» لوهب، بل هو كتاب آخر.

عنوانات أخرى

هناك عنوانات لكتب لوهب، لا نعرف عنها إلا إشارات، وهي:

1. كتاب «القَدَر»: وهو الذي صنفه ثمَّ ندم على تصنيفه[7]، ويظهر أنه اتلف مبكراً، فلم

---

(1) كشف الظنون 2: 1328.

(2) تاريخ التراث العربي م1، ج2، ص125. والمخطوطة في مكتبة بلدية الإسكندرية (ب 1249)، تقع في 176 ورقة.، تاريخ نسخها 666 هـ. وقد نقل منه العصامي المكي (ت 1111هـ) في سمط النجوم العوالي 1: 112.

(3) قصص الأنبياء أو قصص الأخيار: الورقة 152. هو أبو رفاعة، عمارة بن وثيمة بن الفرات الفارسي الفسوي، ولد بالفسطاط، له كتاب «بدء الخلق وقصص الأنبياء»، تُوفِّي سنة 289 هـ. تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 3: 45. حققه ونشره سنة 1978 رئيف خوري، ولم اطلع عليه.

(4) نفسه: الورقة 152، ورقة 124.

(5) المبتدأ: نجم إبراهيم، مولد إبراهيم.

(6) مثل قصة إبليس والحية. الورقة 1. والمبتدأ: الحية، قول الإله للجنة: تزيني. الورقة 6. والمبتدأ: جنة عدن، تفصيل خلق الجن وأنواعهم. الورقة 27. والمبتدأ: الجن، أنواع الجن، قبضة تراب آدم. الورقة 31. والمبتدأ: خلق آدم.

(7) معجم الأدباء 6: 2802،

يذكر أحد شيئاً منه. و«تفسير القرآن»، وهو ليس كاملاً[1]، ولعل الأيام القادمة تكشف عنه، ولوهب تفسير لأغلب القصص القرآنية من خلال القصص الكتابية، وهو ما يبرز أهميته في علم التفسير.

2. «عدد الأنبياء» لابن عبَّاس، رواية وهب بن مُنبِّه[2]: ولعله ما أورده ابن قتيبة في المعارف[3].

3. «رسالة في سيرة النبي»[4]: يبدو أنها نسخة من قسم من السيرة النبوية، كما مرَّ في المغازي.

4. «حكمة وهب»: ورد ذكرها في ترجمة عبد المنعم بن إدريس أنه «كان قارئاً لكتب وهب بن مُنبِّه وحكمته»[5]، ويبدو أنها في أربعة أجزاء (قراطيس)، كانت تقرأ في مجالس العلم[6].

5. «حكمة لقمان»: ذكرها ابن خير في فهرسته[7]، ولعل منها ما جاء في المبتدأ[8].

6. كتاب زبور داود، ترجمة وهب بن مُنبِّه: ذكره ابن خير[9]، وقد نقل القرطبي عنه (ت 671)، وفي المبتدأ منه شيء[10].

7. موعظة لوهب بن مُنبِّه: ذكرها ابن خير[11]، وهناك مواعظ كثيرة لوهب، تفرقت في

---

(1) من سورة الزمر إلى سورة الواقعة، وهو مخطوط. الفهرس الشامل 1: 14.

(2) مخطوط في ورقتين. الفهرس الشامل: 1: 14.

(3) ذكر وهب، عن ابن عبَّاس، قال: أول المرسلين آدم، وآخرهم محمد، وكانت الأنبياء مائة ألف، وأربعة وعشرين ألف نبي، الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً، ويقال: ثلاثة عشر رسولاً، منهم: خمسة عبرانيون، وهم: آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، وخمسة من العرب، وهم: هود، وصالح، وإسماعيل، وشعيب، ومحمد. وأول أنبياء بني إسرائيل: موسى. وآخرهم: عيسى، - عليهما السلام -.
قال: والكتب التي أنزلت على الأنبياء مائة كتاب وأربعة كتب نزل على شيث خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشرون صحيفة، وعلى موسى التوراة، وعلى داود: الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد الفرقان. المعارف: 56.

(4) مخطوطة في مكتبة طلعت، مجموعة 287، الأوراق من 40 – 43). تاريخ التراث العربي م1، ج2، ص125.

(5) الطبقات الكبرى 7: 257.

(6) فهرسة ابن خير: 365. وتاريخ التراث العربي م1، ج2، ص125.

(7) فهرسة ابن خير: 365.

(8) المبتدأ: لقمان الحكيم.

(9) فهرسة ابن خير: 367.

(10) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام: 268. المبتدأ: زبور داود.

(11) فهرسة ابن خير: 261. وتاريخ التراث العربي م1، ج2، ص125.

كتب متعددة[1]،

كتابة المبتدأ

لنعد إلى سؤالنا: هل كتب وهب كتابه؟، والإجابة في خطوات، الأولى: أن عنده مجموعة من الكتب، وقد مرَّ أنه كان يأخذ منها، كما بينا في دراسة موارده، وهذا مشهور عنه، حتى قيل: «شد يدك بما سمعت من طاووس ومجاهد، وإياك وجواليق وهب بن مُنبِّه، وعمرو بن شعيب، فإنهما صاحبا كتاب»[2]. الثانية: أنه كان يحدث في مجالسه، مجموعةً من التلاميذ، أو عوام الناس، وهؤلاء يسمعون منه، ثمَّ يروي بعضهم عنه[3]. الثالثة أن بعضاً من أفراد عائلته كانوا يتوارثون كتبه، أو يشترونها، فيروونها عنه[4].

وهنا نحن أمام احتمالين، الأول: أنه كان يحدِّث عن كتب أهل الكتاب بترجمتها مباشرة، ولا يكتب منها شيئاً، ويعضد هذا أنه متمكن من لغات تلك الكتب، وهناك من كان يفعل مثل هذا[5]. الاحتمال الثاني: أنه كان يكتب منها، إما صحفاً، ليست للنشر (مسوَّدات) يستعين بها في تحديثه، وهو ما كان يعمل به بعض أئمة الحديث، وهم يرون أنه يمكن الاعتماد على الكتاب وحده، دون حفظ الذاكرة، في رواية الحديث النبوي، فمن اقتصر على ما في كتابه، فحدث به ... فلا يطرح حديثه، ولا يجد بعضهم غضاضة في أن يعلن أنه لم يرزق الحفظ، وأنه يتخذ له كتاباً، يحدث منه[6].

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة 7: 183. والمجالسة وجواهر العلم 5: 185. وحِلية الأولياء 4: 32. وغيرها. أرى أن جمعها يكشف عن خصوصية وهب بن مُنبِّه في أولية الوعظ، وفي موضوعاته، وفي تأثيره في المتلقين.

(2) ميزان الاعتدال 3: 265. والجواليق جمع جوالق، وهو وعاء. لسان العرب: جلق. وعمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، محدِّث أهل الطائف، وكان يتردد على مكة، حدث عنه وهب بن مُنبِّه، في حديثه مناكير، حدث عن جده من خلال كتاب، تُوفِّي سنة 118 هـ سِيَر أعلام النبلاء: 5: 165، 166، 168. وجده عبد الله بن عمرو (ت 65 هـ) كان كاتباً يحسن السريانية. الأعلام 4: 111. مشهور بالرواية عن أهل الكتاب.

(3) وممن سمع عنه عبد الصمد بن معقل. الطبقات الكبرى 1: 24. ومحمد بن عمرو، وإبراهيم بن مسلم، وإسماعيل بن ضحاك بن فيروز، وبكار بن عبد الله اليماني، وعمر بن عبد الرحمن بن مهرب. التاريخ الكبير 1: 192، 326، 361، و2: 121. و6: 173، وذكر الذهبي مجموعة أخرى في سِيَر أعلام النبلاء 4: 545.

(4) منهم أخوة وهب: معقل، أبو عقيل، وهمام، وغيلان أصغرهم. تاريخ ابن أبي خيثمة 1: 318. وابنا وهب: عبد الرحمن، وعبد الله. تاريخ ابن معين 3: 76. ومن جيل الأحفاد عبد الصمد بن معقل. الطبقات الكبرى 1: 24. وهو ابن حفصة بنت وهب. تاريخ ابن أبي خيثمة 1: 322. وإدريس بن سنان، وهو ابن أم سلمة، بنت وهب الأخرى، حدث عنه ابنه عبد المنعم. المجروحين والضعفاء 2: 157. وتاريخ بغداد 12: 441.

(5) تفسير مقاتل 5: 218.

(6) الجرح والتعديل 2: 27. وميزان الاعتدال 1: 395. وتوثيق السنة في القرن الثاني الهجري: 163.

وإما أنه ألَّف كتاباً للنشر، استمدَّ مادته من تراث أهل الكتاب، عن طريق الوجادة[1]، وقد صرح بذلك حين قال: «وجدت في التوراة»، أو «في بعض كتب الأنبياء»[2]، أو «في آخر ثلاثين سطراً من زبور داود»، أو «في كتاب شعيا»[3]، ثمَّ إنَّه كان قد كتب فعلًا كتاباً في القَدَر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنَّ عبد المنعم بن إدريس، كان يروي كتب وهب، أي أن هذه كتبها وهب نفسه، وانتقلت إلى عبد المنعم، فصار يرويها، ولهذا يترجح عندي هذا الاحتمال.

(1) الوجادة عند المحدِّثين هي الوقوف على كتاب، بخط محدِّث مشهور، ويعرف الواقف الخط وتصحيحه، ولكنه لم يسمع هذا الكتاب. وكان الراوي في هذا الحالة، يقول: «وجدت بخط فلان»، أو «قرأت في كتاب فلان بخطه»، أو «وجدت في الكتاب الفلاني». توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: 229، 234.

(2) الزهد لأحمد بن حنبل: 71، 83.

(3) الزهد لابن أبي الدنيا: 23، 234.

المصادر عن كتاب وهب

سنذهب مع احتمال كتابة وهب كتابه، ونبحث في مصادره، وهي الكتب التي أخذت من كتابه، بعد أن درسنا موارده، وهي الكتب التي أخذ منها قصص كتابه، فنحقق هدفين: التيقن من كتابة وهب كتابه، وتتبع المصادر التي أخذت منه، وجمعنا منها محتويات كتابه، ونبدأ بقصص الأنبياء للثعلبي.

سنتفحص سلسلة رواة، فيها عبد المنعم بن إدريس الذي روى كتب وهب، واعتمد عليها الثعلبي (ت 427 هـ)، في تفسيره، وفي قصص الأنبياء.

كتب الثعلبي في مصادر تفسيره: «كتاب المبتدأ، أنبأني أبو نعيم، عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق الأزهري (عاش في إسفرايين، ونيسابور، له مجلس للحديث، تُوفِّي سنة 400 هـ. تاريخ بغداد 8: 817. فهو من معاصري الثعلبي)، وأبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن محمد الضبي، (الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك على الصحيحين، من أكابر حفاظ الحديث، عاش في نيسابور حيث تُوفِّي سنة 405 هـ. الأعلام 6: 227. معاصر للثعلبي أيضاً)، وأبو الحسن، علي بن محمد بن علي المقرئ (من القراء، عاش في حران تُوفِّي فيها سنة 433 هـ. معرفة القراء الكبار: 219. معاصر للثعلبي، فالثعلبي يروي عن طريق هؤلاء الثلاثة).

قالوا: أخبرنا أبو محمد، الحسن بن محمد بن إسحاق بن الأزهر، ابن أخت أبي عوانة (كان محدِّث عصره بإسفرايين، رحل إلى الري وبغداد والبصرة، تُوفِّي سنة 346 هـ. تاريخ الإسلام 7: 833)، قال: أخبرنا أبو الحسن، محمد بن أحمد بن البراء العبدي، سنة ثمان وثماني ومائتين (البغدادي، محدِّث، قدم أصبهان مع الموفق بالله، الأمير العباسي، تُوفِّي ببغداد سنة 291 هـ. تاريخ أصبهان 2: 198. وتاريخ بغداد 2: 104)، قال: قرأت على أبي عبد الله، عبد المنعم بن إدريس (ت 230 هـ)، عن أبيه (تُوفِّي حوالي 120 هـ)، عن وهب بن مُنبِّه (ت 114 هـ)»[1].

عبد المنعم بن إدريس

يستحق عبد المنعم وقفةً، نتناول فيها أهميته ووظيفته في رواية كتاب وهب، وقد نسب ابن النديم كتاب المبتدأ له، أفهو له أم لوهب؟، ترجم لعبد المنعم معاصره ابن سعد (ت 230هـ)، فقال: «عبد المنعم بن إدريس بن سنانٍ، ويكنى أبا عبد الله، وهو (أي إدريس)[2] ابن ابنة وهب

(1) الكشف والبيان، طبعة السعودية 2: 191.

(2) أوهمت عبارته: «وهو ابن ابنة وهب» بعض المؤلِّفين، فجعلوا عبد المنعم ابناً لبنت وهب، مثل ابن قتيبة في المعارف: 525. والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 12: 441. ولكنه في تلخيص المتشابه 2: 693. يكتب أن إدريس بن سنان هو ابن ابنة وهب، وليس عبد المنعم، وقد سبق أن قال بهذا كثيرون، مثل ابن معين (ت 233 هـ) في تاريخ ابن معين 3: 97. والبخاري (ت 256 هـ) في التاريخ الكبير 2: 36. والفسوي (ت 277 هـ) في المعرفة والتاريخ 1: 524. وابن أبي حاتم (ت 327 هـ) في الجرح والتعديل 2: 264. وغيرهم.

بن مُنبِّه، وروى كتب وهبٍ من أحاديث الأنبياء والعباد، وأحاديث بني إسرائيل عن أبيه، عن وهب بن مُنبِّه، ... وكان قارئًا لكتب وهب بن مُنبِّه وحكمته، مات ببغداد في شهر رمضان سنة ثمانٍ وعشرين ومائتين، وقد قارب مائة سنةٍ»[1].

لم ير عبد المنعم أباه، إذ مات إدريس، وعبد المنعم رضيع[2]، فتقرب سنة وفاته من (120 هـ)، ومن كان في سن السنتين لا يستطيع أن يروي عن أبيه كتاباً أو كتباً، فكان ما ذكره ابن سعد، من أنه روى عن أبيه، عن وهب، مدعاة للطعن فيه من قبل علماء الحديث، فقال البخاري: «ذاهب الحديث»[3]، وقال أحمد بن حنبل: «يكذب على وهب بن مُنبِّه»[4]، وقال ابن حبان: «يضع الحديث عن أبيه، وعلى غيره»[5].

اللافت للانتباه أن سبب الطعن على عبد المنعم تغيَّر من أنه لم يسمع من أبيه إلى سبب آخر، يتعلق بمضمون الرواية، وهو ما قال به يحيى بن معين (ت 233 هـ)[6]، وهو أن شيخاً رأى عبد المنعم، في زمن أبي جعفر (المنصور حكم سنة 136 هـ - 158 هـ)، يطلب هذه الكتب من الوراقين، وهو اليوم يدعيها»[7]، وعبد المنعم «صاحب أخبار بني إسرائيل، كوهب بن مُنبِّه وغيره، لا يعرف بالأحاديث المسندة»[8].

ولو عدنا إلى عبارة ابن سعد أنه روى كتب وهب، عن أبيه، عن وهب، وكان قارئاً لها، لتبادرت إلى أذهاننا رواية الحديث عن طريق القراءة، وهي تعني أن يروي المحدِّث الحديث عن رسول الله ، من خلال كتاب[9]، وهو ما كان عبد المنعم بن إدريس، وهو أنه كان يقرأ في كتاب، ويأخذ منه، حين يروي عن كتب أبيه. فهل كان المحدِّثون يجهلون هذا؟.

---

(1) الطبقات الكبرى 7: 361.

(2) كما قال إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني (ت 210 هـ). الجرح والتعديل 6: 67.

(3) التاريخ الكبير 6: 138.

(4) تاريخ بغداد 11: 13.

(5) المجروحين والضعفاء 2: 157.

(6) يحيى بن معين بن عون، فارسي الأصل، كان أبوه على خراج الري، فخلف له ثروة كبيرة، أنفقها في طلب الحديث، عاش ببغداد، وتُوفي بالمدينة حاجاً، سنة 233 هـ. الأعلام 8: 173.

(7) تاريخ بغداد 12: 441.

(8) الكامل في ضعفاء الرجال 7: 35. وقال أحدهم: كان يشتري كتب السيرة، فيرويها ما سمعها من أبيه ولا بعضها. تاريخ بغداد 12: 441. والواضح أنه يعني بكتب السيرة، أحاديث الأنبياء والعباد، وأحاديث بني إسرائيل. بحسب عبارة ابن سعد السالفة.

(9) المحدِّث الفاصل: 495، 500.

لم يلتفت المالكي الدينوري (ت 333 هـ)[1] إلى من كذَّب عبد المنعم بن إدريس، فكان يعتمد على روايته في الأخذ عن مبتدأ وهب، كان يجمع «علوماً كثيرة، من التفسير ومعاني القرآن، وحديث الصحابة وأخبارهم، ومن أخبار التابعين والزهاد والعلماء والحكماء»[2]، وقد أكثر من مبتدأ وهب، من ذلك أنواع الريح، وحديثه عن الدنانير والدراهم، وتكوين الإنسان من عناصر أربعة[3]، وغيرها، فكان أن اعتمدت عليه في جمع الكتاب.

من بغداد، حيث كان عبد المنعم بن إدريس، اقتنى محمد بن بابويه (381 هـ)[4] كتاب المبتدأ، ويبدو أنه من مصادره المهمة، إذ اعتمد عليه في كتابين من كتبه، برواية واحدة، هي: «أخبرنا أبو عبد الله محمد بن شاذان بن أحمد بن عثمان البرواذي قال: حدثنا أبو علي محمد بن محمد بن الحرث بن سفيان الحافظ السمرقندي قال: حدثنا صالح بن سعيد الترمذي، عن عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن مُنبِّه:. وقد أخذ موضوعات كثيرة، منها تكوين الأنسان من أربعة عناصر[5]، وصحف إدريس[6]، وسبب قتل زكريا[7]، وتعليم أدم[8]، وغيرها.

إسماعيل بن عبد الكريم

في زمن مقارب لزمن عبد المنعم، عاش في اليمن، ولم يغادرها، إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن مُنبِّه (ت 210 هـ)، روى كثيراً عن عمه، عبد الصمد بن معقل، عن وهب، لنفترض أنه يروي كتاب المبتدأ لوهب، وعسى أن تسعفنا المعلومات لتأكيد ما افترضنا.

اللافت للنظر أن ذكر إسماعيل ورد ضمن سلسلة رواة، اعتمد عليها ابن أبي حاتم (ت 327 هـ)[9] أكثر من أربعين مرة، كلها في النقل عن وهب،[10] وهي: «أخبرنا أبو عبد الله الطهراني فيما كتب إلي حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثني عبد الصمد بن معقلٍ أنه سمع

(1) أحمد بن مروان، من رجال الحديث، من دينور، قدم مصر، وحدث بكتب ابن قتيبة، عمل قاضياً على القلزم وأسوان سنين، تُوفِّي بالقاهرة سنة 333 هـ. سِيَر أعلام النبلاء 15: 428. والأعلام 1: 256.

(2) المجالسة وجواهر العلم 1: 281.

(3) المجالسة وجواهر العلم 7: 33. والمبتدأ: الريح. المجالسة وجواهر العلم 8: 313. والمبتدأ: إبليس. المجالسة وجواهر العلم 4: 274. والمبتدأ: من أربعة أشياء.

(4) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، الشيعي (أبو جعفر) مفسر، فقيه، أصولي، محدِّث، حافظ، عارف بالرجال من أهل خراسان، ورد بغداد، وتُوفِّي بالري سنة 381 هـ. معجم المؤلفين 11: 3.

(5) علل الشرائع 1: 164 – 168. وفيه النص الكامل. والمبتدأ: من أربعة أشياء.

(6) علل الشرائع 1: 37. والنبوة: 63. والمبتدأ: صحف إدريس.

(7) علل الشرائع 1: 115. والمبتدأ: يحيى بن زكريا.

(8) النبوة: 55. والمبتدأ: القرقرة.

(9) عبد الرحمن بن محمد الرازي، من علماء الحديث، في الري، تُوفِّيَ سنة 327 هـ. الأعلام 3: 324.

(10) منها في المبتدأ: من التراب والماء. وصحف آدم. والبشارة بإسحاق.

وهب بن مُنبِّه»[1].

والثابت أن ابن أبي حاتم حدث عن أبي عبد الله الطهراني الرازي (ت 271 هـ)، وكتب عنه بالري وبغداد والإسكندرية[2]، فما الذي وراء عبارته: «فيما كتب إلي»؟. بين الاثنين ست وخمسون سنة، فيمكن أن يكتب التلميذ ابن أبي حاتم عن شيخه الطهراني، في مجالسه بالري وبغداد والإسكندرية، ولكن عندما ينص التلميذ على «فيما كتبه إلي»، وتبلغ الروايات عنه عدداً كبيراً، فإن هذا يشير إلى طريقة المكاتبة التي أخذ بها التلميذ الرواية عن شيخه، و«هي منهج من مناهج تلقي الحديث، خاص بانتقال الكتب»، تقوم على عبارة «كتب إلي فلان»[3]، اي إن ابن أبي حاتم كان ينقل عن كتاب، عند الطهراني، وهو يرويه عمن سبقه.

وعندما يقول الشيخ (الطهراني): «حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم»، فإنه ينبئ بما اختص به إسماعيل من الرواية عن وهب، ذلك أنه مشهور بين العلماء بالمُنبِّهي[4]، ورواية وهب عن الإسرائيليات معروفة، فإذا تفحصنا طبيعة مرويات إسماعيل، أرجعناها بيسر إلى وهب، ولكن كيف يحدث الطهراني عن إسماعيل، وهو لم يره، ولم يسمع منه سماعاً مباشراً؟[5].

مرة أخرى نعود إلى طريقة المكاتبة، ولا بأس في أن يقول الراوي هنا: «حدثني» أو «أخبرني»، مطلقة من غير قيد، وهو لم يسمع من شيخه شيئاً، والمكاتبة هنا بمنزلة السماع[6]» بمعنى أن الطهراني كان يروي عن كتابٍ، لإسماعيل بن عبد الكريم، كما كان شيخ الطبري محمد بن سهل بن عسكر (ت 251 هـ) يروي عن إسماعيل، وهو لم يزر اليمن[7]، ألا يعني هذا وجود كتاب إسماعيل عنده، يأخذ منه مكاتبةً؟. نعم، كان هذا وقد أخذ منه الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ)، وقال: «في كتاب إسماعيل بن عبد الكريم، عن عبد الصمد بن معقلٍ، قال: سمعت وهب بن مُنبِّه يقول:»[8]. خرج إبراهيم بامرأته سارة، ومعها أخوها لوط إلى أرض الشام.

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم 1: 115.

(2) الجرح والتعديل 7: 240. وتاريخ بغداد 3: 78. وسِيرَ أعلام النبلاء 12: 240.

(3) عمل بطريقة المكاتبة في القرن الثاني للهجرة، أئمة الحديث مثل شعبة بن الحجاج، ومنصور بن المعتمر والليث بن سعد. توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: 212، 214.

(4) جاء في التعريف به في التاريخ الكبير للبخاري 1: 367. «إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن مُنبِّه، أبو هشام، المُنبِّهي، الصنعاني». وهو، كما قال جواد علي، من ممثلي أسرة وهب في رواية أكثر الأخبار التي لها صلة بالإسرائيليات، وبالعهد القديم، فكان إسماعيل لسان هذه الأسرة الناطق. أبحاث في التاريخ الإسلامي: 51.

(5) لم يغادر إسماعيل بن عبد الكريم اليمن، ولم يدخلها الطهراني.

(6) توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: 214.

(7) محدِّث، أصله من بخارى، حج مكة، وسكن بغداد، وتُوفيّ فيها سنة 251 هـ. تاريخ بغداد 3: 253.

(8) المستدرك على الصحيحين 2: 611. وما رواه في المبتدأ: هجرة إبراهيم.

ونقف عند الطبري قليلاً، فنراه قد روى عن طريق إسماعيل بن عبد الكريم الكثير من روايات وهب في المبتدأ، منها قصة حزقيل، وعودة مريم إلى بيت المقدس، وتسمية ذي القرنين[1]، كما أفاد الطبري من طرق أخرى في الرواية عن وهب منها، «حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق عمن لا يتهم، عن وهب بن مُنَبِّه اليماني»، و«حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، قال: أخبرني إسماعيل بن شروس، أنه سمع وهب بن مُنَبِّه»[2].

ويتضح من طرق الرواية عند الطبري أنه يعتمد على كتاب وهب، بثلاث طرق: رواية إسماعيل بن عبد الكريم، وهي في المبتدأ لوهب، ورواية محمد بن إسحاق في كتابه المبتدأ[3]، ورواية عبد الرزاق في تفسيره[4]. وقد اعتمدت في جمع الكتاب، على المبتدأ في قصص الأنبياء لابن إسحاق أو على رواياته عند الطبري[5].

كما اعتمدت على تفسير عبد الرزاق[6] كذلك، ولعبد الرزاق طرق أخرى للرواية عن وهب: عن ابن أبي نجيح، وعن بكار بن عبد الله، وعن المنذر بن النعمان الأفطس، وعن عبد الرحمن بن درية، وعن أبي الهذيل الصنعاني، وعن إسماعيل بن شروس، وعن عمرو بن دينار[7].

وبالعودة إلى ابن أبي حاتم، نراه يعتمد على الطرق الثلاث المذكورة آنفاً، مع رواية إسماعيل بن عبد الكريم عن مبتدأ وهب[8]، ورواية ابن إسحاق في مبتدأه[9]، وراوية عبد الرزاق في تفسيره[10]، وهذا يؤكد صحة النقل عنه عن كتاب وهب.

---

(1) جامع البيان 5: 267. والمبتدأ: دخول بختنصر بيت المقدس. وجامع البيان 6: 431. والمبتدأ: عودة عيسى وأمه إلى بيت المقدس. جامع البيان 18: 93. والمبتدأ: ذو القرنين.

(2) جامع البيان 17: 377، 612.

(3) المبتدأ في قصص الأنبياء: 318.

(4) تفسير عبد الرزاق 2: 325.

(5) المبتدأ: إلياس، عاد، ثمود.

(6) المبتدأ: عدد الملائكة، في الجنَّة، الحية. وهو عبد الرزاق بن همام بن نافع، مولى حمير، محدِّث ومفسر من اليمن، تُوفِّي فيها سنة 210 هـ. وفيات الأعيان 3: 217.

(7) تفسير عبد الرزاق 3: 342. و1: 388. و2: 75، 216، 325. و3: 122

(8) تفسير ابن أبي حاتم 1: 115، 116، 140.

(9) نفسه 1: 86.

(10) نفسه 1: 87، 115. و2: 467. و4: 1246. و5: 1459.

في حياة إسماعيل بن عبد الكريم زاره أحمد بن حنبل (ت 241 هـ)[1]، في اليمن، والتقى به[2]، ويظهر أن ابن حنبل سمع منه حديثاً واحداً في قصة تكليم موسى[3]، وهناك طرق أخرى روى ابن حنبل، من خلالها نقولاً من مبتدأ وهب، منها قصة سليمان والحراث، عن ابن عياش، عن إدريس، عن وهب[4]، وشريعة أيُّوب وأمواله، عن غوث بن جابر، عن عقيل بن معقل، عن وهب[5]، وإحدى رؤى حزقيل، عن إسماعيل بن عبد السلام، عن عبد الصمد بن معقل، عن وهب[6]، وقد ترجحت أهمية كتاب الزهد لابن حنبل، كونه التقى بإسماعيل، فأخذنا بكل رواياته عن وهب.

عبد الصمد بن معقل

عبد الصمد ابن حفصة بنت وهب[7]، مثلما كان عبد المنعم ابن ابنته الأخرى، ولهذه النسبة دلالة، فقد كان عبد الصمد قريباً من جدِّه لأمه، كان يراه، يصلِّي الفجر بوضوء العشاء[8]، ويسمع منه، وهو يحدث في مجالس العلم، يلقي درساً مرةً، ويجيب من يسأله مرة أخرى[9]، وكان عبد الصمد أيضاً يحدِّث ابن أخيه إسماعيل بن عبد الكريم عن جدِّه، فما الذي كان يسمعه عبد الصمد؟، وما الذي كان يرويه؟.

عند التحرِّي عن سماع عبد الصمد، عن وهب، نعثر على أمور عامة، تختص باليمن، مثل السؤال عن مسجد سليمان في اليمن، وآيات البلدان، ومنها آية اليمن[10]، أو يسمعه، حين

(1) إمام المذهب الحنبلي، أصله من مرو، وولد ببغداد، وزار بلداناً كثيرة، منها اليمن، له مؤلفات كثيرة، تُوفيَ مكرماً من قبل الخليفة المتوكل في بغداد سنة 241 هـ. الأعلام 1: 203. وخبر زيانه اليمن، ولقائه بإسماعيل بن عبد الكريم في الجامع لعلوم الإمام أحمد 16: 247.

(2) قال عبد الله (بن أحمد بن حنبل): قال أبي: ذهبت إلى إبراهيم بن عقيل، وكان عسِرًا لا يوصل إليه، فأقمت على بابه باليمن يومًا أو يومين، حتى وصلت إليه، فحدثني بحديثين، وكان عنده أحاديث وهب، عن جابر، فلم أقدر أن أسمعها من عسره، ولم يحدثنا بها إسماعيل بن عبد الكريم؛ لأنه (إبراهيم بن عقيل، وهو راويها، فأخذها منه أولى) كان حيا، فلم أسمعها من أحد. تهذيب الكمال 2: 155. وهي مجموعة أحاديث نبوية في صحيفة عند وهب. أخبار مكة للفاكهي 2: 366. لكن هذا لا يمنع من سماع ابن حنبل بعضاً من قصص مبتدأ وهب عنده.

(3) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن مُنبِّه، أخبرنا عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن مُنبِّه قال: الزهد لأحمد بن حنبل: 54. والمبتدأ: خروج موسى من مدين.

(4) الزهد لأحمد بن حنبل: 36. والمبتدأ: الحراث.

(5) الزهد لأحمد بن حنبل: 38. والمبتدأ: مبعث أيُّوب.

(6) الزهد لأحمد بن حنبل: 69. والمبتدأ: رؤيا حزقيل.

(7) تاريخ ابن أبي خيثمة 1: 322.

(8) تهذيب الكمال: 31: 148.

(9) نفسه 1: 303.

(10) تاريخ ابن خيثمة 1: 303.

يخطب على المنبر، أو يحدث عن المراء والجدل[1]، وعن البطال[2]، أما حين يقول العلماء روى عن وهب، وروى عنه إسماعيل بن عبد الكريم[3]، ونتحرَّى عن رواياته، فإننا نجدها تختص بالمبتدأ لوهب[4]، مما يكشف عن أن عبد الصمد روى عن جده لأمه كتاب المبتدأ، كما رواه عبد المنعم من قبل.

لنعد إلى إسماعيل بن عبد الكريم وروايته عن عبد الصمد، وهما في سلسلة رواة، اعتمد عليها أبو الشيخ (ت 369 هـ)[5]، والسلسلة تبدأ بعبد الله بن سلمٍ، وقد التقى به في بيت المقدس[6]، عن أحمد بن محمد بن غالب بن خالدٍ الباهلي[7]، حدثنا محمد بن إبراهيم بن العلاء[8]، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني، حدثني عبد الصمد بن معقلٍ عن وهب بن مُنبِّه.[9].

وقد روى أبو الشيخ من خلال هذا السند كثيراً من مبتدأ وهب، مثل خلق العرش من نور[10]، وسعة الكرسي[11]، ووجوه الملائكة[12]، ولأبي الشيخ خمس طرق أخرى للرواية عن مبتدأ وهب، منها عن عبد المنعم بن إدريس الذي تناولناه آنفاً، وقد روى عنه سؤال أحد اليهود[13]، ومن أوصاف الملائكة[14]، ويعني اعتماد أبي الشيخ طريق الرواية عن عبد الصمد، وعن عبد المنعم صحة النقل عن كتاب العظمة، وسلامته في الوصول إلى كتاب وهب.

(1) تهذيب الكمال 31: 145، 148.

(2) تاريخ ابن خيثمة 1: 319.

(3) تهذيب التهذيب 6: 328.

(4) من ذلك عند عبد الرزاق (ت 211 هـ) في تفسيره 1: 357. و2: 37، 101. وغيرها. وعند الطبري (ت 310 هـ) في جامع البيان 5: 267. و5: 292. و5: 307. وغيرها كثير. وعند ابن المنذر (ت 319 هـ) في تفسيره 1: 295. وعند ابن أبي حاتم (327 هـ) في تفسيره 1: 115، 116، 140. وعند أبي الشيخ (369 هـ) في العظمة 2: 696، 705. و5: 1621. وعند الثعلبي (ت 427 هـ) في الكشف والبيان 5: 238. وعند الواحدي (ت 468 هـ) في التفسير الوسيط 3: 204.

(5) عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبَّان، من علماء الحديث، له تصانيف فيه، عاش في أصفهان، وزار بلداناً كثيرة، تُوفِّي سنة 369 هـ. الأعلام 4: 120.

(6) هو عبد الله بن محمد بن سلم. سِيرَ أعلام النبلاء 16: 93.

(7) محدِّث بصري، سكن بغداد، يعرف بغلام خليل، تُوفيِّ سنة 275 هـ تاريخ بغداد 5: 78.

(8) محدِّث من غوطة دمشق، وسكن عبادان، تُوفيِّ بين سنة 241 – 250 هـ تاريخ الإسلام 5: 1210.

(9) العظمة 2: 706.

(10) العظمة 2: 709. والمبتدأ: العرش.

(11) العظمة 3: 851. والمبتدأ: الكرسي.

(12) العظمة 2: 600. والمبتدأ: عدد الملائكة.

(13) العظمة 2: 711. والمبتدأ: حجب الذهب واللجين.

(14) العظمة 2: 545. والمبتدأ: أوصاف الملائكة.

في عصر أبي الشيخ كان أبو الليث السمرقندي، (ت 373 هـ)[1]، أخذ من وهب، ولم يذكر أية سلسلة لروايته، إلا قوله: «روي عن وهب» ، أو «ذكر عن وهب»، وقد اتبع الطريقة نفسها في الرواية عن غير وهب أيضاً، ويبدو أن الكتاب كان معروفاً مشهوراً في زمنه، فتكفي الإشارة إلى مؤلفه في الرواية عنه، وقد روى عن المبتدأ لوهب كثيراً من الروايات، منها وجوه الملائكة[2]، وسؤاله عن الصاعقة[3]، والتعريف بإدريس[4].

ونعود إلى الثعلبي الذي بدأنا به، فنضيف أنه اعتمد على روايات أخرى، غير الرواية عن عبد المنعم، فأخذ الثعلبي برواية إسحاق بن بشر، عن وهب، وعطاء الخرساني عن وهب بن مُنبِّه، وعن بكار بن عبد الله عن وهب بن مُنبِّه، وعمارة بن عطية عن وهب بن مُنبِّه[5].

ونلاحظ مما سبق أن الرواية عن وهب (أو كتاب وهب) من الأخبار المتواترة، إذ سمعها من فمه جماعة[6]، وهؤلاء رووا الجماعة بعدهم، وهكذا إلى أن يصل إلى جماعة مؤلفي الكتب التي جمعنا منها المبتدأ، وإذا استذكرنا بلدان الرواة في السلسلة، وبلدان مؤلفي الكتب، مثل اليمن وبغداد والشام وبلاد فارس، فسنعرف أنهم متفرقون في البلدان، وبجماعة السامعين، واختلاف أزمانهم، وتفرُّق بلدانهم يتحقَّق التواتر في النقل.

أن تعدد سلاسل السند أو (طرق الحديث) عند الثعلبي، وعند من عرضنا لهم، يبين قبول كتاب وهب وانتشاره، في الأزمنة والأمكنة المختلفة، فلولا رضا السلطات السياسية والدينية والاجتماعية، لمَا حقَّق تلك المقبولية وهذا الانتشار.

أن لرواة كتاب وهب مجالس، يحدثون فيها عن كتابه، وهي تستقطب جماعات من السامعين، من الطلاب، ومن عامة الناس، كانت القصص تستهويهم، فيميلون إليها، وذلك، بحسب عبارة ابن قتيبة، شأن العوام، وهو القعود عند القاص، ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول، أو كان رقيقاً، يحزن القلب، ويستغزر العيون، فإذا ذكر الجنَّة، قال: فيها الحوراء ...[7]، ويبدو أن وهب بن مُنبِّه أدرك حاجة الناس إلى القصص، فجعل كتابه فيها، وهو يقول: قال: ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكلِّ قومٍ ما يشتهون من الطعام وكذلك ينبغي للعالم أن

---

(1) نصر بن محمد بن أحمد، من سمرقند، فقيه مفسر زاهد، له تصانيف، تُوفِّيَ سنة 373 هـ. الأعلام 8: 27.

(2) بحر العلوم 3: 490. والمبتدأ: أوصاف الملائكة.

(3) بحر العلوم 2: 220. والمبتدأ: الرعد والبرق والغيث.

(4) بحر العلوم 2: 378. والمبتدأ: إدريس.

(5) الكشف والبيان 33: 46. و1: 169. و2: 213. و5: 213.

(6) منهم ابن أبي نجيح، وبكار بن عبد الله، والمنذر بن النعمان الأفطس، وغيرهم كثير. ينظر تفسير عبد الرزاق 3: 342. و1: 360، 388. و2: 75، 216.

(7) تأويل مختلف الحديث: 404.

يحدث كل قومٍ بما تحتمله قلوبهم، وعقولهم من العلم[1].

عنوان الكتاب

فيما مضى من البحث، لم أجد من سمى كتاب وهب، إلا المسعودي (ت 346 هـ)[2]، وليس معقولاً أن يتداول المؤلِّفون قبله الكتاب دون معرفة عنوانه، فتحت أي عنوان كانوا يعرفون الكتاب؟.

لنعد إلى عبد المنعم بن إدريس (ت 230 هـ)، في القرن الثالث للهجرة، وكان له كتاب «المبتدأ»[3]، «حدث به عن أبيه»[4]، أي أن الكتاب ليس له، وإنما لوهب بن مُنبِّه، رواه عن أبيه، عن وهب.

وكان محمد بن إسحاق (ت 151 هـ) في القرن الثاني للهجرة، قد ألف كتاباً تاريخياً بأمر المنصور «منذ خلق الله تعالى آدم إلى يومك هذا[5]»، وكان العلماء يروونه عنه بعنوان: «المبتدأ والمبعث والمغازي»[6]، فيكون «المبتدأ» ضمن العنوان، وهو يعني «أخبار المبتدأ (بدء الخلق)، وقصص الأنبياء»[7].

ويظهر من سلسلة روايات مبتدأ ابن إسحاق أنه استمد كثيراً من وهب، وقد رصدتُ ستاً وخمسين رواية عن وهب[8]، دون التي لا يصرح باسمه فيها، وهي كثيرة أيضاً[9]، مما يخيل أنه أخذه منه كله، وهذا متوقع في زمن لم يكن فيه أمام ابن إسحاق أفضل من كتاب وهب، فأخذ أغلب ما في كتاب وهب، ويحتمل أنه أخذ عنوانه: «المبتدأ»، ووضعه في القسم الأول من كتابه.

ولكن تسمية العلماء للكتاب بـ «المبتدأ والمبعث والمغازي»، تتعارض مع تسميته الأولى، وهي «الكتاب الكبير»، وهذه ترجع إلى تاريخ التأليف، في زمن المنصور بين سنة (136 هـ - 158 هـ)[10]، فالواضح أن تسمية العلماء تشير إلى محتويات الكتاب، لا إلى عنوانه.

---

(1) الجامع لأخلاق الراوي 2: 109.

(2) «كتاب المبتدأ والسير». مروج الذهب 1: 79.

(3) الفهرست: 123.

(4) تاريخ بغداد 11: 133.

(5) نفسه 1: 236.

(6) ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم: 105. وقد يعرف بـ «السيرة والمبتدأ والمغازي». الفهرست: 121.

(7) تاريخ بغداد 1: 231.

(8) المبتدأ في قصص الأنبياء: 62، 156، 190. وهي في المبتدأ لوهب: خلق حواء، أمام الزوج، مع امرأته.

(9) فيما بلغني. المبتدأ في قصص الأنبياء: 78. والمبتدأ لوهب: صناعة السفينة. وقيل. المبتدأ في قصص الأنبياء 82. والمبتدأ لوهب: يافث. ونسبة القول إليه. المبتدأ في قصص الأنبياء: 86. والمبتدأ لوهب: عاد.

(10) تاريخ بغداد 1: 237.

الاحتمال الآخر في عنوان الكتاب، يرجع إلى عبد المنعم بن إدريس، وهو أول من نسب إليه كتاب «المبتدأ»، فما تعني هذه النسبة؟. لنتتبع الأمر منذ مجالس وهب، وقد عرضنا لموارده من الكتب، من التراث اليهودي ومن التراث المسيحي، ومن التراث العربي القديم، وكان وهب يحدِّث (يتكلَّم) بها، والجالسون يسمعون، ويبدو أنه كان يحضِّر لدروسه بالرجوع إلى كتب أو كتاب، فمن غير المعقول أنه كان يحفظ (يتذكَّر) كلَّ المروي عنه في ساعته.

ونحن هنا أمام احتمالين: الأول أنه كان يرجع إلى كتب مختلفة، منها ما هو باللغة العربية، ككتب العرب القديمة، ومنها أخذ قصص عاد وثمود، ومنها ما هو من كتب التراث اليهودي والمسيحي، وهذه كانت بلغاتها الأصلية المختلفة، مثل العبرية والسريانية واليونانية وغيرها، أو كان بعضها مترجماً عند بعض الأشخاص[1].

والثاني: أنه دوَّن كتاباً، على شكل قراطيس، كان يستعين بها في أثناء إلقاء دروسه، وكثير من محدِّثي عصره كانوا يفعلون هذا[2]، ويرجح هذا الاحتمال أن المشهور في الرواية عن وهب كتبه، فقالوا عن عبد المنعم أنه روى (كتب) جدِّه عن أبيه، فالرواية عن الجدِّ رواية كتب، وليست رواية أقوال.

كان وهب يحدِّث، في المجلس، وكان هناك سامعون، وكان بعضهم، وقد مرَّ ذكرهم، يكتبون حديث الشيخ، مع أسئلة بعض السامعين، ثمَّ يروون عنه ذلك، وهم الطبقة الأولى من طبقات الرواية عن وهب، ومنهم إدريس بن سنان[3]، الذي نظن أنه كان يروي كتاب وهب كما سمعه منه، وكذلك بقية الطبقة الأولى كانوا يفعلون.

في الطبقة الثانية، مع عبد المنعم، جرى نوع من التغيير على الكتاب، فحوَّله من صحف وهب التي كان يستعين بها للإلقاء دروسه إلى كتاب صالح للنشر بين الناس، معروف بعنوان: «المبتدأ»، فقد وصلت ثقة عبد المنعم بالكتاب، جراء عمله فيه، أنه ادعاه لنفسه.

اختلاف الروايات

ولعلنا نصل إلى شيء من ذلك التغيير في اختلاف الرواية عن وهب، بين عبد المنعم وبين الآخرين، ففي خلق العرش أن الله خلقه «من نوره»، في رواية عبد المنعم[4]، وفي رواية عبد

(1) كانت مجلة لقمان (حكمة لقمان) مع سويد بن صامت، وقد عرضها على الرسول، فهي باللغة العربية، جامع البيان 7: 78. وكان كتاب دانيال مع رجل من عبد القيس، ضربه عليه عمر بن الخطاب. تفسير ابن أبي حاتم 7: 2100.

(2) توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: 185.

(3) أبو عبد المنعم، وزوج ابنة وهب (ت حوالي 120 هـ).

(4) العظمة 2: 544. وتفسير ابن أبي حاتم 5: 1497.

الصمد بن معقل دون ذكر المنور[1]، وعبارة «من نوره» مذكورة في رواية أخرى عن وهب[2]، والهاء في «نوره» تعود على الله تعالى، ربما حذفت في رواية عبد الصمد مراعاة للجدل الكلامي في مسألة التوحيد.

وفي قصة خلق آدم أن الله تعالى، تبدأ رواية عبد المنعم عن وهب، بـ «أنه وجد في التوراة صفة خلق آدم حين خلقه الله وابتدعه، قال الله تبارك وتعالى: إني خلقت آدم، وركبت جسده من أربعة أشياء، ثمَّ جعلتها وراثةً في ولده، تنمى في اجسادهم، وينمون عليها إلى يوم القيامة، وركبت جسده، حين خلقته، من رطب ويابس، وساخن وبارد، وذلك أني خلقته من تراب وماء»[3].

وفي رواية عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن مُنبِّه يقول: خلق الله ابن آدم كما شاء ومما شاء فكان كذلك، تبارك الله أحسن الخالقين، خلق من التراب والماء. فمنه لحمه ودمه وشعره وعظامه وجسده كله. فهذا بدء الخلق الذي خلق الله منه ابن آدم[4]، وعلى الرغم من كون الروايتين في موضوع واحد، هو خلق آدم، إلا أن بينهما فروقاً في ذكر التوراة، مصدر المعلومة الأصلي، وتقديم العناصر الأربعة التي تركب عليها الإنسان، وتفصيلها، وتقديم خلقه من التراب والماء، على الرغم من كون الروايتين في خلق آدم.

ومن ذلك رواية عبد الصمد بن معقل، عن وهب، في مشهد هز مريم النخلة، في قوله تعالى: { وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } سورة مريم: 25. قال: فكان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء[5]. وفي رواية عبد المنعم: لمَّا ألجأ المخاض من مريم إلى جذع النخلة، اشتدَّ عليها البرد، فعمد يوسف النَّجَّار إلى حطب، فجعله حولها كالحظيرة تم أشعل فيه النار فأصابتها سخونة الوقود من كلِّ ناحية حتى دفئت، وكسر لها سبع جوزات وجدهن في خرجه، فأطعمها[6]. وبينهما فروق في تفصيل المشهد، وتسمية من كان مع مريم، وما قام به من إطعام رميم وتدفئتها، والمؤكد أن هناك اختلافات أخرى، يضيق عنها المجال، ولا يعني بيان بعض الاختلافات أن رواية عبد المنعم مخالفة تماماً لرواية غيره، فقد اتفقت روايته مع روايات غيره، ولا سيما رواية عبد الصمد بن معقل كثيراً[7].

---

(1) العظمة 2: 706.

(2) نفسه 2: 543.

(3) عيون الأخبار 2: 73. والمجالسة وجواهر العلم 4: 274.

(4) الطبقات الكبرى 1: 24.

(5) جامع البيان 18: 178.

(6) علل الشرائع 1: 113.

(7) منها في المبتدأ: الكرسي، خلق الأرض والسماء، ذو القرنين.

يبدو، من خلال رصد مضامين الروايات الأخرى، أن مبتدأ عبد المنعم غير مكتمل، فهو لا يغطي كل الراوية عن كتاب وهب، وربما كان هذا نقصاً طبيعياً راجعاً إلى ما أخذه عبد المنعم وحده عن وهب، في حين أخذ الرواة الآخرون جميعاً كل كتاب وهب، ولنا أن نتصور كمية الماء المتفق من قناة واحدة، وكمية الماء المتفق من خمس أخرى، وهكذا كانت رواية عبد الله بن وهب[1]، ورواية أبي سلمة الثقفي[2] وغيرهم، تكمل ما نقص من الكتاب، وكذا كانت رواية عبد الصمد، عن وهب[3]، وقد أظهر الإحصاء أن المبتدأ المجموع يحتوي على اثنتين وثمانين رواية لعبد المنعم بن إدريس، وعلى سبعين رواية لعبد الصمد بن معقل، قد يعني هذا أفضلية أحدهما على الآخر، بشرط توافر الكتابين بين يدي المؤلِّف.

بين المبتدأ والملوك المتوَّجة

روى ابن هشام عن أسد بن موسى، عن إدريس بن سنان، عن وهب، وهذا طريق آخر للرواية، وهو حقيق بتبيُّن الاختلافات من خلاله، وفيما يتعلق بجمع كتاب المبتدأ، واجهت ثلاث حالات:

الأولى: وجدت كثيراً من روايات وهب التي جمعتها في المبتدأ، هي في الملوك المتوجة، وذلك من خلال سلسلة الرواة التي مرت عن وهب، ومنها ، دحو الأرض[4]، وتثبيت الأرض بالجبال[5]، والبشارة ببعثة النبي محمد [6]، ووصف النار[7]، وصحف سام[8]، وغيرها.

الثانية: وجدت من خلال السلسة نفسها، روايات لم أعثر عليها في الكتب التي جمعت منها المبتدأ، إلا في الملوك المتوجة، فثبتها في المبتدأ اعتماداً على ما سبق، ومنها وصف الأرض[9]، توصيف الجنَّة[10]، خلق إبليس والجن[11]، وغيرها.

الثالثة: لمست اختلافات واضحة في المرويات عن وهب بين الملوك المتوجة والمبتدأ، منها

---

(1) المبتدأ: عدد الملائكة.

(2) المبتدأ: جهنم.

(3) المستدرك على الصحيحين 2: 611.

(4) المبتدأ: خلق الأرض والسماء. والملوك المتوَّجة من حمير: 18.

(5) المبتدأ: جبل قاف. والملوك المتوَّجة من حمير: 10.

(6) المبتدأ: لغة اهل الجنَّة. والملوك المتوَّجة من حمير: 34.

(7) المبتدأ: النار. والملوك المتوَّجة من حمير: 34، 35.

(8) المبتدأ: لغة اهل الجنَّة. والملوك المتوَّجة من حمير: 35.

(9) المبتدأ: الأرضون السبع. والملوك المتوَّجة من حمير: 12.

(10) المبتدأ: الجنَّة وجهنم. والملوك المتوَّجة من حِمير: 11، 46.

(11) المبتدأ: الملائكة والجن وإبليس. والملوك المتوَّجة من حِمير: 11.

قصة ذي القرنين، فهو الملك الصعب ذو القرنين بن الحارث الرائش، لم يكن في التبابعة أعظم سلطاناً منه في التيجان، وهو رجل من الإسكندرية، اسمه الإسكندروس، وكان حلم حلماً، في المبتدأ[1]، وهناك اختلاف في قصة السحابات الثلاث التي أرسلها الله لعذاب عاد، من حيث الإطناب والإيجاز، فهي في التيجان مختصرة، وفي المبتدأ مطولة[2]، ومثلها قصة عصيان إبليس[3].

الرابعة: عثرت على خصوصية رواية وهب، في بعض القصص، فهو قد يخالف الكتب المشهورة بروايته، ومن ذلك سبب دعاء نوح على حام ابنه، وقد ذهب وهب إلى أن حاماً وطئ زوجته في السفينة، فدعا نوح عليه، فسود الله وجهه[4]، وهناك سبب آخر، وهو أن حاماً رأى سوءة أبيه، فضحك، ولم يغطها[5]، فربما نقل وهب من كتب أخرى، غير معروفة للآخرين.

ثم شاع الكتاب، بعنوان «المبتدأ»، فذكره المسعودي، كما قدمنا، وتداوله العلماء بعد المسعودي بهذا الاسم، كالثعلبي (ت 427 هـ)[6]، والخطيب البغدادي (ت 463 هـ)[7]، والبغوي (ت 516 هـ)[8]، وابن فندمه (ت 565 هـ)[9]، وابن الجوزي (ت 597 هـ)[10]، وابن حجر (ت 852 هـ)[11]، والسخاوي (ت 902 هـ)[12].

اختلاف الأساليب

ما زلنا بصدد الإجابة عن السؤال: هل كتب وهب كتابه؟، وقد تطرّقنا إلى سلاسل الرواة التي اعتمد عليها مؤلفو الكتب التي جمعنا منها الكتاب، وهذه السلاسل تتفاوت طولاً، فالقصيرة

---

(1) الملوك المتوّجة من حِمير: 91. والمبتدأ: ذو القرنين.

(2) الملوك المتوّجة من حِمير 53. والمبتدأ: الريح العقيم.

(3) الملوك المتوّجة من حِمير: 15. والمبتدأ: نفخ الروح.

(4) الملوك المتوّجة من حِمير: 32. والمبتدأ: دعوة نوح على ابنه. ونقلها الثعلبي في قصص الأنبياء: 53. وقد سبق أن رواها ابن جريج في تاريخ الرسل والملوك 1: 188.

(5) سفر التكوين 9: 20، إذ رأى حام سوءة أبيه، فضحك ولم يغطها، وهو في أساطير اليهود 1: 162. وفي تاريخ اليعقوبي 1: 15. والمستدرك على الصحيحين 2: 596.

(6) الكشف والبيان، طبعة السعودية 2: 191. وقصص الأنبياء للثعلبي: 93.

(7) تاريخ بغداد 2: 316.

(8) تفسير البغوي 1: 53.

(9) تاريخ بيهق: 110.

(10) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 116.

(11) فتح الباري لابن حجر 6: 518، 8: 421.

(12) الإعلان بالتوبيخ: 83. وعنونة الكتب باسم «المبتدأ» ظاهرة اصطلاحية، في مسير التاريخ الإسلامي، وهي تعني التاريخ لأول الخلق وقصص الأنبياء، إلى ما قبل النبي محمد، وقد بدأت بالمبتدأ لوهب، ثمَّ المبتدأ لمحمد بن إسحاق (ت 151 هـ)، وهو القسم الأول من كتابه «المبتدأ والمبعث والمغازي»، والمبتدأ لعبد المنعم بن إدريس، والمبتدأ لإسحاق بن بشر، وغير ذلك مما يستحق دراسة مستقلة.

(العالية عند المحدِّثين)، هي سلسلة رواة كتاب أحمد بن حنبل[1] (ت 241 هـ)، وتتكوَّن من خمسة رواة، والطويلة هي سلسلة رواة ابن عساكر (ت 571 هـ)[2] من تسعة رواة[3]، بضمنهم مؤلف الكتاب، وهو راوٍ لمن يقرأ كتابه، وهؤلاء كانوا متحدثين في مجالس، بغض النظر عن تخصصاتهم، يحدِّث الراوي الأول عن وهب، ثمَّ يتتابع الآخرون، يروي كل منهم عن كتاب وهب، بحسب ما تلقاه عن شيخه، ثمَّ يروي اللاحق منهم ما قال الشيخ، حتى تنتهي السلسلة بمؤلف الكتاب، وهو الراوي الأخير، فهل كان اللاحق يروي عن السابق حرفياً، لفظاً ومعنى، بمعنى أنه ينقل القصة كما رواها وهب؟.

قبل الإجابة لا بد من تبيين أمر مهم، وهو أن هؤلاء المحدِّثين كانوا يتهيؤون، قبل حديثهم في المجالس، بالرجوع إلى كتاب وهب، سواء أكان مبتدأ عبد المنعم أم كتاب وهب بصورته البدئية، كما هو في طرق الرواية الأخرى، وقد ذهب كثير من علماء الحديث إلى جواز الرواية بالمعنى، وكانوا يفعلون ذلك، واستندوا في عملهم إلى أن قصص القرآن قد تكرر بعضها في مواضع مختلفة بألفاظ مختلفة، والمعنى واحد، وقد نقلها القرآن من ألسنتهم إلى اللسان العربي[4]، فمن الطبيعي أن يكون هذا عمل الرواة في كتاب وهب، وهو ليس حديثاً نبوياً تترتب على روايته أحكام فقهية[5].

وإذا استرجعنا الاختلاف بين عصر الأمويين، حيث عاش وهب، وزوج ابنته، وعصر العباسيين، حيث عاش عبد المنعم ومن جاء بعده، على جميع المستويات، السياسية والاجتماعية

---

(1) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن مُنَبِّه، أخبرنا عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن مُنَبِّه قال: الزهد لأحمد بن حنبل: 54.

(2) علي بن الحسين بن هبة الله، مؤرخ محدِّث رحالة، عاش في دمشق، حيث تُوفيِّ سنة 571 هـ) الأعلام 4: 273.

(3) «أخبرنا أبو محمد، عبد الجبار بن محمد بن أحمد الفقيه، أخبرنا أبو الحسن، علي بن أحمد بن محمد، أخبرنا أبو الحسن بن أبي نصر السوادي، حدثنا محمد بن عبد الله بن نعيم، أخبرنا الحسن بن محمد الإسفراييني، حدثنا محمد بن أحمد بن البراء، أخبرنا عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وهب بن مُنَبِّه، قال:. تاريخ دمشق 61: 18. وقد اعتمدت على تاريخ دمشق في روايتين فقط، لم أجدهما في كتاب قبله، وهما في المبتدأ: ميلاد موسى.

(4) توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: 424، 425.

(5) في مسألة رواية الحديث النبوي باللفظ، أو باللفظ والمعنى، وتجويز بعض العلماء ومنع آخرين، نرى أن المسألة تتعلق بثمن أدوات الكتابة، فما كان كل المحدِّثين يستطيعون شراء الرق أو البردي للكتابة، فالفقراء منهم جوزوا رواية الحديث النبوي باللفظ، لعدم قدرتهم على شراء أدوات الكتابة لكتابة الحديث، والأغنياء جوزوا ذلك لقَدَرتهم على الشراء، وقد ارتبط تأليف الكتب، أي كتابتها على رق أو بردي، في مرحلة التأسيس بالقادرين على شراء المستلزمات، فكان كتاب «المثالب» لزياد بن أبيه (ت 53 هـ) وهو من الأمراء الولاة. الفهرست: 117. والأعلام 3: 53. وكان خالد بن يزيد بن معاوية (ت 90 هـ) قد أمر بترجمة كتب الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، وكذا الحجاج (ت 95 هـ) أمر بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية، الفهرست: 300. فالكتابة ترتبطت بالقادرين على لوازمها، وقد كتب وهب كتبه، وله أملاك في هراة، كان يذهب إليها، وهو قاضٍ على صنعاء لمدة طويلة، فما كان شيء يعوزه عن شراء ما تتطلبه الكتابة. [هذه قضية معقدة، كما تعرف، فيها أبعاد أيديولوجية ودينية أكبر من الجانب الاقتصادي]. د. عبد الستار جبر.

والاقتصادية، فلا بد من أن ينعكس ذلك على التوجهات الثقافية أيام العباسيين، فما كان يرويه وهب، تحت حكم الأمويين، لا يتوافق بالضرورة مع ما يجب أن يقال تحت حكم العباسيين[1]، فهل تناغمت مرويات وهب القديمة مع تطلعات حكم العباسيين على يد رواته؟، وهل تبين ذلك في نصوص القصص؟.

ثم إن لمؤلفي الكتب، وهم آخر الرواة، غايات من كتابة كتبهم، فابن حنبل كان يكتب في الزهد[2]، وكان ابن أبي حاتم وعبد الرزاق والسمرقندي يكتبون في التفسير، والثعلبي والكسائي في القصص، والمالكي الدينوري في أدب المجالس، وابن بابوبه في الفكر الشيعي، وأبو الشيخ في عظمة الله، وغيرهم كذلك، وكلهم كانوا متأثرين بطبيعة تخصصاتهم، في كتاباتهم عن وهب، بمعنى أن أساليب الوعظ بالزهد، والتفسير، والقص، والمحاضرة في المجلس، والدعوة إلى مذهب، والتعجيب من العظة، ستظهر في روايات هؤلاء، وهم يأخذون عن كتاب وهب، مما يوضح اختلاف أسلوب كل راوٍ عن غيره، في قص تلك الأحداث، ثمَّ يعني أن أسلوب وهب قد تلاشى أو اضمحل.

سنأخذ مشهداً من قصة يوسف، لتوضيح هذا الأمر، هو مشهد تمكين يوسف في المُلْك بعد نجاحه في تجاوز سنوات القحط السبع، وهو في المبتدأ لوهب برواية الكسائي[3]: قال: يوسف: { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } سورة يوسف: 55. أي كاتب حاسب. فقال له الملك: ومن أحق به منك؟. وولاه ذلك كله، وقال له: { إنك اليوم لدينا مكين أمين } سورة يوسف: 54.

قال (وهب بن مُنبِّه): لمَّا انصرفت السنة، من يوم سأل الإمارة، دعاه الملك، فتوجه بتاجه، وقلده بسيفه، وحلاه بخاتمه، وأمر له بسرير من الذهب، مكللٍ بالدر والياقوت، وضرب عليه قبةً من استبرق، وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً، وعرضه عشرة أذرع، وعليه ثلاثون فراشاً وتسعون نمرقة، ثمَّ أمره أن يخرج، فخرج متوجاً، ولونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى فيه، من بياض وجهه، الناظر صفاء لونه، ثمَّ انطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك، ولزم الملك، وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه.

---

(1) الظاهر من قصص الأنبياء أنها تروي أحداثاً ماضية بعيدة، ولكنها موظفة لغايات أخرى غير التمتع بالقص، منها، في القرآن الكريم، العبرة والموعظة بما يخدم مسيرة الدعوة الإسلامية، على أرض الواقع التاريخي، لذا كانت نهاية القص القرآني في سورة البقرة، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، حيث استلم النبي قيادة المسلمين، ولم يعد سلاح العبرة والموعظة يعني شيئاً، كما كان في مكة أيام كان المسلمون تحت سطوة قريش.

(2) وكذا أبو نعيم الأصفهاني (ت 430 هـ)، وهو يروي بأكثر من طريق عن وهب، في حِلية الأولياء 4: 36. والمبتدأ: نحو مشرق الشمس. وفي حِلية الأولياء 4: 44. والمبتدأ: إبليس. وحِلية الأولياء 4: 60. والمبتدأ: دار أرواح المؤمنين.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 374.

ثم مات قطفير عن قريب، فزوج الملك يوسف براعيل، امرأة قطفير، فلمّا دخل عليها، قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين مني؟. فقالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة، كما رأيت، في ملكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك، فغلبتني نفسي، فلمّا بنى بها يوسف، وجدها عذراء، فأصابها، فولدت له ابنين: أفرائيم وميشا ابني يوسف.

يحتوي المشهد على العناصر الآتية: 1. طلب يوسف. موافقة الملك على الطلب. 3. مراسم التنصيب. 4. عزل المسؤول السابق وممارسة الصلاحيات. 5. الحوار بين يوسف وزوجة قوطيفار. 6. الزواج منها، وإنجاب ولديه: أفرايم وميشا.

وفي المبتدأ لمحمد بن إسحاق برواية الطبري[1]: حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: لّما قال يوسف للملك: { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ }. قال الملك: قد فعلت. فولاه، فيما يذكرون، عمل إطفير، وعزل إطفير عما كان عليه، يقول الله: { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} سورة يوسف: 56.

قال: فذكر لي، والله أعلم، أن إطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد، زوج يوسف امرأة إطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟.

قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة كما ترى حسناً وجمالاً، ناعمةً في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك، فغلبتني نفسي على ما رأيت. فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها، فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف.

تخلو رواية ابن إسحاق من مراسم التنصيب، ومن الحوار، ويطغى على الرواية أسلوب التشكيك برواية وهب السابقة من خلال «فذكر لي»، و«يزعمون». ومن خلال رصدنا لاختلاف أساليب الرواة في الرواية، يتضح مقدار التغيير الذي حصل في رواية مبتدأ وهب، وهو تغيير يقل أو يكثر، يحتاج إلى دراسة تفصيلية، تربطه بجملة المؤثرات المحيطة بكلِّ راوٍ أو كاتب.

هذا ما يبدو على الظاهر، ولكن مبتدأ وهب، وهو يؤسس لرابط تاريخي، بين الإسلام وما سبقه من الديانات القديمة، ويوضح للمفسرين كثيراً من تفاصيل القصص القرآنية، بغض النظر عن أسلوبه، لم يكن كأقوال بقية الناس، فلذلك روته الرواة، بأساليب متعددة ومتباينة، ولكنهم لم يغيروا من هوية الكتاب شيئاً، فقد كانت اختلافاتهم تكمن في طريقة التعبير عن القصة، أو في تقديم بعض أحداثها أو تأخيرها، وهي كلها تغييرات طفيفة، تحافظ على الأطر العامة للقصص، وعلى عناصرها السردية، لذا كان أصحاب الكتب التي جمعنا منها الكتاب، يعتمدون على أكثر من سلسلة رواة، كما سبق أن بيَّنا، في الرواية عن وهب.

(1) المبتدأ في قصص الأنبياء: 162. جامع البيان 16: 151.

تبويب الكتاب

لجأت في تبويب الكتاب، وتنظيم محتوياته إلى آليات:

الأولى: الرابط الداخلي: وقد كان من خلال الاعتماد على معالم في الكتاب نفسه، قد يأتي منها في بداية القصة، كما في أول الخلق من المبتدأ، إذ احتوى الحديث نفسه على ترتيب العرش، والكرسي، واللوح، والقلم، والحجب وبقية الفصل، ومنها ترتيب الجنات السبع، حيث جاء في أول الحديث: فأول ما خلق من الجنان دار السلام[1]، ومنها قول وهب: «وخلق الجنَّة، وخلق فيها أجناس الملائكة»[2]. فكان مجيء الجنَّة أولًا، ثمَّ الملائكة وغيرها كذلك، وقد يأتي المعلم في نهاية القصة، فيربطها بالقصة اللاحقة، كما في نهاية قصة يارد، حيث قال: «أوصى إلى ابنه أخنوخ، ثمَّ قبضه الله إليه»، فكانت قصة إدريس (أخنوخ) بعد قصة يارد، ثمَّ في نهاية قصة إدريس جاء قوله: «وهو أبو جد نوح»، فجاءت قصة نوح بعدها، وفي نهاية قصة نوح وقصص أبنائه، قال: « فلم يزالوا على ذلك، دهراً طويلًا، لا يعرفون شريعة، حتى بعث الله هوداً إلى عاد نبياً ورسولاً»، فكانت قصة عاد بعد قصة نوح.

من نتائج الاعتماد على الربط الداخلي مخالفة الكتب المشهورة، مثل قصص الأنبياء للثعلبي، فقد وضع قصة ذي القرنين قبل قصة عيسى، وهو الإسكندر المقدوني، وقصته بعد عيسى، وكذا قصة شمشون، وضعها الثعلبي بعد عيسى، وهي من قصص بني إسرائيل قبله.

الثانية: الرابط الخارجي: وهو يعود إلى التراث المسيحي، فقد كتب «اوسبيوس» (267 - 340م) تاريخ العالم، مبتدئاً بالخليقة (أول الخلق) وبقصة آدم، ونزوله إلى الأرض، وقصة نوح والطوفان، وإبراهيم وداود، وسقوط القدس، إلى ظهور المسيح، وقد احتذى ما جاء في التوراة، فوضعه في تاريخه، وسار عليه وهب بن مُنبِّه[3]، ولنا في الإفادة من الرابط الخارجي أن نتدرج مع التوراة في تنظيم محتويات الكتاب، فنقرن بين تسلسل القصص فيها، بما جاء في كتاب وهب، ولكن موارد وهب لم تقتصر على التوراة، فقد أخذ عن غيرها كثيراً، من التراث اليهودي والمسيحي، كما بينا آنفاً، لذا اقتصرنا في المقارنة على ما جاء في العهد القديم، والعهد الجديد.

الثالثة: الرابط الموضوعي: وهو إدراج القول المتضمن تفصيل مشهد أو توصيف حدث، مما يخلو من معلم من معالم الرابط الداخلي في القصة الكبيرة التي أخذت عنوان فصل، وذلك لارتباط موضوع القول بالقصة الكبيرة، من ذلك وضع «حَمَلة العرش» في فصل «أول الخلق» لاحتواء هذا على عنوان «العرش»، وكذا «عددهم»، و«أوصافهم»، و«بين ملائكة العرش

---

(1) المبتدأ: الجنَّة وجهنم.

(2) المبتدأ: الملائكة والجن وإبليس.

(3) أبحاث في التاريخ الإسلامي: 47.

وملائكة الكرسي»، وذلك لأن هذه وأمثالها تندرج في موضوع الفصل، كأنها تفصيلاته وامتداداته، ومنه «الأرضون السبع»، و«السماوات السبع» وهما تندرجان في فصل «الأرض والسماء».

النسخة المعيارية

لو كنا نحقِّق كتاباً، لاستعملنا «النسخة الأم»، ولكن عملية جمع كتاب تستدعي «النسخة المعيارية»، ونريد بها، في جمع المبتدأ لوهب بن مُنبِّه، كتاب قصص الأنبياء للثعلبي، وقص الأنبياء للكسائي، فهما عندنا بمثابة كتاب واحد، مع تفضيل خاص لقصص الثعلبي.

فمن حيث اختيار الكتابين، دون غيرهما من الكتب، نقدم المبررات الآتية:

إنهما من الكتب الأولى تاريخياً التي جمعت قصص المبتدأ، وقد أشار الثعلبي في مقدمة تفسيره أنه يعتمد على المبتدأ لوهب، أما الكسائي، فإنه أكثر من الرواية عن وهب، حتى أن سنده لا يتحول عن وهب وكعب، والثعلبي والكسائي من أبناء عصر واحد، هو القرن الخامس للهجرة، بينهما وبين وهب خمسة رواة.

هناك كتب سبقت زمن هذين الكتابين، مثل كتاب الزهد لأحمد بن حنبل في القرن الثالث، أو كتاب العظمة لأبي الشيخ في القرن الرابع، لكنهما، كغيرهما، لم يتخصصا في قصص الأنبياء، إذ كان كتاب ابن حنبل في الزهد، يأخذ ما يناسبه، من كتاب وهب، وهو قليل، وكذا كان أبو الشيخ مهتماً بآيات الله في خلقه، فلم يأت من الكتاب إلا ببعضٍ قليل، أما كتابا الثعلبي والكسائي، فقد أخذا الجزء الأكبر من الكتاب، لأنهما في التخصص نفسه.

قدَّمت، في بعض الفصول، الأخذ من قصص الثعلبي، لأنه يأخذ من كتاب «المبتدأ» لوهب، فضلاً عن أخذه من الطبري الذي كان يأخذ من مبتدأ وهب أيضاً، وفي فصول أخرى، أخذت من الكسائي، تكملة لَمَّا لم يذكره الثعلبي، أو تفصيلاً لَمَّا أجمله، أو لأنه يقصُّ، كما كان وهب يفعل.

اضطررت للأخذ، من كتب متأخرة عن النسخة المعيارية، مثل تاريخ دمشق وتفسير القرطبي، وغيرهما، رواياتٍ لم أجدها في الكتب المتقدمة، والنصوص التي جمعتها من خارج النسخة المعيارية أفردت لها فقرات واضحة، وأحلتها إلى مصادرها في الحواشي، أو وضعتها بين قوسين معقوفين [ ]. ووضعت في كل الكتاب، عنوانات الفصول، والعنوانات الجانبية، بما وجدته مناسباً لمضمون القصة.

الخاتمة

مفارقتان، تعملان معاً في موقف الثقافة الإسلامية من كتاب وهب، الأولى هي مفارقة الأهمية والاستخفاف، فقد كان المفسرون، مثل عبد الرزاق والثعلبي وابن كثير يعتمدون عليه في تفصيل القصص القرآنية، والوعَّاظ، مثل أحمد بن حنبل، وأبي نعيم الاصفهاني والبيهقي،

في إمدادهم بموضوعات وقصص وعظية، والمؤرخون، مثل اليعقوبي والطبري والمسعودي في كتابة بدء الخلق وتاريخ النبوات، فهؤلاء مع غيرهم، يستشعرون أهمية الكتاب، وكفاءته في تغطية موضوعاتهم، فاتخذوه مرجعاً أساسياً، وفي المقابل هناك من كان يستهزئ به، مثل ابن النديم والخطيب البغدادي والذهبي، لأنه أخباري قصصي، يأخذ من أهل الكتاب، فاطراحه واجب[1].

والثانية هي مفارقة الاستحواذ والإقصاء، وقد فعلتها الثقافة الإسلامية من خلال كتاب وهب أيضاً، فكان الموقف أن تستولي الثقافة الإسلامية على التراث اليهودي والمسيحي، والقرآن الكريم مصدق ومهيمن على كتب الله السالفة، فيصبح آدم نبياً، ويتحوَّل أنبياء بني إسرائيل إلى مسلمين، فيصير أخنوخ إدريس، ويثرون شعيباً، وهم يؤدون الفروض الإسلامية، من صلاة وصوم وحج، وغايتهم البشارة بالنبي محمد ، على مبدأ الجبر والتفويض.

وبتقاطع المفارقتين، يظهر أن أهمية كتاب وهب تكمن في الاستحواذ على تراث أهل الكتاب، ويظهر أن الاستخفاف به يكمن في العلاقة بين القُصَّاص والمحدِّثين، فكل شخص من هؤلاء كان يبحث عن مورد مالي، يؤمن له الأكل والشرب والسكن، في أثناء تحصيل العلم، وبعد تحصيله، وكل منهم يبحث عن طريق، يوصله إلى خليفة أو والٍ أو وزير، يعيش في ظله، ويجني من ثمراته، فلا يمكن إغفال علاقات أولئك العلماء بولاة الأمر، ولا يمكن تناسي تنافسهم في التقرب إليهم، ومن هنا نشأ الاستخفاف بكتاب وهب، من قبل المحدِّثين، بغية إبعاده عن طريقهم.

التوصية

إن قصص كتاب «المبتدأ» لوهب لا تمت إلى الأحداث والوقائع الطبيعية بصلة، فشخصياتها وأحداثها وأزمانها وأماكنها متخيَّلة، أنشأها ناس مثلنا من خلال تخيُّلاتهم، وهي لا تمثل اليوم تاريخاً حقيقياً للإسلام، وقد بدأ بمكة والمدينة، على أرض الجزيرة العربية، لا مع خلق العرش واللوح والقلم، فنحن نقاربها بوصفها حركة في المتخيَّل المقدَّس الإسلامي، لا بوصفها أحداثاً طبيعية، تتكرَّر علينا.

(1) الجامع لأخلاق الراوي 2: 114.

نصُّ الكتاب

بدء الخلق

قال وهب[1]: وجدتُ في التوراة: كان الله، ولم يكن شيءٌ قبله، في تغيُّبه عن الخلق، ولا يقال: كيف كان؟. وأين كان؟. وحيث كان؟. لمن كيَّف الكيفَ، وحيَّث الحيث، وأيَّن الأين[2].

العرش

فأول شيءٍ خلق من الأشياء أن قال: كن، فكوَّن عرشه[3]، فارتفع العرش على مقدار ما أراد الملِك الجبار، وسما بالعظمة وتعالى، وللعرش سبعون ألف ساقٍ، كلُّ ساقٍ كاستدارة السماء والأرض[4]، وحوله أربعة أنهارٍ: نهرٌ من نورٍ يتلألأ، ونهرٌ يجري هو أشدُّ بياضًا من اللبن، في أسفله اللؤلؤ والدر، والياقوت والزُّمُرَّد والمرجان، يُرى من شدَّة صفائه وبياضه، ومنه تأخذ أنهار الجنَّة كلُّها، ونهرٌ من ثلجٍ أبيض، تلتمع منه الأبصار، ونهرٌ من ماءٍ، والملائكة في تلك الأنهار يسبِّحون الله، وللعرش ألسنةٌ، بعدد الخلق كلِّهم أضعافًا، فهو يسبِّح الله، ويذكره بتلك الألسنة كلِّها[5].

الكرسي

ثم قال: كن، فكوَّن الكرسي، وللكرسي أربع قوائم، كل قائمةٍ أطول من السماوات والأرض، وجميع الدنيا في جوف الكرسي مثل حبة خردلٍ في كف أحدكم، ثمَّ استوى الله على العرش، قال الله تبارك وتعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } سورة طه: 5. والكيف مجهولٌ،

(1) العظمة 2: 705 – 708. وفي قصص اليهود: 51. تمَّ خلق سبعة أشياء، قبل خلق السماوات والأرض بألفي عام، وهي: التوراة، والعرش الإلهي، والجنَّة، والنار، والهيكل السماوي، وجوهرة على مذبح الهيكل، وصوت: توبوا يا بني البشر. وفي القصص الإسلامية، سبعة أشياء أيضاً، وهي: اللوح، والقلم، والماء، والعرش، والملائكة حَمَلة العرش، والكرسي، وكلمة التوحيد، جاءت الأشياء السبعة في موضع واحد في أساطير اليهود مرتبةً، بينما تناثرت في القصص الإسلامية، وذلك لأنها لم ترد في القرآن الكريم في موضع واحد هذا من جهة، ومن جهة أخرى اختلفت الروايات في ترتيب الأولية، فكان على من يريد البدء بها جمعها من مواضع مختلفة، وتشكيلها بترتيب مختلف، كالطبري الذي كتب فصلاً في «القول في ابتداء الخلق ما كان أوله»، وجاء بأقوال مختلفة. تاريخ الرسل والملوك 1: 28. ثمَّ الثعلبي في قصص الأنبياء: 7. وبدأ بخلق الأرض، والكسائي في قصص الأنبياء: 6. وبدأ باللوح والقلم.
وقد بدأت بحديث لوهب، يذكر فيه أول الخلق في العظمة 2: 705 – 708. وهو عنده العرش، تؤكده إشارة الطبري إليه في تاريخ الرسل والملوك 1: 39.

(2) لا توجد هذه العبارات في التوراة، فهي من مذاهب علماء الكلام في الإسلام، فيبدو أنها وضعت على لسان وهب.

(3) تفسير ابن أبي حاتم 5: 1497.

(4) العظمة 2: 709.

(5) هناك رواية مجملة عن وهب، تم تفصيلها هنا، وهي في العظمة 2: 544.

والجواب فيه بدعةٌ، والسؤال فيه تكلفٌ[1]. وإن السموات والأرض والبحار لفي الهيكل، وإن الهيكل لفي الكرسي، وإن قدميه لعلى الكرسي، وهو يحمل الكرسي، وقد عاد الكرسي كالنعل في قدميه[2].

وسئل وهبٌ: ما الهيكل؟. قال: شيءٌ من أطراف السماوات محدقٌ بالأرضين، والبحار كأطناب الفسطاط[3].

قال وهب: خلق الله العرش من جوهرةٍ خضراء، لا يوصف عظمها ونورها، فوضع العرش على تيار الماء، وما من كتابٍ من كتب الأنبياء الأولين، إلا وفيه ذكر العرش والكرسي، وأن الله تعالى خلقهما من جوهرتين عظيمتين. ثمَّ خلق الريح بعد ذلك، ولها أجنحةٌ، لا يعلم كثرتها إلا الله تعالى، وأمرها أن تحمل هذين (العرش والماء)، ففعلت، وكان العرش على الماء، والماء على الريح[4].

وقال: ثمَّ يقول الله: كن. فيكون بحرًا تحت الكرسي، وهو البحر المسجور، فذلك قوله تعالى: { وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ . وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ } سورة الطور: 1 – 6. أوله في علم الله تعالى، وآخره في إرادة الله تعالى، فيه ماءٌ ثخينٌ شبه ماء الرجل، تمرُّ الموجة خلف الموجة سبعين عامًا لا تلحقها، يمطر الله منه على الخلق، إذا أماتهم، ثمَّ إذا أراد أن يحييهم بين الرادفة والراجفة، أربعين يومًا، ويأمر الله الريح، فتجمع رفاتًا، فذلك قوله: { وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } سورة الإسراء: 49.

فيأمرها فتجمع الرميم، فذلك قول الله: { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } سورة يس: 78 – 79. ويأمرها فتجمع الضالة، وذلك قول الله: { وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ } سورة السجدة: 10. فيمطر عليهم من ذلك البحر المسجور، فينبتون نبات الحبَّة في حمل السيل، وتُجمع أرواح المؤمنين من الجنان، وتجمع أرواح الكفار من النار، فتكون أرواح المؤمنين تتوهج نورًا، والكفار ظلمةً، ثمَّ يُجمعون في الصور، ثمَّ يأمر الله إسرافيل، فينفخ فتدخل كل روحٍ في جسدها بإذن ربها.

ثم يأمر الله جبريل أن يدخل يده تحت خمسة أرضين، فيدخل يده، فيقيمها من موضعها،

---

(1) العظمة 2: 706.

(2) تاريخ الرسل والملوك 1: 41.

(3) العظمة 3: 1052. وبسند آخر، عن عبد الصمد في البداية والنهاية 1: 25. وهو الهيكل السماوي الذي كان أمام الرب مباشرة، كما مر، في الأشياء العشرة التي خلقها الله قبل السماوات والأرض، وهو يشكل وحدةً تحت ذراع الرب. قصص اليهود: 57.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 60.

فيضعها على كفه ثمَّ يحركها، حتى تنشقَّ، فذلك قوله تعالى: { يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ } سورة ق: 44. ثمَّ ينفخ إسرافيل في الصور، ويتبعه جبريل، فينفضهم على الأرض الساهرة، كما ينفض الجراب { فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } سورة الزمر: 68. والسماوات والأرض، والدنيا والآخرة، والجنَّة والنار في جوف الكرسي، والكرسي نورٌ يتلألأ»[1].

اللوح

ثم قال: كن، فكوَّن لوحًا من درةٍ بيضاء، حافتيه ياقوتةٌ حمراء، عرضه ما بين المشرق والمغرب، وطوله ما بين السماء والأرض، ثمَّ قال للعرش: خذ اللوح، فأخذه.

القلم

ثم قال: كن، فكوَّن القلم، وله ثلاثمائةٍ وستون سنًّا، بين كل سنٍّ بحرٌ من نورٍ يجري، ثمَّ قال للقلم: اجر في اللوح. فقال: يا ربِّ، بمَ أجري؟. قال: اجر بعلمي بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة. فجرى القلم بما هو كائنٌ في اللوح إلى يوم القيامة، ولله تبارك وتعالى في اللوح في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة (نظرة) ، يُعزُّ ذليلاً، ويذلُّ عزيزاً، ويرفع وضيعاً، ويضع رفيعاً، ويحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، والله لا ينام، ولا ينبغي له ان ينام، يخفض القسط ويرفعه، واضع يمينه لمسيء النهار ليتوب بالليل، ولمسيء الليل ليتوب بالنهار، حتى تطلع الشمس من مغربها[2].

حُجُب الكبرياء والعزة والعظمة والجبروت

ثم قال الجليل – جلَّ ذكره –: كن، فكوَّن رداء[3] الكبرياء، وهو مما يلي وجه ربنا، ثمَّ قال: كن، فكوَّن حجاب العزة، وتحته خمسون ألف عام، وبين حجاب العزة وحجاب الكبرياء خمسون ألف عام، ثمَّ قال: كن، فكوَّن حجاب العظمة، وتحته خمسون ألف عام، وبين حجاب العظمة وحجابِ العزة خمسون ألف عام، ثمَّ قال: كن، فكوَّن سبعين ألف حجابٍ من غمامٍ، وهي حجب الجبروت، تحت كل حجابٍ سبعون ألف عام، وبين كل حجابٍ وحجابٍ سبعون ألف عام، وهي الحجب التي يبرز فيها الرَّب للخليقة، فذلك قول الله: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ } سورة البقرة: 210. في غير ظُل[4].

(1) أصول السنة 103. والعظمة 3: 851.

(2) العظمة 2: 706. وهناك رواية أخرى مختصرة، بسند آخر، تنتهي بابن عبَّاس. العظمة 2: 622. يراد بالعدد «خمسمائة عام» التدليل على العدد الأقصى أو الكامل، ومن استعماله ما في مدراش بريشيت رابا 6: 6: تستغرق المسافة من الأرض إلى السماء خمسمائة عام، كما يقطع الإنسان السماء، من أدناها إلى أقصاها، في خمسمائة عام، ويستغرق المدة نفسها عند الانتقال من سماء إلى سماء. قصص اليهود: 56، 332، الحاشية: 31.

(3) لعلها: حجاب. وهي تنسجم مع تعداد الحجب التالية لها.

(4) العظمة 2: 707.

حُجُب النار والثلج والنور

ثم قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من نارٍ، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ، ثمَّ قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من ثلجٍ، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ[1]. ثمَّ قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من نورٍ، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ،

حُجُب الدر والزمرد والياقوت واللؤلؤ

ثم قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من در، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ، ثمَّ قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من زمرد، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ، ثمَّ قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من ياقوتٍ، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ، ثمَّ قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من لؤلؤٍ، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ.

حُجُب الذهب واللجين

ثم قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من ذهبٍ، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ، ثمَّ قال: كن، فكوَّن عشرة آلاف حجابٍ من لجينٍ، وتحت كلِّ حجابٍ خمسمائة عامٍ، وبين كلِّ حجابٍ وحجابٍ خمسمائة عامٍ، فاحتجب الرَّب تبارك وتعالى قبل أن يخلق الخلق، رحمةً منه للخلق بمائة ألف حجابٍ وثلاثةٍ وسبعين ألف حجابٍ، ولولا ذلك ما أدرك سبحات وجهه هنالك شيئًا إلا أحرقه[2].

وعن أبي هريرة، أن رجلًا من اليهود أتى النبي ، فقال: يا أبا القاسم، هل احتجب الله عن خلقه بشيءٍ، غير السماوات والأرض؟. قال: نعم، بينه وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابًا من ظلمةٍ، وسبعون حجابًا من رفارف الإستبرق، وسبعون حجابًا من رفارف السندس، وسبعون حجابًا من در أبيض، وسبعون حجابًا من در أحمر، وسبعون حجابًا من در أصفر، وسبعون حجابًا من در أخضر، وسبعون حجابًا من ضياءٍ استضاءه من صفوة النار والنور، وسبعون حجابًا من ثلجٍ، وسبعون حجابًا من ماءٍ، وسبعون حجابًا من بردٍ، وسبعون حجابًا من عظمة الله التي لا توصف[3].

---

(1) نفسه.

(2) العظمة 2: 708. وباختصار في أصول السنة: 109.

(3) العظمة 2: 711. والبدء والتاريخ 1: 181.

النار والنور والظلمة والماء تحت العرش

ثم قال: كن، فكوَّن النار تحت العرش، أولها في علم الله، وآخرها في إرادة الله تعالى، معلقةٌ بقدرة الله تعالى، ثمَّ كون النور تحت العرش، أوله في علم الله، وآخره في إرادته، معلقٌ بقدرته، ثمَّ كون الظلمة بحرًا تحت العرش، أوله في علم الله، وآخره في إرادة الله، معلقٌ بقدرة الله، ثمَّ قال: كن، فكوَّن الماء بحرًا تحت العرش، أوله في علم الله، وآخره في إرادة الله، معلقٌ بقدرة الله[1].

ثم قال: كن، فكوَّن سبعين ألف ملكٍ، لهم الشعر والوبر حول الفلك، ثمَّ قال: كن، فكوَّن الجو، وكوَّن من الجو الخافقين، وكوَّن من الخافقين النفسين، وكوَّن من النفسين النور، وكوَّن من النور الهوى، وكوَّن من الهوى الضياء، وكوَّن من الضياء الظلمة، وكوَّن من الظلمة النور، وكوَّن من النور الماء، وخلق من الماء كلَّ شيءٍ حي.

ملَك الفرقان

ثم قال: كن، فكوَّن ملك الفرقان[2]، ثمَّ أمره: أن خذ اللوح. فتربَّع واللوح في حجره[3].

حَمَلة العرش

قال: ثمَّ إن الله لَمَّا أراد أن يخلق حَمَلة العرش، قال: كن، فكوَّن من الملائكة بعدد القطر، والمطر، والشجر، والورق، وكل رطبٍ، ويابسٍ في بر أو بحرٍ، ولم يكن هنالك قطرٌ، ولا مطرٌ، ولا شجرٌ، ولا ورقٌ، ولا رطبٌ، ولا يابسٌ، ولا سماءٌ، ولا أرضٌ، ولا خلق مخلوقٌ، ولا أجلٌ معدودٌ، ولا رزقٌ يقوت، ولا شمسٌ، ولا قمرٌ، ولا نجمٌ يزهر، ولا ليلٌ داجٍ، ولا نهارٌ ذات أبراجٍ، ولكن كان في علمه المحيط أن سيخلق ذلك كله، بما جرى في اللوح، وكتبه القلم، وملائكةٌ متراصةٌ أقدامهم، متلازقةٌ أكتافهم، مصطكةٌ مناكبهم، ثمَّ قال لهم: أقلوا العرش. فما قدروا على إقلاله.

ثم قال: كن، فأمدهم بصف ثانٍ، أمثالهم سبعة أضعافٍ في الشدَّة والقوة، والنجدة، والشجاعة، والغلظة، والعظمة، ملائكةٌ متراصةٌ أقدامهم، مصطكةٌ مناكبهم، متلازقةٌ أقدامهم، ثمَّ قال لهم: أقلُّوا العرش. فما قدروا على إقلاله.

ثم قال لهم: كن، فأمدهم بصف أمثالهم، سبعةٌ متلازقةٌ أكتافهم، أنصافهم الأعلى من النار، وأنصافهم الأسفل مِن الثلج، فلا ذلك النار يذيب الثلج بحره، ولا ذلك الثلج يطفئ النار ببرده، ثمَّ قال لهم: أقلُّوا العرش. فما قدروا على إقلاله.

ثم قال: كن، فأمدهم بصف رابعٍ أمثالهم، سبعة أضعافٍ، ملائكةٌ أنصافهم من البرق

(1) رواية أخرى عن وهب في خلق النور والظلمة ومنها النهار والليل. في العظمة 4: 1389.

(2) هو إسرافيل.

(3) العظمة 2: 708.

الخاطف، وأنصافهم من الرعد القاصف، ثمَّ قال لهم: أقِلُّوا العرش. فما قدروا على إقلاله.

ثم قال: كن، فأمدهم بصف خامسٍ: ملائكةٌ أنصافهم من الريح العاصف، وأنصافهم من السحاب العاكف، فلا ذلك العاصف يزيل ذلك العاكف، ولا ذلك العاكف يزيل ذلك العاصف، ثمَّ قال لهم: أقِلُّوا العرش. فما قدروا على إقلاله.

ثم قال: كن، ثمَّ أمدهم بصف سادسٍ أمثالهم، أنصافهم من الظلمة، وأنصافهم من النور، فلا ذلك النور يذهب سواد الظلمة، ولا تلك الظلمة تذهب بذلك النور، ثمَّ قال لهم: أقلُّوا العرش. فما قدروا على إقلاله.

ثم قال: كن، فأمدهم بصف سابعٍ أمثالهم، ملائكةٌ أنصافهم من الدر، وأنصافهم من الزمرد، فلا ذلك الدر يذهب شعاع ذلك الزمرد الأخضر، ولا ذلك الزمرد يزيل شعاع ذلك الدر، ثمَّ قال لهم: أقِلُّوا العرش. فما قدروا على إقلاله.

فقال الله: وعزَّتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، وعلوي على خلقي وعظمتي، لو أمددتكم بأمثالكم، وأضعافكم أبد الآبدين، ودهر الداهرين ما قدرتم على إقلاله إلا بي، فقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقالوها، فاستقلَّ العرش على رءوسهم، فعظم عليهم، ومُدَّت أرجلهم تهوي، فأمر الله الملَك أن يكتب اسمه الأعظم تحت أرجلهم، فاستقلَّ العرش على رءوسهم، فالله تبارك وتعالى حاملٌ عرشه، لا من حاجةٍ إليهم، ولكن استعبدهم، فإذا أماتهم حمل الله عرشه كما كان أبدياً(1).

عدد حَمَلة العرش

وحَمَلة العرش اليوم أربعة أملاكٍ، فإذا كان يوم القيامة أُيِّدوا بأربعةٍ آخرين، فكانوا ثمانيةً: ملكٌ منهم في صورة إنسانٍ، يشفع لبني آدم في أرزاقهم، وملكٌ في صورة النسر، يشفع للطير في أرزاقها، وملكٌ في صورة أسدٍ، يشفع للسباع في أرزاقها، وملكٌ في صورة ثورٍ، يشفع للبهائم في أرزاقها، ولكلِّ ملكٍ منهم أربعة وجوهٍ: وجه إنسانٍ، ووجه نسرٍ، ووجه ثورٍ، ووجه أسدٍ(2).

ولكلِّ ملكٍ منهم أربعة وجوهٍ على أربع صورٍ: وجهٌ أمامه، ووجهٌ خلفه، ووجهٌ عن يمينه، ووجهٌ عن شماله، وما بين الوجوه إلى الأقدام عيونٌ بطرف الجسد كله، والأقدام راسيةٌ في أسفل السافلين، وما خلق الله من شيءٍ دون الحَمَلة في جوف الكرسي، والحَمَلة وراء كلِّ شيءٍ(3).

---

(1) العظمة 2: 753.

(2) العظمة 2: 600. وتفسير عبد الرزاق 3: 342. وبحر العلوم 3: 490.

(3) العظمة 3: 957.

أوصاف حَمَلة العرش

وقال وهب بن مُنبِّه، عن كعبٍ: إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة، صفاً خلف صف، يدورون حول العرش الليل والنهار، يقبل هؤلاء، ويدبر هؤلاء، وإذا استقبل بعضهم بعضًا هلَّل هؤلاء، وكبَّر هؤلاء، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام، أيديهم إلى أعناقهم، قد وضعوا على عواتقهم، وإذا سمعوا تهليل أولئك وتكبيرهم، رفعوا أصواتهم، وقالوا: سبحانك وبحمدك، أنت الذي لا إله إلا أنت الأكبر، ذخر الخلائق كلِّهم.

ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة، قد وضعوا اليد اليمنى على اليسرى على نحورهم، من رءوسهم إلى أقدامهم شعر ووبر، وزغب وريش، ليس فيها شعرة ولا وفرة ولا زغبة ولا ريشة، ولا مفصل ولا قصبة ولا عظم، ولا عظمة ولا جلد ولا لحم إلا وهو يسبِّح الله ويحمده بلونٍ من التسبيح والتحميد لا يسبِّحه الآخر، وما بين حاجبي الملك مسيرة ثلاثمائة عام، وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة أربعمائة عامٍ، وما بين كتفي أحدهم مسيرة خمسمائة عامٍ، وما بين ركبتي أحدهم مثل ذلك، ومن قدمه إلى كعبيه مسيرة قدر خمسمائة عامٍ، وما بين ركبتيه إلى كعبيه مسيرة مائتي عامٍ، وما بين فخذه إلى أضلاع جنبيه مسيرة ثلاثمائة عامٍ، وما بين ضلعين من أضلاعه مسيرة مائتي عامٍ، وما بين كفيه إلى مرفقه مسيرة مائتي عام، وما بين مرفقه إلى منكبه مسيرة مائة عامٍ، وما بين مرفقيه إلى منكبه مسيرة ثلاثمائة عامٍ، وكفاه لو أذن الله تبارك وتعالى أن يأخذ بإحداهما جبال الأرض كلَّها، فعل، وبالأخرى أرض الدنيا كلَّها، فعل[1].

قال: وطول كلِّ واحدٍ منهم مسيرة مائتي ألف سنةٍ، وسبعة عشر ألف سنةٍ، وإن قدر موضع قدم أحدهم مسيرة سبعة آلاف سنةٍ، ولهم وجوه، وعيون ما لا يعلم عدتها إلا الله تبارك وتعالى، فلمَّا حملوا العرش، وقعوا على ركبهم من عظمة الله فلُقِّنوا: لا حول ولا قوة إلا بالله. فاستووا قيامًا على أرجلهم، وإن قدمي كل واحدٍ منهم نافذة تحت الأرضين السفلى، مقدار مسيرة خمسمائة عامٍ على الريح، يحمدون الله، ويعظمونه، و يسبِّحونه، ويمجدونه لا يفترون، يقولون: لا إله إلا الله ذو العرش المجيد الرفيع، ثمَّ يستغفرون للمؤمنين والمؤمنات[2].

أربعة أخرى

وأربعة من الملائكة يدورون حول العرش، مذ يوم خلق الله العرش إلى يوم ينفخ في الصور، لكلِّ ملكٍ منهم ستة أجنحةٍ، يرف باثنين، ويسبِّح باثنين، ويخمر وجهه باثنين من لهب النور[3]، وهم يقولون: سبحانك قدوس، الله الذي ملأت عظمته السماوات والأرض، ولا يؤوده

(1) العظمة: 2: 545.

(2) العظمة 3: 957.

(3) هؤلاء السيرافيم. دائرة المعارف الكتابية 7: 209.

حفظها، وهو العلي العظيم لا يسأمون، ولا يفترون، ويذكرونه، ويعظمونه بما هو أهله، لا يدرون ما قربهم من الله، ولا بعدهم منه، يقولون: سبحانك قدوس، أنت بكلِّ مكانٍ أينما كنت، وحيثما كنت[1].

عظماء الملائكة حول العرش

وإن عظماء الملائكة سبعون ألف صف، صفاً خلف صف، أرجلهم قد نفذت تخوم الارض السفلى، فالله أعلم أين أقدامهم، ورؤوسهم قد جاوزت ما شاء الله تعالى أن تجاوز، ومن دون هؤلاء الصفوف من الملائكة سبع صفوف، صفاً خلف صف، وكل صف من السبعة من سبعين صفاً من الذين خلفهم، وليس بين رؤوسهم ومناكبهم تفاوت، مستوون لا يفضل أحدهم صاحبه في خلق، ولا جسم ولا نور، وما بين كل صف من صفهم مسيرة خمسين ألف سنة، وكل صف من السبعة قد أطاف بالذي يليه منهم، فكأنهم طبق واحد.

من دونهم نهر من نور، يتلألأ لا يرى طرفا ذلك النهر ولا منتهاه، كاد يلتمع الأبصار من شدَّة بياضه، ومن وراء ذلك النهر نهر من ظلمة، لم يخلق الله ظلمة أشدُّ منها، ولا أكثر، ومن ورائها نهر من نار، تتلظَّى يأكل بعضها بعضاً، ومن ورائها جبال الثلج، تكاد تلتمع الأبصار من شدَّة بياضه.

ومن وراء تلك الجبال بحر، في ذلك البحر ملائكة، لا يدرى بعد قعره، قد جاوز الارض السابعة السفلى، لا يبلغ ماؤه حقو[2] أحدهم، ولا يدري أحد من الخلق أين مستقرُّ اقدامهم، ورؤوسهم عند العرش، يقولون: سبحان الله وبحمده، سبحان الله الجليل العظيم الكبير. تحته حجاب من الغمام، وحجاب من ماء، وحجاب من ظلمة، وحجاب من نور.

ومن وراء هذا البحر بحر آخر، قد علا بنوره كلَّ شيء منه، وفيه ملائكة قيام، ينادون بالتهليل: لا إله إلا الله. ثلاث مرات، هو كلامهم منذ خلقوا، وهم صف واحد، كأنهم بنيان مرصوص، قد أحاطوا بالعرش، فهذا دأبهم أبد الأبد[3].

بين ملائكة العرش وملائكة الكرسي

وبين ملائكة حَمَلة الكرسي، وبين ملائكة العرش سبعون حجابًا من الظلمة، وسبعون حجابًا من البرد، وسبعون حجابًا من الثلج، وسبعون حجابًا من النور، غلظ كلِّ حجابٍ منها

---

(1) العظمة 3: 957.

(2) الحقو الإزار. لسان العرب: حقو.

(3) العظمة 2: 708.
وأرفع الملائكة درجة هم من يحيطون بالعرش الإلهي، من كلِّ الجوانب: اليمين واليسار، والأمام والخلف، ويخضعون لقيادة رؤساء الملائكة: ميخائيل وجبريل وأوريئيل ورفائيل. فصول الحاخام إليعازر، الفصل الرابع. قصص اليهود: 1، 61، 334.

مسيرة خمسمائة عامٍ، ومن الحجاب إلى الحجاب مسيرة خمسمائة عامٍ، ولولا تلك الحجب لاحترق ملائكة الكرسي من نور ملائكة العرش، فكيف بنور الرب سبحانه وتعالى الذي لا يوصف؟[1].

(1) العظمة 2: 692.

الأرض والسماء

خلق الأرض والسماء

قال وهب(1): إن الله تبارك وتعالى، لمَّا أراد أن يخلق السماوات والأرض، خلق جوهرة خضراء، أضعاف طباق السماوات والأرض، ثمَّ نظر إليها نظرة هيبةٍ، فصارت ماءً، ثمَّ نظر إلى الماء، فعلا وارتفع منه زبد ودخان، وأرعد من خشية الله تعالى، فمن ثمَّ يرعد إلى يوم القيامة.

[قال: إن الله خلق السماوات السبع من الدخان، وكانت شرك الأرض ملتصقةً، وإن الله دعاهما، فأجابتا دعوته، وأطاعتا أمره فأمر السماء، فارتفعت مدر الأرض على الهواء، وأمر الأرض فانبسطت، فدحا بها من موضع الكعبة(2).

ثم خلق الريح فبسطها على الماء، فضربت الماء حتى صار أمواجًا وزبدًا، وجعل يثور من الماء دخان، وبخار في الهواء، فلمَّا بلغ الوقت الذي أراد الله، أمر الزبد فجمد، فخلق منه الأرض، وأمر الأمواج فجمدت، فجعلها جبالًا رواسي، ثمَّ استوى إلى السماء وهي دخان](3).

ثم بعث الله تعالى، من تحت العرش، ملكاً(4)، فهبط، حتى دخل تحت الأرضين السبع، فوضعها على عاتقه، إحدى يديه بالمشرق، والأخرى بالمغرب، باسطتين(5) قابضتين على الأرضين السبع، حتى ضبطها، فلم يكن لقدميه موضع قرار، فأهبط الله، من الفردوس، ثوراً، له أربعون ألف قرن، وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه، فلم تستقر قدماه، فأحدر الله سبحانه وتعالى ياقوتةً خضراء، من أعلى درجات في الفردوس، غلظها مسيرة خمسمائة عام، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه، فاستقرت عليها قدماه.

وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض، وهي كحسكة(6) تحت العرش، ومنخرا ذلك الثور في البحر، فهو يتنفس كل يوم نفساً، فإذا تنفس، مد البحر، وإذا مد نفسه، جزر البحر، فلم

(1) قال الثعلبي: روت الرواة بألفاظ مختلفة، ومعانٍ متفقة. قصص الأنبياء: 7 - 8. ولوهب رواية، لم ينقلها الثعلبي عنه كاملة، بل شكَّل الثعلبي القصة من روايات متعددة، وتظهر رواية وهب من خلال مقاطع متفرقة في مصادر أخرى.

(2) هذا المقطع في الملوك المتوَّجة من حِمير: 18. وكرة دحو الأرض من تحت مكة هي إعادة صياغة إسلامية لفكرة إنشاء الأرض عند الأرض المقدسة اليهودية، عند أورشليم في فلسطين. مدراش بريشيت رابا 1: 13. في قصص اليهود: 58، 332. وفي أساطير اليهود، عبد المسيح 1: 24.

(3) العظمة 4: 1386.

(4) هذا الملك الذي يحمل الأرض ذو الشكل الآدمي، شبيه بصورة «أطلس» حامل الكرة الأرضية عند اليونان. موسوعة أساطير العرب 1: 165.

(5) كذا. في الأصول، ولعلها: مبسوطتين.

(6) الشوكة. تاج العروس: حسك.

يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرةً خضراء، كغلظ سبع سماواتٍ، وسبع أرضين، فاستقرت قوائم الثور عليها.

فلم يكن للصخرة مستقر، فخلق الله تعالى نوناً، وهو الحوت العظيم، واسمه لوتيا، وكنيته بلهوت، ولقبه بهموت، فوضع الصخرة على ظهره، وسائر جسده خالٍ[1].

والحوت على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القَدَرة، وثقل الدنيا بما عليها حرفان من كتاب الله تعالى، قال لها الجبار: كوني فكانت[2].

خلق العقل

ثمَّ خلق الله تعالى العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثمَّ قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً، أحب إلي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب.

جبل قاف

قال: إن الأرض كادت تتكفأ على الماء، كما تتكفأ السفينة على الماء، فأرساها الله تعالى بالجبال[3]، وخلق الله تعالى جبلًا عظيمًا، من زبرجدة خضراء، خضرة السماء منه، يقال له: قاف، فأحاط بها كلها[4].

وإن ذا القرنين أتى على جبل قاف، فرأى حوله جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟. فقال: أنا قاف. قال: فأخبرني ما هذه الجبال حولك؟. فقال: هي عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أمرني، فحركت عرقاً من عروقي، فتزلزل الأرض المتصلة به.

فقال: يا قاف، فأخبرني بشيءٍ من عظمة الله تعالى. فقال: إن شأن ربنا لعظيم، تقصر عنه الصفات، وتنقضي دونه الأوهام. قال: فأخبرني بأدنى ما يوصف منها. قال: إن ورائي لأرضاً، مسيرة خمسمائة عام، من جبال الثلج، يحطم بعضها بعضاً، ومن وراء ذلك أرض، مسيرة خمسمائة عام من البرد، لولا ذلك الثلج والبرد، لاحترقت من حر جهنم[5].

ثمَّ خلق الله تعالى سبعة أبحر، أولها محيط بالدنيا، خلف جبل قاف، واسمه سلعش، ومن ورائه بحر، اسمه قبيس، ومن ورائه بحر، اسمه الأصم، ومن ورائه بحر، اسمه الساكن، ومن ورائه بحر، اسمه الباكي، وهو آخرها، وكل بحرٍ منها محيط بالذي يتقدمه، وإنما هذه البحار التي

---

(1) العظمة 4: 1411.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 7.

(3) عبارة الثعلبي: قالوا. والقول لوهب في الملوك المتوَّجة من حمير: 10. وفي الجامع لأحكام القرآن 10: 90.

(4) أسطورة جبل قاف من الأساطير التفسيرية للزلازل، ذلك أن «عروق الجبال كلها من قاف، فإذا أراد الله تعالى زلزلة أرضٍ، أوحى إلى الملك الذي عنده أن يحرك عرقاً من الجبل، فتتحرك الأرض التي يريد». تفسير مقاتل 3: 267، والبدء والتاريخ 2: 46.

(5) قصص الأنبياء للثعلبي: 8. والقصة في العظمة 4: 1488. باختلاف طفيف. عن عبد العزيز، عن وهب.

على وجه الأرض بمنزلة الخليج لها، وفي تلك البحار من الخلائق ما لا يعلمه إلا الله. وقال: خلق الله تعالى هذه البحار، وما فيها من الدواب، وما في برها، في اليوم الثالث، ثمَّ خلق الله تعالى لها أرزاقها في اليوم الرابع[1].

الأرضون السبع

هي سبعة أطباق: الأرض الأولى هذه[2]، فيها سكانها، والأرض الثانية سجن الريح، ومنها تخرج الرياح، كما قال تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} سورة الجاثية: 5. [قال وهب: فيها الريح العقيم، وقد زمت بسبعين ألف زمام، على كل زمام سبعون ألف ملك، وبها أهلك الله تعالى قوم عاد، وسكانها قوم، يقال لهم: البوشيم، عليهم عقاب، ولهم ثواب][3]، وفي الأرض الثالثة خلق، وجوههم مثل وجوه بني آدم، وأفواههم مثل أفواه الكلاب، وأيديهم مثل أيدي الإنس، وأرجلهم كأرجل البقر، وآذانهم كآذان المعز، وأصوافهم كأصواف الضأن، لا يعصون الله طرفة عين، نهارهم ليلنا، ونهارنا ليلهم.

والأرض الرابعة فيها حجارة الكبريت التي أعدها الله لأهل النار، يسجر بها جهنم. قال رسول الله : والذي نفسي بيده، إن فيها لأوديةً من كبريت، لو أرسل الله فيها الجبال الرواسي، لانماعت. قال وهب بن مُنبِّه: هي مثل الكبريت الأحمر، الصخرة منها مثل الجبل العظيم.

والأرض الخامسة، فيها عقارب أهل النار، كأمثال البغال، لها أذناب كأمثال الرماح، لكلِّ ذنب منها ثلاثمائة وستون فقارةً[4]، في كل فقارة ثلاثمائة وستون قلةً[5]من سم، لو وضعت قلة منها في وسط الأرض، لمات جميع أهل الدنيا من نتنه، وفسد كل شيء[6]. وفيها أيضاً حيات أهل النار كأمثال الأودية، لكلِّ حيةٍ منها ثمانية عشر آلاف نابٍ، كل نابٍ مثل النخل الطويل، في أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من سم، لو أمر الله كل حيةً منها أن تضرب، بنابٍ من أنيابها، أعظم جبلٍ، لهدمته حتى يعود رمياً، وإنها لتلقى الكافر، فتسمه، فتقطع مفاصله.

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 66.

(2) لوهب وصف للأرض الوسطى التي نحن عليها يجعلها سبع أرضين، وفيها سبعة أبحر، حيث قال: «والأرض التي نحن عليها الوسطى والبحر حولها وأرض أخرى حول البحر ويخرجون (يأجوج ومأجوج) إليها وأرض أخرى حول البحر ويخرجون إلى تلك الأرض كذلك حتى تتم سبع أرضين وسبعة أبحر. الملوك المتوَّجة من حِمير: 12. والعظمة 4: 1411. و»قال: على وجه الأرض سبعة أبحر والأرضون سبع، بين كل أرضين بحر». الجامع لأحكام القرآن 11: 170. وربما كان السؤال عن هذه، حين «سئل وهب عن الأرضين كيف هي؟. قال: سبع أرضين ممهدة جزائر، بين كل أرضين بحر، والبحر الأخضر محيط بذلك كله، والهيكل من وراء البحر». العظمة 4: 1399.

(3) . علل الشرائع 1: 39. وقصص الأنبياء للكسائي: 67.

(4) هي واحدة من عظام السلسلة العظمية في الظهر، جمعها فقار.

(5) القُلَّة إناء من فخار، يشرب منه.

(6) وهي أرخا في قصص اليهود: 56.

والأرض السادسة، فيها دواوين أهل النار، وأعمالهم، وأرواحهم الخبيثة، واسمها سجين، قال الله تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} سورة المطففين: 7. [اسمها سجين، وفيها دواوين أهل النار، وأعمالهم الخبيثة، وسكانها قوم، يقال لهم: القطاط، وهم على صورة الطير، يعبدون الله تعالى حق عبادته] [1]. والأرض السابعة جعلها الله مسكناً لإبليس وجنوده، وفيها عرشه، في أحد جانبيه سموم، وفي الآخر زمهرير، وقد احتوشته[2] جنوده، من المردة وعتاة الجن، ومنها يبث سرإياه وجنوده، فأعظمهم عنده منزلةً، أعظمهم فتنةً لبني آدم[3].

قال: الأولى من الأرض، تسمى أديماً، والثانية بسيطاً، والثالثة بقيلاً، والرابعة بطيحاً، والخامسة مشاقلة، والسادسة ماسلة، والسابعة ثرى[4].

السماوات السبع

قال وهب: قلنا لسلمان حدثنا عما فوقنا، من خلق السماوات، وما فيهن من العجائب، فقال: نعم، خلق الله السماوات السبع، وسماهن بأسمائهن، وأسكن كل سماءٍ صنفًا من الملائكة يعبدونه، وأوحى في كل سماءٍ أمرها.

فسمى سماء الدنيا رقيعًا[5]، فقال لها: كوني زمردةً خضراء فكانت. [وقال: تحت هذه السماء بحر ماءٍ يطفح فيه الدواب مثل ما في بحركم هذا، ومن ذلك البحر أغرق الله قوم نوحٍ، وهو ما أسكنه الله في موضعه للعذاب، وسينزله قبل يوم القيامة، فيغرق به من يشاء][6].

وسمى السماء الثانية أرقلون، وقال لها: كوني فضةً بيضاء فكانت، وجعل فيها ملائكةً قيامًا مذ خلقهم الله.

وسمى السماء الثالثة قيدوم، وقال لها: كوني ياقوتةً حمراء فكانت، ثمَّ طبقها ملائكةً ركوعًا، لا تختلف مناكبهم صفوفًا، قد لصق هؤلاء بهؤلاء، وهؤلاء بهؤلاء طبقًا واحدًا، لو قطرت عليهم

---

(1) العظمة 4: 1382. وقصص الأنبياء للكسائي: 68.

(2) احتوش القومُ الصيدَ: نفَّره بعضهم على بعض. لسان العرب: حوش.

(3) قال وهب: ساكن الأرض السابعة سجين، فيها إبليس موثوق، يد هكذا، ورجل هكذا، يخالف بين يديه ورجليه، وله أحايين، يرسل فيها، فإذا أرسل، لم يكن شيء أيسر عليه من فتنة الناس. العظمة 4: 1383.

(4) قصص الأنبياء للثعلبي: 9 – 11. وهناك رواية مختصرة لوهب، منها مقاطع، وردت عند الثعلبي في العظمة 4: 1383. وفيها عن الذماري، وهو وهب بن مُنبِّه، وفي النص نقص، يتعلق بالأرض الثالثة.
وقد أشار المطهر المقدسي إلى رواية وهب لقصة طبقات الأرض، البدء والتاريخ 2: 43. وتظهر رواية وهب في قوله: وزعم بعضهم ... . حيث إن لوهب وصفاً لساكن الأرض الرابعة. العظمة 4: 1382. وتبدأ طبقات الأرض السبع في الأساطير اليهودية بالطبقة السابعة التي هي أدنى الطبقات. مدراش كونين: 35 – 37. والفصل الثامن من فصول الحاخام إليعازر. قصص اليهود: 56، 332.

(5) البدء والتاريخ 2:6.

(6) أصول السنة: 103.

قطرةً من ماءٍ ما تجد منفذًا.

وسمى السماء الرابعة ماعونًا، وقال لها: كوني درةً بيضاء فكانت، ثمَّ طبقها ملائكةً سجودًا على مثال الملائكة الركوع.

وسمى السماء الخامسة ريعًا، وقال لها: كوني ذهبةً حمراء فكانت، ثمَّ طبقها ملائكةً، بطحهم على بطونهم ووجوههم وأرجلهم في أقصى السماء من مؤخرها، ورءوسهم في أدنى السماء من مقدمها، وهم البكاءون، يبكون من مخافة الله، فسماهم الملائكة النواحين.

وسمى السماء السادسة دفتًا، وقال لها: كوني ياقوتةً صفراء فكانت، ثمَّ طبقها ملائكةً سجودًا، ترعد مفاصلهم، وتهتز رءوسهم لهم أصوات عالية، يسبِّحون الله تعالى بها ويقدِّسونه، لو قاموا على أرجلهم، لنفذت أرجلهم تخوم الأرض السابعة السفلى، ولبلغت رءوسهم السماء السابعة العليا، سيقومون على أرجلهم يوم القيامة بين يدي رب العالمين تبارك وتعالى.

وسمى السماء السابعة العليا عريبًا، وقال لها: كوني نورًا فكانت نورًا على نورٍ يتلألأ، ثمَّ طبقها ملائكةً قيامًا على رجلٍ واحدةٍ تعظيمًا لله لقربهم منه، وخشيتهم من عذابه، قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة السفلى، واستقرت أقدامهم على قدر مسيرة خمسمائة عامٍ، فهي تحت الأرض السابعة، كأنها الرايات البيض، تجري تحتها ريح هفافة عاتية، تحمل الرايات، ورءوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش، وهم يقولون: لا إله إلا الله ذو العرش المجيد، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العرش، سبحان ذي الجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة، والسلطان والنور، سبحانه أبد الآبدين، ثمَّ يستغفرون للمؤمنين والمؤمنات، ثمَّ يعودون في التسبيح والتحميد، فهم على هذا ما خلقوا إلى قيام الساعة، وذلك قوله: و {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} سورة الصافات: 165 - 166 [1].

وقال: إن الكروبيين[2] سكان السماء السابعة، لا يعلمهم إلا الله تعالى كثرةً، يبكون وينتحبون بأصواتٍ لهم عالية، لو سمع جميع أهل الارض صوت ملك منهم، لماتوا جميعاً، ليس

(1) في قصص الأنبياء للثعلبي: 15. حديث مختلف عن الضحاك ومقاتل، وكذلك الاختلاف في قصص الأنبياء للكسائي: 74. وهي في الأصل اليهودي: فيلون، رقعيا (رقيع)، شحقيم، زبول، معون (ماعون)، مكون، عربوت (عريبا). مدراش بريشت رابا 19: 7. وفي الفصل الأول من فصول الحاخام إليعازر. وقد تحرف بعضها، وأورد الثعلبي عن وهب أسماء أخرى، هي: «أولها سماء الدنيا، ديناح، والثانية ديقا، والثالثة رقيع، والرابعة فيلون، والخامسة طفطاف، والسادسة سمساق، والسابعة اسحاقائل». قصص الأنبياء للثعلبي: 14. وهي محرفة أيضاً.

(2) الكروبيون (الكروبيم) هم المقربون إلى العرش، يرسلهم الله تعالى أو يقيمون في حضرته، كانوا على أبواب جنة عدن، عندما طرد آدم وحواء، وتحت العرش، لكل منهم أربعة أجنحة، وأربعة وجوه. قاموس الكتاب المقدس: كروبيم.

منهم ملك يشبه خلقه خلق صاحبه، لا لسان ولا عين ولا أذن، ولا يد ولا رجل، ولا جلد ولا شعر، ولا عظم ولا مفصل، يسبّح الله كلُّ مفصل بتسبيح، لا يشبه المفصل الآخر، ولكلٍّ مفصل منهم صوت، لا يشبه صوت المفصل الآخر، لم يشاهد ملك منهم صاحبه الذي يليه، مذ خُلقا، ولم ير وجهه، ولم يعصوا الله طرفة عين مما مضى، ولا يعصوه فيما بقي، ولم يرفعوا رؤوسهم الى ما فوقهم مذ خلقوا؛ تخشعاً لله ولم ينظروا الى الارض مذ خلقوا؛ لما يعلمون فيها من المعاصي[1].

دار أرواح المؤمنين

[وقال: إن لله تعالى في السماء السابعة دارًا، يقال لها البيضاء، تجتمع فيها أرواح المؤمنين، فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسائلونه عن أخبار الدنيا، كما يسائل الغائب أهله إذا قدم عليهم][2]، وإن أرواح المؤمنين، إذا قبضت، ترفع إلى ملك، يقال له: رميائيل، وهو خازن أرواح المؤمنين.

وإن السماوات السبع محشوة من الملائكة، لو قيست شعرة ما انقاست، منهم الذاكر، ومنهم الراكع، ومنهم الساجد، ترعد فرائصهم، وتضطرب أجنحتهم فرقًا من الله، ولم يعصوه طرفة عينٍ[3].

الرعد والبرق والغيث

وسئل وهب عن الصاعقة ما هي؟، أشيء له مسٌّ؟، أم نار؟، أم ما هي؟. قال: ثلاثة لا يعلمهن إلا الله: الرعد والبرق والغيث، ما أدري من أين هن؟، وما هن؟. فقيل: إن الله أنزل من السماء ماءً، فقال وهب: نعم، ولا أدري أنزل قطرةً من السماء في السحاب، أم خلق من السحاب، فأمطر، وسماء السحاب سماء[4].

الريح

ثمَّ خلق الله تعالى الريح، فبسطها على الماء، حتى صار أمواجا وزبداً[5]. وعنه، عن ابن عبَّاس، قال: الريح ثمانٍ: أربع رحمة، وأربع عذاب. الرحمة: المبشرات، والمنشرات، والمرسلات، والرخاء، والعذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر، وهما في البر[6].

---

(1) العظمة 2: 710.

(2) حِلية الأولياء 4: 60.

(3) العظمة 3: 964.

(4) العظمة 4: 1275، وبحر العلوم 2: 220.

(5) العظمة 4: 1355.

(6) المجالسة وجواهر العلم 7: 33. والعظمة 4: 1334.

السحاب

وإن الأرض شكت إلى الله أيام الطوفان؛ لأن الله أرسل الماء بغير وزن ولا كيل، فخرج الماء غضباً لله، فخدش الأرض وخددها، فقالت: يا رب، إن الماء خددني وخدشني. فقال الله فيما بلغني، والله أعلم: إني سأجعل للماء غربالاً، فلا يخددك ولا يخدشك. فجعل السحاب غربال المطر، فيبسطه في السماء، كيف يشاء[1].

الفرَس

قال وهب: بلغني أن الله تعالى لمَّا أراد أن يخلق الفرس قال للريح الجنوب: إني خالق منك خلقًا أجعله عزا لأوليائي، وجمالًا لأهل طاعتي، فقبض من الريح قبضةً فخلق منها فرسًا، فقال: سميتك فرسًا، وجعلتك عربيا، الخير معقود في نواصيك، والغنى معك حيث كنت، أرعاك بسعة الرزق على غيرك من الدواب، وجعلتك لها سيدًا، وجعلتك تطير بلا جناحٍ، وأنت للطلب وأنت للهرب، وسأحمل عليك عبادًا لي يسبِّحوني، فتسبحني معهم إذا سبحوا، ويهللوني، فتهللني معهم إذا هللوا، ويكبروني، فتكبرني معهم إذا كبروا.

فلمَّا صهل الفرس قال الله تبارك وتعالى: باركت عليك، أرهب بصهيلك المشركين، وأملأ منه آذانهم، وأرعب منه قلوبهم، وأذل به أعناقهم . فلمَّا عرض الخلق على آدم، قال الله تعالى: يا آدم، اختر من خلقي من أحببت. فاختار الفرس فقال الله: اخترت عزك وعز ولدك، باقيًا ما بقوا، تنتج لأولادك أولادًا، فيركبون عليها، أبد الآبدين ودهر الداهرين بركتي عليك وعليهم، ما خلقت خلقًا أحب إلي منك[2]. قال وهب: فما من تسبيحةٍ ولا تهليلةٍ ولا تكبيرةٍ من راكبِ الفرس إلا والفرس يسمعها ويجيبها بمثل قوله[3].

وإن العرش كان، قبل أن يخلق الله السموات والأرض، ثمَّ قبض من صفاة الماء قبضة، ثمَّ فتح القبضة فارتفع دخانًا، ثمَّ قضاهن سبع سماوات في يومين، ثمَّ أخذ طينة من الماء، فوضعها مكان البيت، ثمَّ دحا الأرض منها، ثمَّ خلق الأقوات في يومين، والسموات في يومين، وخلق الأرض في يومين، ثمَّ فرغ من آخر الخلق اليوم السابع[4].

---

(1) الكشف والبيان 7: 306. والبدء والتاريخ 2: 32.

(2) تنزيه الشريعة المرفوعة 2: 180.

(3) العظمة 5: 1778.

(4) جامع البيان 15: 250. وتاريخ الرسل والملوك 1: 39. والعظمة 2: 600.

اليوم السابع

إن الله تبارك وتعالى لَمَّا خلق خلقه لحظ لحظةً، فرجف من قواعده، ثمَّ لحظ لحظةً أخرى فكاد أن يزول من مكانه، ثمَّ لحظ لحظةً أخرى فكاد أن يهد من خوفه، وإنما فعل ذلك ليعرفه نفسه، وليلهمه ربوبيته، فعرفه الخلق يومئذٍ معرفةً لا ينبغي له، أن ينكره بعدها أبدًا، وذل له الخلق يومئذٍ ذلا لا ينبغي أن يعازه بعدها أبدًا، ودخله من الخوف يومئذٍ خوف، لا يخرج منه أبدًا، وأقرَّ له بالملكة يومئذٍ قرارًا، لا ينبغي له أن يستنكف عنه بعدها أبدًا، ثمَّ صارت تلك المعرفة وراثةً فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة».

وإن الله لَمَّا فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل على الكلام يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله، فمدحها وذكر عظمته وجبروته وكبرياءه وجلاله وسلطانه، وقدرته وملكه وربوبيته، فأنصت له كل شيءٍ، وأطرق كل شيءٍ من خوفه، ومن أجل ذلك جعل يوم السبت عيدًا لأهل التوراة، يذكرونه و يسبِّحونه ويعظمونه ويصلون له، ومن أجل ذلك أمرهم أن يتفرغوا له، ويفرغوا له أهلهم، ولا يكون لهم في ذلك اليوم عمل إلا ذكره وصلاته وتسبيحه، فلم يكن في ذلك الزمان يوم من أيام الدنيا، أعظم عند الله حرمةً من يوم السبت لأنه فرغ فيه من جميع خلقه حتى جاء الله بالإسلام، فألزم به أهله، فاختار لهم الجمعة، فليس أمة من الأمم أعظم عند الله فضلًا من هذه الأمة.

وإن الله تبارك وتعالى أقبل على الكلام يوم السبت حين فرغ من خلقه قال: إني أنا الله لا إله إلا أنا، ذو العرش المجيد، والأمثال العلى، إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة، والأسماء الحسنى، إني أنا الله لا إله إلا أنا، ذو المن والطول، والآلاء والكبرياء، إني أنا الله لا إله إلا أنا، بديع السماوات والأرض وما فيهن، ومقيم السماوات، والأرض وما فيهن، وجبار السماوات والأرض وما فيهن ملأت كل شيءٍ عظمتي، وقهرت كل شيءٍ ملكتي، وأحاطت بكلِّ شيءٍ قدرتي، وأحصى كل شيءٍ علمي، ووسعت كل شيءٍ رحمتي، وبلغ كل شيءٍ لطفي، وأفنى كل شيءٍ طول حياتي،

فأنا الله يا معشر الخلائق، فاعرفوا مكاني، فإنه ليس في السماوات والأرض إلا أنا، وخلق لا يقوم ولا يدوم إلا بي، يتقلب في قبضتي، ويعيش في رزقي، وحياته وموته وبقاؤه، وفناؤه بيدي، وليس له مخلص، ولا ملجأ غيري، ولو تخليت منه إذًا لدمر كله، وإذا كنت على حالي لا ينقصني ذلك شيء، ولا يزيدني، ولا يمدني فقره، ولا يكرثني.

أنا مستغنٍ بالغناء كله، في جبروت ملكي، وعزة سلطاني، وبرهان نوري، وسر وحدتي، وقوة توحدي، وسعة بطشي، وعلو مكاني، وعظمة شأني، فلا شيء يثقلني، ولا إله غيري، ولا شيء يعدلني، وليس ينبغي لشيءٍ خلقته أن ينكرني، ولا يكابرني، ولا يعازني، ولا يخرج من

قدرتي، ولا يريم قبضتي، ولا يستنكف عن عبادتي، ولا يعدل بي.

وكيف ينكرني من جبلته يوم خلقته على معرفتي؟ أم كيف يكابرني من قد قهرته بملكتي؟ فليس له خالق ولا رازق، ولا باعث ولا وارث غيري، أم كيف يعازني من ناصيته بيدي؟ أم كيف يعدل بي من أفني عمره، وأسقم جسمه، وأنقص عقله وقوته، وأتوفى نفسه، وأخلقه وأهرمه فلا يمتنع؟ أم كيف يستنكف عن عبادتي عبدي، وابن عبدي، وابن أمتي، وملكي طوع يدي لا ينتسب إلى خالقٍ ولا وارثٍ غيري؟ أم كيف يعبد دوني من تخلقه الدنيا، ويفني أجله اختلاف الليل والنهار، وهما شعبة يسيرة من سلطاني؟.

فإليَّ إليَّ يا أهل الموت والفناء، إليَّ لا إلى غيري، فإني كتبت الرحمة على نفسي، وقضيت العفو، والمغفرة لمن استغفرني، أغفر الذنوب جميعًا، صغيرها وكبيرها، ولا يكبر علي ذلك، ولا يتعاظمني فلا تلقوا بأيديكم، ولا تقنطوا من رحمتي، فإن رحمتي سبقت غضبي، وخزائن الخير كلها بيدي، لم أخلق شيئًا مما خلقت لحاجةٍ كانت بي إليه، ولكن لأبين به قدرتي، ولأعرف به الناظرين نفسي، ولينظر الناظرون في ملكي، وتدبير حكمي، وليدين الخلائق كلها لعزتي، ويسبِّح الخلق كله بحمدي، ولتعنو الوجوه كلها لوجهي[1].

(1) العظمة 4: 1436.

الجنَّة وجهنم

قال وهب: وخلق الجنَّة، وخلق فيها أجناس الملائكة، يسبِّحون الليل والنهار، لا يفترون، وهي جنة بناؤها بطون العقيان[1]، وطينها لجين، وفيها حور العين أبكار، والفواكه الدائمة التي لا تنقطع، والأنهار من كلِّ الأشربة، تجري بين القصور تحتها، والغرف المبنية من الياقوت على أعمدة اللؤلؤ والزمرد والزبرجد، وقيعانها من فتيت المسك والكافور والزعفران[2].

أبواب الجنَّة

إن للجنَّة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنَّة إليها جعل البوابون يقولون: وعزة ربنا، لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة، وهي من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر، مكتوب على الباب الأول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، والثاني: باب المصلين بكمال وضوئها وأركانها، والثالث: باب المزكين بطيبة أنفسهم، والرابع: باب الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، والباب الخامس: باب من فطم نفسه عن الشهوات، والباب السادس: باب الحجَّاج والمعتمرين، والباب السابع: باب المجاهدين، والباب الثامن: باب المريدين، وهم الذين يغضُّون أبصارهم، ويعملون الخير من بر الوالدين، وصلة الرحم، فيدخل في هذه الأبواب من عمل بها عليها[3]. ثمَّ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[4]، وفيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ما لا ينقطع أبده، ولا ينتهي عدده، أعده الله لعباده الصالحين[5].

---

(1) العقيان الذهب. لسان العرب: عقن.

(2) الملوك المتوَّجة من حِمير: 11، 46. صورة الجنَّة في الكتاب المقدس حديقة يحيط بها سياج، وتشقها طرق متشعبة بين اشجار الظل والفاكهة، وتتخللها قنوات المياه الجارية والينابيع، وتزخر بالعشاب العطرية، والأزهار ذكية الرائحة، والخمائل الظليلة، حيث يستطيع الإنسان أن يخلد غلى الراحة والاستجمام، مستمتعاً بالمناظر الخلابة، والجو المنعش. دائرة المعارف الكتابية 2: 581.

(3) عن الرسول: وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان». مسند أحمد 7: 468. والريان باب للصائمين في سنن الترمذي 3: 301. وتنقسم جنة الفردوس في قصص اليهود: 64. إلى سبعة أقسام، تسكن في كل منها فئة، مثل الأنبياء والشخصيات اليهودية البارزة، وكذلك المرضى تكفيراً عن بني إسرائيل. ويلاحظ أن المارين من خلال أبواب الجنَّة هم المؤمنون بشكل عام، دون تسمية، أما في فردوس اليهود، فتظهر أسماء أنبياء وصالحون، وبنية الفكرة واحدة، وهي تقوم على مقامات تراتبية، تلائم درجات الساكنين.

(4) ضمن حديث المعراج حيث يرد نهر الرحمة والكوثر. جامع البيان 17: 346. وعبارة ما لا عين رأت ... تفتح آفاق المتخيل المقدس، وهو يعتمد الفنطاسيا في السرد الديني، كما في ألف ليلة وليلة.

(5) قصص الأنبياء للكسائي: 82. وفيه الرواية عن كعب، ولكني وجدت مشتركاً بين الروايتين، هو العدد ثمانية، ثمَّ في بستان الواعظين: 134. مقطع من رواية وهب، موجود في رواية كعب، وهو «وذكر وهب، عن ابن عبَّاس أن رسول الله قال: مكتوب على باب الجنَّة إني أنا الله، لا إله إلا أنا. لا أعذب من قالها، إني أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسول الله. لا أعذب من قالها.

دار السلام

فأول ما خلق من الجنان داز السلام، وهي مائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، طول كل درجة مسيرة خمسمائة عام، وبين كل درجة ودرجة ما بين السماء والأرض، معلقة برياح الرحمة، لا علائق من فوقها، فتمسكها، ولا دعائم من تحتها، فتحبسها، قصورها وقبابها وحليها واستبرقها وأسرتها، وكل ما فيها من فضة، قوارير قوارير في بياض الفضة، في نقاء الزجاجة، في شعاع الشمس، يبين داخلها من خارجها، كما يرى الشراب في الزجاجة الصافية، صحون قصورها خمسمائة عام في خمسمائة عام.

فيها أربعة أنهار: نهر من ماء آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر لذة للشاربين، ونهر من عسل مصفى، ولهم فيها من كلِّ الثمار، يقعد ساكن هذه الدار على كثبان المسك والكافور، ويقوم على رأس كل ولي منهم عشرة آلاف وصيف، وعشرة آلاف وصيفة، ولدان مخلدون، فذلك قول الله : {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} سورة يونس: 25. فالهداية من الله تبارك وتعالى، والدعوة على لسان الرسل.

دار الحيوان

ثم قال: كن. فكوَّن دار الحيوان، وهي مائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ما بين كل درجة كما بين السماء والأرض، معلقة برياح الرحمة، لا علائق من فوقها فتمسكها، ولا دعائم من تحتها فتمسكها، وأساس دار الحيوان، مع شرف دار السلام، وقصورها وقبابها وحليها وأسرتها وألوانها، وكل ما فيها من ذهب، صحون قصورها ألف عام في ألف عام، فيها جنتان مدهامتان، وبساتين بين كل بستان ألف عام، فيها فاكهة ونخل ورمان، كربة[1] لؤلؤ، وكربة زمرد، وكربة در، وكربة ياقوت، هكذا إلى رأس النخلة، فيها عينان تجريان، فيهما من كلِّ فكهة زوجان، وفيها من كلِّ خيرات حسان، يقعدون على الزرابي، وهي البسط، يقوم على رأس كل واحد منهم عشرون ألف وصيف، وعشرين ألف وصيفة، ولدان مخلدون، قدراً واحداً، يطاف عليهم بصحاف من ذهب، لو قعد على كل صحفة أهل الأرض، لوسعتهم.

دار القرار

ثمَّ قال: كن. فكوَّن دار القرار، وهي مائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، معلقة برياح الرحمة، لا علائق من فوقها فتمسكها، ولا دعائم من تحتها فتحبسها، وأساس دار القرار، مع شرف دار الحيوان، قصورها وقبابها وحللها وأسرتها وألوانها وصحافها، وكل ما فيها طرائق طرائق،

---

(1) كوبة. في الأصل، وهي كربة، جمعها كرب، أصول السعف الغليظة، وهي ما تنسجم مع السياق.

طريقة در أحمر، وطريقة زبرجد أخضر، وطريقة زمرد أخضر، يحلون فيها سواراً من ذهب، وسواراً من لؤلؤ، صحون قصورها ألف عام في ألفي عام.

فيها ماء مسكوب، معلق بقدرة الجبار تعالى بلا أخدود كأنهار الدنيا، فيها عينان تجريان بالكافور، وعين تجري بالزنجبيل، فيها مائة قبة من در، ومائة قبة من ياقوت، ومائة قبة من زمرد، ومائة قبة من لؤلؤ، طول كل قبة ألف عام، لها أربعة آلاف مصراع مثل الذي فوق، وعرض كل قبة أربعة فراسخ، لكلِّ قبة أربعة آلاف مصراع من الدر، يقول الله تعالى لها: انفتحي. فتنفتح، ويقال لها: انغلقي. فتنغلق.

في القبة سرر، على كل سرير سبعون فراشاً، بين كل فراشين نهر يجري، وعلى الفراش حوراء قاصرة الطرف، على رأسها وصيف، خير من الدنيا وما فيها، لو بزقت في البحر لعذب سبعة أبحر من بزقها، وهي لا تبزق ولا تمخط ولا تغوط ولا تبول ولا تحيض، كما ذكر الله: { فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ } سورة البقرة: 25. قد طهرت من جميع الآفات، لو بدا معصمها، لامتلأت دار الدنيا نوراً.

فيها مائة عمود من در، ومائة عمود هكذا من لؤلؤ، ومائة عمود هكذا من زمرد، ومائة عمود هكذا من ياقوت، ومائة عمود هكذا من زبرجد، طول كل عمود ألف عام، على رأس كل عمود ظلة، طولها مائة فرسخ، يزيد نور وجهها وحسنها على لون وجه الحوراء، سبعين ضعفاً، هذا للعجائز الشمط الرمص الذين كانوا في الدنيا، كوكب ذهب، وكوكب در، وكوكب زمرد، وكوكب ياقوت، يكون طول كل سرير خمسمائة عام، عند رأس كل سرير عينان: عين تنضخ المسك، وعين تنضخ العنبر، يقعد سكان هذه الدار على النمارق، ويقوم على رأس كل واحد منهم ثلاثون ألف وصيف وثلاثون وصيفة، ولدان مخلدون، لا يعلم كيف هي إلا خالقها.

جنة النعيم

ثم قال: كن. فكوَّن جنة النعيم، وأساس جنة النعيم مع شرف جنة الفردوس، وهي مائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، ومائة درجة هكذا، يقوم على رأس كل ولي منهم ثلاثون ألف وصيف ووصيفة، ولدان مخلدون، قدراً واحداً.

جنة المأوى

ثم قال: كن. فكوَّن جنة المأوى مع شرف جنة النعيم، وهي مائة درجة هكذا، ومائة هكذا، ومائة هكذا، ومائة هكذا، بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، وعندها سدرة المنتهى، ينبع من ساقها نهر النبي ، وما من غرفة ولا أريكة في جنة من الجنان، إلا وغصن من أغصان سدرة المنتهى عليها، فيها ألف عمود من در هكذا، وألف عمود من زمرد هكذا، وألف عمود من لؤلؤ هكذا، وألف عمود من ياقوت هكذا، طول كل عمود مائة ألف عام، على كل عمود سبعون ألف غرفة.

عليين

وفوق هؤلاء عليون، قال النبي : إن أهل الجنَّة يرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء. وفوق هذه غرف، من فوقها غرف مبنية، تجرى من تحتها الأنهار، كلما اشتاق ولي الله النظر إلى الله تعالى، اطلع من بعض الكوى، فرآه، فذلك قول الله: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا } سورة الكهف: 107 – 108. فيها مائة ألف قنديل، طول كل قنديل ألف عام، تأوى إليه أرواح الشهداء معلقة تحت العرش.

جنة عدن

وإن الله تعالى خلق ما شاء لمن شاء كيف شاء، فخلق الله جنة عدن، وفيها نهر الكوثر، وفيها شجرة طوبى، غرسها الله بيده، وأربعة أشياء تولَّى الله تعالى خلقها بيده، قال وهب: شجرة طوبى غرسها الله تعالى بيده، وخلق آدم بيده، وجنة عدن خلقها بيده، وكتب التوراة لموسى بيده[1].

وجنة عدن مثل مخ البيض، أصفر وأحمر، وغير ذلك، يرى صبغها من ألف عام، ثمَّ قال لها: جنتي، تكلَّمي. فقالت: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } سورة المؤمنون: 1 – 5. فهي والله، دار لا تقوم بالأثمان، ولا يغيرها ريب الزمان، ولا يذهب بها الحدثان، ملاطها المسك، ورضراضها الدر والمرجان، ترابها الورس والزعفران، وسقفها عرش الرحمن، وخدمها الولدان، كلما اشتاقوا، رأوا الرحمن تعالى[2].

شجرة طوبى

وقال: إن في الجنَّة شجرةً، يقال لها: طوبى. لو يسخر للراكب الجواد أن يسير في ظلها، لسار مائة عام، قبل أن يقطعها، ورقها وساقها برود خضر، وزهور رياضها صفر، وأفنانها سندس وإستبرقٍ، وثمرها حلل خضر، وماؤها زنجبيل وعسل، وبطحاؤها ياقوت أحمر، وزبرجد أخضر، وترابها مسك وعنبر وكافور أبيض، وحشيشها زعفران منير، والأجيج[3] يتأجج من غير وقودٍ، ويتفجر من أصلها أنهار السلسبيل والمعين والرحيق، وظلها مجلس من مجالس أهل

(1) خلق الله أربعة بيده: العرش، وعدن، والقلم، وآدم، ثمَّ قال لكل شيء: كن، فكان. جامع البيان 21: 239، وهناك بعض الاختلاف حيث الأربعة هي: شجرة طوبى، وآدم، وجنة عدن، وكتب التوراة لموسى بيده، العظمة 3: 1067، وفي العظمة 5: 1555، رواية أخرى، تجعل الأشياء ثلاثة: خلق آدم، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس، وفي ألف باء الحاخام عقيفا: 59. قصص اليهود: 83. أن الإنسان هو الوحيد الذي خلقه الرب بيده، والباقون نشأوا من كلمة الرب.

(2) العظمة 3: 1067. وهناك رواية أخرى، عن وهب، عن ابن عبَّاس، تعدُّ الجنان سبعاً أيضاً. بستان الواعظين: 131.

(3) الأجوج. في الأصل، والأجيج تلهب النار، أو صوتها. لسان العرب: أجج.

الجنَّة، ومتحدث لجمعهم.

فبينا هم في ظلها يتحدثون، إذ جاءهم الملائكة، يقودون نجبًا، خلقت من الياقوت، ثمَّ نفخ فيها الروح، مزمومةً بسلاسل من ذهبٍ، كان وجوهها المصابيح نضارةً وحسنًا، وبرها من خزٍّ أحمر، ومرعزي أبيض(1)، لم ينظر الناظرون إلى مثلها حسنًا وبهاءً وجمالاً، ذللاً من غير مهابةٍ، نجبًا من غير رياضةٍ، عليها رحال، ألواحها من الدر واليواقيت، مفضضة باللؤلؤ والمرجان، صفائحها من الذهب الأحمر ملبسة بالعبقري والأرجوان، فأناخوا إليهم تلك النجائب، ثمَّ قالوا لهم: إن ربكم يقرئكم السلام، ويستزيدكم؛ لتنظروا إليه، وينظر إليكم، ويحييكم وتحيونه، ويكلمكم وتكلِّمونه، ويزيدكم من فضله وسعته، إنه ذو رحمةٍ واسعةٍ، وفضلٍ عظيمٍ، فيتحول كل رجلٍ منهم على راحلته.

ثم انطلقوا صفا واحدًا معتدلًا، لا يفوت من شيءٍ شيئًا، ولا يفوت أذن ناقةٍ أذن صاحبتها، ولا يمرون بشجرةٍ من أشجار الجنَّة، إلا أكفتهم بثمرتها، ورحلت لهم عن طريقهم؛ كراهية أن تثلم صفهم، أو تفرق بين الرجل ورفيقه.

فلمَّا رفعوا إلى الجبار تبارك وتعالى، أسفر لهم عن وجهه الكريم، وتجلى لهم في عظمته، فحياهم بالسلام، فقالوا: ربنا، أنت السلام، ومنك السلام، ولك حق الجلال والإكرام. فقال لهم تبارك وتعالى: إني أنا السلام، ومني السلام، ولي حق الجلال والإكرام، فمرحبًا بعبادي الذين حفظوا وصيتي، ورعوا عهدي، وخافوني بالغيب، وكانوا مني على وجلٍ مشفقين. فقالوا: أما وعزتك، وعظمتك، وجلالك، وعلو مكانك، ما قدرناك حق قدرك، وما أدينا إليك كل حقك، فائذن لنا بالسجود لك.

فقال لهم ربهم: قد وضعت عنكم مؤنة العبادة، وأرحت لكم أبدانكم، فطالما أنصبتم الأبدان، وأعنيتم لي الوجوه، فالآن أفضوا إلى روحي ورحمتي وكرامتي، فسلوني ما شئتم، وتمنوا علي، أعطكم أمانيكم، فإني لن أجزيكم اليوم بقدر أعمالكم، ولكن بقدر رحمتي وكرامتي، وطولي وجلالي، وعلو مكاني، وعظمة سلطاني، فلا يزالون في الأماني والعطايا والمواهب، حتى إن المقصر منهم في أمنيته ليتمنى مثل جميع الدنيا، منذ يوم خلقها الله إلى يوم أفناها، فقال لهم ربهم: لقد قصرتم في أمانيكم، ورضيتم بدون ما يحق لكم، فقد أوجبت لكم ما سألتم وتمنيتم، وألحقت لكم، وزدتكم ما قصرت عنه أمانيكم، فانظروا إلى مواهب ربكم التي وهب لكم.

فإذا بقبابٍ في الرفيق الأعلى، وغرفٍ مبنيةٍ من الدر والمرجان، وإذا أبوابها من ذهبٍ، وسررها من ياقوتٍ، وفرشها سندس وإستبرق، ومنابرها من نورٍ، يفور من أبوابها وأعراصها نور، شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري، فإذا بقصورٍ شامخةٍ في أعلى عليين من الياقوت،

---

(1) الخزُّ نوع من ثياب الإبريسم. لسان العرب: حرر. والمرعزي الزغب تحت شعر العنز. لسان العرب: حرر، رعز.

يزهر نورها، فلولا أنه سخرها، للمعت الأبصار.

فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض، فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر، فهو مفروش بالعبقري الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بأرجوان أصفر، مبثوثة بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر والفضة البيضاء، وبروجها وأركانها من الجوهر، وشرفها قباب اللؤلؤ.

فلمّا انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قربت لهم براذين من الياقوت الأبيض، منفوخ فيها الروح، بجنبها الولدان المخلدون، بيد كل وليدٍ منهم حكمة برذونٍ من تلك البراذين، لجمها وأعنتها من فضةٍ بيضاء، منظومةٍ بالدر والياقوت، سرجها مفروشة بالسندس والإستبرق، فانطلقت بهم تلك البراذين، تزف بهم، وتطوف بهم رياض الجنَّة، فلمّا انتهوا إلى منازلهم، وجدوا الملائكة قعودًا على منابر من نورٍ ينتظرونهم؛ ليزوروهم ويصافحوهم، ويهنئوهم بكرامة ربهم.

فلمّا دخلوا قصورهم، وجدوا فيها جميع ما تطول به عليهم ربهم مما سألوه وتمنوا، وإذا على باب كل قصرٍ من تلك القصور أربع جنانٍ: جنتان ذواتا أفنانٍ، وجنتان مدهامتان، فيها عينان نضاختان، وفيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجان، وحور مقصورات في الخيام.

فلمّا تبوءوا منازلهم، واستقر قرارهم، قال لهم ربهم: { حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا} سورة الأعراف: 44. قالوا: نعم . قال: أفرضيتم بمواهب ربكم؟. قالوا: نعم، رضينا ربنا، فارض عنا. قال: فبرضاي عنكم حللتم داري، ونظرتم إلى وجهي الكريم، وصافحتم ملائكتي، فهنيئًا هنيئًا لكم، { عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } سورة هود: 108. ليس فيه تنقيص، ولا تصريم، فعند ذلك { وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } سورة فاطر: 34 - 35[1].

أنهار الجنّة

وإن في رياض الجنَّة نهراً من أنهار الجنَّة كلها، أظهره الله تعالى، حيث ما أراد، وإن النيل نهر العسل في الجنَّة، ودجلة نهر اللبن في الجنَّة، والفرات نهر الخمر في الجنَّة، وسيحان نهر الماء في الجنَّة، وجيحان كذلك، وهما بأرض الهند، ، وهما نهرا الماء في الجنَّة، وصفها الله في الدنيا؛ حتى

(1) الشريعة للآجري 2: 1039. وعن وهب أيضاً في الكشف والبيان 5: 290. والبداية والنهاية 20: 407. والقصة في بيان أن المؤمنين يرون الله تعالى في الجنَّة، وهي من قضايا علم الكلام.

يصيرها إلى الجنَّة[1].

لغة أهل الجنَّة

لَّما خلق الله الجنَّة، جعلها خير معاد لأوليائه، وخلق الألسن، فاختار لجنته من جميعها العربية، وخلق بني آدم، فاختار للعربية العرب.

وقال: ولما أراد الله إتمام أمره، وإظهار العربية، أنزل كتاباً مقطعاً، وهو: شهد الله بالحق، بسم الله الرحمن الرحيم، شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم، قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. حكم الحي القيوم أنه إذا اعتكر الزمان، وكثر النسيان، وحكم في ذرية آدم الشيطان، وغلب هذا اللسان، فعبدت الأوثان، وقتل الولدان، بعث الله محمداً بالعدل والبيان، يصدع بالقرآن، وينصر الإيمان زمان ظهور السودان[2]، نبي لا نبي بعده، ولم يخلف الله وعده[3].

قال جبريل يا نوح، خذ هذه الصحيفة، فإنها كنز لذريتك، فاحبسها عنهم، فإنه من صارت له من ولدك القسمة، تعلم أنه خير ولدك، وذريته خير ذريتك، محمد . فلم يزل تبارك وتعالى ينقله من الأصلاب الطاهرة، والمحتد الطيب، حتى بعثه الله ، فكانت الصحيفة عند نوح لا يعلم ما فيها، حتى نعيت إليه نفسه، فقال له جبريل: ساهم بين بنيك، بني سام وحام ويافث. فقال لهم نوح: اقترعوا على هذه الصحيفة، فأيكم صارت له، فهو خير ولدي، وذريته خير ذريتي. فاقترعوا عليها، فصارت لسام، فأخذها سام، فصارت إليه، وكانت في يدي سام، ولا يعلم ما فيها[4].

النار

هي سوداء مظلمة مدلهمة، وهي طبقات: الهاوية والجحيم ولظى وجهنم والسعير، وأوديتها موبق والزمهرير[5]، وطعامها الزقوم، من أكله، سالت عيناه، وأحرق حشاه، وشرابها الغسلين، يتساقط منها لحم الوجوه، قبل أن يصل إلى أفواه الشاربين، مع مقاربة الزبانية المعذبين[6].

---

(1) عن وهب، عن ابن عبَّاس. بستان الواعظين: 134. وأنهار الجنَّة أربعة: من نور، أشد بياضاً من اللبن، من ثلج، من ماء، وهي في القرآن الكريم { فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى } سورة محمد: 15. وهناك أنهار أربعة من مواد أخرى حول العرش برواية وهب: «حول العرش أربعة أنهارٍ: نهر من نورٍ يتلألأ، ونهر من نارٍ تلظى، ونهر من ثلجٍ أبيض تلتمع منه الأبصار، ونهر من ماءٍ». العظمة 2: 543.

(2) أراد ظهور الحبشة من أشراط الساعة.

(3) الملوك المتوَّجة من حمير: 34.

(4) الملوك المتوَّجة من حمير: 35.

(5) وهي سبع طبقات.

(6) نفسه: 46.

جهنم

[على وجه الأرض سبعة أبحر والأرضون سبع، بين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها. قال: وجهنم على متن الريح ومتن الريح على حجابٍ من الظلمة لا يعلم عظمه إلا الله تعالى وذلك الحجاب على الثرى وإلى الثرى انتهى علم الخلائق][1].

وأما جهنم، فلها سبعة أبوابٍ، ما بين البابين مسيرة سبعين سنةٍ، في كل بابٍ من أبوابها سبعون ألف جبلٍ من نار، في كل جبلٍ سبعون ألف وادٍ من نار، في كل وادٍ سبعون ألف نوعٍ من العذاب، من قيودٍ، وأغلال، وسلاسلٍ، وسمومٍ، وحميمٍ، وزقوم، وحيات، وعقارب[2].

أول باب منها جهنم، وهو لأهل الكبائر، والثاني لظى، وهو لعبدة الأصنام، والثالث الحطمة، وهو ليأجوج ومأجوج، وما أشبههم من الكفار، والرابع السعير، وهو للشياطين، لقوله تعالى: { وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ } سورة الملك: 5. والخامس سقر، وهو لمن لا يصلّي ولا يزكي، لقوله تعالى: { قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ } سورة المدثر: 43. والسادس الجحيم، وهو لليهود والنصارى والمجوس، والذين أشركوا، والسابع الهاوية، وهو للمنافقين، لقوله تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } سورة النساء: 145. وهذا كله مأخوذ من قوله تعالى: { لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ } سورة الحجر: 44[3].

[وإذا قامت القيامة، وقضى الله بين أهل الدارين، أمر بالفلق، فيكشف عن سقر، وهو غطاؤها، فتخرج منه نار، فتحرق نار جهنم، وتأكلها كما تأكل النار في الدنيا القطن المندوف، فإذا وصلت البحر المطبق على شفير جهنم، وهو بحر البحور، نشفته أسرع من طرفة العين نشفًا، فينضب كان لم يكن مكانه ماء قط، وهو حاجز بين جهنم، والأرضين السبع، فإذا نشفت ماء ذلك البحر، اشتعلت في الأرضين السبع، فتدعها جمرةً واحدةً][4]. وقال: إن أهل النار الذين هم أهلها، هم في النار لا يهدؤون ولا ينامون ولا يموتون، يمشون على النار، ويجلسون على النار، ويشربون من صديد أهل النار، ويأكلون من زقوم النار، لحفهم نار، وفرشهم نار، وقمصهم نار وقطران، { وتغشى وجوههم النار } سورة إبراهيم: 50. قال: وجمع أهل النار في سلاسل، بأيدي الخزنة أطرافها، يجذبونهم مقبلين ومدبرين، فيسيل صديدهم إلى حفرٍ في النار،

(1) الجامع لأحكام القرآن 11: 170.

(2) في قصص اليهود: 60، 333. لجهنم سبعة أقسام، بين كل منها مسيرة ثلاثمائة سنة، ولكلٍّ قسم سبعة أقسام، كذلك.يوجد في كلٍ قسم فرعي سبعة آلاف كهف، في كل كهف يوجد سبعة آلاف شق، في كل شق سبعة آلاف عقرب، ولكلّ عقرب ثلاثمائة حلقة، وفي كل حلقة سبعة آلاف كيس للسم، يتدفق منها سبعة آلاف نهر من السم الفتاك.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 85.

(4) شعب الإيمان 1: 566.

فذلك شرابهم[1].

الملائكة والجن وإبليس

وخلق الجنَّة، وخلق فيها أجناس الملائكة، يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، ثمَّ خلق النار بعد الجنَّة، بألف عام، فزفرت النار وتغيظت، فتطاير منها الشرر، فخلق الله من ذلك الشرر إبليس والجان، وأسكنهم الجنَّة، يسبِّحون الله تعالى، كما يرون الملائكة يفعلون، ويعبد الله إبليس مع الملائكة[2].

عن وهب، عن أبي هريرة، قال: قال ابن سلام : فمن ملك الله الذي يليه؟. قال: ملك الله الذي يليه إسرافيل، ثمَّ جبريل، ثمَّ ميكائيل، ثمَّ ملَك الموت[3].

جبريل

سألنا وهب بن مُنبِّه رحمه الله عن خلق جبريل فزعم أن ما بين منكبيه، من ذا الى ذا، خفق الطير سبعمائة عام[4]. وروى عن ابن عبَّاس، قال: سأل النبي جبريل أن يراه في صورته قال: ادع ربك. فدعا ربه، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع فينتشر، فلمَّا رآه النبي صعق، فأتاه فنعشه، ومسح البزاق عن شدقه[5].

جبريل وميكائيل

وقال: إن أدنى الملائكة من الله جبريل، ثمَّ ميكائيل، فإذا ذكر عبدًا بأحسن عمله، قال: فلان بن فلانٍ عمل كذا وكذا من طاعتي، صلواتي عليه، ثمَّ سأل ميكائيل جبريل: ما أحدث ربنا؟. فيقول: فلان بن فلانٍ ذكره بأحسن عمله، فصلى عليه، صلوات الله عليه، ثمَّ سأل ميكائيل من يراه من أهل السماء، فيقول: ماذا أحدث ربنا؟. فيقول: ذكر فلان بن فلانٍ بأحسن عمله، فصلى عليه، صلوات الله عليه، فلا يزال يقع من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى يقع إلى الأرض، وإذا ذكر عبدًا بأسوأ عمله، قال: عبدي فلان بن فلانٍ عمل كذا وكذا من معصيتي، فلعنتي عليه، ثمَّ سأل ميكائيل جبريل: ماذا أحدث ربنا؟. فيقول: ذكر فلان بن فلانٍ بأسوأ عمله، فعليه لعنة الله، فلا يزال يقع من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى يقع إلى الأرض[6].

(1) البداية والنهاية 20 154. وعقب ابن الأثير: وهذا الكلام عن وهب بن مُنبِّه اليماني، وقد كان ينظر في كتب الأوائل، وينقل من صحف أهل الكتاب الغث والسمين، ولكن لهذا الكلام شواهد من القرآن العظيم، وغيره من الأحاديث.

(2) الملوك المتوَّجة من حمير: 11.

(3) العظمة 2: 711. والمعجم الأوسط للطبراني 8: 382.

(4) العظمة 2: 800.

(5) المعجم الكبير للطبراني 11: 57.

(6) العظمة 2: 503.

إسرافيل

ثم قال الله تعالى: كن. فكوَّن الصور، وهو من لؤلؤة بيضاء، في صفاء الزجاجة، وله أربع شعب: شعبة تحت العرش، وشعبة في ثراء الثراء، وشعبة في مشرق المشرق، وشعبة في مغرب المغرب، ثمَّ قال للعرش: خذ الصور. فتعلق بالعرش.

ثم قال: كن. فكوَّن إسرافيل، وهو من أقرب الملائكة إلى الله تبارك وتعالى، فأمره أن يأخذ الصور، فأخذه، وفيه ثقب بعدد كل روح مبدوءة، وكل نفس منفوسة، لا يخرج روحان من ثقب واحد، ولا جسمان يدخلان في ثقب، بل كل ثقب لصغير الصغير الذي لا يعرف، ولخليل الخليل الذي لا يوصف.

وفي وسط الصور كوة، كإستدارة السماء والأرض، وإسرافيل واضع فمه على تلك الكوة، ثمَّ قال له الرب: قد وكلتك بالصور، فأنت للنفخة والصيحة. فدخل إسرافيل في مقدم العرش، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش، وقدم اليسرى، ولم يطرف مذ خلقه الله، ينتظر ما يؤمر به، والعرش على كاهله، واللوح يقرع جبهته[1].

فإذا كان يوم القيامة، يقول الله: يا إسرافيل، هات ما وكلتك به. فيقول: نعم، يا رب، في الصور كذا وكذا ثقبة، وكذا وكذا روح، للإنس منها كذا وكذا، وللجن منها كذا وكذا، وللشياطين منها كذا وكذا، وللوحوش منها كذا وكذا، وللطير كذا وكذا، ومنها كذا وكذا للحيتان، وللبهائم منها كذا وكذا، وللهوام منها كذا وكذا، فيقول الله: خذه من اللوح. فإذا هو مثل بمثل، لا يزيد ولا ينقص.

ثم يقول الله: هات ما وكلتك به يا ميكائيل. فيقول: نعم، يا رب، أنزلت من السماء كذا وكذا كيلة، وكذا وكذا مثقالاً، وزنة كذا وكذا، وكذا وكذا قيراطاً، وزنة كذا وكذا، وخردلة وزنة كذا وكذا ذرةً، وأنزلت في سنة كذا وكذا، وفي شهر كذا وكذا، وفي جمعة كذا وكذا، وفي يوم كذا وكذا، للزرع كذا وكذا، وأنزلت منه للشياطين كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، وأنزلت للإنس منه كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وأنزلت للبهائم كذا وكذا، وزنة كذا وكذا، وأنزلت للوحوش كذا وكذا، وزنة كذا وكذا للطير منه كذا وكذا، وللحيتان منه كذا وكذا، وللهوام منه كذا وكذا، فذلك كذا وكذا. فيقول خذه من اللوح، فإذا هو مثل بمثل، لا يزيد ولا ينقص.

ثم يقول: يا جبريل، هات ما وكلتك به. فيقول: نعم، يا رب، أنزلت على نبيك فلان كذا وكذا آية، في شهر كذا وكذا، في جمعة كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، وأنزلت على نبيك فلان كذا وكذا آية، وعلى نبيك فلان كذا وكذا سورة، فيها كذا وكذا آية، فذلك كذا وكذا أحرفاً، وأهلكت كذا وكذا مدينة، وخسفت بكذا وكذا، فيقول: خذه من اللوح. فإذا هو مثل بمثل، لا يزيد ولا

(1) نفسه 3: 842.

ينقص.

ثم يقول: هات ما وكلتك به يا عزرائيل. فيقول: نعم، يا رب، قبضت روح كذا وكذا إنسي، وكذا وكذا جني، وكذا كذا شيطان، وكذا وكذا غريق، وكذا وكذا حريق، وكذا وكذا كافر، وكذا وكذا شهيد، وكذا وكذا هديم، وكذا وكذا لديغ، وكذا وكذا في سهل، وكذا وكذا في جبل، وكذا وكذا طير، وكذا وكذا هوام، وكذا وكذا وحش، فذلك كذا وكذا، جملته كذا وكذا. فيقول: خذه من اللوح. فإذا هو مثل بمثل، لا يزيد ولا ينقص، فالله تبارك وتعالى علم قبل أن يكتب وأحكم، فذلك قول الله { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } سورة الحديد: 3[1].

عزرائيل

ثم إن الله تعالى قال: كن. فكوَّن عزرائيل. ثمَّ قال: كن. فكوَّن كبشاً أملح، مستتراً بسواد وبياض، له أربعة أجنحة: جناح تحت العرش، وجناح في ثرى الثرى، وجناح في مشرق المشرق، وجناح في مغرب المغرب، له في كل جناح سبعون ألف جناح، وفي كل جناح سبعون ألف ريشة، في كل ريشة سبعون ألف شعبة، في كل شعبة سبعون ألف زغبة، وسبعون ألف شعرة، في كل شعرة سبعون ألف كاسٍ لأحباء الله وسبعون ألف كاسٍ لعدو الله، فذلك قوله { فَأَمَّا إِنْ كان مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ كان مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كان مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ } سورة الواقعة: 88 - 94. وهو عدو الله.

ثم قال للموت: ابرز. فبرز الموت لعزرائيل، فذلك قول الله: { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } سورة السجدة: 11. ، فهؤلاء الأربعة الأملاك جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت - عليهم السلام - أول من خلقهم الله من الخلق، وآخر من يميتهم الله، وأول من يحييهم، { فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا } سورة النازعات: 5. { فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا } سورة الذاريات: 4[2].

وملك الموت قاعد على عرشه، واللوح في يده، فيه أسماء الخلق، فكلما قبض روح عبدٍ حلق على اسمه، والخلق بين عينيه، والدنيا كلها بين ركبتيه، ويده تبلغ المشرق والمغرب، فإذا جاء أجل عبدٍ نظر إليه، فإذا علم أعوانه من الملائكة أنه نظر إليه علموا أنه مقبوض فبطشوا به، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم مد ملك الموت يده إليه فقبض روحه، لا يلي ذلك غيره[3].

وقال: إن رجلًا كان يدعو لملك الموت دائبًا، حتى جاءه فصادفه، قال: ما حاجتك إلي؟.

---

(1) العظمة 3: 849.

(2) العظمة 3: 900.

(3) العظمة 2: 711. والمعجم الأوسط للطبراني 8: 382.

قال: أخر أجلي. قال: لا أقدر على ذلك، ولكن سأعلمك عند موتك متى تموت، فلمَّا دنا أجله، أخبره، فقال: إنك ميت إلى ثلاثة أيام، فاشتكى الرجل، فلمَّا كان اليوم الثالث، أتى بغلام له، أي الذي قال له ملك الموت: إنك ميتٌ إلى ثلاثة أيام، طباخٍ، فأضجعه مكانه على الفراش الَّذي كان عليه، واختبأ في مكان الطباخ الذي كان فيه، حيث كان يخبز، فأتى ذلك الرجل من يتوفاه، فقال له الرجل: ما تريد سيدي؟. وهو ذاك في البيت. قال: ما أريد إلا إياك. فتوفاه مكانه عند التنور[1].

ملك الموت وملك الشمس

عن وهب، عن سلمان: إن رجلًا كان يدعو لملك الشمس، فدأب ذلك زمانًا، حتى أتاه ملك الشمس، فقال: ما تريد بدعائك لملك الشمس الذي تدعو له؟. قال: حاجةً لي إليه. قال: ما حاجتك إليه، فإني أنا هو؟. فقال الرجل: أخبرت أنك أكرم الملائكة، وأمكن الملائكة عند ملك الموت، فاشفع لي إليه. قال: نعم، أنا مكلمه لك، فما يستطيع أن يفعل لأحدٍ من بني آدم، فهو فاعله لك. ثمَّ حمله ملك الشمس بين جناحيه، فوضعه عند مطلع الشمس.

ثم أتى ملك الموت، فقال: حاجة لي إليك. قال: أفعل كل شيءٍ أستطيعه. قال: صديق لي من بني آدم، تشفع بي إليك؛ لتؤخر من أجله. قال: ليس ذلك إلي، وما أستطيعه، ولكن إن أحببت أن أعلمه أجله متى هو، ويتقوم في نفسه، فعلت. قال: نعم أخبره بهذا. فنظر في ديوانه، فأخبره باسمه. فقال: قد كلمتني في إنسانٍ ما أراه يموت أخذًا. قال: وكيف؟. قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هنالك. قال: انطلق فلا تجده إلا وقد مات. فرجع إليه فوجده ميتًا[2].

ملك الموت وأحد الملوك

وكان ملك من ملوك الأرض، أراد أن يركب إلى الأرض، فدعا بثيابٍ يلبسها، فجيء بثيابٍ، فلم تعجبه، فقال: ائتوني بثيابٍ كذا وكذا. حتى عد أصنافًا من الثياب، كل ذلك لا يعجبه، حتى جيء بثيابٍ، وافقته فلبسها، ثمَّ قال: جيئوني بدابة كذا. فجيء بها، فلم تعجبه، ثمَّ قال: جيئوني بدابة كذا. فجيءٍ بها، فلم تعجبه حتى جيء بدابةٍ، وافقته فركبها، فلمَّا ركبها، جاء إبليس، فنفخ في منخره نفخةً، فعلاه كبرًا.

وسار وسارت الخيول معه، قال: فهو رافع رأسه لا ينظر إلى الناس كبرًا وعظمًا، فجاءه رجل ضعيف، رث الهيئة، فسلم عليه، فلم يردَّ عليه السلام، ولم ينظر إليه، فقال له: إن لي إليك حاجةً. فلم يسمع كلامه، قال: فجاء حتى أخذ بلجام دابته، فقال: أرسل لجام دابتي، فقد تعاطيت مني أمرًا، لم يتعاطه مني أحد. قال: إن لي إليك حاجةً. قال: أنزل فتلقاني، قال: لا، الآن.

(1) العظمة 3: 917.

(2) العظمة 3: 916.

فقهره على لجام دابته، فلمَّا رأى أنه قد قهره، قال: حاجتك. قال: إنها سر أريد أن أسره إليك. قال: فأدنى رأسه إليه، فساره. قال: أنا ملك الموت. قال: فانقطع وتغير لونه، واضطرب لسانه، ثمَّ قال: دعني حتى آتي أرضي هذه التي خرجت إليها، وأرجع من موكبي، ثمَّ تمضي في أمرك. قال: والله، لا ترى أرضك أبدًا، ولا، والله، لا ترجع من موكبك هذا أبدًا. قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي، فأقضي حاجةً، إن كانت. قال: لا، والله، لا ترى أهلك وثقلك أبدًا. قال: فقبض روحه مكانه، فخر كأنه خشبة[1].

ملك الموت والملائكة

وإن الملائكة الذين يقرنون بالناس هم الذين يتوفونهم، ويكتبون لهم آجالهم، فإذا كان يوم كذا توفته، ثمَّ قرأ: { ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون} سورة الأنعام: 93. فقيل لوهبٍ رحمه الله تعالى: أليس قد قال الله تعالى: { قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثمَّ إلى ربكم ترجعون } سورة السجدة: 11. قال: نعم، إن الملائكة إذا توفوا أنفسنا، دفعوها إلى ملك الموت، وهو كالعاقب يعني العشار الذي يؤدي إليه من تحته[2].

شراهيل ملك الليل

عن وهبٍ، عن سلمان ، أنه قال: الليل مؤكل به ملك، يقال له: شراهيل، فإذا جاء وقت الليل، أخذ شراهيل خرزةً سوداء، فدلاها من قبل المغرب، فإذا نظرت إليها الشمس، وجبت[3] في أسرع من طرفة عينٍ، وقد أمرت الشمس أن لا تغرب، حتى ترى الخرزة، فإذا غربت الشمس، جاء الليل بظلمته وسلطانه، فلا تزال الخرزة معلقةً حتى يجيء ملك آخر، يقال له: هراهيل، بخرزةٍ، فيعلقها من قبل المطلع، فإذا رآها شراهيل، مد إليه خرزته، وترى الشمس الخرزة البيضاء فتطلع، وقد أمرت أن لا تطلع حتى تراها، فإذا طلعت، جاء النهار بنوره وسلطانه، والله سبحانه وتعالى أعلم[4].

الروح ملك

وقال في قوله تعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ } سورة الإسراء: 85. هو ملك من الملائكة، له عشرة آلاف جناح، ما بين كل جناحين منها ما بين المشرق والمغرب، له ألف وجه، لكلِّ وجه ألف لسان وشفتين وعينين، يسبِّحون الله تعالى[5].

---

(1) حِلية الأولياء 6: 202.

(2) العظمة 3: 933.

(3) غابت. لسان العرب: وجب.

(4) العظمة 4: 1390. والبدء والتاريخ 2: 39.

(5) المتفق والمفترق 1: 224. وهو عن ابن عبَّاس في تفسير عبد الرزاق 2: 314.

الملك المغتسل

إن لله تبارك وتعالى نهرًا في الهواء، سعة الأرضين كلها سبع مراتٍ، ينزل على ذلك النهر ملك من السماء، فيملؤه ويسد ما بين أطرافه، ثمَّ يغتسل منه، فإذا خرج، قطرت منه قطرات من نورٍ، فيخلق من كلِّ قطرةٍ منها ملك يسبِّح الله بجميع تسبيح الخلائق كلهم[1].

شمخائيل ملك البراءات

عن ابن عبَّاس قال: إن لله تعالى ملكاً، يسمى شمخائيل، يأخذ البراءات للمصلين من عند الله عند كل صلاةٍ، فإذا أصبح المؤمنون، وقاموا فتوضأوا لصلاة الفجر وصلوا، أخذ لهم من الله براءةً، أولها مكتوب فيها: عبيدي وإمائي، في جواري جعلتكم، وفي ذمتي وحفظي جعلتكم، وتحت كنفي صبحتكم، فوعزتي، لا أخذلكم، مغفورة لكم ذنوبكم إلى الظهر.

فإذا كان وقت الظهر، قاموا فتوضأوا وصلوا، أخذ لهم من الله تعالى براءةً ثانيةً، مكتوب فيها: عبيدي وإمائي، بدلت سيئاتكم حسنات، وتجاوزت لكم عن السيئات، وأدخلتكم برضاي عليكم دار الجلال. وإذا كان وقت العصر، قاموا فتوضأوا وصلوا، أخذ لهم من الله براءةً ثالثةً، مكتوب فيها: عبيدي وإمائي، حرمت أبدانكم على النار، وأسكنتكم منازل الأبرار، ورفعت عنكم برحمتي الأشرار.

فإذا كان وقت المغرب، قاموا فتوضأوا وصلوا، أخذ لهم براءةً رابعةً مكتوب فيها: عبيدي وإمائي، صعدت إلي ملائكتي بالرضى عنكم، وحق علي رضاكم، وأنا أعطيكم يوم القيامة أمنيتكم، فإذا كان وقت العشاء، أخذ لهم من الله تعالى براءةً خامة مكتوب فيها: عبيدي وإمائي، في بيوتكم تطهرتم، وإلي مشيتم، وفي ذكري خضتم، وحقي عرفتم، وفرائضي أديتم. إشهد يا شمخائيل وسائر ملائكتي، أني قد رضيت عنهم.

فينادي شمخائيل كل ليلةٍ ثلاثة أصواتٍ، بعد عشاء الآخرة: يا ملائكة الله، إن الله قد غفر للمصلين الموحدين، فلا يبقى ملك، في السموات السبع، إلا استغفر للمصلين، ودعا لهم بالمداومة عليها، فمن رزق منهم صلاة الليل، فإنه ما من عبدٍ ولا أمةٍ، قام لله مخلصًا، فتوضأ وضوءًا سابغًا، ثمَّ دنا من مصلاه، فصلى فيه، إلا جعل الله تعالى خلفه سبع صفوفٍ من الملائكة، في كل صف منهم ما لا يحصي عددهم إلا الله، أحد طرفي الصف بالمشرق، والآخر بالمغرب، حتى إذا فرغ من صلاته، أمن هؤلاء الملائكة على دعائه، فإذا فرغ من دعائه، كتب الله له بعدد هؤلاء الملائكة حسناتٍ، ومحا عنه بعددهم سيئاتٍ، فرفع لهم بعددهم درجاتٍ[2].

---

(1) العظمة 2: 736. وفي الموضوعات لابن الجوزي 1: 146. اسم النهر والملَك.

(2) الموضوعات لابن الجوزي 2: 148. واللآلئ المصنوعة 2: 11.

ملك البحار

قال وهب: رأيت أسقف قيسارية[1] في الطواف، فسألته عن إسلامه، فقال: ركبت سفينةً أقصد بعض المدن، في جماعةٍ من الناس، فانكسرت السفينة، وبقيت على خشبةٍ، تضربني الأمواج ثلاثة أيام بلياليها، ثمَّ قذف بي الموج إلى غيضةٍ، فيها أشجار لها ثمر مثل النبق، ونهر مطرد، فشربت الماء، وأكلت من ذلك الثمر.

فلمَّا جنَّ الليل، صعد من الماء شخص عظيم، وحوله جماعة، لم أر على صورتهم أحدًا، فصاح بأعلى صوته: لا إله إلا الله، الملك الجبار، محمد رسول الله، النبي المختار، أبو بكرٍ الصديق صاحب الغار، وعمر بن الخطاب مفتاح الأمصار، وعثمان بن عفان حسن الجوار، وعلي بن أبي طالبٍ قاصم الكفار، أصحاب محمدٍ المتخبون الأخيار، وقاهم الله عذاب النار، على باغضيهم لعنة الله، ومأواهم جهنم، وبئس الدار، ثمَّ غاب.

فلمَّا كان بعد، مضى أكثر الليل، صعد ثانيًا في أصحابه، ونادى: لا إله إلا الله، القريب المجيب، محمد رسول الله، النبي الحبيب، أبو بكرٍ الصديق الشفيق الرفيق السديد، عمر بن الخطاب ركن من حديدٍ، عثمان بن عفان الحيي الحليم، علي بن أبي طالبٍ الكريم المستقيم، ثمَّ بصرني أحدهم، فدنا مني، فقال: جني أم إنسي؟. قلت: إنسي ، قال: ما دينك؟ قلت: النصرانية ، قال: أسلم تسلم، أما علمت أن الدين عند الله الإسلام؟. فقلت له: من هذا الشخص العظيم الذي نادى؟.

فقال: هو التيار، ملك البحار، هذا دأبه كل ليلةٍ، في بحرٍ من البحور، ثمَّ قال: غدًا يمر بك مركب، فصح بهم أو أشر إليهم، يحملوك إلى بلاد الإسلام. فلمَّا كان من الغد، مرَّ مركب، فأشرت إليهم، وكانوا نصارى، فحملوني، وقصصت عليهم قصتي، فأسلموا كما أسلمت، وضمنت الله أن لا أكتم هذا الحديث[2].

الجن

خلق الله تعالى نار السموم، وهي نار، لا حرَّ لها، ولا دخان لها، ثمَّ خلق الله منها الجان، وخلق منها خلقاً عظيماً، وسماه: مارجاً، وخلق منه زوجته، وسماها: مارجة، ثمَّ واقعها، فولدت

---

(1) مدينة على ساحل البحر من أعمال فلسطين. معجم البلدان 4: 421.

(2) فنون العجائب: 121.
وهناك أسطورة الملك رهب، وهو ملك البحر، كان قد تمرد على أمر الرب باستيعاب المياه، غير أنه رفض الانصياع للأمر الإلهي قائلاً: لدي ما يكفيني من المياه. فقضى الرب عليه بالموت، فيرقد جسده حالياً في البحر، يبعث الروائح الكريهة. مدراش تنحوما 4: 97 – 98. قصص اليهود: 62، 335. وإذا كانت أسطورة رهب تفسر الرائحة الكريهة في البحر، فإنها بعثت للدعوة إلى الإيمان في الثقافة الإسلامية.

ولداً، فسماه: الجن، ومنه تفرعت قبائل الجن، ومنهم إبليس اللعين[1].

وكان يولد للجنِّ الذكر، ويولد للجان الأنثى، فيزوِّجون الذكر بالأنثى، فصاروا سبعين ألف ذكر وأنثى، ثمَّ ازدادوا، حتى بلغوا عدد الرمل، وتزوج إبليس، وكان اسمه: عزازيل، بامرأة من ولد الجن، يقال لها: روح بنت سلسايل بن الجان، فولدت منه قطون وقطونة في بطن، وشعلا وشعلة في بطن، ثمَّ دهور ودهرة في بطن، ثمَّ شيعبان وشيعبانة في بطن، ثمَّ فقطس وفقطسة في بطن.

وكثر الأولاد، حتى صاروا لا يحصون، فكانوا يهيمون على وجوههم كالذر والنمل والبعوض والجراد والطير، وكانوا يسكنون المفاوز والغياض والآجام والمزابل والآبار والأنهار والنواويس[2]، وكل موضع مظلم، حتى امتلأت منهم الأرض، ثمَّ تمثلوا بعد ذلك في صور الدواب والبغال والحِمير والبقر والغنم والكلاب والسباع، فلماً امتلأت الأرض من ذرية إبليس، أسكن الله الجان في الهواء دون السماء، وأسكن الجن وأولاده في سماء الدنيا، وأمرهم بالعبادة والطاعة، فذلك قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } سورة الذاريات: 56.

ثمَّ أوحى الله تعالى للملائكة: أني خلقت دارين: إحداهما من رحمتي، والأخرى من سخطي، فانظروا إليهما. قال: فشخصت الملائكة، ينظرون إلى جهنم، وإلى دركاتها، وأطباقها، وألوان عذابها، فسألت ربها أن يخبرها لمن تكون، فأنطق الله النار، فقالت: إني مسكن عذابٍ للعاصين الله، والمكذبين بأمره ونهيه، قال: ثمَّ نظرت إلى الجنَّة، وما أعدَّ الله فيها لأهلها، فقالت: إلهنا، لمن خلقتها؟.

فأمر الجنَّة أن تتكلَّم بالجواب، فقالت: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } سورة المؤمنون: 1. فقالت الملائكة: خلقت لنا، نحن المؤمنين، فقالت الجنَّة: { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } سورة المؤمنون: 5- 11. فأيقنوا أنها مخلوقة لغيرهم، ثمَّ قال الله تعالى: إني خلقت هذه الدار لأهل طاعتي، ممن أخلق بيدي، وأنفخ فيه من روحي، وأسجد له ملائكتي، وأفضله على جميع خلقي.

وكانت السماء تفتخر على الأرض، وتقول: ربِّ، رفعتني، وأنا الخلق الأعظم، وأنا مسكن الملائكة، وفي العرش والكرسي، وفي الشمس والقمر والنجوم، وفي خزائن الرحمة، ومني ينزل الوحي.

---

(1) خلق الله من شرر النار إبليس والجان، وأسكنهم الجنَّة، عن وهب. الملوك المتوَّجة من حِمير: 11.

(2) المفاوز هي الصحاري، والغياض مواضع الأشجار الملتفة عند المياه، والآجام هي الأشجار الملتفة، والنواويس مقابر النصارى.

فقالت الأرض: إلهي وسيدي، بسطتني أرضاً على وجه الماء، واستودعتني عروق الأشجار والنبات والعيون، وأرسيت على ظهري الجبال، وخلقت في أشجاراً وثماراً، فلمن خلقتها يا رب؟، وهذه السماء تفتخر علي بما تعلم، وأنا وحشة الثرى، إن لم يكن على ظهري من يذكرك.

فنوديت الأرض: أن اسكني، فإني خالق من أديمك صورةً، لا مثل لها في الحسن والجمال، وأرزقه العقل واللسان، وأعلمه علمي، وأنزل عليه كلامي، ثمَّ أملأ منه بطنك وظهرك، وشرقك وغربك، فافتخري يا أرض، على السماء بذلك، فاستقرت الأرض، وهي بيضاء نقية، كالفضة البيضاء في النقاء.

ثم إن الجانَّ أشرفت إلى الأرض، فرأت ما فيها من الوحوش والسباع والهوام، فسألت ربها أن يهبطها إليها، فأذن الله بذلك على أن يعبدوه، ولا يعصوه، فأعطوه هذا العهد، ونزلوا، وهم في ألف قبيلٍ من الجن، وعبدوا الله تعالى دهراً طويلاً، ثمَّ أخذوا بعد ذلك في سفك الدماء، حتى استغاثت الأرض على ربها منهم، وقالت: يا رب، إن خلوي ممن يسكن أحب إلي من أن يكون على ظهري من يعصيك، فأوحى إليها: أن اسكني، فإني باعث إليهم رسولاً.[1]

وقال: وإن الله لَّما خلق الجنَّة حين شاء، كيف شاء، حيث شاء في سابق علمه، وخلق النار، وصار إبليس والجان إلى الجنَّة، وهم لا يتناسلون في الجنَّة، وإن الجان تنافسوا في الجنَّة، وطغى بعضهم على بعض، وعصوا الله، وسفك بعضهم دم بعض، عجَّ الملائكة إلى الله بالدعاء، قالوا: سبحانك ربنا، ما أحلمك وأكرمك، يتقلب في نعمك من يكفر بك، لم تعبد زيادةً في ملكك، ولم تعص مغالبةً في سلطانك، تمهل من أساء، وتصفح عمن عصى، لم تخش الفوات، فإليك المصير، وأنت على كل شيء قدير، لا يفوتك هارب، ولا ينجو منك هارب، لم ينقص ملكك من عصاك، ولا زاده من أطاعك، أنت قبل كل شيء، وأنت بعد كل شيء، لم يؤدك حفظ ما خلقت، فأنت بكلِّ شيء عليم.

فغضب الله على الجان، فأوحى الله إلى جبريل أن اخرج الجان من جواري، وطهر منهم جنتي. فأخرجهم جبريل من الجنَّة إلى أرضنا هذه، فأسكنهم جزائر البحار، وقفار الأرض، وبقي إبليس مع الملائكة، يعبد الله[2].

أنواع الجن

وإن الله خلق الجان من نار السموم، وخلق منه زوجته، كما خلق حواء من آدم، وإن الجان غشيها، فحملت منه، وإنها باضت إحدى وثلاثين بيضة، وإن بيضة من تلك البيض تفلقت عن قطربة، وهي أم القطارب، وإن القطربة على صورة الهرة، وإن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة، وإن مسكنهم البحور، وإن المردة من بيضة أخرى، مسكنهم الجزائر، وإن

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 87 - 89.

(2) الملوك المتوَّجة من حمير: 13.

الغيلان من بيضة أخرى، مسكنهم الخلوات والفلوات، وإن السعالى من بيضة أخرى، سكنوا الحمامات والمزابل، وإن الهوام من بيضة أخرى، سكنوا الهواء في صورة الحيات، ذوات الأجنحة يطيرون هنالك، وإن من بيضة أخرى الدواسق، وإن من بيضة أخرى الحماميص[1].

وسئل وهب عن الجن، ما هم؟، وهل يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون؟. قال: هم أجناس، أما خالص الجن الذين هم خالص الجن، فهم ريح، لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أجناس، يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون، وهي هذه السعالى، والغول[2].

إبليس

وسكن إبليس الأرض، بمن كان معه من الجن، وعبدوا الله تعالى حق عبادته، وكانت عبادة إبليس أكثر من عبادتهم[3]، ثمَّ رفعه الله تعالى إلى سماء الدنيا؛ لكثرة عبادته، فعبد الله تعالى ألف سنة، ثمَّ رفعه إلى الثانية، فعبد الله فيها ألف سنة، ثمَّ رفعه إلى الثالثة، فعبد الله فيها كذلك، حتى رفعه إلى السماء السابعة، فعبد الله في كل سماءٍ ألف سنة، حتى سمي: العابد. قال: وكان إبليس بمنزلةٍ عظيمة، بحيث إذا مرَّ به جبريل وميكائيل وغيرهما من الملائكة، يقول بعضهم لبعضٍ: لقد أعطى الله هذا العبد، من القوة على طاعة ربه، ما لم يعط أحداً من الملائكة[4].

وقال: إن الجن كانوا سكان الأرض قبل آدم، فكفرت طائفة منهم، فسفكوا الدماء، فأمر الله جنداً من الملائكة، من أهل السماء الدنيا، منهم إبليس، وكان رئيسهم، فهبطوا إلى الأرض، فأجلوا عنها الجان، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} سورة الحجر: 27. أي من قبل أن نخلق آدم، فألحقوهم بأطراف التخوم وجزائر البحور، وسكن إبليس والجند الذين معه عمران الأرض وأريافها، وكان اسم إبليس: عزازيل، ثمَّ ذكر خلق الله تعالى آدم[5].

وإبليس على عرشه في لجة خضراء، يتمثل بالعرش يوم كان على الماء، ويحتجب بالحجب

(1) مروج الذهب 2: 138. والمسالك والممالك للبكري 1: 254. والقطرب دويبة كانت في الجاهلية، يزعمون أنها ليس لها قرار البتة؛ وقيل: لا تستريح نهارها سعياً. والديسق السراب،إذا اشتدَّ جريه. لسان العرب: قطرب. دسق، ولم اعثر على معنى الحماميص، وربما هي كلمة عامية.

(2) العظمة 5: 1641. وآكام المرجان في أحكام الجان: 54. وحياة الحيوان الكبرى 1: 301. والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 11: 116.

(3) جامع البيان 1: 56 وما بعدها.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 90. وكان الشيطان (إبليس) أحد الملائكة الكروبيم (المقربين) يقول الرب: أنت الكروب المنبسط المظلل، أقمتك على جبل الله المقدس، بين حجارة النار تمشيت، أنت كامل في طرقك من يوم خلقت، حتى وجد فيك إثم. العهد القديم، سفر حزقيال 28: 13 - 15.

(5) المعارف: 14.

دون الرحمن تبارك تعالى[1]. وأخبرني جابر بن عبد الله، أنه سمع رسول الله يقول: عرش إبليس على الماء، ثمَّ يبعث سراياه فأعظمهم عنده أعظمهم فتنةً[2].

وإن أهل الكتاب يقولون: إن إبليس عمَّر زمان الغرق كلّه، في الجو الأعلى، يطير بين السماء والارض بالذي أعطاه الله تبارك وتعالى من القوة والحيلة، وعمرت جنوده في ذلك الزمان، فطفوا فوق الماء. وعنه بلفظ آخر: فتحولت الجن أرواحاً، تهب فوق الماء، وبذلك توصف خلقتها أنها تهوى هوى الريح[3].

وقال: إن راهبًا تخلَّى في صومعته، في زمان المسيح، فأراد إبليس أن يكايده، فلم يقدر، ثمَّ أتاه بكلِّ زائدةٍ، فلم يقدر عليه، فأتاه متشبهًا بالمسيح، فناداه: أيها الراهب، أشرف عليَّ، أكلمك. قال: فانطلق لشأنك، فلست أزيد ما مضى من عمري. قال: أشرف علي فأنا المسيح. فقال: إن كنت المسيح، فما لي إليك من حاجةٍ، أليس قد أمرتنا بالعبادة، فوعدتنا القيامة، فانطلق إلى شأنك، فلا حاجة بي إليك، فانطلق اللعين عنه وتركه[4].

وقال: الدنانير والدراهم خواتيم رب العالمين، وضعها الله تعالى معائش لبني آدم، لا يؤكل ولا يشرب إلا بها، من جاء بخاتم رب العالمين، قضيت حاجته[5]، ولما ضربت حملها إبليس، فقبلها وقال: سلاحي سلاحي، وقرة عيني، وثمرة قلبي، بكما أغوي، وبكما أطغي، وبكما أكفر بني آدم، وبكما يستوجب النار ابن آدم. حسبي. قال وهب: فالويل ثمَّ الويل ثمَّ الويل، لمن آثرهما على طاعة الله[6].

الشيطان القرين

وقال: ليس من الآدميين أحد، إلا ومعه شيطان موكل، أما الكافر، فيأكل معه من طعامه، ويشرب من شرابه، وينام معه على فراشه، وأما المؤمن، فهو مجانب له، ينتظر متى يصيب منه غفلةً أو غرةً، فيثب عليه، وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكول النؤوم[7].

شياطين وشياطين

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله : إن لله تعالى شياطين في البر، ليس لهم على ما في البحر سلطان، وشياطين في البحر، ليس لهم على ما في البر سلطان، وشياطين في النهار، ليس لهم على ما

(1) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: 112.

(2) صحيح ابن حبان 14: 67. ونقل المسعودي المضمون نفسه بصيغة «يقال». أخبار الزمان: 41.

(3) علل الشرائع 1: 40.

(4) حِلية الأولياء 4: 44.

(5) نوادر الأصول 4: 94.

(6) المجالسة وجواهر العلم 8: 313.

(7) حِلية الأولياء 4: 59.

في الليل سلطان، وشياطين بالليل، ليس لهم على ما في النهار سلطان، وشياطين في الظلمة، ليس لهم على ما في النور سلطان، وشياطين في النور، ليس لهم على ما في الظلمة سلطان.

وشياطين في المنام، ليس لهم على ما في اليقظة سلطان، وشياطين في اليقظة، ليس لهم على ما في المنام سلطان، وشياطين في الجموع، ليس لهم على ما في الوحدة سلطان، وشياطين موكلون بالرجال دون النساء، وشياطين موكلون بالنساء دون الرجال، وشياطين موكلون بالملوك دون المملوك، وشياطين موكلون بالضعفاء دون الكبار، وشياطين موكلون بالكبار دون الصغار.

وشياطين موكلون بالمساجد، يطردون الناس عنها طردًا عنيفًا عن ذكر الله وعن الصلاة ،يطردونهم إلى الشهوات وإلى اللذات، وإلى الأسواق والمجالس والجماعات، ويشهون إليهم، ويحببون إليهم الجلوس على المعاصي التي لا يعصمهم منها إلا الله، فمن صلى صلاة الغداة في جماعةٍ، ثمَّ ذكر الله تعالى، وذكر به، حتى تطلع الشمس، ثمَّ صلى أربع ركعاتٍ، لم يضره شيء من خلق الله تعالى، من ساعته تلك إلى مثلها من الغد[1].

(1) الموضوعات لابن الجوزي 1: 150. واللآلئ المصنوعة 1: 87.

الشمس والقمر

ثمَّ خلق الله تعالى الشمس والقمر، فأما الشمس، فإنه خلقها من نور عرشه، وأما القمر، فإنه خلقه من نور حجابه الذي يليه[1].

وعنه، عن سلمان، قال: خلق الله الشمس من نور عرشه، وكتب في وجهها: إني أنا الله لا إله إلا أنا، صغت الشمس بقدرتي، وأجريتها بأمري، وكتب في بطنها: أنا الله لا إله إلا أنا، رضائي كلام، وغضبي كلام، ورحمتي كلام، وعذابي كلام[2].

وخلق القمر من نور حجابه الذي يليه، ثمَّ كتب في وجهه: إني أنا الله لا إله إلا أنا، صغت القمر، وخلقت الظلمات والنور، فالظلمة ضلالة، والنور هداي، أضل من شئت، وأهدي من شئت، وكتب في بطنه: إني أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت الخير والشر، بقدرتي وعزتي أبتلي بهما من شئت من خلقي[3].

وعنه، عن ابن عبَّاس، عن النبي ، قال: إن الله تعالى[4]، لَمَّا أحكم خلقه إحكاماً، ولم يبق إلا آدم، خلق شمسين، من نور عرشه.

فأما ما كان في سابق علمه أن يدعها شمساً، فإنه خلقها مثل الدنيا، ما بين مشارقها ومغاربها، وأما ما كان في سابق علمه أن يطمسها، ويصيرها قمراً فإنه خلقه دون الشمس في العظم، ولكن إنما يرى صغرها من شدَّة ارتفاع السماء، وبعدها عن الأرض.

فلو ترك الله تعالى الشمس والقمر، كما كان في بدء الأمر، لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل، ولا يدري الأجير إلى متى يعمل، ومتى يأخذ أجرته، ولا يدري الصائم متى يصوم، ومتى يفطر، ولا تدري المرأة كيف تعتد، ولا يدري المسلمون متى وقت صلاتهم، ومتى وقت حجهم، ولا يدري المدينون متى يحل دينهم، ولا يدري الناس متى يبذرون، ويزرعون لمعاشهم، ومتى يسكنون، راحةً لأبدانهم.

فكان الرَّبُّ تعالى أنظر لعباده، وأرحم بهم، فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر، وهو يومئذٍ مثل الشمس، ثلاث مرات، فطمس عنه الضوء، وبقي فيه النور، فذلك قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } سورة الإسراء: 12.

(1) العظمة 4: 1184، 1185. وقصص الأنبياء للكسائي: 79.

(2) ويرى الملائكة اسم الإله منقوشاً على الشمس، فيرفعون أصواتهم مسبحين الله، ويتردد في اللحظة ذاتها صوت سماوي بقوله: ويلي على بني البشر الذين لا يتفكرون في مجد الرب مثل سائر الكائنات التي ترتفع الآن لتمجده. قصص اليهود: 68، 336.

(3) العظمة 4: 1185

(4) قصص الأنبياء للثعلبي: 19.

والسواد الذي فيه، مثل الخطوط، هو أثر المحو[1].

ثم خلق الله تعالى للشمس عجلةً، من ضوء نور الشمس، فيها ثلاثمائة وستون عروة، ووكل بالشمس وعجلتها ثلاثمائة وستين ملكاً من الملائكة، من أهل سماء الدنيا، وقد تعلق كل منهم بعروة من تلك العرى[2]، وخلق الله تعالى مشارق ومغارب في قطري الأرض، وكنفي السماء، بثمانين ومائة عين في المشرق من طينة سوداء، وثمانين ومائة عين في المغرب، مثل ذلك، من طينة سوداء، يفور غليانها كغلي القِدَر، إذا ما اشتدَّ غليانها، وذلك قوله تعالى: { وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ } سورة الكهف: 86. وإنما هي حمئة، سوداء من طين.

لكلِّ يوم وليلة، لها مطلع جديد، ومغرب جديد، ما بين أولها مطلعاً، وأولها مغرباً، أطول ما يكون النهار في الصيف، وآخرها مطلعاً ومغرباً، أقصر ما يكون النهار في الشتاء، فذلك قوله تعالى: { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } سورة الرحمن: 17. يعني آخرها ههنا، وأولها ههنا، وترك ما بين ذلك من المشارق والمغارب، ثمَّ جمعها بعد ذلك، فقال: { فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ } سورة المعارج: 40. فذلك عدة تلك العيون كلها.

ثمَّ خلق الله تعالى بحراً، دون سماء الدنيا، بمقدار ثلاثة فراسخ، فهو موج مكفوف قائم في الهواء بإذن الله تعالى، لا تقطر منه قطرة، والنجوم ساكنة في ذلك البحر، وهو جارٍ في سرعة السهم وانطباقه هو في الهواء مستوٍ، كأنه حبل ممدود ما بين المشرق والمغرب، وتجري الشمس والقمر، والخنس في ذلك البحر، فذلك قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } سورة الأنبياء: 33.

والفلك دون العجلة في لجة غمر ماء ذلك البحر، والذي نفس محمد بيده، لو بدت الشمس من دون ذلك البحر، لأحرقت الأرض، وما على وجهها، حتى الصخور والحجارة، ولو بدا القمر من دون ذلك البحر، لافتتن به أهل الأرض، حتى يعبدوه، من دون الله تعالى، إلا ما شاء الله أن يعصمه من أوليائه، وأهل طاعته.

***

قال ابن عبَّاس : قال علي بن أبي طالب : بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، ذكرت مجرى الخنس مع الشمس والقمر، وقد أقسم الله تعالى بالخنس في القرآن، مثل ما كان ذكرك اليوم، فما الخنس؟.

---

(1) تعود أسطورة خلق الشمسين والمحو على وجه القمر إلى مسائل عبد الله بن سلام (43 هـ). دلائل النبوة 6: 262.

(2) تسير الشمس في مسارها كالعريس ... ولقوة الشمس يمكنها قطع رحلتها من الجنوب إلى الشمال في لحظة، غير أن ثلاثمائة وخمسة وستين ملكاً، يقيدونها بوسائل أشبه بالحديد، ويخفف كل ملك من قبضته، وهكذا تتم الشمس مسارها في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً. فصول الحاخام إليعازر، الفصل السادس. قصص اليهود: 67، 337.

فقال: يا علي، هن الكواكب الخمسة البرجيس[1]، وزحل، وعطارد، وبهرام[2] وزهرة، فهذه الكواكب الخمسة الطالعات الجاريات مع الشمس والقمر، وأما سائر الكواكب، فكلها معلقات في السماء، كتعليق القناديل في المساجد، وهي تدور مع السماء دوراناً، بالتسبيح والتقديس، والصلاة لله تعالى.

ثم قال النبي: وإن أحببتم أن تتبينوا ذلك، فانظروا إلى دوران الفلك مرة من ههنا، ومرة من ههنا، وإن لم تستبينوا الفلك، فالمجرة وبياضها مرة من ههنا، ومرة من ههنا، فذلك دوران الشمس والقمر، ودوران الكواكب معاً كلها، سوى هذه الخمسة، ودورانها اليوم كما ترون، فذلك صلاتها، ودورانها يوم القيامة في سرعة دوران الرحى من أهوال يوم القيامة، فذلك قوله تعالى: { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا } سورة الطور: 9 – 10.

فإذا طلعت الشمس، فإنها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها، ومعها ثلاثمائة وستون ملكاً، ناشري أجنحتهم، يجرونها في الفلك بالتسبيح والتقديس لله تعالى، على قدر ساعات النهار، والقمر كذلك على قدر ساعات الليل، ما بين الطول والقصر في الشتاء، كان ذلك، أو في الصيف، أو ما بينهما من الخريف والربيع.

فإذا أحبَّ الله أن يبتلي القمر والشمس، ويُري العباد آيةً من الآيات؛ يستعتبهم رجوعاً عن معصيته، وإقبالاً على طاعته، تحركت الشمس عن العجلة، فتقع في غمر ماء ذلك البحر، وهو الفلك، فإذا أراد الله تعالى أن يعظم تلك الآية؛ ليشتد خوف العباد، وقعت الشمس كلها، فلا يبقى على العجلة شيء منها، فذلك حين يظلم النهار، وتبدو النجوم، وذلك هو المنتهى عند كسوفها، فإذا أراد الله أن يجعل آية دون آية، وقع النصف منها، أو الثلث، أو الثلثان في الماء، ويبقى سائر ذلك على العجلة، وهو كسوف، دون كسوف ابتلاء الشمس والقمر، وذلك تخويف للعباد واستعتاب من الله تعالى.

فأيٌّ ذلك كان، صارت الملائكة الموكلة بعجلتها فرقتين: فرقة منهم يقبلون على الشمس، فيجرُّونها نحو العجلة، والفرقة الأخرى تقبل على العجلة، فتجرها إلى الشمس، وهم في ذلك، يقودونها في الفلك على مقادير ساعات النهار، أو ساعات الليل، ليلاً كان، أو نهاراً؛ لكيلا يزيد في طولها شيء، وقد ألهمهم الله تعالى علم ذلك، وجعل لهم تلك القوة.

فالذي ترون من خروج الشمس، والقمر بعد الكسوف، قليلاً قليلاً من ذلك السواد الذي يعلوه، فهو من غمر ماء ذلك البحر، وهو خروجها من ذلك الماء، فإذا أخرجوها كلها، اجتمعت الملائكة كلها، فاحتملوها حتى يضعوها على العجلة، وذلك حين تنجلي للعالم؛ حتى يحمدوا الله تعالى على ما قواهم لذلك، ويتعلقون بعرى العجلة؛ حتى يجروها بإذن الله تعالى، في

(1) أو البرجرس، وهو المشتري. تفسير مقاتل. 3: 199.

(2) المريخ.

لجة ذلك البحر، حتى إذا بلغوا بها المغرب، أدخلوها من بعض تلك العيون، فتسقط من أفق السماء في العين.

ثم قال: وعجبت من خلق الله، وما بين من القَدَرة، وفيما لم يخلق أعجب منه، ومن ذلك قول جبريل لسارة: { أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } سورة هود: 73. وذلك أن الله تعالى خلق مدينتين: إحداهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب، علىَ كل مدينة منهما عشرة آلاف باب، ما بين كل باب إلى الآخر مسيرة فرسخ، فأهل المدينة التي بالمشرق من بقايا عاد، من نسل مؤمنيهم الذي كانوا آمنوا بهود، واسمها بالسريانية: برقبيسا، وبالعبرانية: جابلق، واسم المدينة التي بالمغرب بالسريانية: برجيسا، وبالعبرانية: جابرس[1].

على كل بابٍ من هاتين المدينتين، كل يوم، عشرة آلاف رجل من الخراسانية (الأشداء والأقوياء) عليهم السلاح، ومعهم الكراع[2]، لا تنوبهم تلك الحراسة بعد ذلك اليوم، إلى يوم القيامة، والذي نفس محمد بيده، لولا كثرة هؤلاء القوم، وضجيج أصواتهم، لسمع أهل الدنيا وقع هذه الشمس، حين تطلع، وحين تغرب. ومن ورائهم ثلاث أمم، لا يعلم عددهم، إلا الله تعالى، وهم منسك وتاويل وتاريش، ومن ورائهم يأجوج ومأجوج.

وإن جبريل انطلق بي إليهم، ليلة أسري بي إلى السماء، فدعوت يأجوج ومأجوج إلى الله تعالى، وإلى دينه وعبادته، فأبوا أن يجيبوني، فهم في النار مع من عصى الله، من ولد آدم وولد إبليس، ثمَّ انطلق بي إلى هاتين المدينتين، فدعوتهم إلى الله تعالى، وإلى دينه وعبادته، فأجابوا وأنابوا، فهم إخواننا في الدين، من أحسن منهم، فهو مع المحسنين، ومن أساء فهو مع المشركين، ثمَّ انطلق بي إلى الأمم الثلاث، فدعوتهم إلى دين الله وعبادته، فأبوا علي وكفروا بالله، وكذبوا برسله، فهم مع يأجوج ومأجوج، وسائر من عصى الله تعالى في النار.

فإذا غربت الشمس، رجع بها إلى السماء السابعة، في سرعة طيران الملائكة، وتحبس تحت العرش، فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع من مغربها، أم من مطلعها؟، وتكسى نورها، وإذا كان القمر، فنوره على مقادير ساعات الليل والنهار، ثمَّ ينطلق بها إلى ما بين السماء السابعة، وما بين أسفل درجات الجنان، في سرعة طيران الملائكة، فتنحدر حيال المشرق من سماء إلى سماء، فإذا وصلت إلى هذه السماء، فذلك حين ينفجر الفجر عن الصبح، فإذا انحدرت من بعض تلك العيون، فذلك حين يضيء الصبح، فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء، فذلك حين يضيء النهار، فتلك مطالعها ومغاربها، ما بين أولها عيناً إلى آخرها عيناً في الطلوع والغروب. فذلك

---

(1) برقيشا - جابلقا، وجيسا - جابلصا. في الأصل، والتصويب من العظمة 4: 1169. وفي معجم البلدان 2: 91. عن ابن عبَّاس أن جابلق مدينة بأقصى المغرب، وأهلها من ولد عاد، وأهل جابرس من ولد ثمود، ففي كل واحدة منها بقايا ولد موسى. وهما مدينتان أسطوريتان، يمر بهما أبطال الأساطير، مثل ذي القرنين وغيره؛ للدلالة على امتلاك الأرض كلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

(2) الخيل.

تمام ستة أشهر، ثمَّ إذا رجعت، كذلك من عين إلى عين في الطلوع والغروب إلى آخرها عيناً، فذلك تمام السنة، مدة أيامها ولياليها ثلاثمائة و[أربعة] ستون [يوماً](1).

وخلق الله تعالى عند المشرق حجاباً من الظلمة، فوضعه على البحر السابع، مقدار عدة الليالي في الدنيا، مذ خلقها الله تعالى إلى يوم تنصرم، فإذا كان عند غروب الشمس، أقبل ملك من الملائكة الذين قد وكلوا بالليل، فيقبض قبضةً، من ظلمة ذلك الحجاب، ثمَّ يستقبل المغرب، فلا تزال تلك الظلمة تخرج، من خلال أصابعه قليلاً قليلاً، وهو يراعي الشفق، فإذا غاب الشفق، أرسل الظلمة جميعاً، ثمَّ ينشر جناحيه، فيبلغان قطري الأرض، وكنفي السماء، ويجاوزان ما شاء الله خارجين في الهواء، فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسبيح والتقديس، حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل، فإذا بلغ المغرب، أسفر الصبح من المشرق، فضم جناحيه ثمَّ يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض، فيقبضها بكفيه، ثمَّ يقبض عليها بكف واحدة، نحو قبضته التي تناولها من الحجاب بالمشرق، ثمَّ يضعها عند المغرب على البحر السابع، فمن هناك ظلمة الليل، إذا ما نقل ذلك الحجاب من المشرق وإلى المغرب.

فإذا نفخ في الصور، انقضت أيام الدنيا، فنور النهار من ضوء الشمس، وظلمة الليل من قبل ذلك الحجاب، فلا تزال الشمس والقمر كذلك، من مطلعهما إلى مغربهما، إلى ارتفاعهما إلى السماء السابعة، إلى محبسهما تحت العرش، حتى يأتي الوقت الذي وقته الله تعالى لتوبة العباد، وتكثر المعاصي في الأرض، ويذهب المعروف، ولا يأمر به أحد، ويفشو المنكر، فلا ينهى عنه أحد، فإذا فعلوا ذلك، حبست الشمس مقدار ليلة تحت العرش، وكلما سجدت، واستأذنت ربها من أين تطلع، لا يؤذن لها ولا يرد لها جواب، حتى يوافيها القمر، فيسجد معها، ويستأذن من أين يطّلع، فلا يؤذن لهما، ولا يرد لهما جواب، حتى يحبسا مقدار ثلاث ليال للشمس، وليلتين للقمر.

فلا يعرف طول تلك الليلة، إلا المتهجدون في الأرض، وهم يومئذٍ عصابة قليلة في الأرض، في كل بلد من بلاد المسلمين، في هوان بين الناس، وذلة في أنفسهم، فينام أحدهم تلك الليلة، مقدار ما كان ينام قبلها من الليل، ثمَّ يقوم فيتوضأ، ويدخل مصلاه، فيصلِّي ورده، ولا يصبح نحو ما كان يصبح كل ليلة، قبل ذلك، فينكر ذلك، ويخرج فينظر إلى السماء، فإذا هو بالليل مكانه، والنجوم قد استدارت في السماء، وصارت في أماكنها من أول الليل، فينكر ذلك، ويظن

(1) هناك حساب في أخنوخ الثاني: 148. تم حذفه، ويقي منه في النص شيء، وهو«تخرج الشمس من الباب الأول طيلة اثنين وأربعين يوماً، ومن الثاني طيلة خمسة وثلاثين يوماً، ومن الثالث طيلة خمسة وثلاثين يوماً، ومن الرابع طيلة خمسة وثلاثين يوماً، ومن الخامس طيلة خمسة وثلاثين يوماً، ومن السادس طيلة اثنين وأربعين يوماً، ومن جديد، إذ تعود عبر الباب السادس، بحسب مجرى الأزمنة، فإنها تشرق من الباب الخامس طيلة خمسة وثلاثين يوماً، ومن الباب الرابع طيلة خمسة وثلاثين يوماً، ومن الباب الثالث طيلة خمسة وثلاثين يوماً، ومن الباب الثاني طيلة خمسة وثلاثين يوماً، وتتم أيام السنة، بحسب عودة الأزمنة ... والسنة في ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً، وهو يمضي في السنة مع أربعة أيام استثنائية، ولهذا تحذف من السنة».

فيها الظنون ويقول: أخففت قراءتي؟، أم قصرت صلاتي؟، أم قمت قبل حيني؟.

قال: ثمَّ يقوم فيعود إلى مصلاه، فيصلِّي نحو صلاته، ثمَّ ينظر فلا يرى الصبح، فيخرج أيضاً، فإذا هو بالليل مكانه، فيزيده ذلك إنكاراً، ويخالطه الخوف، ويظن في ذلك الظنون من السوء، ثمَّ يقول: لعلي قصرت صلاتي، أو خففت قراءتي، أو قمت في أول الليل، ثمَّ يعود، وهو وجل خائف، مشفق لَمَّا يتوقع من هول تلك الليلة، فيقوم فيصلِّي أيضاً، مثل ورده كل ليلة قبل ذلك، ثمَّ ينظر، فلا يرى الصبح، فيخرج الثالثة، فينظر إلى السماء، فإذا هو بالنجوم قد استدارت مع السماء، فصارت في أماكنها أول الليل، فيشفق عند ذلك شفقة المؤمن العارف لَمَّا كان يحذر، فيلحقه الخوف، وتلحقه الندامة، ثمَّ ينادي بعضهم بعضاً، وهم قبل ذلك، كانوا يتعارفون ويتواصلون، فيجتمع المتهجدون من أهل كل بلدة، في تلك الليلة، في مسجد من مساجدهم، يجأرون إلى الله تعالى بالبكاء، والصراخ بقية تلك الليلة.

فإذا ما تم لهما مقدار ثلاث ليال، أرسل الله تعالى جبريل إليهما، فيقول لهما: إن الرب تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما، فتطلعا منه، إنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور، فيبكيان عند ذلك؛ وجلاً من الله تعالى، وخوف يوم القيامة، بكاءً يسمعه أهل سبع سماوات، ومن دونها، وأهل سرادقات العرش، ومن فوقها، فيبكون جميعاً لبكائهما؛ لَمَّا خالطهم من خوف الموت، وخوف يوم القيامة، فترجع الشمس والقمر، فيطَّلعان من مغربهما.

قال: فبينما المتهجدون يبكون، ويتضرعون إلى الله تعالى، والغافلون في غفلتهم، إذ نادى منادٍ: ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما، فينظر الناس، فإذا هم بهما أسودان، لا ضوء للشمس، ولا نور للقمر، مثلهما في كسوفهما قبل ذلك، فذلك قوله تعالى: { وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} سورة القيامة: 9. وقوله تعالى: { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } سورة التكوير: 1. فيرتفعان كذلك، مثل البعيرين القرنيين، ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقاً، ويتصارخ أهل الدنيا، وتذهل الأمهات عن أولادها، والأحبة عن ثمرات فؤادها، فتشتغل كل نفس بما كسبت.

فأما الصالحون والأبرار، فإنه ينفعهم بكاؤهم يومئذٍ، ويكتب لهم ذلك عبادة، وأما الفاسقون والفجار، فلا ينفعهم، ويكتب عليهم حسرة. فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرة السماء، وهي منتصفها، جاءهما جبريل، فيأخذ بقرونهما، ويردهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغاربهما من تلك العيون، ولكن يغربهما من باب التوبة.

***

فقال عمر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وما باب التوبة؟، فقال يا عمر، خلق الله تعالى باباً للتوبة، خلف المغرب، له مصراعان من ذهب، مكللان بالدر والجوهر، ما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب المسرع، فذلك الباب مفتوح، منذ خلق الله تعالى الدنيا، إلى صبيحة تلك الليلة، عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما، ولم يتب عبد من عباد الله تعالى، توبةً نصوحاً

منذ خلق الدنيا إلى ذلك اليوم، إلا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب، ثمَّ ترفع إلى الله تعالى.

***

فقال معاذ بن جبل[1]: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وما التوبة النصوح؟، قال: أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب، فيعتذر إلى الله تعالى، ثمَّ لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. قال: فيغربهما جبريل من ذلك الباب، ثمَّ يرد المصراعين، ثمَّ يلتئم ما بينهما، فيصير كأنه لم يكن فيما بينهما صدع قط، وإذا أغلق باب التوبة، لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة، ولا تنفعه حسنة، يعملها في الإسلام، إلا من كان قبل ذلك محسناً، فإنه يجري عليه ما كان يجري عليه، قبل ذلك اليوم، فذلك قوله تعالى: { رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا } سورة الأنعام: 158.

***

فقال أبي بن كعب [2]: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك؟، وكيف بالناس والدنيا؟، فقال: يا أبي، إن الشمس والقمر يكسيان النور والضوء بعد ذلك، ثمَّ يطَّلعان ويغربان، كما كانا قبل ذلك، وأما الناس، فإنهم، مع ما رأوا من فظاعة تلك الآية وعظمتها، يلحون على الدنيا، ويجرون فيها الأنهار، ويغرسون فيها الأشجار، ويبنون فيها البنيان، وأما الدنيا، فلو نتج للرجل منهم فيها مهر، لم يركبه حتى تقوم الساعة، من لدن طلوع الشمس من مغربها، إلى أن ينفخ في الصور.

***

فقال حذيفة[3]: جعلني الله فداءك، يا رسول الله، فكيف بهم عند النفخ في الصور؟، قال: يا حذيفة، والذي نفسي بيده، لينفخن في الصور، ولتقومن الساعة، والرجل يلط [4]حوضه، فلا يشرع فيه الماء، ولتقومن الساعة، وقد انطلق بلبن لقحته[5] من تحتها، فلا يشربه، ولتقومن الساعة، والثوب بين الرجلين، فلا يطويانه، ولا يتبايعانه، ولتقومن الساعة، والرجل قد

---

(1) معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي، كان قريباً من الرسول، فجمع القرآن، وشارك في الحروب، وبعثه الرسول قاضياً على اليمن، وشارك في غزو الشام، تُوفِّي بالأردن سنة 18 هـ. الأعلام 7: 258.

(2) أبي بن كعب بن قيس من بني النجار، من الخزرج، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة، وهو من كتاب الوحي، وشارك في حروب الرسول، وفي كتابة القرآن الكريم زمن عثمان، مختلف في وفاته بين سنتي 22، و32 هـ. سِيَر أعلام النبلاء 1: 400، الأعلام 1: 82.

(3) حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، واليمان لقب حسل، كان صاحب سر النبي في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره، غزا نهاوند وهمدان والري، وكان والي عمر بن الخطاب على المدائن، حيث تُوفِّي سنة 36 هـ. الأعلام 2: 171.

(4) يلزق حوضه. لسان العرب: لطط.

(5) الناقة الحلوب. لسان العرب: لقح.

رفع لقمته إلى فيه، فلا يطعمها[1]. ثمَّ تلا هذه الآية { وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } سورة العنكبوت: 53 [2].

(1) صحيح البخاري 8: 106. وهو من أساطير نهاية الدنيا.

(2) تاريخ الرسل والملوك 1: 65 - 75، وأبو الشيخ في العظمة 4: 1163 - 1179، وكلاهما عن عكرمة عن ابن عبَّاس، عن الرسول، مع مقدمة وخاتمة، ليستا في الأصل الذي هو برواية عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وهب، عن ابن عبَّاس عن النبي قال إن الله تبارك وتعالى خلق شمسين من نور عرشه. فذكر الحديث إلى قوله: { وليأتينهم بغتةً وهم لا يشعرون }. وقد دونه ابن مردويه (ت 410 هـ)، بهذا النص في تفسيره، كما في اللآلئ المصنوعة 1: 56. وهناك إشارات إلى رواية وهب للقصة، منها، في تاريخ الرسل والملوك 1: 65. ونهاية الأرب في فنون الأدب 1: 49. والبدء والتاريخ 2: 24. والرسالة الوافية: 214.
وقصة الشمس والقمر من أساطير أهل الكتاب، في الرؤيا اليونانية لباروخ: 128. «وإذ أخذني، قادني إلى حيث تشرق الشمس، وأراني عجلة، كانت تطلق اللهب ... وقال لي الملاك: إنه الوقت الذي يفتح فيه الملائكة ثلاثمائة وخمسة وستين باباً للسماء، وحيث يفصل النور عن الظلمات». وفي أخنوخ الثاني: 147. وفيهما التفاصيل المذكورة.

آدم وحواء

قبل آدم

قال وهب: وإن الجان لَّما تنافسوا في الجنَّة، وطغى بعضهم على بعض، وعصوا الله، وسفك بعضهم دم بعض، عج الملائكة إلى الله بالدعاء، قالوا: سبحانك ربنا، ما أحلمك وأكرمك، يتقلب في نعمك من يكفر بك، لم تعبد زيادةً في ملكك، ولم تعص مغالبةً في سلطانك ... . قال: فغضب الله على الجان، فأوحى الله إلى جبريل أن أخرج الجان من جواري، وطهر منهم جنتي، فأخرجهم جبريل من الجنَّة إلى أرضنا هذه ... . ثمَّ خلق الله آدم، لَّما شاء، كيف شاء، حين شاء في سابق علمه المكنون، وحكمه النافذ[1].

خلق آدم

وإن الله تعالى، لَّما أراد خلق آدم، أوحى الله إلى الأرض: أني خالق منك خلقاً، منهم من يطيعني، ومنهم من يعصيني، فمن أطاعني منهم، أدخلته الجنَّة، ومن عصاني، أدخلته النار. ثمَّ بعث إليها جبريل؛ ليأتيه بقبضة من ترابها، فلمَّا أتاها جبريل؛ ليقبض منها القبضة، قالت له الأرض: إني أعوذ بعزة الله الذي أرسلك، أن تأخذ مني شيئاً، يكون فيه غداً للنار نصيب. فرجع جبريل إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئاً، وقال: يا رب، استعاذت بك، فكرهت أن أقدم عليها. فأمر الله ميكائيل فأتى الأرض، فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً، فرجع إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئاً.

فبعث الله تعالى ملك الموت، فأتى الأرض، فاستعاذت بالله أن يأخذه منها شيئاً، فقال ملك الموت: وإني أعوذ بالله أن أعصي له أمراً، فقبض قبضة من زواياها الأربع، من أديمها الأعلى، ومن سبخها وطيبها، وأحمرها وأسودها وأبيضها، وسهلها وجبلها، فلذلك كان في ذرية آدم الطيب والخبيث، والصالح والطالح والجميل والقبيح، ولذلك اختلاف صورهم وألوانهم، ثمَّ صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى، فأمره أن يجعلها طيناً، بالماء المر والعذب والمالح، حتى جعلها طيناً وخمرها؛ فلذلك اختلفت أخلاقهم.

ولَّما أراد الله أن يخلق آدم أوحى إلى الأرض أني جاعل منك في الارض خليفة، فمنهم من يطيعني، ومنهم من يعصيني، فمن أطاعني، أدخلته الجنَّة، ومن عصاني، أدخلته النار، فقالت الأرض: مني تخلق خلقاً، يكون للنار. قال: نعم. فبكت الأرض، فانفجرت منها العيون الى يوم

(1) الملوك المتوَّجة من حمير: 13. وقد كررت النص لوصل السياق، وهو يفسر قول الملائكة في مشهد خلق آدم: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } سورة البقرة: 30. وهو في المعارف: 14.

القيامة[1].

من أربعة أشياء

وعن وهب بن مُنبِّه: أنه وجد في التوراة صفة خلق آدم حين خلقه الله وابتدعه، قال الله تبارك وتعالى: إني خلقت آدم، وركبت جسده من أربعة أشياء[2]، ثمَّ جعلتها وراثةً في ولده، تنمى في اجسادهم، وينمون عليها إلى يوم القيامة، وركبت جسده، حين خلقته، من رطب ويابس، وساخن وبارد، وذلك أني خلقته من تراب وماء، ثمَّ جعلت فيه نفساً وروحاً، فيبوسة كل جسد من قبل التراب، ورطوبته من قبل الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح. ثمَّ خلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول، أربعة أنواع: وهن ملاك الجسد، وقوامه بأذني لا يقوم الجسد إلا بهن، ولا تقوم منهن واحدة إلا بالأخرى، منها المرة السوداء والمرة الصفراء والدم والبلغم.

ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض، فجعل مسكن اليبوسة في المرة السوداء ومسكن الرطوبة في المرة الصفراء، ومسكن الحرارة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم، فأيما جسد اعتدلت به هذه الأنواع الأربع التي جعلتها ملاكه وقوامه، وكانت كل واحدة منهن أربعاً، لا تزيد ولا تنقص، كملت صحته، واعتدل بنيانه. فإن زاد منهن واحدة عليهن، فقهرتهن، ومالت بهن، دخل على البدن السقم من ناحيتها، بقدر ما زادت، واذا كانت ناقصة، ثقل عنهن، حتى تضعف عن طاقتهن، وتعجز عن مقارنتهن.

ومن قدرته ولطفه، جعل عقله في دماغه، وشره في كليته، وغضبه في كبده، وضرامته في قلبه، ورغبته في رئته، وضحكه في طحاله، وحزنه وفرحه في وجهه، وجعل فيه ثلاثمائة وستين مفصلاً[3].

فالطبيب العالم بالداء والدواء يعلم من حيث يأتى السقم، من قبل زيادة تكون في إحدى هذه الفطرة الأربع، أو نقصان منها، ويعلم الدواء الذي به يعالجهن، فيزيد في الناقصة منهن، أو ينقص من الزائد، حتى يستقيم الجسد على فطرته، ويعتدل الشيء بأقرانه، ثمَّ تصير هذه الاخلاق التي ركب عليها الجسد فطراً، عليها تبنى أخلاق بني آدم، وبها توصف.

فمن التراب العزم، ومن الماء اللين، ومن الحرارة الحدة، ومن البرودة الاناة، فإن مالت

---

(1) في قصص الأنبياء للثعلبي 26. «قال المفسرون، بألفاظٍ مختلفة، ومعانٍ متفقة». وهي لوهب كما في بحر العلوم 1: 41. وتاريخ الخميس 1: 36. والأصل في قصص اليهود: 87 أن الرب أرسل جبريل إلى الأرض، فطردته، وقالت: إذا لم يأخذ الرب بنفسه التراب مني، فلن يفعلها أحد، فمد الرب يده، وأخذ التراب من أربعة أركان الأرض.

(2) عيون الأخبار 2: 73.

(3) المجالسة وجواهر العلم 4: 274.

به اليبوسة، كان عزمه القسوة، وإن مالت به الرطوبة، كانت لينة مهانة، وإن مالت به الحرارة، كانت حدته طيشاً وسفهاً، وإن مالت به البرودة، كانت أناته ريباً وبلداً.

فإن اعتدلت أخلاقه، وكن سواء، واستقامت فطرته، كان حازماً في أمره، ليناً في عزمه، حاداً في لينه، متأنياً في حدته، لا يغلبه خلق من أخلاقه، ولا يميل به، من أيها شاء استكثر، ومن أيها شاء استقل، ومن أيها شاء عدل، ويعلم كل خلق منها، إذا علا عليه، بأي شيء يمزجه ويقومه، فاخلاقه كلها معتدلة، كما يجب أن يكون.

فمن التراب قسوته وبخله وحصره، وفظاظته وبرمه وشحه، ويأسه وقنوطه وعزمه، ومن الماء كرمه ومعروفه وتوسعه، وسهولته وتوسله وقربه، وقبوله ورجاه واستبشاره، فاذا خاف ذو العقل أن تغلب عليه أخلاق التراب، ويميل به، ألزم كلَّ خلق منها خلقاً من أخلاق الماء، يمزجه بلينه، ويلزم القسوة اللين، والحصر التوسع، والبخل العطاء، والفظاظة الكرم، والبرم التوسل، والشح السماح، والياس الرجا، والقنوط الاستبشار، والعزم القبول، والاطرار القرب. ثمَّ من النفس حدته وخفته وشهوته، ولهوه ولعبه وضحكه، وسفهه وخداعه وعنفه وخوفه، ومن الروح حلمه ووقاره وعفافه، وحياؤه وبهاؤه وفهمه، وكرمه وصدقه ورفقه وكبره.

واذا خاف ذوالعقل أن تغلب عليه أخلاق النفس، وتميل به، ألزم كل خلق منها خلقاً من أخلاق الروح، يقومه به، ويلزم الحدة الحلم، والخفة الوقار، والشهوة العفاف، واللعب الحياء، والضحك الفهم، والسفه الكرم، والخداع الصدق، والعنف الرفق، والخوف الصبر، ثمَّ بالنفس سمع ابن آدم، وأبصر وأكل وشرب، وقام وقعد، وضحك وبكى، وفرح وحزن، وبالروح عرف الحق من الباطل، والرشد من الغي، والصواب من الخطأ، وبه علم وتعلم، وحكم وعقل، واستحى وتكرم، وتفقه وتفهم، وتحذر وتقدم.

عشر خصال

ثم يقرن إلى أخلاقه عشر خصال أخرى: الإيمان، والحلم، والعقل، والعلم، والعمل، واللين، والورع، والصدق، والصبر، والرفق، ففي هذه الأخلاق العشر جميع الدين كله، ولكلٍّ خلق منها عدو، فعدو الايمان الكفر، وعدو الحلم الحمق، وعدو العقل الغي، وعدو العلم الجهل، وعدو العمل الكسل، وعدو اللين العجلة، وعدو الورع الفجور، وعدو الصدق الكذب وعدو الصبر الجزع، وعدو الرفق العنف.

فإذا وهن الايمان، تسلط عليه الكفر وتعبده، وحال بينه وبين كل شيء، يرجو منفعته، وإذا صلب الإيمان وهن له الكفر وتعبده، واستكان واعترف به، وإذا ضعف الحلم، علا الحمق وحاطه وذبذبه، وألبسه الهوان بعد الكرامة، فإذا استقام الحلم، فضح الحمق وتبين عورته، وأبدى سوءته، وكشف ستره، وأكثر مذمته، فإذا استقام اللين، تكرم من الخفة والعجلة، واطردت الحدة، وظهر الوقار والعفاف، وعرفت السكينة.

وإذا ضعف الورع، تسلط عليه الفجور، وظهر الإثم، وتبين العدوان، وكثر الظلم، ونزل الحمق، وعمل بالباطل، وإذا ضعف الصدق، كثر الكذب، وفشت الفرية، وجاء الإفك بكلِّ وجه والبهتان، وإذا حصل الصدق، اختسأ الكذب وذل، وصمت الإفك، وأميتت الفرية، وأهين البهتان، ودنا البِرُّ، واقترب الخير، وطرد الشر.

وإذا وهن الصبر، وهن الدين، وكثر الحزن، وظهر الجزع، وأميتت الحسنة، وذهب الأجر، وإذا صلب الصبر، خلص الدين، وذهب الحزن، وأخر الجزع، وأحييت الحسنة، وعظم الأجر، وتبين الحزم، وذهب الوهن، وإذا ترك الرفق، ظهر الغش، وجاءت الفظاظة، واشتدت الغلظة، وكثر الغشم، وترك العدل، وفشا المنكر، وترك المعروف، وظهر السفه، ورفض الحلم، وذهب العقل، وترك العلم، وفتر العمل، ومات الدين، وضعف الصبر، وغلب الورع، ووهن الصدق، وبطل تعبد أهل الإيمان.

فمن أخلاق العقل عشرة أخلاق صالحة، هي الحلم، والعلم، والرشد، والعفاف، والصيانة، والحياء، والرزانة، والمداومة على الخير، وكراهة الشر، وطاعة الناصح، فهذه عشرة أخلاق صالحة.

عشر خصال أخرى

ثم يتشعَّب من كلِّ خلق منها عشر خصال، فالحلم يتشعَّب منه: حسن العواقب، والمحمدة في الناس، وتشرف المنزلة، والسلب عن السفه، وركوب الجميل، وصحبة الأبرار، والارتداع عن الضعة، والارتفاع عن الخساسة، وشهوة اللين، والقرب من معالي الدرجات.

ويتشعَّب من العلم: الشرف، وإن كان دنياً، والعز، وإن كان مهيناً، والغنى، وإن كان فقيراً، والقوة، وإن كان ضعيفاً، والنبل، وإن كان حقيراً، والقرب، وإن كان قصياً، والجود، وإن كان بخيلاً، والحياء، وإن كان صلفاً، والمهابة، وإن كان وضيعاً، والسلامة، وإن كان سقيما.

ويتشعَّب من الرشد: السداد، والهدى، والبر، والتقوى، والعبادة، والقصد، والاقتصاد والقناعة، والكرم، والصدق. ويتشعَّب من العفاف: الكفاية، والاستكانة، والمصادقة، والمراقبة، والصبر، والنصر، واليقين، والرضا، والراحة، والتسليم. ويتشعَّب من الصيانة الكف، والورع، وحسن الثناء، والتزكية، والمروة، والكرم، والغبطة والسرور، والمنالة، والتفكر. ويتشعَّب من الحياء: اللين، والرأفة، والرحمة، والمداومة والبشاشة، والمطاوعة وذل النفس التقي، والورع، وحسن الخلق. ويتشعَّب من المداومة على الخير: الصلاح والاقتدار، والعز، والاخبت، والانابة، والسؤدد والامن، والرضافي الناس، وحسن العاقبة.

ويتشعَّب من كراهة الشر: حسن الامانة وترك الخيانة واجتناب وتحصين الفرج، وصدق اللسان، والتواضع، والتضرع لمن هو فوقه، والإنصاف لمن هو دونه، وحسن الجوار، ومجانبة أخوان السوء. ويتشعَّب من الرزانة: التوقر والسكون، والتأني، والعلم، والتمكين، والحظوة،

والمحبة، والفلح، والزكاية، والإنابة.

ويتشعَّب من طاعة الناصح: زيادة العقل، وكمال اللب، ومحمدة الناس، والامتعاض من اللوم، والبعد من البطش، واستصلاح الحال، ومراقبة ما هو نازل، والاستعداد للغد، والاستقامة على المنهاج، والمداومة على الرشاد. فهذه مائة خصلة من أخلاق العاقل[1].

***

قال: ما عبد الله بشيءٍ أفضل من العقل، وما يتم عقل امرئٍ حتى تكون فيه عشر خصالٍ: أن يكون الكبر منه مأمونًا، والرشد فيه مأمورًا، يرضى من الدنيا بالقوت، وما كان من فضلٍ فمبذول، والتواضع فيها أحب إليه من الشرف، والذل فيها أحب إليه من العز، لا يسأم من طلب العلم دهره، ولا يتبرم من طالبي الخير، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه، والعاشرة هي ملاك أمره، بها ينال مجده، وبها يعلو ذكره، وبها علاه في الدرجات في الدارين كليهما.

قيل: وما هي؟. قال: أن يرى أن جميع الناس بين خيرٍ منه وأفضل، وآخر شر منه وأرذل، فإذا رأى الذي هو خير منه وأفضل، كسره ذلك، وتمنى أن يلحقه، وإذا رأى الذي هو شر منه وأرذل، قال: لعل هذا ينجو وأهلك، ولعل لهذا باطنًا لم يظهر لي، وذلك خير له، ويرى ظاهره، ولعل ذلك شر لي. فهناك يكمل عقله، ويسود أهل زمانه، وكان من السابق إلى رحمة الله وجنته، إن شاء الله تعالى[2].

من التراب والماء

وخلق الله ابن آدم كما شاء، ومما شاء فكان كذلك. تبارك الله أحسن الخالقين، خلق من التراب والماء، فمنه لحمه ودمه وشعره وعظامه وجسده كله، فهذا بدء الخلق الذي خلق الله منه ابن آدم، ثمَّ جعلت فيه النفس، فبها يقوم ويقعد، ويسمع ويبصر، ويعلم ما تعلم الدواب، ويتقي ما تتقي، ثمَّ جعل فيه الروح، فبه عرف الحق من الباطل، والرشد من الغي، وبه حذر وتقدم، واستتر وتعلم، ودبر الأمور كلها[3].

وإن نفس الإنسان خلقت كنفس الدواب التي تشتهي، وتدعو إلى الشر، ومسكنها في البطن، وفضل الإنسان بالروح، ومسكنه في الدماغ، فبه يستحيي الإنسان، وهو يدعو إلى الخير، ويأمر به.

ثم نفخ وهب - رحمه الله تعالى - على يده، فقال: هذا أمار، وهو من النفس، ومثلها كمثل

(1) علل الشرائع 1: 164 - 168. والمجالسة وجواهر العلم 4: 276. والعظمة 5: 1621.

(2) حِلية الأولياء 4: 40.

(3) تفسير ابن أبي حاتم 9: 2911.

الرجل وروحه، فإذا أبق الروح إلى النفس، والتقيا نام الإنسان، فإذا استيقظ، رجع الروح إلى مكانه، وإنك إذا كنت نائمًا، فاستيقظت كان شيئًا يثور إلى رأسك[1] .

وإن مثل القلب كمثل الملك، والأركان أعوانه، فإذا ائتمرت النفس بالشر، اشتهت وتحركت الأركان، ونهاها الروح عنه، ودعاها إلى الخير، فإذا كان القلب مؤمنًا، أطاع الروح، وإذا كان القلب فاجرًا، أطاع النفس، وعصى الروح، فنشط الأركان، فيعمل القلب ما أحب[2].

ثم جعله جسداً، وألقاه على طريق الملائكة التي تهبط إلى السماء، وتصعد منه، أربعين سنة، ثمَّ ألقاه على باب الجنَّة، فكلما مرَّ عليه ملأ من الملائكة، عجبوا من حسن صورته، وطول قامته، ولم تكن الملائكة قبل ذلك، رأوا شيئاً، يشبهه من الصور، فمر به إبليس فرآه، فقال: لأمرٍ ما خلقت. ثمَّ ضربه بيده، فإذا هو أجوف، فدخل في فيه، وخرج من دبره، وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة: هذا خلق أجوف، لا يثبت ولا يتماسك. ثمَّ قال لهم: أرأيتم إن فضل هذا عليكم، فما أنتم فاعلون؟. قالوا: نطيع ربنا. فقال إبليس في نفسه: والله، لا أطيعه، ولئن فضل هذا علي، لأعصينه، ولئن فضلت عليه، لأهلكنه[3].

نفخ الروح

فلمَّا خلق الله روح آدم[4]، أمر أن تغمس في جميع الأنوار، ثمَّ أمرها أن تدخل في جسد آدم بالتأني دون الاستعجال، فرأت الروح مدخلاً ضيقاً، ومنافذ ضيقة. فقالت: يا رب، كيف أدخل؟. فنوديت: أن ادخلي كرهاً، واخرجي كرهاً. فدخلت الروح من منخريه إلى عينيه، ففتحهما، فجعل ينظر إلى نفسه طيناً، ولا يقدر على الكلام[5].

ورأى على سرادق[6] العرش مكتوباً فيه: لا إله الا الله، محمد رسول الله[7]، فصارت الروح إلى أذنيه، فجعل يسمع تسبيح الملائكة، ثمَّ جعلت الروح تمر في رأسه، والملائكة ينظرون متى يؤمرون بالسجود؛ ليسجدوا له، وإبليس ينوي خلاف ذلك، ثمَّ سارت الروح إلى الخياشيم، فعطس، ففتحت العطسة المجاري المسدودة، فصارت إلى اللسان، فقال آدم: الحمد لله الذي لم يزل. فهي أول كلمةٍ، قالها آدم، وناداه الرب: يرحمك ربك يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا لك

(1) العظمة 3: 882.

(2) العظمة 5: 1627. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 5: 244.

(3) الملوك المتوَّجة من حمير: 13. وقصص الأنبياء للثعلبي: 27.

(4) في قصص الأنبياء للثعلبي: 28. «قال العلماء». والأحداث نفسها بأسلوب سرد آخر.

(5) قصص الأنبياء للكسائي: 96.

(6) السرادق كل ما أحاط بالشيء. المعجم الوسيط: سردق

(7) الملوك المتوَّجة من حمير: 14.

ولذريتك، ولمن قال مثل مقالتك[1].

فلمّا استوى قائماً، نظرت الملائكة إليه، كأنه الفضة البيضاء، فأمرهم الله تعالى حينئذٍ بالسجود له، فأول من بادره بالسجود جبريل، ثمَّ ميكائيل، ثمَّ إسرافيل، ثمَّ عزرائيل، والملائكة المقربون، وأبى إبليس أن يسجد استكباراً وحسداً { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } سورة ص: 75 - 76[2]، والنار تأكل الطين، وأنا الذي عبدتك دهراً طويلًا، قبل أن تخلقه، وأنا الذي كسوتني الريش والنور والبهاء، وأنا الذي عبدتك في أكناف السماوات مع الكروبيين والصافين والحافين والروحانيين، قال الله تعالى: لقد علمت من الملائكة الطاعة، ومنك المعصية، فلم ينفعك طول العبادة لسابق العلم فيك، ولقد أبلستك[3] من الخير كله إلى الأبد، وجعلتك مذموماً مدحوراً شيطاناً رجيماً لعيناً[4].

فعند ذلك تغيرت خلقته إلى خلقة الشياطين، فنظرت الملائكة إلى قبح منظره، وشمت منه رائحةً كريهة، فوثبت عليه بالحراب، وهم يلعنونه، ويقولون: رجيم رجيم، ملعون ملعون. وأول من طعنه جبريل ثمَّ ميكائيل والملائكة من جميع النواحي، وهو هارب من بين أيديهم، ثمَّ ألقوه في البحر المسجور، فعرفت ذلك ملائكة البحر المسجور، فبادرت إليه بحرابها، فلم يزالوا

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 96.

(2) في جامع البيان 21: 239، ولم ينسبها لوهب. وهناك أسطورة يهودية، تقول: «في اليوم الثالث من أيام الخليقة، ظهر في الجنَّة كبير ملائكة الله، هليل بن شحر، يختال بجسده الناري، وبجوهراته المتلألئة، مجزعة بالذهب الخالص، ولحين من الدهر كان ورعاً، إلا أن الغرور ركب رأسه، فقال: سأصعد فوق الغيوم والنجوم، وأجلس على عرش صافون، جبل العرش، لأكون صنواً لله. عند ذاك أنزله الله من جنة عدن إلى الأرض، ومن الأرض إلى شيول، فاشتعل الشيطان في أثناء سقوطه كالشهاب، واحترق ثمَّ استحال رماداً. الأساطير للشوك: 42.

وهي تشتمل على عناصر قصة إبليس، مثل وجوده أولاً في الجنَّة، وكونه أكثر عبادة من كبار الملائكة، وهو خازن السماء الدنيا، وإبائه السجود لآدم، وكان له عرش في الأرض السابعة، مع فكرة رمي الشياطين بالشهب وإحراقها؛ كونها تسترق أخبار السماء، وفيه: 76 احتج إبليس بأنه خلق من نار، وآدم خلق من طين.

(3) أبلس: يئس وتحير.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 99. وعن وهب في الملوك المتوَّجة من حمير: 15.

وقد «تجلت حكمة آدم، عندما سمى الحيوانات، فبعد ساعة من خلقه، جمع الرب عالم الحيوان، وطلب من الملائكة أن يسموا كل نوع باسمه، ففشلوا، في حين نجح آدم في نداء كل حيوان باسمه، وفشل كذلك الشيطان مع أول اثنين عرضا له، وهما الثور والبقرة، ومع اثنين آخرين، هما الجمل والحمار، ونجح آدم كذلك، فاضطر الشيطان للاعتراف بأفضلية الإنسان الأول، ومع ذلك، فقد أخذته نوبة من الصراخ الهستيري، ورفض السجود لآدم، كما أمر من قبل، وعندما قال له ميكائيل: اسجد لصورة الرب ... ، أجاب الشيطان: لئن غضب علي ربي، فسأقيم عرشي فوق نجوم الرب، عندها طرد الرب الشيطان، وأتباعه من السماء، وأهبطهم إلى الأرض، فنشأت العداوة بين الشيطان والإنسان، وفي الأساطير القديمة أن الشيطان طرد من الجنَّة؛ لغيرته من الرب، وأنه حاول أن يقيم عرشاً فوق السماء؛ ليكون مثل الرب. قصص اليهود: 93، 342 حاشية: 35.

وهي أسطورة الإله النقيض نفسها.

يطعنونه بها، حتى ألقوه إلى قراره، وغاب عن أعين الملائكة، وهم في اضطراب، والسماوات في رجفان من جرأة إبليس، ومخالفته لأمر ربه، ومن غضب الله عليه[1].

وقال وهب: لمّا أسجد الله الملائكة لآدم،وأبى إبليس أن يسجد، قال له ربه: اخرج منها؛ فإنك رجيم، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين. ثمَّ قال لآدم: يا آدم، انطلق إلى هؤلاء الملأ من الملائكة، فقل: السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته. فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام، ورحمة الله وبركاته. فلمّا رجع إلى ربه، قال له ربه تبارك وتعالى: هذه تحيتك، وتحية ذريتك من بعدك فيما بينهم، إلى يوم القيامة[2].

تعليم آدم

وعلَّم الله آدم الأسماء كلَّها، حتى عرف جميع اللغات، حتى لغة الحيتان والضفادع، وجميع ما في البر والبحر[3].

ثم أمر الله تعالى الملائكة؛ ليحملوا آدم على أكتافهم، ليكون عالياً عليهم، فحملوه، وهم يقولون: قدوس قدوس، لا نخرج عن طاعتك، فساروا به في جميع السماوات، وقد اصطفت حوله الملائكة، فلا يمر على صف منهم، الا يقول: السلام عليكم، فيجيبونه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يا صفوة الله وخيرته، وبديع فطرته. وضربت له قباب من الياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر، فما مرَّ آدم في موقفٍ من الملائكة، أو من مقام النبيين، الا ذكره الله حتى يقول باسمه، وباسم صاحبه.

ثم أمر الله تعالى جبريل، فنادى في صفوف الملائكة، فاجتمعوا؛ ليخطب بهم آدم، وهم يومئذٍ عشرون ألف صف، كل صفٍ على زينة، وأعطي لآدم من حسن الصوت ما بلغهم، ووضع له منبر الكرامة، له سبع مراقٍ[4]، فصعد آدم المنبر، وعليه ثياب السندس الأخضر في رقة الهواء، وله ضفيرتان مرصعتان بالجوهر، محشوتان بالمسك والعنبر، وعلى رأسه تاج من الذهب

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 99.

(2) علل الشرائع 1: 150.
وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 28. دون نسبة: فحملته الملائكة على أعناقها، وطافت به السماوات مقدار مائة عام، حتى وقف على كل شيء من آياتها وعجائبها، ثمَّ خلق الله فرساً من المسك الأذفر، يقال له: الميمون، له جناحان من الدر، فركبه آدم، وجبريل آخذ بلجامه، وميكائيل عن يمينه، وإسرافيل عن شماله، فطافوا به السماوات كلها، وهو يقول: السلام عليكم، يا ملائكة الله. فيقولون: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال الله تعالى: يا آدم، هذه تحيتك، وتحية المؤمنين من ذريتك، فيما بينهم إلى يوم القيامة.

(3) الملوك المتوَّجة من حمير: 15. و«علمهم جميع ما في البر والبحر». سفر التكوين 2: 20. وكانت الكائنات تمر أمامه أزواجاً، ذكوراً وإناثاً، وهو في العشرين من عمره. الأساطير للشوك: 62. والقصة في قصص أهل الكتاب: 169.

(4) جمع مرقاة، وهي موضع الصعود.

مرصع بالجوهر، وفي أصابعه خواتم الكرامة، وفي وسطه منطقة[1] الرضوان، لها نور يسطع[2].

فوقف آدم على المنبر على هذه الزينة، وقد علمه الله تعالى الأسماء كلها، وأعطاه قضيباً من النور، فتحيرت الملائكة فيه، وقالت: إلهنا، هل خلقت خلقاً أفضل من هذا؟، فقال الله تعالى: ليس من خلقته بيدي كمن قلت له: كن فكان. فسلم آدم على الملائكة، وقال: السلام عليكم، يا ملائكة ربي، ورحمة الله وبركاته، فأجابته الملائكة: وعليك السلام يا صفوة الله، وبديع فطرته، فأتاه النداء: أن يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا السلام منك تحية لك ولولدك، إلى يوم القيامة.

وأخذ آدم في الخطبة، فأول ما بدأ به أن قال: الحمد لله. فصار ذلك سنةً في أولاده إلى يوم القيامة، ثمَّ ذكر علم السماوات والأرضين، وما فيهما، من خلق رب العالمين، بعد ما أثنى على الله، فعندها قال تعالى: { أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } أن ليس فوقكم من هو أعلم منكم، فأقرت الملائكة بالعجز فعند ذلك قال تعالى: { قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا }[3].

فجعل آدم يخبرهم بكلِّ شيءٍ، خلقه الله تعالى، خفيها وظاهرها، برها وبحرها، حتى الذرة والبعوضة، فتعجبت الملائكة من ذلك، فقال تعالى: { أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } سورة البقرة: 31. 32. 33.

ونزل آدم من منبره، وقد زاد الله في حسنه وجماله أضعاف ذلك[4]، فلماً نزل، أتته الملائكة بقطفٍ من عنب أبيض، فأكله، وهو أول شيءٍ، أكله من طعام الجنَّة، فلمَّا استوفاه، قال: الحمد لله، قال تعالى: لهذا خلقتك، فهو سنتك وسنة أولادك إلى آخر الدهر، ثمَّ أخذته سنة من النوم، لأنه لا راحة لبدنٍ، يأكل الا بالنوم، ففزعت الملائكة، وقالت: النوم هو الموت، فهذا يموت، فلمَّا سمع إبليس ذلك، فرح، وقال: سوف أغويه. قال وهب: من علامة الموت النوم، ومن علامة القيامة اليقظة[5].

خلق حواء

قال وهب[6]: لمَّا أسكن الله تعالى آدم الجنَّة، كان يمشي فيها وحشياً، لم يكن له من يجالسه

(1) المنطقة مكان شد النطاق، وهو حزام الوسط.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 100.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 101.

(4) الاحتفال بزواج أول زوجين في قصص اليهود: 96.

(5) قصص الأنبياء للكسائي: 102.

(6) في قصص الأنبياء للثعلبي: 29. «قال المفسرون». وفي قصص الأنبياء للكسائي: 103. «قال وهب».وفي الأساطير اليهودية أن الملائكة بعد الأمر بالسجود لآدم، صارت تقدس آدم بسبب حكمته وجماله، فمنعها الله من النظر إلى آدم كقديس، فأخذه في نوم عميق، كي يوضح عدم قدرة آدم على عمل كل شيء، ويمنع المخلوقات من السجود له، فيكون السجود لله فقط. قصص أهل الكتاب: 171.

ويؤانسه، فألقى الله تعالى عليه النوم فنام، فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه، من شقه الأيسر، يقال له: القصيرى[1]، فخلق منه حواء من غير أن يحس آدم بذلك، ولا وجد له ألماً، ولو أولم آدم من ذلك، لَمَّا عطف رجل على امرأة، ثُمَّ ألبسها من لباس الجنَّة، وزينها بأنواع الزينة، وأجلسها عند رأسه.

[كانت حواء على طول آدم، وعلى حسنه وجماله، وكان لها سبعمائة ضفيرةٍ مرصعة باليواقيت، محشوةٍ بالمسك، دعجاء، غضة بضة، مخضوبة الكفين، تسمع لذوائبها خشخشة، وهي مقرطة مشنفة مدملجة، متوجة، وهي على صورة آدم، غير أنها أرق منه خلقاً، وأصفى منه لوناً، وأحسن منه صوتاً، وأدعج منه عيناً، وأقنى منه أنفاً، وأصغر منه سناً، وأفلج منه ثغراً، وألطف منه بناناً، وألين منه كفاً][2]، فلما هب آدم من نومه، رآها قاعدة عند رأسه، فقالت الملائكة لآدم، يمتحنون علمه: ما هذه يا آدم؟. قال: امرأة. قالوا: وما اسمها؟. قال: حواء. قالوا: ولم سميت حواء؟. قال: لأنها خلقت من حي. قالوا: ولماذا خلقها الله تعالى؟. قال: لأسكن إليها، وتسكن إلي[3].

فقال آدم: يا رب، هذه أمتك حواء، قد رق قلبي لها، فلمن خلقتها يا رب؟، فقال: يا آدم، خلقتها لك لتسكن إليها، فلا تكون وحيداً في جنتي، قال: فانكحنيها يا رب، قال: أنكحها منك بشرط أن تعلمها معالم ديني، وتشكرني عليها. فرضي آدم بذلك، فوضع له كرسي من جوهر، وجلس عليه، واجتمعت الملائكة، فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن اخطب، وكان الولي رب العالمين، والخطيب جبريل، والشهود الملائكة، والزوج آدم، والزوجة حواء ، فتزوجت حواء منه على الطاعة والتقوى والعمل الصالح، ونثرت الملائكة بأجمعها عليهم من نثار الجنَّة.

ثم أوحى الله إلى آدم: أن أذكر نعمتي عليك، فإني خلقتك بديع فطرتي، وسويتك بشراً على هيئتي، ونفخت فيك من روحي، وأسجدت لك ملائكتي، وحملتك على منبر الرضوان، وكنت خطيباً للصافين والحافين والكروبيين والروحانيين والمقربين، وجعلت ذلك فخراً لك وشرفاً، وهذا إبليس اللعين قد أبلسته، ولعنته، حين أبى أن يسجد لك، وقد ختمت كرامتك بأمتي حواء، فلا نعمة يا آدم، أعظم من زوجةٍ حسنةٍ صالحة، وقد بنيت لكما دار الحياة من قبل أن

---

(1) ضلع بين الجنب والبطن. لسان العرب: قصر.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 103. ومعنى دعجاء: سوداء العين مع سعتها، وغضة: طرية، وبضة: رقيقة، ومقرطة: ذات قرط، ومشنفة: ذات شنف، والقرط ما يعلق بأسفل الأذن والشنف ما يعلق بأعلاها، ومدملجة: ذات معضد، ومتوجه ذات تاج من زينة أو غيرها. ولها توصيف آخر في الملوك المتوَّجة من حِمير: 15. وهو «قال وهب: خلق حواء بيضاء نقية صافية البياض ناصعة كحلاء سوداء الأشعار». يعبر اختلاف التوصيف عن رؤية كل قاص إلى جمال المرأة المثالي، ولا شك في أن أشكال النساء أمام عيني كل قاص من توصيف مغاير.

(3) الملوك المتوَّجة من حِمير: 14. وقصص الأنبياء للثعلبي: 29. والقصة في العهد القديم، سفر التكوين 2: 21 – 24. وفي قصص اليهود: 96. «غشي النعاس آدم، قبل أن يؤخذ من جانبه ضلع؛ لتخلق منه حواء، ولو كان قد رآها، وهي تخلق، لما أيقظت فيه الحب».

أخلقكما، بألفي عامٍ، على أن تدخلاها بعهدي وأمانتي[1].

عن وهب بن مُنبِّه، قال الله تعالى لآدم: يا آدم، انطلق فإني قد نصبت لك في بحبوحة الجنَّة سريراً، لا ينبغي لاحدٍ، قبلك ولا بعدك، أن يجلس على مثله، طوله ما بين المشرق والمغرب سبع مرات، وله سبعمائة قائمة، من قائمة الى قائمة مسيرة مائة عام، وكان يجلس عليه آدم في مقابلة شجرة الخلد[2]، وكان يولي وجهه عنها، يتوقى أن يدخل عليه ما يسخط ربه، وكانت حواء معه، ولما أسكنهما جنة الخلد نهاهما عن أكل البر، قال الله تعالى: { وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } سورة البقرة: [3]35.

عرض الأمانة على آدم

وكان الله قد عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال، من قبل أن يعرضها على الملائكة، وهي أن يكافئوا على الإحسان، ويعذبوا على الإساءة، فأبوا قبولها، ثمَّ عرضت هذه الأمانة على آدم، فقال له: إن أطعت كافأتك بالإحسان، وخلدتك في الجنان، وإن تركت عهدي، أخرجتك من داري، وعذبتك بناري، فقبل آدم هذه الأمانة، وقال: يا رب، قد قبلت عهدك وأمانتك ووصيتك، فتعجبت الملائكة من قبول العبد، لقول الله: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا} سورة الأحزاب: 72.

ثم مثل له ولحواء إبليس اللعين، { فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } سورة طه: 117. ثمَّ ناداه الرب: يا آدم، إن من عهدي لكما، وأمانتي أن تدخلا الجنَّة { وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } سورة

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 105.

(2) عن ابن عبَّاس، أنه قال: أمر الله تعالى ملائكته أن يحملوا آدم على سرير من ذهب إلى السماء، فأدخلوه الجنَّة. بحر العلوم 1: 44.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 106. وتاريخ الخميس 1: 47. وفي العهد القديم، سفر التكوين 2: 16 – 17. وتعيين نوعها على أنه البر أو الحنطة في الأساطير للشوك: 66.

البقرة: 35. فقبل هذه العهود كلها[1].

في الجنَّة

فعند ذلك، أوحى الله إلى جبريل: أن آت رضوان الخازن؛ ليخرج إليك فرس آدم الذي خلقته قبل أن أخلقه، بخمسمائة عام.

قال كعب ووهب: خلقه الله من الكافور والمسك والزعفران، فليس في الجنَّة دابة، بعد البراق، أحسن منه وقال وهب: فضل البراق على سائر الأفراس كفضل نبينا محمد ﷺ على غيره من الأنبياء.

قال: فأقبل جبريل إلى رضوان، ففتح باب الجنَّة، فنادى: أيها الفرس الميمون، أجب، فأقبل بالتسبيح والتقديس والتهليل، حتى وقف بين يدي جبريل، وقد أسرج بسرج من الزبرجد، وألجم بلجام من الياقوت، وله أجنحة من أنواع الجواهر، فأقبل جبريل حتى أوقفه بين يدي آدم، فعجب آدم من حسنه، فلماً استوى على ظهره، وأخذ جبريل بركابه، قال آدم: الحمد لله الذي سخر لنا هذه الأشياء، فناداه الفرس من تحته: أحسنت يا آدم، لا ينبغي لأحدٍ، يركبني إلا أن يكون عبداً شكوراً، ونودي: يا آدم، قد أديت شكراً، لمَّا أعطيت، لقولك: الحمد لله.

قال: وأتيت حواء بناقة، قد كونها الله فاستوت عليها، وآدم على الفرس، يسير إلى الجنَّة،

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 105. وفي الجنَّة شجرتان، كما جاء في التوراة، «شجرة الحياة في وسط الجنَّة، وشجرة معرفة الخير والشر». سفر التكوين 2: 9. وقد منع آدم من الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، «وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنَّة تأكل أكلاً . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها». لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»، سفر التكوين 2: 16 – 18، فالمنهي عن الأكل منه هو شجرة معرفة الخير والشر، بحسب منطق الأسطورة.
وأما شجرة الحياة، كما جاء في قاموس الكتاب المقدس: شجرة الحياة. «فثمرها يمنح الإنسان حياةً خالدة، وعندما أخطأ آدم وحواء طردهما السيد من الجنَّة؛ لئلا يأكلا من شجرة الحياة، ويعيشا إلى الأبد، ولو كانا يعيشان إلى الأبد بخطيئتهما لصار العالم جحيماً مقيماً، لذلك دبر الله طريقاً آخر لإعادة الإنسان إلى الحياة»، ولم يمت آدم وحواء، عندما أكلا من شجرة المعرفة، وكان الطرد من الجنَّة، والهبوط إلى الأرض بمثابة الموت.
وفي أساطير اليهود: 97. ما يؤيد ذلك «وفي الفردوس تقف شجرة الحياة، وشجرة المعرفة التي تكون سياجاً يحيط بالأولى (شجرة الحياة)، ولا يستطيع الاقتراب من شجرة الحياة إلا من شق لنفسه طريقاً إليها من خلال شجرة المعرفة، وشجرة الحياة ضخمة، لدرجة أن الإنسان يأخذ خمسمائة عام؛ لكي يعبر مسافة، تعادل قطر جذعها»، وفي وصف شجرة الحياة.
وقد تحولت إلى شجرة الخلد، والخلد هو نقيض الموت. جاء عن أبي هريرة، عن النبي قال: إن في الجنَّة شجرةً، يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، شجرة الخلد. مسند أحمد 21: 240، وجامع البيان 8: 489.
وبخصوص شجرة الخلد وسوس الشيطان لآدم فقط، أي لا له ولحواء، فقال تعالى: { فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى } سورة طه: 120.
فيبدو أن القرآن الكريم يشير هنا إلى شجرة الخلد (الحياة) من خلال وسوسة الشيطان إلى آدم دون حواء، أما الشجرة في خطاب الاثنين، آدم وحواء في قوله تعالى: { وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين } سورة البقرة: 35، فهي شجرة المعرفة، وقد جرت الأحداث في القصة عليها، إذ عرفا بعد أكلهما من الشجرة أن لها سوءة، وأخذا يخصفان عليها.

وحواء من ورائه على الناقة، والملائكة عن اليمين والشمال، ومن بين يديه، ومن خلفه، حتى بلغوا باب الجنَّة، فأمرت الملائكة أن تقف بآدم على باب الجنَّة، فناداه الرب: يا آدم، إنك نظرت في أهل سماواتي، فهل أحد يشبهك في حسن صورتك؟، فقال: يا رب، ما رأيت فيهم من يشبهني، ولا رأيت أحداً، أعطي مثل ما أعطيت، فسبحانك ما أعظم شأنك؟ !. فقال: يا آدم، إنك أكرم علي منهم، إن أطعتني، ولم تنس عهدي، ولم تكن جباراً كفوراً، وفي كل هذا، يقبل آدم الأمانة والعهد، ولا يسأل ربه العصمة.

ثم مكث آدم وحواء مكللين متوجين مكرمين، فلمَّا دخلا الجنَّة، لم يبق فيها ملك ولا طائر ولا شجرة، إلا أثنى على آدم وحواء، وجعل الفرس يقف بآدم، على منازل الأنبياء في الجنَّة وغيرهم، حتى إذا كان في وسط جنة عدن، نظر، فإذا هو بسريرٍ من جوهر، له سبعمائة قائمة من قوائم الجوهر، وله شرف كثيرة، وعلى السرير فرش من السندس والإستبرق، وبين الفرش كثبان المسك، وعلى السرير أربع قباب: قبة الرضوان، وقبة الغفران، وقبة الخلد، وقبة الكرم، فناداه السرير: إلي يا آدم، فلك خلقت، ولك زينت.

قال: فنزل آدم وحواء، وجلسا على سريرهما، بعد أن طافا جميع الجنان، ثمَّ قدم إليهما من ثمارها وفواكهها، فأكلا منها، ثمَّ تحولا إلى قبة الكرم، وهي أزين القباب، وعن يمين السرير جبل من مسك، وعن يساره جبل من عنبر، وشجرة طوبى[1] قد ظللت جميع القباب، وأحب آدم أن يدنو من حواء ، فأسبلت القباب ستورها وتغشاها آدم، فكان معها كأهل الجنَّة في الجنَّة، وحواء، على تجدد الأوقات، تتجدد حسناً وجمالاً[2].

فأقاما في الجنَّة خمسمائة عامٍ من أعوام الدنيا، في أتم السرور، وأنعم الأحوال، وكان آدم ينزل عن السرير، فيمشي في ميادين الجنَّة، وحواء خلفه، تسحب سندسها، وكلما تقدما من قصر إلى قصر، نثرت الملائكة عليهما من نثار الجنَّة، حتى يرجعا إلى سريرهما.

قال: وكان إبليس اللعين خائفاً من الملائكة، لمَّا جرى عليه من رجمهم إياه، وطعنهم له بالحراب، فصار مستخفياً من آدم وحواء، فبينما هو كذلك، إذا هو بصوتٍ عالٍ: يا أهل السماوات، قد أسكنت آدم وحواء الجنان بالعهد والميثاق، وأبحت لهما جميع ما في الجنَّة، إلا

(1) عن وهب في جامع البيان 16: 439 أنها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، تخرج من أصلها أنهار، وأوصاف عجائبية أخرى، هي أوصاف شجرة الحياة، حيث «تتدفق من هذه الشجرة مياه، تروي كل الأرض». مدراش بريشيت رابا: 15: 6. قصص اليهود: 98. 343.

(2) تم الاحتفال بزفاف الزوجين، حيث قام الرب بإضفاء الزينة على حواء، ودعا المثكى للاحتفال بآدم وحواء؛ لأن كل العالم يعتمد في وجوده عليهما، فرقصت الملائكة، وعزفت على الآلات الموسيقية، أما غرف العروسين العشر، وكانت مزدانة بالذهب والحلي. همدراش هجادول لسيفر بريشيت: 12. قصص اليهود: 97، 343.

شجرة الخلد، فإن قرباها وأكلا منها، يكونا من الظالمين[1].

الطاووس

فلمَّا سمع ذلك إبليس، فرح وانتفخ، وقال: لأخرجنهما من ذلك الملكوت، بعد أن أمرا ونهيا، ثمَّ مرَّ مستخفياً في السماوات، حتى وقف على باب الجنَّة، فإذا الطاووس قد خرج من الجنَّة، وله جناحان، إذا نشرهما، غطى بهما سدرة المنتهى، وله ذنب من زمردة خضراء، على كل ريشةٍ منه جوهرة بيضاء، عيناه ياقوتتان حمراوان، لهما ضوء كضوء الشمس، وهو أطيب طيور الجنَّة صورةً وتغريداً، وأحسنهم ألحاناً، وكان يخرج في كل وقت، ويمر في طرقات السماوات السبع، يخطر في مشيته، ويرجع في تسبيحه، فيعجب كل من سمعه بتسبيحه، وحسن صوته، ثمَّ يرجع إلى الجنَّة[2].

فلمَّا رآه إبليس دعاه، وكلمه بكلام لين، وقال: أيها الطائر العجيب الخلق، الطيب الصوت، أي طائرٍ أنت من طيور الجنَّة؟، قال: أنا طاووس الجنَّة، ولكن مالك أيها الشخص، كأنك مرعوب، تخاف طالباً يطلبك؟. قال إبليس: أنا ملك من ملائكة الصفيح الأعلى[3]، من زمرة الكروبيين الذين لا يفترون عن التسبيح ساعةً، غير أني أحببت أن أنظر إلى الجنَّة، وإلى ما أعد الله لأهلها، فهل لك أن تدخلني الجنَّة، ولك أن أعلمك كلماتٍ ثلاثاً من قالها، لم يهرم، ولم يسقم، ولم يمت؟.

فقال له الطاووس: وأهل الجنَّة يموتون؟، قال: نعم، ويسقمون، ويهرمون، إلا من كانت معه هذه الكلمات، وحلف له على ذلك، فوثق به الطاووس، ولم يظن أن أحداً، يحلف بالله كاذباً، فقال له: أيها الشخص، ما أحوجني إلى هذه الكلمات، غير أني أخاف أن يستخبرني عنك رضوان، ولكن أبعث إليك الحيَّة، فإنها سيدة دواب أهل الجنَّة، وإنها تدخلك الجنَّة[4].

الحيَّة

فمر الطاووس، ودخل الجنَّة، فذكر ذلك للحية، وقال: ما أحوجني وإياك إلى هذه الكلمات، وقد ضمنت له أني باعثك إليه، من قبل أن يسبقك إليه سواك، فخرجت الحيَّة مسرعةً من باب

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 109. ولكن في قصص الأنبياء للثعلبي: 29. «قال أهل التاريخ:. والمقصود بهم هنا وهب، كما في تفسير عبد الرزاق 2: 75. وتاريخ الرسل والملوك 1: 108.

(2) عن وهب بن مُنبِّه: كان الطاووس مسكنه شجرة طوبى، وكان اذا نشر جناحيه، ظلل بهما سدرة المنتهى، وكان يقول في صياحه: أنا الملك المتوج الذي غمرت في نعيم الجنَّة، فلا أخرج منها أبداً. تاريخ الخميس 1: 48.

(3) الصفيح الأعلى من أسماء السماء. تاج العروس: صفح.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 111. وكانت الحية من أبرز الحيوانات، تشبه البشر في بعض صفاتها، فهي تقف منتصبة على قدميها، في طول الجمل، ولها قدرات عقلية متميزة، وقد حسدت آدم في علاقته الزوجية، فاتبعت وسائل مختلفة لجلب الموت لآدم، وقد اقتربت من حواء لمعرفتها أن النساء يمكن إغوائهن بسهولة. مدراش بريشيت رابا 9: 19. قصص اليهود: 99، 343.

الجنَّة، فرأت إبليس على ما وصفه الطاووس، فتقدَّم إليها بالكلام الطيب[1]، فقال لها مثل ما قال للطاووس، فقالت الحيَّة: أتعطيني على ما تقول عهداً؟. فحلف لها كما حلف للطاووس، فقالت: حسبك الله، ولكن كيف أدخلك الجنَّة، ولا يحل لك ركوبي؟، فقال لها: إني أرى بين أنيابك فرجةً واسعة، وأعلم أنها تسعني، فادخليني فيها، حتى أعلمك الكلمات الثلاث، قالت الحيَّة: فإن علم رضوان، فما أعمل؟.

فقال إبليس : أنت في ذمتي أبداً، فلا تخافي، فقالت الحيَّة: إذا حملتك في فمي، فكيف لي أن أتكلَّم، إن كلمني رضوان؟. فقال لها إبليس: لا عليك، فإن معي أسماء ربي، إن قلتها، لا يفطن بي، ولا بك أحد من الملائكة، والملائكة كلهم ساهون عن تحاورهما، غير أن حواء كانت قد فقدت الحيَّة، فلم ترها، وكانت مولعةً بها؛ لحسن حديثها، والحيَّة مع إبليس في المحاورة، يحلف لها ويخدعها، فلم يزل إبليس بها، حتى وثقت به، وفتحت فاها، فوثب إبليس، فقعد بين أنيابها، فصار نابها سمّاً إلى آخر الدهر، وضمت الحيَّة شفتيها ودخلت الجنَّة، ولم يكلمها رضوان بشيء، لقضاء الله السابق، حتى إذا توسطت الحيَّة الجنَّة، قالت له: اخرج من فمي، وعجل قبل أن يفطن بك أحد. قال إبليس: لا تعجلي، فإن حاجتي من الجنَّة آدم وحواء، فإني أريد أن أعلمهما وأعلمك الكلمات، فقالت الحيَّة: تلك قبة حواء، اخرج إليها فكلمها. فقال إبليس: أكلمها من فيك، فإن لم تفعلي ذلك، لا أعلمك الكلمات[2].

فحملته الحيَّة إلى حواء ، فقال إبليس من فيها: يا حواء، يا زين أهل الجنَّة، ألست تعلمين أني معك في هذه الجنَّة، وأنا أحدثك بكلِّ ما في الجنَّة، وإني صادق في كل ما أحدثك به؟، فقالت حواء: نعم، ما عرفتك إلا بصدق الحديث. فقال إبليس: يا حواء، أخبريني ما الذي أحل لكما ربكما من الجنَّة، وحرم عليكما؟، فأخبرته بما نهاهما عنه، فقال إبليس من فم الحيَّة: لماذا نهاكما عن شجرة الخلد؟، قالت حواء: لا علم لنا بذلك، فقال إبليس: أنا أعلم، فإنما نهاكما؛ لأنه أراد أن يفعل بكما، كما فعل بذلك العبد الذي مأواه تحت شجرة الخلد، أدخله الجنَّة، قبل دخولكما بألفي عام.

فوثبت حواء من سريرها، لتنظر إلى العبد، فخرج إبليس من فم الحيَّة، كالبرق الخاطف[3]، حتى قعد تحت شجرة الخلد، فأقبلت حواء فرأته، ثمَّ وقفت بالبعد منه، ثمَّ نادته: من أنت، أيها

---

(1) قال لها: لماذا تأكلين من زوان آدم، وليس من ثمر الجنَّة؟. لنذهب ونجعله يطرد من الجنَّة، كما جعلنا نطرد منها، فقالت: أخاف أن يغضب الله مني. فقال لها: لا تخافي، كوني لي غطاء، وسألفظ بواسطة فمك كلاماً لكي أضل آدم. الحياة اليونانية لآدم وحواء: 636.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 107 – 112. وهي في قصص الأنبياء للثعلبي: 30. والقصة عن ابن عبَّاس في بحر العلوم 1: 44. وعن وهب في تاريخ الخميس 1: 50.

(3) في قصص الأنبياء للثعلبي: 30. أن إبليس تحول ريحاً، بين أنياب الحية. والأصل في الحياة اليونانية لآدم وحواء: 636. وقصص أهل الكتاب: 183.

الشخص؟. فقال: خلق من خلق ربي، خلقني من نار، كما خلقكما بيده، ونفخ في من روحه، وأسجد لي ملائكته، وأسكنني جنته، ونهاني عن أكل هذه الشجرة، وكنت لا آكل منها، حتى نصحني بعض الملائكة، وقال: كل منها، فإن من أكل منها، كان مخلداً في الجنَّة أبداً، وحلف لي أنه لمن الناصحين، فوثقت بيمينه، وأكلت منها، فأنا في هذه الجنَّة إلى وقتي هذا، كما ترين، قد آمنت الهرم والسقم والموت، والخروج من الجنَّة، { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } سورة الأعراف: 20.

ثم نادى: يا حواء، كلي، فإنك لا تنسين طيبة ما أكلت من ثمار الجنَّة، واسبقي، فكلي قبل زوجك، فإنه من سبق، كان له الفضل على صاحبه. قالت حواء للحية: فأنت معي، منذ دخلت الجنَّة، ولم تخبريني بهذه الشجرة؟ !. فسكتت الحيَّة مخافةً من رضوان، ورغبةً في الكلمات[1].

ثم أقبلت حواء على آدم، وهي مستبشرة فرحة، فأخبرته بخبر الحيَّة والشخص، وأنهما قد حلف لها إنهما ناصحان، فذلك قوله: { وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } سورة الأعراف:[2]21.

الأكل من الشجرة

وجاء القَدَر المقدور، فركنا جميعاً إلى قول إبليس وقسمه، فتقدَّمت حواء إلى تلك الشجرة، ولها أغصان لا تحصى، وعلى الأغصان سنابل، كل حبة منها كقلال هجر[3]، ولها رائحة، أطيب من رائحة المسك، وهي أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فأخذت منها سبع سنابل من سبعة أغصان، فأكلت منها واحدةً، وادخرت واحدةً، وجاءت بخمسٍ منها إلى آدم[4].

فتناول آدم السنابل من يدها، وقد نسي العهد المأخوذ عليه من أجلها[5]، فذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} سورة طه: 115. أي حرصاً[6].

---

(1) أسطورة إبليس والحية وآدم حواء، عن وهب، في تفسير عبد الرزاق 2: 76، وعنه، وعن السدي في جامع البيان 1: 526. وهي في قصص اليهود: 99. والأساطير للشوك: 65.

(2) قاسمها أقسم لهما، والقسم هو الحلف.

(3) القلال جمع قلة إناء من فخارٍ لشرب الماء، وهجر منطقة في البحرين، ويبدو أن السنبلة كانت تعييناً لنوع شجرة المعرفة في أسطورة أخرى، حيث زعم آخرون، كما جاء في الأساطير للشوك: 66، كانت ساق حنطة هائلة، أطول من شجرة الأرز، وقد قال السدي: تزعم اليهود أنها الحنطة (السنبلة). جامع البيان 1: 519، وبهذا أخذ مقاتل في تفسيره . 5 1: 42، ومن نقل عنهم الطبري، جامع البيان 1: 517.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 114.

(5) قال آدم مخاطباً حواء: أيتها المرأة الشريرة، ما الذي ارتكبته بحقنا؟، فقد أفقدتني مجد الله. الحياة اليونانية لآدم وحواء: 637.

(6) وفي الملوك المتوَّجة من حِير: 14. رواية أخرى عن، وهي أن إبليس استغل وقت إفاقة آدم من نومه، فطلب منه الأكل من الشجرة، فأكل آدم أولاً، ثمَّ أكلت حواء بعده، وذكر النهاية، فرمى ما في يده، وتفل بما في فمه، وفعلت ذلك حواء، فتبرأ منه إبليس، فقال آدم: رب، نسيت، واستفزني عدوي ساعة نومي، وذلك قوله تعالى: { فنسي ولم نجد له عزمًا } أي لم يعزم على مضغ ما في فمه، ولا حبس ما في يده.

وما ساغ[1] آدم من تلك السنابل سنبلةً واحدة، حتى طار التاج عن رأسه، وعري من لباسه، وانتزعت منه خواتمه، وسقط كل ما كان عليه، وعلى حواء، من لباسهما وحليهما وزينتهما، وناداهما لباسهما الذي طار عنهما: يا آدم، طال حزنكما، وعظمت مصيبتكما، وعليكما السلام إلى يوم القيامة، ثمَّ تقول الحلة: رب العرش عهد إلينا إلا نكون إلا على عبدٍ مطيع خاشع، وانتفض السرير عن فرشه، وصار في الهواء، ونادى أن آدم عصي ربه الرحمن، وأطاع الشيطان، وسقطت المنطقة عن وسطه، حتى لم يبق من لباسهما شيء، { وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } سورة الأعراف: 22[2].

وجعل كلُّ واحدٍ منهما ينظر إلى سوءة صاحبه، وهرب إبليس مبادراً، وصار مستخفياً في طرائق السماوات، وصاح آدم صيحةً، فلم يبق في الجنَّة شيء إلا ناداه: يا عاصي. وغض أهل الجنَّة أعينهم عنهما، وقالوا: يا رب، أخرجهما من الجنَّة. وجعل فرسه الميمون ينادي: يا مغرور، أهكذا كان العهد بينك وبين ربك؟.

وانتفضت أشجار الجنَّة عنهما، فلم يمكنهما أن يستترا بشيء، وكان آدم، كلما قرب من شجرةٍ، تناديه: إليك عني يا عاصي. فالكلُّ يناديه بالعيب والملام، وهو ناظر إليهم بحسرةٍ وندامةٍ، فلمَّا كثر عليه الملام، مضى هارباً على وجهه، فإذا هو بسدرة المنتهى[3] قد التفت عليه، ومسكته بأغصانها، ونادته: إلى أين تهرب يا عاصي؟. فوقف آدم فزعاً مرعوباً، وظن أن العذاب قد أتاه من كلِّ جانب، فجعل ينادي: الأمان الأمان، يا رحمن. وحواء مجتهدة في شيءٍ، تستتر به، وكلما بشيءٍ، ينكشف عنها، فنوديت: يا بادية السوء، كيف تتسترين، وقد عصيت ربك؟ !.

فجلست، وجعلت ذقنها على ركبتها، كي لا يراها شيء، وهي تحت تلك الأشجار، وآدم موقوف، قد قبضت شجرة الطلع عليه، فعند ذلك، قال الرب: يا جبريل، إلا ترى إلى آدم، بديع فطرتي، كيف عصاني؟، فاضطرب جبريل من خوف ربه، وخمدت حَمَلَة العرش، حتى سكنت حركاتهم، وهم يقولون: سبحانك سبحانك قدوس قدوس الأمان الأمان، فعند ذلك ناداه الرب: يا آدم، فخر مغشياً عليه من خوف ربه فلمَّا أفاق، قال بصوتٍ ضعيف: لبيك لبيك، سيدي ومولاي، فقال الله تعالى: { أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } سورة الأعراف: 22. قال: يا ربِّ، ما علمت أن أحداً يحلف بك كاذباً[4]، فبادرت إلى أكل الشجرة، ثمَّ زينت لآدم، حتى أكلها.

---

(1) ساغ: ابتلع واستطاب.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 116. وهي في تاريخ الخميس 1: 50. والرواية عن وهب. وأوراق التين في مدراش برشيت رابا. 19:4 عن قصص اليهود: 101، 344، والأساطير للشوك: 65.

(3) كذا، وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 31 شجرة التين، وهو ما مذكور في الأساطير اليهودية.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 117. وبأسلوب سردي آخر في تاريخ الخميس 1: 51. وفي تفسير عبد الرزاق 2: 76، وعنه وعن السدي في جامع البيان 1: 526. وهي في العهد القديم، سفر التكوين 3: 8 – 14.

الطرد من الجنَّة

فأتى النداء إلى جبريل من ربه، فقبض على ناصية آدم، وخلصه من تلك الشجرة، فقال: أيها الملك، ارفق بي، فقد كنت ترفق بي قبل ذلك. فقال جبريل: يا آدم، إني لا أرفق بمن عصا ربه، أين أنت، يا آدم، من غضب الزبانية[1]، إذا قال لهم: { خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ } سورة الحاقة: 30 - 31. وأين أنت، يا آدم، من غضب مالكٍ خازن النار، فإنه لو أبدى وجهه للسماوات والأرض، لذابت، كما يذوب الرصاص، وإنه، إذا صاح بأهل النار، اضطربت أطباق جهنم، والتهبت وتسعرت. ثمَّ جعل جبريل يعدد عليه ما كان الله قد أنعم عليه، وعاتبه على ذلك بما عصا، فاضطرب آدم وارتعد خوفاً، حتى ذهب كلامه، وجعل يشير إلى جبريل، ويقول: ذرني يا جبريل، حتى أهرب من الجنَّة حياءً من ربي[2]، فقال جبريل: وإلى أين تهرب؟ يا آدم؟، فقال: يا جبريل، أمهلني، حتى أنظر إلى الجنَّة نظرة الوداع.

فجعل آدم ينظر إلى اليمين وإلى الشمال، وجبريل لا يفارقه، حتى إذا صار قريباً من باب الجنَّة، أخرج رجله اليمنى، وبقيت اليسرى، فنودي: يا جبريل، قف به على باب الجنَّة، حتى يخرج معه أعوانه الذين أغروه على ما نهاه الله تعالى عنه، لكي يراهم، ويروه، فأوقفه جبريل هناك، فناداه الرب: يا آدم، إنما خلقتك؛ لتكون عبداً شكوراً، لا عبداً كفوراً. فقال آدم: يا رب، إني أسألك أن تعيدني إلى تربتي التي خلقتني منها، فأكون تراباً، كما كنت أول مرة. فقال: يا آدم،

(1) الزبانية خزنة جهنم، من الملائكة، وهم ضخام جداً، بحيث تكون أرجلهم في الأرضين السفلى، ورؤوسهم في السماء، يسحبون الكافرين من جباههم وأقدامهم، ويقذفونهم في جهنم، تفسير مقاتل 3: 502، جامع البيان 23: 52.

(2) في جامع البيان 1: 529، وتاريخ الرسل والملوك 1: 73 «فناداه ربه: يا آدم، أمني تفر؟. قال: لا، يا رب، ولكن حياءً منك»، وفي سفر التكوين 3: 9. وفي مدارش بريشت رابا. 20: 4 - 5 عن قصص اليهود: 101، 344. وهنا يناديه جبريل.

كيف أعيدك إلى تربتك، وقد سبق علمي لأملأن من ظهرك الجنَّة والنار، فسكت آدم(1).

ثم نوديت حواء: يا حواء، فقالت: لبيك، سيدي ومولاي، قد ذهبت زينتي، وحلت بي شقوتي، وبقيت عريانة، لا يسترني شيء من جنتك، فنوديت: ومن الذي صرف عنك الخيرات التي كنت فيها؟ قالت: سيدي ومولاي، خطيئتي فعلت بي كذا بما أغواني عدوي إبليس، وخدعني بغروره، ومكره، وكثرة وسوسته، وأقسم علي بعزتك، أنه لمن الناصحين، وما ظننت أن أحداً، يحلف بك كاذباً(2).

عقوبة حواء

ثم قال [الله تعالى]: يا حواء، أنت التي غررت عبدي، فإنك لا تحملين حملا إلا حملته كرها، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً(3).

[فقيل لها: الآن اخرجي من الجنَّة مغرورةً أبداً، وقد جعلتك ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث، معوجة الخلق، شاخصة البصر، وجعلتك أسيرةً أيام حياتك كلها، وحرمتك أفضل الأشياء: الجمعة والجماعة والسلام والتحية، وقضيت عليك بالطمث، وهو الحيض، وجهد

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 118. والتماسات آدم في الحياة اليونانية لآدم وحواء: 638. «قال الرب لآدم: لن أتركك بعد الآن في الجنَّة، فأجاب آدم: يا رب، أعطني من نبتة الحياة، لكي آكل منها قبل أن أطرد. قال: لن تاخذ منها الآن ... فإذا حفظت نفسك بعد خروجك من الجنَّة، وعندما يحين وقت البعث، فإنني سأبعثك، وستعطى من شجرة الحياة، وستصبح خالداً إلى الأبد».
وتأتي عقوبات آدم عند الثعلبي فقط، تابعة من بعيد، لرواية عن وهب، هي «فاغترا بذلك، وما كانا يظنان أن أحداً، يحلف بالله كاذباً، فبادرت إلى أكل الشجرة، ثمَّ زينت لآدم حتى أكلها». قصص الأنبياء للثعلبي: 31. ثم يستطرد الثعلبي بذكر مجموعة من الأقوال، ثمَّ يعود، بقوله «فلما أكل من الشجرة المنهي عنها، ابتلاه الله بعشرة أشياء». في الصفحة نفسها، ولكن سرد العقوبات وتجميعها، بحيث تصل إلى عشر عقوبات، جعلني أرجح أنها من عمل الثعلبي، حيث يظهر فيها التطبيع الإسلامي واضحاً، ربما أفاد من رواية لوهب، لأنه ذكر عقوبة حواء، لكن الشك باقٍ في رواية الثعلبي هذه، والعقوبات العشر هي: الأولى معاتبته إياهما على ذلك بقوله: { ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين } سورة الأعراف: 22. والثانية الفضيحة، فإنه لما أصابا الذنب، بدت لهما سوآتهما، وتهافت عنهما ما كان عليهما من لباس الجنَّة، فتحير آدم، وصار هارباً في الجنَّة، فتلقته شجرة العناب، فأخذت بناصيته، وناداه ربه: أفراراً مني، يا آدم؟. قال: بلى، يا رب، ولكن حياءً منك. والثالثة أوهن جلده، وصيره مظلماً، بعد أن كان جلده كله كالظفر، وأبقى عليه من ذلك قدراً يسيراً على أنامله؛ ليتذكر بذلك أول حاله. والرابعة أخرجه من جواره. والخامسة الفرقة، فرق بينه وبين حواء مائة سنة، هذا بالهند، وهذه بجدة. السادسة العداوة، ألقى بينهم العداوة والبغضاء، فالإنسان عدو الحية، يشدخ رأسها حيث يراها، والطاووس عدوه، والحية عدوته، تلدغه إذا أمكنها، وإبليس عدو لهم جميعاً. والسابعة النداء عليهم باسم العصيان. والثامنة تسليط العدو على أولاده. والتاسعة جعل الدنيا سجناً له ولأولاده، وابتلاه بهواء الدنيا، ومقاساة البرد والحر فيها، ولم يكن له بهما عهد، لتعود هواء الجنَّة. العاشرة التعب والشقاء. قصص الأنبياء للثعلبي: 31 – 32.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 119.

(3) تاريخ الرسل والملوك 1: 108. وهناك عقوبات لحواء في الحياة اليونانية لآدم وحواء: 637. هي كما قال الرب، ستكونين في الآلام والعذابات التي لا تحتمل، وستلدين أولادك بالمشقات، وتنقادين إلى رجلك، وهو يسودك. وعشر لعنات. في مدراش بريشيت رابا 20: 6. قصص اليهود: 103، 344.

الحبل والولادة والطلق، فلا تلدين، إلا بعد أن تذوقي طعم الموت. فلذلك النساء، هن أكثر حزناً وجزعاً، وأكثر دمعاً، وأقل صبراً، دائمات الأحزان، ولم يجعل منهم نبياً، ولا حاكماً][1].

فقالت حواء: إلهي وسيدي، وكيف أخرج من الجنَّة وقد حرمتني من جميع الخيرات. فنوديت: اخرجي منها، فإني أعطف قلوب عبادي عليك.

فنوديت حواء: أن اخرجي، فإني مخرج من ذريتكما من أملأ منه الجنَّة والنار، فإني أملأ الجنَّة من نبي وصديقٍ وشهيدٍ ومستغفرٍ، ومن يصلِّي عليكما، ويستغفر لكما.

فلمَّا أمرت حواء بالخروج، وثبت إلى ورقةٍ من أوراق الجنَّة، لتستر بها نفسها، فلمَّا أخذتها، سقطت، ونطقت الورقة، وقالت: يا حواء، إنك لفي غرور، وما يسترك شيء من الجنَّة، بعد أن عصيت ربك. فعندها بكت حواء بكاءً شديداً، فأمر الله الورقة أن تجيبها، فأخذتها حواء، فسترت بها نفسها، ثمَّ قبض جبريل على ناصيتها، ومر بها إلى باب الجنَّة، فلمَّا رأت آدم، صاحت صيحةً عظيمة، وقالت: يا لها من حسرةٍ يا جبريل !، ردني أنظر إلى الجنَّة، فأذن لها بذلك، فجعلت حواء تلتفت إلى الجنَّة بحسرةٍ، ثمَّ أخرجت من الجنَّة، وأوقفت خارجها، والملائكة معها[2].

عقوبة الطاووس

ثم أوتي بالطاووس، وقد طعنته الملائكة، وقطعت ريشه، وجبريل يجره من الجنَّة، ويقول: اخرج من الجنَّة خروج الأبد، فإنك مشؤوم أبداً، فسلب تاجه، وأخذ ريشه، وقيل له: مسكنك أطراف الأنهار، ورزقك مما تنبت الأرض من حبها[3].

عقوبة الحيَّة

وقال الرَّبُّ للحية: «أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غرَّ عبدي، ملعونة أنت لعنةً، تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم، وهم أعداؤك، حيث لقيت أحدًا منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك، شدخ رأسك»[4]، [«وأتي بالحيَّة، وقد جذبتها الملائكة جذباً شديداً، فإذا هي ممسوخة مبطوحة على بطنها، لا قوائم لها فصارت ممدودة في مشيها، ومنعت النطق، فصارت خرساء مشقوقة اللسان، فقالت لها الملائكة: لا رحمك الله،

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 119. وقد ازدادت العقوبات، عندما دخلت القصة في الثقافة الإسلامية، ففي وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 32. عوقبت بعقوبات آدم العشر، مع خمس عشرة عقوبة أخرى. وكذا في تاريخ الخميس 1: 52. وفي عيون الأخبار 4: 111.

(2). قصص الأنبياء للكسائي: 120.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 120، 128. وتاريخ الخميس 1: 51.

(4) تفسير عبد الرزاق 2: 377، جامع البيان 1: 526، وتاريخ الرسل والملوك 1: 72.

ولا رحم من رحمك، وهم يرجونها من كلِّ جانب][1].

خروج آدم وحواء

ثمَّ أخرج آدم من الجنَّة، وأبرزه جبريل إلى السماوات، وحجبت عنه حواء، فلم يرها، ونظرت الملائكة إلى آدم عرياناً، ففزعت منه، وجعلت تقول: إلهنا، هذا آدم، بديع فطرتك، أقله عثرته، ولا تخذله. وآدم قد جعل يده اليمنى على رأسه، والأخرى على سوءته، ودموعه تجري على خديه، وكلما مرَّ به جبريل في ملأٍ من الملائكة، وبخوه على نقضه عهد ربه وميثاقه، وأكثروا عليه في ذلك، فقال لهم: يا ملائكة ربي، ارحموني ولا توبخوني، فالذي جرى كان بقضاء ربي وقدره، وقد قال: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } سورة البقرة: 30. فسكتت الملائكة عن ذلك[2].

فلمَّا كثر اللوم على آدم من الملائكة، أمر الله جبريل أن يصف الملائكة صفوفاً، فأوقفهم، وناداه الرب، فقال: لبيك لبيك، سيدي ومولاي، تراني، ولا أراك، وأنت علام الغيوب، قال الله: إنه سبق في علمي ألا أتجاوز عن العاصين، إلا أن يتوبوا، فأتفضل عليهم برحمتي، يا آدم، لو خلقت ملء الأرض عبيداً ثمَّ عصوني، لأنزلتهم منزلة العاصين، ألم أخلقك من أديم الأرض، وركبتك تركيباً، لا يماثلك أحد من خلقي، ألم أنفخ فيك من روحي، وأسجدت لك ملائكتي، وزوجتك حواء أمتي، وعلمتك الأسماء كلها، والمواقف كلها، وجعلتك خطيباً في ملائكتي، وحملتك على أكتافهم، يا آدم، نسيت عهدي الذي عاهدتني، وأطعت عدوي.

فقال: يا رب، قد فعلت هذا كله، وأنا عاجز عن وصف نعمتك علي، ولكني أتيت المعصية على علمٍ سابقٍ عندك أن أفعله، وأنا عبدك الضعيف، ناصيتي بيدك، تقلبها كيف شئت، فارحمني، يا رب، فقال: يا آدم، لهذا خلقتك، وأنت أتيت المعصية بعلمي وقضائي وقدري مشيئتي وإرادتي، فقال آدم: يا رب، بحق من وهبت له الشرف الأكبر ألا أقلت عثرتي، وقبلت توبتي؟.

فأتاه النداء: يا آدم، من هذا الذي سألتني بحقه؟، فقال آدم: يا رب، صفيك ووصيك وحبيبك محمد، وهو هذا النور الذي جعلته بين عيني، وقد رأيت اسمه مكتوباً على سرادق العرش، وفي اللوح المحفوظ، وعلى صفيح السماوات، وعلى أبواب الجنان، وقد علمت يا رب، أنك لم تفعل ذلك، إلا وهو أكرم الخلق عليك.

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 121. وهناك رواية أخرى، جامع البيان 1: 561. ونوادر الأصول 1: 204. وهي في العهد القديم، سفر التكوين 3: 14 – 15. وفي فصول الآباء للحاخام ناثان: 42، 117. قصص اليهود: 103، 344. عشر عقوبات: أغلاق فمها، وسلبها القَدَرة على الكلام، وتقطيع يديها ورجليها، وإطعامها من التراب، وتعرضها للعناء عند تبديل جلدها، والعداء بينها وبين البشر، وتحول الأطعمة والسوائل في فمها إلى تراب، وحملها سبع سنوات، وسعي الأنسان إلى قتلها، واختفاؤها من الأرض المقدسة.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 121.

طلب آدم

فنودي: سل يا آدم، تعط، فقال: يا رب، أخرجتني من الجنَّة، وتريد أن تجمع بيني وبين عدوك إبليس ، فبماذا أمتنع منه، وأتقوى عليه؟، فقال: يا آدم، تقو عليه بتوحيدي، وهو أن تقول أنت، وذريتك من بعدك: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وأكثر من ذلك، فإنها لعدوي وعدوك كالسهام القاتلة. يا آدم، قد جعلت مسكنك المساجد، وطعامك الحلال الذي ذكر اسمي عليه، وشرابك ما أجريته لك في معين أرضي، وليكن شعارك ذكري، ودثارك ما تنسجه بيدك، فقال آدم: يا رب، زدني، فقال: لا يولد لك ولد، إلا وكلت به ملائكة، يحفظونه، فقال: يا رب، زدني، فقال: أغفر لك ولولدك، ولا أبالي[1].

طلب إبليس

فتكلَّم إبليس ، فقال: يا رب، إنك أغويتني وأضللتني وأبلستني، وكان ذلك في سابق علمك، يا رب { قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } سورة الحجر: 36 -38. وهي النفخة الأولى، [لم يعطه الله سؤاله، وأخره، لمَّا سبق في علمه أنه يكون محنةً وابتلاءً لآدم وبنيه][2]، قال إبليس: { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ }، قال الله { اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ } سورة الأعراف: 16 -18.

قال إبليس: يا رب، قد أنظرتني، فأين يكون مسكني؟. قال: إذا هبطت إلى الأرض، فمسكنك المزابل. قال: فما قراءتي؟. قال: الشعر والغناء. قال: فما مؤذني؟. قال: المزمار. قال: فما طعامي؟. قال: ما لم يذكر اسمي عليه. قال: فما شرابي؟. قال: الخمر. قال: فما بيتي؟. قال: الحمامات. قال: فما مجلسي؟. قال: الأسواق. قال: فما شعاري؟. قال: لعنتي. قال: فما دثاري؟. قال: سخطي. قال: فما مصائدي؟. قال: النساء[3]. قال إبليس : فوعزتك، لأخرجن محبة النساء من قلوب بني آدم. فقيل له: يا ملعون، إن الله تعالى لا يخرج التوبة من بني آدم، حتى يفزعوا بالموت، { فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ } سورة الحجر: 34 - 35[4].

وكان وهب يقول: أخلفوا ظن إبليس فيما سأل ربه، فإن شركته في الأموال التي يجمعها

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 125.

(2) الملوك المتوَّجة من حمير: 15.

(3) يوحي تواصل السرد باستمرار مرجعية القول إلى وهب، وقد ابتدأه الثعلبي بـ «روي». قصص الأنبياء: 39. وفي المعجم الكبير للطبراني 11: 103. أنه لابن عبَّاس، عن الرسول، فربما رواه وهب عن ابن عبَّاس.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 126.

من غير حلة، وشركته في أولاد الحرام[1]، فطيّبوا النكاح، وانتهوا عن الزنا، واذكروا الله على كل حال، فإنه، إذا سمع أحداً يسبِّح ، يذوب كما يذوب الرصاص في النار، أو الملح في الماء.

ولهذا أعطى الله هذه الأمة سورتين، من قرأهما قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، أمن من شر إبليس وجنوده، وهما المعوذتان، وله من قراءتها نباح كنباح الكلاب[2].

فلماً فرغ آدم من سؤال ربه مضى، فنظر إلى الحيَّة، فقال: يا رب، هذه اللعينة هي التي أعانت عدوي علي، فبماذا أتقوى عليها؟، فقيل له: يا آدم، إني قد جعلت مسكنها الظلمات، ومطعمها التراب، فإذا رأيتها فاشدخ رأسها[3]، قال وهب: لولا قعود إبليس بين أنيابها ما صار السم في فمها، فاقتلوها حيث وجدتموها.[4].

قال: خلق الله آدم يوم الجمعة، وفيه دخل الجنَّة، وكان فيها نصف يومٍ، مقداره خمسمائة عام، وأهبط بين الظهر والعصر من بابٍ، يقال له: المبرم، وهو حذاء البيت المعمور[5].

آدم وحواء على الأرض

وكان آدم أمرد، وإنما نبتت اللحى لولده من بعده[6]، وكان طوالًا، كثير الشعر، جعداً، أجمل البرية[7]، وكان آدم، إذا استوى على قدميه، كان رأسه في السماء، فيسمع تسبيح الملائكة، فيسبِّح بتسبيحهم[8]، ثمَّ أنبت الله تعالى له الشعر واللحية، وكان قبل ذلك أمرد، كأنه الفضة البيضاء[9].

آدم والحيوانات

وأول من علم بهبوط آدم النسر[10]، فرأى حوت البحر النسر، قال: يا خطيب الطير، أحدث حدث؟. قال: نعم، خلق خلق من أمره كذا، ومن صفته كذا، غير أنه أعطي الرفق.

---

(1) يشير إلى قوله تعالى: { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } سورة الإسراء: 64

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 127.

(3) جامع البيان 1: 526 .

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 128.

(5) قصص اليهود: 105.

(6) البدء والتاريخ 2: 99.

(7) المعارف: 17.

(8) وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 34. عن ابن عبَّاس. وعن وهب في جامع البيان 3: 59. و«لقد صنع الله آدم بحجم هائل، بحيث أنه عندما استلقى، كان طوله من نهاية الأرض إلى نهايتها الأخرى، وعندما نهض، كان رأسه بمستوى العرش المقدس». الأساطير للشوك: 56.

(9) البدء والتاريخ 2: 99، 1: 127، والأساطير للشوك: 56.

(10) قصص الأنبياء للكسائي: 131.

فقال: ويحك، إنه من أعطي الرفق، استتر لك من السماء، واستخرجني من البحر[1].

قال وهب[2]: لَمَّا هبط آدم، نادى ملك: أيتها الأرض، ومن عليها من الخلق، إنه قد هبط إليكم إنسان، نسي عهد ربه، فسماه إنساناً، فسمع النسر بذلك، فانقض إلى الحوت، وأخبره بذلك، ففزع.

ولَمَّا هبط آدم إلى الأرض قال إبليس للسباع: إن هذا عدو لكم، فأهلكوه. فاجتمعوا، وولوا أمرهم إلى الكلب، وقالوا: أنت أشجعنا. وجعلوه رئيسًا، فلمَّا رأى ذلك آدم، تحير في ذلك، فجاءه جبريل، وقال له: امسح يدك على رأس الكلب. ففعل، فلمَّا رأت السباع أن الكلب ألف آدم، تفرقوا، واستأمنه الكلب، فأمنه آدم، فبقي معه ومع أولاده[3].

أصل الطيب

لَمَّا غوى آدم، وأمره الله بالخروج من الجنَّة، أخذ جوهرة من الجنَّة، يمسح دموعه بتلك الجوهرة، حتى اسودت من دموع الخطيئة[4]. وقال: كان على رأسه إكليل من ريحان الجنَّة، يظلله من الشمس، وعلى عورته ورقة التين، كان خصف عليه من ورق الجنَّة، فانتفع بها، ثمَّ هبط الى الارض حين هبط، وهي عليه، فلمَّا أصابها ضحى الارض وريحها، يبست تلك الورقة، فتحاتت عليه، فذرتها الريح فى بلاد الهند، فمن هنالك عبقت الهند، وفشا فيها أصل الطيب[5].

بكاء آدم

وبقي آدم في بكائه [ثلاثمائة سنة، لا يرقأ له دمع][6]، حتى شربت الطيور من دموعه، ونبتت الأشجار منها، وقد رسخ في الأرض، كما ترسخ عروق الأشجار، وبكت معه السباع، فلمَّا فرغت، ولت عنه هاربةً، وقالت: كنا سكان هذه الأرض قبلك، يا آدم، وقد أفزعتنا، وأبكيتنا ببكائك، وأورثتنا حزناً طويلًا، فمن يومئذٍ صارت لا تأنس بني آدم، وتفرقت عنه الطيور، إلا النسر، فإنه كان يساعده على بكائه، ونظر آدم إلى لحيته، فقال: يا رب، ما هذا الذي لم أعهدها في

---

(1) جميع أجناس الطير، وجميع دواب الأرض، كانت منتشرة في الأرض والهواء والبحار، قبل آدم. قال وهب. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 180.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 132.

(3) الجامع لأحكام القرآن 1: 328.

(4) الملوك المتوَّجة من حِمير: 17.

(5) تاريخ الخميس 1: 54، 56. وفي قصص اليهود: 105. «إن آدم، لما رأى إصرار الرب على طرده من الجنَّة، بدأ يبكي، ويناشد الملائكة، ليأذنوا بأخذ التوابل الذكية الرائحة من الجنَّة، لكي يستطيع تقديم القرابين للرب، عندما يخرج من الجنَّة، فسمح الرب بذلك، فجمع آدم نباتات الطيب، والحبوب اللازمة لمعيشته، وغادرا الجنَّة بها».

(6) تاريخ الخميس 1: 56.

الجنَّة؟، قال: هذه لحيتك، غير أنها زينتك، ليعرف بها الذكر من الأنثى[1].

ولما أهبط إلى الأرض استوحش؛ لفقد أصوات الملائكة، فهبط عليه جبريل فقال: يا آدم، ألا أعلمك شيئًا تنتفع به في الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال: قل: اللهم تمم لي النعمة حتى تهنئني المعيشة، اللهم اختم لي بخيرٍ حتى لا تضرني ذنوبي، اللهم اكفني مئونة الدنيا وكل هولٍ في القيامة حتى تدخلني الجنَّة في عافيةٍ[2].

قال: لقد بكى آدم، حتى أبكى الكروبيين والروحانيين، فقالوا: إلهنا، أقل عثرته، فإنه قد حرق قلبه من الذنوب[3].

وقال: لَمَّا أهبط الله آدم من الجنَّة، واستقر جالساً على الأرض، عطس عطسةً، فسال أنفه دماً، فلمَّا رأى سيلان الدم من أنفه، ولم يكن رأى قبل ذلك دماً، هاله ما رأى، ولم تشرب الأرض الدم، فاسود على وجهها كالحمم، ففزع آدم من ذلك فزعاً شديداً، فذكر الجنَّة، وما كان من الراحة، فخر مغشياً عليه، وبكى أربعين عاماً، فبعث الله إليه ملكاً، فمسح ظهره وبطنه، وجعل يده على فؤاده، فذهب عنه الحزن، واستراح مما كان يصيبه من الغم[4].

توبة آدم

قال: لَمَّا أهبط الله آدم من الجنَّة إلى الأرض، مكث لا ترقأ له دمعة، فاطلع الله عليه في اليوم السابع، وهو محزين كئيب كظيم، منكس رأسه، فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم، ما هذا الجهد الذي أرى بك؟. قال: يا رب، عظمت مصيبتي، وأحاطت بي خطيئتي، وأخرجت من ملكوت ربي، فصرت في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة، وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكى على خطيئتي؟!.

فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم، ألم أصطفك لنفسي، وأحللتك داري، وخصصتك بكرامتي، وحذرتك سخطي؟!، ألم أخلقك بيدي، ونفخت فيك من روحي، وأسجدت لك ملائكتي، فعصيت أمري، ونسيت عهدي، وتعرضت لسخطي، فو عزتي وجلالي، لو ملأت الأرض رجالاً، كلهم مثلك، يعبدونني ويسبِّحونني، ثمَّ عصوني، لأنزلتهم منازل العاصين. فبكى آدم عند ذلك ثلاثمائة عام على جبل الهند، تجري دموعه في أودية جبالها. قال: فنبتت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا.

ثمَّ خرج يؤم البيت العتيق، فجعل يخطو الخطوة، فيكون موضع قدميه مساكن وعمرانٍ،

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 132.

(2) حِلية الأولياء 4: 28.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 132.

(4) قصص الأنبياء للثعلبي: 34.

وبينهما مفاوز وبراري، حتى أتى البيت، فطاف أسبوعًا، فبكى حتى خاض في دموعه إلى ركبتيه، ثمَّ صلى، فبكى ساجدًا حتى فاضت دموعه وجرت على الأرض. فنودي عند ذلك: يا آدم، قد رحمت ضعفك، وقبلت توبتك، وغفرت ذنبك. فقال: لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا، وظلمت نفسي، فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم، واغفر لي، فأنت خير الغافرين، وارحمني فأنت خير الراحمين. قال: فمكث بعد ذلك لا يبدي عن واضحه، حتى أتاه الملك فقال: حياك الله يا آدم وبياك. قال: فضحك[1].

وأوحى الله إلى آدم: يا آدم، ما هذه الكآبة التي بوجهك والبلية التي قد أحاطت بك؟. قال: خروجي من دار البقاء إلى دار الفناء، من دار النعم إلى دار الشقاء. قال: ثمَّ إن آدم سجد سجدة، على جبل الهند، مائة عام يبكي، حتى جرت دموعه في وادي سرنديب، فأنبت الله لذلك الوادي من دموع آدم الدار صيني، والقرنفل، وجعل طير ذلك الوادي الطواويس، ثمَّ إن جبريل أتاه فقال: يا آدم، ارفع رأسك، فقد غفر لك. فرفع رأسه، ثمَّ أتى البيت، فطاف أسبوعاً، فما أتمه حتى خاض في دموعه إلى ركبتيه، ثمَّ أتى موضع المقام، وصلى فيه ركعتين، وبكى حتى جرت دموعه على الأرض[2].

وقال: لم يرفع رأسه، حتى قال له الملك: أول أمرك ذنب ، وآخره معصية؟. قال: فرفع رأسه، فمكث حياته لا يشرب شرابًا إلا مزجه بدموعه، ولا يأكل طعامًا إلا بله بدموعه، ولا يضطجع على فراشٍ إلا أغرقه بدموعه، فانهرم، فكان لا يدفئه لحاف[3].

بيت الله

قال: إن آدم لَمَّا هبط إلى الأرض، استوحش فيها، لَمَّا رأى من سعتها، ولم ير فيها أحدًا غيره، فقال: يا رب، أما لأرضك هذه عامر يسبِّح لـ ك فيها، ويقدس لك غيري؟. قال: إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبِّح بحمدي، ويقدس لي، وسأجعل فيها بيوتًا، ترفع لذكري، ويسبِّح لي فيها خلقي، وسأبوئك فيها بيتًا أختاره لنفسي، وأختصه بكرامتي، وأوثره على بيوت الأرض كلها باسمي، فأسميه بيتي، وأنطقه بعظمتي، وأجوزه بحرماتي، وأجعله أحقَّ بيوت الأرض كلها وأولاها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسي، فإني اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض، وقبل ذلك قد كان بغيتي، فهو صفوتي من البيوت.

ولست أسكنه، وليس ينبغي لي أن أسكن البيوت، ولا ينبغي لها أن تسعني، ولكن على كرسي الكبرياء، والجبروت، وهو الذي استقل بعزتي، وعليه وضعت عظمتي وجلالي، وهنالك استقر قراري، ثمَّ هو بعد ضعيف عني، لولا قوتي، ثمَّ أنا بعد ذلك ملء كل شيءٍ، وفوق كل

(1) الرقة والبكاء: 221. والجامع لأحكام القرآن 1: 324.

(2) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 213.

(3) الرقة والبكاء: 240.

شيء، ومع كل شيء، ومحيط بكلِّ شيء، وأمام كل شيء، وخلف كل شيء، ليس ينبغي لشيء أن يعلم علمي، ولا يقدر قدرتي، ولا يبلغ كنه شأني.

أجعل ذلك البيت لك، ولمن بعدك حرمًا وأمنًا، أحرم بحرماته ما فوقه، وما تحته، وما حوله، فمن حرمه بحرمتي فقد عظم حرماتي، ومن أحله فقد أباح حرماتي، ومن أمن أهله فقد استوجب بذلك أماني، ومن أخافهم فقد أخفرني في ذمتي، ومن عظم شأنه عظم في عيني، ومن تهاون به صغر في عيني، ولكلِّ ملكٍ حيازة ما حواليه، وبطن مكة خيرتي، وحيازتي، وجيران بيتي، وعمارها، وزوارها وفدي، وأضيافي في كنفي وأفنيتي ضامنون علي في ذمتي وجواري.

فأجعله أول بيتٍ وضع للناس، وأعمره بأهل السماء، وأهل الأرض يأتونه أفواجًا شعثًا غبرًا، { وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } سورة الحج: 27. يرجون بالتلبية رجيجاً، ويثجون بالبكاء ثجيجاً، ويعجون بالتكبير عجيجاً، فمن اعتمره، لا يريد غيري، فقد زارني، ووفد إلي، ونزل بي، ومن نزل بي فحقيق علي أن أتحفه بكرامتي، وحق الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، وأن يسعف كل واحدٍ منهم بحاجته.

تعمِّره يا آدم، ما كنت حياً، ثمَّ تعمِّره من بعدك الأمم والقرون والأنبياء أمة بعد أمةٍ، وقرن بعد قرنٍ[1]، ونبي بعد نبي، حتى ينتهي ذلك إلى نبي من ولدك، وهو خاتم النبيين، فأجعله من عماره، وسكانه، وحماته، وولاته، وسقاته، يكون أميني عليه ما كان حياً، فإذا انقلب إلي، وجدني قد ذخرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به للقربة مني، والوسيلة إلي، وأفضل المنازل في دار المقام.

وأجعلُ اسم ذلك البيت، وذكره، وشرفه، ومجده، وثناءه، ومكرمته لنبي من ولدك يكون قبل هذا النبي، وهو أبوه، يقال له: إبراهيم. أرفع له قواعده، وأقضي على يديه عمارته، وأنيط له سقايته، وأريه حله، وحرمه، ومواقفه، وأعلمه مشاعره ومناسكه، وأجعله أمةً واحدةً، قانتًا لي، قائمًا بأمري داعيًا إلى سبيلي، أجتبيه، وأهديه إلى صراطٍ مستقيم، أبتليه فيصبر، وأعافيه فيشكر، وينذر لي فيفي، ويعدني فينجز، وأستجيب له في ولده وذريته من بعده، وأشفعه فيهم، فأجعلهم أهل ذلك البيت، وولاته، وحماته، وخدامه، وسدانه وخزانه، وحجاجه، حتى يبتدعوا ويغيروا، فإذا فعلوا ذلك، فأنا الله أقدر القادرين على أن استبدل من أشاء بمن أشاء.

وأجعل إبراهيم إمام أهل ذلك البيت، وأهل تلك الشريعة، يأتم به من حضر تلك المواطن، من جميع الإنس والجن، يطئون فيها آثاره، ويتبعون فيها سنته، ويقتدون فيها بهديه، فمن فعل ذلك منهم، أوفى نذره، واستكمل نسكه، ومن لم يفعل ذلك منهم، ضيع نسكه، وأخطأ بغيته، فمن سأل عني يومئذٍ في تلك المواطن، أين أنا؟، فأنا مع الشعث الغبر الموفين بنذورهم

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 131. وقصص الأنبياء للثعلبي: 38.

المستكملين مناسكهم المبتهلين إلى ربهم الذي يعلم ما يبدون، وما يكتمون[1].

وليس هذا الخلق، ولا هذا الأمر الذي قصصت عليك شأنه يا آدم، بزائدٍ في ملكي، ولا عظمتي، ولا سلطاني، ولا شيءٍ مما عندي إلا كما زادت قطرة من رشاشٍ وقعت في سبعة أبحرٍ، تمدها من بعدها سبعة أبحرٍ، لا تحصى، بل القطرة أزيد في البحر من هذا الأمر، في شيءٍ مما عندي، ولو لم أخلقه، لم ينقص شيئًا من ملكي ولا عظمتي، ولا مما عندي من الغناء والسعة[2]، إلا كما نقصت الأرض ذرةً، وقعت من جميع ترابها، وجبالها وحصاها، ورمالها، وأشجارها، بل الذرة أنقص في الأرض من هذا الأمر[3].

خيمة من الجنَّة

وقال: إن آدم اشتدَّ بكاؤه وحزنه، لمَّا كان من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه، ولتبكي لبكائه.

فعزاه الله بخيمةٍ من خيام الجنَّة، وضعها له بمكة في موضع الكعبة، قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنَّة[4]، لها بابان: أحدهما شرقي، والآخر غربي[5]، وفيها ثلاثة قناديل من ذهبٍ، من تبر الجنَّة، فيها نور يلتهب من نور الجنَّة، فلمَّا صار آدم إلى مكة، حرس له تلك الخيمة بالملائكة، فكانوا يحرسونه، ويذودون عنها سكان الأرض، وسكانها يومئذٍ الجن، والشياطين، ولا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيءٍ من الجنَّة؛ لأنه من نظر إلى شيءٍ منها، وجبت له، والأرض يومئذٍ نقية طاهرة طيبة، لم تنجس، ولم تسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا، فلذلك جعلها الله يومئذٍ مستقر الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء، يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، قال: فلم تزل تلك الخيمة مكانها، حتى قبض الله آدم، ثمَّ رفعها إليه[6].

البلد الحرام

وإن آدم قال يا حبيبي، يا جبريل، لا أعرف البلد الحرام. فأوحى الله إلى جبريل أني دليل الأدلاء، دُلَّه على البلد الحرام. فسار جبريل بآدم حتى أوقفه على الحرم، وعلى المسجد، وأراه مبتدأ البيت، وإن حواء وجدت رائحة الجنَّة من قبل المسجد الحرام عن آدم، فتوجهت قبل آدم، فلمَّا رأى آدم شخصها من بعيد، سعى إليها، فالتقيا بعرفات، فتعارفا، فمن ثمَّ سميت عرفات.

---

(1) شعب الإيمان 5: 447.

(2) العظمة 5: 1588.

(3) أخبار مكة للأزرقي 1: 46.

(4) المعارف: 559.

(5) العظمة 5: 1585.

(6) أخبار مكة للأزرقي 1: 42. ومعجم البلدان 4: 464. والمسالك والممالك للبكري 1: 381.

ثم بنى آدم البيت، تعينه حواء، حتى رفع الحطيم[1]، فأمره جبريل أن يجعل فيه الجوهرة التي خرج بها من الجنَّة، ففعل، وقال: هذا منسك لك، ولولدك من بعدك، فلمَّا تم بناء البيت، أمره جبريل بقطع خشبة من المسجع[2]، بين الطائف ومكة، وقال بعض الناس: بل من المسجد الحرام، فرفع سمك البيت، وأمره بالحج إليه، والصلاة فيه، وأعلمه أنه قبلة له ولبنيه، فأول أثر على وجه الأرض مكة، وقال الله تعالى: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا } سورة آل عمران: 96[3].

وقال وهب: قرأت في كتابٍ من الكتب الأولى، ذكر فيه أمر الكعبة، فوجد فيه أن ليس من ملكٍ من الملائكة، بعثه تعالى إلى الأرض، إلا أمره بزيارة البيت، فينقض من عند العرش محرمًا ملبيًا، حتى يستلم الحجر، ثمَّ يطوف سبعًا بالبيت، ويركع في جوفه ركعتين، ثمَّ يصعد[4].

إلى مكة

ولَّما تاب الله على آدم أمره أن يسافر إلى مكة، فطوى له الأرض والمفاوز، فصار كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض أو بحر، فجعله له خطوة، فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة، وكان قبل ذلك قد اشتدَّ بكاؤه وحزنه لَّما كان به من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتبكي لبكائه، وتحزن لحزنه، فعزاه الله بخيمة من خيام الجنَّة وضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة.

وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنَّة[5]، فيها ثلاثة قناديل من ذهب نور تلتهب من نور الجنَّة، ونزل معها يومئذ الركن، وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنَّة، [وكان كرسيا لآدم يجلس عليه، فالركن حجر من الفردوس، بعثه الله يوم أخذ الميثاق، فوضعه بينه وبين العباد؛ ليبايعوه على ذلك الحجر، فيمسحونه بأيدهم بيعة لله؛ ولذلك أمر باستلامه][6]، فلمَّا صار آدم بمكة حرسه الله، وحرس له تلك الخيمة بالملائكة كانوا يحرسونها، ويذودون عنها سكان الأرض، وسكانها يومئذ الجن والشياطين، فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنَّة، لأنه من نظر إلى شيء من الجنَّة، وجبت له.

والأرض يومئذ طاهرة نقية لم تنجس، ولم يسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا، فلذلك جعلها الله مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء، يسبِّحون الليل والنهار، لا

(1) جدار الكعبة. معجم البلدان 2: 273.
(2) لعله نوع من الخشب.
(3) الملوك المتوَّجة من حِمير: 17.
(4) أخبار مكة للأزرقي 1: 39.
(5) شعب الإيمان 5: 450.
(6) نوادر الأصول 3. 273.

يفترون، وكان وقوفهم على أعلام الحرم صفاً واحداً مستديرين، فالحرم كله من خلفهم، والحرم كله من أمامهم، فلا يجوزهم جني ولا شيطان، ومن أجل مقام الملائكة حرم الحرم حتى اليوم، ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة، وحرم على حواء دخول الحرم، والنظر إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنَّة، فلم تنظر إلى شيء من ذلك، حتى قبضت، وإن آدم، إذا أراد لقاءها ليلمَّ بها للولد، خرج من الحرم كلِّه، حتى يلقاها[1].

وقال: لمَّا تاب الله على آدم، وأمره أن يسير إلى مكة، طوى له الأرض حتى انتهى إلى مكة، فلقيته الملائكة بالأبطح فرحبت به، وقالت له: يا آدم، إنا لننتظرك، بر حجك، أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، وأمر الله جبريل، فعلَّمه المناسك والمشاعر كلها، وانطلق به حتى أوقفه في عرفاتٍ، والمزدلفة، وبمنًى، وعلى الجمار، وأنزل عليه الصلاة والزكاة، والصوم والاغتسال من الجنابة[2].

الركن والمقام

قال: إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنَّة، نزلا من السماء لهما نور، فلمَّا وضعا في الأرض طفئ نورهما، ولولا ما أطفأ الله من نورهما؛ لأضاء ما بين السماء والأرض، آنس الله تعالى بهما آدم، فكانا يتلألآن تلألؤًا من شدَّة بياضهما، وأخذ آدم الركن، فضمه إليه استئناسًا به، ولولا ما طبع الله من أيدي الجاهلية، لأبرأ الأكمه والأبرص، وليس في الأرض شيء من الجنَّة إلا الركن والمقام، فإنهما جوهرتان من جوهر الجنَّة، يأتي كل واحدٍ منهما يوم القيامة، أعظم من أبي قبيس[3]، لهما عينان وشفتان يشهدان لمن وافاهما بالوفاء[4].

وعن وهب بن مُنبِّه أن ابن عبَّاس أخبره أن النبي قال لعائشة، وهي تطوف معه بالكعبة، حين استلم الركن: لولا ما طبع على هذا الحجر يا عائشة، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها، إذًا لاستشفي به من كلِّ عاهةٍ، وإذًا لألفي اليوم كهيئته، يوم أنزله الله، وليعيدنه إلى ما خلقه أول مرةٍ، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنَّة، ولكن الله سبحانه وتعالى غيره بمعصية العاصين، وستر زينته عن الظلمة والأثمة؛ لأنه لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيءٍ، كان بدؤه من الجنَّة[5].

وعن وهب بن مُنبِّه، عن ابن عبَّاس، قال: إن حرمة البيت لإلى العرش في السماوات، وإلى الأرض السفلى[6].

(1) تفسير ابن المنذر 1: 297.

(2) شعب الإيمان 5: 451.

(3) جبل مشرف على مكة. معجم البلدان 1: 80.

(4) أخبار مكة للفاكهي 1: 444. وللقصة رواية أخرى عن النبي في المعجم الكبير للطبراني 11: 55.

(5) أخبار مكة للأزرقي 1: 323.

(6) أخبار مكة للفاكهي 2: 255.

وقال: وجدت مكتوبًا في التوراة أنه من شهد الصلوات الخمس في المسجد الحرام، كتب الله له بها اثني عشر ألف ألفٍ وخمسمائة ألف صلاةٍ[1].

وقال: مكتوب في التوراة: أن الله يبعث يوم القيامة، سبعمائة ألف ملك من الملائكة المقربين، بيد كل واحد منهم سلسلة من ذهب، إلى البيت الحرام، فيقول لهم: اذهبوا إلى البيت الحرام، فزموه بهذه السلاسل، ثمَّ قودوه إلى المحشر. فيأتونه فيزمونه بسبعمائة ألف سلسلة من ذهب، ثمَّ يمدونه، وملك ينادي: يا كعبة الله، سيري. فتقول: لست بسائرة حتى أعطي سؤلي. فينادي ملك من جو السماء: سلي تعطي. فتقول الكعبة: يا رب، شفعني في جيرتي الذين دفنوا حولي من المؤمنين. فيقول الله: قد أعطيتك سؤلك.

قال: فيحشر موتى مكة من قبورهم، بيض الوجوه، كلهم محرمين، فيجتمعون حول الكعبة، يلبون، ثمَّ يقول الملائكة: سيري يا كعبة الله، فتقول: لست بسائرة حتى أعطي سؤلي، فينادي ملك من جو السماء: سلي تعطي، فتقول الكعبة: يا رب، عبادك المؤمنين الذين وفدوا إلي من كلِّ فج عميقٍ شعثاً غبراً، تركوا الأهلين والأولاد والأحباب، وخرجوا شوقاً إلي زائرين مسلمين طائعين، حتى قضوا مناسكهم كما أمرتهم، فأسألك أن تؤمنهم من الفزع الأكبر، وتشفعني فيهم، وتجمعهم حولي.

فينادي الملك: إن منهم من ارتكب الذنوب بعدك، وأصر على الذنوب الكبائر حتى وجبت له النار، فتقول الكعبة: إنما أسألك الشفاعة لأهل الذنوب العظام. فيقول الله: قد شفعتك فيهم وأعطيتك سؤلك. فينادي منادي من جو السماء: ألا من زار الكعبة، فليعتزل من بين الناس. فيعتزلون، فيجمعهم الله حول البيت الحرام، بيض الوجوه آمنين من النار يطوفون ويلبون، ثمَّ ينادى ملك من جو السماء: ألا يا كعبة الله، سيري. فتقول الكعبة: لبيك لبيك، والخير بيديك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، ثمَّ يمدونها إلى المحشر[2].

البيت المعمور

وعن وهب أنه وجد في التوراة بيتًا في السماء، بحيال الكعبة فوق قبتها، اسمه الضراح، وهو البيت المعمور، يرده كل يومٍ سبعون ألف ملكٍ، لا يعودون إليه أبدًا.

وعنه، يرفع الحديث إلى النبي قال: سمي البيت المعمور؛ لأنه يصلِّي فيه كلَّ يوم سبعون ألف ملكٍ، ثمَّ ينزلون إذا أمسوا، فيطوفون بالكعبة، ثمَّ يسلمون على النبي ، ثمَّ ينصرفون، فلا تنالهم النوبة، حتى تقوم الساعة[3].

(1) أخبار مكة للفاكهي 2: 88.

(2) الكشف والبيان 3: 151.

(3) أخبار مكة للأزرقي 1: 49.

بناء بيت المقدس

ثم أمر الله تعالى آدم بالسير إلى البلد المقدس، فأراه جبريل كيف يبني بيت المقدس، فبنى بيت المقدس، ونسك فيه، وقبلته منه المسجد الحرام[1]، ويحج إليه وقت الحج، ويحج معه ولده فكان آدم وولده يبنون البيت، ويقربون القربان في جبل الطور، فمن قبل سعيه، نزلت النار من السماء على قربانه، فأكلته، فمن أكل قربانه، علم أنه قبل سعيه، ومن لم تأكل النار قربانه، علم أنه لم يتقبل سعيه، فتفكر في ذنبه، وسأل آدم أن يستغفر الله له من ذنبه[2]، ثمَّ يقرب قرباناً آخر، حتى إذا أكلت النار قربانه، علم أن سعيه مقبول، وقد تاب الله عليه[3].

الحج

ولما أتى وقت الحج، نزل جبريل على آدم، فقال: السلام يقرئك السلام، يا أبا محمد، ويقول لك: أنا الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، حكمت عليك بالموت، وعلى زوجك وعلى ولدك، إلى يوم الدين، ولا يبقى معي نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا جن ولا شيطان، كل يذوق الموت. فأتى آدم حواء، وهو باك، فقالت له: مالك؟. قال لها: حكم ربي علي بالموت، وعليك وعلى جميع الخلق، من الجن والأنس والملائكة. فبكت حواء لفراق الدنيا، فقال لها آدم: الدار الآخرة خير للمتقين. ثمَّ سار آدم إلى الحج[4]. فتلقته الملائكة بالأبطح[5]، فرحبت به، وقالت: يا آدم، إنا لننتظرك، ولقد حججنا هذا البيت قبلك، بألفي عام، ثمَّ قدم به الملك مكة، فطاف بالبيت أسبوعاً، ثمَّ رجع الى أرض الهند[6].

الميثاق

ثم أوحى الله إلى آدم: أني أريد أن آخذ على وديعتي التي في ظهرك، الميثاق، وقد أحاطت الملائكة بآدم في أحسن صورهم، فوقعت الرعدة على آدم من الخوف، فضمه جبريل، وجعل الوادي يرتج ويضطرب، فقال جبريل: اسكن، أيها الوادي، فإنك أول شاهدٍ على الميثاق الذي يأخذه الله على ذرية آدم. فسكن الوادي.

ومسح الله تعالى على ظهر آدم كما شاء، ثمَّ قال: انظر، يا آدم، إلى من يخرج من ظهرك؟. فأول من بادر، وكان أسرع خروجاً، نبينا محمد ﷺ فأجاب بالتلبية، وبادر إلى ذات اليمين، وهو

---

(1) عبارة مضطربة في الاصل.

(2) عبارة مضطربة في الأصل، ولعلها: وسأل آدم أن يغفر الله ذنبه.

(3) الملوك المتوَّجة من حمير: 22.

(4) الملوك المتوَّجة من حمير: 22.

(5) الأبطح كل مسيل ماء، فيه دقاق الحصى، وعندما يضاف إلى مكة، وإلى منى، فلأن المسافة بينه وبينهما واحدة، وربما كان إلى منى أقرب. معجم البلدان 1: 74.

(6) تاريخ الخميس 1: 90.

يقول: أنا أول من شهد لك بالتوحيد، وأقر لك بالعبودية، وأشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، وأشهد أني عبدك ورسولك. ثمَّ أجابت الطبقة الثانية من النبيين والمرسلين، نبياً بعد نبي، في نورهم وبهائهم، حتى وقفوا دون نبينا محمد ﷺ، ثمَّ خرجت زمرة المؤمنين، بيض الوجوه، معلنين التوحيد والإيمان، حتى وقفوا دون النبيين.

ومسح الله مسحةً أخرى، فخرج مبادراً قابيل بن آدم، وقد تبعه أهل الشمال، حتى وقفوا ذات الشمال، كلهم سود الوجوه، ثمَّ قيل لآدم: انظر إلى أولادك هؤلاء، لتعرفهم بسيمائهم، فنظر إلى أهل اليمين، فضحك منهم، وبارك عليهم، ثمَّ نظر إلى أهل الشمال، فلعنهم، وصرف وجهه عنهم، ثمَّ استنطقهم الله فقال: { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } سورة الأعراف: 172. وأقررنا[1].

***

فإذا كان يوم القيامة، وحشر الخلائق لفصل القضاء، قيل لآدم: قم وابعث بعثاً إلى الجنَّة، وابعث بعثاً إلى النار. فيعرفهم آدم بسيماهم، كما رآهم في الذَّرِّ، فيقول: بلى، يا رب. فيصيح صيحةً، لا يبقى أحد في الموقف إلا سمعها، فيقبل عليهم ويقول لهم: أنسيتم عهد ربكم وشهادتكم له بأنه الواحد القهار، فيقولون: { إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }، أو يقولون: { إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ } سورة الأعراف: 172، يعنون به قابيل؛ لأنه أول من عصى ربه، وقتل أخاه هابيل، ثمَّ يصيحون صيحةً، ويقولون { رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ } سورة فصلت: 29. يعنون إبليس اللعين، وقابيل بن آدم، فعند ذلك يقبض آدم بشماله تسعمائةً وتسعةً وتسعين إلى النار، وواحداً بيمينه إلى الجنَّة، ثمَّ يقول آدم: يا ربِّ، هل وفيت ما أمرت به؟. فيقال له: نعم، فادخل الجنَّة برحمتي.

قيل لوهب بن مُنبِّه: ما بال أطفال المشركين يعذبون بالنار، وقد أقروا بالإيمان، ولم يكفروا بعد؟، قال: لأن إقرارهم كان بالتثاقل، فكانوا من أصحاب الشمال، ولا يقبل الله الإيمان إلا طوعاً، وذلك قوله تعالى: { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } سورة الرعد: 15. ألا تسمع قوله تعالى: { فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } سورة الواقعة: 8 – 9، فأهل اليمين هم السابقون بالإقرار، وأهل الشمال هم المتثاقلون في الإقرار، فذلك قوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } سورة الصافات: 171[2].

***

ثم قال الله: يا آدم، اليوم حرمت مكة وما حولها، فهي حرام إلى يوم القيامة. فقال آدم: يا

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 139.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 140.

رب، أنت وعدتني أن تجمع بيني، وبين زوجتي حواء في هذا المقام، فأين هي؟. فنودي: يا آدم، هي أمامك على المروة ، وأنت على الصفا، ولكن انظر إليها، ولا تمسها، حتى تقضي المناسك. فهبط آدم إلى حواء، فتلقاها، وفرح كل واحدٍ منهما بصاحبه، وكان قد نظر كل واحدٍ منهما إلى صاحبه في بطن الوادي، لأن حواء سعت من المروة، وآدم سعى من الصفا، وكانا يجتمعان بالنهار، ويتحدَّثان بحديث الجنَّة، ويذكران القضاء السابق فيها، فإذا أمسيا، رجعت حواء إلى المروة، وآدم إلى الصفا.

فكانا كذلك حتى دخل شهر ذي القعدة، فأعاد آدم التلبية، وعقد الإزار، ولم يزل يلبي، حتى دخل شهر ذي الحجة، فهبط جبريل عليه، فعلمه المناسك[1]، وكان مع جبريل حول البيت، والبيت من ياقوتةٍ حمراء، وله أربعة أبوابٍ: باب آدم، وباب إبراهيم، وباب إسماعيل، وباب محمد ﷺ[2]، فوضع جبريل البيت في موضع الكعبة ، وقد استنارت الدنيا من نور البيت[3].

فلمَّا علمه جبريل المناسك، كساه ثوباً أبيض لإحرامه، ثمَّ أخذ بيده، وطاف به، وعلمه المناسك كلها، ثمَّ رده إلى البيت، وأمره أن يطوف سبعاً، ففعل ذلك، فقال له جبريل: حسبك يا آدم، فقد قبلت توبتك، وحلت لك زوجتك، فادع ربك يستجب لك. فدعا آدم بالرحمة للمؤمنين، وسأله أن يعمر هذا البيت بزواره، فاستجاب الله تعالى منه ذلك. ثمَّ انطلق إلى حواء، وقد وقفت له الملائكة، يقولون: بر حجك يا آدم[4]، واجتمع مع حواء في ليلة الجمعة، فلذلك يُستحبُّ الغشيان فيها، فحملت حواء من ساعتها[5].

حمل حواء

قال: حبلت حواء، وآدم بمكة يبتني، فولدت شيثاً وعناقاً[6]، وكانت حواء تحمل في كل عام، فتلد في كل بطن غلاماً وجارية، فنزل جبريل على آدم، فأمره أن يزوِّج الغلام من البطن الأول الجارية من البطن الآخر، ويزوِّج أيضاً الغلام من البطن الأخير الجارية من البطن الأول، وقد ولدت حواء مائة وعشرين بطناً[7].

وقال: إن إبليس وضع ابنا له بين يدي حواء، وقال: اكفليه. فجاء آدم فقال ما هذا يا حواء؟. قالت: جاء عدونا إبليس بهذا، وقال لي: اكفليه. فقال: ألم أقل لك لا تطيعيه في شيء؟،

(1) . الملوك المتوَّجة من حِمير: 17، وتاريخ الرسل والملوك 1: 85.

(2) العظمة 5: 1585.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 142.

(4) أخبار مكة للأزرقي 1: 49.

(5) قصص الأنبياء للكسائي: 142.

(6) عناق بن عوج، سيأتي حديثه لاحقاً

(7) الملوك المتوَّجة من حِمير: 22. وتاريخ الخميس 1: 59.

هو الذي غرنا حتى وقعنا في المعصية. وعمد إلى الولد، فقطعه أربعة أرباع، وعلق كل ربع على شجرة؛ غيظاً له، فجاء إبليس، فقال: يا حواء، أين ابني؟. فأخبرته بما صنع آدم، فقال: يا خناس. فحيي، فأجابه، فجاء به إلى حواء، وقال: اكفليه. فجاء آدم، فحرقه بالنار، وذر رماده في البحر.

فجاء إبليس، فقال: يا حواء، أين ابني؟. فأخبرته بفعل آدم به، فذهب إلى البحر، فقال: يا خناس. فحيي، فأجابه، فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفليه. فنظر إليه آدم، فذبحه وشواه وأكلاه جميعًا، فجاء إبليس، فسألها، فأخبرته حواء، فقال: يا خناس. فحيي، فأجابه، فجاء به من جوف آدم وحواء، فقال إبليس: هذا الذي أردت، وهذا مسكنك في صدر ولد آدم، وهو ملتقم قلب ابن آدم، ما دام غافلاً، يوسوس، فإذا ذكر الله، لفظ قلبه وانخنس[1].

الحرث والزرع

ثم أوحى الله إلى آدم: أنك، إن لم تعمر هذه الدنيا، فلا يعمرها أحد من أولادك. فعمر مسكناً لنفسه، يأوي إليه هو وحواء، ثمَّ أخذ بعد ذلك، في الحرث والزرع، ثمَّ حفر الآبار للماء، وجاء جبريل بالحبة على قدر بيض النعام، بيضاء في لون الثلج، وأحلى من العسل، وجاءه بثورين من ثيران الجنَّة، وجاءه بالحديد، فلمّا نظر إلى الحبة، صاح صيحةً عظيمة، وقال: ما لي ولهذه الحبة التي أخرجتني من الجنَّة؟. قال جبريل: هذا رزقك في الدنيا؛ لأنك اخترته في الجنَّة، فهو غذاؤك، وغذاء أولادك.

وقال جبريل لآدم: كن حراثاً وزراعاً، وقد أتيتك بهذا الحديد، تتخذ منه مطرقةً وسنداناً، وهذه النار، قد أتيتك بها، وقد غمستها في سبعين ماءٍ، حتى اعتدلت، وقد مكننها الله تعالى في الحجارة والحديد، فلا تخرج، إلا بمضرب الحديد على الحجر قدحاً، ثمَّ تأخذها في الكبريت، ثمَّ توقدها بعد ذلك.

قال: فأوقد آدم النار، ولين الحديد، ثمَّ اتَّخذ ما أمره جبريل، ثمَّ قال له جبريل: اتَّخذ منه سكيناً، تذبح بها ما تريد، واذكر على ما تذبحه اسم ربك، وإلا، كان حراماً، واتَّخذ فأساً، تفجر بها الآبار، وتكسر بها، واتَّخذ محراثاً، تحرث به الأرض، واتَّخذ نيراً، فإنك لا تقدر على الحرث إلا بالنير[2].

قال: أول شيءٍ اتَّخذه آدم من الحديد، سنداناً وكلبتين ومطرقة[3]، وما يحتاج إليه من الحديد، ثمَّ اتَّخذ بعد ذلك، آلة النَّجَّارة، واتَّخذ نيراً، وعزم على الحرث، فأتاه جبريل بكبشٍ من الجنَّة، فذبحه آدم، وأكل هو وحواء من لحمه، ثمَّ أمره الله أن يتخذ من الحديد مقراضاً، فاتَّخذ ذلك، وجز به الصوف من الكبش، وغزلاه، ونسجا منه جبتين بلا كمين، وكسائين، واكتسى كل واحدٍ

(1) نوادر الأصول 4: 31.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 143، 144.

(3) قصص الأنبياء للثعلبي: 36 وما بعدها.

منهما بجبةٍ وكساء، فلمَّا مستهما خشونة الصوف، بكيا، شوقاً إلى السندس والإستبرق، فقيل له: يا آدم، هذا لباس أهل الطاعة في الدنيا، وأما الحرير والسندس، فهو من لباس أهل الآخرة، وأما في الدنيا، فلا يلبسه إلا المتكبرون من أولادك، ولا يكون لهم في الجنَّة نصيب، ثمَّ أنزل على آدم، من كلِّ زوجين اثنتين من هذه الأشجار التي على وجه الأرض[1].

فأخذ آدم السنبلة، وبكى عليها، حتى ابتلت بدموعه، فقال له ميكائيل: إن لك فيها ثلاث خصال، أما الأولى: فإنه ما من طاقةٍ نبتت، إلا طالت بالتسبيح، وثواب ذلك لصاحبها، والثانية: ما من روحٍ، تنال منها، إلا كانت صدقةً عن صاحبها، والثالثة: ما من شيءٍ، يؤخذ من الزرع بسرقة، أو غيرها، إلا طال به عمر زارعه، وبورك له فيما بقي، يا آدم، إن الله يوكل بكلِّ طاقةٍ وسنبلةٍ ملكاً، يحفظها من العاهات.

الثوران

فقام آدم إلى الثورين، وهما ثوران أحمران، قال الله تعالى لهما: كونا، فكانا، فعقد آدم النير على أعناقهما، ثمَّ حرث، وبذر البذر، وكان آدم يقف من التعب، ويقول لحواء: أنت التي أورثتني ذلك، فقال له ميكائيل: وإلى أين بلغت من التعب؟، يا آدم، اصبر إلى أن يبلغ، فتحصده وتجمعه وتدرسه وتذريه، فإذا فرغت، فأخرج حقه يوم حصاده، ثمَّ احمله بحمد الله وشكره، فاطحنه واخبزه، ثمَّ كله بعد عرق الجبين، فعند ذلك، تعرف تعبه ونصبه، ففعل آدم ذلك بتعبٍ شديد، حتى خبزه، وحمد الله على ما قضى وقدر.

قال وهب: لَمَّا أجرى آدم الثورين، أنطقهما الله، وقالا: يا آدم، كم بين هذه الدار، وبين التي كنت فيها؟، هذه دار الكد والتعب والجهد التي أورثتها نفسك، وأورثتها من بعدك؟، فبكى آدم بكاءً شديداً، ودعا للثورين بالبركة والصحة، فجعل الله تعالى فيهما، وفي نسلهما، منفعة الناس إلى يوم القيامة.

وكان آدم يقف على الزرع، ويقول: متى يدرك؟، وكان يسمع هاتفاً من الزرع، يقول: { خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ } سورة الأنبياء: 37. وكان الزرع في طول النخلة الطويلة، والسنبلة الواحدة في طول عشرة أذرع، بيضاء، كأنها الفضة، وكانت الرياح تهب عليه، فالشمال تزكيه، والجنوب تربيه، وآدم يحصد، وحواء تجمع، ثمَّ إن الملك علم آدم درسه وتذريته، فأرسل الله تعالى ريح الصبا، فعزلت الزرع ناحيةً، والتبن ناحيةً، ثمَّ علمه الطحن والعجن والخبز، ففعل ذلك، ثمَّ أكل هو وحواء، وشربا من الماء.

القرقرة

فعند ذلك أصابتهما النفخة والقرقرة في بطونهما، فتجشأ آدم، وتغير بدنه، وثقل، فقال كل

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 145.

واحدٍ منهما لصاحبه: كنا نأكل في الجنَّة، فلا نجد في أنفسنا شيئاً من هذا، فلمَّا ثقلت عليهما بطونهما، أمرهما الملك أن يخرجا إلى الصحراء، لقضاء الحاجة، فلمَّا رأيا ذلك، بكيا بكاءً شديداً، وقالا: هذا الذي أورثتنا ذنوبنا، فأمرهما الملك أن يتمسحا بالحجر، ثمَّ يغتسلا بالماء، ثم علمهما الوضوء، فتوضآ وضوء الإسلام، ثمَّ أمرهما بالصلاة، فكانت أول صلاة صلاها آدم، وهي صلاة الظهر[1].

وأوحى الله إلى آدم، بعد ما تاب عليه: يا آدم، إني أجمع لك العلم كله في أربع كلمات: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين الناس، فأما التي لي، فتعبدني، لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك، فأجزيك بعملك، أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك، فمنك الدعاء ومني الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس، فأن ترضى لهم ما ترضى لنفسك[2].

الديك

فقال آدم: يا رب، شغلت بطلب العيشة والرزق، عن التسبيح والعبادة، ولست أعرف ساعات التسبيح في أيام الدنيا، فأهبط الله تعالى إليه ديكاً، فأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح، فهو أول داجنٍ، اتَّخذه آدم من الخلق، فكان الديك، إذا سمع التسبيح في السماء، سبح في الأرض، فيسبِّح آدم بتسبيحه[3].

الغرس

قال وهب: ثمَّ إن آدم أخذ في الغرس، حتى غرس جميع ما على وجه الأرض، من الأشجار، وأنواع الفواكه والثمار، وأخرجت الأرض زهرتها، فاشتاق آدم إلى الجنَّة، وبكى، وكان يأكل من بقول الأرض ونباتها، وأول بقلةٍ، زرعها آدم الهندباء[4]، وأول ما زرع من الرياحين الحناء والآس[5].

مبعث آدم

قال: ثمَّ بعث الله آدم إلى ذريته رسولاً، وخص بالوحي، وذلك في أول ليلةٍ من شهر

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 147.

(2) النبوة: 55.

(3) وديك ودجاجة في قصص الأنبياء للكسائي: 147. «وكان آدم، ربما اشتغل بأمر معيشته عن الصلاة والتسبيح، حتى ما كان يعرف الأوقات، فأعطاه الله ديكاً ودجاجة، وكان الديك أبيض أفرق، أصفر الرجلين، كالثور العظيم، وكان يضرب بجناحه عند أوقات الصلاة، ويقول: سبحان من يسبحه كل شيءٍ، سبحان الله وبحمده، يا آدم، الصلاة، يرحمك الله، فكان آدم يقوم إلى الصلاة، والديك واقف على باب داره، فإذا خرج إلى زرعه، وحرثه يسبح الله تعالى. وتعد الطيور من أبرز المنشدين، والديك من أبرزها، ويصيح سبع مرات من منتصف الليل لتمجيد الرب. قصص اليهود: 81.

(4) من البقول يؤكل نيئاً أو مطبوخاً.

(5) شجيرة ذات ورق عطر. قصص الأنبياء للكسائي: 149.

رمضان، وقيل لآدم: هذا شهر التائبين والراكعين والساجدين من أولادك، يا آدم، هذا شهر، وضع الله رحمته فيه، وعظمت البركة فيه، ولله في كل ساعةٍ من نهاره وليله، سبعون ألف عتيقٍ من النار، وتزخرف فيه الجنان، وتزين فيه الولدان، وتغلق فيه النيران، ويغل فيه الشيطان، يا آدم، أيحسب أولادكم أن ينالوا رحمتي بإمساكهم عن الطعام والشراب، كلا، حتى يتوبوا في شهري هذا، توبة الندم، ويؤدوا فرائضي[1]

صحف آدم

ثم أنزل الله على آدم إحدى وعشرين صحيفةً[2]، في تلك الليلة، وكانت فيها سور، مقطعة الحروف، لا يتصل حرف بحرفٍ، وهي أول كتابٍ أنزل، فيها ألف لغةٍ، وفيها من الفرائض والسنن والشرائع والوعد والوعيد، وكان الله قد بين فيه أهل كل زمانٍ، وصورهم، وسيرهم مع ملوكهم وأنبيائهم، وما يحدثون في الأرض، وما يكون لهم من المأكل والمشرب.

فنظر آدم إلى ذلك كله، وعرف ما يكون من أولاده بعده، ثمَّ أمره الله أن يكتبها بالقلم، فأخذ جلود الضأن، فدبغها حتى صارت رقاً، وكتب فيه الحروف التسعة والعشرين، وهي في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، أولها:

أ: أنا الله الواحد الأحد، الذي لم يزل.

ب: بديع السماوات والأرض.

ت: توحد في ملكه، وتواضع كل شيءٍ لعظمته.

ث: ثابت لم يزل، ولا يزال.

ج: جميل الفعال، جواد، جليل المقال.

ح: حليم على من عصاه، حميد عند من أنشأه.

خ: خبير ببواطن الأمور وظواهرها، خالق كل شيء.

د: ديان يوم الدين، دان من خلق.

ذ: ذو الفضل العظيم.

ر: رب الخلائق، رزاق، رؤوف، رحمن، رحيم.

ز: زارع من غير بذر، زائد لمن شكر، زين كل شيءٍ برحمته.

س: سريع الحساب، سميع الدعاء، سريع الإجابة.

ش: شديد العقاب والبطش، شاهد كل نجوى.

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 150.

(2) المعارف: 18. وتاريخ الرسل والملوك 1: 95.

ص: صمد، صادق الوعد.

ض: ضياء السماوات والأرض، ضمن لأول يائه المغفرة.

ط: طاب من أخلص له من المطيعين، طوبى لمن أطاعه.

ظ: ظهر أمره، وظفر أهل محبته بالجنَّة.

ع: عليم، عالم، علام، علا بالربوبية.

غ: غياث المستغيثين، غني لا يفتقر.

ف: فعال لمَّا يريد، فرد، ليس له شريك.

ق: قيوم، قائم على كل نفسٍ بما كسبت، قدير، قاهر.

ك: كريم، كان قبل كل شيء، كائن بعد كل شيء، كافي كل بلية.

ل: له ما في السماوات، وما في الأرض، وله الخلق والأمر.

م: مبر، محسن، مالك يوم الدين، متكبر، محمود، معبود، منعم، من قبل، ومن بعد.

ن: نور السماوات والأرض، نار، معدة لأهل عدواته.

و: ولي المؤمنين، ويل لمن عصاه، ويل للمطففين.

هـ: هادٍ، هدى من الضلالة من قدر له ذلك بمشيئته.

لا: لا إله إلا الله الواحد القهار، الذي لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ي: يعلم ما في السماوات، وما في الأرض، وما بينهما وتحت الثرى، وما تخفي الصدور.

صحف أولاد آدم

فلماً استوفى آدم هذه الكلمات، علمها لولده شيث، وقد أنزل عليه خمسين[1] صحيفةً، ثمَّ توارثوها حتى صارت إلى أنوش، ثمَّ إلى مهاييل، ثمَّ إلى يرد، ثمَّ اندرست، حتى بعث الله إدريس، وأنزل عليه ثلاثين[2] صحيفةً، وأنزل عليه هذه الحروف بعينها، فكتبها إدريس، فهو أول من خط بالقلم، بعد أنوش بن شيث ، ثمَّ علمها لأولاده، ثمَّ قال لهم: يا بني، اعلموا أنكم صابئون، فتعلموا القراءة في صغركم، لتنتفعوا بها في كبركم، فالصابئون هم الكتبة، فذلك قوله تعالى: { وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ } سورة الحج: 17.

ولم يزالوا يتوارثون صحف شيث وإدريس، وسفر آدم إلى زمن نوح وهود، وزمن إبراهيم، بعد أن نصره الله تعالى على نمرود، فخرج إبراهيم مهاجراً، يريد أرض الشام[3]، من بلاد آبائه،

(1) ثلاثين. في الأصل، والتصويب من الملوك المتوَّجة من حمير: 10.

(2) خمسين. في الأصل، والتصويب من الملوك المتوَّجة من حمير: 10.

(3) تفسير ابن أبي حاتم 6: 1837.

فلماً صار إلى أرض حران من بلاد الجزيرة[1]، وجد بها قوماً من الصابئين، يقرأون الكتب المتقدمة، ويؤمنون بها، فقال إبراهيم: إلهي، ما ظننت أحداً، يوحدك غيري، وغير من معي من المؤمنين.

فأوحى الله تعالى إليه: أن الأرض لا تخلو من قائم فيها بالحجة، ثمَّ أمره الله تعالى أن يدعوهم إلى دينه، فأبوا وقالوا: كيف نؤمن بك، وأنت لا تقرأ كتاباً؟. فأنساهم الله تعالى ما كانوا يقرؤون، فتحققوا أن إبراهم نبي مرسل، ثمَّ قرأ إبراهيم كتابهم الذي كانوا يدرسونه، فآمن به بعضهم، ثمَّ افترق الصابئون، فمنهم من آمن، وهم البراهمة[2]، وفرقة كانوا معه لا يفارقونه، وفرقة كانوا على دينهم بحران، ولم يهاجروا مع إبراهيم إلى الشام، وقالوا: نحن على دين شيث وإدريس ونوح، وهم النوحية.

تابوت آدم

ثم إن إبراهيم فتح تابوت آدم، فإذا فيه سفر آدم، وصحف شيث وإدريس، واسم كل نبي مرسل بعد إبراهيم، فقال إبراهيم: لقد سعد ظهر، يخرج هولاء كلهم منه، فأوحى الله تعالى إليه: أنت أبوهم، وهم أولادك، ثمَّ أنزل عليه الحروف المتقدم ذكرها. ثمَّ صام آدم شهر رمضان، وقامه، وأكثر فيه الدعاء، فلمَّا كان يوم الفطر، قيل: يا آدم، سل ما أحببت. فقال: إلهي، أسألك أن تغفر لي ذنبي، فلست أنساه، وأسألك أن تغفر لأولادي، من صام منهم هذا الشهر وقامه. فأوحى الله أن قد فعلت ذلك[3].

قابيل وهابيل

ثمَّ سار آدم إلى الحج، وإن هابيل وقابيل قربا قُرْبانا، تقبل من هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل: { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } سورة المائدة: 27 – 28[4].

وعن ابن عبَّاس:[5] كانت منافستهما على أخت قابيل التي ولدت معه في بطن، وكانت جميلة، فطلب هابيل أن يتزوجها، فقال له قابيل: أنا أتزوجها. فقال له هابيل: لن تحل لك. قال له قابيل: أقرب معك قرباناً، فمن أكلت النار قربانه، تزوجها. فقربا، فأكلت النار قربان هابيل،

---

(1) تقع حالياً جنوب شرق تركيا عند منبع نهر البليخ، أحد روافد نهر الفرات، سكنها قديمًا الصابئة الحرانيون الذين تذكرهم كتب الملل والنحل. معجم البلدان: 2: 235.

(2) كذا، وجمع النسب إلى إبراهيم: إبراهيمية، والإبراهيمية هم الصابيون (الصابئة) الإبراهيمية الذين آمنوا بإبراهيم، وحملوا عنه الصحف التي أنزلها الله عليه، ولهم كتاب الحنفاء. الفهرست: 32.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 151 – 154.

(4) الملوك المتوَّجة من حِمير: 22. والقصة في العهد القديم، سفر التكوين 4: 2 – 8.

(5) قول ابن عبَّاس في تاريخ الرسل والملوك 1: 140. وقصص الأنبياء للثعلبي: 42.

وبقي قربان قابيل، فحسد هابيل عليه، ونفز عليه، فقتله[1].

فلمّا رآه ميتاً حين قتله، أقبل عليه، يدعو وينادي: يا هابيل، يا هابيل. فلمّا لم يجبه، أقبل عليه، يقلبه ليتحرك، فلمّا رآه ميتاً لا يتحرك، ولا يحير جواباً، ولا ينظر، ندم وأدركه الخوف، وعلم أنه الموت، وداخلته وحشه الموت، وعلم أنه عصى الله، فطلب الحيلة له، فلم يدر ما يفعل فيه، وضاقت عليه الأرض، فبعث الله غرابين، فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فلمّا مات، بحث الغراب الحي، حتى خد في الأرض أخدوداً، ثمَّ جر إليه الغراب القتيل، فألقاه في الأخدود، فقال: هذا غراب، علم ما يعمل بأخيه، فما لي لا أواري سوأة أخي هكذا؟[2].

فلمّا حفر ليواريه، أتت حواء؛ لتطلبهما لمّا غابا عنها، فوجدته قد حفر له قبرا، ووجدت هابيل قتيلاً، فحملته وسارت به إلى آدم، وقالت له: يا آدم، هذا هابيل أكلمه، فلا يكلمني، ولا ينظر ولا يتحرك. قال: ما باله؟. قال له قابيل: أنا فعلت به هذا. قال آدم: إذهب عني، فقد عصيت الله، إياك أن تلقاني. فذهب، فلم يلق آدم بعدها. وقال آدم لحواء: هذا الموت الذي أعلمتك به، تزودي منه، فإنك لن تريه إلى يوم الدين، يرجعنا إلى الأرض التي خلقنا منها.

فلمّا أيقنت بفراقه، وأنها لا تراه أبد الأبد، عظمت عليها المصيبة، ورفعت يديها إلى رأسها، وصاحت، فمن أجل ذلك صارت كل امرأة في الدنيا، إذا أصابتها مصيبة، تأدت بيدها على رأسها، وصاحت كفعل حواء، فلمّا بكت حواء، قال لها آدم: مذ خلق الموت في الدنيا لم تجف لعاقل فيها عين، ولا تجف لأهلها عين، يبكون ويبكى عليهم، حتى يتفارقوا ونفارقهم، يا حواء، ذهب الأمل، وحل الأجل، فمن قدم خيراً، وجده، ومن قدم شراً وجده، وأنشأ يقول، يرثي هابيل: [من الوافر]

تغيَّرت البلادُ ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيحُ
تغير كل ذي طعمٍ ولونٍ ... وقل بشاشة الوجه الصبيح[]
وقابيل أذاق الموت هابيل ... فوا حزناً لقد فقد المليح
وما لي لا أجود بسكب دمعٍ ... وهابيل تضمنه الضريح

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 23. وفي مدراش بريشيت رابا 22: 7. قصص اليهود: 123، 347. «كانت الشقيقة التوأم لهابيل على قدر كبير من الفتنة والجمال، وابتغاها قابيل، ولذلك كان يطيل التفكير في طرق التخلص من أخيه». وهناك أسباب أخرى في التلمود: 66. والأساطير للشوك: 81. ومعنى نفز وثب. لسان العرب: نفز.

(2) الملوك المتوَّجة من حِمير: 23. قصة الطائر الذي علم قابيل الدفن في مدراش تنحوما، برشيت: 10. ومدراش بريشت رابا: 22، 8. قصص اليهود: 348، الحاشية: 31.

وجاءت شعلة ولها رنين لهابلها وقابلها يصيح
لقتل ابن النبي بغير جرم فقلبي عند مقتله جريح
وجاورنا لعين ليس يفنى عدو لا يموت فنستريح

****

وقالت حواء:

دع الشكوى فقد هلكاً جميعاً بموت ليس بالثمن الربيح
وما يغني البكاء عن البواكي إذا ما المرء غيب في الضريح
فابك النفس وأنزل عن هواها فلست مخلداً بعد الذبيح

****

فأجابهما إبليس لعنه الله شامتاً بهما: [من الوافر]

تنح عن البلاد وساكنيها ففي الجنات ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك في رخاء وقلبك من أذى الدنيا مريح
فما زالت مكايدتي ومكري إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الجبار أضحى بكفك من جنان الخلد ريح[*]

[*] الملوك المتوَّجة من حِمير: 25. والشعر مختلف في قصص الأنبياء للثعلبي: 44.

****

وقال قوم من أمة محمد : إن قابيل لم يقتل أخاه هابيل قتلاً مفنياً، ولكنه تناظر معه في الملكوت، وكانت قابيل أبعد بالحجة في ذلك، فقتله بالحجة. والغراب عندهم تأويل، ويحتجون أن الأنبياء لا تقتل الأنبياء، ولو كان ذلك، لَمَّا ذم بني إسرائيل بغير حق، وإذا كانت الأنبياء تفعل ذلك، فما بال غير الأنبياء، فكان قتل ابن آدم لأخيه بالحجة، لا بالقوة؛ لأنه لم يقتل نبي نبياً[1].

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 26.

وفاة آدم

عن وهب[1]: لمَّا أخذ آدم في غرس الأشجار، وحرث الأرض، حتى عمرت، فلماً استوفى مدته، أوحى الله تعالى إليه: يا آدم، قد اقترب أجلك، فأوص إلى ابنك شيث، وكان شيث يومئذٍ، ابن أربعمائة سنة، فقال آدم: يا رب، وما الموت؟. فأوحى الله إليه: أنه الحتم الذي لا بد منه لجميع الخلق، وأنه يا آدم، أشدُّ مرارةً من السم القاتل، وأنه يذهب النضارة من الوجه، والكلام، والجسد، حتى يعود إلى بطن الأرض، فتأكل الأرض الشحم واللحم والدم والعظم، وكل جزءٍ منه، كما كان طيناً يابساً، ثمَّ أبعثك وذريتك، وأجازيك على قدر الأعمال، وقد سبق القول مني يا آدم: أن أذيق الموت كل خلقٍ خلقته، وأذيقك الموت، وأذيق الموت الموت، فصاح آدم صيحةً عظيمة من غم الموت، فأجابته الأرض: يا آدم، إن الله وعدني، يوم أخذ مني قبضتك، أن يرد علي كل عرقٍ، أخذ مني إلى موضعه، فأخذه الفزع من الموت[2].

وإن الله، لمَّا عرض على آدم ذريته، لأخذ العهد والميثاق، جعل آدم ينظر إلى كل واحدٍ منهم، فرأى فيهم من يسطع نوره، فقال: يا رب، من هذا من أولادي؟، فقيل له: يا آدم، هذا ولدك داود، فقال: كم قسمت له من العمر؟، فقال: ألف سنة، فقال آدم: إني وهبت له من عمري، أربعين سنة، فقيل له: أتفعل ذلك؟ !، قال: نعم، فشهدت عليه الملائكة، وكتب عليه العهد.

فأوحى الله إلى آدم باقتراب أجله، فقال آدم للملائكة: إني لم استوف أجلي، فقيل له: إنك وهبت لولدك داود أربعين سنة، فقال للملائكة: ما فعلت ذلك !، فقال الله تعالى: فعلت ذلك يا آدم، فقد أتممتها لك ألف سنة، ولابنك داود مائة سنة[3]، فكان آدم أول من جحد، فجحدت ذريته من بعده، من يومئذٍ، فلذلك أمر الله تعالى بالإشهاد، ثمَّ أوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت: أن اهبطوا إلى آدم، وكونوا بين يديه، إذا عاين صورة الموت[4].

آدم وملك الموت

ثمَّ إن الله تعالى أهبط إليه ملك الموت، على صورة كبشٍ أملح، وقد نشر جناحيه إلى حيث يعلم الله تعالى، وله أجنحة، لا ينشرها إلا للملائكة، وأجنحة، لا ينشرها إلا للأنبياء، وأجنحة لا ينشرها إلا لأهل الطاعة، وأما أجنحته التي ينشرها للكفار والمنافقين، فلا ينظرها إليها أحد، إلا خر صعقاً. فلمَّا نظر آدم إلى صورة الموت، خر مغشياً عليه، فاكتنفته الملائكة، ورشت على وجهه الماء، حتى أفاق، وهو يرشح عرقاً كالزعفران، ثمَّ قال: إلهي، ما أهول الموت !، وما أهول

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 157. وهو في الملوك المتوَّجة من حِمير: 25.

(2) بصيغة أخرى في الحياة اليونانية لآدم وحواء: 634، حيث يدور الكلام حول المرض والألم.

(3) وينسب القول لابن عبَّاس، ولسعيد بن جبير في جامع البيان 13: 337، 340، وأشار الطبري إلى أن عمر آدم في التوراة، تسعمائة وثلاثون سنة، وهو في العهد القديم، سفر التكوين 5: 2.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 158. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 45. عن الرسول.

منظره، والعجب، يا إلهي، ممن ينتفع بعيشه، ووراءه الموت، فهذا لي خاصةً أم لجميع الخلق؟.

قال الله تعالى: هذا لخلقي أجمعين، فوعزتي وجلالي، إني أذيق الموت جميع خلقي، حتى الذرة والبعوضة وما دونهما، فلا يبقى أحد إلا أنا، وأما ذريتك، فيذوقون الموت على قدر أعمالهم، وثوابهم وعقابهم، ثمَّ تكون أرواح المؤمنين في عليين، وأرواح الكافرين في سجين، حتى إذا كان يوم القيامة، وردت الأرواح في الأجساد { فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } سورة الزمر: 68. ثمَّ على أعمالهم، يثابون ويعاقبون، والحسنة بعشر، والسيئة بواحدة[1].

وصية آدم

وكان الله تعالى قد أهدى لآدم نمطاً من الجنَّة في تابوت، فأمره أن يخرج النمط ويفتحه وينشره، فإذا فيه صور الأنبياء والفراعنة، طبقاً بعد طبق، فأول الأنبياء آدم، وآخرهم محمد ﷺ، فنظر شيث إلى الفراعنة، وكلهم منقولون من ظهر قابيل، والأخيار من ظهر شيث، ثمَّ طوى النمط، ووضعه في التابوت، ثمَّ عمد آدم إلى طاقاتٍ من شعر لحيته، فوضعها في التابوت، وقال: يا بني، لا تزال ظافراً غالباً على أعدائك، ما دامت هذه الشعرات سوداء، فإذا ابيضت، فاعلم أنك ميت، فأوص إلى خير أولادك، كما أوصيتك.

واعلم يا بني، أن الله تعالى قابض روحي، في الساعة التي خلقني فيها، وهي أفضل ساعة في يوم الجمعة، فإذا كان ذلك الوقت، فاخرج من القبة ساعةً، واسمع تعزية الملائكة، واعلم يا بني، أن الله سيبعث لي كفناً من الجنَّة وحنوطاً، وأن الذي يصلِّي علي، ويتولَّى أمري جبريل، ونفر من الملائكة، فتعلم منه، حتى يكون سنةً لك ولأولادك من بعدك، والذي يصلِّي علي هو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثمَّ الملائكة المقربون، زمرةً بعد زمرة، فإذا صلوا علي، فصل علي أنت، وتعاهدني في قبري بالسلام[2].

ثم نزع خاتمه من إصبعه، فدفعه إليه، وسلمه التابوت، وقال: يا بني، إن الله تعالى سيعطيك ثواب المجاهدين، فحارب أخاك قابيل، فإن الله تعالى سينصرك عليه، ثمَّ قال: يا بني إني قد اشتهيت عنباً من ثمار الجنَّة، وهو العنب الذي وعدني ربي أن يطعمني منه، فاخرج يا بني، وانظر من لقيت من الملائكة، فاذكر له حاجتي، فخرج شيث، فوجد ملكاً من خزان الجنَّة، واسمه بوصاييل، ومعه شيء من أعناب الجنَّة، فلمَّا دخل عليه الملك بالعنب، أكل آدم، ورفع طرفه إلى السماء[3].

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 159. وعن كعب. في العظمة 3: 944.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 160. والوصية بتفاصيل مختلفة عن محمد بن إسحاق. تاريخ الرسل والملوك 1: 96.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 161. وذهب شيث وحواء إلى الجنَّة، لتلبية طلب آدم شيئاً من زيت الحياة، فيخبرهما ميكائيل بعدم موافقة الرب؛ لأن آدم سيموت بعد أيام قليلة. قصص اليهود: 113. وقريب منه في الحياة اليونانية لآدم وحواء: 634.

موت إبليس

وقال آدم: رب يشمت بي عدوي إبليس ، إذ يراني ميتاً، وهو منظور إلى يوم القيامة، يوم الوقت المعلوم، فقيل له: يا آدم، إنك ستصير إلى الجنَّة، ويؤخر الملعون إلى النظرة، فيذوق غصص الموت بعدد الأولين والآخرين، ثمَّ يقال لملك الموت: صف لآدم كيف تذيق إبليس الموت. قال: يا آدم، إذا كان آخر الزمان، يكون الناس قياماً، يخاصمون، ويتاجرون في أسواقهم، فإذا هم بهدةٍ عظيمة، يصعق منها نصف الخلائق، فلا يفيقون مقدار ثلاثة أيام، والنصف الآخر تذهب عقولهم، ويقفون مدهوشين قياماً على أرجلهم، كالغنم الفزعة التي تنظر إلى الأسد.

فبينما الناس في الهول، إذا هم بصوتٍ من السماء، كصوت الرعد القاصف، فلا يبقى أحد، على ظهر الأرض، إلا خر ميتاً، فتبقى الدنيا بلا إنسٍ ولا جان، ولا دابةٍ ولا وحش ولا هوام، فهذه النظرة التي بين الله تعالى، وإبليس لعنه الله، فعند ذلك يقول الله تعالى لملك الموت: يا ملك الموت، إني خلقت لك بعدد الأولين والآخرين أعواناً، وجعلت لك قوة أهل السماوات والأرض، وإني قد ألبستك اليوم، أثواب السخط والغضب، فانزل سخطي وغضبي على الملعون إبليس ، فأذقه الموت، وأذقه في الموت مرارة الأولين والآخرين، من الجن والأنس، أضعافاً مضاعفةً، وليكن معك سبعون ألفٍ من الزبانية، وقد ملئوا غيظاً، وليكن مع كل واحدٍ سلسلة من سلاسل لظى، وغل من أغلال الجحيم لظى، وانزع روحه الخبيثة بسبعين ألف كلاب من السعير.

وأمر الله مالكاً أن يفتح أبواب النيران، فنزل ملك الموت في صورةٍ، لو نظر إليها أهل السماوات السبع، لماتوا جميعاً من هول رؤيته، فينتهي إلى إبليس لعنه الله، ويزجره زجرةً، فيصيح صيحةً، لو سمعها أهل الدنيا لماتوا، فيقول له ملك الموت: يا خبيث، قف، لأذيقك غصص الموت، فكم من خلقٍ أغويت، وكم من قرنٍ أهلكت، فهذا اليوم المعلوم بينك وبين ربك، فيهرب إلى المشرق، فإذا ملك الموت بين عينيه، فيغوص في البحر، فلا يقبله، فلا يزال يهرب في الأرض، حتى يقف عند قبر آدم، فيقول: من أجلك، جعلت ملعوناً، فليتك لم تخلق.

ثم يقول: يا ملك الموت، بأي كأسٍ تسقيني جزع الموت، وتقبض روحي؟. فيقول له ملك الموت: بكأس أهل لظى، وبكأس أهل السعير، وبكأس أهل الجحيم أضعافاً مضاعفةً، فيخر إبليس لعنه الله، مرةً يتمرغ في التراب، ومرةً يصرخ من هول الموت، ومرةً يهرب من المشرق إلى المغرب، حتى يأتي الموضع الذي أهبطه الله تعالى فيه يوم لعنه، وقد نصبت الزبانية الكلاليب والخطاطيف، وصارت الأرض كالجمرة، ثمَّ يأتيه ملك الموت، والزبانية يطعنونه بالكلاليب، فيكون في أشدِّ العذاب، ما شاء الله، ويذوق بعدد الأولين والآخرين غصص الموت، ثمَّ يخر ميتاً[1].

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 162.

***

فلمَّا سمع آدم ذلك، قال: حسبي ما يلقى عدوي، فلمَّا كان يوم الجمعة، في الساعة التي خلق فيها، وهي ما بين زوال الشمس، إلى وقت خروج الإمام من الصلاة، أمر الله تعالى ملك الموت أن يهبط إلى آدم، في صورته الحسنة التي لم ينزل فيها إلا على محمد ، وأمره أن يأخذ معه شراب الفراق، فيسقيه ويقبض روحه، ويخبره قبل ذلك: أني لو خلدت أحداً في الدنيا، لكنت خلدتك، وهبط جبريل وميكائيل، ومعهما ملك الموت، في نفرٍ من الملائكة، براياتهم وألويتهم، ومعهم السرير الأعظم لآدم من الجنَّة، فنصب بين السماء والأرض، وبشرت الجنَّة بروحه، فتزينت وتزخرفت، ونشرت الملائكة أعلامها في أبواب السماوات، منتظرةً الكرامات المعدة له.

ورفع آدم طرفه إلى السماء، فنظر هذه الكرامة المعدة له، فاستبشر، ودخل ملك الموت عليه، فقال: السلام عليك، يا أبا البشر، أتعرفني؟ !، فقال: وعليك السلام، أنت ملك الموت ، بماذا أمرت؟، قال: أمرت أن أسقيك هذه الشربة، فأذيقك الموت، فقال آدم: إني سميع مطيع لأمر ربي، ثمَّ تقدم جبريل إلى آدم، فقال آدم: مرحباً بخليلي ومؤنسي.

فقال جبريل: ارفع رأسك إلى السماء، فرفع رأسه، ومد طرفه، فرأى من لدن رأسه إلى السماء ملائكةً قياماً، قد نشروا أجنحتهم، وفي أيديهم ألوية الكرامة، وأعلام البشرى، وصورة ولده هابيل، بين السماء والأرض، تناديه: العجل العجل، فقد اشتدَّ شوقي إليك، يا أبت، ثمَّ ناوله ملك الموت شربة الفراق، ففارق الدنيا، صلى الله عليه صلاةً، لا تنقطع على مرَّ الأزمان، ثمَّ إن جبريل عزى ولده شيث، وقال له: أعظم الله أجرك، وبارك فيك لأبيك، وفيما صار إليه من الكرامة، فقال شيث: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال جبريل: أحسنت يا هبة الله، وفقت ووفق كل من قالها عند المصيبة.

ثم غسله جبريل بماء الجنَّة، وأدرجه في أكفان من الجنَّة، ثمَّ أمر جبريل شيث أن يتقدم، فيصلِّي عليه، فتقدَّم، وجبريل وميكائيل وإسرافيل وجميع الملائكة خلفه صفوفاً، وهم في عددٍ لا يحصون، فقال: الله أكبر، فقيل له: كبر عليه سبع تكبيرات. ثمَّ صلت عليه ملائكة الأرض، ثمَّ الوحوش والسباع والهوام، زمرةً بعد زمرة، وكان رأسه إلى الكعبة، ورجلاه من ورائها[1]. قال وهب: وحفر له موضع في جبل أبي قبيس، يقال له: غار الكنز[2]، فلم يزل آدم في ذلك الغار حتى كان زمان الغرق، وهو زمان الطوفان، فاستخرجه نوح وجعله في تابوتٍ معه في السفينة، فلمَّا جف الماء، وبدت الأرض لأهل السفينة، رده نوح إلى مكانه. وقال وهب: وجدت في التوراة

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 164.

(2) مات آدام عن عمر يناهز تسعمائة وثلاثين سنة، عندما كان لامك بعمر الخامسة والستين، فدفن بتكريم عظيم على يدي شيث وحنوك (أخنوخ، إدريس) ومتوشالح، سجي جثمانه داخل مغارة مكفلاه (مكفيلة) ومنذ ذلك الحين، أي دفن آدام، اتخذت عادة الاحتفال بمراسم الجنازة للموتى. التلمود: 70.

أن جميع ما عاش آدم تسعمائة وثلاثون سنة[1].

وفاة حواء

لم تعلم حواء بموت آدم، حتى سمعت بكاء الملائكة وسائر الحيوانات، ورأت الشمس منكسفةً، فأتت مسرعةً إلى قبة آدم، فلم تره فيها، فصاحت صيحةً عظيمة، فقال لها شيث: يا أمي، كفي عن البكاء وتعزي، فإن أبي صار إلى ربه، وقد أمرني إلا أخبرك إلا بعد دفنه، فعليك بالصبر. فلم تصبر وصرخت وأعوت، ولطمت وجهها، ودقت صدرها، فأورثت ذلك بناتها إلى يوم القيامة، ثمَّ إنها لزمت قبر آدم، أربعين يوماً، فلم تذق طعاماً، ولم تكتحل بنومٍ وهبطت الملائكة بعد ذلك، فأخبرتها باقتراب أجلها، فمرضت مرضاً شديداً، ودام مرضها، حتى بكت الملائكة رحمةً لها، ثمَّ هبط عليها ملك الموت، فسقاها الشربة التي سقاها لآدم، ففارقت الدنيا – صلوات الله عليها– صلاةً، لا ينقطع أولها عن آخرها، فغسلتها بناتها، وكفنت بكفنٍ من الجنَّة، ودفنت إلى جانب آدم، ورأسها عند رأسه، ورجلاها عند رجله[2].

(1) الملوك المتوَّجة من حمير: 26. والرواية عن وهب: في التوراة، كان عمر آدم ألف سنة إلا سبعين سنة، البدء والتاريخ 1: 127.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 165. وقصص الأنبياء للثعلبي: 46، ودعت حواء ربها؛ لتدفن في ذات البقعة التي استقرت بها رفات زوجها، فقالت: يا رب كل قوي، لا تفصل أمتك عن جسد آدم الذي أخذتني منه. قصص اليهود: 119. والحياة اليونانية لآدم وحواء: 642.

شيث إلى إدريس

شيث

فقام شيث[1] في الأرض خليفة بأمر الله، يصدع بالحق، وذلك أن بني آدم وبني البنين انتشروا في الأرض يبنون ويغرسون، فتنافسوا فيها وطغى بعضهم على بعض، فأنزل الله على شيث خمسين صحيفة في صلاح الأرض، يدعو الثقلين الجن والأنس.

وكان شيث مجبولاً على القراءة، ولا يكتب، فأنزل الله شريعة آدم في نكاح الأخ للأخت؛ لأن آدم كان يزوج الأخ من الأخت، إذا اختلفت البطون، فأتت شريعته بخلاف ذلك، فلا يزوج إلا ما تباعد نسبه كبنات العم وغير ذلك، قال الله تعالى: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } سورة المائدة: 48. فأنكر عليه ذلك بنو آدم، فقام فيهم بأمر الله، وغلب عليهم، فتمت كلمة الله، وعمت دعوته[2].

وكان شيث بن آدم أجمل ولد آدم وأفضلهم، وأشبههم به[3]، وأحبَّهم إليه، وكان وصي أبيه، وولي عهده، وهو الذي ولد البشر كلهم، وإليه انتهت أنساب الناس، وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة، وكانت هناك خيمة لآدم، وضعها الله له من الجنَّة، وعاش شيث تسعمائة سنة واثنتي عشرة سنة[4].

وقال: وإن لامك بن هنوش بن هابيل بن آدم، وهو هابيل قتيل قابيل، مرَّ عليه (على قابيل)، وهو يرعى غنماً له، راكباً على فرسه، ولامك أعمى، فتكلَّم قابيل، فقال: لامك من هذا المتكلِّم، فقد انتفض لكلامه كبدي، واقشعر له جلدي؟. فقالوا: هذا قابيل قاتل هابيل جدك. قال: أوتروا لي قوساً. فأوتروا له قوساً، ثمَّ استمع الكلام من أين يأتيه، حتى علم أين هو، ثمَّ قال: اللهم، أهدني وانتقم. ثمَّ رمى، فأصاب نحر قابيل، فسقط عن فرسه، ثمَّ سأل من هذا؟. قيل لامك بن هنوش بن هابيل. قال: حسبي أبناء الأبناء، قروا حدود الأجداد[5]. ومات فأتى بنو قابيل بلامك الأعمى إلى شيث، فقالوا: هذا قتل أبانا قابيل. قال لهم: أخذ الله حقه بأضعف

(1) معناه خلف، أو معين أو بديل، في قاموس الكتاب المقدس: شيث. وفي العهد القديم، سفر التكوين 4: 25. «دعت اسمه شيثاً، قائلة: لأن الله قد وضع لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل».

(2) الملوك المتوَّجة من حمير: 27.

(3) «حينما رزق آدم به، كان يشبهه للغاية». فصول الحاخام إليعازر، الفصل الثاني. ومدراش بريشيت رابا 23: 5. قصص اليهود: 132، 349.

(4) المعارف: 20. وفي التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 10: 32. وهو في العهد القديم، سفر التكوين 5: 8.

(5) في قصص الأنبياء للثعلبي: 44. دون نسبة. والقصة نفسها في مدراش بريشيت رابا 22: 12 – 13. وفي الأساطير للشوك: 95. وفي التلمود: 69. فهكذا تم الاستداد [كذا] من قين، كما كان سفح دم أخيه هبل.

خلقه، دعوه النفس بالنفس، فإن الله أوحى إلى آدم: أنا أرحم الراحمين قتل ولدك، ولا آمرك بقتل ولدك الآخر، دعه لا يفوتني هارب، ولا ينجو مني غالب، وأنا القوي الطالب[1].

وولد لشيث: أنوش، وبنون وبنات. وولد لأنوش: قينان، وولد لقينان: مهلاييل. وولد لمهلائيل: اليارد. وولد لليارد: أخنوخ، وهو إدريس[2].

أنوش

فلمّا بلغ شيث حجة الله، وتمت كلمة الله بالصحف: خمسين صحيفة، وخمسين كتاباً، أوحى الله إلى شيث أن اتَّخذ ابنك أنوش صفياً ووصياً. فعلم أنه نعيت إليه نفسه، فأوصى إلى ابنه انوش، واستخلفه، فلمّا بلغ تسعمائة سنة واثنتي عشرة سنة، قبضه الله، وولي أمر الله في الأرض، ومن فيها أنوش بن شيث، فحكم بما في صحف شيث، فعمل في الأرض بطاعة الله، حتى بلغ عمره تسعمائة وخمس سنة[3].

قينان

فلمّا بلغ العمر المسمى في الدعوة، أوصى إلى ابنه قينان، ثمَّ قبضه الله، فعمل بأمر الله، وقام بحق الله.[4]

مهليل

فلمّا بلغ (قينان) من العمر غاية دعوة آدم، وعاش تسعمائة سنة وعشر سنين، أوصى إلى مهليل ابنه، ومات قينان، وولي الأمر ابنه، فصار بأمر الله قائماً[5].

يارد

فلمّا بلغ الغاية من العمر من دعوة آدم، وعاش بضع مائة سنة وعشرين سنة، أوصى إلى ابنه يارد، ثمَّ قبض الله مهليل، وولي الأمر في بني آدم يارد، فعمل بأمر الله، فلمّا بلغ إلى غاية الدعوة،

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 27.

(2) المعارف: 20.

(3) في الملوك المتوَّجة من حِمير: 28. خمسين سنة، والتصويب من العهد القديم، سفر التكوين 5: 11، وفي 4: 26. «لشيث أيضًا ولد ابن، فدعا اسمه أنوش. حينئذٍ ابتدئ أن يدعى باسم الرب». معنى اسمه زائل. ويدل على أن الإنسان ضعيف، وبه بدئ بطور ديني جديد. دائرة المعارف الكتابية 1: 502.

(4) الملوك المتوَّجة من حِمير: 28. ومعنى قينان مقتنى أو حداد، وفي اللغة العربي القين هو الحداد أو الصانع. دائرة المعارف الكتابية 6: 286. وفي العهد القديم، سفر التكوين 5: 14. «كانت كل أيام قينان تسع مئةٍ وعشر سنين».

(5) الملوك المتوَّجة من حِمير: 29. مهللئيل اسم عبري معناه حمد الله، عاش ثمانمائة وخمساً وتسعين سنة. دائرة المعارف الكتابية 7: 235. والعهد القديم، سفر التكوين 5: 12 – 17.

وعاش تسعمائة سنة واثنين وستين سنة، أوصى إلى ابنه أخنوخ، ثمَّ قبضه الله إليه[1].

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 29. ومعنى يارد نزول، و«كانت كل أيام يارد تسع مئةٍ واثنتين وستين سنةً. دائرة المعارف الكتابية 8: 232. العهد القديم، سفر التكوين 5: 20.

إدريس

إن إدريس[1]، كان رجلًا طويلًا، ضخم البطن، عريض الصدر، قليل شعر الجسد، كثير شعر الرأس، وكانت إحدى اذنيه أعظم من الاخرى، وكان رقيق الصدر، رقيق المنطق، قريب الخطى إذا مشى[2]، وإنما سُمّي إدريس؛ لكثرة ما كان يدرس من حكم الله والسنن، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من لبس ثوب القطن، وكانوا من قبل ذلك يلبسون جلود الضأن، واسمه أخنوخ، ويقال: إلياس[3]، وهو بين أظهر قومه.

ثم إنه فكر في عظمة الله، فقال: إن هذه السموات، وهذه الارضين، وهذا الخلق العظيم، والشمس والقمر، والنجوم والسحاب والمطر، وهذه الاشياء التي تكون، لرباً، يدبرها ويصلحها بقدرته، فكيف لي بهذا الرب، فاعبده حق عبادته؟.

فخلا بطائفة من قومه، فجعل يعظهم ويذكرهم ويخوفهم ويدعوهم إلى عبادة خالق هذه الاشياء، فلا يزال يجيبه واحد بعد واحد، حتى صاروا سبعة، ثمَّ سبعين إلى أن صاروا سبعمائة، ثمَّ بلغوا ألفاً، فلمّا بلغوا ألفاً، قال لهم: تعالوا نختار من خيارنا مائة رجل. فاختاروا من خيارهم مائة رجل، واختاروا من المائة سبعين رجلاً، ثمَّ اختاروا من السبعين عشرة من خيارهم، ثمَّ اختاروا من العشرة سبعة، ثمَّ قال لهم: تعالوا، فليدع هؤلاء السبعة، ويؤمن بقيتنا، فلعل هذا الرب - جل جلاله - يدلنا على عبادته.

فوضعوا أيديهم على الارض، ودعوا طويلاً، فلم يتبين لهم شيء، ثمَّ رفعوا أيديهم إلى السماء، فأوحى الله إلى ادريس، ونبأه، ودله على عبادته، ومن آمن معه، فلم يزالوا يعبدون الله، لا

---

(1) عرف الثعلبي في قصص الأنبياء: 46. بإدريس، بمرويات عن وهب، لكن لم يصرح باسمه، فقال: «قال أهل العلم بسير الماضين وقصص الأنبياء: هو إدريس بن بود. وقيل: باد (يارد) بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، واسمه أخنوخ، وسمي إدريس؛ لكثرة درسه الكتب، وصحف آدم وشيث، وكان إدريس أول من خط بالقلم، (عن وهب في العظمة: 5: 1598.) وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، (في المعارف: 552. وعيون الأخبار 1: 102) وأول من نظر في علم النجوم والحساب، بعثه الله إلى ولد قابيل، ثمَّ رفعه إلى السماء».
واسمه بالعبرية حنوك. ومعناه مكرّس أو محنك، وتوجد عدة أسفار غير قانونية منسوبة لأخنوخ، منها سفر أخنوخ الحبشي، وأسرار أخنوخ، أو أخنوخ الثاني، وكتاب أخنوخ. وفي العهد القديم، سفر التكوين 5: 23 - 24. «كانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئةٍ وخمسًا وستين سنةً. وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه». وتعني عبارة «سار مع الله أن حياته مكرسة للعبادة، وعبارة «لم يوجد لأن الله أخذه»أنه لم يمت، بل نقله الله إليه. دائرة المعارف الكتابية 1: 128 -131.

(2) المستدرك على الصحيحين 2: 598. والعظمة 5: 1593.

(3) إلى هنا في قصص الأنبياء للكسائي: 171. والقصة عن وهب بسرد مختصر في المعارف: 21. وهي في بحر العلوم 2: 378.

يشركون به شيئاً، حتى رفع الله إدريس إلى السماء، وانقرض من تابعه على دينه إلا قليلاً، ثمَّ إنهم اختلفوا بعد ذلك، وأحدثوا الأحداث، وأبدعوا البدع، حتى كان زمان نوح[1].

صحف إدريس

وكان إدريس على صورة شيث، وهو أول من خط بالقلم بعد شيث[2]، وأول من كتب بيده من أهل الدنيا، أنزل عليه الكتاب السرياني، وعلمه إياه جبريل، فأول من أنزل الله - تبارك وتعالى - عليه { بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ } في صحيفة، وبعده في الصحيفة مكتوب { شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } سورة آل عمران: 18. ثمَّ أنزل عليه أبجد إلى آخرها، فكتب وقرأ[3].

وكان مشتغلاً بالعبادة حتى بلغ، وانفرد بالعبادة، حتى سبق بها، وفاق جميع من كان في عصره، فجعله الله تعالى نبياً، وأنزل عليه ثلاثين صحيفةً، وورث صحف شيث وتابوت آدم، وكان يعيش بقوته من كد يده، وكان خياطاً، وهو أول من خاط الثياب[4]، فكان كلما غرز غرزةً، يسبِّح الله تعالى، ويقدسه، وما كان يغفل عن التسبيح طرفة عين، حتى أتت عليه أربعون سنةً، فبعثه الله تعالى إلى ولد قابيل رسولاً[5].

وكان أولاد قابيل جبابرةً في الأرض، اشتغلوا بالملاهي والغناء والمزمار، ولم تكن لهم همة، إلا إلى اللهو، وكانوا يفترشون النساء متعةً، فكان النفر منهم، يجتمعون على امرأة، يزنون بها، وكان الشيطان معهم يزين لهم أعمالهم، وكانوا يزنون بالأمهات والأخوات والبنات، وقد اختلط بعضهم ببعضٍ، وكانوا قد اتَّخذوا خمسة أصنامٍ، بتسويل الشيطان لهم، على صورة أولاد

---

(1) علل الشرائع 1: 37. والنبوة: 63. وقد انفرد ابن بابويه بإيراد أحداث، اختصرها غيره في إيراد القصة.

(2) الملوك المتوَّجة من حمير: 29، وتاريخ الرسل والملوك 1: 106.

(3) الملوك المتوَّجة من حمير: 30.

(4) قال وهب: أول من خط بالقلم: إدريس، وهو أول من خاط الثياب ولبسها، وكان الناس من قبله يلبسون الجلود. المعارف: 552. وعيون الأخبار 1: 102. وبحر العلوم 2: 78.

(5) .قصص الأنبياء للكسائي: 172.

قابيل، وهم: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وهذه هي أسماء أولاد قابيل[1].

فبعث الله إليهم إدريس، وأمرهم بعبادة الله، والإقرار بأنه رسول الله إليهم، وكان يدعوهم إلى ذلك، وينهاهم عما هم عليه، وكان، مع ذلك، يقسم الدهر نصفين: ثلاثة أيام، يدعو القوم إلى عبادة الله فيها، وأربعة أيام، كان يعبد الله تعالى[2]، حتى كان ما يصعد له، في كل يوم وليلة، من الأعمال الصالحة، ما لا يصعد لجميع من كان في عصره، من ولد آدم.

وقال: إن إدريس أول من اتخذ السلاح، وجاهد في سبيل الله تعالى، وقاتل بني قابيل، ولبس الثياب، وكانوا قبل ذلك، يلبسون الجلود، وهو أول من أظهر الميزان والمكيال، وعلم النجوم[3].

إدريس الشافع

قال المفسرون[4]: إن الملائكة، لمّا رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة، وذلك في زمن إدريس النبي، عيروهم بذلك، وأنكروا عليهم، وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض، واخترتهم، فهم يعصونك. فقال تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض، وركبت فيكم ما ركبت فيهم، لفعلتم مثل ما فعلوا. قالوا: سبحانك، ربنا، ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. قال الله تعالى: اختاروا ملكين من خياركم، أهبطهما إلى الأرض.

فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم، قال الله تعالى: اختاروا ثلاثة منكم، فاختاروا عزا، وهو هاروت، وعزاريا، وهو ماروت، وعزريائيل[5]. وإنما غير

---

(1) أصل هذه الأصنام يعود إلى مهلاييل أبي إدريس، وذلك أنه قسم أبناء مملكته، بعد أن كثروا، على خمس فرق، فجعل أربع فرق في مهبات الريح الأربع: في الشمال، والجنوب، والصبا، والدبور، وجعل أبناء شيث، الفرقة الخامسة، في منطقة الحرم، وولى على كل فرقة رجلاً من صالحي ذلك العصر، وهم ود ويغوث وسواع ونسر، فلما تُوفي مهلاييل والرجال الخمسة، استوحشهم الناس، وحزنوا عليهم، فصنعوا تماثيل على صورهم من خشب الساج، فكانوا يسكنون إلى رؤيتهم، حتى مرت قرون، فقال الناس: لو عبدناهم، لكانت عبادتنا تقرباً إلى الله، فعبدوهم وتمادوا في ذلك، ولم يزل الناس يعبدونهم حتى مبعث نوح. تاريخ اليعقوبي 1: 21. وبقيت هذا الأصنام آلهةً متوزعةً في المناطق العربية: ود لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل بساحل البحر، ويغوث لبني غطيف، وهم حي من مراد، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير ذي كلاع. تفسير مقاتل 3: 404، والأسماء في جامع البيان 23: 639. وفي قصص اليهود: 134. في عهد اينوخ (أخنوخ) بدأ البشر بجمع الذهب والفضة والجواهر والأحجار الكريمة من انحاء الأرض كافة وصنعوا منها أوثاناً، كان يبلغ ارتفاع الواحد منها ألف فرسخ.

(2) ثلاثة أيام في الصلاة، وحمد الرب، وفي اليوم الرابع يعود إلى حوارييه. أساطير اليهود 1: 129. والتلمود: 70.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 173. وتاريخ الرسل والملوك 1: 106، والبدء والتاريخ3: 12. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 46. معلومات مماثلة هي: «وسمي إدريس؛ لكثرة درسه الكتب، وصحف آدم وشيث، وكان إدريس أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، بعثه الله إلى ولد قابيل، ثمَّ رفعه إلى السماء».

(4) نسب الثعلبي القصة إلى المفسرين. قصص الأنبياء: 48. وهي لوهب، كما في قصص الأنبياء للكسائي: 121.

(5) عن ابن عبّاس في تفسير ابن أبي حاتم 1: 191، وعنه في جامع البيان 2:427، وفيه اثنان من الملائكة.

اسمهما؛ لَمَّا اقترفا الذنب، كما غير الله اسم إبليس، وكان اسمه عزازيل، فركب الله تعالى فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم، وأهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشرك، والقتل بغير الحق، والزنا وشرب الخمر.

فأما عزريائيل، فإنه، لَمَّا وقعت الشهوة في قلبه، استقال ربه، وسأله أن يرفعه إلى السماء، فأقاله ورفعه، وسجد أربعين سنة، ثمَّ رفع رأسه، ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه؛ حياءً من الله تعالى. وأما الآخران، فإنهما ثبتا على ذلك، يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم، وصعدا إلى السماء. قال قتادة: فما مرَّ عليهما شهر، حتى افتتنا، وذلك أنه اختصمت إليهما، ذات يوم، الزهرة، وكانت من أجمل النساء.

فلَمَّا أمسى هاروت وماروت، بعد ما قارفا الذنب، هما بالصعود إلى السماء، فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حل بهما، فقصدا إلى إدريس[1]، فأخبراه بأمرهما، وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى، وقالا له: إنا رأيناك يصعد لك من العبادة، مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض، فاشفع لنا إلى الله تعالى.قال: ففعل إدريس ذلك، فخيرهما الله بين عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا؛ لأنه ينقطع، فهما ببابل يعذبان[2].

قال وهب: أكثر من ويخ آدم [حين عصى أمر ربه، وأكل من الشجرة][3]، يومئذٍ هاروت وماروت، فبليا بخطيئتهما، فهما مسلسلان، يعذبان في بئرٍ، بأرض بابل إلى يوم القيامة، لا يعلم أحد ما خطيئتهما، إلا على رواية بعضهم، إنه لَمَّا كان في أيام إدريس، صاروا إليه، وقالوا له: يا نبي الله، إنه قد كان منا خطيئة، وقد منعنا من الصعود إلى السماء، فنسألك أن تدعو لنا الله حتى يتجاوز عن خطيئتنا، قال إدريس: وكيف لي أن أعلم بالتجاوز عنكما؟، فقالا: ادع لنا، فإن رأيتنا، فهو الإجابة، وإن لم ترنا، فقد هلكنا.

فتوضأ إدريس، وصلى ركعتين، فالتفت إليهم، فلم يرهما، فعلم أن العذاب قد حل بهما[4]، واختطفا من موضعهما إلى أرض بابل من العراق، ثمَّ خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما معلقان في أرض بابل، منكسان هناك على رؤوسهما، إلى يوم القيامة، فلَمَّا نظر الملائكة إليهما، استغفروا لمن في الأرض[5].

---

(1) تشفع الملائكة المخطئين مع أنوش (أينوخ، أخنوخ أو إدريس) بسبب زواج الملائكة بالنساء، وتعليم البشر أعمال السحر وغيره. في قصص اليهود: 134.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 49. وهي في الأصل قصة الملكين عزازيل وشيمهازاي، في أجادوت بريشيت (قصص التكوين): 38. قصص اليهود: 149، 351، وفي الأساطير للشوك: 89.

(3) إضافة للتوضيح.

(4) في قصص اليهود: 134، الملائكة المخطئون مع أنوش (أينوخ، أخنوخ أو إدريس) بسبب زواج الملائكة بالنساء، وتعليم البشر أعمال السحر وغيره.

(5) قصص الأنبياء للكسائي: 123.

إدريس وملك الموت

وكان إدريس شديد الحرص على أن يدخل الجنَّة، وكان قرأ في الكتب أنه لا يدخلها أحد، إلا بعد الموت والبعث، وكان يجاهد قومه في الله تعالى حق جهاده، ويعبد الله تعالى حق عبادته، فبينما هو يسبِّح الله تعالى، إذ عرض له ملك الموت، في صورة رجلٍ، في نهاية الحسن والجمال، فقال له إدريس: من أنت؟، قال له: عبد من عبيد الله تعالى، أعبده مثل عبادتك، وقد أحببت أن أصحبك، فهل تأذن لي في ذلك؟.

فأذن له إدريس، فسارا يومهما، حتى كان آخر النهار، فإذا هم براعي غنمٍ، يرعى أغناماً له، فقال له ملك الموت: لو نأخذ من الغنم شاةً، نذبحها، ونفطر عليها ليلتناً هذه؟، قال له إدريس: كيف نفطر على ما لا يحل لنا؟!، انطلق بنا، فإن الذي صمنا له، لا يتركنا بلا رزق. فلمَّا كان الليل، رزقهما الله طعاماً، فأكل إدريس، ولم يأكل ملك الموت، ثمَّ قاما جميعاً يصلِّيان حتى أصبحا، فكان حالهما في اليوم التالي كذلك، فلمَّا كان اليوم الثالث، قال إدريس لملك الموت: إنك قد صحبتني يومين وليلتين، ولم أرك تأكل شيئاً، وأنت مع ذلك، قوي على العبادة، فقال: إني كذلك منذ كنت، يا نبي الله.

فقال له إدريس: فاخبرني من أنت؟، قال: أنا ملك الموت، فقال: هل صحبتني لتقبض روحي؟، قال: لا، لأن ربي لم يأمرني بذلك، ولو أمرني بذلك، لم أنظرك طرفة عين، لكنه أمرني أن أصحبك، فقال إدريس: إن حاجتي إليك أن تقبض روحي، قال: فما حاجتك إلى الموت، وفيه كرب شديد؟، فقال إدريس: لعل الله يحييني بعد ذلك، فأكون أكثر عبادة لربي، قال ملك الموت: فما مرادك يا نبي الله، في أن تذوق الموت مرتين، دعني ولا تكلفني قبض روحك، إلا بإذن الله، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت أني علمت ما في نفس عبدي إدريس، فاقبض روحه، فقبضها ثمَّ أحياه الله تعالى في الحال.

فكان يجتهد في العبادة، حتى كان أكثر الناس صلاةً وصياماً، وكان ملك الموت يختلف إليه، فقال يوماً لملك الموت: هل تستطيع أن توقفني على جهنم، لأنظر إليها؟، قال: فما حاجتك إلى جهنم، ولها من الأهوال مالا يصبر عليها أحد، ومالي إلى ذلك سبيل، ولكني أحملك إلى مكانٍ قريب منها، والله أعلم بحاجتك.

ثم حمله ملك الموت، حتى أوقفه على طريق مالكٍ، خازن النار، فلمَّا رآه مالك واقفاً، كشر في وجهه، فكادت روح إدريس تزهث منها، فأوحى الله تعالى إلى مالك: وعزتي وجلالي، ارجع بإدريس، وأوقفه على شفير جهنم، وصاح مالك بخزنة جهنم، حتى أقبلوا، فأمرهم مالك بكشف أطباقها، فنظر إدريس إلى تلك الأهوال والأنكال، والعذاب والنيران والقطران، والحيات والعقارب، فلولا أن الله تعالى قواه، لكان صعق من هول ما رأى، فاحتمله مالك، وأوقفه مكانه الذي كان فيه، وجاء ملك الموت فاحتمله إلى الأرض، وعاش يعبد الله تعالى، ولا

تكتحل عيناه بالنوم، ولا يهنأ بالعيش؛ خوفاً من عذاب الله تعالى.

وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، فقال يوماً لملك الموت: هل لك أن تدخلني الجنَّة، حتى أنظر إليها، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها؟، فقال له ملك الموت : يا نبي الله، اعلم أن الجنَّة لا يدخلها أحد قبل الموت، وأن أهل الجنَّة لا يموتون، ولكن حاجتك إلى الله تعالى، غير أني أجلسك على طريق رضوان، خازن الجنَّة، فاسأله حاجتك.

ثم إنه فعل به ذلك، فأقبل إليه رضوان، ومعه نفر من الملائكة، فنظر إلى إدريس، فقال للملك الموت: من هذا؟، قال: هذا إدريس النبي من أهل الجنَّة، وقد جاء ينظر إلى نعيم الجنَّة، ليجهد نفسه في عبادة الله تعالى، فقال رضوان: ذلك إلى ربي، فأوحى الله تعالى إلى رضوان: قد علمت ما في نفس عبدي إدريس، وقد أمرت غصناً من شجرة طوبى، أن يدنو إليه، فيلتف به، ويدخله الجنَّة، فإذا دخلها يا رضوان، فاقعده على أعلى موضعٍ منها.

فلمّا دخل الجنَّة، ورأى ما فيها من النعيم، قال له رضوان: اخرج من الجنَّة، فقال له إدريس: لن يدخل الجنَّة من يخرج منها، فحاجه في ذلك، ثمَّ أرسل الله تعالى إليه ملك الموت ، فقال له: قد قبضت روحي، فأحياني الله تعالى، وما لك علي سبيل، وقد دخلت جهنم، ورأيت ما فيها، وكان ذلك حتماً على عباد ربي، إذ يقول: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كان عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا } سورة مريم: 71.

فرجع ملك الموت إلى ربه، فقال: يا رب، إن إدريس حاجني بكلام في الموضع الذي ما لي إليه سبيل، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت: أن عبدي إدريس حاجك بكلامي، فذره في جنتي، ولا تعارضه، فبوأ سبحانه إدريس في أعلى الجنَّة[1]، بإذن ربه، وهو أبو جد نوح[2]، ورفع، وهو ابن ثمانمائةٍ وخمسٍ وستين سنةً[3].

---

(1) علل الشرائع 1: 37. والنبوة: 63.وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 47 عن وهب.

(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم 2: 598. يدعى إدريس إلى الصعود إلى السماء؛ ليكون ملكاً على ملائكة السماوات، ويصعد ويرى طبقات السماوات، وفي السماء الثالثة يرى الجنَّة وما فيها. قصص اليهود: 160، 349، والنص في كتاب «الزوهار»، وهو من كتب «القبالا»(التصوف اليهودي). موسوعة اليهود 5: 181، وقصة رفعه في سفر أخنوخ الثاني: 162.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 175. الملوك المتوَّجة من حمير: 29، وعن وهب في جامع البيان 11: 509، وتاريخ الرسل والملوك 1: 107.

نوح

ولمَّا رفع الله إدريس، استخلف ابنه متوشالح، فعمل متوشالح بأمر الله، وحكم بحكم الله، حتى بلغ المدة التي علم بها آدم[1]، فأوصى إلى ابنه لامك، فبنى المصانع وتجبر، واحتجب، فلمَّا رآه بنوه كذلك، فعلوا كفعله ونافسوه ودافعوه، فعاش لامك تسعمائة سنة وسبعاً وسبعين سنة، ثمَّ قبضه الله[2]، ومرج الناس، وطغى بعضهم على بعض، فبعث الله نوح بن لامك[3]، بعد إدريس[4].

[وكان نجاراً، إلى الأدمة ما هو، دقيق الوجه في رأسه طول، عظيم العينين، غليظ العضدين، دقيق الساقين، كثير لحم الفخذين، دقيق الساعدين، ضخم السرة، طويل اللحية عريضها، طويلا جسيما، وكان في غضبه وانتهاره شدَّة، فبعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة][5].

مبعث نوح

قال وهب[6]: أمرَ الله جبريل أن يهبطَ على نوح، ويبشِّره بالنُّبوَّة والرسالة إلى قومه، فهبط جبريل وقال: السَّلام عليك يا نوح، فقال: وعليك السَّلام، مَن أنت، أيُّها الشخص البهي؟،

---

(1) معنى متوشالح رجل الرمح، أو عابد الإله، دائرة المعارف الكتابية 7: 82. وفي العهد القديم، سفر التكوين 5: 27. «كانت كل أيام متوشالح تسع مئةٍ وتسعًا وستين سنةً».

(2) معنى لامك شاب قوي، وقد اتَّخذ زوجتين، الأولى عادة، والأخرى صلة، وقد ولدت عادة يابال الذي كان اباً لساكني الخيام ورعاة المواشي، وأخاه توبال الذي كان اباً لكل ضارب عود، وعازف مزمار، وولدت صلة توبال قاين الذي كان ضارباً على آلات النحاس والحديد، وأخته نعمة، كان لامك رجلاً عنيفاً عاتياً، يتكل على أسلحة النحاس والحديد التي اخترعها أولاده، وقد أصبحت إلهه الذي يتكل عليه. دائرة المعارف الكتابية 7: 10. وهناك لبس بين شخصيتين بالاسم نفسه، لكن الأوصاف المعطاة في رواية وهب ترجح ما أثبتناه. وفي العهد القديم، سفر التكوين 5: 31. «كانت كل أيام لامك سبع مئةٍ وسبعًا وسبعين سنةً».

(3) في المعارف: 21. تلخيص، وهو «ولد لإدريس متوشلخ، على ثلاثمائة سنة من عمره، وولد لمتوشلخ لمك. وولد للمك غلام، فسماه نوحاً».

(4) الملوك المتوَّجة من حِمير: 30. وقال الثعلبي. قصص الأنبياء: 50. «هو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ هو إدريس بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث». ولم ينسب القول لوهب، وكان الطبري قد نسبه إليه. جامع البيان 17: 509. وهو كذلك في الملوك المتوَّجة من حِمير: 383. والأصل في العهد القديم، سفر التكوين 5: 29. ولمك لامك، ومتوشلخ متوشالح، وأخنوخ بن يارد. تفصيل مرج الناس وطغيانهم أن نسل قايبل كان يشبه أباه في الخطيئة والفسوق، بينما اتسمت حياة نسل شيث بالتقوى والفضيلة، ولكن في عهد متوشالح فسدت عائلة شيث؛ لتأثرها بنسل قايبل، من خلال التزاوج بينهما، فعاش الجيل الجديد في حالة من الترف، ونتيجة لتزاوجهم الضخم نشأوا متغطرسين متجبرين على الرب، وقد تمكنوا بالسحر من إجبار الشمس والقمر على خدمتهم، ولم يكن بمقدور العفاريت والشياطين المساس بهم، وكان سلوكهم سلوك الأشرار، فكانوا يمارسون النهب والسلب، وغير ذلك. مدراش بريشيت رابا 26: 5. و31: 3 – 5.

(5) المعارف: 21. و البدء والتاريخ 3: 16.

(6) قصص الأنبياء للكسائي: 183 – 185 .

فقال: أنا جبريل، جئتك بالرسالة من عند ربِّك، وإنَّ ربَّك يقرئك السَّلام، وقد جعلك نبياً ورسولاً إلى قومك، ثمَّ دنا منه، فألبسه لباس المجاهدين، وعمَّمه بعمامة النصر، وقلَّده بسيف البهاء، ثمَّ قال له: سِر إلى درمشيل بن عويل، وادعُه وقومَه إلى عبادة ربِّك، ثمَّ تركه جبريل، وعرجَ إلى السَّماء.

صحيفتا نوح

[فدعا الناس والجنَّ إلى طاعة الله، وأنزل الله عليه صحيفتين بكتابين، ودعاهم إلى ما في الصحف، فعصوه، وارتفع عنهم الغيث فقال لهم: { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كان غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ } سورة نوح: 10 – 12. قال وهب: وأوحى الله إلى نوح: { فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } سورة هود: 36. فإن حكم الله نافذ إلى يوم الوقت المعلوم][1].

فأقبل نوحٌ إلى قومه في يومه ذلك، وهم يومئذٍ، في عيدٍ لهم عظيم، سنَّه لهم أبوهم قابيل، وكانوا يُخرجون فيه جميعَ أصنامهم، وينصبونها على أسرَّتها وكراسيها، ويقرِّبون لها القرابين، ويحرقونها بالنَّار، فإذا احترقت، خرُّوا لها سجَّداً، ثمَّ يشربون الخمر، ويضربون الصُّنوج، ويرقصون ويواقعون النِّساء، كالبهائم من غير سترة، فجاء إليهم نوح في ذلك اليوم، وهم يزيدون على سبعينَ زمرةً، كلُّ زمرة لا يُحصون كَثْرَة، فوقف عليهم، ورفع رأسَه إلى السَّماء، وقال: إلهي، أسألك أن تنصرني عليهم، ثمَّ إنَّه خوَّفهم وهدَّدهم، بعدأن صار في وسطهم، فلمَّا أرادوا أن يسجدوا للصَّنم، وضع إصابعَه في أذنيه، ونادى: أيُّها القوم، إنِّي جئتكم بالنَّصيحة من عند ربِّكم، لترجعوا إلى عبادتِهِ وطاعته، وأنهاكم عن عبادة هذه الأصنام، { فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ } سور الشُّعراء: 108.

قال: فخرَّت الأصنام من على كراسيها، وفُزعت من نداء نوح، وقد طرقت دعوتُه الأسماع كلَّها، من المشرق والمغرب، وفزع القوم من نداء نوح فزعاً شديداً، وسقط درمشيل عن سريره، مغشيَّاً عليه، فلمَّا أفاق، جلس عليه، ثمَّ قال: يا أولاد قابيل ، ما هذا الصُّوت الذي لم أسمع بمثله؟ !، فقالوا: هذا صوت رجل منَّا، يقال له: نوح بن لامك، وكان غائباً عنَّا لجنونٍ به، والآن اشتدَّ جنونه، فيقول ما يقول، ويدعو إلى الإيمان بربِّه، وينهى عن عبادة هذه الأصنام، فغضب درمشيل، وقال: ائتوني به، فبدر أعوانُه إليه، وأتوا به، بعد أن نالوا منه بالضَّرب الشَّديد.

فقال له: من أنت؟، ويلك !، فقد ذكرت آلهتنا بسوء، قال: أنا نوح بن لامك، رسولُ ربِّ العالمين، جئتكم بالنصيحة من عند ربِّكم، لتؤمنوا بالله ورسوله، وتتركوا هذه الأصنام، وتنتهوا عن هذه القبائح، فقال الملِك درمشيل : إنَّك قد جئتنا يا نوح، بما لا نعرفه، وإنَّا لا نعتقد إنَّك عاقل، فإن كان بك جُنَّة، داويناك، وإن كنت فقيراً، واسيناك، فقال نوح: يا قومِ، ما بي جنون،

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 30.

ولا حاجة لي بها في أيديكم، فإنَّ المُلْك لله، ولكن حاجتي منكم أن تقولوا: لا إله إلا الله، وإنِّي نوح رسولُ الله، فغضب درمشيل، وقال: يا نوح، إنَّ هذا يوم عيدنا، ولولا أنَّا نستقبح القتل، لقتلتك فيه أشدَّ قتلةٍ، حتى لا يجسر أحدٌ على هذه الكلمة.

قال: فآمنت به، في ذلك اليوم، امرأةٌ، يقال لها عمرة[1]، فتزوَّجها نوح، فأولدها ثلاثَ بنين: ساما وحاما ويافث، وثلاثَ بنات: حصورة وسورة ومحبورة، ثمَّ آمنت به امرأة من قومه، يقال لها: والعة بنت محاويل، فتزوَّجها نوح، فأولدها ابنَه كنعان[2]، ثمَّ إنها نافقت، فرجعت إلى دينها الأوَّل، وكان نوح يخرج كلَّ يوم، ويقف في أندية القوم، فيدعوهم إلى عبادة الله والكفِّ عن معصيته، وكان درمشيل خلَّى سبيله على أنَّه مجنون.

فكان القومُ يخرجون من بيوتهم، ويضربونه حتى يُغشى عليه[3]، ثمَّ يجرُّونه من رجله، ويلقونه على المزابل، فيفيق فيعود إلى دعوته، فيعاملونه كذلك، حتى أتت عليه ثلاثةُ قرون، والقرن مائة سنة، وهو يجاهدهم، ويدعوهم إلى الله وإلى عبادته، وكان النِّساء والصِّبيان يجتمعون عليه بالضَّرب، حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق، قام ومسح وجهه، وتوضَّأ وصلَّى وقال: وعزَّتِك وعظمتِك، لا ازددتُ على ما يصيبني منهم إلاّ صبراً.

صناعة السفينة

[فلمَّا عزم نوح على اتخاذ السفينة، دعا بتابوت فيه آلات النَّجَّارة، من منشار وقادوم ومثقاب وغيره، وكان قد أوحى الله تعالى إليه: أن يتخذ السفينة في ديار قومه، وأن يجعلها ألف ذراع طولاً، وخمسمائة ذراع عرضاً، وثلاثمائة ذراع سمكاً[4]، فكان ينشر الخشب على مثال الألواح، ويلصق بعضها ببعض، ويسمرها بالمسامير، وكانت الألواح والمسامير، كل واحد منهما، على اسم نبي، فيقال إنها كانت كلها، تضيء على مثال ضياء الكواكب، إلا ما كان منها على اسم نبينا محمدٍ ، فكان ذلك على مثال نور الشمس والقمر. وكان نوح يبني السفينة، ويعينه أولاده وقومه من المؤمنين على بنائها، والناس كلما مروا به، يسخرون منه، ويقولون: بعد النبوة صرت نجاراً، وإننا نشكو القحط، وأنت تبني للغرق][5].

فأقام نوح يدعو الثقلين الجن والإنس ألف سنة إلا خمسين عاماً، فكان الآباء يوصون الأبناء بتكذيبه ويقولون لهم: لا تطيعوا هذا الشيخ الكذاب فانا أدركنا سلفنا يكذبونه، فأوصى الأبناء

(1) نعمة بنت إينوش. وهي في مدراش بريشت رابا: 32، 6، وفي فصول الحاخام اليعاز: 23. قصص اليهود: 157، 352.

(2) كنعان بن حام بن نوح هو حفيد نوح، وليس ابنه. قاموس الكتاب المقدَّس: كنعان.

(3) قِصَص الأنبياء للثَّعلبيّ: 47 .

(4) العهد القديم سفر التكوين 6: 15 – 16.

(5) قصص الأنبياء للكسائي: 188.

أبناء الأبناء بتكذيبه، [ثمَّ إن نوحاً دعا ربه أن يأذن له في الحج، فأذن الله له في ذلك، فلمّا خرج إلى الحج، هم القوم بإحراق السفينة، فأمر الله الملائكة أن يحملوها، فاحتملوها إلى الهواء، فكانت هناك معلقة بين السماء والأرض، والقوم ينظرون إليها، ولا يقدرون عليها. فلمّا فرغ نوح من حجِّه، دعا على قومه هناك، وأمنت الملائكة على دعائه، فاستجاب الله دعوته، فذلك قوله تعالى: { وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } سورة الأنبياء: 76.

فلماً قضى مناسكه، التفت، فإذا هو بتابوت آدم عن يمين الكعبة، فسأل ربه تعالى في ذلك التابوت أن يحمل إلى منزله، فأوحى الله للملائكة أن تحمله إلى داره، وكانت يومئذ، في مسجد الكوفة، ثمَّ رجع نوح من الحج، وأنزلت السفينة من الهواء][1]، فكلما طاف الأرض يبلغ حجة الله، فيأتيه وقت الحج، فيرجع إلى البيت الحرام فيحج، فلمّا رأوه يفعل ذلك، قالوا: لو هدمتم بيت نوح، لكف عنكم. فأتمروا بهدم البيت، وخراب المسجد الحرام، فهدموا البيت، وخربوا آثار المسجد الحرام.

في السفينة

فأوحى الله إلى نوح فقال له جبريل: يا نوح، السلام يقرئك السلام، يا نوح، اشتدَّ غضب الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين، لا ملجأ ولا منجا لأهل الأرض من العذاب. احمل في السفينة { مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ } سورة المؤمنون:27. فإذا رأيت التنور، فاركب أنت ومن معك. وكان الذي آمن معه سبعين رجلاً، قال الله: { وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } سورة هود: 40. فلمّا رأى التنور، ركب بالسبعين رجلاً بلا نساء معهم، وركب بنوه: سام وحام ويافث، ونساؤهم، وقد كن قد آمن، ثمَّ رفعت الأرض ماءها[2].

[ثمَّ أوحى الله تعالى إلى نوح، أن ينادي في الوحش والسباع والطير والهوام والأنعام، حتى تبلغهم صوتك، فوقف نوح على سطح بيته، ثمَّ نادى: أيتها الوحوش الراعية، والهوام الهائمة، والسباع الضارية، والأنعام المتفرقة، والطيور الطائرة، هلموا إلى السفينة المنجية. فبلغت دعوته الشرق والغرب، والسهل والجبل، فأقبلت إليه، فوجاً فوجاً. قال نوح: إنما أمرت أن أحمل من كلٍّ زوجين اثنين، فلمّا قال ذلك، أقرع بينهم، فكل من أذن الله في حمله، أصابته القرعة[3]، إلا ما كان من بني آدم، فإنهم كانوا ثمانين إنساناً، من بين رجلٍ وامرأة.

وكانت الحيَّة يومئذٍ، عظيمة الخلق، وكذلك العقرب، حتى كان الأسد كالفيل، فضرب

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 192 ؛

(2) الملوك المتوَّجة من حِمير: 31.

(3) كان عدد الطيور والحيوانات التي قدمت إلى الفلك أكبر مما كان مطلوباً، فأمر الرب نوحاً بالجلوس بجوار باب الفلك، وكلفه بملاحظة أي الحيوانات تجلس عند وصولها إلى مدخل الفلك، وأي منها يكتفي بالوقوف، وأمره بإدخال التي جلست فقط. قصص اليهود: 156.

جبريل جناحه على الأسد، وقال: لا زلت موعوكاً محموماً، وضرب على فم الحيَّة، فأسقط أنيابها، وضرب العقرب، فقطع ذنبها، حتى لا تضرب به على بني آدم في السفينة، وكان ميعاد الغرق، إذا فار التنور، وكان نوح ينتظره، فلمَّا كان مستهل رجب، نودي من التنور، وقت الظهيرة: قم يا نوح، فاحمل في سفينتك، فعندها حمل من كلٍّ زوجين اثنين][1].

ولَمَّا أمر الله تعالى نوحاً أن يحمل من كلٍّ زوجين اثنين، قال: كيف أصنع بالأسد والبقر؟، وكيف أصنع بالعناق[2] والذئب؟، وكيف أصنع بالحمام والهرة؟. قال الله تعالى له: من ألقى بينهم العداوة؟. قال: أنت يا رب. قال: فأنا أؤلف بينهم حتى لا يتضاروا[3]. فحمل نوح السباع والدواب في الطبقة الأولى، فألقى الله على الأسد الحمى، وشغله بنفسه عن الدواب والبقر[4]، وجعل الوحوش في الطبقة الثانية، وركب هو، ومن معه من أولاد آدم، في الطبقة العليا[5]، وجعل الذرة معه في الطبقة العليا؛ شفقةً عليها، لئلا يقتلها شيء[6].

ولما ركب نوح السفينة، ألقى الله تعالى السكينة على ما فيها، من الدواب والطير والوحش، فلم يكن شيء منها يضر شيئاً، كانت الشاة تحتك بالذئب، والبقرة تحتك بالأسد، والعصفور يقع على الحيَّة، فلا يضر شيء شيئاً، ولا يهيجه، ولم يكن فيها ضجر ولا صخب، ولا سب ولا لعن، قد أهمتهم أنفسهم، وأذهب الله تعالى حمة كل ذي حمة[7]، فلم يزالوا كذلك في السفينة، حتى خرجوا منها، وكان الفأر قد كثر في السفينة، والعذرة[8]، فأوحى الله تعالى إلى نوح أن يمسح الاسد، فعطس فخرج من منخريه هران، ذكر وأنثى، فخففا الفأر، ومسح وجه الفيل فعطس فخرج من منخريه خنزيران، ذكر وأنثى، فخففا العذرة[9].

كنعان

وهرب ابن نوح الرابع إلى جبل، فقال له نوح: { يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } سورة هود: 42 – 43[10].

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 192.
(2) الأنثى من المعز. لسان العرب: ظأب.
(3) بحر العلوم 2: 150.
(4) في أساطير اليهود 1: 154 أن الأسد عانى من الحمى طوال الوقت، ولذا لم يزعج الآخرين.
(5) العهد القديم، سفر التكوين 6: 15 – 16.
(6) قصص الأنبياء للثعلبي: 53.
(7) الحمة ما تلسع به العقرب.
(8) العذرة الخرء. لسان العرب: خرء.
(9) علل الشرائع 2: 290.
(10) لنوح ثلاثة أولاد فقط.

فآوى ابن نوح إلى جبل، وهربت معه امرأة باينها، فلمَّا طما الماء على قنن الجبال، وأخذها الماء، جعلت المرأة ابنها على رأسها، فلمَّا ألجمها الماء، جعلت ابنها تحت رجليها، لتنجو، ثمَّ علاها الماء، فغرقا وغرق ابن نوح، فأوحى الله إلى نوح: لو كنت أرحم منهم أحداً، لرحمتُ أم الطفل[1].

الطوفان

ثم انهمرت السماء بماء منهمر، والتقى الماءان: ماء الأرض وماء السماء. قال الله: { فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } سورة القمر: 12. ولو أنزل الله ماء السماء على الأرض، لأغرقها ولكنهما التقيا في الهواء، ودار الماء على البيت، وعلى المسجد، فلم يعد وبقي ما فوقه هواء، وأنه لمَّا آن وقت الحج، قذفت الرياح السفينة إلى البلد الحرام، فطاف نوح بالبيت أسبوعاً[2].

ثمَّ قال نوح لبنيه: إنكم في حج، فاعتزلوا النساء فجعل نوح النساء بمعزل وجعل دون النساء رماداً وإن حام جاز إلى امرأته ليلاً فوطئها فلمَّا أصبح نوح رأى الأثر في الرماد قال: من جاز إلى النساء؟. قالوا: لا نعلم من جاز. وكتمه حام. فقال نوح: اللهم، سود وجهه ووجه ذرية من عصى ووطئ أهله. فولدت امرأة حام غلاماً أسود فسماه، كوشاً[3]، فعلم أن الدعوة

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 31. وفي جامع البيان 15: 310 عن عائشة زوج النبي: أن رسول الله قال: لو رحم الله أحدًا من قوم نوح لرحم أم الصبي!. قال رسول الله: كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمانه غرس شجرةً، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثمَّ قطعها، ثمَّ جعل يعمل سفينة، ويمرون فيسألونه، فيقول: أعملها سفينة؟!. فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينةً في البر فكيف تجري؟!. فيقول: سوف تعلمون. فلما فرغ منها، وفار التنور، وكثر الماء في السكك، خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حبا شديدًا، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه. فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل. فلما بلغها الماء خرجت، حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بين يديها، حتى ذهب بها الماء. فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبي. وأورده الثعلبي. قصص الأنبياء: 54.

(2) الملوك المتوَّجة من حِمير: 32. في قصص الأنبياء للكسائي: 194. «وسارت السفينة، حتى بلغت بيت المقدس، فوقفت ونطقت بإذن الله وقالت: يا نوح، هذا موضع بيت المقدس الذي تسكنه الأنبياء من ولدك، ثمَّ ضربت حتى صارت إلى موضع الكعبة، فطافت سبعاً». وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 54. «قالو: ثمَّ طافت السفينة بأهلها، الأرض كلها في ستة أشهر، لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم، فلم تدخله، ودارت بالحرم أسبوعاً، وقد رفع الله البيت الذي كان يحجه آدم؛ صيانةً له من الغرق، وهو البيت المعمور، وخبأ جبريل الحجر الأسود في جبل أبي قبيس. فلما طافت السفينة بالحرم، ذهبت في الأرض تسير بهم، حتى انتهت إلى الجودي، وهو جبل حصين من أرض الموصل، فاستقرت عليه». وهو يقصد بـ«قالوا»: وهب بن مُنبِّه.

(3) كوش بن حام سيكون أباً للنمرود في قصة إبراهيم، وهذا ربط متسلسل تبدو فيه القصص قصة واحدة.

أدركته[1].

على الجودي

أقام الماء على الأرض أربعين عاماً[2]، ثمَّ أمر الله السماء، فأقلعت ماءها، وأمر الأرض، فبلعت ماءها، ونزلت السفينة بنوح على الجودي[3]، فقال: { بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } سورة هود: 44[4]. وخرج نوح إلى الأرض في عشر خلون من المحرم. وإن نوحاً دخلَ الفلك وولده الثلاثة: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، وأربعون رجلاً، وأربعون امرأة من المسلمين، فلمَّا خرجوا، بنوا قرية سموها: ثمانين، لأنه كان فيها ثمانون بيتاً، لكلِّ نفس ممن آمن معه بيت، فهي اليوم تسمى: سوق ثمانين، وقرب قرباناً، وصام شهر رمضان، وهو أول من صامه[5].

إبليس والجن في الطوفان

وإن أهل الكتاب يقولون: إن ابليس عُمِّر زمانَ الغرق كلَّه في الجو الاعلى، يطير، بين السماء والارض، بالذي أعطاه الله تبارك وتعالى من القوة والحيلة، وعمرت جنوده في ذلك الزمان، فطفوا فوق الماء.

وتحولت الجنُّ أرواحاً، تهب فوق الماء، وبذلك توصف خلقتها بأنها تهوى هوى الريح، وإنما سمي الطوفان طوفاناً؛ لأن الماء طفا فوق كل شيء، فلمَّا هبط نوح من السفينة، أوحى الله إليه: يا نوح، إنني خلقت خلقي لعبادتي، وأمرتهم بطاعتي، فقد عصوني، وعبدوا غيري،

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 32. هناك تعليل آخر لدعوة نوح على حام، وهو أن نوحاً أقبل نوح يوماً على بنيه، فقال: يا بني، إني لم أتهنأ بالنوم، منذ ركبت الفلك، وإني أحب أن أنام نومةً، أشبع منها، فوضع رأسه في حجر ابنه حام ونام، فهبت الريح، فكشفت عن سوءة أبيه، فضحك حام من ذلك ضحكاً كثيراً، وغطى سام سوءة أبيه، فانتبه نوح، فقال: ما هذا الضحك؟ !. فأخبره سام بما كان، فغضب على حام، وقال: أتضحك من سوءة أبيك؟ ! غير الله خلقك، وسود وجهك، فاسود وجهه من ساعته، ثمَّ التفت إلى سام وقال: سترت سوءة أبيك، ستر الله عليك في الدنيا، وغفر لك في الآخرة، وجعل نسلك الأنبياء والأشراف، وجعل من نسل حام الإماء والعبيد الى يوم القيامة، ومن نسل يافث الجبابرة، والأكاسرة، والملوك العاتية. قصص الأنبياء للكسائي: 198. وقد تمت إعادة صياغة القصة بمنظار إسلامي، إذ القصة، في الأصل، تتنافى مع تنزيه الأنبياء، وهي: «وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا، وشرب من الخمر، فسكر وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجًا، فأخذ سام ويافث الرداء، ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان!، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدًا لهم. ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سامٍ، وليكن كنعان عبدًا لهم». العهد القديم، سفر التكوين 9: 20 – 27.

(2) هطل المطر أربعين يوماً، وأربعين ليلة بقوة هادرة. التلمود: 75.

(3) الجودي جبل مختلف في موضعه. جامع البيان 15: 337، وهو جبل أرارات. الأساطير للشوك: 99. ويقع حالياً في تركيا، قرب حدودها من إيران وأرمينيا.

(4) الملوك المتوَّجة من حِمير: 32.

(5) المعارف: 23 – 24.

واستوجبوا بذلك غضبي فأغرقتهم، وإني قد جعلت قوسي أماناً لعبادي وبلاي، وموثقاً مني بيني وبين خلقي، يأمنون به إلى يوم القيامة من الغرق، ومن أوفى بعهده مني. ففرح نوح بذلك[1] وتباشر، وكانت القوس فيها سهم ووتر، فنزع الله السهم والوتر من القوس، وجعلها أماناً لعباده وبلاده من الغرق[2].

الغراب والحمامة

كان مع نوح في السفينة ملكان، فلمّا قال الله للسماء: {يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي} سورة هود: 44. قالا لنوح: ابعث طيراً، يأتيك بخبر الأرض. فبعث نوح الغراب، فوجد جيفةً، طفت على الماء، فاحتبس عليها يأكل منها، فلمّا أبطأ، بعث الحمامة، فلم تلبث أن أقبلت، ومعها ورقة زيتونة[3]، فقال له الملكان: اردها، تأتك بطين. فرجعت إلى المكان، فوجدت بأعلى الجودي مكاناً من الأرض، يحسر عنه الماء مرة، ثمَّ ينطبق عليه، فأخذت منه طينةً، فذهبت بها إلى نوح، فقالا له: اعرف وزنها، فإنها قد أتتك بميزان الأرض كلها، واقسمه بين بنيك، وأقرع بينهم بالسهام. فمن يومئذٍ كانت السهام، ومعرفة الميزان. فخرج سهم يافث، فأخذ منها بكفه ما أخذ، ثمَّ خرج سهم سام وحام، وقسمت الأرض لهم أثلاثاً[4].

غرس العنب

ولمّا خرج نوح من السفينة، غرس قضباناً، كانت معه في السفينة، من النخل والأعناب وسائر الثمار، فأطعمت من ساعتها، وكانت معه حبلة العنب[5]، وكانت آخر شيء أخرج، فلم يجدها، وكان ابليس قد أخذها، فنهض نوح، ليدخل السفينة، فيلتمسها، فقال له الملك الذي معه: اجلس: يا نبي الله، ستؤتى بها. فجلس نوح، فقال له الملك: إن لك فيها شريكاً، في عصيرها، فأحسن مشاركته. فقال: نعم، له السبع ولي ستة أسباع. قال له الملك: أحسن فأنت محسن. قال نوح: له السدس ولي خمسة أسداس. قال له الملك: أحسن فأنت محسن. قال نوح: له الخمس ولي الأربعة الأخماس. قال له الملك: أحسن فأنت محسن. قال نوح: له الربع ولي ثلاثة أرباع. قال له الملك: أحسن فأنت محسن. قال: فله النصف ولي النصف. قال له الملك: أحسن فأنت محسن. قال: لي الثلث وله الثلثان. فرضي، فما كان فوق الثلث من طبخها، فلإبليس، وهو

(1) في قصص الأنبياء للكسائي: 196. سرد آخر.

(2) علل الشرائع 1: 40.

(3) سرد مختصر في بحر العلوم 2: 149. والقصة في سفر التكوين 8: 11. وفي فصول الحاخام إليعازر: 23. قصص اليهود: 161، 354. والأساطير للشوك: 99.

(4) الأنساب للصحاري: 22.

(5) القضيب من شجر الأعناب. لسان العرب: حبل.

حظه، وما كان من الثلث فما دونه، فهو لنوح، وهو حظه، وذلك الحلال الطيب؛ ليشرب منه(1).

وصية نوح

فلمّا حضرته الوفاة، دعا ابنه ساماً من بين أولاده، وقال: إني أوصيك يا بني، باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، فأما اللتان أوصيك بهما، فإحداهما شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تخرق السماوات السبع، ولا يحجبها شيء، ولو وضعت السماوات والأرض وما فيهما في كفة، ووضعت هي في الأخرى، لرجحت عليها، والثانية أن تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، فإنها جامعة الثواب، وأما اللتان أنهاك عنهما، فالشرك بالله، والاتكال على غير الله(2).

وفاة نوح

فلمّا فرغ من ذلك، أتاه ملك الموت، فقال: السلام عليك. فارتعد نوح منه، فقال: وعليك السلام، من أنت أيها الشخص؟، فقد ارتاع قلبي من كلامك وسلامك. فقال: أنا ملك الموت، جئتك لقبض روحك، فتغير وجهه، وتلجلج لسانه، فقال له ملك الموت: يا نوح، ما هذا الجزع، أفلم تشبع من الدنيا مع طول عمرك؟ !، فقال له نوح: يا ملك الموت، ما شبهت الدنيا، وما مضى من عمري فيها إلا بدارٍ، لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر، فالتفت نوح عن يمينه وشماله، لم ير أحداً من أولاده، فناوله ملك الموت كأساً، وقال له: اشرب هذا يسكن روعك. فتناوله نوح فشربه، فلمّا استوفاه، خرَّ ميتاً(3).

وكان بين موت آدم إلى أن غرقت الأرض، ألفا سنةٍ ومائتا سنة واثنتا وأربعون سنة(4). وقال: كان عمر نوح ألف سنة، لأنه بعث إلى قومه، وهو ابن خمسين سنة، ولبث فيهم يدعوهم إلى أن مات بعد تسعمائة وخمسين سنة(5).

وعاش نوح بعد الطوفان خمسمائة عام(6)، وإن السبعين رجلًا الذين كانوا معه في السفينة ماتوا بلا عقب، وإنما أعقب بنو نوح الثلاثة: سام وحام ويافث، فولد سام ارفخشد وإرم وبنين كثيراً، درجوا ودرج أبناؤهم، فولد أرم: عوص، فولد عوص عاد الأكبر(7)، وولد عابر بن أرم

---

(1) علل الشرائع 2: 261. والقصة والحوار في مدراش بريشيت رابا 36: 3.قصص اليهود 163، 355. واسم الملك ساماثيل في الأساطير للشوك: 112 . وهو من الملائكة الساقطين.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 199. وقصص الأنبياء للثعلبي: 56. باختلاف طفيف.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 200. وقصص الأنبياء للثعلبي: 56.

(4) المعارف: 23 – 24. وهو في قصص الأنبياء للكسائي: 200.

(5) المعارف: 24. وهو في قصص الأنبياء للكسائي: 200.

(6) بحر العلوم 2: 146.

(7) في عاد ستكون قصة النبي هود.

ثموداً[1].

حام

قال: إن حام بن نوح كان رجلاً أبيض، حسن الوجه والصورة، فغير الله لونه، وألوان ذريته من أجل دعوة أبيه، وإنه انطلق وتبعه ولده، فنزلوا على ساحل البحر، فكثرهم الله وأنماهم، وهم السودان، وكان طعامهم السمك، فحددوا أسنانهم حتى تركوها مثل الإبر، لأن السمك كان يلصق بها، ونزل بعض ولده المغرب، فولد حام: كوش بن حام، وكنعان بن حام، وقوط بن حام، فأما قوط بن حام، فسار فنزل أرض الهند والسند، فأهلها من ولده، وأما كوش وكنعان، فأجناس السودان والنوبة والزنج والفزان والزغاوة والحبشة والقبط والبربر من أولادهما[2].

قال كعب ووهب[3]: لمَّا تُوفِّي نوح واقع ولده حام امرأته، ففتح الله تعالى مرارته، ومرارة امرأته، حتى اختلطت نطفتاهما، فحملت وولدت غلاماً أسود، وجارية سوداء، فأنكرهما حام، فقال: ما هما مني !، فقالت زوجته: هما منك، لكن لحقتك دعوة أبيك، في الوقت الذي دعا عليك، فولدت ما ترى. فلم يقربها حيناً، حتى شب ولده، ثمَّ واقعها، فولدت ذكراً أسود، وأنثى سوداء، فترك حام امرأته، ومضى هائماً على وجهه، فلمّا كبر الولدان الأولان، خرجا في طلب أبيهما، فسارا حتى بلغا قريةً على شط البحر، فنزلاها.

وألقى الله تعالى على الغلام الشهوة، حتى واقع أخته، فحملت منه، فأقاما في تلك القرية، ليس لهما طعام إلا السمك، يصطادانه من البحر، ثمَّ ولدت من أخيها غلاماً وجارية، ورجع حام في طلب الولدين، فلم يجدهما، فلم يلبث أن مات من الغم على فقدهما، وماتت امرأته أيضاً، فأخذ ولداها الأخيران في طلب أخويهما، فلحقاهما، ونزلا معهما، ووطأ كل واحد منهما أخته، فكلما حملت واحدة، وضعت ولدين ذكراً وأنثى، حتى كثروا، وانتشروا على ساحل البحر، فمنهم النوبة والزنج والبربر والسند والهند، وجميع السودان من ولد حام[4].

يافث

وأما يافث بن نوح، فإنه سار إلى الشمال، فولد له هناك، خمسة أولاد: جوهر (جومر)، وتبرش (تيراس)، وأسان (ياوان)، وسقويل (توبال)، ومناشح (ماشك)، فمن جوهر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم، ومن تبرش جميع الترك والخزر وأجناسهم، ومن مناشح جميع

(1) في ثمود ستكون قصة النبي صالح. وهنا يتبين الربط بين قصص الأنبياء. الملوك المتوّجة من حمير: 32.

(2) المعارف: 26. والعهد القديم، سفر التكوين 10: 6.

(3) تدل نسبة القول لكعب ولوهب على التداخل فيما يروي كل واحد منهما، فيحتمل أن تكون النسبة إلى أحدهما، وهي إلى الآخر. وأحاديث حام ويافث وسام عن قصص الأنبياء للكسائي: 202 – 205.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 202.

أصناف العجم، ومن أسان يأجوج ومأجوج وأجناسهم، ومن سقويل جميع الأرمن[1].

سام

وأما سام بن نوح، فولد له خمسة أولاد: أرفخشذ، وهو أبو العرب كلها، من ربيعة ومضر وأنمار وإياد واليمن، ولاوذ (لود) بن سام، وهو أبو العمالقة، من طسم وجديس وجاسم، وأشور بن سام، وهو أبو النسناس، وهم قوم يسكنون أرض اليمن في بلاد حضرموت، ولهم عين واحدة، وأذن واحدة، ويد واحدة، ورجل واحدة، وعويلم (عيلام) بن سام، وهو أبو العادية الأولى، عليق ويلمح والسلنجا، ولا عقب لهم، وإرم (أرام) بن سام، وهو أبو عاد وثمود.

فأما عاد، فهو أبو عوص بن ارم بن سام بن نوح، ومنهم تفرعت قبائل العرب، وكانت مواطن عاد، من عمان إلى حضرموت إلى الأحقاف وإلى عالج ورمل. وأما ثمود، فإنهم نزلوا بأرضٍ، كثيرة الشجر والماء، فأقاموا بها تسع عشرة سنةً، ثمَّ انقلبوا إلى ديار الحجر، من أرض القرى، واتَّخذوا هناك قصوراً منيعة رفيعة، فتفرع الناس عن هولاء[2]، كل قوم يعبدون ما يريدون، فمنهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الشمس، ومنهم من عبد الكواكب، ومنهم من عبد الحجارة، وما خف على قلبه، قد أغواهم إبليس. فلم يزالوا على ذلك، دهراً طويلاً، لا يعرفون شريعة، حتى بعث الله هوداً إلى عاد نبياً ورسولاً[3].

(1) المعارف: 26. وقصص الأنبياء للكسائي: 202. والعهد القديم، سفر التكوين 10: 2. والأساطير للشوك: 115.

(2) العهد القديم، سفر التكوين 10: 22.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 203. وهناك رواية مختصرة عن وهب. تاريخ الرسل والملوك 1: 201. وفي تاريخ ابن هيثمة 2: 768. والرواية نفسها، وكذا في العظمة 5: 1595. وتقسيم نوح العالم الأرضي على أبنائه الثلاثة بالتساوي، وفي حضور ملاك الرب في اليوبيل 7: 13 – 39. قصص اليهود: 166، 355.

عاد

هم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح[1]، وهم عاد الأولى، وكانوا ينزلون اليمن، وكانت منازلهم بالشحر والأحقاف[2]، كما قال الله تعالى: { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ } سورة الأحقاف: 21. وهي رمال، يقال لها: رمل عالج، وهي ما بين عمان إلى حضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض، وكثروا وقهروا أهلها؛ لفضل قوتهم التي آتاهم الله تعالى، وكان قد أعطاهم الله من القوة، وطول القامة ما لم يعط غيرهم، كما قال الله تعالى: { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً } سورة الأعراف: 69. أي عظماً وطولاً، وقوة وشدّة.

وكان رأس أحدهم كالقبة العظيمة، وكانت عين الرجل منهم، تفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم، وكانوا أصحاب أوثان، يعبدونها من دون الله تعالى، فمنها صنم، يقال له: صدى، وصنم، يقال له: صمود، وصنم، يقال له: هبا[3]، فبعث الله إليهم هوداً نبياً، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم حسباً، [هو هود بن عبد الله بن رياح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح. وكان أشبه ولد إرم بإرم، خلا يوسف. وكان رجلا آدم كثير الشعر حسن الوجه. وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمل، وبلادهم أخصب البلاد، وكثرتهم وديارهم بالدو والدهناء وعالج ويبرين ووبار، إلى عمان، إلى حضرموت، إلى اليمن. فلمّا سخط الله عليهم جعلها مفاوز وغيطاناً][4].

---

(1) القصة في قصص الأنبياء للثعلبي: 57 – 61. إلا المصادر المحال إليها في الحواشي، وفي تاريخ الرسل والملوك 1: 216. قال وهب: وهود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. في تاريخ الرسل والملوك 1: 216.
والنسبة إلى نوح، تعني أن الأسطورة من الإسرائيليات، كما يتضح من قول وهب «عن عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، قال: وسئل وهب بن مُنبّه عن هودٍ أكان أبو اليمن الذي ولد لهم؟. فقال وهب: لا ولكنه أخو اليمن وفي التوراة ينسب إلى نوح، فلما كانت العصبية بين العرب وفخرت مضر بأبيها إسماعيل ادعت اليمن هودًا أبًا لتكون ولدًا من الأنبياء وولاده فيهم، وليس بأبيهم ولكنه أخوهم. المستدرك على الصحيحين 2: 615. والثعلبي ينقل النسب عن ابن إسحاق. تاريخ الرسل والملوك 1: 219. وهذا ينقلها عن وهب. نفسه 1: 226.

(2) الشحر مدينة على ساحلٍ بحر الهند، من ناحية اليمن. معجم البلدان 3: 327، والأحقاف وادٍ بين عمان وأرض مهرة، عن ابن عبّاس، وقال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى. معجم البلدان 1: 115.

(3) صداء وبغاء وصمود في أخبار عبيد بن شَرْيَة: 339، وصداء وصمود وهباء في رواية ابن إسحاق. جامع البيان 12: 507، وتاريخ الرسل والملوك 1: 33.

(4) المعارف: 28. والبدء والتاريخ 3: 32 .

مبعث هود

وإن الله أنزل على هود صحيفة أمره فيها بالحج إلى البيت الحرام وأنزل عليه ما بقي على أبيه من العربة وأنزل عليه (أب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ع غ س ش هـ ولا ي) فأنزل لها تسعة وعشرين حرفاً ولذلك علا اللسان العربي على جميع الألسن لأن كل لسان من الألسن مثل العبراني والسرياني إنما هو اثنان وعشرون حرفاً، وأنزل عليه - يا هود، إن الله قد آثرك أنت وذريتك بسيد الكلام وبهذا الكلام يكون لك ولذريتك من بعدك استطالة وقدرة وفضيلة على جميع العباد إلى يوم القيامة ويجري هذا الكلام فيهم أبد الأبد حتى يختم بنبوءة محمد آخره في الأصلاب الطاهرات يخرجه من صلب إلى صلب نبي مطهر ثمَّ يخرج من ولد أخيك فالغ على عشر آباء من نوح إليه[1].

[وكان هود يمرُّ بالقوم، فيراهم يبنون ما لا يحتاجون إليه، ثمَّ يهدمونه ويبنون غيره، فقال لهم هود: لو اشتغلتم بعبادة ربكم، لكان خيراً لكم مما أنتم فيه، فكان القوم يضربونه، ويسبونه ويدوسونه تحت أرجلهم، حتى يظنوا أنه مات، ثمَّ يولون عنه ضاحكين][2]، فأمرهم هود أن يوحدوا الله تعالى، ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عنْ ظلم الناس، ولم يأمرهم فيما يذكر، بغير ذلك، فأبوا ذلك عليه وكذبوه: وقالوا: من أشدُّ منا قوة؟، وبنوا المصانع، وبطشوا فيها بطش الجبارين، كما قال الله تعالى: { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } سورة الشعراء: 128 - 130.

ودعا هود عاداً إلى الله تعالى، ووعدهم الجنَّة، إن هم أطاعوا الله، وخوفهم بالنار، إن هم لجوا، وتمادوا على ما هم عليه من الكفر فقالوا له: صف لنا هذه الجنَّة التي وعدتنا؟. فقال لهم: هي جنة بناؤها بطون العقيان[3]، وطينها لجين، وفيها حور العين أبكار، والفواكه الدائمة التي لا تنقطع، والأنهار من كلِّ الأشربة، تجري بين القصور تحتها، والغرف المبنية من الياقوت، على أعمدة اللؤلؤ والزمرد والزبرجد، وقيعانها من فتيت المسك والكافور والزعفران.

قالوا: فصف لنا النار؟. قال لهم: هي سوداء مظلمة مدلهمة، وهي طبقات: الهاوية والجحيم ولظى وجهنم والسعير، وأوديتها موبق والزمهرير، وطعامها الزقوم، من أكله سالت عيناه، وأحرق حشاه، وشرابها الغسلين[4]، يتساقط منها لحم الوجوه، قبل أن يصل إلى أفواه الشاربين، مع مقاربة الزبانية المعذبين. فقالوا: هذا هود قد وصف لنا، ولكن أرسلوا إليه وفداً من أهل الرياسة والشرف والعقول، يسألونه أن يريهم الجنَّة، ويريهم النار؟. فأجمع أمرهم على ذلك،

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 44.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 213.

(3) العقيان هو الذهب. لسان العرب: عقق.

(4) غسلين شديد الحرارة، طعام أهل النار. لسان العرب: غسل.

فأرسلوا ألف رجل وفداً.

فقال لهم ملكهم: إسألوه أن يريكم هذه الجنَّة، وسموها على اسم جدكم، إرم بن سام بن نوح، فيكون اسم جدكم موجوداً مذكوراً أبداً، ويكون له به فضيلة على الخلق أجمعين، وينسى اسم جدهم ارفخشد، فيكون لكم علواً، ولهم ضعة إلى آخر الدهر. فبعثوا منهم رجلاً من أهل الشرف والرياسة والمنطق، إلى هود مع ألف رجل، فقال له: يا هود، أنت وعدتنا بالجنَّة، ووصفتها لنا، وأوعدتنا بالنار، ووصفتها لنا في الآخرة، وخير هذه الدنيا قد رأيناه، فلسنا تاركين الحاضر للغائب بقول قائلٍ صادقٍ أو كاذب، فنحن من قولك في شك، أو تبين ما قلت من جنة أو نار، وإلا فأنت كاذب.

وإنا رأينا حور الدنيا، وفواكه الدنيا، ثمَّ وصفت لنا ما هو أحسن من هذا، فحقيق على من كان له لب أن يرغب فيها وصفت، ثمَّ رأينا نار الدنيا محرقة، فزعمت أن تلك النار أشدُّ إحراقاً وظلماً، فحقيق لمن خوفته بها أن يخافها، فأخرج لنا مدينة نسكنها، ونسميها على اسم أبينا، إرم بن سام بن نوح، تكون لنا فضيلة إلى آخر الأبد، وأخرج لنا ناراً نتعظ بها، ونزداد فيها دعوتنا إليه رغبةً، وتخرج لنا حيث نريد. وهم يسألونه ذلك على وجه الاستهزاء به، وأنه لا يقدر على ذلك.

فقال لهم هود: سألتم أمراً، وهو يسير عليه، ولكن أخشى عليكم أن لا تقوموا لله بوفاء العهود، وإنما يقول له: كن. فيكون، فإن عصيتم الآية؟. قال: فاذهب يا بعيث، مع أصحابك، فخذوا عهودهم لله، فرجع البعيث والذين معه، فقال للملك ولعاد البعيث: [من الطويل]

لقد جئتكم من عند هودٍ بقصةٍ وما عنده قولٌ إلى الحقِّ يتبعُ
دعاكم لأمرٍ ليس فيه حقيقةٌ وما فيه شيء للجماعة ينفع
دعاكم لآمالٍ غرور بعيدة وترك الذي يهوى ألذ وأنفع
كتمتُ له في النفس مني جوابة وظني به يا عاد ...... يخدع[*]
وإني مشير فيكمُ بنصيحة وإن أصبحت عاد تطيع وتسمع
فإن تقبلوا رأيي تنالوا سعادة خذوه برشد في الذي قال أو دعوا
ذروني أقلْ من قبل يبدأ قائل فاني له إن قلت بالفلج أطمع

[*] في العجز سقط، فهو لا يستقيم على الطويل.

***

قال له عاد: ما رأيك يا بعيث؟. قال له: نسير إلى هود، فنسأله أن يخرج لنا هذه المدينة في الحفيف. وهو واد يسيل، ويخرج من بين جبال وجرز وعود شعث، وهو نهر يسير ليلاً ونهاراً بالرمل، يتيهأ بالرياح العواصف.

فخرج من عاد ثلاثة آلاف وفداً إلى هود، فأتوا هوداً فقالوا له: يا هود، أخرج لنا هذه المدينة، على عهد الله علينا، وعلى قومنا أن نؤمن، وأخرجها لنا بنهر الحفيف؟. فسار معهم حتى وقفوا على الحفيف، فقال لهم هود: اذهبوا عني إلى نجاد الأحقاف، فإذا هب لكم نسيم المسك، أقبلتم إلي. فذهبوا، وناجى هود ربه، فأخرجها الله لهم قصور الياقوت على أعمدة اللؤلؤ والزمرد والدر والزبرجد، وقصوراً مبنية بلبن اللجين والعقيان، وقيعانها بالمسك والكافور والزعفران. فلمّا رأوا ذلك، عشيت أبصارهم، وخشعت قلوبهم، وداخل قلوبهم منها رعب، ورقي إليهم منها نور، كشعاع الشمس. فقال لهم هود: هذه التي اسمها إرم على أسم أبيكم، فإن آمنتم، كان لكم بها فضيلة على الخلق إلى يوم القيامة، وإن رغبتم، فإن الله قوي عزيز، يهلككم كما أهلك من قبلكم، ممن كان أشدُّ منكم عتواً في الأرض، فأنا أعلم أنكم لم تؤمنوا، ولن يراها أحد من خلق الله إلا رجل من أمة محمد [1].

الخروج إلى الحرم

فلمّا فعلوا ذلك، أمسك الله عنهم المطر [العامين اللذين هادنوا فيهما هوداً، فهلكت زروعهم، وأسرع الهلاك في جناتهم، وهلكت أنعامهم، وأسرع الهلاك في أموالهم][2]، وكان الناس في ذلك الزمان، إذا نزل بهم بلاء وجهد، طلبوا من الله تعالى الفرج، وكان طلبهم ذلك من الله تعالى، عند بيته الحرام بمكة، مسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى، مختلفة أديانهم، وكلهم معظم لمكة، عارف بحرمتها ومكانتها عند الله تعالى، وأهل مكة يومئذٍ العماليق، وإنما سموا العماليق؛ لأن أباهم عمليق بن سام بن نوح. وكان سيد العماليق، إذ ذاك بمكة، رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أم معاوية اسمها كلهدة بنت الخيبري، رجل من عاد.

[قال وهب: فجمعوا الهدايا، واختاروا سبعين سيداً من أشرافهم، وكان لكلِّ عشرة منهم رئيس، وأسماؤهم: لقيم ولقمان وجلهمة وحِمير وعمير وعمرو ومزيد، وكان مزيد مؤمناً، فخرج مع القوم، وهو يدعو عليهم بالهلاك، وخرجوا بالنوق المزينة، وعليها الإستبرق، فلمّا خرجوا من ديارهم، سمعوا هاتفاً يقول [من البسيط]:

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 46 – 48. وستأتي قصة إرم ذات العماد في نهاية قصة هود.

(2) الملوك المتوَّجة من حِمير: 51.

بؤساً وتعساً لكم عاد فقد هلكت عـاد وأهلكـها سلطان باريها
بؤسـاً لقـومٍ عتـوا عـن أمـر ربهم سبعين عاماً فلا اسقوا غواديها
وسـوف تأتيهـم ريـح مـدمـرة تكنى بـصرصرةٍ هوج سواقيها

***

فلم يكترثوا لذلك، وساروا وقد لبسوا جباب الأدم، وتقلدوا بالسيوف الهندية، وفي أيديهم السياط من جلود البقر، وزادهم القديد اليابس من لحوم ميتة، وماؤهم أجاج، يتقدمهم مزيد بن سعيد المؤمن، وهو يقول [من الوافر]:

عصت عاد رسولهم فأضحوا عطاشـاً لا تبلـهم السماء
لقد حكـم الإلـه بـغيـر جـورٍ وحكم الله إذ غلب القضاء
علـى عــادٍ وعـاد شـر قـومٍ فقد هلكوا وليس لهم بقاء
وإنـي لا أفــارق . ديـن هــود لطول الدهر أو يأتي الفناء

***

فلمّا فرغ من شعره، إذ هو بنفرٍ من الملائكة، استقبلوه وقالوا له: أهلاً وسهلاً ومرحباً بك يا مزيد، من أين أقبلت؟، وإلى أين قصدت؟، فأخبرهم، فانزلوه عن ناقته إلى ناقة أخرى، كانت معهم، فانصرفت ناقته إلى ديار قومها، وسار مع الملائكة في الهواء، حتى ادخلوه الحرم ، وإذا الملائكة مصطفة عن يمين الحرم وشماله، وفي أيديهم ألوية بيضاء، وقد رفعوا أصواتهم بالدعاء، وهم يقولون: إلهنا، انصر هوداً والذين معه على قومه، وعجل هلاكهم.

وأقبل الوفد يريدون الحرم ، وهم لا ينزلون منزلاً، إلا سمعوا من كلِّ جانب هاتفاً باللعنة عليهم، حتى أشرفوا على الحرم، وإذا هم بهاتفٍ، يقول [من الخفيف]:

قبــح الله قـوم عــادٍ جميـعاً إن عـاداً لـشر أهـل الجحيم
سيروا الوفد كي يسقوا غياثاً فسيسقون من عذاب الحميم

***

ودخلوا الحرم يومئذٍ، والملك به معاوية بن بكر من العمالقة، وكانت تحته هديلة بنت

لقيم بن مزيد بن عاد، فصار الوفد إليه، ونزلوا عليه، لأنه كان فيهم[(١)] ختنه وحموه، فسألهم عن حالهم، فأخبروه بحديث هود، وما نزل بهم من الضر، وأنهم قد التجأوا إلى الحرم للاستسقاء، فأنزلهم معاوية في بيت الضيافة، وأطعمهم وسقاهم، فبقوا هناك أياماً، وقد تركوا ما كانوا بعثوا إليه، حتى أتى عليهم شهر، وهم في لهوهم وشربهم، وعاد هنالك في الجوع والعطش.

فبلغ ذلك الخلجان، فأرسل إلى معاوية بن بكر، يسأله أن يأمرهم بالاستسقاء، فكره معاوية أن يواجههم بذلك، فيقولوا: قد تبرم بضيافتنا، فدعا بجاريتين، يقال لهما: الجرادتان، وكانت مغنيتين عنده، وقال لهما: أتيا هؤلاء القوم، فإذا أكلوا وشربوا، ودب فيهم الشراب، فغنيا لهم وحرضاهم على الاستسقاء، فلمّا فرغوا من الأكل والشرب، غنت الجاريتان [من مجزوء الرمل]:

بأبي من خلق الخلق بني سام وحام
سادة سادوا جميع الخلق بالخلق التمام
نصب الدهر عليهم حربه دون الأنام
فسقى الله بني عادٍ من الغيث الغمام

***

فأجابها رجل من الوفد، يقال له: الجهد بن القيل، وأنشأ يقول [من مجزوء الرمل]:

عللينا زانك الله بأكواب المدام
وبماءٍ فامزجيها تستريحي من ملامي

***

فلمّا انتهوا من ذلك الصوت، زادت الجاريتان [من الوافر]:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يمنحكم غماما
غمام صوبها هطل مغيث يروي السهل جوداً والأكاما
فيسقي الله عاداً إن عاداً قد اضحوا لا يبينون الكلاما
مع العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما

(١) [(١)] في الوفد، والمقصود لقيم أبو زوجة معاوية، والخبر في تاريخ الرسل والملوك ١: ١٣٥.

أفيقوا أيها الركب السكارى لقومكم فقد أضحوا هياما
لقد طال المقام على سرور إلا يا قيل ويك ذر المقاما
على أكلٍ وشرب إن عاداً أعالي الناس قد خلقوا كراما[1]

***

فانتبهوا، وعرفوا ذلك، وتواثبوا وغسلوا أيديهم، ولبسوا ثياباً جدداً، لم تدنسها الخمرة، وكسوا البيت بالحلل التي كانت معهم، فجعل البيت ينفضها، ولا يقبلها، فقال لهم مزيد: إن رب هذا البيت لا يقبل الهدية، إلا من مؤمن، فهل لكم أن تؤمنوا بهود؟، فقالوا: يا مزيد، إن كلامك يدل على إيمانك بهود، ونحن لا نؤمن به أبداً، وأتى رجل منهم، وهو يقول [من مجزوء الوافر]:

أبا سعدٍ فإنك من قبيل بني عاد وإنك من ثمود
أنترك دين آباءٍ كرام ذوي حسب ونتبع دين هود

***

فقال مزيد: ما أريد لكم إلا الخير، ثمَّ أنشأ يقول [من مجزوء الوافر]:

أرى عاداً تمادى في ضلالٍ وقد بعدوا عن الأمر الرشيد
بما كفروا بربهم جهاراً وحادوا رغبةً عن دين هود

***

واجتمعوا يستسقون، فتقدَّم رجل، وهو يقول [من مجزوء الرجز]:

يا رب عادٍ اسقين عادا إنك رب ترحم العبادا
اسق البساتين وذي البلادا غيثاً هنياً ذلك المرادا[*]

[*] هينم بمعنى تكلَّم وأخفى كلامه. والأبيات مختلفة في أخبار عبيد بن شَرْيَة: 346، وتاريخ الرسل والملوك 1: 133، والبدء والتاريخ 3: 32.

***

وتقدم لقيم، وهو يقول [من الرجز]:

قد فزعت عاد من أنسابها ... في عصرها هذا وفي شبابها

فآتها منك غياثاً آتها ... عسى يكون رحمةً لذاتها

***

وجعل كل واحد من القوم، يتكلَّم بما يحضره][1].

معاوية بن بكر

ثم قال لمعاوية بن بكر، وأبيه بكر، وكان شيخاً كبيراً: احبسا عنا مرثد بن سعد، حتى لا يقدم معنا مكة؛ فإنه قد تبع دين هود، وترك ديننا. ثمَّ دخلوا إلى مكة، يستسقون لعاد بها، فلمَّا دخلوا مكة، خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية، حتى أدركهم بمكة، قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا إليه، فلمَّا انتهى، قام يدعو الله، ووفد عاد قد أخذوا يدعون، فجعل يقول: اللهم، اعطني سؤلي وحدي، ولا تدخلني في شيء، مما يدعو به وفد عاد.

وكان قيل بن عنز، رأس وفد عاد، قد أمرهم أن يؤمنوا عليه، فقال وفد عاد: اللهم، اعط قيلاً ما سألك، واجعل سؤالنا مع سؤاله. وكان تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد، ولم يدخل في دعوتهم، فقالك اللهم، إني جئتك وحدي في حاجتي، فأعطني سؤلي. وقال قيل بن عنز، حين دعا، واستسقى: اللهم، لم أجئ لمريض، فأداويه، ولا لأسير، فأفاديه، اللهم، أسق عاداً ما كنت تسقيه. يا إلهنا، إن كان هود صادقاً، فاسقنا، فإنا قد هلكنا.

السحابات الثلاث

فأنشأ الله سحائب ثلاثاً: واحدة بيضاء، وواحدة حمراء، وواحدة سوداء، ثمَّ ناداه مناد من السحاب: ألا يا قيل، اختر لنفسك واحدةً من هذه السحب الثلاث. فقال قيل: اخترت السحابة السوداء؛ فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه المنادي يقول: اخترت يا قيل، رماداً رمددا، لم تبق من آل عاد أحداً، لا والداً تتركه ولا ولداً، إلا جعلتهم رمياً همداً، إلا بني اللوذية المهدى. وبنو اللوذية رهط لقيم بن هزال بن هزيلة بن بكر، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم، لم يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عاد الآخرة.

فساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل، بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: المغيث. فلمَّا رأوها، استبشروا بها { قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا } سورة الأحقاف: 24 - 25.

وكان أول من أبصر ما فيها، وعرف أنها ريح مهلكة، امرأة من عاد، يقال لها:، فلمَّا تبينت

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 220.

ما فيها من العذاب، صاحت ثمَّ صعقت، فلمَّا أفاقت، قالوا: ما رأيت؟. قالت: رأيت ريحاً، فيها كشهب النار، أمامها رجال يقودونها[1].

الريح العقيم

قال: إن الريح العقيم تحت هذه الارض التي نحن عليها، قد زمت بسبعين الف زمام من حديد، قد وكل بكلِّ زمام، سبعون الف ملك، فلمَّا سلطها الله على عاد، استأذنت خزنة الريح ربها أن يخرج منها في مثل منخري الثور، ولوأذن الله لها ماتركت شيئا على ظهر الارض إلا أحرقته فأوحى الله إلى خزنة الريح، ان اخرجوا منها مثل ثقب الخاتم فاهلكوا بها، وبها ينسف الله الجبال نسفا، والتلال والآكام والمدائن والقصور يوم القيامة[2]. عصفت الريح وصرصرت، فلم تدع منهم أحداً، وهدمت الجبال، وخددت الأرض، وحطمت الشجر، وأخذت الحجر، كما قال الله تبارك وتعالى: { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ } سورة الذااريات: 41 - 42. فأخرجتهم من الكهوف والقنونن فكانوا كما قال الله تعالى: { وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ } سورة الحاقة: 6 - 8[3].

[فلمَّا كان اليوم الثامن، اصطف القوم صفوفاً، كل واحد منهم إلى جنب صاحبه، وهم، يومئذٍ، عشرة صفوف، كل صف مائتا ألف، وجعلوا يسدون مهب الريح، ويرمونه بالنبل، ويقولون: بأسنا أشدُّ من بأسك، وجعل ملكهم الخلجان، يشجعهم، وينشد: [من الرجز]

ما بال عاد اليوم خائفينا ... أمن مهب الريح تجزعونا

لقد حسبت أن تكونوا دونا ... إن السنين تعقب السنينا

**فزادهم نشاطاً على قتال الريح، والريح تمزقهم شر ممزق، فكانت تدخل في ثوب الرجل، فتحمله في الهواء، ثمَّ ترمي به على أم رأسه ميتاً، يقول الله: { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } سورة الحاقة: 7. ومنهم من تدخل من فمه، فتخرج من دبره، فيموت، ولم تزل كذلك حتى أهلكتهم جميعاً، فلم يبق إلا الخلجان][4]، فمال إلى الجبل، فأخذ بجانب منه، فهزه، فاهتز في يده، ثمَّ أنشأ يقول: [من الرجز]

(1) الملوك المتوَّجة من حمير: 53.
(2) علل الشرائع علل 1: 48.
(3) الملوك المتوَّجة من حمير: 53.
(4) تاريخ الرسل والملوك 1: 226.

لـــم يبـــق إلا الخـلـجـان نفسه   يـا لــك مـــن يـــوم دهـــاني أمسه
لـو ثـبـت الــوطء شـديـداً وطسه   لـــو لـــم يجئني جئته أجسُّـه

***

فقال له هود: ويحك يا خلجان؟!، اسلم تسلم. فقال له: مالي عند ربك، إذا أسلمت؟. قال: الجنَّة. قال: فما هؤلاء الذين أراهم في السحاب، كأنهم البخت؟. قال هود: تلك ملائكة ربي. قال: إن أسلمت، أيقيدني ربك منهم لقومي؟. قال: ويحك، هل رأيت ملكاً، يقيد من جنوده؟!. فقال: لو فعل ما رضيت. فجاءت الريح فألحقته بأصحابه وأهلكته، وأفنى الله عاداً، سوى من بقي من قومهم بمكة ونواحيها.

وجعلت امرأة مؤمنة تقول [من مجزوء الرمل]:

بعثـت عاد لقيمـاً وأبـا سعـدٍ مزيـدا
والفتى جلـهامـة الخير إذا الخيـر أريدا
نزلـوا داراً أقـامـوا عندها شهراً جديداً
يشـربون الخـمـر صرفـاً لا يملون الركودا
فدعـا هود عليهم دعوةً صاروا همـودا
أرسلت ريح عليهم لم تـذر في الأرض عـودا
تلك أجساد لعادٍ نزعـت عنها الجلودا
لا تراهم أبد الدهـر كما كانـوا قعودا
إذ عصوا ربـاً حليمـاً ثمَّ ما خـروا سجـودا
ويلهم هلا أطاعوا صمـداً فرداً مجيـدا[*]

[*] قصص الأنبياء للكسائي: 223.

***

وخرج وفد عاد من مكة، حتى مروا بمعاوية بن بكر، فنزلوا عليه، فبينما هم عنده، إذ أقبل رجل على ناقة له، في ليلة مقمرة، من أمصار عاد، فأخبرهم بهلاك عاد، فقالوا له: أين فارقت هوداً وأصحابه؟. قال: فارقتهم بساحل البحر، فكأنهم شكوا فيما حدثهم به، فقالت هزيلة بنت بكر: صدق، ورب الكعبة. ومنور بن يعفر، ابن أخي معاوية بن بكر معهم.

وفاة هود

ولَمَّا أرسل الله تبارك وتعالى من الريح على عادٍ؛ اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرةٍ، ما يصيبهم من الريح؛ إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذه الأنفس، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة[1].

وارتحل هود بمن معه من المؤمنين، من أرض عاد بعد هلاكهم، إلى موضع، يقال له: الشحر من بلاد اليمن[2]، فنزلوا هناك حولين، ثمَّ أدركته الوفاة، فيقال: إنه دفن بحضرموت[3].

قال: لم يعلم أحد موضع قبره إلا رجل من أهل حضرموت. قال كعب[4]: كنت في مسجد رسول الله ﷺ في خلافة عثمان ، وإذا برجل قد دخل المسجد، فجعل الناس يرمقونه بأبصارهم لطوله، فقال: أيكم ابن عم رسول الله ﷺ ؟، فقيل له: أي ابن عمه تريد؟، قال: علي بن أبي طالب، فأرشد إليه، فسلم عليه، فقال له علي: ممن الرجل؟، فقال: من اليمن، من بلاد حضر موت، فقال له علي: أتعرف موضع الأراك، والسد الذي يقطر منه الماء كحمرة الدم؟، فقال له الرجل: كأنك تسأل عن قبر هود؟، قال: نعم.

فقال الرجل: اعلم أني خرجت في أيام شبابي مع عدة من غلمان الحي، نريد قبر هود، فسرنا حتى صرنا إلى جبلٍ شامخ، فيه كهوف كثيرة، ومعنا رجل عارف بقبره، فدخلنا الكهف حتى صرنا إلى آخره، وإذا نحن بحجرين عظيمين، أحدهما فوق الآخر، وبينهما فرجة، لا يدخلها إلا الرجل النحيف، وكنت أنا أنحفهم، فدخلت بين الحجرين، حتى صرت إلى سريرٍ من ذهب، عليه رجل ميت، عليه أكفان كأنه الهباء، لا تبقى في الأصابع لرقتها، فلمست يده، فإذا هو سلب.

وتأملته، فإذا هو رجل واسع العينين، مقرون الحاجبين، عظيم الجبهة، أسيل الخدين، طويل اللحية، لم يعمل فيه البلى شيئاً، وعند رأسه حجر، مثل اللوح، مكتوب عليه، بخط الهند ثلاثة أسطر: الأول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. الثاني: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } سورة الإسراء: 23. الثالث: أنا هود بن الخلود بن سعيد بن عاد، رسول الله إلى بني عاد بن عوص بن

(1) المجالسة وجواهر العلم: 29.

(2) في أخبار عبيد بن شَرْيَة: 363، على ساحل البحر، مما يلي أرض عاد.

(3) البدء والتاريخ 3: 36.

(4) يشير وهب إلى رواية كعب عن قبر هود. وهي في سياق قصة هود، فأبقيتها، كما هي.

سام بن نوح جئتهم بالرسالة من ربي، ولبثت فيهم مدةً من عمري، فكذبوني، فأهلكهم الله تعالى بالريح العقيم، وسيأتي من بعدي، صالح بن كاتوه إلى ثمود، فيكذبونه، فيرسل الله عليهم صيحةً، فيصبحون في ديارهم جاثمين، فقال : هكذا أخبرت عن قبر هود، فهل عندك شيء من أخبار هود؟ قال: لا[1].

دعاء مرثد ولقمان وقيل

قالوا[2]: وقد قيل لمرثد بن سعد، ولقمان بن عاد، وقيل بن عنز، حين دعوا بمكة: قد أعطيتم مناكم، فاختاروا لأنفسكم. فقال مرثد: اللهم، اعطني براً وصدقاً. فأعطى ذلك. وقال قيل: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي. فقيل له: هلاك. فقال: لا أبالي، لا حاجة لي في البقاء بعد قومي. فأصابه الذي أصاب عاداً من العذاب فهلك. وقال لقمان: يا رب، اعطني عمراً. فقيل له: اختر لنفسك بقاء سبع بعرات سمر، من أضبِ [عفر]، لا يمسها القطر[3]، أو عمر سبعة أنسر، إذا مضى نسر، حولت إلى نسر آخر.

فاستحقر بقاء الأبعار، واختار النسور، فعمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته، فيأخذ الذكر منها لقوته فيربيه، حتى إذا مات، أخذ غيره، فلم يزل يفعل مثل ذلك، حتى أتى إلى السابع، وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة، فلمّا لم يبق غير السابع، قال ابن أخ للقمان: يا عم، لم يبق من عمرك إلا هذا النسر. فقال لقمان: يا ابن أخي، هذا لبد، ولبد بلسانهم الدهر، فلمّا انقضى عمر لبد، طارت النسور غداة من رأس الجبل، ولم ينهض لبد فيها، وكانت نسور لقمان لا تغيب عنه.

قال: فلمّا رأى لبداً لم ينهض مع النسور، قام إلى الجبل لينظر ما فعل لبد، فوجد لقمان في نفسه وهناً، لم يكن يجده قبل ذلك، فلمّا انتهى إلى الجبل رأى نسره لبداً واقفاً بين النسور، فناداه: انهض لبد. فذهب لينهض فلم يستطع، فسقط، ومات لقمان معه[4].

شداد بن عاد

لمّا ولي شداد بن عاد الملك، جمع الجنود، وكان امرءاً حازماً، فسار يدوس الأرض، وبلغ أرمينية الكبرى، فقتل فيها كل ثائر، ثمَّ عبر الفرات إلى المشرق، فبلغ أقصاه، لا أحد يقف له إلا

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 225. وجامع البيان 12: 507.

(2) إعادة لدعاء هؤلاء، فيه تفصيل وقد مرَّ، أورده بصيغة «قالوا»، وفي تاريخ الرسل والملوك 1: 222: «وقد كان قيل، فيما يزعمون والله أعلم، لمرثد بن سعد». بصغية «قيل»، وهو لوهب كما سبق، وقد أورده المطهر المقدسي. البدء والتاريخ 3: 34.

(3) وفي تاريخ الرسل والملوك 1: 223. بقاء أبعار ضأنٍ عفر، في جبل وعر، لا يلقي به إلا القطر. والسمر جمع سمراء، من السمرة، بين البياض والسواد، وأضب جمع ضب، وهو حيوان صحراوي، والعفر جمع عفراء، والعفرة لون الأرض، أي متربة. لسان العرب: سمر، ضبب، عفر.

(4) الملوك المتوَّجة من حمير: 79، 84.قصص الأنبياء للثعلبي: 61.

هلك، ثمَّ مضى على ساحل سمرقند إلى أرض التبت، ثمَّ عطف على أرمينية فأمعن، ثمَّ جاز إلى الشامن وبلغ إلى المغرب، فأكثر الآثار في المغرب، حتى بلغ البحر المحيط، يبني المدن، ويتخذ المصانع، فأقام في المغرب مائتي عام، ثمَّ قفل إلى المشرق، فأنف أن يدخل غمدان، ومضى إلى مأرب، فبنى به القصر العتيق الذي يسميه بعض الرواة: إرم بن العماد، فلم يدع باليمن دراً ولا جوهراً ولا عقيقاً ولا جزعاً، ولا بأرض بابل، وأرسل في الآفاق بجمع جواهر الدنيا من الذهب والفضة، والحديد والقصدير، والنحاس والرصاص، فبنى فيه وزخرفه ورصعه، بجميع ذلك الجواهر، وجعل أرضه رخاماً أبيض وأحمر، وغير ذلك من الألوان، وجعل تحتها أسراباً، فاض إليها ماء السد، فكان قصراً، لم يبن في الدنيا مثله، ثمَّ مات شداد بن عاد، بعد أن عمر خمسمائة عام[1].

إرم ذات العماد

عن وهب بن مُنبِّه، عن عبد الله بن قلابة[2] أنه خرج في طلب إبلٍ له شردت، فبينما هو في صحاري عدن، والشجر تظله في تلك الفلوات، إذ وقع على مدينةٍ، في تلك الفلوات عليها حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة، وأعلام طوال، فلمَّا دنا منها ظن أن فيها أحداً، يسأله عن إبله، فإذا لا خارج يخرج من باب حصنها، ولا داخل يدخل منه، فلمَّا رأى ذلك، نزل عن ناقته وعقلها، ثمَّ استل سيفه ودخل من باب الحصن، فلمَّا خلف الحصن، إذا هو ببابين عظيمين، لم ير في الدنيا شيء أعظم منهما، ولا أطول، وإذا خشبهما محمر، وفي ذينك البابين مسامير من ياقوتٍ أبيض، وياقوتٍ أحمر، يضيء ذانك البابان فيما بين الحصن والمدينة.

فلمَّا رأى ذلك الرجل، أعجبه، وتعاظمه الأمر، ففتح أحد البابين ودخل، فإذا هو بمدينةٍ، لم ير الراءون مثلها قط، وإذا هي قصور، على كل قصرٍ معلقٍ تحته أعمدة من زبرجدٍ وياقوتٍ، ومن فوق كل قصرٍ منها غرف، وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة، واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وكل مصاريع تلك القصور، وتلك الغرف مثل مصراعي باب المدينة من حجرٍ، كلها مفصصة بالياقوت الأبيض، والياقوت الأحمر، متقابلة بعضها ببعضٍ، ينور بعضها من بعضٍ، مفروشة كلها تلك القصور، وتلك الغرف باللؤلؤ، وبنادق من مسكٍ وزعفرانٍ.

فلمَّا عاين الرجل ما عاين، ولم ير فيها أحداً، ولا أثر أحدٍ، وإنما هو شيء مفروغ منه، بناء لم يسكنه أحد، ولم ير أثرًا لأحدٍ من الناس إلا عصا حديدةً، أهاله ذلك وأفزعه، ثمَّ نظر إلى الأزقة، فإذا هو بالشجر في كل زقاقٍ منها قد أثمرت تلك الأشجار كلها، وإذا تحت تلك الأشجار أنهار مطردة، يجري ماؤها من قنواتٍ من فضةٍ، كل قناةٍ منها أشدُّ بياضاً من الشمس، تجري تلك

---

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 74.

(2) الكشف والبيان 10: 197. وقصص الأنبياء له: 129. وبحر العلوم 3: 578. وأبو قلابة هو عبد الله بن زيد الجرمي، وهو أحد القُصَّاص. العلل ومعرفة الرجال 2: 522.

القنوات تحت الأشجار.

وداخل الرجل العجب مما رأى، وقال: والذي بعث محمداً بالحق، ما خلق الله تبارك وتعالى مثل هذه في الدنيا، وإن هذه للجنة التي وصف الله ، ما بقي مما وصف الله تبارك وتعالى شيء إلا، وهو في هذه المدينة، هذه الجنَّة، الحمد لله الذي أدخلنيها. ساهر على ذلك يوأمر نفسه، ويتدبر رأيه، إذ دعته نفسه أن يأخذ من لؤلؤها، وياقوتها وزبرجدها، ثمَّ يخرج حتى يأتي بلاده، ثمَّ يرجع إليها، ففعل، فحمل معه من لؤلؤها، ومن بنادق المسك والزعفران، ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها شيئاً، ولا من ياقوتها لأنها مثبتة في أبوابها وجدرانها، وكان ذلك اللؤلؤ والبنادق من المسك والزعفران منثورًا في تلك الغرف، والقصور كلها، فأخذ ما أراد وخرج إلى ناقته، فحل عقلها وركبها.

ثم سار راجعًا يقفو أثر ناقته، حتى رجع إلى اليمن، فأظهر ما كان معه، فأعلم الناس أمره، وما كان من قصته، وباع بعض اللؤلؤ، وكان ذلك اللؤلؤ قد اصفر من طول مرور الليالي والأيام عليه، فلم يزل أمر ذلك الرجل ينمى ويخرج، حتى بلغ أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، فأرسل رسولًا وكتب إلى صاحب صنعاء، يأمره أن يبعث له الرجل؛ ليسأله عما كان من أمره، فخرج به رسول معاوية بن أبي سفيان من اليمن، حتى قدم به الشام، وأمر صاحب صنعاء الرجل أن يخرج ببعض ما جاء به من متاع تلك المدينة.

فسار الرجل ورسول أمير المؤمنين، حتى قدم على معاوية، فاختلى به أمير المؤمنين، وسأله عما رأى وعاين، فقص عليه أمر المدينة، وما رأى فيها شيئاً شيئاً، فأعظم ذلك معاوية، وأنكر ما حدثه وقال: ما أظن ما تقول حقا؟. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، هي من متاعها الذي هو مفروش في قصورها وغرفها وبيوتها. قال: ما هو؟. قال: اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران. فقال له معاوية: هات حتى أراه. فأراه لؤلؤاً أصفر، من أعظم ما يكون من اللؤلؤ، وأراه تلك البنادق، فشمها معاوية، فلم يجد لها ريحاً، فأمر بدق بندقةٍ من تلك البنادق، فسطع ريحها مسكاً وزعفراناً، فصدقه معاوية عند ذلك، وقال: كيف لي حتى أعلم ما اسم هذه المدينة؟، ومن بناها؟، ولمن كانت؟، فوالله، ما أعطي أحد مثل ما أعطي سليمان بن داود - على نبينا، وعليه الصلاة والسلام -، وما ملك سليمان مثل هذه المدينة.

فقال بعض جلساء أمير المؤمنين: يا أمير المؤمنين، إنك لن تجد خبر هذه المدينة، عند أحدٍ من أهل الدنيا في زماننا هذا، إلا عند كعب الأحبار، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليه، ويأمر بأن يغيب عنه هذا الرجل، فإنه سيخبر أمير المؤمنين بأمرها، وأمر هذا الرجل، إن كان دخلها؛ لأن مثل هذه المدينة، على مثل هذه الصفة، لا يستطيع هذا الرجل دخولها، إلا أن يكون قد سبق في الكتاب الأول دخوله إياها، فابعث إلى كعبٍ، فإنه يا أمير المؤمنين، لم يخلق الله أحداً على ظهر الأرض أعلم منه، ولا من مضى من الدهر، ولا يكون من بعد اليوم، إلا هو في التوراة مفسراً

منسوباً معروفاً مكانه، فليبعث إليه أمير المؤمنين، فإنه سيجد خبرها عنده.

***

فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار، فلمّا أتاه، قال له أمير المؤمنين: يا أبا إسحاق، إني دعوتك لأمرٍ، رجوت أن يكون علمه عندك. قال كعب: يا أمير المؤمنين، على الخبير سقطت، فسلني عما بدا لك؟. قال: أخبرني يا أبا إسحاق، هل بلغك أن في الدنيا مدينةً مبنيةً بالذهب والفضة، أعمدتها من الزبرجد والياقوت، وحصباء[1] قصورها وغرفها اللؤلؤ والياقوت، وأنهارها جارية في الأزقة تحت أشجار مثمرة؟. قال كعب الأحبار: والذي نفس كعبٍ بيده، لقد ظننت يا أمير المؤمنين، أني سأوسد يميني، قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة، وما فيها؟، ولمن هي؟، ولكن أخبرك بها، ومن بناها؟، ولمن هي؟.

أما تلك المدينة، فهي حق كما بلغ أمير المؤمنين، وعلى ما وصف له، وأما صاحبها الذي بناها، فشداد بن عادٍ، وأما المدينة، فإرم ذات العماد التي وصف الله في كتابه المنزل على محمد { إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ } سورة الفجر: 7 – 8. وهي، كما وصف لك، لم يبن مثلها في البلاد. فقال معاوية: حدثنا بحديثها يا أبا إسحاق، يرحمك الله تعالى.

قال أبو إسحاق: أخبرك يا أمير المؤمنين، إن عاداً الأولى ليس عاد قوم هودٍ، ولكن عاد الأولى، إنما هو هود، وقوم هودٍ ولد ذلك، فكان عاد له ابنان: فسمى أحدهما شديداً، والآخر شداداً، فهلك عاد فبغيا، وتجبرا، وملكا، فقهرا كل البلاد، وأخذاها عنوةً وقسراً، حتى دان لهما جميع القبائل، حتى لم يبق أحد من الناس في زمانهما إلا وهو في طاعتهما، لا في مشرق الأرض، ولا في مغربها، وإنه لمّا صفا لهما ذلك، وقر قرارهما، هلك شديد، وملك شداد، وعتا وتجبر، ودانت له رقاب العباد، وملك جميع الناس.

وكان مولعاً بقراءة الكتب الأولى السالفة، وكلما مرَّ فيه بذكر الجنَّة، وما سمع مما فيها من البنيان واللؤلؤ والياقوت، دعته نفسه أن يقلد تلك الصفة في الدنيا؛ عتوا على الله وكبراً، فلمّا وقر ذلك في نفسه، والذي يريد، أمر بصنعة تلك المدينة، إرم ذات العماد، وأمر على صنعها مائة قهرمانٍ، مع كل قهرمانٍ ألف من الأعوان. قال: انطلقوا إلى أطيب فلاةٍ في الأرض وأوسعها، فاعملوا لي فيها مدينةً من ذهبٍ وفضةٍ، وياقوتٍ وزبرجدٍ ولؤلؤٍ، تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجدٍ، وعلى المدينة قصور، ومن فوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت القصور في أزقتها أصناف الثمار كلها، وأجروا فيها الأنهار حتى يكون تحت الأشجار، فإني أسمع في الكتاب صفة الجنَّة، فأنا أحب أن أجعل مثلها في الدنيا، أتعجل سكناها.

فقال له قهارمته، وكانوا مائة قهرمانٍ، تحت يد كل قهرمانٍ منهم ألف من الأعوان: كيف لنا أن نقدر على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ، والذهب والفضة تبني منه مدينةً

(1) حصى.

من المدائن كما وصفت لنا؟، متى نقدر على هذا الذهب كله، وهذه الفضة؟.

فقال لهم شداد: أليس تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدي؟ قالوا: بلى. قال: فانطلقوا إلى كل شيءٍ في الدنيا، من معدنٍ من معادن الزبرجد والياقوت، أو بحرٍ فيه لؤلؤ، أو معدن ذهبٍ، أو فضةٍ، ووكلوا به من كلِّ قومٍ رجلاً، يخرج لكم ما كان في كل معدنٍ من تلك البلاد، ثمَّ انطلقوا، فانظروا إلى ما كان في أيدي الناس من ذلك، فخذوه سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن، فإن معادن الدنيا أكثر من ذلك، وما فيها مما لا تعلمون به أكثر، وأعظم مما كلفتم من صنعة هذه المدينة.

قال: فخرجوا من عنده، فكتب منه إلى كل ملكٍ في الدنيا يأمره أن يجمع ما في بلاده من جوهرها، ويحفر معادنها، فانطلق أولئك القهارمة، فبعثوا بكلِّ كتابٍ إلى ملكٍ من تلك الملوك، وأخذ كل ملكٍ ما يجد في يديه في ملكه عشر سنين، حتى بعث إلى فعلة إرم ذات العماد بما قبله، مما سأله من الزبرجد، والياقوت واللؤلؤ، والذهب والفضة، وأخذ القوم في طلبهم له مواضع، كلما أرادوا، وضعه لهم، من البساتين بساتين إرم ذات العماد، وإجراء الأنهار وغرس الأشجار، وحدودها على ما وصف لهم عشر سنين.

***

فقال له معاوية: يا أبا إسحاق، وكم كان عدد تلك الملوك التي كانت إرم؟. قال: كانت مائتين وستين ملكاً، قسمها بينهم، كل ملكٍ منهم على حدةٍ، وما عليه من الخراج. فقال له معاوية: أتمم حديثك يا أبا إسحاق. قال: فخرج عند ذلك الفعلة والقهارمة، فتبددوا في الصحاري؛ ليجدوا ما يوافقه، فلم يجدوا ذلك حتى وقفوا على صحراء عظيمةٍ نقيةٍ من الجبال والتلال، فإذا هم بعيونٍ مطردةٍ، فقالوا: هذه صفة إرم التي أمرنا بها. فعمدوا، فأخذوا بقدر الذي أمرهم من العرض والطول، ثمَّ جعلوا ذلك بحدودٍ محدودةٍ، ثمَّ عمدوا إلى مواضع الأزقة التي فيها الحدود، فأجروا فيها قنوات تلك الأنهار، ثمَّ وضعوا الأساس من صخر الجزع اليماني، وعجنوا ذلك الأساس بدهن اللبان والمحلب[1].

فلمَّا فرغوا مما وضعوا من الأساس، وأجروا القنوات، وأرسلت إليهم الملوك بالزبرجد، والياقوت والذهب، والفضة واللؤلؤ والجوهر، كل ملكٍ قد عمل ما كان في معدنه، فمنهم من بعث بالعمد مفروغاً منها، ومنهم من بعث بالذهب والفضة مفروغاً منه مصنوعاً، فدفعوه إلى تلك القهارمة والوزراء، فأقاموا فيها حتى فرغوا من بنائها، وهي على تلك العمد، وهي قصور من فوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة، والزبرجد، والياقوت التي بعث بها الملوك.

(1) الجزع نوع من الأحجار الكريمة، فيه بياض وسواد تُشبَّه به الأعين. واللبان نوع من الصمغ. والمحلب شجر له حب، يُعمل منه طيب. لسان العرب: جزع، لبن، حلب.

فقال معاوية: يا أبا إسحاق، والله، إني لأحسبهم قد أقاموا في بنائها زماناً من الدهر؟. قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إني لأجد مكتوباً في التوراة: أنهم أقاموا في بنائها، وما أجلهم الملوك في الذي أمرهم من حمل ما في الدنيا إليه من كلّ زبرجدٍ وياقوتٍ، ولؤلؤٍ وذهبٍ وفضةٍ، حتى فرغوا منها، أجده مكتوباً ثلاثمائة سنةٍ. قال معاوية: وكم كان عمر شداد بن عادٍ، صاحبها؟. قال: كان عمره تسعمائة سنةٍ. قال معاوية: يا أبا إسحاق، لقد أخبرتنا عجباً، فحدثنا. قال: يا أمير المؤمنين، إنما سماها الله تعالى: { إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ } التي لم يعمل مثلها في البلاد، للذي فيها من الزبرجد والياقوت، وليس في الدنيا مدينة بالزبرجد غيرها، ولا ياقوت غيرها.

قال كعب: يا أمير المؤمنين، إنهم، لمَّا أتوه، فأخبروه بفراغهم منها، قال: انطلقوا، فاجعلوا عليها حصناً، واجعلوا حول الحصن ألف قصرٍ، عند كل قصرٍ ألف علمٍ، يكون في قصرٍ من تلك القصور، وزير من وزرائي، ويكون فوق كل علمٍ منها ناطور. قال: فرجعوا، فعملوا تلك القصور والأعلام والحصن، ثمَّ أتوه، فأخبروه بالفراغ مما أمرهم به. قال: فأمر ألف وزيرٍ من أهل خاصته، ومن يثق به أن يتهيأوا إلى النقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر لتلك الأعلام برجالٍ يسكنونها، ويقيمون فيها ليلهم ونهارهم، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق، والجهاز إلى تلك الأعلام. قال: وأمر الملك من أراد من نسائه، وخدمه بالجهاز إلى إرم ذات العماد، فأقاموا في جهازهم إليها عشر سنين.

فسار الملك بمن أراد، وخلف، من قومه في عدن أكثر مما سار، فلمَّا استقبل الطريق، وسار إليها، وبلغ منها مسيرة يومٍ وليلةٍ، بعث الله عليه، وعلى من كان معه صيحةً من السماء، فأهلكتهم جميعًا، ولم يبق منهم أحد، ولم يدخل إرم ذات العماد، ولا من كان معه، ولم يقدر على أن يدخلها أحد منهم حتى الساعة.

فهذه صفة إرم ذات العماد، يا أمير المؤمنين، وسيدخلها رجل من المسلمين يا أمير المؤمنين، في زمانك هذا، ويرى ما فيها، ويحدث بما فيها، ولا يصدق. قال له معاوية: يا أبا إسحاق، هل تصفه؟. قال: نعم، هو رجل أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عنقه خال، يخرج ذلك الرجل في طلب إبلٍ له، في تلك الصحاري، فيقع على إرم ذات العماد، فيدخلها ويحمل مما فيها، والرجل جالس عندك يا أمير المؤمنين. فالتفت كعبٍ، فرأى ذلك الرجل، فقال: هذا ذلك الرجل يا أمير المؤمنين، واسأله عما حدثتك به.

فقال معاوية: يا أبا إسحاق، هذا من خدمي، ولم يفارقني. قال: قد دخلها، وإلا، فسوف يدخلها، وسيدخلها أهل هذا الدين في آخر الزمان. فقال له معاوية: لقد فضلك الله تعالى، يا أبا إسحاق، على غيرك من العلماء، ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين ما لم يعط أحد. فقال له كعب: والذي نفسي بيده، ما خلق الله تعالى شيئاً إلا، وقد فسره في التوراة لعبده موسى تفسيرًا

يا أمير المؤمنين، وإن هذا القرآن أشدُّ وعيداً، وكفى بالله وكيلاً[1].

لقمان بن عاد

قال وهب: فلمّا مات شداد بن عاد، صار الأمر إلى أخيه لقمان بن عاد[2]، وكان أعطى الله لقمان ما لم يعط غيره من الناس في زمانه، أعطاه حاسة مائة رجل، وكان طويلاً لا يقاربه أهل زمانه.

قال وهب: لقمان بن عاد هو الذي سمته حِمير: الرائش؛ لأنه كان متواضعاً لله لم يكن متوجاً، وكان يدعو قبل كل صلاة، ويقول:

اللهم يا رب البحار الخَضر والأرض ذات النبت بعد القطر

أســـــألك عمـــــرا فوق كل عمـر

***

فنودي: قد أجيبت دعوتك، وأعطيت سؤالك، ولا سبيل إلى الخلود، واختر إن شئت بقاء سبع بقرات عفر، في جبل وعر، لا يمسهن ذعر، وان شئت بقاء سبع نوايات من تمر، مستودعات في صخر، لا يمسهن ندى ولا قطر، وإن شئت بقاء سبعة نسور، كلما هلك نسر، عقب بعده نسر. قال: فكان أن اختار سبعة نسور.

فيذكر أنه عاش ألفي سنة وأربعمائة سنة، وهو صاحب لبد، وكان لقمان يأخذ فرخ النسر من وكره، فيربيه حتى يموت، وهو يطير مع النسور، ويرجع إليه.

وأعطي لقمان سؤله، وأخوه شداد في ملكه، وعاش معه دهراً طويلاً، وهو يدعو إلى الله، فلمّا مات شداد، صار إليه الأمر، فكان الناس يأتونه من أقاصي الأرض وأدانيها[3]، ولما أهلكت عاد، لحق بمكة، حتى مات[4].

---

(1) قصة شداد بن عاد مختصرة عن وهب في الملوك المتوَّجة من حِمير: 74، وأورد ياقوت قصة إرم ذات العماد مختصرة، وتبرأ من صحتها، وقال: وظننا أنها من أخبار القُصّاص المنمقة، وأوضاعها المزوقة. معجم البلدان 1: 157. كان كعب يروي القصة لمعاوية بن أبي سفيان، في مجالس ليلية فيها «أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها... فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها». مروج الذهب 3: 50، 52. ويبدو إنهم حفظوا رواية كعب لقصة جنة شداد بن عاد، وكان معاوية يكذب كعب الأحبار في روايته عن أهل الكتاب، صحيح البخاري 6: 2679.
ومن المستبعد أن يكون معاوية استمع إلى كعب في خلافته، فقد تُوفِّي كعب قبلها، فمن كان يكذب على من؟. لا نستطيع الإجابة إلا باستيعاب وظيفة السرد في الثقافة الإسلامية، ولها مجال للبحث آخر.

(2) إعادة لبعض أحداث قصة لقمان بن عاد، بتنزيل القصة في سياقها التاريخي.

(3) الملوك المتوَّجة من حِمير: 80.

(4) البدء والتاريخ 3: 26.

ثمود

إن عاداً لَّا عذبهم الله بالريح التي عذبوا بها، كانت تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم، فمن لم يكن في بيت هبت به الريح حتى تقطعه بالجبال، فهلكوا بذلك كلهم، وأما ثمود، فإنهم عتوا على ربهم، وكفروا به، وأفسدوا في الأرض، فبعث الله إليهم صالح بن عبيد بن أسف بن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح، رسولاً، يدعوهم إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة[1]، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس، وكانت مساكن ثمود الحجر، بين الحجاز والشام[2].

وكان من قصتهم، على ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار، والسدي، والكلبي، ووهب بن مُنبِّه، وكعب، وغيرهم من أهل الكتب، دخل كلام بعضهم في بعض[3]: أن عاداً الأولى، لَّما أهلكهم الله تعالى، وانقضى أمرهم، عمرت ثمود بعدهم، واستخلفوا في الأرض، فحلوا فيها، وكثروا وعمروا، حتى جعل بعضهم يبني المسكن من المدر، فينهدم وهو حي، فلمّا رأوا ذلك، اتّخذوا من الجبال بيوتاً، فنحتوها، وجابوها، وجوفوها، وكانوا في سعة من معايشهم[4]، كما قال الله تعالى: { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } سورة

---

(1) تاريخ الرسل والملوك، 1: 226.

(2) قصة ثمود في قصص الأنبياء للثعلبي: 61 – 66. والحجر اسم ديار ثمود، بوادي القرى بين المدينة والشام. معجم البلدان 2: 221. وقد أفاد الثعلبي من الطبري. جامع البيان 12: 524. فنقل عنه: «وثمود، هو ثمود بن غاثر (عابر) بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن غاثر، وكانت مساكنهما الحجر، بين الحجاز والشام، إلى وادي القرى وما حوله». والطبري أفاد من وهب . الملوك المتوّجة من حِمير: 32 – 33. حيث قال: فولد سام أرفخشد وإرم، وبنين كثيراً درجوا، ودرج أبناؤهم، فولد إرم عوصاً، فولد عوص عاد الأكبر، وولد عابر بن إرم، فولد عابر ثموداً. وفي أخبار عبيد بن شَرْيَة: 331. تحديد الحجر مكاناً لثمود، وتعيين جديساً أخاً لثمود: «ونزل هؤلاء الحجر إلى قرح، وهو نحو وادي القرى، بين الشام والحجاز، قال ثمود أيضاً يدعو آخاه جديساً ويرغبه في إتباعه إياه: ... ». فتؤول المعلومات هنا إلى وهب. وعندما ينسب الطبري رواياته إلى ابن إسحاق، كما سنرى، فإنها ترجع إلى وهب، وذلك لأن ابن إسحاق اعتمد على مبتدأ وهب كثيراً، كما تبين في جمع المبتدأ لابن إسحاق. للتفصيل ينظر. المبتدأ في قصص الأنبياء: 27. وعندما كتب الثعلبي كتابه، وهو ينقل عن الطبري، تجاوز، في أحيان كثيرة، إسناد المرويات لابن إسحاق، ومن ثمَّ لوهب، وأبقى على رواية الطبري.

(3) يوضح الثعلبي أنه ينقل عن وهب، ضمن الأسماء التي ذكرها، ولكن نقله عنه كان من خلال ابن إسحاق، بدليل أنه لم ينص على رواية وهب، في حين أنه نص على رواية ابن إسحاق ثلاث مرات. قصص الأنبياء للثعلبي: 64، و65 مرتين. كما أني سوف أؤكد الرواية عن وهب بتخريج نصوصها من المصادر الأخرى.

(4) عن عمرو بن خارجة. جامع البيان 15: 374. تاريخ الرسل والملوك 1: 227. وفي أخبار عبيد بن شَرْيَة: 384. يرويها عبيد نفسه، وهي في الأصل لكعب الأحبار. قصص الأنبياء للكسائي: 226.

الأعراف: 74. فخالفوا أمر الله[1]، وعبدوا غيره، وأفسدوا في الأرض.

مبعث صالح

فبعث الله إليهم صالحاً نبياً، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن حاذر بن ثمود، [بعثه إلى قومه حين راهق الحلم، وكان رجلاً أحمر إلى البياض، سبط الشعر، وكان يمشي حافياً ولا يتخذ حذاء، كما يمشي المسيح، ولا يتخذ مسكنا ولا بيتا، ولا يزال مع ناقة ربه حيث توجهت، وهو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وكانت منازل قومه بالحجر، وبين الحجر وبين قرح ثمانية عشر ميلا، وقرح: هي وادي القرى][2]، [ولا يزال مع ناقة ربه حيثما توجهت توجه معها وحيثما نزلت نزل معها، وكان قد صام أربعين يومًا قبل أن تعقر الناقة، وكانت على يده اليمنى شامة علامة، فلبث فيهم أربعين عامًا يدعوهم إلى الله من لدن كان غلامًا إلى أن شمط وهم لا يزدادون إلا طغيانًا][3].

وكانوا قوماً عرباً، وكان صالح من أوسطهم نسباً، وأفضلهم حسباً، فبعثه الله تعالى إليهم رسولاً، فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى عبادته، فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون، فلمّا ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ، وأكثر عليهم التخويف والتحذير، سألوه أن يريهم آيةً، تكون مصداقاً لّما يقول، فقال: اللهم، أرهم آيةً؛ ليعتبروا بها. ثمَّ قال لهم: أي آية تريدون؟. قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا. وكان لهم عيد، يخرجون إليه بأصنامهم، في يوم معلوم من السنة، فتدعو إلهك، وندعوا آلهتنا، فإن استجيب لك، اتبعناك، وإن استجيب لنا، اتبعتنا. فقال لهم صالح: نعم.

الناقة والصخرة

فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك، وخرج صالح معهم، فدعوا أوثانهم، وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيءٍ، مما يدعو به، ثمَّ قال جندع بن عمرو بن جواس، وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح، اخرج لنا من هذه الصخرة، يعني الصخرة المنفردة عن الجبال، في ناحية الحجر، يقال لها: الكاثبة، ناقة مخترجة، جوفاء وبراء عشراء[4]، والمخترجة ما شاكلت البخت[5] من الإبل، فإن فعلت ذلك، صدقناك، وآمنا بك.

فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه، إن فعل ذلك، صدقوه وآمنوا به، ثمَّ إن صالحاً صلى ودعا

(1) ما سبق ورد ملخصاً عن وهب عند الطبري، في تاريخ الرسل والملوك: 1: 226. ثمَّ تبدأ الرواية عن ابن إسحاق (عن وهب). في جامع البيان 12: 527.

(2) المعارف: 29.

(3) المستدرك على الصحيحين 2: 617.

(4) جوفاء ذات بطن، أي ذات سمنة، وبراء ذات وبر، عشراء مضى على حملها عشرة أشهر. ولسان العرب: جوف، عشر.

(5) البخت جمال خراسانية، طوال الأعناق. جبلت على خلقة الجمل، وهي أكبر منه وأعظم. لسان العرب: بخت، خرج. أي هي ناقة ضخمة، تشبه خلقة البعير.

الله تعالى بذلك، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، ثمَّ تحركت الهضبة، فانصدعت عن ناقة[1] عشراء جوفاء وبراء، كما سألوه لا يعلم ما بين جنبيها، إلا الله تعالى عظمًا، وهم ينظرون، ثمَّ نتجت سقباً[2]، مثلها في العظم، فآمن به جندع بن عمرو، ورهط من قومه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويتابعوه، فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب، صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر، وكانوا من أشراف ثمود، وكان لجندع بن عمرو ابن عم، يقال له: شهاب بن خليفة. فأراد أن يسلم، فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال رجل من ثمود[3]: [من الوافر]

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا

عزيز ثمود كلهم جميعاً ... فهم بأن يجيب ولو أجابا

لأصبح صالح فينا عزيزاً ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا

ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذبابا

***

شرب الناقة

فلمّا خرجت الناقة، قال صالح: { قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } سورة الشعراء: 155. فمكثت الناقة، ومعها سقبها في أرض ثمود، ترعى الشجر، وتشرب الماء، فكانت ترد الماء يوماً، ولهم يوم، فإذا كان يومها، وضعت رأسها في بئرٍ، بأرض الحجر، يقال لها: بئر الناقة. فيرتفع الماء إليها، فما ترفع رأسها، إلا وقد شربت جميع ما فيها، ولا تدع قطرة ماءٍ فيها، فتتفحج[4]، ثمَّ تروح عليهم، فيحلبون من لبنها ما شاءوا، فيشربون ويدخرون، ويملأون أوانيهم، لكن تصدر من غير الفج الذي وردت منه؛ لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث وردت؛ لأنه يضيق عليها.

فإذا كان الغد من يومهم، شربوا من الماء، وقد أخرجه الله تعالى لهم من البئر، وادخروا ما شاءوا قدر كفايتهم، في يوم الناقة، وكانوا من ذلك في سعةٍ ودعة، وكانت الناقة في الصيف، إذا كان الحر، تطلع ظهر الوادي، فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم، وتهبط إلى بطن الوادي في حره وحدته، فكانت المواشي تنفر منها، إذا رأتها، وإذا كان الشتاء، سبقت الناقة إلى بطن

---

(1) المعارف: 29.

(2) السقب ولد الناقة الذكر. لسان العرب: سقب.

(3) مهوش بن علقمة في أخبار عبيد بن شَرْيَة: 387، وفي جامع البيان 12: 530، مهوس بن عنمة بن الدميل.

(4) تبعد ما بين ساقيها. لسان العرب: فحج. ليحلبوها.

الوادي، فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والحدة، وإلى بطن الوادي في الحر، فأضر ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار، وكانت مراتعها، فيما يزعمون، الحباب وحسمى، كل ذلك مع وادي الحجر، فكبر ذلك عليهم، حتى عزموا على عقر الناقة، فاحتالوا في عقرها.

عنيزة وصدوف

وكانت امرأة من ثمود، يقال لها: عنيزة بنت غنم بن مجلز. وتكنى أم غنم، وهي من بني عبيد بن المهل، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزاً مسنة، ولها بنات حسان، ومال كثير من الإبل والبقر والغنم، وامرأة أخرى، يقال لها: صدوف بنت المحيا بن مهر، وكانت غنية جميلة، ذات مواشٍ كثيرة، وكانت هاتان المرأتان من أشدُّ الناس عداوةً لصالح، وكانتا تحتالان في عقر الناقة؛ من كفرهما بصالح، لمَّا أضرت الناقة بمواشيهما.

وكانت صدوف عند ابن خال لها، يقال له: صنيم بن هراوة بن سعد بن الغطريف بن هلال، فأسلم وحسن إسلامه، وكانت صدوف قد فوضت إليه مالها، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح، حتى نفذ المال، فاطلعت صدوف على إسلامه، فعاتبته على ذلك، فأظهر لها دينه، ودعاها إلى الله تعالى، فأبت عليه، وأخذت أولادها، فغيبتهم في بني عمها الذي هي منهم، فقال لها زوجها: ردي علي أولادي. فلمَّا ألح عليها قالت: حتى أحاكمك إلى بني عمي، وذلك أن بنِي عم زوجها كانوا مسلمين، فأبت أن تحاكمه إليهم، فقال لها بنو عمها: والله، لتعطينه ولده طائعةً أو كارهة. فلمَّا رأت ذلك، أعطته أولاده.

قدار عاقر الناقة

ثم إن صدوف وعنيزة احتالتا في عقر الناقة؛ للشقاء الذي كتب عليهما، فدعت صدوف رجلاً من ثمود يقال له: الخباب، وأمرته بعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها، إن هو فعل ذلك، فأبى عليها، ثمَّ إنها دعت ابن عم لها، يقال له: مصدع بن مهرج. وجعلت له نفسها، إن هو عقر الناقة، وكانت من أوفر الناس جمالاً، وأكثرهم مالاً، وأحسنهم كمالاً، فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة قدار بن سالف، من أهل قرح، واسم أمه قديرة، وكان رجلاً أشقر، أزرق قصيراً، ويزعمون أنه كان لزنية رجلٍ، يقال له: صهياد، ولم يكن لسالف، ولكنه قد ولد على فراشه، فقالت له: يا قدار، أعطيك من بناتي أيها شئت، على أن تعقر الناقة. وكان قدار عزيزاً في قومه.

قالوا: فانطلق قدار ومصدع، فاستعانوا بمن استعانوا من ثمود، فاتبعهم سبعة نفر، وكانوا تسعة رهط، كما قال الله تعالى: { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } سورة النمل: 48. فلقيهم هديات بن مبلغ، خال قدار، وكان عزيزاً من أهل الحجر، وذعر بن

غنم بن داعرة، أخي مصدق، وخمسة لم تذكر أسماؤهم[1]، فاجتمعوا على عقر الناقة.

قال وهب[2]: فانطلق قدار ومصدع، وأصحابهما السبعة، فرصدوا الناقة، حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل شجرة على طريقها، وكمن لها مصدق في أصل شجرة أخرى، فمرت الناقة على مصدع، فرماها بسهمٍ، فانتظم بعضلة ساقيها، وخرجت أم غنم وعنيزة، وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن النساء وجهاً، فتراءت لقدار، وأسفرت له عن وجهها، وحرضته على عقر الناقة، فشد عليها بالسيف، فكشف عرقوبها، فأرداها، وطعن في لبتها، فنحرها، وخرج أهل البلدة، واقتسموها، وأكلوا لحمها. وكانت، لمَّا عقرها، رغت، فلمَّا رأى سقبها ذلك، انطلق حتى أتى جبلاً منيعاً[3].

دعاء صالح

فأتى صالح، فقيل له: أدرك ناقتك، فقد عقرت!. فأقبل، وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه، ويقولون: يا نبي الله، إنما عقرها فلان، ولا ذنب لنا. فقال لهم صالح: انظروا هل تدركون فصيلها، فإن أدركتموه، فعسى أن يرفع عنكم العذاب. فخرجوا يطلبونه، فلمَّا رأوه على الجبل، ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله إلى الجبل، فتطاول في السماء حتى ما تناله الطير، وجاء صالح. فلمَّا رآه الفصيل، بكى حتى سالت دموعه، ثمَّ رغا ثلاثاً، وانفجرت الصخرة فدخلها، فقال صالح: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ } سورة الأعراف: 34. { تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} سورة هود: 65.

واتبع الفصيل أربعة نفرٍ، من التسعة الذين عقروا الناقة، وفيهم مصدع وأخوه ذؤاب، ولد مهرج، فرماه مصدع بسهمٍ، فانتظم قلبه، ثمَّ جر برجله، فأنزله، وألحقوا لحمه مع لحم أمه.

أيام العذاب الثلاثة

فقال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله، فأبشروا بعذاب الله تعالى ونقمته، فقالوا مستهزئين به: ومتى ذلك، يا صالح؟، وما آية ذلك؟. وكانوا يُسمُّون الأيام، فيوم الأحد الأول، والاثنين أهْون، والثلاثاء دُبَار، والأربعاء جُبَار، والخميس مؤنس، والجمعة العَروبة، والسبت شُبَار، وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

أؤمل أن أعيش وإن يومي ... بأول أو بأهون أو جبارِ

(1) استخدم الثعلبي عبارة الطبري نفسها. جامع البيان 12: 532. إذ لم ينقل الطبري أسماءهم، والتسعة مع اختلاف فيها في نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب: 64. وأسماء أخرى في تفسير مقاتل 2: 480. وأسماء خمسة منهم فقط في أخبار عبيد بن شَرْيَة: 392.

(2) قال الثعلبي: قال ابن إسحاق وغيره. قصص الأنبياء: 65. وهو لوهب، كما سيأتي.

(3) المعارف: 29.

أو التالي دبار، فإن أفته فمؤنس أو روبة أو شبار

***

وكان عقر الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح، حين سألوه عن وقت العذاب وآيته: إنكم تصبحون غرة مؤنس، ووجوهكم مصفرة، ثمَّ تصبحون يوم العروبة، ووجوهكم محمرة، ثمَّ تصبحون يوم شبار، ووجوهكم مسودة، ثمَّ يصبحكم العذاب يوم الأول[1].

فأصبحوا يوم الخميس، ووجوههم مصفرة، كأنما طليت بالخلوق[2]، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، فأيقنوا بالكلام، وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم، فطلبوه؛ ليقتلوه.

التآمر على قتل صالح

فخرج صالح هارباً منهم، حتى لحق إلى بطنٍ، من ثمود، يقال لهم: بنو غنم. فنزل على سيدهم، رجل منهم يقال له: نفيل. ويكنى أبا هدب. وهو مشرك، فغيبه عنهم، فلم يقدورا عليه، فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم؛ ليدلوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح، يقال له مبدع بن هرم: يا نبي الله، إنهم ليعذبوننا؛ لندلهم عليك، أفندلهم؟. قال: نعم. فدلهم عليه مبدع، فأتوا أبا هدب، فكلموه في ذلك، فقال: نعم، هو عندي، وليس لكم إليه سبيل. فأعرضوا عنه وتركوه، وشغلهم عنه ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه، فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم.

فلمَّا أمسوا، صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل. فلمَّا أصبحوا اليوم الثاني، إذا وجوههم محمرة، كأنما خضبت بالدم، فصاحوا، وضجوا وبكوا، وعرفوا أن العذاب واقع بهم، فلمَّا أمسوا، صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومان من الأجل، وحضركم العذاب. فلمَّا أصبحوا اليوم الثالث، إذا وجوههم مسودة، كأنما طليت بالقار، فصاحوا جميعاً: ألا قد حضركم العذاب، فلمَّا كان ليلة الأحد، خرج صالح من بين أظهرهم، وخرج معه من آمن به.

الصيحة

فلمَّا أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا، وكان حنوطهم الصبر والمر، وكانت أكفانهم الأنطاع[3]، ثمَّ ألقوا أنفسهم بالأرض، فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرةً، وإلى الأرض مرةً، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلمَّا اشتدَّ الضحى من يوم الأحد[4]، أتتهم صيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء، له صوت في الأرض، فقطعت قلوبهم في صدورهم، فلم يبق

(1) سرد مختصر عن وهب، وهو يتناول الأحداث البارزة، في البدء والتاريخ 3: 38 – 39.

(2) نوع من الطيب، يؤخذ من الزعفران، تغلب عليه الحمرة والصفرة. لسان العرب: خلق.

(3) النطع قطعة جلد، ينام عليها.

(4) وسرد آخر، في الممالك والمسالك للبكري 1: 97 – 99.

فيهم صغير، ولا كبير إلا هلك، كما قال: { فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كان لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ } سورة هود: 67 - 68.

الجارية المقعدة

ولم ينج منهم إلا جارية مقعدة، يقال لها: ذريعة بنت شاف. وكانت كافرةً، شديدة العداوة لصالح، فأطلق الله لها رجليها، بعد ما عاينت العذاب أجمع، فخرجت كأسرع شيء، يكون، حتى أتت قرحاً، وهو وادي القرى، حد ما بين الحجاز والشام، فأخبرتهم بما عاينت من العذاب، وما أصاب ثمود، ثمَّ استسقت من الماء، فسقيت، فلمّا شربت، ماتت.

وفاة صالح

فلمّا أهلكهم الله، قال صالح لمن آمن معه: يا قوم، إن هذه دار قد سخط الله على أهلها، فاظعنوا عنها، والحقوا بحرم الله وأمنه. فأهلوا من ساعتهم بالحج، وأحرموا في العباء، وارتحلوا على قلائص حمراء، مخطمة بحبال من ليف، ثمَّ انطلقوا يلبون، حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فقبورهم في غربي الكعبة، بين دار الندوة والحجر، وكان صالح رجلاً تاجراً[1].

(1) المعارف: 30 - 31. وأخبار مكة للأزرقي 1: 83. والبدء والتاريخ 3: 41. والمسالك والممالك للبكري 1: 100.

البئر المعطلة والقصر المشيد وأصحاب الرس

ولمَّا أهلك الله تعالى قوم نوح بالطوفان، وقوم عاد بالريح، وقوم ثمود بالدمدمة، وأهل البئر المعطلة، وأهل القصر المشيد بالصيحة، وأصحاب الرس بالمسخ، أتى بعد ذلك قوم آخرون، من ولد حام ويافث[1].

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 264. نفهم من هذا القول أولًا أن تسلسل القصص هو: نوح، ثمَّ عاد، ثمَّ ثمود، ثمَّ قصة أهل البئر المعطلة، ثمَّ قصة أهل القصر المشيد، ثمَّ قصة أصحاب الرس، ثمَّ القصص الأخرى، ونفهم ثانياً أنها كانت برواية وهب، وقد سبقت روايته لقصص نوح وعاد وثمود، كما مر، ويفترض أنه روى قصص أهل البئر المعطلة، والقصر المشيد، ولكني لم أجدهما بروايته، على ما اطلعت عليه، ووجدت روايتهما عن كعب، ولما كان كان التبادل بين اسميهما قائماً، ولما كان اشتراكهما في الرواية الواحدة، كما مر، قائماً أيضاً، فقد بنيت على ذلك، وأثبت قصص أهل البئر المعطلة، والقصر المشيد، وأصحاب الرس، على التسلسل نفسه. ورواية وهب عن أصحاب الرس تجعل النبي شعيباً مرسلاً إليهم: «أصحاب الرس، قال وهب بن مُنبِّه: كانوا أهل بئر، قعوداً عليها وأصحاب مواشٍ، وكانوا يعبدون الأصنام، فوجه الله إليهم شعيبا يدعوهم الى الإسلام فأتاهم ودعاهم، فتمادوا في طغيانهم، وفي أذى شعيب». الكشف والبيان 7: 133. والجامع لأحكام القرآن 13: 32. فيكون شعيب مرسلاً في قصة مدين، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس.

كوش والنمرود

قال وهب: ... أتى بعد ذلك قوم آخرون، من ولد حام ويافث[1].

كوش بن حام

وكانت النبوة في ولد سام، والملك والتجبر في ولد حام، والقسوة في ولد يافث، وكانت بلاد المشرق ليافث[2]، وبلاد المغرب لحام، وكان لحام ولد اسمه كوش بن حام[3]، وكان له أخ، يقال له: زاعورا، وكانا جبارين، لا يطيقهما أحد، وكان كوش أشدَّ قوةً وتجبراً من أخيه، وكان أسمر اللون، أزرق العينين، عظيم الخلق، له أظفار كمخالب السباع.

فخرج بعساكره، يطوف شرقاً وغرباً، يقاتل من ينازعه، يسبي من يخالفه، إلى أن وصل إلى كوثى من أرض العراق[4]، وهي أرض ذات أشجار وأنهار، فاستطابها، وعزم على أن يسكنها، ويتخذها لنفسه منزلاً، فعسكر هناك، وجاء بالمنجمين، وقال لهم: إني أريد أن تنظروا، فقد استطبت هذا المكان من جملة ما طفت، وقد عزمت على أن اتَّخذه منزلاً، فانظروا أيصلح ذلك لي أم لا؟، فقالوا: أيها الملك، أمهلنا ثلاثة أيام حتى نتأمل، فأمهلهم.

فلمّا كان اليوم الرابع أتوه، وقالوا: أيها الملك، إنا نجد، في علم النجوم، أن يكون في هذا المكان، ملك عظيم الشأن، يملك الشرق والغرب، فتبسم كوش، وقال: أنا ذلك الملك، ثمَّ أمر أصحابه بالبنيان في ذلك المكان، فبنوا القصور الرفيعة، والأماكن المزخرفة، والتصاوير العجيبة، والمنازل المشرفة على كل موضع منه، وكل مكان على لونٍ، غير لون الآخر، وفي كل بيت منها فرش، على مثال لونه، وأمر باتخاذ بساتين، وغرسها بالأشجار من كلِّ لون، وشق الأنهار من كلِّ جانب، وأمر الزراع بالزراعة فزرعت، وعمر ذلك المكان، حتى لم يكن لأحدٍ، خير منه.

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 264 – 332.

(2) هي لسام كما مرَّ.

(3) أبناء حام بن نوح: كوش، وقوط، وكنعان هو ابن كوش بن حام. تاريخ الرسل والملوك 1: 125. و نمرود بن كوش بن حام، صياد جبار، وملك قدير، مؤسس الأسرة الحاكمة في بابل وشنعار وأكاد في بلاد شنعار. قاموس الكتاب المقدس: نمرود. قال وهب: ملك الأرض أربعة مؤمنان، وكافران، فأما المؤمنان، فسليمان بن داود، وذو القرنين، وأما الكافران، فنمروذ وبختنصر، وكان نمرود أول من تجبر وقهر وغصب، وسن سنن السوء، وأول من لبس التاج، ووضع أمر النجوم، ونظر فيه وعمل به. وأهلكه الله ببعوضة دخلت في خياشيمه، فعذب بها أربعين سنة ثمَّ مات. المعارف: 32. وقصص الأنبياء للثعلبي: 67.

(4) كوثى العراق كوثيان، أحدهما كوثى الطريق، والآخر كوثى ربى، وبها مشهد إبراهيم الخليل، وبها مولده، وهما من أرض بابل، وبها طرح إبراهيم في النار، وهما ناحيتان. معجم البلدان 4: 487.

كنعان بن كوش

ثم ولد له مولود، يقال له: كنعان، وكان لكوش ابن آخر، أكبر منه، يقال له: الهاص[1]، وكان كنعان قوي البطش، مولعاً بالصيد، وكان جباراً، ومن جبروته أنه كان يصيح بالسباع والوحوش، فتنشق مرارتها من شدَّة صيحته، وتسقط على وجوهها، ثمَّ إن كوش مات، فصار الملك إلى ولده الهاص، وكنعان، خلاف ذلك، مولع بالصيد، وبينما هو في برية كوثى، إذ نظر إلى امرأةٍ، ترعى بقرات.

فأعجب بها، وراودها عن نفسها، فامتنعت، فلمَّا أكثر عليها، قالت: يا هذا، إن لي زوجاً، خلفته ورائي مقبلًا، وأنا أخاف عليك منه، أن يراك معي، فيغضب، فغضب كنعان، وقال: هل على وجه الأرض أحد، يطاولني، وأنا ولد كوش بن حام، ونحن ملوك الأرض كلها؟، فضحكت المرأة كالمستهزئة به، وقالت: لا تذكر الملوك، وأنت رجل صياد.

فبينما هما في الحديث، إذ أقبل زوجها، فلمَّا بصر بهما، غضب غضباً شديداً، وتقدم إلى كنعان، فلطم وجهه، فرماه على قفاه، وبرك على صدره، يريد ذبحه، فلاطفه كنعان، واعتذر إليه، حتى قام عن صدره، فوثب كنعان، من تحته، فحمله ورفعه، وضرب به الأرض، فقتله، وأقبل على المرأة، وكان اسمها شلخا، فقال: كيف رأيت يا شلخا؟، ثمَّ مد يده إليها، فقالت: يا هذا، إنك تزعم أنك من أولاد الملوك، فما حاجتك إلى مثلي، وأنا امرأة فقيرة؟، فلم يلتفت إلى كلامها وواقعها، ثمَّ احتملها إلى منزله، وكانت أحظى نسائه عنده.

ووقعت حرب بين ولد يافث، والهاص بن كوش[2]، فاقتتلوا قتالًا شديداً، حتى غلب الهاص، فكتب جومر بن سويد بن يافث إلى كنعان، وذكر له ما جرى عليه من أخيه الهاص، وطلب منه إعانته عليه، فأجابه إلى ذلك، وشرط أن يتزوج ابنته، فأبى، وقال: لا أزوجها منك، لأنك لست من أولاد الملوك، وإنما أنت رجل صياد، فشق ذلك على كنعان، واستشاط غضباً.

ثم أقبل على أخيه الهاص بن كوش، فقال: إنك تعلم أني سلمت إليك هذا الملك، وما نازعتك فيه، وهذا جومر بن سويد بن يافث، قد جرى بيني وبينه أمر، في تزويجي ابنته، وأنه كرهني، وأنا أسألك أن تعينني بعسكر من عندك، فأصير إليه، وأحمل ابنته قهراً، واقتله وقومه قتلًا ذريعاً، فقال له الهاص: يا أخي، إن جوهر بن سويد كان من سادات ولد يافث، ولا يجوز أن أعينك على قتله، وقد صدق في قوله: إنك لست من أولاد كوش، وإن جميع ولد حام متبرئون منك، فغضب عند ذلك، كنعان، وبادر إلى أخيه الهاص، وأخذ برجله، فاحتمله عن سريره، وضرب به الأرض، ولم يزل يدوس بطنه، حتى قتله، واستولَّى على الملك، ثمَّ إنه أمر بصلبه.

---

(1) في تاريخ الرسل والملوك 1: 142 الهاصر، وهو نمرود نفسه.

(2) أو بين أبناء حام وأبناء يافث. الأساطير للشوك: 118، والمعنى واحد.

ولما استقر أمره في حشمه وخدمه وعسكره، أمرهم بالخروج إلى حرب زاعورا[1]، فأجابوه إليه، فلم يزل حتى لقيه، فقتله وصلبه، ثمَّ حمل ابنته، فتزوج بها، وانصرف إلى كوثى، وكان لزاعورا ابن، يقال له: بلخ، كان قد ارتحل عن موضعه، فجمع الجموع، وقاتل كنعان، حتى طالت الحرب بينهما، ثمَّ انهزم كنعان، ثمَّ عاد، فقتل من أصحاب بلخ خلقاً كثيراً، ثمَّ أراد كنعان أن يعاود قتال بلخ بن زاعورا، فجمع خلقاً كثيراً، وكتب إلى عوج بن عناق ملك الجبابرة، أن يعينه على قتاله.

فجاء عوج في سبعين رجلًا من الجبابرة، تحت يد كل رجل منهم عشرة آلاف، وسار كنعان بهذا الجمع العظيم، فقاتل بلخ بن زاعورا، حتى جرت بينهم مقتلة عظيمة، وأسر كنعان بلخ، فقتله وأخذ امرأته، فتزوجها واحتوى جميع مملكته وأمواله، حتى حصلت له الدنيا، ولم يكن هناك من ينازعه.

مولد النمرود

ثم إنه رأى، ذات ليلة في المنام، رؤيا، فانتبه مذعوراً، ودعا المنجمين والمعبرين، وقال لهم: إني رأيت كأني صارعت رجلاً، فصرعني، وقال لي بعد أن دق عنقي: أنا مشؤوم أهل الأرض، ومنزلي الظلمة، وأنا أخرج من ظلمتي هذه إلى ضوء الدنيا، لأخليك منها، فدعا المنجمين، فقالوا: أمهنا ليلتنا هذه، بعد أن سكنوا روعه، ثمَّ رجعوا وقالوا: يولد لك ولد مشؤوم، يكون فيه هلاكك، وقد وقع في بطن أمه، ثمَّ انصرفوا من عنده.

وقد تبين الحمل على شلخا، وكانت تسمع من بطنها صوتاً عجيباً، فقام لها كنعان، وقال: يا شلخا هذا الذي في بطنك ليس بآدمي، وإني لأسمع في بطنك أبداً جلبةً عظيمة شديدة، وهم أن يدوس بطنها، ليقتل ذلك المولود، فهتف به هاتف، يقول: مه يا كنعان، ليس إلى قتله سبيل.

فلمَّا استوفت أيامها، وضعت غلاماً أحول أسود أفطس، وإذا بحيةٍ رفيعة، قد خرجت من جحرٍ، فدخلت في أنف ذلك الغلام، ففزعت شلخا، ووثبت حتى دخلت على كنعان، فخبرته بذلك، فقال كنعان: ويحك يا شلخا، اقتليه، فهذا ولد مشؤوم، فقالت: لا يطيب على قلبي أن اقتله، فإنه ولدي، وقرة عيني، قال: فاحمليه إلى بعض المواضع في البرية، واطرحيه هناك لعله يموت.

فلماً خرجت به إلى ظاهر البلد، فإذا هي براعٍ، يرعى بقرات ، فقالت شلخا: خذ هذا المولود، وربه، يكن لك عبداً، فأخذه الراعي، ووضعه تحت البقر، فنفرت عنه البقرة، وتفرقت عنها أولادها، وصعب على الراعي جمعها، وكلما جمعها تفرقت، وأقبلت امرأته فأخبرها بخبر المولود، فقالت: إذا كانت البقر قد نفرت منه، وتفرقت، فإنه لولد مشؤوم، فاقتله، فأبى الراعي، وقال لها: افعلي به ما تريدين، فأخذته إلى نهر، فطرحته فيه، تريد موته، فألقى النهر بالمولود إلى

(1) زاعورا أخو كوش، فهو عم كنعان.

شاطئه، وهو لا يبكي ولا يتحرك، وقيض الله له نمرة، قد وردت تريد الماء، فرأته فوقعت عليه، وأرضعته، ثمَّ انصرفت.

فبصرت بذلك امرأة الراعي فعجبت، وانصرفت إلى القرية، وأخبرت الناس بأمر المولود والنمرة، فخرج الناس، وحملوا ذلك الصبي إلى القرية، وربوه وسموه نمرود؛ لأن النمرة أرضعته، فرباه أهل القرية، حتى بلغ، وجعل يقطع الطريق، ويغير على النواحي والقرى، واجتمع إليه خلق كثير، يريدون النهب والسلب، فبلغ ذلك كنعان، فجعل يبعث إليه بقائد بعد عائد، وهو يهزمهم جميعاً، وجيشه يزداد يوماً بعد يوم، فصار في جيش عظيم.

ملك النمرود

ثم إنه سار إلى كوثى، وقاتل أباه كنعان، فقتله، وهو لا يعلم أنه أبيه، واستولَّى على مملكته، ودان له أهل البلد، واتَّخذها داراً لمملكته، وجعل يغزو ملوك الأرض، واحداً بعد واحد، وهو يظفر بكلِّ واحد منهم، وبذراريه وبخزائنه، فملك البلاد بأجمعها[1]، وسار في سبعين ألف مقاتل، يريد ملك المغرب، وكان اسمه اشنوش، فاستقبله بجميع الغرب حتى التقوا، فتقاتلوا، فظفر به نمرود، واستولَّى على مملكته، ثمَّ رجع إلى ملك بلاد المشرق، فقاتله واستولَّى على مملكته، ثمَّ سار إلى أربنوش ملك اليمن، فظفر به وقتله، فلم يزل كذلك حتى قتل عدة ملوك، وكان آخرهم ملك الهند، فقاتله فقتله، وكان ذلك دأبه، فملك مشرق الأرض ومغربها، ثمَّ رجع إلى كوثى، وقد دان له الجميع[2].

ثم دعا وزراءه وكبراء مملكته، وقال: إني أريد أن أبني بناءً، لم يسبقني إليه أحد، فأشاروا عليه بإحضار آزر بن ماخور[3]، وذكروا له أنه عارف بالنِّجَّارة والبنيان والهندسة، ولا يخفى عليه شيء، من لطيف البناء وغيره، فدعاه، فلمَّا حضر، سجد بين يديه، فقال: أريد قصراً، لم يكن مثله، وفيه جميع العجائب، وتجعل فيه أنواع الزينة والزخرفة، وتجعل لي صورتي في كل مجلس من مجالسه، فكل من يدخل إليه، يرى صورتي ويسجد، وهذه خزائني وأموالي بين يديك، فخذ منها ما أردت واحتجت.

فخرج آزر من عنده، وشرع في البناء، فبنى له قصراً بديعاً، وجعله ألف ذراعٍ في عرضٍ مثل

---

(1) للقصة مماثلة مع أسطورة أوديب.

(2) وهو في التوراة، صياد جبار وملك قدير، ومؤسس الأسرة الحاكمة في بابل وشنعار . قاموس الكتاب المقدس: نمرود.

(3) آزر، أو تارح وتيراح في قصص اليهود: 176، وهو أبو النبي إبراهيم، وتارح اسم عبري معناه عنزة جبلية، وكان تارح يقطن أور الكلدانيين وقضى أغلب حياته فيها، مؤثراً عبادة الأوثان على عبادة الله، وقد عبد القمر، حيث كان له هيكل في أور، مكرس لعبادته، وقد تُوفيٌّ في حاران، في طريق إبراهيم الى فلسطين، وعاش مائتين وخمس سنين. العهد القديم، سفر التكوين 11: 21 – 23، وقاموس الكتاب المقدس: تارح. وقد عينه نمرود كبير امناء مملكته. التلمود: 77.

ذلك، وجعل حيطان القصر من الجواهر والقوارير، وأرض القصر من الزمرد الأبيض، وبنى فيه مجالس، على كل مجلس منه صنعة، لا تشبه صنعة المجلس الآخر، وجعل سقوف المجلس من الصندل والعرعر، وأبوابه من العاج والأبنوس، ومسامير من الفضة، ودسر[1] من الذهب، وجعل الأبواب متلاقيةً، ينفذ كل واحد منها إلى سائر المجالس.

وأجرى في القصر أنهاراً، وأجرى في الأنهار ماءً ولبناً وعسلاً وخمراً، وجعل ثمار هذه الأشجار من جواهر ملونة، وركب عليها طيوراً من ذهب وفضة، ثمَّ اتَّخذ له أسرة في كل مجلس، وصور فيه جميع الصور، وجعل صورة نمرود في كل مجلس، ولما فرغ، بعث إلى نمرود، يخبره بذلك، فلمَّا بلغه، مضى إلى القصر، فدخله وتأمله، فأعجبه، وأمر بخلعةٍ فائقة، وهدايا سنية لآزر، وجعله وزير الوزراء.

بغي نمرود

وأخذ نمرود في التكبر والعجب، فادعى الربوبية والإلوهية[2]، وولع بعلم النجوم، فبينما نمرود في منظرةٍ له، فإذا هو بجماعة من الأحبار العباد، عليهم لباس الصوف والشعر، فقال لهم: من أنتم؟، فقالوا: نحن من بقايا قوم إدريس، وإنا لمَّا رأينا القوم، قد اشتغلوا بعبادة الأصنام، اعتزلناهم في هذه الجبال، لنعبد الله فيها، فأمر بحملهم إلى قصره، ثمَّ استدعاهم، وقال لهم: أنتم بين خيارين: أما أن تدخلوا في ديني، وتعلموني علم النجوم، وتعبدوا من تريدون، وأما أن أقتلكم، فقالوا: نعلمك علمنا، ولم يزالوا يعلمونه، حتى علم شيئاً منه.

النمرود وإبليس

ثم تصوَّر له إبليس في صورة شيخ كبير، وخرَّ له ساجداً، وقال له: إنك تعلمت علم النجوم، واشتغلت به، وعندي علم أحسن منه، فقال له: ما هو؟، قال: السحر والكهانة، وإن من كان مضى قبلك من الملوك، كانت لهم آلهة، يعبدونها، وأنت أعظمهم، فيجب أن تتخذ صنماً لنفسك، وتدعو الناس إلى عبادته.

فدعا نمرود آزر، وأمره أن يتخذ له صنماً، على صورته، وأن يتخذ لقومه أصناماً أخر، فاتَّخذ آزر ذلك من أنواع الجواهر والذهب والفضة والقوارير والخشب، على أقدار الناس، وهي كلها على صورة نمرود، حتى اتَّخذ سبعين صنمًا، وحلاها بالأساور والشنف[3]، ثمَّ إن نمرود أمر الناس بعبادة الأصنام، فصار، إذا ولد لأحدهم ولد، يقول لصنمه: ما أسميه؟، فيقول الشيطان من جوف الصنم: سمه كذا وكذا، وإذا مات له ولد، يقول: أين أدفنه؟، فيقول له الشيطان: ادفنه في موضع كذا وكذا.

---

(1) دسر جمع دسار، وهو مسمار وحبل من ليف، تشد به ألواح السفينة. المعجم الوسيط: دسر.

(2) نصب نفسه رباً. قصص اليهود: 171.

(3) شنف جمع شنف، وهو قرط، يعلق بأعلى الأذن. المعجم الوسيط: شنف.

ثم إن آزر اتَّخذ لنمرود صنمًا، طوله سبعة أذرع، في عرض ذراعين، من الذهب الأحمر، وعيناه من الياقوت، وأذناه من الزبرجد، وأسنانه من اللؤلؤ، وشفتاه من الياقوت، وشعره من الشبح، ووضع على رأسه تاجاً، من الذهب مرصعاً بالجواهر، وجعل في عنقه طوقاً من الذهب الأحمر مرصعاً بالجواهر، وسماه زيلون، واتَّخذ له سريراً من العاج والأبنوس، مشبكاً بقضبان الذهب والفضة.

فلمَّا فرغ من ذلك، أمرهم نمرود أن يقربوا له قرباناً، ففعلوا، وأخذوا في عبادتها، حتى لم يعرفوا سواها، فلمَّا طال الأمد عليهم، طغوا وبغوا وأكثروا الفساد في الأرض، فضجت الأرض والسماء، الشمس والقمر، والوحوش والدواب، وقالوا: ربنا، هؤلاء خلقك، يأكلون رزقك، ويعبدون غيرك، اللهم، دمر عليهم، فأوحى الله إليهم أن اسكنوا، فإني قاضٍ فيهم قضائي، وقد سبقت رحمتي غضبي، فعند ذلك استقروا.

إبراهيم

قال وهب: إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروع [ساروغ] بن ارعوي [ارغو] بن فالغ بن عابر، وعابر بن هود النبي[1]. وقال: إبراهيم أول من ضاف الضيف، وأول من ثرد الثريد وأطعمه المساكين[2]، وهو أول من قص شاربه واستحد، واختتن، وقلم أظفاره، واستاك، وفرق شعره، وتمضمض واستنثر، واستنجى بالماء، وهو أول من شاب، وهو ابن مائة وخمسين سنة، وذلك أن سارة لَمّا ولدت إسحاق قال الكنعانيون: أما تعجبون لهذا الشيخ والعجوز، وجدا غلاماً لقيطاً فتبنياه. فصور الله إسحاق على صورة إبراهيم، فلم يكن يفصل بينهما، فوسم الله إبراهيم بالمشيب[3].

آيات إبراهيم

عند ذلك ظهرت آيات إبراهيم[4]، فكانت أول آية، رآها نمرود، إنه كان جالساً على سريره، فانتفض السرير من تحته، انتفاضاً شديداً، وسمع هاتفاً، يقول: تعس من كفر بإله إبراهيم، وكان آزر واقفاً على رأسه، فقال: يا آزر، أسمعت ما سمعت؟، قال: نعم، قال نمرود: من هو إبراهيم؟، قال: لا أعرف، فأرسل إلى السحرة، فلمّا جاءوا، أخبرهم بما كان، قالوا: أيها الملك، إنا لا نعرف إبراهيم، ولا نظن أن أحداً منا يقدر على معرفته، وأنت قد خضع لك أهل المشرق والمغرب.

---

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 107. والمعارف: 30. وبهذا ربط وهب بين هود نبي عاد من العرب، وبين إبراهيم، وهو الأب الأول لبني إسرائيل. وآزر أو تارح أو تارخ أو تيراح في قصص اليهود: 176، وهو أبو النبي إبراهيم، وتارح اسم عبري معناه عنزة جبلية، وكان يقطن أور الكلدانيين وقضى أغلب حياته فيها، مؤثراً عبادة الأوثان على عبادة الله، وقد عبد القمر، حيث كان له هيكل في أور، مكرس لعبادته، وقد تُوفي في حاران، في طريق إبراهيم الى فلسطين، وعاش مائتين وخمس سنين. العهد القديم، سفر التكوين 11: 21 - 23. وقاموس الكتاب المقدس: تارح.

(2) كان إبراهيم يحدث بنعماء الله كل من قابله، وأنشأ لأبناء السبيل من العابرين روضة، وفتح أبوابه، بكلِّ كرم، للمحتاج والمنقطع وابن السبيل. التلمود: 103.

(3) المعارف: 31.

(4) معنى إبراهيم أبو رهام، أي أبو جمهور. قاموس الكتاب المقدس: إبرام، والعهد القديم، سفر التكوين 17: 5. الختان علامة عهد بين الله وإبراهيم في العهد القديم، سفر التكوين 17: 11. «ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم»، وهذه أضافة متأخرة إلى أسطورة أبراهام، كما رأى شباير، في العهد القديم، سفر التكوين نفسه، وذلك أن الختان كان يمارس على نطاق واسع في العصور القديمة، في بلاد الهلال الخصيب، وكان المصريون والكنعانيون، وهم الشعبان اللذان يفترض احتكاك إبراهيم بهما، كانا يمارسان طقس الختان، فكيف يكون علامة تمييز بين اليهود وغيرهم، والجميع يمارسونه؟، ربما يكون البابليون لا يمارسونه، فيكون الختان في مدة السبي البابلي، وهي متأخرة بآلاف السنين عن عصر إبراهيم، علامة عهد. قصص أهل الكتاب: 252. أي أن حدث الختان لم يكن في أصل القصة، بل أضيف إليها فيما بعد

آية أخرى

فلمّا كان، بعد ذلك بمدةٍ، إذ هو يوماً على سريره، ينظر إلى حسن بناء قصره، إذ سمع هاتفاً، يقول: لا يغرنك حسن قصرك، فقد يجيئك من يخربه، فأين مفرك يا نمرود، من إبراهيم، وإله إبراهيم ؟ !، فاغتم نمرود لذلك، غماً شديداً، ودعا المنجمين، وسألهم: هل تجدون ذلك في كتبتكم؟، قالوا: لا، ولا طلع له نجم، يدل عليه.

فتحير نمرود في أمر إبراهيم، وجمع الأسلحة والأسود والفيلة، وربطها حول قصره، ثمَّ خرج إلى الصيد، فلم يبق معه شيء، من الجوارح وغيرها، إلا نطق، بإذن الله، وهو يقول: يا نمرود، لا يغرنك ذلك الذي جمعته من الأسلحة، والأسود والفيلة، فالآن يجيئك من يهلكك، ولا ينفعك شيء من ذلك، ويحول بينك، وبين ملكك، وانصرف نمرود إلى قصره مغموماً، يومه ذاك.

ثم أرسل إلى آزر، ففتح له بيت الأصنام، فأقبل على صنمه زيلون، وسجد له، ثمَّ سأله عن إبراهيم، فنطقت الأصنام، وقالت: بؤساً لك يا نمرود، إن تركت إبراهيم، وإله إبراهيم، ويلك !، إن إبراهيم لم يخلق بعد، غير أنه قد أطل زمانه، وهو إذا ظهر، سلبك ملكك، ولا يكون لك ملجأ، إلا أن تؤمن به وبربه، فبقي نمرود متعجباً، فقال له آزر: لا يهولنك ما سمعته، فلعل الأصنام ساخطة عليك، فقرب لها قرباناً، فإنك لم تقرب لها منذ زمن بعيد، فقرب لها نمرود سبعمائة ثور، ومثلها من الأغنام.

آية أخرى

وبينما نمرود، ذات يوم، جالساً في صحن داره، فإذا هو بطائرين أبيضين، قد سقطا بين يديه، وقال له أحدهما: ويلكَ يا نمرود !، هلكت وهلك ملكك، فأنا طائر المغرب، وهذا طائر المشرق، قد جاءتنا البشارة: أن إبراهيم قد دنا ظهوره، وأن هلاكك يكون على يديه، إن لم تؤمن برسالته، ثمَّ طارا بين يديه، فدعا آزر، وسأله عن ذلك، فقال: أيها الملك، ما أظن هذين إلا من مردة الجن، وأنهم يحسدونك على ما أنت فيه، حيث إنهم لم يروا أحداً، يقدر على مخالفتك.

آية أخرى

ثم رأى نمرود، في منامه، رؤيا هائلةً، فانتبه فزعاً مرعوباً، ودعا المعبرين، وقال لهم: إني رأيت في المنام رؤيا، كان رجلاً يخرج من عينيه نور، وعليه ثوبان أبيضان، وفي يده قضيب أسود، فدنا مني، وضربني برجله، وقال لي: يا نمرود، أيها أحب إليك، أن تؤمن بإله إبراهيم، أو أكسر تاجك؟، فغضبت من كلامه، فركلني برجله، وقلع عيني اليمنى، وجعلت استغيث، فلا أغاث، فقال لي: كن أعمى العين والقلب، ثمَّ ذهب أمامي، وأنا أنظر إليه، فقال له المعبرون: لعل هذا من اختلاف الأطعمة، وهذه أضغاث أحلام، ثمَّ خرجوا من عنده، وبعضهم يقول لبعض: هذا

يدل على هلاكه، وزوال ملكه.

آية أخرى

وبينما نمرود، ذات يوم، جالساً على سريره، مفكراً في أمر إبراهيم، إذ دخل عليه ملك، في صورة آدمي، بيده اليمنى قارورة بيضاء، وبيده اليسرى قارورة سوداء، ففزع منه نمرود، وقال له: من أدخلك داري؟، قال: رب الدار، وهاتان القارورتان مثل لك، فأما القارورة البيضاء، فهي مثل الجنَّة، وأما السوداء، فهي مثل النار، فاختر منهما ما شئت، فصاح نمرود صيحةً، فأحاط به أعوانه وحجابه، فضرب الملك إحدى القارورتين بالأخرى، وقال له: أهلكك الله، وأهلك ملكك، فقال نمرود: من أذن لهذا الرجل بالدخول علي؟، فقالوا: لا علم لنا به، ومن يقدر على الدخول عليك، وعلى بابك ألف رجل، بأيديهم الأعمدة والسيوف؟، وإنما ذلك من الفكر الرديئة.

فلمَّا كان من الغد، أتاه ذلك الرجل بعينه، في تلك الصورة، وقال له: يا ملعون، أنا ملك، أرسلني الله إليك، وربك يحذرك عذابه، ثمَّ تركه وانصرف، ثمَّ إن نمرود رأى، تلك الليلة، رؤيا هائلة، فدعا آزر، في جوف الليل، وقال له: إني رأيت، في منامي، كان القمر قد خرج من ظهرك، وله نور مثل العمود، ممتد بين السماء والأرض، فخفت من ذلك، فسمعت قائلاً يقول: {جاء الحق وزهق الباطل} سورة الإسراء: 81. ورأيت الأصنام منكسةً على رؤوسها.

فقال له آزر: أيها الملك، إن الأرض كلها كالقمر، لكثرة عبادتي لهذه الأصنام، ألم تعلم أيها الملك، أني لم آل جهداً في خدمتي لأهذه الأصنام، فقال له نمرود: صدقت، ثمَّ خرج آزر من عنده، فدخل بيت الأصنام، فرآها منكسة على رؤوسها، وسمع قائلاً يقول: لقد آن الأوان لأن تعود الأرض إلى حالتها الأولى يا آزر، فتعجب آزر من ذلك، ودعا خدمة الأصنام لإقامتها على أسرتها.

آية أخرى

وبينما نمرود نائماً على سريره، إذا رأى رؤيا أزعجته، فاستدعى وزراءه وكبراء دولته، وقال لهم: إني رأيت من آزر عجائب، ولولا أنه من خواص مملكتي، لقتلته، فإني رأيت، في منامي، كان آزر واقف بين يدي، وقد خرج من ظهره، غصن أخضر، فيه عناقيد ملونة، ثمَّ إن الغصن انتشر، فبلغ المشرق والمغرب، ثمَّ ارتفع حتى صعد إلى السماء، ولم يبق أحد، من أهل مملكتي، إلا سجد له، حتى قصري، وجميع ما فيه، فقال آزر: إنما ذلك لاجتهادي في طاعتك، وخدمة أصنامك، فسكت نمرود، وأهل مملكته، وأعمى الله قلوبهم وأبصارهم، وصدقوا آزر.

آية أخرى

وبينما نمرود قاعداً على سريره، وإذا بملك قد وافاه، في صورة آدمي، فوقف بين يديه،

وقال له: يا نمرود، إلى كم ترى هذه الآيات، في نومك ويقظتك، ولا تؤمن بربك، وذهب عنه، فغفا، فرأى رؤياً أزعجته، فانتبه مرعوباً، وأرسل إلى السحرة والكهنة والمنجمين، وقال لهم: إني رأيت رؤيا هائلة، وإن كتمتموني تأويلها، عذبتكم وألقيتكم للأسود، قالوا: ما الذي رأيت، أيها الملك؟، قال: رأيت نوراً ساطعاً، هو أعظم من نور الشمس والقمر، منتشر بين السماء والأرض، ورأيت قوماً، يسلكون في ذلك النور، ويصعدون إلى السماء، وإذا برجل، أحسن الناس وجهاً، واقف في ذلك النور، والقوم يقولون له: نصرك الله، بك تحيا الأرض بعد موتها، وهذا ما رأيت.

قالوا: إن رأيت أن تؤجلنا ثلاثة أيام، فأجلهم، فخرجوا من عنده إلى آزر، فرأوه قاعداً، على باب نمرود على كرسي، والوزراء قيام بين يديه، فقالوا: أيها الوزير، قد بلغك ما حلف به الملك، وأنه لا يرضى منا إلا بالصدق، وإن رؤياه تدل على مولودٍ، يولد من أقرب الناس إليه، ينازعه في ملكه، فيرث ملكه، ويرث الأرض كلها، ويرتفع ذكره إلى السماء، إلا أنا لا نجرؤ أن نقول له ذلك.

فدخل آزر معهم إلى نمرود، وشفع لهم عنده، والتمس منه الأمان أن يسمع تعبيرهم، على أن يكونوا في أمانٍ منه، فأمنهم، فأوردوا عليه ذلك، وقالوا: تدل رؤياك على مولود، ينازعك في ملكك، لا يجيئك، ومعه سلاح، ولا جند، فتبسم نمرود، وقال: إن ذلك هين أمره، ثمَّ التفت إلى آزر، وقال: هات الآن ما عندك، فقال: أيها الملك، سل هؤلاء المنجمين والكهنة، ممن يكون هذا المولود؟.

قالوا: من ظهر أقرب الناس إليه، وليس لنا علم أكثر من ذلك، فقال الملك: ليس أحد أقرب إلي من ولدي كوش، فأمر بضرب عنقه، وأمر أن يوكل بكلِّ امرأة حامل، قد دنت ولادتها، فإن ولدت غلاماً قتله، فلم يزل يذبح الغلمان، حتى ذبح مائة ألف طفل، ثمَّ دعا المنجمين، وقال لهم: انظروا هل حملت؟، فقالوا: أيها الملك، لم تحمل به أمه بعد، فأخذ نمرود بذبح الأطفال، حتى ضجت الأرض والخلائق كلها إلى الله.

فأوحى الله إليها بالبشارة، فارتجت الأصنام، واضطربت اضطراباً شديداً، فدخل عليها آزر، فرآها ترتج، فسجد لها، فنطقت الشياطين من أجوافها، ووافى نمرود ما كان يحذر منه ويخافه، فخرج آزر خائفاً وجلاً، وأخبر امرأته بذلك، فقالت: وأنا أخبرك بأعجب من ذلك: أني كنت قعدت عن الحيض، منذ كذا وكذا، وقد حضت في يومي هذا، فبقي آزر متحيراً، وقال لها: اكتمي أمرك، كي لا يرفع إلى الملك، ثمَّ أتت على ذلك أيام، وطهرت امرأته.

فسمع هاتفاً، يقول: قد رد الله تعالى على امرأتك شبابها، فجامعها، ليخرج من ظهرك هذا النور الساطع، فلمَّا سمع ذلك، دهش وخرج هارباً على وجهه، فإذا هو بملك، يقول: إلى أين تريد، ارجع، فرد الأمانة التي في ظهرك، فانصرف إلى منزله، ولم يجسر أن يقرب امرأته، فأصبح، فإذا بنور ساطع في وجهه، فقال لامرأته: ويحك يا أوشا، إلا ترين إلى هذا النور الساطع؟،

فقالت: نعم، وأنت يا آزر، إلا ترى ما أنا فيه، كنت امرأة عجوزاً، وقد صرت شابةً نضرة؟، فبات آزر مفكراً في أمره، وأمر زوجته.

وكان آزر هو الذي يقرب للأصنام الطعام والشراب كل ليلة، ثمَّ ينصرف إلى منزله، فتأتي الشياطين على جميع ذلك الطعام، فتأكله، وهم يظنون أن الأصنام هي التي تأكله، فقرب آزر الطعام إليها، وصار إلى منزله، فلمَّا كان الليل، أقبلت الشياطين، على العادة، لأكل الطعام، فإذا هم بالملائكة تصيح بهم، فولوا هاربين، فبقي الطعام على حاله، فلمَّا كان من الغد، دخل آزر فوجد الطعام على حاله، فظن آزر أن الأصنام ساخطة عليه، فعكف على الأصنام، يعبدها لترضى عنه، فأبطأ عن منزله.

فأقبلت امرأته، لتنظر إليه، فلمَّا خلت معه في بيت الأصنام، وقعت الشهوة في قلبه، وهم بمواقعتها، فقالت: إلا تستحيي، تفعل بين يدي إلهك، فلم يعبأ بقولها، فواقعها، فحملت منه بإبراهيم، ثمَّ أصبحت الأصنام كلها منكوسة، وضربت السباع بأذنابها على الأرض، لكثرة رؤيتها الملائكة، الذين يبشرون الأرض، ومن عليها، بحمل إبراهيم.

نجم إبراهيم

وطلع تلك الليلة، نجم إبراهيم، وله طرفان، واحد بالمشرق، والآخر بالمغرب، وله ضوء عظيم، كضوء الشمس والقمر، فتعجب الناس منه، ورآه نمرود، في ليلته، غير أنه بقي متحيراً، لا يعرفه، حتى أصبح، فدعا المنجمين، فلمَّا دخلوا عليه، خروا له سجداً، ثمَّ رفعوا رؤوسهم، فسألهم عن النجم الذي طلع، فقالوا: أيها الملك، هذا نجم جديد طلع، يدل على مولود جديد، يرتفع شأنه، من أولاد الأكابر، ويخشى منه عليك، وعلى أهل مملكتك، وهتف به هاتف، وهو يقول: يا عدو الله، هذا المولود قد حملت به أمه، والله تعالى يهلكك على يديه، فعندها أخذ في قتل الولدان، حتى قتل عدداً، لا يحصى[1].

ثم إن إبراهيم يزداد، في بطن أمه، نوراً وقوة، والله تعالى، بقدرته، لا يطَّلع أحداً على بطنها، حتى أتت عليه أربعة أشهر، فرأت أمه، في المنام، كان ناراً خرجت من تحت ذيلها، فبلغت عنان السماء، فانتشرت في الدنيا، فلماً انتبهت، قصت رؤياها على زوجها آزر، فقال: يا ويلتي، لئن صدقت رؤياك، ليخرجن من بطنك من يبلغ نوره المشرق والمغرب، وليكونن من يخافه الملك، ولكن اكتمي ما رأيت، فقالت: لا عليك، وجعل إبراهيم يزداد نوراً وبهاءً، على مستقبل الأيام.

ونمرود يجتهد في طلب الحبالى، وقتل الولدان، حتى أتى على إبراهيم سبعة أشهر، فرأى نمرود رؤيا، فانتبه جزعاً مرعوباً، فدعا المنجمين والمعبرين، وقال: إني رأيت، البارحة في المنام، كان ناراً نزلت من السماء، لها زفير، وقد تبعها خلق كثير، وهم يقولون: لقد آن للأرض أن ينزل عليها نور، فلم تزل تلك النار، حتى دنت من باب القصر، فوقفت بالقرب مني، ثمَّ نادتني: آمن

(1) مدراش بريشيت رابا 85: 10. قصص اليهود 177، 357. ولها شبة بعلامات قصة مولد موسى.

بربك، وإلا أحرقتك، حتى دنت مني، فأحرقتني، فانتبهت فزعاً، فقال المعبرون: لئن صدقت رؤياك، فهي تدل على تسلمه المملكة، ويخشى من صاحب هذا النجم الطالع، غير أن ملكك وجيشك، لا يقدر عليهم أحد، لكثرتهم.

وبقي نمرود في غم عظيم، حتى أتى على إبراهيم، في بطن أمه، تسعة أشهر، فسألت أمه زوجها آزر، أن يدخلها على الأصنام، لتسألها تخفيف الولادة عليها، فلمّا دخلت بيت الأصنام ليلًا، تنكست الأصنام من على كراسيها، كرامةً لإبراهيم، فخرجت أم إبراهيم فزعة مرعوبةً، فإذا هي بنمرود في قومه، وبين أيديهم الشموع والمشاعل.

فقال نمرود: من هذه؟، قالت: أنا زوجة عبدك آزر، فأراد أن يقول: اقبضوا عليها، فخرج من لسانه: خلوها، ثمَّ أقبلت إلى منزلها مذعورة، فأخذها الطلق في الطريق، فجاءها ملك، وقال لها: لا تخافي وامضي معي، حتى تضعي ما في بطنك، فتبعته، فأدخلها الغار الذي ولد فيه إدريس، ونوح، واسمه في التوراة غار النور[1]، فدخلت، فإذا هي بفرش وقناديل وآلات الولادة، ثمَّ أخذها الطلق، وخفف الله عليها.

مولد إبراهيم

فخافت ذلك، وامتنعت أن تدخل الغار، فنوديت: أن ادخلي الغار، فإنا ملائكة ربك، جئناك لرعايتك، كرامةً لما في بطنك، وخفف الله عليها الطلق، فولدته في الغار ليلة الجمعة، ليلة عاشوراء من شهر المحرم، ولما فارق إبراهيم أمه، وسقط إلى الأرض، استوى قاعداً، فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، { الحمد لله الذي هدانا لهذا } سورة الأعراف: 43.

فبلغ ذلك الصوت المشارق والمغارب، وارتفعت الأصوات، من الأحياء والأموات، وقطع جبريل سرته، وأذن في أذنه، وقدسه وبارك عليه، وغمسه في أنهار الرضوان، وكساه ثوباً أبيض، له نور ساطع، ثمَّ وضعه بين يدي أمه، وأذن الله لأصابعه أن تدر لبناً وعسلاً[2].

فعجبت أمه من ذلك كله، ثمَّ قال لها الملك: قومي إلى منزلك، قبل أن يعلم بولادتك أحد، فقامت خفيفةً، كأنها لم تلد، والملك بين يديها، يدلها على الطريق إلى منزلها، وقال لها: اكتمي أمرك، وفيما رأيت من العجائب كفاية لولدك، فدخلت بيتها، وفي قلبها، من ولدها إبراهيم، شيء عظيم، من فراقها له، وكانت كذلك حتى أصبحت، فدخل عليها زوجها آزر، فإذا هي خفيفة نشيطة، فقالت: يا آزر، إن الذي كان في بطني، لم يكن ولد، وإنما كان ريحاً، وقد ذهبت عني وسكنت، ففرح آزر بذلك، ثمَّ ألقى الله على نمرود النسيان، في أمر إبراهيم، وكانت الملائكة

---

(1) طفولة إبراهيم في كتاب «اليوبيل»، وهو من كتب الأساطير اليهودية. أساطير الأولين للسواح: 41.

(2) جعل الملاك اللبن يتدفق من إصبع يد الرضيع اليمنى لعشرة أيام. بيت هامدراش 2: 118. قصص اليهود: 178، 357.

تزور إبراهيم في الغار[1].

قال وهب: وكان بين نوح وإبراهيم ألف سنة، ومائتا سنة، وأربعون سنة[2]، وقال: فلا يولد نبي ولا صديق، إلا والملائكة تنزل عليه، ولم تصل على أحد، إلا على إبراهيم، ونبينا.

حتى تم لإبراهيم حولان، فأتاه جبريل بطعام من الجنَّة، فأطعمه وسقاه[3]، وعرج إلى السماء، فأقبل إبليس على موضع الغار، فرأى أعلام الملائكة منصوبةً على بابه، ولم يكن له علم بولادة إبراهيم فبقى واقفاً، لا يدري ما يقول، وجعل يفكر كيف يصل إليه، وإلى هلاكه، لعلمه أن لا يولد مثله، محاطاً معصوماً بالملائكة، فقال: ما هذا إلا أمر عظيم، فإذا بهاتف، يهتف به: يا ملعون، إن الله لم يجعل لك عليه من سبيل، هذا نبي الله إبراهيم، فخرَّ مغشياً عليه من هذا الصوت، فلمَّا أفاق، انصرف هارباً.

قال وهب: ما نجا من مكائد إبليس، إلا أربعة رجال، وأربع نسوة، فأما الرجال، فإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وأما النسوة، فآسيا ابنة مزاحم، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ.

ودخل إبليس على نمرود، في صورة شيخ عابد، وقال له: إن المولود الذي تخشاه في غار كذا وكذا، وكان نمرود قد رأى في منامه الغار، والمولود فيه، وسأل وزراءه عنه، فلم يعرفوه، فلمَّا أخبره إبليس، ركب في أعوانه، وإبليس يدله، حتى دنا من الغار، فعماه الله تعالى عليه، ولم يعرفه، فقال له نمرود: أين باب الغار؟، فارتج عليه، فقال: هاهنا وهاهنا، فلمَّا لم يروه، قال: أيها الملك، إن لهذا المولود رباً، يحفظه مني ومنك.

فقال له نمرود: الآن علمت إنك كاذب، ثمَّ رجع إلى قصره، فسمع الهواتف من جانب القصر: أن إبراهيم ليس لك عليه سبيل، فلم يزل مغموماً، في ليله ونهاره، في أمر إبراهيم، حتى استكمل إبراهيم أربع سنين، فأتاه ملك بكسوة من الجنَّة، وسقاه شربة التوحيد، لئلا يشرك بالله شيئاً، وقال له: الآن اخرج من الغار منصوراً، فخرج، وفي يده قضيب من ذهب.

ملكوت السماء والأرض

وكان خروج إبراهيم من الغار، عند غروب الشمس، فجعل ينظر إلى السماوات، فذلك قوله: { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي } على حد الاستفهام، أي: أهذا ربي؟، { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 283.
(2) عشرة أجيال بين نوح وإبراهيم. مدراش بريشيت رابا 12: 9. قصص اليهود: 175، 357.
(3) عن نوف البكالي (أحد القُصَّاصين) أنه قيضت له ظبية ترضعه، إذا أبطأت عليه أمه. البدء والتاريخ 3: 54.

الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } سورة الأنعام: 75 - 79[1].

ثم جعل إبراهيم يقول: ما لي ولمن يحول ويزول، ويغيب ويبرز؟، ثمَّ جعل يردد كلمة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ثمَّ أهبط الله جبريل إلى إبراهيم ، فقال له: قم يا إبراهيم ، فانطلق إلى أمك وأبيك، ولا تخف، فإني معك يا إبراهيم، واذكرني في نفسك، واعرفني بقلبك، فإنك في حفظي.

فخرج إبراهيم من الغار، يريد أباه وأمه، وكانت أمه رأته في منامها، تلك الليلة، برؤيا حسنة، فأصبحت مشتاقة إليه، وحملت الريح رائحته، إلى أمه، فجعلت تقوم وتقعد، فقال لها آزر: يا أوشا[2]، ما أعلم بك هذا إلا من الجنون، فقومي، وادخلي بيت الأصنام، وتعبدي كي تسكني، فقاما جميعاً، في جوف الليل، فدخلا بيت الأصنام، فإذا هما بالأصنام منكوسة، ففزعا ورجعا.

إبراهيم وآزر

وأقبل إبراهيم، ومعه جبريل، حتى أوقفه على الباب، وقال: يا إبراهيم، هذا بيت أمك وأبيك، فدونك ذلك، وتركه وعرج إلى السماء، واستأذن إبراهيم، وقال: ءأدخل؟، فقال آزر : أدخل، فلمَّا دخل، نظر آزر إلى ذلك الحسن والجمال، الذي قد كساه الله، ووثبت أوشا إليه مسرعةً، فاعتنقته، وقالت: ولدي، وعزة نمرود، إني مشتاقة إليك، فقال لها إبراهيم: ويحك يا أماه، لا تحلفي بعزة نمرود، فإن العزة لله، الذي خلقني في بطنك، وأخرجني منك إلى الغار، وخلقني ورباني، وأطعمني وسقاني وهداني.

فارتعد آزر من كلامه، وقال لأوشا زوجته: إني قد جننني هذا الولد، وأخشى أن تزول عني هذه المنزلة الرفيعة بسببه، ثمَّ نظر إلى إبراهيم وحسنه وجماله، وقال: ما أحسنك وأجملك؟ ! فلولا ما وقع في قلبك وقلبي، من محبته، لرفعت خبرك وخبره إلى نمرود، ثمَّ بكى آزر بكاءً شديداً، خوفاً على إبراهيم من أن يقتل، فقال إبراهيم لأبيه: لا تخف علي، يا أبتي، من القتل، فإن الله يعصمني من نمرود، فقال له أبوه: كان لك رباً يا إبراهيم، غير نمرود، وله مملكة الأرض، شرقها وغربها، وله ثلاثمائة صنم؟، فقال إبراهيم : بل ربي الله، الذي لا إله إلا هو، خالق السماوات والأرض وما بينهما، لا شريك له.

---

(1) مدراش بريشيت ربا 38: 13. قصص اليهود: 178، 356. والتلمود: 84. وكانت العبادة السائدة في أور هي عبادة القمر نانار وزوجته ننجال، وقد بنيت الزقورة لهذه العبادة. قاموس الكتاب المقدس: 11. وربما كانت الأصنام التي كسرها إبراهيم ترمز الى تلك الآلهة.

(2) اسمها عمتلاي ابنة كارنابو في أساطير اليهود 1: 176.

وبلغ خبر إبراهيم بعض أقارب نمرود، فدخل على آزر، وقال: يا آزر، من هذا الغلام الجميل؟، قال: هذا ابني، ولد على كبر سني، قال: فما هذا الذي بلغنا عنه، وما يقوله في نمرود؟، فقال آزر: هو ما بلغكم، فكلموه، عسى أن يعود إلى ديننا، فجعل القوم يحاجونه، ويحتج عليهم، ويذكر عظمة ربه، حتى عجزوا عنه، فانصرفوا عنه، وخاف آزر أن يشوا به وبولده، إلى نمرود، لأنهم كانوا يحسدونه على منزلته عند نمرود، فقال له: يا إبراهيم، كف عن هذا الكلام، حتى استخلفك على خزانة الأصنام، فإني قد كبرت، فقال إبراهيم: يا أبتي، إن المعبود هو الله، وإن الأصنام لا تضر ولا تنفع، فكف عني يا أبت، وبينما إبراهيم عند أمه، إذ نظر في المرآة، فقال لأمه: يا أماه، أنا أحسن أم نمرود؟، فقالت: بل أنت يا ولدي، إنما هو أسود أحول أفطس، فقال إبراهيم: لو كان إلهاً خالقاً، كما يزعم، لم يكن كذلك، فأخبرت أوشا زوجها آزر بذلك، فقال لإبراهيم: يا هذا، لا تذكر أصنامنا بسوء، فإنها هي التي خلقتنا وخلقتك، فغضب إبراهيم، وقال: أف لك يا شيخ، { أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً }؟ سورة الأنعام: 74[1].

فغضب آزر، وأقبل إلى نمرود، فسجد له، وقال: أيها الملك، إن عندي خبراً، فإن أردت وأذنت لي، أوردته عليك، قال: قل ما عندك، وبدا لك؟، قال: أيها الملك، إن المولود الذي كنت تحذره، هو ولدي، وإنه ما ولد في داري، ولا بعلمي، وقد جاءني، وهو غلام يفهم ويعقل، غير أنه يزعم أن له رباً سواك، وقد أخبرتك، فاصنع ما أنت صانع، فلمّا سمع نمرود ذلك، ارتعد، وقال: ويحك، صفه لي، فلمّا وصفه بصفاته، قال نمرود: هو الذي أراه وأتصوره، ولكن منذ متى هو عندك؟، قال: منذ ثلاثة أشهر، قال: لم لم تخبرني؟، قال: كنت أرجو أن أعيده إلى عبادتك، فلمّا لم يفعل، أخبرتك، لتفعل به ما تريد، قال نمرود لأعوانه: آتوني به[2].

أمام النمرود

فخرجوا في طلبه، فأخذوه من عند أمه، وجاءوا به بين يديه، فلمّا شاهده نمرود، ردد النظر إليه، ثمَّ قال: احبسوه إلى غدٍ، فحبسوه، فلمّا كان من الغد، أمر نمرود بتزيين قصره ومجالسه، فزينت بزينة حسنة، وهول عليها تهويلاً عظيماً، بجنوده وسلاحه وآلات الحرب، ثمَّ قال آتوني بهذا الغلام، فجاءوا به بين يديه.

فلماً وقف إبراهيم، التفت يميناً وشمالاً، وقال لهم { مَا تَعْبُدُونَ }، فذلك قوله: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ

(1) قال له أبوه: هذا ما أعرفه انا أيضاً، يا ابني، ولكن ماذا أفعل لهؤلاء الناس الذين رسموني كاهناً، لكي أخدم الأصنام. سفر اليوبيل 12: 6. قصص أهل الكتاب: 284.

(2) توجه تيراح الذي كان أميراً على قدر كبير من النفوذ في منزل الملك إلى البلاط الملكي، وسجد أمام الملك، وقص عليه مل ما حديث مع رزوجته وابنه، فاستشار الملك مستشاريه، فأشاروا عليه بوضعه في السجن. قصص اليهود: 180.

أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ }، ثمَّ التفت إلى أبيه، وقال: { وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ . وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } سورة الشعراء: 69 – 91.

فلمّا فرغ من كلامه، أقبل عليه نمرود، وقال: يا إبراهيم، اتبع ديني، وما أنا عليه، وأنا الذي خلقتك ورزقتك، فقال إبراهيم : كذبت يا نمرود، إن خالقي ورازقي هو خالق الخلق أجمعين ورازقهم، هو الله الذي لا إله إلا هو، فبهت الناس، ووقعت محبته في قلوبهم، من حسنه وجماله، وحسن حديثه وكلامه، فالتفت نمرود إلى آزر، وقال: ولدك هذا صغير، ولا يدري ما يقول، ولا يجوز لمثلي، في قدري وعظم مملكتي، أن أعجل عليه في الهلاك، ولكن خذه إليك، وأحسن إليه، وحذره بأسي، حتى يزول عما هو عليه.

فأخذ آزر ولده إبراهيم إلى منزله، فقال: يا بني، إن لي عليك حقا، وإني أسألك بحقي عليك، أن تلازمني في عمل الأصنام وبيعها، كما يفعل أخوتك، قال: وكيف أبيع ما أبغضه؟، قال: ما عليك في أن تبيعها، شيء، وأخرج له صنمين، أحدهما صغير، والآخر كبير، وقال له: يا بني، بع الصغير بكذا وكذا، والكبير بكذا وكذا، فقال لأبيه: وأنت تعبد هذه الأصنام، على أنها ترزقك، وهي التي خلقتك؟، قال: نعم يا بني، فقال له كمثل ما قال في مجلس نمرود.

فغضب آزر، و{ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا }، فعند ذلك قال إبراهيم : { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } سورة مريم: 46 – 47. فلمّا مات على الكفر، تبرأ منه، وذلك قوله تعالى { وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة} سورة التوبة: 114. فلمّا تبين له أنه عدو الله، تبرأ منه.

بيع الأصنام

وكان إبراهيم يطوف في الطرق، ومعه غلامان، معهما صنمان، ويقول: من يشتري ما لا يضر ولا ينفع[1]، ولا يقدر أن يدفع الذباب عن نفسه؟، فلا يعترضهما أحد منه، ثمَّ كان يغمس الصنمين في الماء، ويقول: اشربا، وكان يشد الحبل في أرجلهما، والناس يعظمون ذلك، إلا إنهم لا يجسرون أن يقولوا له شيئاً؛ لمكان أبيه، وبينما إبراهيم قاعداً وبين يديه أصنامه، وإذا بشيخ قد حضره، فقال: يا إبراهيم ، بعني صنماً أعبده، فقال: يا شيخ، إنما قعدت ها هنا مستهزئاً بها، وأنا لا أعبدها، فتركه، وتقدم إلى الغلمان، فاشترى منهم صنماً، وحمله على عاتقه، فسقط منه، فانكسر عنقه، فرجع الشيخ إليهم، وقال: بعتموني إلهاً مكسوراً، فترافعا إلى آزر فأعطاه عوضه.

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 69. والزوهار 1: 77. قصص اليهود: 182، 358.

مع العجوز

وبينما إبراهيم قاعداً، إذ جاءته امرأة عجوز، فقالت: يا إبراهيم، يعني أحد هذين الصنمين، واختر لي أجودهما، قال إبراهيم: أما هذا فهو أكثر حطباً من الصغير، فقالت: يا هذا ما أريده للوقود!، وإنما أريده لأعبده، وقد كان لي إله، وقد سرق في جملة ثياب كثيرة، وأريد أن أشتري هذا واعبده، فيرد علي حلي، فقال إبراهيم: إن الإله لا يسرق، ولو كان إلهاً، لكان حفظ ثيابك، وحفظ نفسه، ولكن يا عجوز، منذ متى تعبدين صنمك؟، قالت: إني أعبده، وأعبد الملك نمرود منذ عدة سنين.

فقال لها إبراهيم: أرأيت رباً يعبد ويرجا نفعه، يسرق ولا يدفع عن نفسه من يسرقه، تباً لهذا الرب المشؤوم، الذي لا يضر ولا ينفع، ثمَّ قال لها: يا عجوز، أتريدين أن أدلك على رب، يحفظ من يعبده، ويكلؤه ويمنع عنه من يؤذيه؟، فقالت له: يا إبراهيم، من هذا الرب الذي تدعي أنه إله عظيم؟، ولكني ما أظنك صادقاً، قال إبراهيم: بل هو كما قلت، وفوق ما وصفت، وهو من لا يعجزه شيء، وهو على كل شيء قدير.

قال: هلا عبدت رب السماوات والأرض، ورب كل شيء، حتى يرد عليك ما سرق منك، قالت العجوز: وكيف لي بذلك؟، فقال إبراهيم: إن دعوت الله تعالى، فرد عليك متاعك، هل تؤمنين بالله؟، فقالت العجوز: نعم، فدعا إبراهيم، وإذا برجلٍ، وافاه بالصنم والثياب، فقال إبراهيم للعجوز: هذا رحلك، فأخذت العجوز المتاع، وضربت الصنم بحجرٍ، فكسرته، وقالت: تباً لك، ولمن يعبدك من دون الله الذي لا إله الا هو!، وآمنت العجوز بالله وحده.

وبلغ الخبر نمرود، فأحضرها، وقال لها: ويلك، فما الذي حملك على اختيار دين إبراهيم؟، قالت: لأني رأيت منه ما لم أر منك، ولا من أصنامك، ثمَّ ذكرت له ما شاهدت من إبراهيم، فغضب نمرود، ودعا صاحب عذابه، فأمر بقطع يديها ورجليها، وفقأ عينيها، ثمَّ رفعتها الملائكة في الهواء، فوقفت على رأس نمرود، وقالت: ويلك يا نمرود، أنا التي فعلت معها كذا وكذا، وهذه يداي ورجلاي، ردهما الله علي، وإني أرقى إلى الجنان[1].

مع خادم نمرود

وكان لنمرود خادم، اسمه دهرام، فلمّا رأى ذلك، قال: آمنت بالذي أمنت به العجوز، وخصها بهذا الكرامة، وآمن معه في ذلك زيادة عن ألف نفرٍ، من أعيان أهل المملكة، فأمر نمرود بأن ينشروه ويلقوه للأسود، فلم تقربهم الأسود، وارتجت المدينة بالزلزلة، وأيقن الناس بهلاك نمرود، [مما رأوه من الأعاجيب، وأقبلت أوشا، أم إبراهيم، وهو يقول: اعتبروا أيها الناس، بما

(1) قصة العجوز كاملة في قصص اليهود: 183 - 184.

ترون، وأخذ الناس يزدادون إيماناً بالله، وإبراهيم يعلو أمره يوماً بعد يوم[1].

صحف إبراهيم

أنزل الله على إبراهيم عشرين صحيفة، وكانت صحفه أمثالا وعبرا وتسبيحا وتمجيدا وتهليلا، فكان فيها؛ أيها الملك المسلط المغرور المبتلى، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولتبني المدائن والحصون، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر[2].

فلمّا تم لإبراهيم أربعون سنةً، نزل عليه الوحي من رب العالمين، فجاءه جبريل، وقال له: ربك يقرؤك السلام، ويقول لك: إني أرسلتك إلى نمرود، فجاهده، ولا تفزع منه، فإني أحفظك منه، وأنصرك عليه، فاقبل إبراهيم، ووقف على باب نمرود، غير خائف منه، ونادى: قولوا لا إله إلا الله، وإني إبراهيم رسول الله، فانتشر الصوت على جميعهم، ففزع نمرود من ذلك فزعاً شديداً، وفرت الأسود والفيلة والكلاب من ذلك الصوت على وجوهها، ثمّ ولت، وهي تقول: لبيك لبيك يا حجة الله.

وأقبل إبليس اللعين في صورة بعض الوزراء، وقال: يا إبراهيم، ألا ترحم شبابك، وتترك ما أنت عليه من السحر، قال: إني لست بساحرٍ، أنا رسول رب العالمين، فلعلك يا ملعون، تظن أني لا أعرفك، وأنت المذموم الشيطان الرجيم، فمضى ودخل على نمرود، وقال: ايها الملك، ما أقعدك على إبراهيم، وقد جاءك بسحرٍ عظيم، وهو واقف على الباب، يريد الدخول عليك، فلا تخف منه، واحضر له الجواب.

ثم دعا نمرود الوزراء والبطارقة، وأجلسهم بين يديه، وأقام الجند بأسلحتهم حوله، وأقام الأسود والفيلة صفوفاً، عن يمين الدار، وعن شمالها، فلمّا فرغ من ذلك، أمر بدخول إبراهيم، فدخل، وجعل يذكر الله، عند دخوله، فجعلت الأسود والفيلة والكلاب المربوطة تذل وتخضع، بين يدي إبراهيم تواضعاً لاسم الله العظيم، فلمّا توسط إبراهيم الدار، قال بصوت رفيع: يا قوم، قولوا: لا إله إلا الله، خالق كل شيءٍ، وباعث كل خلق ووارثه، وكان في دار نمرود خطاطيف عشعشت هناك، فجعلت تسلم على إبراهيم بأحسن لغة.

وتقدم إبراهيم إلى نمرود، فقال بعض وزرائه: من أنت أيها الرجل؟، قال له: أنا إبراهيم بن آزر، رسول رب العالمين، أدعوكم إلى عبادة الله تعالى، فقال له من ربك؟، قال: ربي الذي خلقني وخلقك، وخلق الخلق أجمعين، قال نمرود: إن ملكي أعظم من ملكه، قال إبراهيم: إن الملك لله رب العالمين، قال نمرود: لقد تجرأت علي يا إبراهيم، وأنا الذي خلقتك ورزقتك، قال إبراهيم: كذبت يا عدو الله، إن الذي خلقني وخلقك وخلق الخلق أجمعين هو الله، ورازقنا جميعاً، وأنت

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 292.

(2) عيون الأخبار 2: 288. والمعارف: 33.

تنكر نعمة الله.

وكان في دار نمرود ديك، فأقبل حتى وقف بين يدي نمرود، وقال: يا نمرود، إن إبراهيم رسول رب العالمين، وإن قوله هو الحق، فاتبعه، وأقبلت بقرة، كانت في دار نمرود، وعليها حلل وحلي مجلوبة من ناحية الشام، فقالت: يا عدو الله، ...[1] فأمر بذبحها، فذبحت، فأحياها الله، وأنبت لها جناحين، فطارت في الهواء.

فقال نمرود لإبراهيم: لقد رأيت اليوم منك أشياء عظيمة، من كلام الديك والخطاطيف والبقرة، فهل عندك غير ذلك؟، قال: نعم، قال: ما هو؟، فالتفت إبراهيم، فإذا جارية واقفة في صدر الدار، وفي حجرها بنت صغيرة لنمرود، وهي ترضع، فقال إبراهيم: يا صبية، تكلّمي بإذن الله، فوثبت تلك الصبية من حجر أمها، وجعلت تعدو حتى وقفت بين يدي نمرود، وقالت: يا أبتي، ما تنكر من إبراهيم نبي الله ورسوله، قد جاءك بالحق، فاتبعه، ثمَّ أقبلت الصبية إلى إبراهيم، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن إبراهيم نبيه ورسوله، فأمر بها نمرود، فقطعت قطعاً.

المحاجة

ثم التفت نمرود إلى آزر، وقال: أيعجبك سحر ولدك إبراهيم، ثمَّ قال: يا إبراهيم، أتريد أن تغلبني بسحرك؟، قال إبراهيم: ما أنا بساحر، بل أنا رسول رب العالمين، وعندي آيات، وقد رأيت بعضها، قال: فأرني غير ذلك، قال إبراهيم: من آيات ربي أنه يحيي ويميت، قال نمرود: أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم: كيف تصنع؟، قال: أخرج رجلاً من السجن، قد وجب عليه القتل، فأطلقه، وأقتل الذي لم يجب عليه القتل، قال إبراهيم: يا نمرود، إن ربي لا يحيي ويميت كذا، بل يحيي الميت، ويميت الحي، من غير قتل، ولكن يا نمرود: { فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } سورة البقرة: 258.

إحياء الموتى

ثم دعا إبراهيم ربه، قال: { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ } سورة البقرة: 260.

قال وهب: فأخذ إبراهيم ديكاً أبيض أفرق، وغراباً أسود، وحماماً أسود، وطاووساً أخضر، فذبحهم، وقطع رؤوسهم، وخلط الدم بالدم، والريش بالريش، ثمَّ جعل على كل جبل منهن ربعاً، فكانت الجبال أربعة بالقرب منه، وجعل رؤوسها بين أصابعه، ثمَّ دعاهن، كما أمره الله تعالى، فجعل ربع كل طير، يطير إلى صاحبه، ثمَّ خرجت الرؤوس من بين أصابعه إلى ذلك، قال: اعلم أن الله على كل شيء قدير، ثمَّ قال: يا نمرود، كيف ترى قدرة ربي، وتنكرها؟، فقال نمرود: يا إبراهيم ، من أنا؟، قال: أنت نمرود بن كنعان الذي وثب أبوك على أمك شلخا، فنكحها

(1) كلمات مطموسة في المخطوط، ليست في النسخ الأخرى.

حراماً، فولدت منها، وقد استولّى عليك الشيطان بغروره[1].

إبراهيم في السجن

فغضب نمرود عند ذلك، وأمر بإبراهيم أن يقيد، وغلت يده إلى عنقه، وأدخله في سجنٍ تحت الأرض، فيه حسك من حديد، وحيات وعقارب مبثوثة[2]، فلماً بلغ إبراهيم باب السجن، اجتمع الخلق عليه، وجاءت أمه، فقالت: ألم أنهك يا بني، عن خلاف الملك؟، قال إبراهيم : اسكتي يا أماه، إنك سترين من ربي ما تقر به عينك.

فلماً دخل إبراهيم السجن، نظر إليه السجان، فرق له قلبه ورحمه، وإذا جبريل قد وافاه، وقال: السلام عليك يا نبي الله، إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: اصبر ولا تجزع، فإني أخرجك من سجنك، وأنصرك على عدوي وعدوك، ثمَّ فرش له فراشاً من السندس والإستبرق، وألبسه حلةً خضراء، ووضع بين يديه طعاماً، حتى طعم، وقال له: اصبر يا نبي الله، كما صبر الأنبياء من قبلك، فلقد لقي أبوك نوح وهود وصالح، من الأمم عناءً شديداً، وإن الله تعالى أعطاك نصراً أضعاف ما أعطاه إلى النبيين قبلك، ثمَّ عرج إلى السماء.

وكان إذا قام إبراهيم بالليل للصلاة، يضرب له من لدن رأسه إلى السماء، عمود من نور، وكان إبراهيم يذكر لأهل السجن حديث الجنَّة والنار، ويسكن عنهم ما يعانونه من البلاء، وحديث ما أعد الله للكافرين في جهنم، من ألوان العذاب، فقام إليه رجل، من أهل السجن، وقال: يا إبراهيم ، إنك لتصف إلهاً عظيماً، له قدرة عظيمة، فما له لا ينصرك، وينقذك مما أنت فيه؟ !، قال إبراهيم: لو سألت ربي ذلك، لفعل، ولكن أحب أن استكمل الصبر بالأجر والمعافاة، كما صبر من كان قبلي من الأنبياء.

فقال له رجل آخر، من أهل السجن: يا إبراهيم ، أخبرنا من الذي يطعمك ويسقيك، فإنا لا نرى أحداً، يأتيك بطعام، وإنا نجد عندك طعاماً طيباً، وشراباً، ونجد منك رائحة طيبة؟، قال إبراهيم : إن ربي يفعل لي ذلك.

وقام رجل آخر، وقال: يا إبراهيم ، أنا رجل من أهل المغرب، وأنا ابن ملكهم، وكنا أربعة أخوة، فغضب الملك علينا، فحبسني أنا ها هنا، وحبس الآخر بالمشرق، والثالث بالمغرب، والرابع باليمن، فهل يقدر ربك أن يجمع بيني وبينهم؟، قال إبراهيم : نعم، إن أردت دعوت الله، فعل، قال: افعل، فدعا إبراهيم بثياب، فتطهر وصلى ركعتين، ودعا بالآخرين من المشرق والمغرب، فإذا هم قد انقضوا من الهواء، على الأخ الذي في السجن، فعجب أهل السجن، وبلغ الخبر نمرود، فدعاهم، وقال: من الذي جمع بينكم، وفك القيود عنكم؟، قالوا: إلهنا، بدعاء إبراهيم، فقال بعض من كان: هذا فعل سحر إبراهيم.

---

(1) في العهد القديم، سفر التكوين 15: 8 – 11. مشهد لحيوانات تشق، لكنه في سياق آخر.

(2) وضعه في السجن في التلمود: 86. دون الحيات والعقارب.

ودعا نمرود السحرة، فحضروا، فقال لهم: اعلموا أن إبراهيم قد فعل السحر كذا وكذا، فاعملوا مثل ما عمل، كي يجيء الأخ الآخر من اليمن، إلى ها هنا، قالوا: أيها الملك، إنا لا نقدر على ذلك، ولا يقدر على هذا الفعل ساحر، فدعا إبراهيم، وقال له: آتنا بالأخ الذي هو في اليمن، كما عملت في مجيء هذين، فدعا إبراهيم ربه، فأوحى الله إليه أن المحبوس باليمن، قد مات، ودفن، فأخبرهم إبراهيم بذلك، فقال نمرود: ادع ربك كي يأتينا بقبره.

فدعا إبراهيم ربه، فلم يشعروا، حتى خرج القبر من تحت الأرض إلى دار نمرود، فقال لهم إبراهيم للأخوة الثلاثة: هذا قبر أخيكم غرام؟، فقالوا: أيها الملك، إن كان حقاً، فليدع ربه كي يحييه، وننظر إليه ونكلمه، فوثب إبراهيم، وصلى ركعتين، ودعا ربه لإحيائه، فإذا القبر يتمخض، حتى انشق وخرج الرجل من قبره، فلمّا نظر إليه نمرود، ورآه الناس، كأنه يشتعل ناراً، فزعوا منه، فقال الرجل: هذا جزاء من عبد الأصنام من دون الله.

عند ذلك وثب وهرام الخازن، ونزع ما كان عليه من لباس نمرود، ثمَّ آمن بالله، وبإبراهيم، ثمَّ التفت إليهم، وقال: الهرب مما أنتم عليه، وعليكم بدين إبراهيم، فإنه ينجيكم من النار، فقال له نمرود: لقد عمل سحر إبراهيم فيك، وسأقتلك قتلاً، لا ينفعك فيه أحد، وقال لأعوانه: خذوه، فصاح بهم وهرام صيحةً عظيمة، فأدبروا عنه، ثمَّ قال لنمرود: الويل لك يا نمرود!، هل تكون آية أعظم من إحياء الموتى، ولا تقلع عن عبادة الأصنام؟!.

فأمر نمرود جميع أعوانه أن يقبضوا عليه، ثمَّ قال: أشيروا علي بأي عذابٍ أقتله؟، فقال بعض وزرائه: يجب أن تمثل به، كي لا يتجاسر أحد على مخالفتك، فأمر بخازنه وهرام، وغيره من الذين آمنوا بإبراهيم فبطحوا بين يديه، وشدت أرجلهم، وكانت له أساطين، وضعت على بطونهم، فلم يصبهم شيء من ثقل الأساطين، فبقي نمرود مبهوتاً، لا يدري ما يقول، ثمَّ قال لهم: أيها القوم، عودوا إلى طاعتي، فأنا الذي خففت عنكم الأساطين، فقال له خازنه وهرام: إن كنت صادقاً يا ملعون، فقم لتوضع عليك، وخففها عن نفسك، أو ضعها على وزيرك الأكبر، وخففها عنه.

فغضب نمرود، ودعا بالنار والنفط، فأحرقوا إلى أن صاروا رماداً، فبعث الله عليهم سحابةً بيضاء، فأمطرت عليهم، ورد الله أرواحهم في أجسادهم، فوثبوا قياماً على أقدامهم، يقرون بعظمة الله ويلعنون نمروداً، فتعجب من ذلك عجباً شديداً، ولم يدر نمرود ما يصنع، فأمر بهم إلى السجن، فألقوهم فيه بين الحيات والعقارب، فبقوا في السجن، أربعين يوماً، وقد حبس الله عنهم تلك الهوام، ووسع عليهم مجلسهم، وأضاء لهم مكانهم.

قال: فأقبلت أوشا أم إبراهيم، إلى باب نمرود، ودخلت عليه، وكانت لا تمنع لكرامة زوجها، فلمّا وقفت بين يديه، سجدت له، وأطالت البكاء، وطلبت منه أن يعفو عن ولدها، فعفا عنه، وأخرجه من السجن، ومن كان معه، والعهد بهم أنهم موتى، لأنهم لم يطعموا، في هذه المدة،

شيئاً، فإذا هم على أحسن حال، فبقي نمرود متعجباً، وقال: يا إبراهيم من ذا الذي أطعمك وسقاك، وأنت في السجن؟، قال إبراهيم : ويلك يا نمرود، ربي أطعمني وسقاني، ويلك يا نمرود، آمن بالله، فقد أراك من آياته وعظمته، وقد رأيت من الآيات في القوم الذين أحرقتهم، ما يوجب عليك أن تؤمن به، وتصدق بربوبيته.

فغضب نمرود اللعين، ولم يدر ما يعمل به، لأنه ألقاه عند الأسود والذئاب والكلاب، فلم تأكله، فأقبل على آزر، وقال له: إني كنت أتخوف من ابنك، لأنه كان ظني به أن له شوكة وجنوداً وفرساناً، والآن عرفت إنه لا يفعل الا بالسحر والحيل، وقد وهبته لك، وإني محتاج إلى مثله، يكون على بابي، فربما تمس الحاجة إليه، فخذه إليك، وتلطف به، عسى أن يعود إلى الطاعة، فأتوجه بتاج الكرامة، وأزوجه ابنتي، ويكون وزيري الأكبر.

مع الأصنام

فأخذ آزر بيد إبراهيم، وأخرجه من السجن، ومن دار نمرود، وقال: يا بني، امش بنا حتى أدخلك على هذه الأصنام المزينة، لتتعبد إليها، فعند ذلك قال إبراهيم: أيها الشيخ الضال { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } سورة الصافات: 95-96. وأقبل إبراهيم حتى توسط مدينة كوثى، وقال: يا قوم، قولوا: لا إله إلا الله، وأن إبراهيم رسول الله تفلحوا، فإني أخشى عليكم ما وقع من العذاب، بقوم نوح وهود وصالح، وأصحاب الرس، والبئر المعطلة، والقصر المشيد، فكذبوه.

وقالوا له: إن ما تأتينا به سحر، كما أتى به غيرك، ثمَّ إن آزر قال له: يا بني، أما تخاف من سطوة نمرود أن يقتلك، ألم تر إلى ما كان، مني ومن والدتك، من الشفاعة إليه، في تخليته عن سبيلك؟، قال إبراهيم : يا أبت، إن الله يعصمني من مكائده، كما عصمني في سائر الأوقات.

وجعل إبراهيم يسأل ربه عن السبب في أنه لن يؤمن به أحد، إلا أمر نمرود بقتله، فأوقع الله تعالى القحط، على أهل كوثى، فلم يكن ينزل من السماء، قطر، ولا أنبتت الأرض، وضاقت على القوم الأطعمة والأشربة، وضاق الأمر على نمرود أيضاً، فجمع الحبوب والأطعمة في السراديب، ولم يكن يخرج للقوم، إلا بقدر كفايتهم، فأضر الجوع بالذين آمنوا، لأنهم لم يكونوا يطعمون، وكان خارج البلدة كثيب رمل، فصلى إبراهيم فيه ركعات، ودعا ربه أن يحوله طعاماً، فحوله، فكان المؤمنون ينالون منه، في أي وقت أرادوا، والكفار يسجدون لنمرود، ويأخذون الطعام، حتى فني ما عنده، ولم يبق إلا قوت أهله وعشيرته.

وبلغ نمرود ذلك، فاشتدَّ عليه، لَمَّا رأى إيمان الناس بإبراهيم، فبينما نمرود على قصره، إذ مرَّ به إبراهيم، ومعه جراب مملوء من كثيب الرمل، فقال نمرود: علي يا إبراهيم، فلمَّا أتي به، قال: يا إبراهيم، ما هذا الذي أراه، على عاتقك؟، قال: هو طعام، رزقني به ربي، ولمن آمن به، قال: افتحه، فلما فتحه، ضربه نمرود بيده، فإذا هو رمل أحمر، فضرب إبراهيم بيده، فأخرج منه كفاً،

فإذا حنطة في كبر الفستق، مكتوباً على كل حبة: هذه هدية من الله تعالى إلى إبراهيم، ولمن آمن معه.

قال نمرود: إنك غلبت قومي، وأفسدتهم بسحرك، فاخرج من بلدي، قال إبراهيم: ولم أخرج من بلدٍ، أنا أحق به منك، وهو بلد آبائي وأجدادي في القديم، وإنما جاء أبوك كنعان، فنزل فيه ظلمك، ثمَّ قال إبراهيم: يا نمرود، أسلم، وإلا دعوت الله تعالى بالهلاك، فطغى عليه نمرود، وتجبر، فخرج إبراهيم من عنده.

ثم إن أهل كوثى شكوا ما بهم من الجوع إلى نمرود، وقالوا: إنا نرى من آمن بإبراهيم، في خصب وسعة، ونحن في ضر، وجهد، فأما أن توسع علينا، وإلا صرنا إلى إبراهيم، فآمنا به. واشتدَّ ذلك على نمرود، وقال لآزر: إن ابنك هذا، قد آذاني في أهل مملكتي، ولولا منزلتك عندي، لبطشت به، فقام آزر وسجد له، وقال: أيها الملك، إنك تعلم أني قد هجرته، ولست أرضى فعله، وقد نصحته كثيراً، فلم يقبل النصح، والآن فقد خليته، فافعل به ما قد بدا لك.

في النار

قال كعب[1]: وكان لأهل كوثى، في كل سنة، عيد يخرجون إليه، بعيداً عن المدينة، فيعيدون هناك أياماً، ثمَّ يرجعون، وكان نمرود يخرج في سادات أهل مملكته، في زينته، فلمّا حضر ذلك العيد، أرادوا الخروج، فقال آزر لإبراهيم: ألا تخرج معنا إلى عيدنا؟، { فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ }، وقام إبراهيم، ودخل بيت الأصنام، وكان القوم قد وضعوا أمامهم، موائد الأطعمة، { فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ }، استهزاءً بهم، ثمَّ التفت، فإذا بفأسٍ في جانب البيت، فأخذها، وعطف بها على الأصنام، فذلك قوله تعالى: { فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ } سورة الصافات: 89 – 93، فجعل يكسر يداً واحدة، ورجلاً واحدة، ورأساً واحداً، حتى جعلهم قطعاً، كما قال الله: { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } سورة الأنبياء: 58. ثم علق الفأس في عنق الصنم الأكبر، وأراق تلك الأطعمة، ورجع إلى منزله.

فأقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم، فدخلوا بيت الأصنام، ورأوا ما فعل إبراهيم، فقالوا: { قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ } وبلغ الخبر نمرود، فقال: { قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } يعني عذابه.

فلمّا أتوا به { قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ }، قال بعضهم لبعض: { فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ }، فصاحوا من كلِّ ناحية: أفتأمرنا بذلك، وأنت تعلم أنها لا تسمع ولا تبصر، فقال إبراهيم: {

(1) قصص اليهود: 184 – 185.

أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } سورة الأنبياء: 60 - 67.

ثم إن القوم قالوا لنمرود: احرقه أيها الملك، بالنار كما أحرق قلوبنا[1]. وكان لنمرود تنور من حديد، كان إذا غضب على أحد، من أهل مملكته، أمر أن يسجر ذلك التنور، ثمَّ يطرح الرجل فيه إلى أن يحترق، فأمر بذلك التنور أن يسجر، وأن يكتف إبراهيم، ويطرح في التنور، ففعلوا به ذلك، فلم تضره النار، بإذن الله، فلمّا رأى نمرود ذلك، جمع أهل مملكته، وقال: ما ترون في أمر إبراهيم ، فقالوا: أيها الملك، الرأي في هلاكه أن تحبسه، وتجمع له الحطب الكثير، وتضرم فيه النار، فإذا صارت ناراً حامية، ألقيت فيها إبراهيم ، فإن إبراهيم لا يقدر أن يسحر النار الكثيرة، ولا يعمل سحره فيها، فأمر بحبسه في السجن، ثمَّ أمر أن تحفر حفرة واسعة، وتبنى على حافتها حيطان عالية، ثمَّ جمع الحطب على الدواب. ويقال: إن جميع الدواب امتنعت عن حمل الحطب، إلا البغال، فأعقمها الله عقوبةً لذلك.

فجمعوا من الحطب ما لا يحصى كثرة، ثمَّ أتوا بالنفط والقار، فأشعلوها حتى صعد لهيبها إلى السماء، فكان يصيب الطير في الهواء، فيخرُّ ميتاً، فلم تزل النار تشتعل ثلاثة أيام، حتى سكن الاشتعال، فهموا بطرح إبراهيم فيها، فلم يقدروا، ولم يعرفوا لذلك حيلةً.

ويقال: إن إبليس اللعين تصور لهم، في صورة شيخٍ، فقال: ما الذي دهاكم؟، فذكروا له ذلك، فقال لهم: إني اتّخذ لكم منجنيقاً[2]، ولم يكن لهم معرفة به، فعلمهم، واتّخذوه سريعاً، وعلمهم كيف يرمون به، ثمَّ أتوا بإبراهيم فقيدوه في كفة المنجنيق، عرياناً، فضجت السماوات والأرض إلى ربها، وضجت الملائكة، وقالوا: ربنا، هذا عبدك ورسولك، يطرح في النار، فأوحى الله إليهم: إن استغاث بكم، فأغيثوه، وإن استغاث بي، فأنا غياث المستغيثين.

وجعل إبراهيم يدعو ربه، لينصره على عدوه، ثمَّ مدوا الحبال، وصار إبراهيم في الهواء، فعارضه جبريل، فقال: ألك حاجة يا إبراهيم ؟، فقال: أما إليك فلا، بل حسبي الله، ونعم الوكيل، فلماً قرب إبراهيم من النار، قال الله: { قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم } سورة الأنبياء: 69. فبردت النار، وذهب حرها، واخضرت الأشجار التي احترقت، وصار لها أغصان متدلية، وأثمرت الثمار فيها، واخضر ما لا يثمر له، ولم يشك أحد في احتراق إبراهيم.

فلماً أصبح نمرود، قعد على موضعٍ مشرف على قصره، ينظر إلى ما أصاب إبراهيم في ذلك الجحيم، فكشف عن بصره، فإذا هو برجلٍ في وسط النار، قاعدٍ على سرير، عليه ثياب خضر، وإلى جنبه رجل آخر، في أحسن صورة، ونظر إلى خلق كثير، وقوف وراءهما، فدعا بصاحب المنجنيق وأعوانه، وقال: كم ألقيتم في النار؟، قال: ما ألقينا فيها إلا رجلاً واحداً، قال: فما هذا

(1) التلمود: 87.
(2) صمم الشيطان بنفسه المنجنيق. مدراش رابا 44: 13. قصص اليهود: 185. والأساطير للشوك: 131.

الخلق؟، فعجب الناس من ذلك.

فقال نمرود: اذهبوا إلى هناك، وانظروا من القاعد على السرير، ومن حوله، ومن إلى جانبه، فجاءوا إلى النار، فإذا هم بإبراهيم على أحسن صورة، فأخبروا به نمرود، فقال: آتوني به، فقالوا: لا سبيل لنا إليه، من حر النار ووهجها، فنادوه: يا إبراهيم ، أخرج إلينا، فخرج، وأحضروه أمام نمرود، فقال له نمرود: ما أعجب سحرك !، فقال إبراهيم: ليس هذا سحراً، ولكن الله هو الذي برد النار علي، وجعلها علي برداً وسلاماً، وألبسني العز والبهاء، قال: فمن الذي كان على يمينك؟، قال: ملك جاءني من ربي، وبشرني بأن الله اتّخذني خليلًا، فبقي نمرود متحيراً، لا يعلم ما يعمل[1]، حتى حدثته نفسه بالجنون، فقال: لأصعدن إلى السماء، وإلى إلهك، فلأقتلنه. سبحان الله عما يشركون ![2].

صرح النمرود

ثمَّ إنه جمع أهل مملكته، فقال لهم: هل فيكم من يعرف حيلةً، أصعد بها إلى السماء، وأقتل إله إبراهيم، فجاءه إبليس في صورة بعض وزرائه، فقال له: أيها الإله، أنا عندي حيلة تصعد بها إلى السماء، فقال له نمرود: المعروف منك النصح، فاتّخذ الملعون تابوتاً، مربعاً وثيقاً، وجعل له بابين: باب إلى السماء، وباب إلى الأرض.

فلمّا فرغ منه، أخذ أربعة نسورٍ، فجوعهن وعمد إلى أربعة رماح، فسمرها في أركان التابوت، وعلق فيها اللحم، وقيل: الأدم الأحمر، ثمَّ أمر بالنسور، فشدوا أوساطها إلى الرماح، وأمر أن يفرش التابوت، ثمَّ قعد فيه، ومعه وزيره، وحمل معه قوساً ونشاباً، ثمَّ أطبق البابين، فرفعت النسور رؤوسها، فنظرت إلى اللحم فوقها، فطلبته، وطارت صاعدةً، وحملت التابوت، فارتفعت في الهواء، فلمّا ارتفع، قال لوزيره: افتح الباب الذي يلي الأرض، فانظر كيف هي، قال: أراها كأنها قريبة، قال: فافتح الباب الذي يلي السماء، ففتحه، قال: أراها كما رأيناها، ونحن في الأرض، قال: أطبق البابين، فأطبقهما.

وارتفعت النسور ما شاء الله، ثمَّ أمر بفتح البابين، ثاني مرة، فقال الوزير: أما السماء، فإني أراها كما رأيتها، ونحن في الأرض، وأما الأرض، فلا أرى إلا سواداً ودخاناً، ثمَّ ارتفعت النسور إلى أن ضعفت، وكادت تسقط مع التابوت إلى الأرض.

---

(1) تنتهي أسطورة نمرود بتسبيح المنجمين والمستشارين بحمد الله، وبإهداء نمرود له رئيسي عبيده، وهما عوني والعازر، وآنية من فضة وذهب وبلور إلى إبراهيم، وقد التحق به ثلاثمائة من رجال نمرود في رحلته إلى حران. قصص اليهود: 187. والأساطير للشوك: 131.

(2) عن وهب بن مُنبّه أنه «زعم بأن نمروذ بن كنعان كتب في البلاد، يستمدهم لمحاربة ربه تبارك وتعالى، فأجابوه كلهم إلا أهل أصبهان، فإنهم قالوا: نحن لا طاقة لنا بمحاربة رب العالمين، أو قال: رب السماء. قال: فشكر الله ذلك لهم، فطيب ماءهم، وطيب فواكههم، وطيب هواءهم». طبقات المحدِّثين بأصبهان 1: 150. وهي أسطورة توظف السرد لإعلاء شأن المدن، وهي تبيِّن قوة سلطة السرد وأهميتها.

فعارضه ملك، وقال له: إلى أين تريد، ويلك يا نمرود؟، فقال نمرود: ومن أنت؟، قال: أنا ملك من ملائكة إله السماء، إله إبراهيم، قال: إني أريد إلهك؛ كي أحاربه، قال الملك: ويلك !، أتدري كم بينك، وبين سماء الدنيا؟ !، قال: لا، قال الملك: من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، ومن فوق ذلك حجب، لا يعلمها إلا الله، يا ملعون، أتقاتل من يقول للشيء: كن فيكون، وبيده كل شيء، من حركة وسكون، وخالقنا لا يحويه مكان، ولا يوصف بزمان؟ !.

فلمَّا سمع الوزير ذلك، خرَّ ميتاً، وبقي نمرود في التابوت وحيداً فريداً، فأخذ القوس، ووضع فيه سهمه، وقال: أنا لك، يا إله إبراهيم، ورمى بالسهم في الهواء، فقيل: إن ذلك الملك غمس السهم بالدم، فعاد إلى نمرود ملطخاً بالدم، فقال من جهله: أنا قتلت إله إبراهيم، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فعند ذلك، أمر الله تعالى جبريل، فضرب التابوت بريشةٍ من جناحه، فهوى حتى ألقاه في البحر، فأمر الله الرياح والأمواج، أن تقذفه إلى الساحل، فخرج من التابوت، وقد أبيض رأسه ولحيته من الأهوال.

فلم يزل يخرج من بلد إلى بلد، حتى وصل إلى مدينة كوثى ، فدخل منزله ليلاً، فعلم الناس بدخوله، فدخلوا عليه، فأنكروه لشيبه، ثمَّ عرفوه، وبلغ إبراهيم خبره، فدخل، وقال: كيف رأيت قدرة ربي؟، قال نمرود: قد قتلت ربك، قال إبراهيم : إن ربي أجل وأعظم من أن يقاتلك، فتقتله، ولكن هل لك أن تقاتلني، مع كثرة جنودك؟ قال: نعم.

نمرود والبعوض

فأمر جنوده من الغد، فاجتمعوا إليه، وهم لا يحصون لكثرة الرجال والنساء، وخرج إبراهيم، ومعه سبعون رجلًا، من خيار قومه المؤمنين إلى الصحراء، واصطف نمرود بجنوده، حتى ملأ الأرض، فبعث الله إلى ملك السحاب: أن أرسل البعوض عليهم، فجاءهم من البعوض حتى امتلأت منه الأرض، فاجتمعت على جيش نمرود، فمات من لدغها خلق كثير، لا يحصون عدداً، والتجأ الباقون إلى منازلهم، وأوقدوا النيران، وأغلقوا الأبواب، وأسبلوا الستور، فلم يغن عنهم ذلك شيئاً.

ونمرود اللعين يعاين ذلك، فخاف على نفسه، ومر هارباً إلى قصره، وأغلق الأبواب، وأرخى الستور، فنام على سريره مستلقياً على قفاه مفكراً، فأقبلت إليه بعوضة، قد سخرها الله فتخللت الستور والأبواب، حتى وصلت إليه، فحطت على لحيته، فهم ليقتلها، فجاءت على شفته، فأهوى إليها، فدخلت في أحد منخريه، وصعدت إلى دماغه، وأخذت تتغذى بدمائه، حتى عذبه الله، أربعين يوماً، لا ينام، ولا يأكل، ولا يشرب.

فضرب الله عليه الذلة، وهو يضرب رأسه بالأرض والحيطان، ويرتعش دماغه، كان فيه سرطان، وأذاقه الله أليم العقاب الشديد، [وكان أعظم الناس عنده مرتبةً من يضرب رأسه

بمرزبة من الحديد(1)، فلما كان بعد أربعين يوماً، شقت البعوضة رأسه، وخرجت، وهي قدر فرخ الحمام، وهي تقول، بلسان فصيح: هكذا يسلط الله رسله، على من يشاء، ومات نمرود - لعنه الله- من ساعته(2).

وأرسل الله الزلازل على أهل كوثى، فخربت، وجاء لوط إلى إبراهيم، وآمن به، وجاءت سارة بنت هاران بن ناحور(3) فآمنت به، وقالت: إني أحببت أن أتزوج بك يا إبراهيم، فأوحى الله إليه بذلك، فتزوجها إبراهيم.

هجرة إبراهيم

ثم إن إبراهيم جمع أصحابه المؤمنين، وسار بهم، يريد الشام(4)، واستخلف فيها من المؤمنين يومئذٍ.

وسار، فدخل الأردن، وبها ملك، يقال له: صادوق(5)، كان هذا الملك جالساً، على منظرة له، إذ نظر إلى إبراهيم وسارة خلفه، وبعث إليهما، وأحضرهما بين يديه، وقال لإبراهيم: من أنت؟، قال: أنا خليل الله، إبراهيم ، وذكر له ما جرى بينه، وبين نمرود، فلمّا فرغ، قال له الملك: من هذه؟، قال: هي أختي، فنظر إليها، فأعجبته، فقال الملك: زوجنيها، قال إبراهيم: هي أعلم بنفسها مني؛ فإنها لا تحل لك، فقال الملك: إن لم تزوجني لها، غصبتها منك، وقام الملك من مجلسه، إلى موضع آخر، وأمر بحمل سارة إليه، فتغير على إبراهيم حاله، وما هو عليه.

فدعا الله فارتج السرير بالملك، ويبست يده، وغلت إلى عنقه، وعلم أن لا ينجيه من ذلك، إلا التضرع إلى إبراهيم، فقال لسارة: إلا ترين ما أنا فيه، قالت: لأنك غصبت من خليل الله أهله، فقال: إني تائب مما عملت، نادم عليه، فسلي إبراهيم يدعو ربه، فيفرج عني، فدعا إبراهيم

(1) مطرقة كبيرة لتكسير الحجارة. المعجم الوسيط.

(2) حياة الحيوان الكبرى 1: 187.

(3) هاران بن ناحور، وناحور اسم أخ أبراهيم واسم جده، وسارة بنت عمه . قاموس الكتاب المقدس: 944، وسارة بنت هاران الأكبر عمه، تاريخ الرسل والملوك 1: 148، وقصص الأنبياء للثعلبي: 72، وفي المعارف: 7 «وجدت في التوراة أنه ولد لتارخ (تارح) أبي إبراهيم: إبراهيم وناحور وهارون، فولد لهرون لوط وسارة وملكي، ومات هرون في حياة أبيه تارخ في أرضه التي ولد فيها، فنكح إبراهيم سارة ابنة هارون، ونكح ابنة هارون ملكي، وكانت سارة عاقراً لم تلد»، وهو في العهد القديم، سفر التكوين 11: 27 وما بعد.

(4) المستدرك على الصحيحين 2: 611. و«قال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمةً عظيمةً وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركةً. وقد حدث جوع في الأرض». العهد القديم، سفر التكوين 12: 1- 2. 10. وهي هجرة بسبب المجاعة. الأساطير للشوك: 133.

(5) صادوف في المعارف: 7، وفي البدء والتاريخ 3: 52، والكسائي يورد ما جرى في جرار مع ملكها أبيمالك، وهو في سفر التكوين 20: 1 - 7 وما بعد. والأساطير للشوك: 148، وقد حدث مثله مع ملك مصر. العهد القديم، سفر التكوين 12: 14 - 20.

ربه، فأوحى الله إليه: إن الأرض لا تطلقه، إلا أن يخرج من ملكه، ويسلمه إليك، فذكر إبراهيم ذلك للملك، فرضي، وسلمه بلده وملكه، ورد الله عليه يده، وأخرجه من ملكه، وفارق بلده إلى بلد آخر.

هاجر وإسماعيل

وكانت لصادوق الملك جارية، في نهاية الحسن، وكانت مكرمةً عنده، وهي هاجر أم إسماعيل، فلماَّ نزل عن الملك، وهبها لسارة[1]، وأوحى الله إلى إبراهيم إنه يرزقه من سارة ولداً، يخرج من ظهره ذرية الأنبياء، وكانت سارة ترجو ذلك، فلمّا كبرت ويئست، قالت لإبراهيم: يا نبي الله، إني أراك تحب أن يكون لك ولد، وإني كبرت ووهبت لك هاجر[2]، لعل الله يرزقك منها ولداً صالحاً، فقبلها إبراهيم منها، فواقعها، فحملت منه، وتمت أشهرها، فوضعت إسماعيل، كأنه القمر، وفي وجهه نور نبينا محمد ﷺ.

فأحبته سارة، لأنه لم يكن لها ولد، حتى بلغ من عمره سبع سنين، فلم تطق سارة أن ترى إسماعيل وأمه هاجر مع إبراهيم، وداخلتها الغيرة، كما تدخل على النساء، فقالت: يا نبي الله، إني لا أحب أن تكون هاجر معي في الدار، فحولها إلى حيث شئت، فأوحى الله إليه: أن امض بهاجر وإسماعيل واتركهما هناك، فجاءه جبريل، ومعه فرس من الجنَّة، وقال له: يا إبراهيم، احمل إسماعيل وهاجر على هذا الفرس، فركب إبراهيم وهاجر وإسماعيل من ورائه، فحملهما على الفرس، حتى بلغ الحرم[3]، فأوحى الله إليه: أن أنزل بهما هاهنا، فنزل، وأنزل هاجر وإسماعيل، قريباً من البيت، وهو يومئذٍ، كأنه ربوة من تخريب الطوفان له.

فقال إبراهيم لهاجر: كوني هاهنا مع ولدك، فإني راجع، وبذلك أمرت، فقالت فعلى من تخلفنا؟، قال: على ربي، فلمّا أراد إبراهيم أن ينصرف، التفت يميناً وشمالاً، فلم ير أحداً، فعند ذلك قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ سورة إبراهيم: 37، ثمَّ رجع إبراهيم، وقد تركهما هناك، ولا ثالث لهما، إلا الله.

---

(1) قال وهب: ولما نجى الله إبراهيم من النار، خرج من أرض بابل، وكان بكوثى، إلى الأرض المقدسة، وخرج بسارة وابن أخيه لوط، وكان آمن له في رهط معه من قومه واتبعوه، حتى وردوا حران، فأقاموا بها زماناً، ثم خرجوا إلى الأردن، فدفعوا إلى مدينة فيها جبار من الجبابرة، من القبط، يقال له: صادوف، وهو الذي عرض له في سارة، حتى منعها الله منه، ومتع سارة بهاجر، أم إسماعيل، وكانت قبطية. قال وهب: وخرج ذلك الجبار من تلك المدينة، وورثها الله إبراهيم، فأثرى بها، وأنمى الله بها ماله، فقاسم لوطا فأعطاه نصفها. المعارف: 32. وتاريخ الرسل والملوك 1: 149. وفي مدراش بريشيت رابا: 45. قصص اليهود: 200، 360. وهب ملك مصر ابنته هاجر، أمةً لسارة، وهو يتقرب إليها بغية الزواج، قبل أن يعرف أنها زوجة إبراهيم.

(2) العهد القديم، سفر التكوين 17: 15 – 20. والأساطير للشوك: 143.

(3) برية فاران. سفر التكوين 21: 9 – 21. والأساطير للشوك: 144.

فلمّا علا النهار، واشتدَّ الحر عليهما، رأت هاجر، في موضع بئر زمزم، شجرةً فعلقت عليها ثوبها، يظلها من حر الشمس، وفرغ الماء الذي كان معها في الكوز. وعطشا، لم تدر هاجر ما تصنع، غير أنها كانت تعدو نحو الصفا مرة، ونحو المروة مرة، في طلب الماء، وهي تقول: إلهنا، لا تهلكنا عطشاً، فأمر الله جبريل أن يهبط إليهما، ويبشرهما بالنجاة، فنزل عليهما وأخبرهما بذلك، فانصرفت هاجر إلى ولدها، وإذا بإسماعيل يبحث بأصابعه الأرض، فنبعت عين زمزم، فخرت هاجر ساجدةً لله، ثمَّ جمعت الحصا حول العين، كي لا ينتشر ماؤها، فقال لها جبريل: لا تخافي وابشري، فإن الله سيعمر هذا المكان بسكانه.

فمكثوا هناك، حتى أقبل قوم من اليمن، يريدون الشام، وكان طريقهم على الحرم، فرأوا طيوراً تهوي، فعجبوا، وقالوا: لا ينقض الطير إلا على المواضع، التي يكون فيها الماء والعمارة، ولم نر هناك ماءً قط، فأخذوا يتفحصون، حتى نظروا إلى هاجر وإسماعيل، وإلى عين الماء، فقالوا: من الأنس أم من الجن؟، فقالت: من الإنس، وأنا هاجر، جارية خليل الله إبراهيم وهذا ابني منه.

ثم ذكرت أنه خلفها هناك، وانصرف إلى الشام، فشربوا من الماء، فرووا منه، ثمَّ قالوا لهاجر: هل ينازعك أحد في هذا الماء؟. قالت: لا، فإنه لله، يشربه خلق الله، فرجعوا إلى بلدهم، وحملوا أهاليهم ومواشيهم، حتى نزلوا الحرم، فصاروا لها أنساً؛ لدعوة إبراهيم، ونشأ إسماعيل، وبلغ مبلغ الرجال، وكان يخرج معهم إلى الصيد، ويرجع، ثمَّ ماتت أمه، فزوجوه جارية منهم[1].

قال وهب: كان بطن مكة ليس فيه ماء، وليس لأحدٍ فيه قرار، حتى أنبط الله تعالى لإسماعيل زمزم، فعمرت مكة يومئذٍ وسكنها من أجل الماء قبيلة من اليمن يقال لهم جرهم، وليست من عادٍ كما يقال، ولولا الماء الذي أنبطه الله تعالى لإسماعيل لَمَّا أراد من عمارة بيته، لم يكن لأحدٍ بها يومئذٍ مقام[2].

وقال: وأمر الله إبراهيم بالمسير إلى مكة بإسماعيل وأمه، وأخبره أنه قد بوأه البيت الحرام، وأنه يقضى على يديه عمارته، وينبط لإسماعيل سقايته فسار به وبأمه وتركهما هناك. وجاءت رفقة من جرهم فنزلوا شعاب مكة، وأعطوا إسماعيل سبعة أعنز، فكانت أصل ماله، فنشأ إسماعيل مع أولادهم وتعلم الرمي، ونطق بلسانهم، ثمَّ خطب إليهم، فزوجوه امرأة منهم.

فولدت لإسماعيل اثنى عشر بطناً، منهم: قيدار، ونبت. والنساب يختلفون في نسب معد بن عدنان، فبعضهم يقول: هو من ولد قيدار، وبعضهم يقول: هو من ولد نبت، كان نبت بكر إسماعيل، وهو ولي البيت بعد أبيه ثم، وليه بعد نبت مضاض بن عمرو الجرهمي، جد نبت لأمه، ولما كثر ولد إسماعيل ضاقت عليهم مكة، فانتشروا في البلاد، فكانوا لا يدخلون بلدا إلا

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 310.

(2) أخبار مكة للفاكهي 2: 7.

أظهرهم الله على أهله، وهم نفوا العماليق، وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة، ودفن في الحجر، وفيه دفنت أمه هاجر[1].

مع زوجتي إسماعيل

وبلغ الخبر بموت هاجر إلى إبراهيم، واشتاق إلى ولده إسماعيل، فاستأذن سارة ، فأذنت، فجاءه جبريل بفرس من الجنَّة[2]، فركبه، وسار حتى وقف بالحرم، على بيت ولده إسماعيل، ثمَّ قال: السلام عليك يا أهل المنزل، فلم تكلّمه المرأة[3]، ولم تردَّ عليه السلام، وقالت: ما حاجتك؟، إن صاحب البيت غائب في بعض مآربه، فقال إبراهيم: إذا رجع، فقولي له: أبدل عتبة دارك، فإني لا أرضاها لك، وانصرف في الحال على فرسه إلى الشام.

وأقبل إسماعيل إلى منزله، فأخبرته المرأة بما أمر به إبراهيم ، وأنه قال: غير عتبة دارك، فلا أرضاها، قال إسماعيل: فصفيه لي، فوصفته، فقال لها: الحقي بأهلك، واجتمع أهلها عليه، وقالوا: ما الذي كرهت منها؟. فقال: لأنها لم تعرف لخليل الله قدراً، ثمَّ إنه (إبراهيم) تزوج امرأة من جرهم، يقال لها: هائلة بنت عمرو بن الحارث الجرهمي، فأولدها اثني عشر ولداً، في ستة أبطن، منهم منذر وأخوه ثابت في بطن، وزينب وعومان وعوامل واوي وقيطور وتليد ومنيع وصفي وأسن وسرية[4].

ثم اشتاق إبراهيم إلى ولده إسماعيل ثانيةً، فجاءه جبريل بفرس من الجنَّة، فركبه وسار، بإذن الله تعالى إلى الحرم ، وقد عمر الله ذلك المكان، فلمّا وقف على باب خباء إسماعيل، قال: السلام عليك، يا أهل المنزل، فبادرت المرأة إليه مسرعةً، وقالت: وعليك السلام، أيها الرجل البهي الجميل، انزل - فدتك نفسي- فإن صاحب البيت غائب، وإنه عن قريب يحضر.

فقال لها: هل عندك طعام؟. قالت: عندنا كل الخير، وجاءته بطبق فيه شرائح من لحم الصيد، وبقدح فيه ماء، فقال: هل عندك شيء، غير هذا، من حب أو زبيب؟. قالت: يا عماه، ما هذا طعام بلدنا، ولكنه يجلب إلينا، فانزل، وتناول طعامك، قال: إني صائم، ولكن علي ذرق طير، فاغسليه، فقالت: انزل عن فرسك، حتى أغسله، فقال: أما النزول فلا، ثمَّ حول رجله عن الفرس، ووضع قدميه على مقدمته، فغسلت ثوبه ورأسه، ودهنته، فقال لها إبراهيم: إذا

(1) المعارف: 34.

(2) في التلمود: 98. وانطلق بمفرده على متن بعير. والقصة فيه.

(3) وهي الجداء بنت سعد العملاقي. مروج الذهب 1: 19، وهي مرباح في الأساطير للشوك: 144.

(4) السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، في تاريخ الرسل والملوك 1: 189، «فولدت له قيذا مع توأمته، نابت وزينب وعرمان وغراميل واديار وقيطور وتبلد ومسع ومعطن وليسن وشربة. وهم: يناوذ وهو نبت وهو نابت، وهو أكبر ولده، وقيذر، وأذبل، ومنسى وهو منشى، ومسمع وهو مشماعة، ودما وهو دوما، وبه سميت دومة الجندل، وماشى، وأذر وهو أذور، وطيما، ويطور، وينش، وقيذماط». الطبقات الكبرى 1: 51، وهي فطومة في الأساطير للشوك: 154، وفيه اثنا عشر ولداً.

جاء صاحب البيت، فأقرئيه مني السلام، وقولي له: الزم عتبة دارك، فقد رضيتها لك، وانصرف إبراهيم، فلمّا رجع إسماعيل من الصيد أخبرته المرأة بما كان، ووصفته له، فقال: لقد كنت كريمة عليّ، وقد صرت الآن أكرم بإكرامك خليل الله، وأنت العتبة[1].

البيت الحرام

قال وهب: لمّا رفعت الخيمة التي عزى الله بها آدم من حِلية الجنَّة، حين وضعت له بمكة في موضع البيت، ومات آدم، بنى بنو آدم من بعده مكانها بيتًا بالطين والحجارة فلم يزل معمورًا يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوحٍ، فنسفه الغرق، وغير مكانه، حتى بوئ لإبراهيم[2].

وقال: لمّا ابتعث الله تعالى إبراهيم خليله، ليبني له البيت، طلب الأساس الأول الذي وضع بنو آدم في موضع الخيمة التي عزى الله بها آدم من خيام الجنَّة، حين وضعت له بمكة في موضع البيت الحرام، فلم يزل إبراهيم يحفر حتى وصل إلى القواعد التي أسس بنو آدم في زمانهم في موضع الخيمة، فلمّا وصل إليها أظل الله له مكان البيت بغمامةٍ، فكانت حفاف البيت الأول، ثمَّ لم تزل راكدةً على حفافه تظل إبراهيم، وتهديه مكان القواعد حتى رفع القواعد قامةً، ثمَّ انكشطت الغمامة، فذلك قوله: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } سورة الحج: 26. أي الغمامة التي ركدت على الحفاف، ليهتدي بها مكان القواعد، فلم يزل، والحمد لله منذ يوم رفعه الله معموراً[3].

وعنه، عن كعبٍ قال: « طاف بهذا البيت ثلاثمائة رسولٍ، آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم، واثنا عشر ألف مصطفًى، وصلوا في الحجر قبل المقام وما منهم أحد تكلَّم في طوافه بشيءٍ إلا بذكر الله، حتى يفرغ، وما منهم أحد صلى بعد العصر حتى غربت الشمس[4].

بناء البيت

وقال تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } سورة البقرة: 127. وكان جبريل يقول عند كل دعوة: قد فعل ربك يا إبراهيم، واستجاب دعوتك. ثمَّ أخذ جبريل أيديهما، وأتى بهما إلى منى ، فأمرهما بالصلوات الأربع، وصليا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثمَّ باتا هناك، فلمّا أصبحا صليا الفجر، ثمَّ أتى بهما إلى عرفات، فأوقفهما بها، فصليا الظهر والعصر، ثمَّ مضيا إلى الموقف، واستقبلا القبلة بالدعاء والتكبير، إلى أن غربت الشمس، ثمَّ خرج بهما إلى المزدلفة، فباتا هناك، فلمّا أصبحا، وقف

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 313. ومدراش بريشيت رابا 53: 14 وما بعدها. قصص اليهود: 230، 367. أساطير اليهود 1: 241.

(2) أخبار مكة للأزرقي 1: 51.

(3) أخبار مكة للأزرقي 1: 61.

(4) أخبار مكة للفاكهي 1: 203. وبسرد آخر في شعب الإيمان 5: 450.

بهما على المشعر الحرام، ثمَّ أفاض بهما قبل طلوع الشمس إلى منى، فرميا جمرة العقبة، ثمَّ انصرف وقد علمهما المناسك.

ثم استقبل إبراهيم القبلة بالدعاء، فقال: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ } سورة البقرة: 129، فاستجاب الله تعالى دعوته، ثمَّ قال: { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ } سورة البقرة: 126. ثمَّ أوحى الله إليه أن ينادي الناس بالحج، فوقف على حائط البيت، ونادى: عباد الله، حجوا بيت الله، وأجيبوا داعي الله، فبلغ الله صوته أهل المشرق والمغرب، حتى أسمع النطف في الأصلاب، فأجابه كل من رزقه الله الحج، فذلك قوله: { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } سورة الحج: 27. ثمَّ أنزل إبراهيم ولده بالحرم، ورجع إلى الشام[1].

البشارة بإسحاق

فأنزل الله جبريل وإسرافيل ودردايل[2]، وأمرهم أن يمروا بإبراهيم، ويخبروه بما بعثهم به، وبشروه بإسحاق، { وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } سورة هود: 71، فجاءوا على صورة البشر معتمرين بالعمائم[3]، وكان إبراهيم لا يأكل الطعام إلا مع الضيف، فانقطعت الأضياف عنه ثلاثة أيام، فتقدَّم إلى سارة ، وقال لها: قومي، فأصلحي شيئاً من الطعام، لعلي أخرج، فألقى ضيفاً، فقامت لذلك.

وقام إبراهيم وخرج في طلب ضيفٍ، فلم يجد أحداً، فقعد في داره، يقرأ الصحف المنزلة عليه، فلم يستقر إلا والملائكة قد دخلوا عليه فجأةً، على خيلهم في زيهم، فوقفوا بين يديه، ففزع من مفاجأتهم، فقالوا: { سَلَامًا } فسكن فزعه، فذلك قوله: { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ }، لأنه لم يعرف صورهم، فرحب بهم، وأمرهم بالجلوس.

ثم دخل على سارة، وقال: قد نزل بي أربعة أضياف[4]، حسان الوجوه واللباس، ودخلوا علي، وسلموا سلام الأبرار، يعني الصالحين، ثمَّ قال لها: وحاجتي إليك أن تقومي بخدمتهم. فقالت: عهدي بك، يا إبراهيم، أنت أغير الناس. فقال: هو كما تقولين، غير أن هؤلاء الأضياف أخيار. ثمَّ قام إبراهيم إلى عجل سمين، فذبحه ونظفه، وعمد إلى حفرةٍ، فسجرها ثمَّ وضع

(1) في أخبار عبيد بن شَرْيَة، سرد مختصر. الملوك المتوّجة من حمير: 337.

(2) جبريل وميكائيل وإسرافيل، في العهد القديم، سفر التكوين 18: 1 - 8. وفي مدراش رابا 50: 2. قصص اليهود: 212، 363. رفائيل بدل إسرافيل، والقصة فيه.

(3) تاريخ الرسل والملوك 1: 178.

(4) كان الرب مع الملائكة الثلاثة في زيارة إبراهيم. مدراش رابا 48: 1. قصص اليهود: 212، 363. والأساطير للشوك: 149.

العجل فيها، حتى شواه، فذلك قوله: { فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } سورة الذاريات: 24 - 26.

فوضع إبراهيم العجل على خوانٍ، والخبز حوله، وقدمه وقربه إليهم، ووقفت سارة لخدمتهم، فجعل إبراهيم يأكل، ولا ينظر إليهم، فرأت سارة أنهم لا يأكلون، فقالت: يا إبراهيم، إن أضيافك هؤلاء لا يأكلون، فقال إبراهيم: لم لا تأكلون، وداخله خوف من ذلك، فذلك قوله تعالى: { فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ } سورة هود: 70[1].

ثم قال: لو علمت أنكم لا تأكلون ما قطعنا العجل عن أمه، فمد جبريل يده نحو العجل، وقال: قم بإذن الله تعالى، فقام العجل، وأقبل نحو البقرة، والتقم ضرعها، فعند ذلك اشتدَّ خوف إبراهيم ثمَّ قال: { وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} سورة الحجر: 52 - 56. وكانت سارة قائمةً، فضحكت لمَّا سمعت، و{ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ }، وإني شخت[2]، { وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } سورة هود: 72 - 73.

وكان قد أتى عليها بضع وتسعون سنة[3]، فأخذت تردد قولها: { عَجُوزٌ عَقِيمٌ }، ولم تدر أن القوم ملائكة، فرفع جبريل رأسه إليها، وقال: يا سارة { كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }، فلماَّ فرغوا من ذلك[4]، قال إبراهيم: { فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ } يقول: فما حاجتكم بعد هذه البشارة، { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ } سورة الذاريات: 30 - 34[5].

الذبيح إسحاق

وحملت سارة بإسحاق، في الليلة التي خسف الله تعالى الأرض بقوم لوط فيها، فلمَّا تمت أشهرها، وذلك ليلة الجمعة، يوم عاشوراء، وضعته، وعلى وجهه نور، أضاء ما حولها، ولما سقط

(1) تفسير ابن أبي حاتم 6: 2055.

(2) قال ابن عبَّاس ووهب: ضحكت عجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها. الكشف والبيان 5: 179.

(3) في الأساطير للشوك: 149 تسعون، وقد بلغ إبراهيم عامه التاسع والتسعين، وغير الله اسمه من إبرام (إحدى صيغتين للقب ملكي، في الألواح المسمارية) إلى إبراهيم بمعنى أب لجمهور من الأمم، وساراي إلى سارة التي تعني أميرة، وكان تغيير الأسماء عادة متبعة عندهم في احتفالات التتويج، أو تقلد المناصب الرفيعة.

(4) القصة في العهد القديم، سفر التكوين 18: 9 - 15.

(5) قصص الأنبياء للكسائي: 218.

إلى الأرض، خرَّ ساجداً لله تعالى، ثمَّ استوى قاعداً، وقد مد يده إلى السماء بالتوحيد، وسماه إسحاق؛ لضحك سارة، حين بشرتها به الملائكة، ثمَّ دعا إبراهيم الفقراء، فأطعمهم، ثمَّ أخذت سارة في تربيته، حتى بلغ سبع سنين، فصار يغدو، مع إبراهيم ، ويروح.

وبينما إبراهيم في عبادته، في بيت المقدس، إذ غلبته عيناه، فنام وآتاه آتٍ في منامه: أن الله يأمرك أن تقرب له قرباناً، فلمّا أصبح، عمد إلى ثور عظيم، فذبحه، وفرق لحمه على المساكين، فلماً كان في الليلة الثانية، رأى في منامه الذي أتاه قبل ذلك، وهو يقول: يا إبراهيم ، إن الله يأمرك أن تقرب له قرباناً، أعظم من الثور والجمل، فقال إبراهيم : ما هو؟، فأشار إلى ولده إسحاق، قال: بلى، ولو كان في ذبح نفسي.

وانصرف إبراهيم إلى منزله، ودخل مخدع مصلاه، وأخذ شفرة وحبلاً، وجعلهما في مخلاته، وقال: يا إسحاق، امض بنا إلى الجبل، فلماً مضيا، أقبل إبليس اللعين إلى سارة، وقال لها: إن إبراهيم قد عزم على ذبح ابنه إسحاق ، فالحقيه ورديه، فقالت: ولم ذلك؟، قال: لأنه زعم أن ربه أمره بذلك، فقالت: إذا كان الأمر كذلك، فإنه صواب، إذا طلب رضا ربه، ثمَّ قالت: اللهم، اصرف عني نزغ الشيطان، فولى عنها هارباً، ثمَّ لحقهما، وقال: يا سيد النبيين، من أجل أضغاث أحلام، تذبح هذا الغلام، فقال: سيكون، انصرف عني، يا عدو الله، أتريد مني مخالفة الملك الديان، فرجمه إبراهيم بالحجارة، فغاص في الأرض.

واتبع إسحاق، وناداه: يا إسحاق، إن أباك يريد ذبحك[1]، فقال إسحاق لأبيه: إلا تسمع هذا الهاتف؟، فقال: بلى، امض ولا تلتفت إلى شيء مما تسمع، وسأخبرك، فسكت إسحاق، حتى أتيا رأس الجبل، في موضع فيه مصلاه، قال إبراهيم : { يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } سورة الصافات: 102.

فحمد إبراهيم ربه على ذلك، ثمَّ قال إسحاق: يا أبت، بي إليك حاجة أن تجلس، حتى أنظر إليك، فما كنت آمل أن أفارقك، في هذه السرعة، وكنت وعدتني أن الله سيخرج من ظهري ذرية الأنبياء، وكنت أخبرتني، حين كسوتني القميص، أن أقمصه ولدي يعقوب ، وأن يلبس هذا القميص ولدي يوسف، وإني أسألك، يا أبت، أن تنزعني قميصي، كي لا يتلطخ بالدم، فإنه، إن رأته أمي، وهو ملطخ بالدم، جزعت، وأسألك، يا أبت، أن تستوثق من الحبل كي لا اضطرب عليك، وإذا وضعت الشفرة على حلقي، فحوّل وجهك عني، كي لا تأخذك الرأفة، فتفشل، وإذا رأيت غلاماً، فلا تنظر إليه، كي لا يجزعك ذلك[2].

فتعجبت الملائكة من صبر إسحاق، ووصيته، ومن جد إبراهيم في أمر ربه، فنودي من السماء: أليس الله قد وصفك بأنك حليم أواه منيب، فكيف لا ترحم هذا الطفل، وهو يخاطبك

(1) مدراش بريشيت 55: 4. قصص اليهود: 232، 367. والإسرائيليات في تفسير الطبري: 112.

(2) بحر العلوم 3: 149.

بهذا الكلام، فظن إبراهيم أن الجبل يخاطبه، فقال: أيها الجبل، إن الله يأمرني بذلك، فلا تعنفي، فأعصي أمر ربي، فقال إسحاق: يا أبت، عجل أمر ربك، قبل أن ينال الشيطان منا.

فنزع إبراهيم قميص ولده، وجذبه إليه، وربطه بالحبل، ثمَّ كبه على جنبه، وهو يقول: بسم الله الملك الحق المبين الفعال لمَّا يريد، ووضع الشفرة على حلقه، فلمَّا هم بالذبح، انقلبت الشفرة على حلقه، فارتعد إبراهيم، فقال له إسحاق: يا أبت، حد الشفرة، واصرف وجهك عني، ولا يقع نظرك علي، فترحمني.

ثم وضع إبراهيم الشفرة على حلقه ثانياً، فلمّا هم بالذبح، انقلبت الشفرة، فقال إبراهيم: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقال له إسحاق: يا أبت، قد أصبت فيما قلت، ولكن أسألك أن تحد الشفرة لتذبحني ذبحاً، لا تجزع منه، فحد إبراهيم المدية على صخرة، وقال: لا تلمني يا إسحاق ، فإني مأمور، فسمع إبراهيم هدة عظيمة، ثمَّ سمع منادياً: { أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا }، ولو أنك ذبحت ولدك، لصار ذلك سنة في الأنبياء، قال الله تعالى: { وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } سورة الصافات: 104- 105، 107. ونودي: يا إبراهيم، خذ هذا الكبش الذي يتحدر عليك من الجبل[1]، فاذبحه عن ابنك، وهو قربان عن ولدك، وقد جعل الله هذا اليوم عيداً لك، ولولدك، وللنبي الذي يخرج من بعدك، محمد ﷺ.

فالتفت إبراهيم إلى الكبش، وهو يقول: خذني يا نبي الله، فاذبحني عن ابنك، فأنا أحق بالذبح منه، لأني الكبش الذي قربني هابيل بن آدم، وقد رعيت في الجنَّة أربعين خريفاً[2]، فحمد إبراهيم ربه، على ما أولاه من نجاة ولد إسحاق ، ثمَّ تقدم إلى إسحاق، ليحل وثاقه، فإذا هو محلول، فقال: من الذي حلك يا بني؟، قال: الذي أتى بالذبح، يا أبت أردد علي قميصي، فإني عتيق من الذبح، فلمَّا ألبسه القميص، خرَّ ساجداً لله، على كشف بلائه، ودعا للمؤمنين المذنبين بالرحمة والمغفرة، فاستجاب الله دعوته.

ثم ذبح إبراهيم الكبش، فنزلت نار من السماء، بغير دخان، فأحرقته، وأكلت الكبش، فلم يبق منه إلا رأسه، ثمَّ انصرف إبراهيم وإسحاق، ورأس الكبش معهما إلى منزلهما، وأخبر إبراهيم سارة بما جرى، فسجدت، وسجد إبراهيم وإسحاق، شكراً لله تعالى على ما أعطوا من النعمة[3].

ثم إن الكنعانيين قالوا: إن إبراهيم وامرأته شيخان كبيران، وقد وجدا غلاماً لقيطاً، فاتخذاه ولداً، فجعل الله تعالى إسحاق على شبه إبراهيم ، فلم يبق أحد يميز أيهما إبراهيم، ولا أيهما

(1) قصة الذبيح في العهد القديم، سفر التكوين 22: 1 – 14. والأساطير للشوك: 165.

(2) كان الرب قد خلقه في مساء يوم السبت من أسبوع الخلق، وأعد منذ ذلك الحين هذه الضحية. مدراش بريشيت رابا 56: 9. قصص اليهود: 239، 368.

(3) التلمود: 101. وقصص اليهود: 242. وفي المستدرك على الصحيحين 2: 610. مقدمة القصة. وفي عيون الأخبار 2: 300. شيء منها.

إسحاق، فبات إبراهيم، ذات ليلة، ثمَّ أصبح، وقد شاب رأسه ولحيته، فقال: ما هذا الذي لم أعهده، فأوحى الله إليه: هذا وقار، فقال إبراهيم: رب، زدني منه، فشاب رأسه كله ولحيته، وكان الناس لا يميزون بين إبراهيم، وولده إسحاق إلا بالشيب[1].

بعد سارة

وتُوفِّيت سارة، فتزوج إبراهيم، بعدها من الكنعانيين، بامرأة، يقال لها: محجون، فأولدها ستة أولاد في ثلاثة أبطن: مدين ولسنان وسرحان ونافس ونفسان[2]، ثمَّ ماتت، فتزوج بأختها قيطون[3]، فأولدها أربعة في بطنين: نادي وسارج وساحق ورمزا، وعمر إبراهيم[4]، وكان يصلِّي قبل طلوع الشمس ركعتين، وكان يصوم الدهر كله. ثمَّ كف بصر إبراهيم، فكان يصلِّي الضحى كل يوم، ويصوم نصف الدهر، قال تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } سورة النجم: 37.

مع الرجل العابد

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم، يعلمه أن عبداً من عباده، يصوم الدهر كله، فقال إبراهيم: يا رب، أسألك أن تجمع بيني وبينه، فحمله جبريل، فأوقفه على رجلٍ، قائم يصلِّي على ساحل البحر، عليه أطيار رثة، فلمَّا أحس بهما الرجل، أوجز في صلاته، وأقبل عليهما بالسلام، وهو لا يعرفهما، وأقبلت ضباء كثيرة، فتناول الرجل ظبياً، فذبحه وسلخه، وشوى فخذه وقدمه إليهما، فأكل إبراهيم، ولم يأكل جبريل، فقال الرجل: لم لا تأكل؟، فقال جبريل: ليس هذا طعامي، فعلم أنه ملك، ولما فرغ إبراهيم من أكله، رد الرجل العابد ما فضل من لحم الظبية في جلدها، وقال لها: قومي بإذن الله، فقامت تعدو، فتعجب إبراهيم، وقال له: يا أخي، أسألك أن تدعو لي دعوة.

فقال الرجل: إني أسأل الله تعالى حاجةً، من أربعين سنة، ولم تقض لي، وأنا استحيي من ربي، أن أسأله غيرها، فقال إبراهيم: إن الله تعالى، إذا أحب عبداً، حبس حاجته، ليسمع دعوته، فما حاجتك؟، فقال: إني رأيت غلاماً، حسن الوجه يرعى غنماً، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا إسحاق بن إبراهيم، خليل الرحمن، فسألت الله أن يجمع بيني وبينه، قال: أنا إبراهيم، فقام الرجل إليه، وقبله وصافحه.

---

(1) الأساطير للشوك: 173.

(2) لا ذكر لمحجون وأولادها في الأساطير.

(3) قطورا، وحجورا. في المعارف: 33. وفي المستدرك على الصحيحين 2: 611. والقصة في العهد القديم، سفر التكوين 25: 1 - 2. أما في مدراش بريشيت رابا 61: 4 وغيره. قصص اليهود: 249، 371. فإن هاجر كانت تعرف بقطورة، وهي أم الأولاد، وقد حرص إبراهيم على إبعادهم عن ولده إسحاق، وكلفهم بالارتحال إلى أبعد نقطة في الشرق.

(4) عمره مائة، وخمس وسبعون سنة. العهد القديم، سفر التكوين 25: 7.

وفاة إبراهيم

وبينما هو قائم، على باب داره، إذا هو بملك الموت قد وافاه، في أحسن صورة[1]، فسلم عليه، فرد، ثمَّ قال له: من أنت، أيها الرجل، فإني أراك في كمال الحسن؟، فقال: أنا ملك الموت، يا خليل الله، آتي في هذه الصورة إلى النبيين والمرسلين، فقال له إبراهيم: يا أخي، أرني الصورة التي تنزل بها على أهل النار، فقال: حول وجهك يا نبي الله، فحول إبراهيم وجهه، فتحول ملك الموت عن تلك الصورة، فلماً نظر إليه إبراهيم، كاد أن يصعق، وناداه: يا ملك الموت، عد إلى صورتك الأولى، فعاد، ثمَّ أوحى الله تعالى إلى ملك الموت: أن اقبض روح خليلي إبراهيم، فكره إبراهيم الموت.

فخرج ملك الموت من عنده، وغاب عنه قليلاً، ثمَّ رجع إليه، وقد تصور له بصورة شيخ، فدخل على إبراهيم، وقال: هل من طعام، يا خليل الله؟، قال: نعم، وقدم إليه طعاماً على طبق، فجعل يتناول الطعام على وجهه، فيخيل لإبراهيم أنه يلوث وجهه وعنقه، ويخيل إليه أن الطعام لا يستقر في جوفه، فقال إبراهيم: أيها الشيخ، ما تصنع بهذا الطعام، وأنت كما أنت، لا يستقر على يديك، ولا في فمك، ولا في بطنك؟ !.

فقال الشيخ، وهو ملك الموت: يا نبي الله، إني قد شخت، ولست أتمكن منه، إلا على هذا الوجه، فقال إبراهيم: وكم تعد من السنين؟، فقال جزت مائتي سنة، قال إبراهيم: وأنا في المائتين، وإذا مضت، أصير إلى مثل حالك؟!، فدعا إبراهيم ربه، فقال: اللهم، أقبضني إليك، فجاءه ملك الموت على صورته الأولى، فقال له: يا ملك الموت، إني أتشوق إليك، منذ رأيت ذلك الشيخ، فاقبض روحي، فقبض روحه[2].

قال وهب: أصيب على قبر إبراهيم الخليل مكتوبًا خلقةً في حجرٍ: [من مجزوء الرجز]

ألهى جهولًا أمله ... يموت من جاء أجله

ومن دنا من حتفه ... لم تغن عنه حيله

وكيف يبقى آخر ... قد مات عنه أوله

والمرء لا يصحبه ... في القبر إلا عمله[*]

[*] المجالسة وجواهر العلم 1: 387.

(1) بصورة شيخ. علل الشرائع 1: 44، 45. وأساطير اليهود 1: 276. وقصص الأنبياء للكسائي: 332.

(2) باختلاف طفيف، في مدراش بيرشيت رابا 68: 7. قصص اليهود: 250، 372.

لوط

مع إبراهيم

هو لوط بن هاران بن تارح، ابن أخي إبراهيم. وقال[1]: إنه شخص من أرض بابل، مع عمه إبراهيم، مؤمناً به، متبعاً له على دينه، مهاجراً معه إلى الشام، ومعهما سارة بنت ناحور، وشخص معه تارح أبو إبراهيم، مخالفاً لإبراهيم في دينه، ومقيماً على كفره، إلى أن وصلوا إلى حران، ومكثوا بها، فمات تارح، وهو آزر أبو إبراهيم، بحران على كفره.

وشخص إبراهيم ولوط وسارة إلى الشام، ثمَّ مضوا إلى مصر، فوجدوا بها فرعوناً من فراعنتها، يقال له: سنان بن علوان بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه، فرجعوا عوداً إلى أرض الشام، فنزل إبراهيم فلسطين، وأنزل لوطاً الأردن[2]، فبعثه الله تعالى إلى أرض سدوم وما يليها[3]، وكانوا أهل كفر بالله، وركوب فواحش، كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى: { أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ } سورة الأعراف: 80 – 81[4].

وكان لوط ينهاهم عن ذلك، ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، ويتوعدهم على إصرارهم، على ما هم عليه، ويأمرهم بالتوبة منه، ويخوفهم من العذاب الأليم، فلا يزجرهم عن ذلك وعده، ولا يزيدهم وعظه، إلا تمادياً وعتواً، واستعجالاً بعذاب الله تعالى، وإنكاراً وتكذيباً، ويقولون له: { ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } حتى سأل لوط ربه أن ينصره عليهم، فقال: { رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ } سورة العنكبوت: 29 – 30. فأجاب الله دعاءه، وبعث جبريل وميكائيل وإسرافيل؛ لإهلاكهم، وبشارة إبراهيم بالولد، فأقبلوا مشاةً، في صورة رجالٍ، مرد حسان، حتى نزلوا على إبراهيم، فتضيفوه، وبشروه بإسحاق[5].

فلمَّا فرغوا من ذلك، وأخبروا إبراهيم أن الله تعالى بعثهم لإهلاك قوم لوط، ناظرهم

(1) صرح الثعلبي هنا بالنقل عن المبتدأ لوهب. فقال: «وكان من أمر لوط، فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء، وذكر وهب في «المبتدأ»له. قصص الانبياء للثعلبي: 93.

(2) عاد إبرهيم بقطعانه من مصر، وكان لوط ابن أخيه برفقته، إلا أن رعاتهم اشتجروا حول المرعى، فاقتسم الشيخان الأرض بينهما، فاختار لوط الجانب الشرقي، أي سدوم، وكان الجانب الغربي من نصيب إبراهيم، حيث أقام في حبرون (مدينة الخليل). التلمود: 92. والأساطير للشوك: 136.

(3) نص الثعلبي على نقله من كتاب المبتدأ لوهب بن مُنبِّه، والنص نفسه نقله الطبري. تاريخ الرسل والملوك 1: 292. دون ذكر قائله. وسدوم هي القرية العظمى، وهي في العهد القديم، سفر التكوين 19: 25. والتلمود: 92.

(4) تفسير ابن أبي حاتم 5: 1518.

(5) العهد القديم، سفر التكوين 18: 9 – 15.

إبراهيم، وحاجهم في ذلك، كما قال الله تعالى: { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } سورة هود: 74. وكان جداله إياهم، على ما ذكر ابن عبَّاس وغيره، أنهم، لمَّا { قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ } سورة العنكبوت: 31. قال لهم: أتهلكون قريةً، فيها أربعمائة مؤمن؟. قالوا: لا. قال: أفتهلكون قريةً، فيها ثلاثمائة مؤمن؟. قالوا: لا. قال: أفتهلكون قريةً، فيها مائتا مؤمن؟. قالوا: لا. قال: أفتهلكون قريةً، فيها مائة مؤمن؟. قالوا لا: قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً قالوا لا: قال أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا. وكان إبراهيم يعدهم أربعة عشر بامرأة لوط، فسكت عنهم، واطمأنت نفسه[1].

أهل سدوم

وأوحى الله إلى إبراهيم أن أرسل لوطاً نبياً ورسولاً، إلى أهل سدوم، وهو لوط بن هاران بن تارح بن ياخور، وكان أبوه أخا إبراهيم، وهو أول من آمن بإبراهيم، حيث جعل الله تعالى، النار عليه برداً وسلاماً، وكانت سدوم خمس مدائن يومئذٍ، وأسماؤها: ضامورا وصابورا وسدوم ودومة وعامورا، وهي المؤتفكات بالخاطئة، وكانت عظمى هذه المدائن سدوم[2]، ولكلِّ مدينةٍ سور عظيم مبني بالحجارة والرصاص، وفي كل مدينةٍ ألوف من الناس، وعليهم ملك، يقال له: سدوم بن هارف، من بيت نمرود بن كنعان.

وكان أهل هذه المدن مخصوصين، من بين أهل الدنيا، بحذف الحصا، ورمي الجلاهق، والتصفيق بالحمام، والحبق في المجالس، وعبادة الأصنام[3]، وكان ملكهم هذا قد اتَّخذ هذه الأصنام، بيوتاً مزخرفة، وكراسي محلاة، وكان أهل المؤتفكات من أجل الناس، وكانوا يرجعون إلى حسنٍ وجمال، فأصابهم القحط.

فجاءهم إبليس اللعين، وقال: إنما أصابكم القحط، لأنكم منعتم الناس عن دوركم، ولم تمنعوهم عن بساتينكم الخارجة، فقالوا: كيف السبيل إلى ذلك المنع؟، فقال: اجعلوا هذا السنة بينكم، إذا دخل إلى بلدكم غريب، سلبتموه، ونكحتموه في دبره، حتى إذا فعلتم ذلك، لم تقحطوا، فعزموا على ذلك، وخرجوا إلى ظاهر البلد، يطلبون من يفجرون به، فتصور لهم إبليس

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 94. وهي في العهد القديم، سفر التكوين 18: 23 - 28. والجدال في مدراش بريشيت رابا 49: 2. و39: 6. و49: 9. و49: 13. قصص اليهود: 218 - 220، 364. والأساطير للشوك: 159.

(2) سدوم هي القرية العظمى، والأسماء في العهد القديم، سفر التكوين 19: 25.

(3) رمي الجلاهق رمي البندق (الثمر) أو الطين المدور الأملس، والحبق الضراط. لسان العرب: جلهق، حبق. وعن قتادة في البدء والتاريخ 3: 57، قال: عشر خصال عملها قوم لوط، بها أهلكوا: كانوا يأتون الرجال، ويلعبون بالحمام، ويضربون بالدفوف، ويرمون بالجلاهق، ويخذفون بالأصابع، ويلبسون الحمرة، ويصفقون بأيديهم، ويصفرون بأفواههم، ويشربون الخمر، ويقصرون اللحى، ويطولون الشوارب، وروى غيره: كانوا يضرطون في النادي، وينزو بعضهم في وجه بعض، ويمضغون العلك، ومع ذلك يقطعون الطريق، ويغصبون الناس.

اللعين، في صورة غلام أمرد مزين، فحملوا عليه، ونكحوه وسلبوه، فطاب ذلك عندهم، حتى صار عادة لهم، في كل غريب وجدوه، وفشا ذلك، فيما بينهم، من غير سترة، ولا تستر.

مبعث لوط

فأوحى الله إلى إبراهيم: أني اخترت لوطاً نبياً ورسولاً إلى هؤلاء القوم، فأقبل إبراهيم على لوط، وأخبره بذلك، ثمَّ قال له: انطلق إلى سدوم، وادعهم إلى عبادة الله، وحذرهم بأس الله وعذابه، وذكرهم بما نزل بنمرود وقومه، فسار لوط إلى المدائن، ولم يدر بأيها يبدأ، حتى دخل مدينة سدوم، وفيها ملكهم، فلمَّا بلغ وسط السوق، قال: يا قوم، اتقوا الله واطيعون، وازجروا أنفسكم عن هذه المعاصي والفواحش، التي لم تسبقوا إليها، وانتهوا عن عبادة الأوثان والأصنام، فإني رسول الله إليكم جميعاً، فذلك قوله: { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ . وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } سورة الأعراف: 80-82.

وبلغ الخبر الملك، فقال: آتوني به، فأتوا به، فلمَّا وقف بين يديه، قال له: من أنت؟، ومن الذي أرسلك؟، ولماذا جئت؟، فأخبره أن اسمه لوط، وأن الله تعالى بعثه إليه، وإلى قومه، لينتهوا عن عبادة الأصنام، وإتيان الفواحش، ويعودوا إلى طاعة الله، فلمَّا وقع ذلك في سمعه من لوط، وقع في قلبه الخوف الرعب، وقال: أنا رجل من القوم، فسر إليهم، فإن هم أجابوك، فأنا معهم، فخرج لوط، ووقف على قومه، وجعل يدعوهم إلى طاعة الله.

ثم ماتت امرأته، وكانت مؤمنةً، فتزوج بامرأة أخرى من قومه، كانت قد آمنت به، يقال لها: قراب، فأقام معها، يدعو أعواماً، وقومه يشتمونه ويضربونه، حتى صار له فيهم أربعون سنة، وهو يدعوهم ويحذرهم، وهم لا يؤمنون، وضجت الأرض إلى ربها، فأوحى الله تعالى: أني حليم، لا أعجل على من عصاني، حتى يأتي الأجل المعدود، فلمَّا استخفوا بنبي الله، ولم يعودوا إلى طاعة الله، وداموا على ما هم عليه من المعاصي، استوجبوا عذاب الله تعالى[1].

إرسال الملائكة

ثم عاد جبريل إلى صورته التي يأتي فيها، حتى عرفه إبراهيم ، وأخبره أن هذا إسرافيل، وهذا ميكائيل، وهذا دردايل[2]، فاغتم إبراهيم شفقةً على لوط وأهله، فذلك قوله في قصة إبراهيم: { قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } سورة العنكبوت: 32. يعني من الباقين في العذاب، ثمَّ سألهم كم هم المؤمنون بهذه المدائن؟، قالوا: ما فيها إلا لوط وابنتاه، فذلك قوله: { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 316.

(2) سبق أنه ميكائيل أو رفائيل.

بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } سورة الذاريات: 35 - 36، { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ }، فعندها قال جبريل لإبراهيم: { يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } سورة هود: 74 - 76.

فعند ذلك قال: امضوا حيث تؤمرون، واستوت الملائكة على خيولها، وساروا حتى أتوا مدائن سدوم، وقت المساء، فرأتهم ربابا بنت لوط[1]، وكانت تستسقي الماء، فنظرت إلى قوم، عليهم جمال، فتقدَّمت إليهم، وقالت لهم: ما لكم تدخلون على قوم فاسقين؟!، وليس يضيفكم إلا ذلك الشيخ، وإنه يقاسي من القوم أمراً عظيمًا، فعدلت الملائكة إلى لوط، فلمَّا رآهم اغتم غماً شديداً، مخافةً عليهم من شر قومه، ثمَّ قال: من أين أقبلتم؟، قالوا: من موضع كذا، وقد حللنا بساحتك، فهل لك أن تضيفنا في هذه الليلة؟، قال: نعم، ولكن أخاف عليكم من هؤلاء الفاسقين، عليهم لعنة الله، فقال جبريل لإسرافيل: هذه واحدة.

شهادات لوط

وكان الله أمرهم أن لا يدمروا القوم، إلا بعد أربع شهادات من لوط، ثمَّ أقبلوا عليه، وقالوا: يا لوط، قد أقبل علينا الليل، فاعمل على حسب ذلك، فقال لوط: إني قد أخبرتكم بأن قومي يأتون الرجال من العالمين، عليهم لعنة الله، قال جبريل لإسرافيل: هذه ثانية. ثمَّ قال: انزلوا عن دوابكم، فاجلسوا ها هنا، حتى يشتد الظلام، وتدخلوا، فلا يشعر بكم أحد، فإنهم قوم فاسقون، عليهم لعنة الله، فقال جبريل لإسرافيل: هذه ثالثة.

فلمَّا جن الليل سار لوط، وابنته بين يديه، والملائكة وراءه، حتى دخلوا منزله، فأغلق الباب، ثمَّ دعا امرأته قراب، فقال لها: يا هذه، إنك قد عصيتني، وعصيت الله، أربعين سنة، وهؤلاء أضيافي، قد ملأوا قلبي خوفاً، فاكتمي أمرهم، حتى اغفر لك ما مضى، فقالت: نعم. يقول الله تعالى: { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ } سورة التحريم: 10. كانت خيانة امرأة نوح، أنها كانتَ تقول لقومه: لا تضربوه، لأنه مجنون، وخيانة امرأة لوط، أنها كانت، إذا نزل به الضيف نهاراً دخنت، فإذا نزل ليلاً، أوقدت ناراً، فيعلم القوم أن هناك ضيفاً.

فلمَّا كانت هذه الليلة، خرجت، وبيدها سراج، كأنه مشعل، فطافت على عدة من القوم، فأخبرتهم بجمال الأضياف وحسنهم[2]، فعلم لوط بذلك، فأغلق الباب، وأوثقه، فأقبل الفساق، ووقفوا على باب داره، فقرعوه، فذلك قوله تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ

(1) بلطيط في أساطير اليهود 1: 227.

(2) تفسير ابن أبي حاتم 6: 2063.

لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ } يعني عملهم الخبيث، ثمَّ كسروا الباب، ودخلوا، فوقف لوط على الباب الذي دونه أضيافه، وقال: لا أسلم أضيافي إليكم، دون أن تذهب نفسي، أو يأتيني أمر، لا أقدر أن ادفعه. فتقدَّم بعضهم، ولطم وجه لوط، وأخذ بلحيته، ودفعوه عن الباب، فقال: أواه !، { قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ }، ثمَّ رفع رأسه إلى السماء، وقال: إلهي، خذ بحقي من قومي هولاء الفسقة، والعنهم لعناً كثيراً، فقال جبريل، عند ذلك، لإسرافيل: هذه رابعة[1].

فوثب جبريل، وفتح الباب، وقال للوط: { قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ } سورة هود: 78 - 81[2]. فاستبشر، وهجم القوم، وهم يقولون: { قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} سورة الحجر: 70، أن تأوي ضيفاً، ورأوا جمال الملائكة وحسنهم، فبادروا نحوهم، فطمس الله أعينهم، فإذا هم عمي لا يبصرون، وصارت الوجوه كالقير سوداء، وصاروا يدورون، ووجوهم تضرب الحيطان، فذلك قوله تعالى: { وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ } سورة القمر: 37.

وإذا نفر آخرون، قد لحقوا بهم، ونادوهم: إن كنتم قضيتم شهوتكم، فاخرجوا لندخل نحن، فصاحوا: يا قومنا، إن لوطاً أتى بقوم سحرة، سحروا عيننا، فادخلوا إلينا، خذوا بأيدينا، فدخلوا وأخرجوهم، وقالوا: يا لوط، تصبح ونريك، فسكت عنهم حتى خرجوا، ثمَّ قال لأولئك الملائكة: بما أرسلتم؟، فأخبروه، فقال: متى؟، قالوا: { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ }، ثمَّ قال له جبريل: اخرج الآن يا لوط { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ } سورة هود: 81[3].

عقاب سدوم

فجمع لوط أهله وبناته ومواشيه وأمتعته، فأخرجه جبريل من المدينة[4]، وقال له: يا لوط، إن ربك قد قضى { أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ } سورة الحجر: 66. وقالت له امرأته: إلى أين تخرج يا لوط؟، فأخبرها أن هولاء رسل ربي قد جاءوا بهلاك هذه المدائن، فقالت: يا لوط، وهل لربك من القَدَرة ما يهلك هذه المدائن؟، فما أتمت كلامها، حتى أتاها حجر من السماء من

(1) العهد القديم، سفر التكوين 19: 1 - 11.

(2) تاريخ الرسل والملوك 1: 301.

(3) قدم وأخر في قوله تعالى: { قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } هود: 81.

(4) بتفاصيل أخرى في أساطير اليهود 1: 232.

حجارة السجيل، فوقع على رأسها، فأهلكها، وقيل: إنها بقيت حجراً أسود[1]، عشرين سنة، ثمَّ خسف الله بها بطن الأرض، ومضى لوط، ومعه النساء والغنم.

وجبريل قد بسط جناح الغضب، وإسرافيل قد جمع أطراف المدائن، وميكايل ودردايل قد جعلا أجنحتهما تحت الأرض؛ ليقلباها، وملك الموت قد تهيأ لقبض أرواحهم الخبيثة بكلاليب من نار، حتى إذا برز عمود الصبح، صاح جبريل: يا بئس صباح قوم كافرين، وقال ميكايل: يا بئس صباح قوم فاسقين، وقال إسرافيل: يا بئس صباح قوم مجرمين، وقال دردايل: يا بئس صباح قوم ظالمين، وقال ملك الموت: يا بئس صباح قوم غافلين.

فرفع جبريل هذه المدائن، عن آخرها إلى الأرض السابعة، بجناح الغضب، حتى بلغ البحر الأسود، ثمَّ رفعها بجبالها ودورها وأشجارها وأنهارها ومزارعها، حتى بلغ البحر الأخضر، ثمَّ قلبها عاليها سافلها، ورفعها إلى أن سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، فقالوا: من هؤلاء المغضوب عليهم؟، فقيل لهم: هولاء قوم لوط، فضجت الملائكة بالتسبيح والتهليل.

ولم يزل جبريل كذلك، وهي فوق جناحه، وهو يرعد كالسعفة في الريح العاصف، منتظراً ما يؤمر به، فنودي: اقلب القرى، بعضها على بعض، فقلبها، فذلك قوله تعالى: { وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى } سورة النجم: 53-54. يقول الله: { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ } سورة الحجر: 74. [قال وهب: لمَّا رفعت إلى السماء، أمطر الله عليهم حجارة الكبريت والنار، ثمَّ قلبت][2]، فاستيقظ القوم، فإذا هم بالأرض تهوي بهم من الهواء، والنيران تحتهم، والملائكة تقذفهم بالحجارة من فوقهم، يقول الله تعالى: { وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} سورة العنكبوت: 33[3].

وخرج من تلك المدائن دخان، أسود منتن، وبقيت آثار المدائن، يعتبر بها من يراها إلى يوم القيامة[4]، ومضى لوط إلى إبراهيم، فأخبره ما نزل بقومه.

---

(1) «نظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح». العهد القديم، سفر التكوين 19: 26. كانت زوجة لوط قد خدعته، إذ ذهبت إلى أحد الجيران، تستعير ملحاً، وعندما سئلت: ألم يمكنها الحصول على الملح نهاراً. قال: كان لدينا ما يكفينا، حتى أتانا ضيوف، فانتشر خبر وجود في المدينة. مدراش بريشيت رابا 51: 5. قصص اليهود: 221، 365. والأساطير للشوك: 159.

(2) بحر العلوم 2: 165.

(3) سرد مختصر في تفسير ابن أبي حاتم 9: 2905. وهو نفسه في تاريخ الرسل والملوك 1: 304.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 324. وقصة هلاك قوم لوط في العهد القديم، سفر التكوين 19: 13 – 36.

إسحاق

قال وهب[1]: لمّا قبض الله تعالى روح إبراهيم، سكن إسماعيلُ الحرمَ، وسكن إسحاقُ الشامَ، وسكن مِدْين أرض مدين، وسميت مِدْين باسمه[2]، وسكن مع إسحاق، فرأى إسحاق ذات ليلة، في منامه كأنه خرجت من ظهره شجرة عظيمة، خضراء، لها أغصان، وفروع، فقيل له في المنام: هذه الأغصان والفروع أولادك من الأنبياء، فانتبه فزعاً.

مولد يعقوب وعيسو

وبعثه الله إلى الأرض المقدسة رسولاً، وكان يدعوهم، وكانوا يحبونه، إلا قليلاً منهم، إلى أن أتى عليه ثمانون سنةً، فكف بصره، وكان يأوي إلى مسجده، وبينما هو نائم، جنب امرأته، ذات ليلةٍ، إذ راودها، فضحكت، وقالت: أو فيك بقية، يا إسحاق ؟، فواقعها، فحملت بذكرين[3]، وأخبرته بحملها، فقال: لا عجب، فقد رأيت في المنام، خروج الشجرة من ظهري، فقالت: يا نبي الله، إنهما اثنان يتضاربان في بطني، كالمتخاصمين، فقال: يكون خيراً، إن شاء الله، فلمّا تمت أيام الحمل، وضعتهما، وأحدهما متعلق بعقب الآخر، فسمي الأخير يعقوب، لتعلقه بعقب أخيه، والآخر عيصا، لأنه تقدم على أخيه وعصا[4].

فلمّا كبرا، سلم إسحاق إليهما المسجد، فكانا يخدمانه وينظفانه، حتى حضر إسحاق الموت، فجعل ما كان من بقر وغنم وبغال وحمير بينهما بالسواء، وكان يحب عيصا، والأم تحب يعقوب، فقال إسحاق لعيصا: إذا كان يوم كذا، فهلم إلي، ادع لك، ليخرج الله من ظهرك الأنبياء، وكانا يتناوبان رعي الغنم، يوماً لهذا، ويوماً لهذا، وكان عيصا أشعر الذراعين، فعمدت الأم إلى جدي رضيع، فذبحته وسلخته، ولفت صوف جلده، على الساعد الأيمن ليعقوب، والنصف الآخر على الساعد الأيسر منه، وقالت: اذهب إلى أبيك، فلعلك أن ترزق دعاءه، فيخرج الله من ظهرك الأنبياء.

فجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق، وعقد بين يديه، وكلمه، فقال إسحاق: أما الكلام، فكلام

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 332 – 340.

(2) مديان بن إبراهيم من زوجته قطورة، وأرض مديان تمتد من خليج العقبة الى طور سيناء. قاموس الكتاب المقدس: 850.

(3) هي ربقاه. في التلمود: 102. وقال وهب: هي رفقا، ابنة باهر بن أزرا، بنت عمه، فولدت له: عيصو، ويعقوب. توأمين في بطن واحد. خرج عيصو ثمّ يعقوب بعده، ويده عالقة بعقبه، فسمي يعقوب. المعارف: 38. وعيسو في العهد القديم، سفر التكوين 25: 24. وعيسو بمعنى أصهب الشعر، ويعقوب بمعنى أن يده كانت قابضة على عقب أخيه. الأساطير للشوك: 183.

(4) الخبر في تاريخ الرسل والملوك 1: 190.

يعقوب، وأما الجسم، فجسم عيصا[1]، قال يعقوب: يا نبي الله، ادع لي كما وعدتني، فإني عيصا، وإنما يعقوب في غنمه، فدعا إسحاق له بما أحب من الدعاء، فلمَّا انصرف، جاءه عيصا بالعشاء، وجلس بين يديه، وقال: يا أبت، ادع لي كما وعدتني، فقال إسحاق: أو لم تكن عندي اليوم، وقد دعوت لك؟، قال: لا، يا أبت.

فدعا إسحاق امرأته، وقال: ما حملك على ما صنعت؟، فقالت: يا نبي الله، إني أحببت أن تكون دعوتك في يعقوب، ولم أحب أن تكون في عيصا، لأنه جبار، ولا يكلمني بما تطيب به نفسي، ولما علم عيصا بذلك، هم بقتل يعقوب[2]، ثمَّ خاف أن يدعو عليه أبوه، ودعا له أن يجعل الله الملوك من نسله، ومات إسحاق، بعد ذلك، وسلم المسجد إلى يعقوب، وقسم المال بينهما نصفين، ثمَّ إن عيصا غصب مال أخيه، وتغلب عليه.

[وكان عيصو رجلاً أحمر شعر الجسد، عليه خواتيم من شعر، صاحب صيد، وهو أبو الروم، وكان الروم رجلاً جلداً أحمر، أصفر في بياض، شديد الصفرة، فمن أجل ذلك سميت الروم: بني الأصفر، وتزوج عيصو ابنة عمه إسماعيل بن إبراهيم[3]، فولدت: الروم بن عيصو، فكل من بأرض الروم اليوم، فهم من نسل هؤلاء الرهط، وبعض الناس يزعمون أن الإسبان من ولده، وعمر عيصو مائة وسبعاً وأربعين سنة، وكذلك عمر يعقوب، ودفنا في المزرعة عند قبر إبراهيم][4].

---

(1) مدراش بريشيت رابا 65: 19 – 23. قصص اليهود: 273، 377. وتفاصيل أخرى في فصل «المباركة المسروقة» من الأساطير للشوك: 191 – 195.

(2) نال يعقوب البركة التي كانت مقصودة لعيسو. التلمود: 104. «فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التي باركه بها أبوه. وقال عيسو في قلبه: قربت أيام مناحة أبي، فأقتل يعقوب أخي». العهد القديم، سفر التكوين 27: 41. وقصص اليهود: 277.

(3) اسمها محلة، أو بسمة. العهد القديم، سفر التكوين 28: 9، 36: 3.

(4) المعارف: 39.

يعقوب

ومال أهل البلد إلى عيصا، فاستولّى على المال، وبقي يعقوب فقيراً، فقالت له أمه: يا يعقوب، إن أخاك عيصا، قد هم بأن يقتلك، بعد أن سلبك مالك، وهو يريد قتلك، فقم إلى خالك لايان[1] وإخوته، فإنهم مؤمنون من آل إبراهيم، ومنزله بحران، وهو ذو مال ومتاع، فاخدمه، فلعله أن يزوجك إحدى بناته، وخصه عني بالسلام، فعزم على ذلك، فزودته أمه، فسار ومضى يمشي ليلاً، ويكمن نهاراً، فمن ذلك سمي إسرائيل[2].

في حران

وخرج يعقوب[3]، حتى دخل مدينة حران، فوجد فيها بئراً، فتوضأ وصلى ركعتين، ودعا ربه فلمّا رآته ابنة لايان[4]، أقبلت إلى أبيها، وقالت: قد قدم ها هنا رجل، وضوؤه مثل وضوئك، وصلاته مثل صلاتك، فقال لها: اذهبي، وآتيني به، فذهبت إليه، وانطلقت به إلى أبيها، فلمّا دخل عليه، قال له: من أنت، أيها الفتى؟، ومن أين أقبلت؟، قال: أنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قد أقبلت من الشام، أريدك.

فصاح لايان صيحةً، كادت نفسه أن تخرج معها، ثمَّ جعل يسأل عن أمه وأبيه وأخيه عيصا، فأخبره بجميع ذلك، وكيف غصبه أخوه ماله، وكيف أفقره، ثمَّ قال: إن التي بعثتني إليك، هي أمي، وأمرتني أن أكون في ناحيتك، فأتيت إليك، فحمد لايان ربه شكراً، وقال له: إني كنت أدعو ربي أن يوفق لي عبداً صالحاً، أزوجه إحدى بناتي، وأنت ذلك، ففوض لايان أمره إلى يعقوب، وجمع ما كان في يده، ولزم محرابه.

فتولَّى يعقوب جميع أمواله، فلم يكن يفوته أمر من أموره إلا بإذنه، وقام على ذلك مدة، ثمَّ زوجه ابنته، وهي كبرى بناته، وكانت حسناء، غير أن في عينيها عمشاً[5]، فلماً رآها يعقوب كرهها، ودخل على لايان، فقال: يا خالي، قد ضيعت أيامي، وإنك قد زوجتني من لم أرها، وإنما أردت صاحبة البرقع، فزوجني بها، يعني الصغيرة، فقال: يا يعقوب، إن صاحبة البرقع هي الصغيرة من بناتي، أو لا تعلم أن الصغيرة لا تتزوج قبل الكبيرة؟.

ثم دخل لايان على ابنته ليا (ليئة)، وقال لها: قربي قرباناً، فلعل الله أن يقبلك، ويعطف قلب

---

(1) التلمود: 104. مدراش بريشيت رابا 67: 11. قصص اليهود: 268. ولابان بن بتوئيل بن ناحور أخي إبراهيم، ولابان اسم عبري معناه الأبيض. قاموس الكتاب المقدس: لابان.

(2) يسمى إسرائيل، بعد خروج من حران، وسيأتي.

(3) من بيت إيل، على بعد عشرة أميال شمالي أورشليم.

(4) راحيل بنت لايان. سفر التكوين 29: 9، وقصص اليهود: 286. والأساطير للشوك: 202.

(5) العمش ضعف البصر مع سيلان الدمع. مدراش بريشيت رابا 65: 1 – 3. قصص اليهود: 289، 379.

زوجك، يعقوب، عليك، ففعلت، فقبل منها قربانها، وعطف قلب يعقوب عليها، فواقعها، وحملت منه بذكرين: روبيل (رأوبين) وشمعون، في بطن، ثمَّ بطن آخر: لاوي ويهودا (يهوذا)، ثمَّ تُوفِّيت بعد ذلك، فزوجه لايان ابنته الثانية، واسمها وصفا (بلهة)، فدخل يعقوب بها، فولدت منه بذكرين في بطن واحد: دان ونفيالي(نفتالي) .

ثم تُوفِّيت، فزوجه لايان ابنته الثالثة، واسمها سروية (زلفة)، وكانت حسناء، فأولدها يعقوب ذكرين في بطن واحد: شاجرون (يساكر) وزيالون، وفي بطن آخر ذكرين: معاد (جاد) واسن (أشير)[1]، ثمَّ ماتت، فزوجه لايان ابنته الرابعة، وهي الصغيرة، واسمها راحيل، وهي أحسن بناته، ويقال: إنها شمس النهار لحسنها وجمالها، وهي صاحبة البرقع[2]، وتم ليعقوب أربعون سنة، فجاءه الوحي، وهو يومئذٍ بأرض حران، وقد ماتت أمه.

مبعث يعقوب

فأقبل يعقوب على خاله لايان، وشكره على جميع ما فعله، وما أولاه، ثمَّ قال له: إن ربي قد بعثني رسولًا، إلى أرض كنعان، ولا بد لي من الخروج إلى هناك، فسجد لايان لربه شكراً، وقال: يا يعقوب ، إنك، منذ صحبتني، ما رأيت منك إلا خيراً، فاخرج إلى الموضع الذي أرسلت إليه بأهلك وولدك، مع أنه يشق علي، ولم أحب مفارقتك، ومفارقة ابنتي، ولكن رضاك أحب إلي من رضاي، فاحمل معك ما أردت، من المال والأطعمة، قال يعقوب : جزاك الله خيراً، ولكن ما أحب من الأموال إلا الغنم[3].

فزوده لايان بخمسمائة رأس من الغنم، ومثلها من البقر والخيل والبغال والحِمير برعاتها، وخرج يعقوب بامرأته، ومعه عشرة أولاد، وقيل: اثنا عشر ولداً، وجاريتان: زلفى وبلها، ثمَّ أقبل يريد أرض كنعان، واتصل خبره بأخيه عيصا بن إسحاق ، بإذن الله، وبعث يعقوب إلى كنعان رسولًا، وأنه قادم إليها، فغضب عيصا، وقال: أنا أحق بالرسالة منه، وانتقل إلى الطريق التي تلي أرض كنعان، ومعه جماعته وحشمه.

فبلغ يعقوب أن أخاه عيصا، قد سبقه إلى الطريق، فوقف في مكانه، ودعا ابنه روبيل، وقال له: إمض إلى عمك عيص، فإنه وراء هذا الجبل، وقل له عني: إنك خاصمتني، وأنا في بطن أمي، ثمَّ ولدتنا الأم، وكبرنا، ومات الأب، وغصبتني مالي، وأردت هلاكي، ففررت منك، والآن أرسلني الله رسولاً، وقد أقبلت لمَّا يريد الله، ولن يقدرك الله علي، فاتق الله، واذكر الرحم، وذر

(1) تزوج يعقوب بلهة جارية راحيل، فأولدها دان ونفتالي، وتزوج يعقوب زلفة جارية ليئة، فأولدها جاد وأشير. العهد القديم، سفر التكوين 35: 23 – 26. والتلمود: 115، الحاشية (2). والأساطير للشوك: 255.

(2) راحيل أم النبي يوسف، وفي تاريخ الرسل والملوك 1: 191 «تزوج يعقوب ابنة خاله ليا ابنة ليان بن بتويل بن إلياس، فخلف يعقوب على أختها راحيل، وسريتين اسم إحداهما زلفة، واسم الأخرى بلهة.

(3) اختار يعقوب كل شاة رقطاء، وكل معزى بلقاء ورقطاء. الأساطير للشوك: 212. باختلاف في التفاصيل.

البغي والحسد.

فجاء روبيل إلى عمه عيصا، وأورد عليه ما كان قاله أبوه يعقوب فزجره، وقال له: قل لأبيك يعقوب: إن كان نبياً ورسولاً، فليمض إلى ما أمره الله به، فرجع روبيل إلى أبيه، وأخبره، فأقبل يعقوب على أصحابه، وقال: سيروا على بركة الله تعالى، فإن الله يمنع كيده عنا، فساروا فجاوزوا نهراً، كان أمامهم، فخرج عليهم عيصا من وراء الجبل، فأقبل إليه يعقوب بقوة النبوة والرسالة، فحمله ثمَّ ضرب به الأرض، وقعد على صدره، ثمَّ قال: يا عيصا، كيف ترى صنع ربك؟، فبكى عيصا، حتى أشفق عليه يعقوب، وقام عن صدره، وقام عيصا، فاعتذر إليه، وقال: اجعلني في حل، يا أخي، مما عاملتك به، واستغفر الله لي، فإن الله تعالى فضلك علي بالنبوة والرسالة.

فدعا له يعقوب ، وقال له: أبشر يا أخي، فإن الله فد خصني بالنبوة، وأنه يجعل النبوة في ذريتك، فيبعث أيُوب من ذريتك رسولاً، ويخرج من ظهرك ملك، يطوف المشرق والمغرب، يسمى ذا القرنين، ففرح عيص، وودع كل واحد منهما صاحبه، وانصرف عيصا إلى بلده[1]، وأقبل يعقوب إلى أرض كنعان، فلمَّا دخلها بنيت له دار واسعة، فسكن بها هو وأولاده، واستقر هناك.

وكان بأرض كنعان، ملك يقال له: سحيم بن دارا (شكيم)، وكان له بلاد كنعان وأهلها، فبلغه نزول يعقوب بأرض كنعان، فخرج جميع من يخصه، وسار يريد يعقوب، فلمَّا بلغ موضع يعقوب، نظر إلى دور ضعيفة، فندم على مجيئه، وقال لوزرائه: إني فرغت من هذا الرجل، وندمت على المجيء إليه بنفسي، ولكن انزل، لندخل إليه، فنزل هو ووزيره، فقال له الملك: من أنت؟، ومن أين أقبلت؟، ولماذا نزلت هذا المكان من غير استئذان مني؟. فقال: أنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، خليل الله، أقبلت من حران، وإنما نزلت هذا المكان، لأنه الله ونزلته بإذنه، وإنما جئت لأدعوك، وقومك إلى الإيمان بالله، والإقرار بأني عبده ونبيه ورسوله، فإن أجبت كنت مؤمناً، وإلا جاهدتك في الله حق جهاده، فغضب الملك من كلامه، وقال: بمن تجاهدني؟، فقال: بالله أجاهدك، وبملائكته، وبهؤلاء أولادي، فازداد غضبه، وقال له بعض وزرائه: هذا لا يطيقك، وإنما به جنة، فاحمله على ذلك، وانصرف الملك إلى قلعته، وجعل يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، وهم يزداون لدعوته طغياناً، فدعا يعقوب عليهم.

---

(1) القصة في التلمود: 106 – 108. وفي طريقه، عند جبل «مورياه»، حلم بسلم تصل بين الأرض والسماء، وملائكة الرب تصعد وتنزل، وسمع صوت الرب بمباركته، وبإعطائه الأرضَ التي هو مضطجع عليها له ولنسله، فعرف أنه في بيت إيل، أي بيت الله، وهذا باب السماء. التلمود: 106. والأساطير للشوك: 199، 200. وفي أثناء عودته من أرض خاله لابان، عبر نهر الأردن، وعرض له الرب ليلاً بهيئة رجل، فتصارعا حتى الفجر، وعندما رأى أنه لا يقدر على يعقوب، ضرب حق فخذه، فانخلع، فقال: اطلقني، فقد طلع الفجر. فلم يطلقه حتى باركه، وغير اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، نفسه: 216. ومن هنا كان معنى اسمه: يجاهد مع الله. قاموس الكتاب المقدس: إسرائيل.

هلاك قوم يعقوب

فلمّا أراد الله هلاكهم، أقبل يعقوب في أولاده العشرة، ودخل على الملك وأصحابه، وهم في الحصن، وفيه خلق كثير، وقال: يا بني، جاهدوا في الله حق جهاده، فقال ولده شمعون: يا نبي الله، أنا أكفيك أمر هذا الحصن، فإذن له يعقوب، فأقبل شمعون، وضرب برجله اليمنى باب الحصن، فتساقطت حيطانه، ثمَّ صاح صيحةً، فمات الملك، وأكثر أهل الحصن، فدخل يعقوب الحصن بأولاده، وبنفرٍ، ممن كان آمن به، وغنموا ما كان فيه، فبلغ ذلك أهل كنعان، وكانوا سبعين قبيلةً، فوقع الخوف في قلوبهم، فدخلوا تحت طاعة يعقوب، وآمنوا وأسلموا[1].

(1) في التلمود: 109 – 115. وفي قصص اليهود: 316. تفاصيل مختلفة، تبدأ باغتصاب شكيم ديناه، ابنة يعقوب، وحدوث معارك بين أهل شكيم، وبني يعقوب، تنتهي بانتصار بني يعقوب. وإقامة يعقوب في إرض كنعان، عند ابنه إسحاق، وسرد وهب للقصة ضمن إعادة صياغة الأحداث بما يتوافق مع المنظور الإسلامي.

يوسف بن يعقوب

قال أهل العلم بقصص الأنبياء، وأخبار الماضين[1]: كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف، وبدء محبة يعقوب له، وإيثاره على سائر ولده أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرةً في صحن داره، فكان كلما ولد له ولد، أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصناً، فكان كلما كبر الغلام وشب، طال ذلك الغصن وغلظ، فإذا بلغ ذلك الغلام، قطع يعقوب ذلك الغصن، ودفعه إليه، فولد له عشرة بنين، فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان.

فلمَّا ولد له يوسف، لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئاً، فلمَّا كبر وشب، قال لأبيه: يا نبي الله، إنه ليس أحد من إخوتي، إلا وله غصن، إلا أنا، فادع الله تعالى أن يخصني بغصنٍ من الجنَّة، فرفع يعقوب يديه إلى السماء، وقال: اللهم، إني أسألك أن تهب ليوسف غصناً من الجنَّة، يفتخر به على جميع إخوته، فهبط جبريل، ومعه قضيب من الجنَّة من الزبرجد الأخضر، فقال ليوسف: خذ هذا. فكان يوسف يأخذه، ويخرج به مع إخوته.

قال: فرأى يوسف فيما يرى النائم، وهو إذ ذاك صبي، كان قضيبه غرس في الأرض، فعلق وتدلت أغصانه، وأثمر من كلِّ ثمرة، ثمَّ أتى بأغصان إخوته، فغرست حوله، فلم تعلق، ولم تفرع، ولم تثمر، وإذا بغصن يوسف أقصرها وأصغرها، فلم يزل يتعالى في السماء، ويطول، حتى طال على أغصان إخوته، ثمَّ هبت الريح، فاقتلعت أغصان إخوته من أصولها، وألقتها في البحر، ونبت غصن يوسف في الأرض قائماً، فانتبه فزعاً مرعوباً، فقال له أبوه: ما الذي دهاك، يا بني. فقص عليه رؤياه[2]، فبلغ إخوته، فقالوا: يا ابن راحيل، لقد رأيت عجباً، يوشك أن تدعي أنك مولانا، ونحن عبيدك. فشق عليهم رؤياه، وحسدوه بعض الحسد.

رؤيا الكواكب

رأى يوسف هذه الرؤيا، يعني الغصن، وهو ابن سبع سنين، ثمَّ إنه رأى، وهو ابن اثنتي عشر سنة، الرؤيا التي قصها الله علينا في كتابه، إذ قال تعالى: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا } سورة يوسف: 4. وكان ينومه إلى جانبه، فبينما يوسف نائم عند أبيه، ليلةً من الليالي، إذ رأى الرؤيا التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز، وكانت ليلة الجمعة، فانتبه من منامه فزعاً مرعوباً، فالتزمه يعقوب، وضمه إلى صدره، وقبل بين عينيه، وقال: يا حبيب أبيه، ما الذي أصابك؟. فقال: يا أبت، رأيت رؤيا أفزعتني. فقال: يا بني، خيراً رأيت، ما الذي

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 100 – 129. «قال أهل العلم بقصص الأنبياء، وأخبار الماضين» وأراد الثعلبي من يأخذ عن قصص أهل الكتاب، وهو ابن إسحاق، كما في قصص الأنبياء للثعلبي: 41. وابن إسحاق يأخذ عن وهب، كما هو معروف، ويؤكده ذكر وهب في الفقرات اللاحقة.

(2) «حلم يوسف حلماً وأخبر إخوته، فازدادوا أيضًا بغضًا له.... . العهد القديم، سفر التكوين 37: 5 – 8.

رأيت؟.

قال يوسف: رأيت كان أبواب السماء فتحت، وقد أشرق منها النور، فاستنارت النجوم، وأشرقت الجبال، وزخرت البحار، وعلت أمواجها، وسبحت الحيتان بأنواع اللغات، ورأيت كإني ألبس رداءً، أشرقت الأرض من حسنه ونوره، ورأيت كان مفاتيح خزائن الأرض ألقيت بين يدي، فبينما أنا كذلك، إذ رأيت أحد عشر كوكباً، انقضت من السماء، ومعها الشمس والقمر، فخروا لي ساجدين، فقال يعقوب: { يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ }، ثمّ عبر رؤياه، فقال: { وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } سورة يوسف: 5 - 6[1].

قال: فسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه، فقال لها يعقوب: اكتمي ما قال يوسف، ولا تخبري أولادي بذلك. فقالت: نعم. فلمّا أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم، أخبرتهم بالرؤيا التي أمرها يعقوب بكتمنها، فانتفخت أوداجهم، واقشعرت جلودهم؛ غضباً على يوسف، وقالوا: ما عنى بالشمس غير أبينا، ولا بالقمر غيرك، ولا بالكواكب غيرنا. ثمّ قالوا: إن ابن راحيل يريد أن يتملك علينا، فيقول: أنا سيدكم وأنتم عبيدي. فحسدوه على ذلك.

حسد الأخوة

وحملهم الحسد على أن تآمروا بينهم، في أن يفرقوا بينه وبين أبيه، بضرب من الاحتيال، ويهلكوه فيما بينهم، كما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: { إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ }، وهو يهوذا، وكان أفضلهم وأعقلهم: {لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} سورة يوسف: 8 -10.

فعند ذلك، أجمعوا رأيهم أن يدخلوا على يعقوب، ويكلموه في إرسال يوسف معهم إلى البرية، فقال لهم رويبل[2]، وهو أكبر ولد يعقوب: إن أباكم لا يأمنكم على يوسف، ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف، حتى نلعب بين يديه، فإذا نظر إلينا، كيف نمرح ونلعب، اشتاق إلى ذلك. فأقبلوا على يوسف، وهو يسبِّح ، فجعلوا يتلاعبون، ويتضاحكون بين يديه، فلمّا رأى يوسف ذلك، اشتاق إلى اللعب معهم، فأقبل عليهم، وقال: يا إخوتاه، أهكذا تلعبون في مراعيكم؟. فقالوا: نعم يا يوسف، إنك لو رأيتنا، ونحن نلعب في مراعينا، لتمنيت أن تكون معنا. فشوقوه إلى ذلك.

حتى كان هو الطالب إليهم، فقال لهم: يا إخوتاه، انطلقوا إلى أبي، واسألوه أن يرسلني

(1) «ثم حلم أيضًا حلماً آخر وقصّه على إخوته.... . العهد القديم، سفر التكوين 37: 9 - 11. وفي مدراش بريشيت رابا 67: 10. أساطير اليهود 2: 14، 298. ابتهج يعقوب؛ لأنه فهم معنى الحلم بطريقة صحيحة. والأساطير للشوك: 236. والإشارة إلى الحلمين في التلمود: 117.

(2) أخوه وابن خالته. العهد القديم، سفر التكوين 37: 21 -22.

معكم. فأقبلوا إلى يعقوب، ووقفوا بين يديه صفاً، وكانوا يفعلون هكذا، إذا أرادوا أن يسألوه حاجةً، فلمّا رآهم بين يديه وقوفاً صفوفاً، قال لهم: ما حاجتكم؟. { قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ }.

فقال بنوه: { لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ } سورة يوسف: 11 - 14. ثمَّ قالوا: يا نبي الله، كيف يأكله الذئب، وفينا شمعون، إذا غضب، لا يسكن غضبه، حتى يصيح، فإذا صاح، لا تسمعه حامل، إلا وضعت ما في بطنها، وفينا يهوذا، إذا غضب، شق السبع نصفين.

فلمّا سمع يعقوب منهم ذلك، اطمأن إليهم، وأقبل يوسف حتى وقف بين يدي أبيه، ثمَّ قال له: يا أبت، أرسلني معهم. قال: أو تحب ذلك يا بني؟. قال: نعم. قال: إذا كان غداً، أذنت لك في ذلك. فلمّا أصبح يوسف، لبس ثيابه، وشد عليه منطقته، وأخذ قضيبه، وخرج مع إخوته، ثمَّ عمد يعقوب إلى السلة التي حمل فيها إبراهيم زاد إسحاق، فحمل فيها زاداً ليوسف، وخرج ليشيعهم، فقالوا: يا نبي الله، ارجع.

فقال يعقوب: يا بني، أوصيكم بتقوى الله، وبحبيبي يوسف، أسألكم بالله، إن جاع، فأطعموه، وإن عطش، فاسقوه، وقوموا عليه، ولا تتعبوه ولا تخذلوه، وكونوا متواصلين متراحمين. قالوا: نعم، يا أبانا، كلنا لك ولد، وهو أخونا، كأحدنا، بل له الفضل علينا بحبك إياه. فقال: نعم، يا بني، الله خليفتي عليكم، مع أني خائف أن أكون قد ضيعته. ثمَّ أنه أقبل على يوسف، فالتزمه وضمه إلى صدره، وقبل بين عينيه، ثمَّ قال: استودعتك الله، رب العالمين. وانصرف راجعاً.

في البئر

أرسل يعقوب يوسف مع إخوته، فأخرجوه مظهرين له الكرامة، فلمّا برزوا به إلى البرية[1]، أظهروا لهُ العداوة وضربوه، فجعل يستغيث بهم واحداً بعد واحد، وهم يضربونه، فلا يرى منهم رحيماً، وأخذوا ما كان زوده يعقوب، وأطعموه الكلاب، وضربوه حتى كادوا يقتلونه، وعطش عطشاً شديداً، فقال لهم: اسقوني جرعة من ماء، قبل أن تقتلوني، فلم يسقوه[2]، فعند ذلك بكت الملائكة رحمةً ليوسف.

فلمّا رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه، جعل يصيح، ويقول: يا أبتاه، يا يعقوب، لو تعلم ما تصنع بابنك بنو الإماء. فلمّا هموا بقتله، قال لهم يهوذا[3]، وكان ابن خالة يوسف،

(1) كان أخوة يوسف يخرجون إلى البرية؛ ليرعوا غنم أبيهم. التلمود: 118.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 346 باختلاف طفيف. في التلمود: 118. يُسمّي أخوته واحداً واحداً، ويصيح أخرجوني من هذا البئر، ارحموني، إن أخطأت في حقكم ....

(3) راوبين، كما مرَّ.

وأحسنهم فيه رأياً: أليس أنكم قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه. فعند ذلك، أجمعوا على إلقائه في الجب، كما قال الله تعالى: { فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ } سورة يوسف: 15. فانطلقوا به إلى الجب؛ ليطرحوه فيه.

فلمّا أرادوا أن يلقوه فيه، جعلوا يدلونه في البئر، فيتعلق بشفير البئر، فربطوا يديه إلى عنقه، ونزعوا قميصه[1]، فقال: يا إخوتاه، ردوا علي قميصي؛ أستر به عورتي، ويكون لي كفناً بعد مماتي، وأطلقوا يدي؛ أطرد بهما عني هوام الجب. فقالوا: له أدع الشمس والقمر، والأحد عشر كوكباً، تلبسك وتؤنسك. فدلوه في البئر بحبل، فلمّا بلغ نصفها، قطعوا الحبل؛ ليسقط فيموت فيه، فأخرج الله تعالى على وجه الماء، صخرةً لينة، ورفعها إلى يوسف، فوقف عليها، وجعل يوسف يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة، لحقتهم، فأجابهم، فهموا أن يرضخوه بالحجارة، فيقتلوه، فمنعهم يهوذا، وقال: لقد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه.

مع الملك

فلمّا ألقي يوسف في الجب، أضاء له الجب، وعذب ماؤه، حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب، وبعث الله تعالى إليه ملكاً[2]، فحل عنه قيده، وكان إبراهيم، حين ألقي في النار، جرد من ثيابه، وقذف في النار عرياناً، فأتاه جبريل بقميص، من حرير الجنَّة، فألبسه إياه، وكان ذلك القميص عند إبراهيم، فلمّا مات إبراهيم، ورثه إسحاق، فلمّا مات إسحاق، ورثه يعقوب منه، فلمّا شب يوسف، جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة، وعلقه في عنقه؛ لمّا كان يخاف عليه من العين، وكان لا يفارقه، فلمّا ألقي في الجب عرياناً، جاءه الملك، وكان عليه التعويذ، فأخرج القميص، وألبسه إياه، وجعل يؤنسه بالنهار.

ويروى أن الملك أتاه بسفرجلة من الجنَّة، فأطعمه إياها، فلمّا أمسى يوسف، نهض الملك ليذهب، فقال له يوسف: إنك، إذا خرجت عني، استوحش. فقال له الملك: قل، إذا هبت شيئاً: يا صريخ المستصرخين، يا غياث المستغيثين، يا مفرج كرب المكروبين، قد ترى مكاني، وتعرف حالي، ولا يخفى عليك شيء من أمري. فلمّا دعا يوسف بهذا الدعاء، بعث الله إليه سبعين ملكاً، فحفوا به، وآنسوه في البئر، ثلاثة أيام، فلمّا كان في اليوم الرابع، أتاه جبريل، وقال: يا غلام، من طرحك ههنا في هذا الجب؟. قال: إخوتي لأبي. قال: ولم؟. قال: حسدوني على منزلتي من أبي.

قال: أتحب أن تخرج من هذا الجب؟. قال: نعم. قال: قل: يا صانع كل مصنوع، ويا جابر كل مكسور، ويا حاضر كل ملإٍ، ويا شاهد كل نجوى، ويا قريباً غير بعيد، ويا مؤنس كل وحيد، ويا غالباً غير مغلوب، ويا علام الغيوب، ويا حياً لا يموت، ويا محيي الموتى، لا إله إلا أنت،

---

(1) انتزعوا معطفه ذا الألوان العديدة، ورداءه العلوي، وأرديته السفلية. مدراش بريشيت 84: 16. أساطير اليهود 2: 18، 299.

(2) عن وهب. في قصص الأنبياء للكسائي: 347. وهي في أساطير اليهود 2: 21.

سبحانك، أسألك يا من له الحمد، يا بديع السماوات الأرض، يا مالك الملك، ويا ذا الجلال والإكرام، أسألك أن تصلي على محمد، وعلى آل محمد، وأن تجعل لي من أمري، ومن ضيقي فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث احتسب، ومن حيث لا احتسب.

فقالها يوسف، فجعل الله له من الجب مخرجاً، ومن كيد إخوته فرجاً، وآتاه ملك مصر، من حيث لا يحتسب، وأوحى الله إليه، وهو في البئر: لتنبئن إخوتك بما عملوا، وهم لا يعلمون إنك يوسف، فذلك قوله تعالى: { لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون } سورة يوسف: 15

خداع الأب

فلمّا ألقوه في الجب، عمدوا إلى سخلةً من الغنم[1]، فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها، وشووها وأكلوا لحمها، ثمّ إنهم رجعوا إلى يعقوب، وهو قاعد على قارعة الطريق، ينتظرهم متى يأتون بيوسف، فلمّا دنوا منه، اصطرخوا صراخ رجل واحد، ورفعوا أصواتهم بالبكاء، فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة، فلمّا وافوه، اجتمعوا وتقدموا بين يديه، وشقوا جيوبهم، وبكوا، ففزع يعقوب، وقال: ما لكم يا بني، وأين يوسف؟. { قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } سورة يوسف: 17. وهذا قميصه ملطخ بدمه، فذلك قوله تعالى: { وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } سورة يوسف: 16.

فلمّا قالوا ذلك ليعقوب، بكى بكاءً شديداً، وقال لهم: أروني قميصه. فأروه، فقال: تالله، ما رأيت كاليوم ذئباً، أحلم من هذا، أكل ابني، ولم يشق له جيباً، ولا خرق له شقاً، وصاح صيحةً، وخر مغشياً عليه، فلم يفق إلا بعد ساعة، فلمّا أفاق، بكى بكاءً شديداً، ثمّ أخذ القميص، وجعل يشمُّه ويقبله، ويضعه على وجهه.

قالوا: فلمّا أصبح إخوة يوسف من الغد، رجعوا إلى مراعيهم، فقال بعضهم لبعض: قد رأيتم ما كان من تكذيب أبيكم البارحة، فإن أردتم أن يصدقكم، ويخرجكم من الملامة، فمروا بنا على الجب، فنخرج يوسف منه، ونفرق بين أضلاعه ولحمه، ونجئ به. فقال لهم يهوذا: يا إخوتاه، أين العهد الذي بيني وبينكم، والله، لئن فعلتم ما تقولون، لأخبرن يعقوب بما كان منكم إليه، ثمّ لأكونن لكم عدواً، ما بقيت. فتركوه، ثمّ إنهم رجعوا إلى أبيهم عشاءً.

الذئب

فقال لهم يعقوب: إن كنتم صادقين أن الذئب أكله، فأين الذئب؟ ائتوني به. فعمدوا إلى حبالهم وعصيهم، فأخذوها ومضوا إلى الصحراء، فاصطادوا ذئباً، وشدوه وأوثقوه كتافاً، ثمّ حملوه إلى يعقوب، وأوقفوه بين يديه، فقال: حلوا عقاله. فحلوه، فقال له يعقوب: أقبل. فاقبل الذئب، يتخطى القوم، حتى وقف بين يدي يعقوب، منكساً رأسه، فقال له يعقوب: أيها الذئب،

(1) «أخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسًا من المعزى وغمسوا القميص في الدم». العهد القديم، سفر التكوين 37: 31.

أكلت ولدي، وقرة عيني، وحبيب قلبي، وثمرة فؤادي، لقد أورثتني حزناً طويلاً، وألماً عظيماً؟!.

قال: فتكلَّم الذئب، وقال: لا، وحق شيبتك، يا نبي الله، ما أكلت لك ولداً، وإن لحومكم ودماءكم، معشر الأنبياء، لمحرمة علينا، وإني لمظلوم، مكذوب علي، وإني لذئب غريب من بلاد مصر. فقال له يعقوب: وما أدخلك أرض كنعان؟. قال: جئت لأجل قرابة لي من الذئاب، أزورهم وأصلهم[1]، فعند ذلك قال يعقوب لأولاده: { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } سورة يوسف: 18.

الخروج من البئر

قال: فمكث يوسف في الجب ثلاثة أيام، فلمّا كان اليوم الرابع، ودعا بالدعاء الذي علمه جبريل، { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ } أي رفقة مارة، من قبل مدين، تريد مصر[2]، فأخطأوا الطريق، وضلوا عنها، حتى نزلوا قريباً من الجب.

قال: وكان الجب في قفر بعيد من العمران، وإنما هو للرعاة والمجتازة، وكان ماؤه مالحاً، فعذب حين ألقي فيه يوسف، فلمّا نزلت السيارة، أرسلوا رجلاً من العرب، من أهل مدين، يقال له: مالك بن دعر. ليطلب لهم ماء، فذلك قوله تعالى: { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ }. قالوا: والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء، فيهيأ الأرشية[3] والدلاء.

فوصل الوارد إلى البئر، { فَأَدْلَى دَلْوَهُ } أي أرسلها، فتعلق يوسف بالحبل، فلمّا وصل إلى فم البئر، ورآه مالك بن دعر، فرأى أحسن ما يكون من الغلمان، فقال مالك: { يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ } يبشر أصحابه أنه أصاب عبداً، { وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً } قال المفسرون: أسر مالك بن دعر وأصحابه، أمر يوسف من التجار الذين معهم، وقالوا لهم: هو بضاعة، استبضعناها، من بعض الناس إلى مصر؛ خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة، إن علموا حاله.

قال: وكان يهوذا يأتي يوسف بالطعام كل يوم، سراً من إخوته، فأتاه ذلك اليوم، كما كان يفعل، فلم يجده في البئر، فنظر، فإذا هو بمالك، وأصحابه نزولاً، ويوسف معهم، فرجع يهوذا، وأخبر إخوته بذلك، فأتوا إلى مالك، وقالوا له: هذا عبدنا، أبق[4] منا. وكتم يوسف حاله مخافة أن يقتلوه، فقال مالك: أنا أشتريه منكم. فباعوه منه، فذلك قوله تعالى: { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 249. والبدء والتاريخ 3: 70، وفي أساطير اليهود 2: 29. والأساطير للشوك: 237.

(2) هم سبعة تجار مديانيون. أساطير اليهود 2: 20. قافلة من اليشمعلين (الإسماعيليين) مقبلة. التلمود: 119. وفيه تفاصيل أخرى.

(3) الأرشية جمع رشاء، وهو الحبل. لسان العرب: رشا. وفي العهد القديم، سفر التكوين 37: 24. «وأما البئر، فكانت فارغة ليس فيها ماء».

(4) أبق العبد هرب.

دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } سورة يوسف: 19 - 20[1].

ثم إن مالك بن دعر انطلق، هو وأصحابه بيوسف، ومعهم اخوته، يقولون لهم: استوثقوا منه، فإنه آبق سارق كاذب، وقد برئنا إليكم من عيوبه[2]. فحمله مالك على ناقة له، وساروا به إلى مصر، وكان طريقهم على قبر أمه، فلمّا رأى قبر أمه، لم يتمالك أن رمى نفسه عن الناقة إلى القبر، وهو يقول: يا أمي، يا راحيل، حلي عنك عقدة الردى، وارفعي رأسك من الثرى، وانظري إلى ولدك يوسف، وما لقي بعدك من البلاء، يا أماه، لو رأيت ضعفي، وذلي لرحمتني، يا أماه، لو رأيتني، وقد نزعوا قميصي، وشدوني، وفي الجب ألقوني، وعلى حر وجهي لطموني، وبالحجارة رجموني، ولم يرحموني، وكما تباع العبيد باعوني، وكما يحمل الأسير حملوني.

قال: فافتقده مالك على الناقة التي كان عليها، فلم يجده، فصاح في القافلة: ألا إن الغلام قد رجع إلى أهله. فطلب القوم يوسف فرأوه، فاقبل عليه رجل منهم، فقال: يا غلام، قد أخبرنا مواليك بأنك آبق سارق، فلم نصدق، حتى رأيناك تفعل ذلك. فقال: والله، ما أبقت، ولكنكم مررتم على قبر أمي، فلم أتمالك أن رميت نفسي على قبرها[3]. قال: فرفع مالك بن دعر يده، ولطم حرَّ وجهه، لطمةً أسكته من بكائه، وقال له: هلا كان هذا البكاء قبل اليوم، فلا نشتريك؟، فضاق صدر يوسف وقال: يا رب، أرهم آية، فارتفعت سحابة سوداء، وريح عاصف، فأظلم النهار عليهم، حتى لم ير بعضهم بعضاً، فجعلوا ينادون: اذكروا ربكم، واذكروا ذنوبكم، فقال الرجل الذي لطم يوسف: أنا المذنب من بينكم، ثمَّ إنه صار إلى يوسف، وقال: أيها الغلام، إني لطمت وجهك، فالطم وجهي، واعف عني، قال: قد عفوت عنك، ودعا يوسف ربه فانكشفت السحابة، وذهبت الظلمة.

(1) بعشرين قطعة من الفضة. التلمود: 119.

(2) قال لهم مالك: يا أولاد يعقوب، اكتبوا كتاباً ألا ترجعوا علي، ولا أرجع عليكم، فكتبوا له كتاباً في أوله: هذا ما اشترى مالك بن دعر الخزاعي من أولاد يعقوب عبداً مملوكاً، وهم يهوذا وشمعون وروبيل واصطاحود ودانيال ولاوي، وسماهم جميعاً في الكتاب، وكتبوا ما كان لمالك أن يرجع عليهم بعد هذا الكتاب، ولا لهم أن يرجعوا عليه، ثمَّ طوي الكتاب، وسلمه ليوسف، وقال له: احفظ كتابك، ولما أراد الانصراف قالوا لمالك: اعلم أنا قد بعناك عبداً سارقاً آبق، فقيده، وغل يده، كي لا ينفر منك، ولا يسرق، ولا تحل وثاقه، فقيده بقيد الدواب، واركبه على ناقة معهم. قصص الأنبياء للكسائي: 350. وهو في الجامع لأحكام القرآن 9: 158.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 349. ولا توجد قصة قبر راحيل في التوراة، وهي مما انفرد به التلمود: 120. الحاشية (2).

في مصر

وأقبل عزيز مصر توطيفر بن ضو[٦]، فجلس على كرسي، واجتمع التجار الأغنياء، وأخذ المنادي ينادي، ويصف الحسن والجمال، فأسبل يوسف دمعته، كأنها الدرر، وقال له: إن كان لا بد من هذا النداء، فقل بكم هذا الغلام العبراني؟، وأخذ المنادي نصف وزنه فضة بيضاء، ونصف وزنه من ثياب مصر، فقال مالك بن دعر: لا أبيع، فزادوا فيه، فبلغ مثل وزنه ذهباً، فقال: لا أبيع، وكانت هناك فارعة بنت طاوس العملقية. فقالت: أنا أعطيك عشرة وزنه ذهباً، ولك هذا الجواد، فقال مالك: لا أبيع، وبلغ ذلك زليخا بنت عتكاهر، وهي امرأة العزيز، فبعثت إلى زوجها قوطيفر، وقالت: لا تدع هذا الغلام يفوتنا، وامتنع التجار من المزايدة، وأخذت فارعة العملقية، والعزيز قوطيفر في المزايدة، حتى اشتراه بمال، لا يحصى لكثرته.

ووقف عليه رجل على ناقة، من بلاد كنعان، فمدَّت الناقة عنقها نحو يوسف وجعلت تشمُّه، فقال يوسف: أيها الرجل، من أين أنت؟، قال: أنا من أرض كنعان، وهذه الناقة هناك، فبكى يوسف بكاءً شديداً، فقال له: ما هذا البكاء مع الحسن والجمال؟. فقال يوسف: إنما حسني من حسن جدي إبراهيم، ثمَّ قال يوسف للكنعاني: أيها الرجل، أتعرف النبي يعقوب ؟. قال: نعم، ولقد خلفته على عريشةٍ، حزيناً لا يهدأ من البكاء.

قال يوسف: لي إليك حاجة، وهي أنك، إذا انصرفت، تجعل طريقك عليه، وتبلغه سلامي، وتصفني له، حتى يسكن ما به، وأنه يسألك عن خال بخدي أسود، فأخبره أن الدموع قد محته، وقد بقي أثره، وتخبره أني يوسف ولده، وكان هذا الكلام بالعبرانية، فلمَّا سمع مالك بن دعر ذلك، ندم على بيعه، ولم يدر ما يفعل.

ثم إن الكنعاني رحل عن مصر، بعد قضاء حاجته، وسار حتى بلغ أرض كنعان، ووقف على عريش يعقوب، ونادى: السلام عليك يا نبي الله، إني جئتك بخبر يوسف ولدك، فوثب يعقوب إلى الرجل، وعانقه ودخل به عريشه، فذكر له الكنعاني ما كان رآه، فقال له يعقوب: صف لي يوسف.

قال: يا نبي الله، رأيت غلاماً أمرد، نورياً حورياً بدرياً قمرياً، لا درن في رأسه، قد بلغت ذوائبه إلى كعبه، كأنها حية ملتوية، ورأيته نظيفاً حكيماً عليماً، أحسن الناس وجهاً وقامة، كان أشفاره قوائم أجنحة النسور، حاجباه مقرونان، ثغره كالهلال، أقنى الأنف، كأنه منحوت من

---

(٦) فوطيفار خصي فرعون، ورئيس الشرط. وفوطيفار أو فوطيفارع اسم مصري، معناه «الذي أعطاه الإله رع»، وهناك شخصيتان تحملان هذا الاسم، الأول هو خصي فرعون، ورئيس شرطته، حيث ستتعرض زوجته ليوسف، والثاني هو أون، كاهن معبد هليوبوليس، الذي سيتزوج يوسف ابنته أسنات. يوسف وأسنات، ضمن التوراة، كتابات ما بين العهدين 3: 475. ويبدو أن هناك خلطاً بين الشخصيتين، فكان القُصَّاصون يزوجون يوسف بامرأة الأول، خصي فرعون.

العاج، لطيف الفم، رقيق الشفتين، مفلج الأسنان، كأنها نظم در أزهر، ولقد عجبت من حسن عينيه، كأنه قد اكتحل بسواد، على خده خال أسود، قد أذهب البكاء رسمه، وكشف لي عن بطنه، فنظرت إلى شامة سوداء، كأنها هلال صبح، وهو يقول لك: إن خدي الذي كنت تغسله، وتقبله قد وسم من كثرة اللطم والبكاء، وقد حفرت الدموع في الخدين حفراً شديداً.

فلمّا سمع يعقوب ذلك، خر مغشياً عليه، ولما أفاق قال: صفه لي ثانياً، فلمّا وصفه، قال: والله، هذه صفة ولدي يوسف، فاسألني أيها الرجل، حاجتك بهذه البشارة، قال: حاجتي أن تدعو لي بكثرة المال والأول اد، فدعا له يعقوب ، وقال: اللهم، كثر ماله وولده، وادخله الجنَّة، واجعله رفيقي فيها، ثمَّ ودع الكنعاني يعقوب ، ورجع إلى ناقته، يريد ركوبها، فانطق الله تعالى الناقة، وقالت: يا صاحبي، ألم أكن شريكتك في الرسالة، فارجع إلى يعقوب، واسأله أن يخصني بدعوة، فرجع إلى يعقوب، وأخبره بذلك، فدعا لها، ومضى لحال سبيله.

وخطر على قلب يوسف أن يقول: أنا يوسف بن يعقوب، فجاءه جبريل، وأمره بالسكوت، إلى أن يقضي الله أمراً، كان مفعولاً، وينفذ فيه حكمه، وقال له: كان لذلك شاكراً، وعلى ما ابتلاك به صابراً، فإنك عند الله، لمن الصديقين، ودنا منه مالك بن دعر، وقال: أيها الغلام، إني قد تحيرت، فأخبرني بلسانك العبراني: من أنت؟، وابن من أنت؟، وإني على بيعك نادم، ولولا أني أخاف على مالي ونفسي من هذا العزيز، لكنت بذلت الجهد لاسترجاعك إلي، ولكن قلبي مطمئن عليك، لأنهم يريدون أن يخدموك ويتخذوك ولداً.

فبكى يوسف، وقال: أمثلي يكون ولداً لهؤلاء القوم الكافرين؟، لكني سأعاشرهم بالمعروف، إلى أن يقضي الله في حكمه، يا مالك، أخبرك أني يوسف بن يعقوب نبي الله بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وأولئك الذي اشتريتني منهم، أخوتي من أبي، حملهم الحسد علي، فباعوني بعد أن طرحوني في ذلك الجب، فصاح مالك بن دعر صيحةً، وقال: والله، ما عرفتك، وإني على بيعك نادم، فاستغفر لي ربك، فإني من أولاد مدين بن إبراهيم. فبكى يوسف، وقال: يا مالك، أنت مني، وأنا منك، ثمَّ استغفر له ذنبه، وقال: أبشر، فقد رضيت عنك يا مالك، فقال مالك: سل ربك أن يرزقني مولوداً، أفرح به، فدعا له يوسف فاستجاب الله دعوته.

فيقال إن مالك بن دعر لم يأخذ من ثمنه شيئاً، بل تركه لهم، وأقبل يوسف إليه، وقال: إن لي إليك حاجة، وهي يا مالك، إن جزت بأرض كنعان، فلا تجاوز عريش يعقوب، واخبره خبري وسلامي، حتى يسكن عنه بعض ما به، فضمن له مالك بن دعر ذلك، ففعل، ورزقه الله تعالى من امرأته، وكانت عجوزاً عقيماً، اثني عشر بطناً، في كل بطن اثنان، فكانوا أربعة وعشرين ذكراً، وعمره الله تعالى، حتى رآهم مجتمعين، ورأى يوسف على ملك مصر، وكل ذلك ببركة

الله، وببركة يوسف[1].

قالوا: فلمّا أتى العزيز بيوسف إلى منزله، وقال لامرأته: { أَكْرِمِي مَثْوَاهُ }، فتأملته امرأة العزيز، ورأت حسنه وجماله، ووقع حبه في قلبها، وعشقته، فـ { وَرَاوَدَتْهُ } أي طلبت منه متابعتها على هواها، وذلك قوله تعالى: { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ } أي هلم. تدعوه إلى نفسها[2]، فقال يوسف عند ذلك: { مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي } يعني زوجك قطفير سيدي، إنه { أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } يعني إن فعلتَ هذا، فخنته في أهله، بعد ما أكرمني وائتمنني، فأنا ظالم له، ولا يفلح الظالمون.

مع امرأة العزيز

ولمّا أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه، جعلت تذكر له محاسن نفسه، وتشوقه إلى نفسها، فقالت له: يا يوسف، ما أحسن شعرك!. قال: هو أول شيءٍ، ينتثر من جسدي. قالت: يا يوسف، ما أحسن عينيك!. قال: هما أول ما يسيل في الأرض من جسدي. قالت: ما أحسن وجهك!. قال: التراب يأكله. فلم تزل تأمره مرة، وتعظمه أخرى، وتدعوه إلى اللذة، وهو شاب مستقبل، مجد، شبق الشباب، وهي حسناء جميلة، حتى لان لها؛ لمّا يرى من كلفها به، ولم يتخوف منها، حتى خلوا في بعض البيوت، وهم بها[3].

قال: قالت يا يوسف، ما أحسن شعرك!. قال: هو أول شيءٍ يبلى، إذا مات. قالت: يا يوسف، ما أحسن وجهك!. قال: ربي تعالى صورني في الرحم. قالت: يا يوسف، قد أنحلت جسمي بصورة وجهك. قال: الشيطان يعينك على ذلك.

قالت: يا يوسف، الجنينة قد التهبت ناراً، قم، فاطفئها. فقال: إن أطفأتها، فمنها احتراقي. قالت: يا يوسف، الجنينة قد عطشت، قم، فاسقها. قال: من كان المفتاح بيده، فهو أحق أن يسقيها مني. قالت: يا يوسف، بساط الحرير قد بسط لك، قم، فاقض حاجتي. قال: إذن، يذهب نصيبي من الجنَّة. قالت: يا يوسف، ادخل معي تحت الستر، فاسترك به. قال: ليس شيء، يسترني من ربي تعالى، أن عصيته.

قالت: يا يوسف، ضع يدك على صدري، تشفني بذلك. قال: سيدي أحق بذلك مني. قالت: أما سيدك، فأسقيه كأساً فيه زئبق الذهب، فيتناثر لحمه، ويتساقط عظمه، ثمَّ ألقيه في

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 351، 354. وبحر العلوم 2: 186. والقصة في العهد القديم، سفر التكوين 39: 1. والأساطير للشوك: 239.

(2) «اضطجع معي». العهد القديم، سفر التكوين 39: 12. وكان ذلك عندما خرج أهل مصر، بما فيهم الملك والأمراء للفرجة على النيل، وقد لبست زليخاه أفخر أثوابها، وراحت تغوي يوسف، بتحرق أكثر من ذي قبل. التلمود 124.

(3) جامع البيان 16: 34.

الاستبرق، وألقيه في القيطون (المخدع) لا يعلم به أحد من الناس، وأوليك ملكه، قليله وكثيره. قال: فإن الجزاء يوم الجزاء. قالت: يا يوسف، إني كثيرة الدر والياقوت والزمرد، فأعطيك ذلك كله، حتى تنفقه في مرضاة سيدك الذي في السماء. فأبى يوسف[1].

قال وهب: لمَّا همَّ يوسف وامرأة العزيز بما همَّا، خرجت كفٌّ بلا جسد بينهما، مكتوب عليها بالعبرانية { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } سورة الرعد: 33. ثمَّ انصرفت الكف، وقاما مقامهما، ثمَّ رجعت الكف بينهما، مكتوباً عليها بالعبرانية { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } سورة الانفطار:-10 12. ثمَّ انصرفت الكف، وقاما مقامهما، فعادت الكف ثالثةً مكتوباً عليها { وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كان فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } سورة الاسراء:32. ثمَّ انصرفت الكف، وقاما مقامهما، فعادت الكف رابعةً مكتوباً عليها { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } سورة البقرة: 281[2].

فلمَّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته، قال الله تعالى لجبريل: يا جبريل، أدرك عبدي، قبل أن يصيب الخطيئة. فانحط جبريل عاضاً على أصابعه أو كفه، وهو يقول: يا يوسف، أتعمل عمل السفهاء، وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء، قال الله تعالى: { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } سورة يوسف: 24.

قال: قامت امرأة العزيز إلى الصنم، فظلت دونه بثوب، قال: فقال لها يوسف: ما هذا؟. قالت: أستحي أن يرانا. فقال لها يوسف: أتستحيين ممن لا يسمع، ولا يبصر، ولا يفقه، ولا أستحي أنا ممن خلق الأشياء كلها وعلمها؟![3].

قالوا: فلمَّا رأى يوسف البرهان، قام مبادراً إلى باب البيت، هارباً مما أرادته، فاتبعته المرأة، فذلك قوله تعالى: { وَاسْتَبَقَا الْبَابَ } سورة يوسف: 25. يعني: تبادر يوسف، وراعيل إلى الباب، أما يوسف، ففراراً من ركوب الفاحشة، وأما المرأة، فطلباً ليوسف؛ ليقضي حاجتها التي راودته عنها، فأدركته، فتعلقت بقميصه من خلفه، فجذبته إليها مانعةً له من الخروج، { وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ } أي من خلفه؛ لأن يوسف كان الهارب، والمرأة الطالبة.

أمام الزوج

فلمَّا خرجا { وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ } أي وجدا زوجها قطفير، عند الباب جالساً، مع ابن عم لراعيل، فلمَّا رأته هابته، وقالت سابقة بالقول لزوجها: { مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا

(1) نوادر الأصول 3: 24. وهو في قصص الأنبياء للكسائي: 360. ومشهد الغزل في التلمود: 124. ومدراش بريشيت راباه87: 5. أساطير اليهود: 43، 305.

(2) الكشف والبيان، طبعة السعودية 14: 569. وقد ذكره الطبري مختصراً. جامع البيان 16: 48. وقصص الأنبياء للكسائي: 361.

(3) حلية الأولياء 3: 198.

إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } سورة يوسف: 25.

فقال يوسف بل { هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي } فأبيت، وفررت منها، فأدركتني وشقت قميصي. فقال ابن عم راعيل، كان جالساً مع زوجها على الباب، فحكم بما أخبر الله تعالى عنه { إِنْ كان قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كان قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ }، ثمَّ أقبل على يوسف، فقال: { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } الحديث، لا تذكره لأحد. ثمَّ قال لامرأته: { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } سورة يوسف: 26 – 29. أي من المذنبين، حين راودت شاباً عن نفسه، وخنت زوجك، فلمَّا استعصم، كذبت عليه[1].

فشاع أمر يوسف وراعيل، وتحدث الناس بذلك، { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ }، وهن: امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب: { امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ } أي عبدها الكنعاني { قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً }.

أعتدت لهن أترنجاً[2]، { وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ }، وكانت قد أجلسته في مجلس، غير المجلس الذي هن فيه جلوس، فخرج عليهن يوسف { فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } بالسكاكين اللاتي معهن، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج وغيره، فما أحسسن إلا بالدم، ولم يجدن من حز الأيدي ألماً؛ لشغل قلوبهن بيوسف[3].

قال: بلغني أن سبعاً من الأربعين الامرأة، متن في ذلك المجلس؛ وجداً بيوسف { وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ }. فقالت راعيل عند ذلك للنسوة: { فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ} سورة يوسف: 30 – 32.

وانصرفت النسوة إلى منازلهن، فدعت زليخا يوسف، وأجلسته بين يديها، وقالت له: أيها أحب إليك، تتنعم معي في نعمتي، وتتبعني على مرادي، أو أحبسك مع المسجونين؟، قال يوسف: لست بمجيبك إلى ما تريدين، فاصنعي ما بدا لك، فوثبت زليخا مغضبة، ودخلت على الملك، وكانت حظيةً عنده، وقالت: أيها الملك، إني اشتريت عبداً، لا انتفع به في حوائجي، وقد استعصى علي، حتى لا ينجح فيه الضرب، ولا التوبيخ، وقد أحببت أن تتقدم به إلى السجن، موضع أهل العصيان، ولم تذكر له أنه قد استعصى عليها فيما تريده منه، فأمر الملك بحبسه،

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 362.

(2) في قصص الأنبياء للكسائي: 364. وفي أساطير اليهود 2: 44 البرتقال.

(3) التلمود: 123. وقصة النساء والفاكهة لم ترد في التوراة، إنما هي من تفاسير التلمود الأجادية. نفسه، الحاشية (1).

وأن يفرج عنه، متى أفرجت عنه زليخا، { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ } سورة يوسف: 33 - 35 [1].

قالت المرأة لزوجها: إن هذا العبد العبراني، قد فضحني في الناس، يعتذر إليهم، ويخبرهم أني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذر، فأما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر، وأما أن تحبسه كما حبستني. فحبسه بعد علمه ببراءته، دفعاً للتهمة عن امرأته[2].

ولمّا لبث يوسف في السجن سبع سنين، أرسل الله إليه جبريل بالبشارة بخروجه، فقال له: أتعرفني أيها الصديق؟. قال له يوسف: أرى صورة ظاهرة وروحاً طيباً، لا يشبه أرواح الخاطئين. قال جبريل: أنا الروح الأمين، رسول رب العالمين. قال يوسف: فما أدخلك مداخل المذنبين، وأنت سيد المرسلين، ورأس المقربين؟.

قال جبريل: أو لم تعلم أيها الصديق، أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن البقعة التي يحلون بها هي أطهر الأرضين، وأنه قد طهر بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين. قال يوسف: كيف تشبهني بالصالحين، وتسميني بأسماء الصديقين، وتعدني مع آبائي المخلصين، وأنا أسير بين هؤلاء المجرمين؟!.

قال جبريل: لم يكلم قلبك الجزع، ولم يغير خلقك البلاء، ولم يتعاظمك السجن، ولم تطأ فراش سيدك، ولم ينسك بلاء الدنيا بلاء الآخرة، ولم تنسك نفسك أباك ولا أبوك ربك؛ وهذا الزمان الذي يفك الله به عنوك، ويعتق به رقك، ويبين للناس فيه حكمتك، ويصدق رؤياك وينصفك ممن ظلمك، ويجمع إليك أحبتك.

ويهب لك ملك مصر، يملكك ملوكها، ويعبد لك جبابرتها، ويذل لك أعزتها، ويصغر لك عظماءها، ويخدمك سوقتها، ويخولك خولها، ويرحم بك مساكينها، ويلقي لك المودة والهيبة في قلوبهم، ويجعل لك اليد العليا عليهم والأثر الصالح فيهم، ويرى فرعون حلما يفزع منه ويأخذه له كرب شديد حتى يسهره ويذهب نومه، ويعمي عليه تفسيره وعلى السحرة والكهنة ويعلمك تأويله[3].

وكان للعزيز ثلاثة سجون: سجن يقال له: سجن العذاب، وسجن يقال له: سجن القتل، وسجن يقال له: سجن العافية، فأما سجن العذاب، فإنه محفور تحت الأرض، وفيه حيات

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 365. وأساطير اليهود 2: 49. والأساطير للشوك: 241.

(2) اعتلال القلوب 1: 36. وقد حكم القضاة ببراءة يوسف، لكنهم، مع ذلك، أشخصوه إلى السجن، درءاً للتشهير بامرأة من مستوى فوطيفار. التلمود: 124. والقصة فيه.

(3) تفسير ابن أبي حاتم 7: 2140. وعيون الأخبار 2: 301.

وعقارب، وهو مظلم لا يعرف فيه الليل من النهار، وأما سجن القتل، فإنه محفور في الأرض أربعين ذراعاً، وكان الملك، إذا سخط على أحد، يلقيه فيه على أم رأسه، فلا يصل إلى قعره، إلا وقد هلك، وأما سجن العافية، فإنه كان على وجه الأرض، بجانب قصره، وإذا غضب على أحد من حاشيته، حبسه في ذلك السجن.

فلماً أرادت زليخا أن تسجن يوسف، أرسلت إلى سجان سجن العافية، وأمرته أن يصلح فيه مكاناً ضيقاً لرجل واحد، ثمَّ قالت ليوسف: لقد أعييتني، وانقطعت فيك حيلتي، فلأسلمنك إلى معذبين، يعذبونك كما عذبتني، وينحلون جسمك كما أنحلت جسمي، ولألبسنك، بعد الحلل، جبة صوف، تأكل جلدك، ولأقيدنك بقيد من حديد، يأكل رجليك، ثمَّ نزعت ما كان عليه من اللباس، وألبسته جبة صوف، وقيدته بقيد من حديد، ثمَّ أمرت وصائفها أن يذهبوا به إلى السجن، وهم ينادون عليه: هذا جزاء من يعصي مولاته.

فلمَّا دنا من باب السجن، نكس رأسه، فدخل وقال: بسم الله، وجلس، فأحاط به أهل السجن، وهو يبكي، فأتاه جبريل، وقال له: مم بكاؤك، وأنت اخترت السجن لنفسك؟، فقال: إنما بكائي، لأني لم أجد مكاناً، أصلي فيه !، فقال له جبريل : صل حيث شئت، فإن الله تعالى قد طهر لك خارج السجن وداخله، على أربعين ذراعاً من أجلك، فكان يصلِّي حيث شاء، وكان يصلِّي ليلة الجمعة، عند باب السجن.

فبلغ أمره وما هو عليه زوجها العزيز، فغضب عليها، وقال: كيف حبسته على هذه الصفة؟، وأمر العزيز السجان، فأخرجه من ذلك المضيق، إلى أحسن مكان في السجن، وأمر برفع القيد عنه، وبعث إليه بالفرش الحسنة، وقال: لولا أن زليخا تستوحش من إخراجك، لأخرجتك منه، فاصبر إلى أن ترضى عنك. ونزل جبريل على يوسف، ويبشره بأن الله قد ألهمه تعبير الرؤيا، وأمره أن يفتح فاه، فلماً فتحه، نفخ فيه جبريل، فعرف يوسف التعبير بإذن الله، وأنبت الله له شجرةً، يخرج منها كل ما يشتهيه، هو والمسجونون، ويفرق عليهم الطعام الذي يحمل إليه من بيت العزيز، وكان يؤنسهم في السجن[1].

يوسف في السجن

ولمَّا سُجن يوسف، دخل معه السجن فتيان، وهما غلامان، كانا للوليد بن الريان، ملك مصر الأكبر، أحدهما خبازه، وصاحب طعامه، واسمه شرها، والآخر ساقيه، وصاحب شرابه، واسمه شرهيا، غضب عليهما الملك فحبسهما، وذلك أنه بلغه عنهما أن خبازه يريد أن يسمه، وأن ساقيه وافقه على ذلك، وكان السبب فيه أن جماعةً من مصر، أرادوا المكر بالملك واغتياله، فدسوا

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 366. والعهد القديم، سفر التكوين 39: 20 - 23، سجن العافية، وقد عينه مأمور السجن مشرفاً على السجن والسجناء. في مدراش بريشيت رابا 87: 1 - 2. أساطير اليهود 2: 51، 306.

إلى هذين الغلامين، وضمنوا لهما مالاً؛ ليسما الطعام للملك والشراب، فأجابهم إلى ذلك، ثمَّ إن الساقي نكل عنه، والخباز غش الملك، وقبل الرشوة، فسم الطعام.

فلمّا حضر وقته، وأحضر الطعام، قال الساقي: أيها الملك، لا تأكل؛ فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب؛ لأن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب. فشرب فلم يضره، فقال للخباز: كل من طعامك، فأبى، فجرب ذلك الطعام في دابة من الدواب، فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما[1]. وكان يوسف لمّا دخل السجن، قال لأهله: إني أعبر الأحلام. فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلم، نجرب علم هذا العبد العبراني، فنتراءى له. فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً.

رؤيا الخمر والسلال

وقد كانا رأيا، حين دخل السجن، رؤيا، فأتيا يوسف، فقال الساقي: أيها العالم، إني رأيت كأني في بستانٍ، فإذا أنا بأصل كرمةٍ، عليها ثلاث عناقيد من عنب، فجنيتها، وكان كأس الملك بيدي، فعصرتها، وسقيت الملك شربةً، فذلك قوله تعالى: { قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا }. وقال الخباز: إني رأيت كان فوق رأسي ثلاث سلال، فيها خبز[2]، { تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } سورة يوسف: 36.

ثم فسر رؤياهما، لمّا ألحا عليه، فقال: { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا } يعني الملك، ويعود إلى منزلته التي كان عليها، وأما العناقيد الثلاثة، فإنها ثلاثة أيام، يبقى في السجن، ثمَّ يخرج، { وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ } والسلال التي رآها في المنام ثلاثة أيام، يبقى في السجن، ثمَّ يخرج فيصلب { فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ }. قال ابن مسعود: ثمَّ لمّا سمعا قول يوسف، قالا: ما رأينا شيئاً، إنما كنا نلعب ونجرب علمك هذا، فقال يوسف: { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } سورة يوسف: 41. أي فرغ الأمر الذي عنه تسألان[3]. فقال يوسف عند ذلك للذي علم أنه ناجٍ منهما، وهو الساقي { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يعني الملك، وقل له: في السجن غلام محبوس ظلماً { فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } سورة يوسف: 42.

قال: أصاب أيُّوب البلاء سبع سنين، وعذب بختنصر بالمسخ سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين.

ولما أتى جبريل يوسف بالبشرى، وهو في السجن، قال: هل تعرفني أيها الصديق؟. قال: أرى صورةً طاهرةً، وروحاً طيباً، لا يشبه أرواح الخطائين، قال: فإني رسول رب العالمين، وأنا الروح الأمين، قال: فما الذي أدخلك مدخل المذنبين، وأنت أطيب الطيبين، ورأس المقربين،

(1) في التلمود: 125. وجد الأمراء في الخبز نحاتة من حجر الطحن، ووجد أحدهم في الخمرة ذبابة.

(2) حلم بثلاث سلال من القمح. مدراش بريشيت رابا 88: 5 – 6. أساطير اليهود 2: 52، 307.

(3) جامع البيان 16: 108.

وأمين رب العالمين؟. قال ألم تعلم يا يوسف، أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأرضين، وأن الله قد طهر بك السجن وما حوله، يا طاهر الطاهرين، ويا ابن المتطهرين، إنما يتطهر بفضل طهورك وطهر آبائك المخلصون.

قال: كيف تسمِّيني بأسماء الصديقين، وتعدني مع المخلصين الصالحين، وقد أدخلت مدخل المذنبين، وسميت بالضالين المفسدين؟. قال: لم يفتن قلبك الحزن، ولم يدرس حرمتك الرق، ولم تطع سيدتك في معصية ربك، ولذلك سماك الله بأسماء الصديقين، وعدك مع المخلصين، وألحقك بآبائك الصالحين[1].

[ثمَّ عرج جبريل إلى السماء، وتفرقت الملائكة الذين كانوا يؤنسون يوسف في السجن، فصاح يوسف صيحة عظيمة، وقال: الأمان الأمان يا رحمن، وخر ساجداً يبكي، ويستغفر الله تعالى، وأقبل بالتوسل والدعاء إلى الله تعالى، فأوحى الله إليه: يا يوسف، إني قد غفرت لك ذنبك، ونزل عليه جبريل، ويشره بقبول توبته، وأنه سيخرجه من السجن، ويجمع بينه وبين أبيه وإخوته، وتصدق رؤياه فيهم، فخر يوسف ساجداً، شكراً الله وعلاه الفرح والاستبشار][2].

رؤيا البقرات

فلمَّا انتهت محنته، ودنا فرجه وراحته، رأى ملك مصر الأكبر، وهو الريان بن الوليد، رؤيا عجيبة، فهالته، وذلك أنه رأى { سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ }، خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، فدخلت في بطونهن، فلم ير منها شيئاً، ورأى { وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضرٍ}، قد انعقد حبها، وافركت[3]، وسبعاً { وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ }، قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخَضِر، حتى غلبتها.

فجمع السحرة والكهنة، وقصها عليهم، وقال: { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ . قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ }[4]. { وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } فبعثوا إليه[5]، فأتى ليوسف، فقال له: { أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } أي فضلك وعلمك، فقال له يوسف: {تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ

(1) تفسير ابن أبي حاتم 7: 2140.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 369.

(3) نضج حبها. لسان العرب: فرك.

(4) قدم السحرة عدة تعبيرات لحلم فرعون، لم يرتضها. فتقدَّم رئيس السقاة، وأخبره بقدرة يوسف السجين على تعبير الأحلام. التلمود: 128. 127. والقصة فيه.

(5) أساطير اليهود 2: 56.

مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} سورة يوسف: 43 - 49.

فرجع الساقي إلى الملك، وأخبره بما أفتاه به يوسف، من تأويل رؤياه كالنهار، وعرف الملك أن الذي قال كائن، قال: ائتوني بالذي عبر رؤياي هذه. فلمّا جاء الرسول إلى يوسف، أبى أن يخرج معه، حتى يعرف عذره وبراءته، ويعرف صحة أمره من قبل النسوة، فقال للرسول: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ }

قال: فرجع الرسول إلى الملك، من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وامرأة العزيز، فقال لهن { مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}، فلمّا سمع ذلك يوسف، قال: { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ }، فقال له جبريل: ولا حين هممت بها؟. فقال عند ذلك يوسف: { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ }، فلمّا تبين للملك عذر يوسف، وعرف أمانته وعلمه، قال: { ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي } سورة يوسف: 50 - 54.

فلمّا جاء الرسول إلى يوسف، قال له: أجب الملك الآن[1]. فخرج يوسف، ودعا لأهل السجن بدعاءٍ، يعرف إلى اليوم، وذلك أنه قال: اللهم، عطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم، في كل بلدة، فلمّا خرج من السجن، كتب على باب السجن: هذا قبر الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء[2]. ثمَّ إنه اغتسل، وتنظف من درن السجن، ولبس ثياباً جدداً حساناً، وقصد إلى الملك[3].

فلمّا وقف بباب الملك، قال: حسبي ربي من دنياي، وحسبي ربي من خلقه، عز جاره، وجل ثناؤه، ولا إله غيره. فلمّا دخل على الملك، قال: اللهم، إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره، وشر غيره، فلمّا نظر إليه الملك، سلم عليه يوسف بالعربية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟. قال: لسان عمي إسماعيل. ثمَّ إنه دعا له بالعبرانية ثانياً، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟. أجابه: لسان أبي يعقوب.

وكان الملك يتكلّم بسبعين لساناً، فكلما كلم يوسف بلسان، أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك ما رأى منه، وكان يوسف يومئذٍ ابن ثلاثين سنة، فلمّا رأى الملك حداثة سنه، وغزارة علمه، قال لمن عنده: إن هذا علم تأويل رؤياي، ولم تعلمه الكهنة والسحرة.

---

(1) العهد القديم، سفر التكوين 41: 17، والقصة فيه.

(2) عيون الأخبار 1: 149.

(3) حلق ذقنه يوسف أولاً، وارتدى ملابس جديدة، أحضرها له ملك من الفردوس. مدراش بريشيت رابا 89: 9. أساطير اليهود 2: 56، 307.

ثم إنه أجلسه على سريره، وقال له: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً. فقال له يوسف: نعم، أيها الملك، رأيت سبع بقرات سمان شهبٍ، حسان غير عجاف، كشف لك عنهن نهر النيل، فطلعن عليك من شاطئه، تشخب أخلافهن لبناً، فبينا أنت كذلك تنظر إليهن، وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل، فغار ماؤه، وبدا قعره، فخرج من حمئه ووحله، سبع بقرات عجافٍ، شعثٍ غبرٍ، ملصقات البطون، ليس لهن ضروع، ولا أخلاف، ولهن أنياب وأضراس وأكف، كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان، فافترسنهن افتراس السباع، وأكلن لحمهن، ومزقن جلودهن، وحطمن عظامهن، وتشمشمن مخهن.

فبينا أنت تنظر، وتتعجب، كيف تغلبن، وهن مهازيل، ثمَّ لم يظهر فيهن سمن، ولا زيادة، بعد أكلهن، إذا بسبع سنابل خضر، وسبع أخر سود، في منبت واحد، عروقهن في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: ما هذا، هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن في الماء؟!. إذ هبت ريح، فذرت أوراق السود اليابسات على الخَضِر المثمرات، فاشتعلت فيهن النار، فاحرقتهن، وصرن سوداً متغيرات. فهذا آخر ما رأيت من الدنيا.

ثم إنك انتبهت من نومك مذعوراً، فقال الملك: والله، ما شأن هذه الرؤيا، وإن كانت عجباً، بأعجب مما سمعته منك، فما ترى في رؤياي، أيها الصديق؟. فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتبني الأهراء[1]، والخزائن، وتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله، ليكون أبقى له، ويكون قصبه وسنبله علفاً للدواب، وتأمر الناس، فيرفعون من طعامهم الخمس، فيكفيك الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ثمَّ تأتيك الخلق من النواحي، فيمتارون منك بحكمك، فيجتمع عندك، من الكنوز، ما لم يجتمع لأحد قبلك. فقال الملك: ومن لي بهذا؟، ومن يجمعه ويبيعه لي، ويكفي الشغل فيه؟.

فقال: يوسف: { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } سورة يوسف: 55. «فقال الملك: كيف يتهيأ لك، وأنت كنعاني، لا تعرف لغات أهل مصر ؟»، فقال: أيها الملك، إن الله قد ألهمني جميع هذه اللغات والألسنة، يوم دخلت مصر، فعند ذلك نزع الملك خاتمه، وجعله في إصبع يوسف، ثمَّ قال لأصحابه: هذا عزيز مصر، وخليفتي، فاسمعوا له وأطيعوا، قال الله تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } سورة يوسف: 56. ، وقال له: { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } سورة يوسف: 54.[2]

تمكين يوسف

قال: [3] لَمَّا انصرفت السنة، من يوم سأل الإمارة، دعاه الملك، فتوجه بتاجه، وقلده بسيفه،

---

(1) الأهراء جمع هري، وهو بيت كبير لحفظ طعام السلطان. لسان العرب: هرا.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 372. وأساطير اليهود 2: 71. والأساطير للشوك: 245.

(3) في قصص الأنبياء للثعلبي: 115. «قال ابن عبَّاس»، وهي لوهب كما في قصص الأنبياء للكسائي: 373.

وحلاه بخاتمه، وأمر له بسرير من الذهب، مكلل بالدر والياقوت، وضرب عليه قبةً من استبرق، وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً، وعرضه عشرة أذرع، وعليه ثلاثون فراشاً وتسعون نمرقة، ثمَّ أمره أن يخرج، فخرج متوجاً، ولونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى فيه، من بياض وجهه، الناظر صفاء لونه، ثمَّ انطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك، ولزم الملك، وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه[1].

وإن زليخا احتاجت إلى الطعام، فأصابها من الضر، ما أصاب غيرها، وقد كانت ابتاعت الطعام بجميع ما تملك، من الأملاك والقصور والجواهر، فلم تجد بداً من تعرضها ليوسف، فقعدت في طريق يوسف، فإذا هي بيوسف قد أقبل، في موكب عظيم، وبين يديه الرايات والأعلام، فقامت، وقالت: يا يوسف، سبحان من أعز العبيد بالطاعة، وأذل الملوك بالمعصية، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنك من أولاد النبيين، فقال يوسف: من أنت أيتها المرأة؟.

فذكرت له أنها من بنات العمالقة، وهي زليخا، ثمَّ بكت وذكرت حاجتها إلى الطعام، وأن جميع ما كان لها فني، وقد صار كله إلى خزائن يوسف، فدمعت عينا يوسف، وقال لها: انصرفي، فإني باعث إليك جميع أملاكك، وأنت سيدة كما كنت، فانصرفت إلى منزلها فرحةً، فرد عليها يوسف جميع أملاكها، وبعث لها مالاً جزيلاً، وطعاماً كثيراً.

ثم إن يوسف استأذن ربه في تزويجها، فأوحى الله إليه أن تزوجها، فتزوجها بشهادة الملك الريان، وبحضرة ملوك مصر، ورد الله عليها، حسنها وجمالها، فلمَّا دخل يوسف بها وجدها بكراً، فعجب من ذلك، فقالت: يا نبي الله، والذي هداني إلى دينك، ما مسني ذكر قط، ولقد كان معي زوجي العزيز، وما قدر علي.

ثم قال لزليخا: لقد كدت أن تدخليني النار يوم المراودة !، فقالت: يا نبي الله، لا تلمني، فإن صورة وجهك تذهل العالمين، ألا تذكر كيف قطعت النساء أيديهن، من غير أن يشعرن، فالحمد لله الذي صرف عني، وعنك الفاحشة، وجمع بيني وبينك على دين آبائك المرسلين، فيقال: إنها رزقت منه عشرة أولاد ذكور، في خمسة أبطن، ثمَّ ولدت البطن السادس ذكراً واحداً[2].

---

(1) حِلية الأولياء 4: 42. وتمكين يوسف في التلمود: 131، 132. حيث بدل فرعون باسم يوسف اسم «كاشف الخفايا»، وأمر بألا يكون أحد أعلى منه، في المملكة، غير الملك نفسه، وخلع عليه خاتمه من إصبعه، وألبسه حلة ملكية، وجعل على رأسه تاجاً ....

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 375 . وهو في الجامع لأحكام القرآن 9: 214. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 315. وقد تزوج يوسف ابنتها أسنات. الأساطير للشوك: 245، وفي العهد القديم، سفر التكوين 41: 45. وله منها ولدان هما أفرائيم بن يوسف، وميشا (منسى) بن يوسف.. العهد القديم، سفر التكوين 41: 50.

قال: فلمّا اطمأن يوسف في ملكه، وخلت السنون المخصبة، ودخلت السنون المجدبة، جاءت بهولٍ، لم تعهد الناس مثله، فأصاب الناس الجوع، فلمّا كان بدء القحط، نام الملك، فبينما هو نائم، ذات ليلةٍ، إذ أصابه الجوع، فهتف الملك: يا يوسف، الجوع الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط والجوع.

فلمّا دخلت أول سنة من سني الجدب، هلك فيها كل شيءٍ، أعدوه من السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف، فباعهم في أول سنةٍ بالنقود، حتى لم يبق في مصر دينار، ولا درهم، إلا قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والحلل والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب، حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم بالسنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى لم يبق عبد، ولا أمة في يد أحدٍ منهم، ثمَّ باعهم السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور، حتى احتوى عليها، ولم يبق لأحدٍ ملك، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم، فإن الرجل كان يشتري بولده الحنطة، أو الشعير؛ من شدَّة السنة، فلم يبق لأحد ولد ذكر، ولا أنثى، إلا مماليك، وباعهم في السنة السابعة برقابهم وأرواحهم، حتى لم يبق بمصر حر، ولا حرة، إلا صار ملكاً له.

فتعجَّب الناس من أمر يوسف، وقالوا: تالله، ما رأينا ملكاً أجل من هذا!. ثمَّ قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي، فيما خولني، فما ترى في هذا؟. قال الملك: الرأي رأيك، وإنما نحن لك تبع، فقال: فإني أشهد الله، وأشهدك إني أعتقت أهل مصر جميعاً، ورددت عليهم عقارهم، وعبيدهم، وأولادهم[1].

وكان يوسف لا يشبع من الطعام في تلك الأيام، فقيل له: أتجوع، وبيدك خزائن الأرض؟!. فقال: إني أخاف، أن شبعت، أن أنسى الجائع[2].

وأصاب أرض كنعان، وبلاد الشام، من القحط والشدَّة، ما أصاب سائر البلاد، ونزل بيعقوب ما نزل من ذلك، بالناس، فأرسل بنيه إلى مصر يطلبون الميرة[3]، وأمسك عنده بنيامين،

(1) القصة في التلمود: 134. وأساطير اليهود 2: 63.

(2) المجالسة وجواهر العلم 2: 46. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 116. «روي».

(3) «فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال يعقوب لبنيه: لماذا تنظرون بعضكم إلى بعضٍ؟. وقال إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر. انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت. فنزل عشرة من إخوة يوسف ليشتروا قمحًا من مصر. وأما بنيامين أخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع إخوته، لأنه قال: «لعله تصيبه أذية. العهد القديم، سفر التكوين 42: 1 – 4. والتلمود: 135. والأساطير للشوك: 248.

أخا يوسف لأمه، فجاء بنو يعقوب إلى يوسف، وكانوا عشرة[1]، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين، من ثغور الشام، وكانوا أهل بادية ومواشٍ.

[فتجهز عشرة من أخوة يوسف، وخلفوا أخاهم بنيامين عند أبيهم، وخرجوا يمتارون، يريدون أرض مصر، فبينما هم كذلك، فإذا هم بأولاد إسماعيل : قيدار وعوايل ويامن وداني ومالك ومسمع وقيطور وأولادهم، قد أقبلوا من أرض مصر، فالتقوا بهم، وسلموا عليهم، وسألوهم عن نسبهم موضعهم، فانتسب قيدار إلى إسماعيل، وكلمهم بالعبرانية.

فقال أولاد يعقوب: إنا بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فرحب بعضهم ببعض، وسألوهم عن بكاء يعقوب على ولده يوسف، فقالوا: إنه لفي جهدٍ وكربٍ من ذلك، وقد بكى عليه، حتى كف بصره، ثمَّ سألوا أولاد إسماعيل عن العزيز، فذكروا من عظم سلطانه، وحسن سيرته كثيراً ثمَّ ودع بعضهم بعضاً، ثمَّ سار أولاد إسماعيل يريدون الحرم، وأولاد يعقوب يريدون مصر، فساروا حتى قربوا منها.

وكان ليوسف مجلس مشرف على البرية، وكان جالساً فيه، فإذا هو بشيخ قد قدم عليه، ومعه أربعة وعشرون ولداً ذكراً، وهم أولاده، على نوق مزينة، فتقدَّم الشيخ، فوقف بين يديه، وحياه بتحية الملوك، وعرفه، وقال: أيها العزيز، أتعرفني؟، فقال: ما أشبهك برجل حملني إلى هاهنا !. فقال له مالك بن دعر: أنا ذلك الرجل الذي اشتراك بأرض كنعان ، وبعتك إلى قوطيفر العزيز.

فقربه يوسف، وقبل بين عينيه، ثمَّ سأله عن الفتية الذين في صحبته، فقال: أيها الصديق، رزقتهم بدعوتك المباركة، وهم أولادي، قال له يوسف: فما الذي أقدمك إلى هذا البلد؟. قال: الضيق والقحط، قال له يوسف: إنك تكفى أمر الطعام، إن شاء الله، ولك يا مالك، هل مررت بأرض كنعان ؟.

قال: نعم، وإنهم لفي جهد، ولقد رأيت، في الطريق، الذي باعوك إلي، وهم مقبلون إليك، على نوقهم، يريدون أن يمتاروا منك، وقد قربوا من أرضك. ففرح يوسف، وقال: يا مالك، لا تذكر شيئاً من أمري، وأمر لمالك بن دعر من ثياب مصر، فكساه وكسا أولاده، وجملهم وأحسن إليهم، وأعطاهم من الطعام كفايتهم، وانصرف مالك إلى بلده غنياً][2].

دخول أخوة يوسف

[«أقبل أخوة يوسف، حتى بلغوا باب مصر، وأناخوا رواحلهم، وتفرقت إبلهم في

(1) «فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال يعقوب لبنيه: لماذا تنظرون بعضكم إلى بعضٍ؟. وقال إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر. انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت. فنزل عشرة من إخوة يوسف ليشتروا قمحًا من مصر. وأما بنيامين أخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع إخوته، لأنه قال: «لعله تصيبه أذية. العهد القديم، سفر التكوين 42: 1 – 4. والأساطير للشوك: 248. وهم رويبل وشمعون ولاوي ويهوذا ودان ونفتالي ويشاجر ورفولون وكاذ وآشر. والقصة في قصص الأنبياء للكسائي: 337.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 377.

مراعيها، ويوسف في منظرة له، فأبصر الإبل، وعرف أخوته، وعلم أن ما أخبره به مالك، كان حقاً][1]. فلماً دخلوا عليه، عرفهم يوسف، وأنكروه، فلماً نظر إليهم، وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم؟، وما أمركم؟، فإني أنكرت شأنكم. فقالوا: نحن قوم من أهل الشام، رعاة أصابنا الجهد، فجئنا نمتار. قال: لعلكم عيون، جئتم تنظرون عورة بلادي. قالوا: لا، والله، ما نحن بجواسيس، وإنما نحن إخوة، بنو أب واحد، وهو شيخ صديق لله، نبي من أنبياء الله، يقال له: يعقوب. قال: وكم أنتم؟.

قالوا: كنا اثني عشر، فذهب منا أخ إلى البرية، فهلك فيها، وكان أحب إلى أبينا منا. فقال: فكم أنتم ههنا؟. قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر؟. قالوا: عند أبينا؛ لأنه أخو الذي هلك من أمه، وأبونا يتسلى به. قال: فمن يعلم أن الذي تقولون حق؟. قالوا: أيها الملك إنا في بلاد لا نعرف فيها.

فقال يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم، إن كنتم صادقين، فإني أرضى بذلك. قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه، وسنراوده عنه. قال: فضعوا بعضكم عندي رهينةً؛ حتى تأتوني بأخيكم، فاقترعوا بينهم، فأصابت القرعة شمعون، وكان أبرهم بيوسف، فخلفوه عنده[2].

{ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا } قدمنا على خير رجلٍ، أنزلنا وأكرمنا كرامةً، لو كان رجلاً من ولد يعقوب، ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر، فاقرأوا عليه مني السلام، وقولوا له: إن أبانا يصلِّي عليك، ويدعو لك بها أوليتنا. ثمَّ قال لهم: أين شمعون؟. قالوا: إن الملك ارتهنه؛ لنأتيه ببنيامين، ثمَّ أخبروه بالقصة، فقال لهم: ولم أخبرتموه بذلك؟. قالوا: إنه أخذنا، وقال: إنكم جواسيس، حيث كلمناه بلسان العبرانية، ثمَّ قصوا عليه القصة، { قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }.

قالوا: { وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ . قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } سورة يوسف: 63 ـ[3]66.

فلمَّا فرغوا من تلك العهود، أقبل على بنيامين، فغسله وطيبه وزينه عند عين القدس، وسرح شعره، وظفر ذوائبه، وحشاها بالمسك والعنبر، ورصعها باللؤلؤ، ومنطقه بمنطقة إسحاق،

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 377، 378. مدراش بريشيت رابا 91: 7 أساطير اليهود 2: 66، 308. والأساطير للشوك: 249.

(2) اقترح منشي بن يوسف الإبقاء على شمعون رهينة. التلمود: 127. والقصة فيه.

(3) التلمود: 138.

وختمه بخاتم إبراهيم، وحذاه بنعل شيث، وأركبه ناقة من نوق إسماعيل، فلمّا رأى أخوته ما فعل له أبوه، غاروا منه، وحسدوه، ثمَّ ذهبوا وغسلوا رؤوسهم، وسرحوا شعورهم، وظفروا، ولبسوا أفخر ثيابهم، وتعمموا بعمائمهم، وتمنطقوا بمناطقهم، ولبسوا الأخفاف، وتقلدوا بالسيوف، وركبوا الإبل، وأقبلوا إلى يعقوب.

فلمّا رآهم، علم أنهم حسدوه، فقال لهم: يا بني، عليكم بتقوى الله، وترك البغي والحسد، كيلا يطمع الشيطان فيكم، واحفظوا أخاكم، حتى تردوه إلي، وإذا دخلتم مصراً، فقدموه عليكم، وذروه المترجم عنكم، قالوا: يا نبي الله، نعم. فلمّا ركبوا خشي العين[1]، فقال لهم: { لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ }؛ لأنهم كانوا ذوي جمال وهيبة، وصور حسان، وقامات ممتدة، وكانوا أولاد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم البلد؛ لئلا يصابوا بالعين، ثمَّ قال لهم: { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ } سورة يوسف: 67 – 68.

وكان لمصر أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها كلها، { وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ } في الكرة الثانية، قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، قد جئناك به. فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي. ثمَّ أنزلهم، فأكرم منزلهم، ثمَّ أضافهم، وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حياً، لأجلسني معه، فقال لهم يوسف: لقد بقي هذا أخوكم وحيداً فريداً، ثمَّ أجلسه على مائدته، فجعل يؤاكله، فلمّا كان الليل، أمر لهم بمثل ذلك، أي فرش، وقال لهم: ليبت كل اثنين منكم على فراش واحد، فلمّا بقي بنيامين وحده، قال يوسف: هذا ينام معي على فراشي. فبات معه، فجعل يوسف يضمه إليه، ويشم ريحه، حتى أصبح، فجعل روبيل يقول: ما رأينا مثل هذا. فلمّا أصبح، قال لهم: إني لأرى هذا الرجل الذي جئتم به، ليس له أخ، يؤنسه، فإن تشاؤون، أضمه إلي؛ ليكون منزله معي.

[ثمَّ إن يوسف دخل على زليخا، وقال لها: هؤلاء أخوتي، وهم الذين أخرجوني من حصن أبي، وألقوني في الجب، وباعوني بيع العبيد، فقومي وتزيني بأحسن زينة، تقدرين عليها، وزيني قصرك، ليعلم أخوتي أن الله يجزي المحسنين، ويوفي الصابرين أجورهم. فتقدَّمت زليخا إلى ميادين العزيز، وكانت سبعة، ففرشتها بأنواع الفرش، وعلقت عليها ستور الحرير، وجعلت في كل ميدان ثلاثة آلاف رجل، على الخيل العتاق، بأيديهم الأعلام، ونصبت قبة، كانت للعزيز، وهي من الأبنوس والعرعر، مشبكة بقضبان الذهب، لها أربعة أركان، على كل ركن جوهرة، ولها أربعة أبواب، ونصبت سريراً، كان للعزيز، في صدر القبة، وأوقفت عن يمين القبة خمسمائة غلام أمرد، على كل واحد منهم ما ليس على الآخر، عليهم القراطق والمناطق، وعن يسار القبة مثل ذلك، وجعلت بأيديهم طاسات الذهب والفضة، فيها المسك العنبر وماء الورد. ولبس

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 379. ومدارش تنحوما. في الإسرائيليات في تفسير الطبري: 117.

يوسف قميصه الذي كساه الله إياه في الجب، وكان من الجنَّة، لا يستطيع الناظر أن ينظر إليه من نوره ولمعانه، وتقلد وتمنطق، وجعل الإكليل على جبينه، والتاج على رأسه، وتختم وجلس على سريره، وألقى الله تعالى عليه سبعين ضعفاً من الجمال، ثمَّ أذن لأخوته في الدخول. فلمَّا وقفوا بين يديه، قربهم ونظر إلى أخيه بنيامين، فأدناه منه، وأقعده بين يديه] [1].

يوسف مع بنيامين

ثم إن يوسف أنزلهم منزلاً، وأجرى عليهم الطعام والشراب، وأنزل أخاه لأمه معه، فذلك، قوله تعالى: { ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ }، فلمَّا خلا به، قال له: ما اسمك؟. قال: بنيامين. قال: وما بنيامين؟. قال: المثكل؛ وذلك أنه، لمَّا ولد، هلكت أمه، قال: وما اسم أمك؟. قال: راحيل بنت ليان بن ناحور. قال: فهل لها من ولد؟. قال: نعم، عشر بنين، قال: فما أسماؤهم؟. قال: لقد اشتققت أسماءهم من اسم أخٍ لي، من أمي، هلك، اسمه يوسف. فقال يوسف: لقد اضطرك ذاك إلى حزن شديد، قال: فما سميتهم؟.

قال: بالعا، وأخيراً، وأشكل، وأحيا، وخير، ونعمان، وورد، ورأس، وحيثم، وعيتم، وأما بالعا، فإن أخي قد ابتلعته الأرض، وأما أخير، فإنه بكر أمي، وأما أشكل، فإنه كان أخي لأبي وأمي ومني، وأما أحيا، فلكونه كان حيياً، وأما خير، فإنه كان خيراً، حيث كان، وأما نعمان، فإنه كان ناعماً بين أبويه، وأما ورد، فإنه كان بمنزلة الورد في الحسن، وأما رأس فإنه كان بمنزلة الرأس من الجسد، وأما حيتم، فأعلمني أبي أنه حي، وأما عيتم، فلو رأيت غرته، لقرت عيني، وتم سروري[2].

فقال يوسف: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟[3]. فقال بنيامين: أيها الملك، ومن يجد أخاً مثلك؟. ولكن لم يلدك يعقوب، ولا راحيل. فبكى يوسف، وقام إليه، وعانقه، و { قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } سورة يوسف: 69. ولا تعلمهم بشيء من هذا، ثمَّ إن يوسف أوفى لإخوته الكيل، وحمل لبنيامين بعيراً باسمه[4].

ثم إنهم ارتحلوا، وأمهلهم يوسف، حتى ظعنوا. ثمَّ إن يوسف أمر بهم، فأدركوا وحبسوا عن المسير { ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } سورة يوسف: 70. فوقفوا، فلمَّا قرب منهم الرسول، قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم، ونحسن منزلتكم، ونوف كيلكم، وفعلنا لكم ما لم

---

(1) « قصص الأنبياء للكسائي: 380. والعهد القديم، سفر التكوين: 43: 5. التلمود: 142. وأساطير اليهود 2: 74.

(2) أسماؤهم: بيلا، وبيكر، وأشبل، وجيرا، ونعمان، وإيحي، وروش، ومويبم، وهوبيم، وعرد. ولها تفسيرات أيضاً في أساطير اليهود: 75.

(3) جامع البيان 16: 170.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 384.

نفعل لغيركم؟. قالوا: بلى، وما ذاك؟. قال: سقاية الملك فقدناها، ولم نتهم عليها غيركم، { تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } سورة يوسف: 73. وإنا، مذ قطعنا هذه الطريق، لم نرد أحداً بسوء، واسألوا عنا من مررنا به، هل أضررنا أحداً، أو أفسدنا شيئاً، وإنا قد رددنا الدراهم؛ لمَّا وجدناها في رحالنا، فلو كنا سارقين، ما رددناها.

فقال الرسول: إنه صواع الملك الأكبر الذي يكتال فيه، وإنه ائتمنني عليه، فإن لم أجده، تخوفت أن تسقط منزلتي عنده، وأفتضح في مصر، فمن رده علي، فله { حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } سورة يوسف: 72. قالوا: معاذ الله، أن نسرق. فقال المؤذن وأصحابه: { قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } سورة يوسف: 74 - 75. فقال الرسول، عند ذاك: لا بد من تفتيش أمتعتكم، ولستم ببارحين، حتى أفتشها، ثمَّ إنه انصرف بهم إلى يوسف، { فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ } سورة يوسف: 76. لإزالة التهمة، وكان يفتش أمتعتهم واحداً واحداً.

فلمَّا أخرج الصواع من رحل بنيامين، نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين، وقالوا: يا بنيامين، أي شيء صنعت بنا؟، وفضحتنا، وسودت وجوهنا، يا ابن راحيل، لا يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت الصواع؟. فقال بنيامين: بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء، ذهبتم بأخي إلى البرية، فأهلكتموه، إن الذي وضع الصواع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم.

ثم إنهم { قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ } سورة يوسف: [1]77. قال وهب: كان يخبئ الطعام من المائدة للفقراء.

ولمَّا دخلوا على يوسف، واستخرج الصواع من رحل بنيامين، دعا يوسف بالصواع، فنقر فيه، ثمَّ أدناه من أذنه، ثمَّ قال: إن صواعي هذا، ليخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً، وإنكم انطلقتم بأخ لكم، فبعتموه. فلمَّا سمع بنيامين ذلك، قام، فسجد ليوسف، وقال: أيها الملك، سل صواعك هذا، عن أخي، أحي هو؟. فنقره، ثمَّ قال له: حي، وسوف تراه. فقال بنيامين:: اصنع بي ما شئت، فإنه، إن علم بي، فسوف يستنقذني.

قال: فدخل يوسف إلى منزله، وبكى وتوضأ وخرج، فقال بنيامين: أيها الملك، إني أرى أن تضرب صواعك هذا، فيخبرك بالحق، من الذي سرقه، فجعله في رحلي؟. فنقره، فقال: إن صواعي هذا غضبان، وهو يقول: كيف تسألني عن صاحبي الذي سرقني، وقد رأيت مع من كنت؟.

وكان بنو يعقوب إذا غضبوا، لم يطاقوا، فغضب روبيل[2]، وقال: أيها الملك، والله، لئن

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 383.

(2) يهوذا في أساطير اليهود 2: 102.

لم تتركنا، وأخانا، لأصيحن صيحةً، لا تبقى في مصر، امرأة حامل، إلا ألقت ما في بطنها[1]. وقامت كل شعرةٍ في جسده، فخرجت من ثيابه، وكان بنو يعقوب، إذا غضبوا، ومس أحدهم الآخر، ذهب غضبه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنب روبيل، ومسه. فقام الغلام إلى جنبه، ومسه، فسكن غضبه، فقال روبيل: إن في هذا البيت لشيئاً من ولد يعقوب. فقال يوسف: ومن يعقوب؟. فغضب روبيل، وقال: يا أيها الملك، لا تذكر يعقوب؛ فإنه إسرائيل الله بن ذبيح الله بن خليل الله. قال يوسف: أنت، إذن، كنت صادقاً[2].

العودة إلى كنعان

فلمّا أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده، ويصير بحكمه، وإنه أولى به منهم، ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه منه، سألوه أن يخليه لهم، ويعطوه واحداً منهم بدله، { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ } في هذا الغلام، لتردنه { وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ } أي من قبل هذا، قصرتم في شأن يوسف { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ } حين سألناك أن ترسله معنا، ولو علمنا أنه يسرق، ما ذهبنا به معنا. { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } يعني: قوماً صحبوهم، من أهل كنعان، فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول، فقال يعقوب { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ } سورة يوسف: 78 – 84. وذلك أنه، لمّا بلغه خبر بنيامين، تكامل حزنه، وبلغ جهده، وهيج حزنه، على يوسف، فأعرض عنهم[3].

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لِمَ عاقبتك، وحبست عنك يوسف ثمانين سنةً؟. قال: لا، يا إلهي. قال: لأنك شويت عتاقاً[4]، وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه[5].

دخول أخوة يوسف ثانية

لمّا قيل ليعقوب: إن ابنك سرق، كتب إلى يوسف:

من يعقوب، إسرائيل الله بن إسحاق، ذبيح الله بن ابراهيم، خليل الله.

أما بعد، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، فأما جدي، فشدت يداه ورجلاه، وألقي في النار،

(1) المجالسة وجواهر العلم 3: 435. وباختصار في عيون الأخبار 1: 282.

(2) أقوال سبعة منهم في أساطير اليهود 2: 84. والقصة بتفاصيل أخرى في التلمود: 142 وما بعدها.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 386.

(4) العتيقة هي النجيبة الكريمة من الإبل. لسان العرب: عتق.

(5) الكشف والبيان 5: 249. وعلل الشرائع 1: 51.

فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدت يداه ورجلاه، ووضع السكين على قفاه، ليقتل، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن، وكان أحب أولادي إلي، فذهب به إخوته إلى البرية، ثمَّ أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، وذهبت عيناي، ثمَّ كان لي ابن، وكان أخاه من أمه، وكنت أتسلى به، فذهبوا به، ثمَّ رجعوا، وقالوا: إنه سرق. وإنك حبسته بذلك، وإنا أهل بيتٍ، لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته إلي، وإلا، دعوت عليك دعوةً، تنزل السابع من ولدك. فلمَّا قرأ يوسف الكتاب، لم يتمالك نفسه من البكاء، وعيل صبره[1].

فلماً دخلوا مصر، استقبلهم روبيل، ودخل معهم إلى العزيز، فناوله الكتاب، فوضعه على رأسه وعينيه وقبله، وقال لهم: أتعلمون ما فعلت ذلك، إنما فعلته لأن الملوك، عادتهم إذا ورد عليهم كتاب الصالحين، أن يفعلوا به ذلك، حتى يدوم ملكهم. فلمَّا قرأ الكتاب، قال لهم: لو كنتم حملتم إلي الكتاب قبل هذا، لسلمت إليكم أخاكم، غير أن حديثه قد ألقيته إلى الملك الريان بن الوليد، وأنا أكلمه في ذلك، ثمَّ أمر يوسف بحمل الصاع المخرج من وعاء بنيامين، ثمَّ قال لأخوته: اجتمعوا لأسأل هذا الصاع عنكم.

فلمَّا اجتمعوا بين يديه، نقر الصاع نقرةً، فطن طنيناً شديداً، ثمَّ قال لهم: يا بني يعقوب، إن هذا الصاع يقول: إنكم تشهدون بالزور في قولكم: إن الذئب أكل أخاكم، فقالوا: ما شهدنا بالزور قط، وما قولنا في يوسف إلا الحق.

فنقر الصاع ثانية، فطن طنيناً شديداً، فقال: أترون ما يقول؟، إنه يقول: إنكم حسدتم أخاكم، وأخرجتموه من عند أبيكم وأبيه، وأردتم قتله، وألقيتموه في الجب المظلم، البعيد القعر، ثمَّ نقر الصاع ثالثة، فطن طنيناً شديداً، فقال: أترون ما يقول؟، إنه يقول: ما كذبتك أيها العزيز، فيما أقول، ولقد أخرجوا أخاهم من الجب، فباعوه من مالك بن دعر بعشرين درهماً، وأوصوه أن يقيده ويغله، ليحمله إلى أرض مصر.

فتغيَّرت وجوه القوم، وقالوا: ما نعرف شيئاً من هذا، ثمَّ نقر الصاع رابعةً، فطن طنيناً شديداً، فقال: أترون ما يقول؟، إنه يقول: وكتبتم كتاب البيع بخط يهوذا، فقال يهوذا: أيها العزيز، إني لم أكتب شيئاً، وأنكره، فقال: مكأنكم، حتى أخرج إليكم، ثمَّ دخل إلى امرأته زليخا، فقال لها: هات تلك الصحيفة، فأخرجت الصحيفة، فأخذها وأخرجها إلى يهوذا، فقال له: أتعرف خطك؟، قال: نعم، فألقاها إليه.

فنظر يهوذا، فإذا هي بخطه، فقال: هو خطي، إلا أني لم أكتبه باختيار مني، وإنما كتبته على عبد لنا، أبق منا، اسمه يوسف. فغضب يوسف، وقال: ألستم تزعمون أنكم من أولاد الأنبياء وتفعلون مثل هذا، عمدتم إلى صبي، لم يبلغ الحلم، وهو أخوكم وابن أبيكم، فألقيتموه في

---

(1) الكتاب في التلمود: 140، 141. ولا ذكر لنص الكتاب (الرسالة) في التوراة. وهو في مدراش بريشيت 91: 10. و107: 19. أساطير اليهود: 71، 311.

الجب، ثمَّ لَمَّا أخرج من الجب، بعتموه بيع العبيد، حتى صار عبداً لعبدة الأوثان.

ثم قال لأعوانه: انصبوا لهم عشرة أخشاب على باب المدينة، لأضرب أعناق هؤلاء، وأصلبهم وأجعلهم حديثاً لمن بمصر، ولمن يجيء، فاهتمَّ أعوانه بذلك، فأخذ أخوة يوسف في البكاء والعويل، وقالوا: اقتلنا كيف شئت، ولا تصلبنا، ثمَّ أقبل بعضهم على بعض، فقالوا: هذا جزاؤنا بما عاملنا به أخانا.

فلمَّا أقروا بالذنب جميعهم، بين يديه، رفع التاج عن رأسه، وكشف وجهه، وقال: { قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ }[1]، وكان في خده خال، وفي رأسه شامة، كان مثلها في رأس يعقوب، فلمَّا نظروا إلى ذلك، عرفوه و{ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }، ثمَّ عمد يوسف إلى القميص الذي كساه الله في الجب، فطواه، وجعله في قصبة من الفضة، ودفعه إلى يهوذا، وخلع على أخوته، وطيب قلوبهم، ثمَّ قال: { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } سورة يوسف: 89 – 93. وذلك أنه سألهم فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: لَمَّا فارقه بنيامين، عمي من الحزن[2].

كانَ القميص من الجنَّة، وهو القميص الذي ألبس جبريل لإبراهيم، حين ألقي في النار، فبردت عليه النار، فصار عند إسحاق، ثمَّ صار عند يعقوب، فجعله يعقوب في عوذة، وعلقه في عنق يوسف، فكان معه حين ألقي في الجب، ونزع عنه قميصه، فبشره جبريل، وألبسه في الجب، وكان القميص معه.

فخرجوا، ثمَّ دفع لهم ألف ناقة، وألف خادم، ومائة رطل من الذهب الأحمر، وخمسمائة رطل من الفضة ، وشيئاً من المسك والعنبر، وسبق يهوذا بالقميص، يريد يعقوب ، فلمَّا قربوا من ديارهم، حملت ريح الصبا رائحة القميص إلى يعقوب، من مسير عشرة أيام، وألقته في خيشوم يعقوب، فجعل يقوم ويقعد، فلمَّا وصل إليه أخرج القميص من تلك القصبة، فألقاه على وجه يعقوب، وقال: خذها بشارةً، فعاد بصيراً من ساعته، وسجد يعقوب شكراً الله، ولم يرفع رأسه، حتى وافاه أولاده، وقالوا: يا أبانا نحن الذي غيبناه عنك، ونحن الذين آتيناك بخبره، فإن عزيز مصر هو ولدك يوسف[3].

وكان يوسف قد بعث، مع البشير إلى يعقوب، جهازاً، ومائتي راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله ووالديه وولده أجمعين، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فلمَّا دنا من مصر، كلم يوسف الملك الذي فوقه، فخرج يوسف، والملك في أربعة آلاف من الجند، وركب أهل مصر معهما، يتلقون

---

(1) قال: أنا يوسف الذي بعتموه إلى مصر. العهد القديم، سفر التكوين 45: 4.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 382. بحر العلوم 2: 209.

(3) أساطير اليهود 2: 89. وفيه عودة أخوة يوسف بهدايا

يعقوب[1]، وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهوذا، فنظر يعقوب إلى الجند والناس، فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر الأكبر؟. فقال: لا، هذا ابنك. فلمّا دنا كل واحد منهما من صاحبه، ذهب يوسف؛ ليبدأه بالسلام، فمنعه الله من ذلك، وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه، فابتدأه يعقوب بالسلام، وقال: السلام عليك، يا مذهب الأحزان.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ }، ورفعهما على العرش، وأبواه يعقوب، وخالته ليا[2]، فلما رأى يوسف أبويه، وإخوته قد خروا له سجداً، اقشعر عند ذلك جلده، { وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا } سورة يوسف: 99 - 100.

دخل يعقوب وولده مصر، وهم اثنان وسبعون إنساناً، ما بين رجل وامرأة[3]، وخرجوا منها مع موسى، ومقاتلتهم ستمائة ألفٍ، وخمسمائة، وبضع وسبعون رجلاً، سوى الذرية والهرمى والزمنى[4]، وكانت الذرية ألف ألف سوى المقاتلة[5].

وفاة يعقوب

فأقام يعقوب، بأرض مصر، أربعين سنة، قرير العين، فرح القلب، قد جمع الله بينه وبين أولاده، فعند ذلك، أوحى الله إليه: أن يا يعقوب، إني قد أنجزت لك الوعد، وأقررت عينك، بولدك يوسف، حتى رأيته ملكاً عزيزاً، وقد اقترب أجلك، فارحل عن مصر، فإنها بلد الفراعنة، وصر إلى قبور آبائك، لتكون هناك وفاتك[6].

فاغتم يعقوب لذلك، ودعا يوسف، وقال له: يا بني إن الله قد أنجز وعده فيك، وأقر عيني بك، وقد نعى إلي نفسي، وأمرني بالمسير إلى بلاد آبائي، وإني خارج إلى هناك، في نفرٍ من أخوتك، فأنظر يا بني، إذا دنا أجلك، فلا تتخذ لنفسك أرض مصر مدفناً. ثمَّ ودعه للخروج، فشيعه يوسف وأولاده، وجميع ملوك مصر، والملك الريان بن الوليد، حتى صار معه إلى آخر بلاد مصر، ثمَّ إنه ودع ولده يوسف، وعانقه وسائر أولاده، ودعا لهم، وأمرهم بالانصراف فانصرفوا، وسار هو، ومن تبعه من أولاده، إلى بلاد كنعان، فأقام بها، ثمَّ سار من هناك إلى

(1) سرعان ما عرف فرعون مصر بهذه الأحداث، فأرسل زفداً من كبار مقدميه للترحيب بإخوة يوسف، ولكي يطلبوا إليهم بأسمائهم أن يأتوا بعائلاتهم، وأشيائهم، ويقطنوا مصر. التلمود: 146. وفيه تفاصيل أخرى.

(2) تفسير ابن أبي حاتم 7: 2201. وبحر العلوم 2: 210.

(3) «وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر. مع يعقوب جاء كل إنسانٍ وبيته: رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير. وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسًا». العهد القديم، سفر الخروج 1: 1 - 5.

(4) ذوو العاهات.

(5) الجامع لأحكام القرآن 9: 268.

(6) العهد القديم، سفر التكوين 49: 30.

موضع قبر إبراهيم وإسحاق[1].

فلمَّا وصل يعقوب، فإذا هو بالملائكة حاضرين، عند قبرٍ محفورٍ، فوقف عليهم، فرأى ذلك القبر قد فرش بأنواع الفرش، فقال: لمن هذا؟، فقالوا: لعبدٍ كريم على ربه، فقال: من أنتم؟، قالوا: نحن ملائكة الرحمن، فنظر يعقوب إلى القبر، فرأى فيه قوماً حسان الوجوه، جلوساً على منابر من نور، فقال يعقوب: من هؤلاء الذي على المنابر؟، فقالوا: أولاد الخليل إبراهيم. فهم يعقوب أن يدخل في جملتهم، ويسلم عليهم، فقالت الملائكة: إن هؤلاء لا يدخل إليهم، إلا من يشرب هذا الكأس، فأخذه يعقوب فشربه، فلمَّا استوفاه خر ميتاً، عليه، فغسلته الملائكة، وكفنته بأكفان من الجنَّة، ثمَّ صلى عليه أحد أولاده، بجميع أخوته، ودفن إلى جنب أبيه إسحاق[2].

فهي أربعة قبور، في موضع واحدٍ، قبر إبراهيم، وقبر إسحاق، وقبر يعقوب، وقبر سارة. ورجع أخوة يوسف إلى يوسف، وأخبروه بوفاة أبيه يعقوب، فحزن عليه، وبكى بكاء شديداً[3].

فلمَّا جمع الله ليوسف شمله، وأقر له عينه، وأتم له تفسير رؤياه، وكان موسعاً له في ملك الدنيا ونعيمها، وعلم أن ذلك لا يدوم له، وأنه لا بد له من فراقه، فأراد نعيم الجنَّة، إذ هو أفضل منه، فتاقت نفسه إلى الجنَّة، فتمنى الموت، ودعا ربه، ولم يتمن نبي قبله، ولا بعده، الموت.

وفاة يوسف

ولَمَّا حضرت الوفاة يوسف، جمع إليه قومه من بني إسرائيل، وهم ثمانون رجلاً، وأعلمهم بحضور أجله، ونزول أمر الله تعالى به، فقالوا: يا نبي الله، نحب أن تعرفنا كيف تتصرف بنا الأحوال بعد خروجك من بين أظهرنا، وإلى ما يؤول إليه أمرنا وديننا وملتنا. فقال لهم: إن أمركم يستقيم على ما أنتم عليه، وتستقيمون على دينكم إلى أن يبعث رجل جبار عاتٍ من القبط، يدعي الربوبية، فيقهركم ويذبح أبناءكم، ويستحيي نساءكم، ويسومكم سوء العذاب، فتمتد أيامه مدة مديدة، ثمَّ يخرج من بني إسرائيل، من ولد لاوي بن يعقوب، رجل اسمه موسى بن عمران، رجل طويل جعد الشعر، آدم اللون، فينجيكم الله من أيدي القبط على يده.

فجعل كل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران، ويسمي عمران ابنه موسى، قال: وكان ليوسف ديك، وكان عمره خمسمائة سنة، فقال لهم يوسف: إنه يستقيم أمركم ما دام يصرخ فيكم هذا الديك، فإذا ولد هذا الجبار، يسكن، فلا يصرخ مدة ولايته، حتى إذا انقضت ولايته، وأذن الله تعالى بمولد هذا النبي، فيصرخ هذا الديك، ويعود إلى صراخه، ويكون ذلك علامة انقضاء ملك الجبار، وظهور نبي الله في الأرض.

---

(1) العهد القديم، سفر التكوين 49: 31.

(2) في مغارة «مكفيلاه»، في حبرون. كان إبراهيم قد اشتراها من عفرون بن صحر للدفن، فاتَّخذها يعقوب مدفناً له ولنسله. التلمود: 126، 127. في كهف المكفيلة. أساطير اليهود 2: 116.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 394.

فما زالوا يراعون الحال إلى أن سكن صراخ الديك، فوجموا له، واكتأبوا، وأيقنوا بوهن أركان دينهم، وإظلال ما آذنهم به يوسف، من مولد الجبار، واعتزلوا لذلك واجمين، إلى أن صرخ ذلك الديك، فاستبشروا وتصدقوا وفرحوا واستيقنوا بالفرح والراحة.

ثم مات يوسف، وكان أوصى إلى أخيه يهوذا[1]، واستخلفه على بني إسرائيل، فتوفاه الله طيباً طاهراً بمصر، ودفن في النيل، في صندوق من رخام، وذلك أنه، لَمّا مات، تشاح[2] الناس عليه؛ كل يحب أن يدفن في محلتهم، لَمّا يرجون من بركته، فاجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل، حيث تتفرق الماء بمصر، فيمر الماء عليه، ثمَّ يصل الماء إلى جميع مصر، فيكونون كلهم فيه شرعاً واحداً، ففعلوا، وكان قبره في النيل[3]، إلى أن حمله موسى معه، حين خرج من مصر ببني إسرائيل، فنقله إلى الشام، ودفنه بأرض كنعان[4].

وقال: عاش يوسف، بعد موت يعقوب، ثلاثاً وعشرين سنة، ومات، وهو ابن مائة وعشرين سنة[5].

(1) إلى ابنه افرايم بن يوسف. قصص الأنبياء للكسائي: 396.

(2) تنازعوا. تاج العروس: شحح.

(3) بقرب ضفة النيل: 155.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 396. وأساطير اليهود 2: 137، 138، 139.

(5) «أهل التاريخ» عبارة الطبري في جامع البيان 16، 274، وتاريخ الرسل والملوك 1: 219. وهي من قول وهب: «وكان بين دخول يوسف مصر إلى أن دخلها موسى بن عمران أربعمائة سنة. وعاش يوسف بعد موت أبيه ثلاثا وعشرين سنة». وفي العهد القديم، سفر التكوين 50: 26. «ثم مات يوسف، وهو ابن مائة وعشر سنين، فحنطوه ووضع في تابوت في مصر». وتأويل مختلف الحديث: 446. وهي عن وهب في الجامع لأحكام القرآن 9: 264.

موسى بن ميشا

قال وهب بن مُنبِّه: ولد ليوسف بن يعقوب ثلاثة أولاد[1]: افرايم ، وهو جد يوشع بن نون، وافرام، وميشا، فولد لميشا ولد، سماه موسى، قبل موسى بن عمران، وأهل التوراة يزعمون أنه صاحب الخَضر[2].

وأوحى الله تعالى إلى موسى بن ميشا أن قل لقومك: إنني بريء ممن سحر أو سحر له، أو تكهن أو تكهن له، أو تطير أو تطير له، وإنني صادق، فليثق بي كل صادق، فمن تقرب مني قربته، ومن عدل عني ووثق بغيري، وكلته إلى من وثق إليه، ومن وكلته إلى غيري، فليستعد للبلاء والفتنة[3]، ومن تباعد مني، كنت أشدُّ تباعداً منه.

يا موسى، قل لبني إسرائيل: لو رغبتم إلي، كما أمرتكم، لأجبتكم إلى ما وعدتكم، وكيف ترجون الإجابة، وأنتم تفرون عن ذكر الله تعالى؟، وكيف ترضون لأنفسكم ذلك؟، ورضاه عنكم أن ترغبوا إليه فيما تأملون، وتتقون فيما تأتون.

فإن قالوا: إنما تحملنا حاجة الدنيا على الأمل والرغبة في كل ساعة، فقل لهم: لا تجبروا أنفسكم، فإن حاجتكم تموت، وقلوب من يؤملها ميتة، فإن قالوا: قد خبرنا أنفسنا بذلك، فوجدنا الشهوة تؤذينا، فقل لهم: إن أردتم المعونة على ذلك فادعوني، واذكروا الموت عند كل شهوة، فإن ذلك الموت، يميت الشهوات.

فقرأ موسى بن ميشا ذلك على بني إسرائيل، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، ولبث موسى فيهم، حتى قبضه الله تعالى[4].

---

(1) ليوسف ابنان: أفرائيم بن يوسف، وميشا (منسى) بن يوسف، جامع البيان 16: 151.

(2) عن محمد بن إسحاق قال: ولد موسى بن ميشا (منسى) بن يوسف بن يعقوب، فتنبأ في بني إسرائيل قبل موسى بن عمران فيما يزعمون، ويزعم أهل التوراة أنه هو الذي طلب العلم؛ ليتعلم منه حتى أدرك العالم الذي حرق السفينة وقتل الغلام و بنى الجدار، وموسى بن ميشا معه، ثمَّ انصرف عنه حتى بلغ ما بلغ. المستدرك على الصحيحين 2: 626، وهذه القصة كان يقصها نوف البكالي في الكوفة، وقد كذبه ابن عبَّاس بأن المعني موسى بن عمران. تاريخ الرسل والملوك 1: 224. ولم أجد في سبط منسى، في دائرة المعارف الكتابية 7: 231. اسم موسى، أو يقارب معالم هذه الشخصية.

(3) المجالسة وجواهر العلم 5: 404.

(4) قصص الأنبياء للكسائي: 431. وقصص الأنبياء للثعلبي: 129.

أيُّوب

قال وهب: هو أيُّوب بن موص بن رعويل. وكان أبوه ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق، وكان أيُّوب في زمن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكان صهره، وكانت تحته بنت ليعقوب يقال لها: إليا بنت يعقوب، وهي التي ضربها بالضغث، وكانت أم أيُّوب ابنة لوط النبي، وكانت له البثنية، وهي مدينة بالشام(1).

وقال: (2) كان أيُّوب رجلًا من الروم، وكان رجلًا طويلًا، عظيم الرأس، جعد الشعر، حسن العينين والخلق، قصير العنق، غليظ الساقين والساعدين، وكان مكتوباً على جبهته: المبتلى الصابر، وهو أيُّوب بن أموص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران(3).

مبعث أيُّوب

وكان الله قد اصطفاه ونبأه، وبسط عليه الدنيا، وكانت له البثنية(4)، من أرض الشام، كلها، سهلها وجبلها، وما كان فيها، وكان له من أصناف المال كله، من الإبل والبقر والغنم والخيل والحِمير، ما لا يكون لرجلٍ، أفضل منه في العدة والكثرة، وكان له بها خمسمائة فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكلِّ عبد امرأة وولد ومال، ويحمل آلة كل فدان أتان، ولكلِّ أتان ولد، من الاثنين إلى فوق الخمسة، وكان الله أعطاه أهلاً وولداً، من رجال ونساء. وكان امرأ تقياً، رحيماً بالمساكين، يكفل الأرامل والأيتام، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله تعالى، مؤدياً لحقه.

[سئل وهب: ما كانت شريعة أيُّوب ؟. قال: التوحيد، وصلاح ذات البين، وإذا أراد أحدهم حاجةً إلى الله خرَّ ساجدًا، ثمَّ طلب حاجته. قيل: فما كان ماله؟. قال: كان له ثلاثة آلاف فدانٍ، مع كل فدانٍ عبد، ومع كل عبدٍ وليدة، ومع كل وليدةٍ أتان وأربع عشرة ألف شاةٍ، ولم

---

(1) المعارف: 42. والبدء والتاريخ 3: 72. والنبوة: 137. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 320.

(2) نسبة القول إلى وهب في الكشف والبيان 6: 287. وقصص الأنبياء للثعلبي: 138 – 147.

(3) المستدرك على الصحيحين 2: 634. وهو أيُّوب بن أموص بن زارح بن رعوئيل بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم. تاريخ اليعقوبي 1: 57. ويلاحظ التخليط في الأسماء، والثعلبي ينقل عن الطبري. تاريخ الرسل والملوك 1: 322.

(4) ناحية من دمشق. وللقصة طريقان عند الطبري، الأول: عن محمد بن سهل بن عسكر البخاري، عن إسماعيل بن عبد الكريم بن هشام، عن عبد الصمد بن معقل عن وهب. والثاني: عن سلمة، عن ابن إسحاق، عمن لا يُتَّهم، عن وهب. جامع البيان 18: 493،483، وتاريخ الرسل والملوك 1: 322. وقد أفاد منهما الثعلبي في نقله القصة.

يت له ضيف وراء بابه، ولم يأكل طعامًا إلا ومعه مسكين][1].

وقد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيبه منه، ما أصاب، من أهل الغنى، من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن أمر الله تعالى، بما هو فيه من الدنيا، وكان معه ثلاثة، قد آمنوا به، وصدقوه، وعرفوا فضله، رجل من أهل اليمن، يقال له: اليفن. ورجلان من أهل بلاده، يقال لأحدهما: مالك. وللآخر: ظافر[2]، وكانوا كهولًا.

وإن لجبريل بين يدي الله مقاماً، ليس لأحد من الملائكة مثله، في القربة والفضيلة، وإن جبريل هو الذي يتلقى الكلام، فإذا ذكر الله تعالى عبداً بخيرٍ، تلقاه جبريل، ثمَّ ميكائيل، ثمَّ من حوله، من الملائكة المقربين، والحافين من حول العرش، فإذا شاع ذلك في الملائكة المقربين، صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات، فإذا صلت عليه ملائكة السماوات، هبط عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض.

وكان إبليس لا يحجب عن شيءٍ من السماوات، وكان يقف فيهن، حيثما أراد، ومن هناك وصل إلى آدم، حين أخرجه من الجنَّة، فلم ينزل على ذلك، يصعد إلى السماء، حتى رفع الله تعالى عيسى، فحجب عن أربع سماوات، وكان يقعد في ثلاث، فلمَّا بعث الله محمداً ، حجب عن الثلاثة الباقية، فهو وجنوده محجوبون عن جميع السماوات، إلى يوم القيامة.

تسليط إبليس

فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيُّوب، وذلك حين ذكره الله، وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد، وصعد سريعاً، حتى وقف في السماء موقفاً، كان يقفه، فقال: يا إلهي، نظرت في أمر عبدك أيُّوب، فوجدته عبداً، أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثمَّ لم تختبره لا بشدَّة، ولا بلاء، وأنا لك زعيم لئن ضربته ببلاء، ليكفرن بك، ولينسينك. فقال الله تعالى: انطلق إليه، فقد سلطتك على ماله[3].

مال أيُّوب

فانقض عدو الله، حتى بلغ الأرض، ثمَّ جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم، فقال لهم: ماذا عندكم من القوة والمعرفة؟، فإني قد سلطت على مال أيُّوب، وزوال المال هو المصيبة الفادحة،

---

(1) الزهد لأحمد بن حنبل: 38. وكانت مواشيه سبعة آلافٍ من الغنم، وثلاثة آلاف جمل، وخمس مئة فدان بقرٍ، وخمس مئة أتانٍ، وخدمه كثيرون جداً». العهد القديم، سفر أيُّوب 1: 3، وفي أساطير اليهود 2: 177. وفي وصية أيُّوب: 495.

(2) بلدد (الشوحي)، وأليفز (أليفاز التيماني)، وصافر (صوفر النعماني). جامع البيان 18: 487، وتاريخ الرسل والملوك 1: 195، والعهد القديم، سفر أيُّوب 2: 11.

(3) تاريخ الرسل والملوك 322. وما بعدها. والبدء والتاريخ 3: 73. و«قال الرب للشيطان: هوذا كل ما له في يدك، وإنما إليه لا تمد يدك». العهد القديم، سفر أيُّوب 1: 12. قصص اليهود: 180. ووصية أيُّوب: 495، وما بعدها.

والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال. فقال عفريت من الشياطين: أعطيت من القوة ما لو شئت، تحولت إعصاراً من نار، فأحرقت كل شيءٍ، آتي عليه. فقال له إبليس، فأت الإبل، فاحرقها ورعاتها.

فانطلق يؤم الإبل، وذلك حين وضعت رؤوسها، وثبتت في مراعيها، فما تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض، إعصار من نار، تنفخ فيه رياح السموم، لا يدنو منها أحد إلا احترق، فلم يزل يحرقها ورعاتها، حتى أتى على آخرها، فلمَّا فرغ منها، تمثل إبليس على قعودٍ (ناقة) منها، في صفة راعيها، ثمَّ انطلق يؤم أيُّوب، حتى وجده قائماً يصلِّي، فقال له: يا أيُّوب. قال: لبيك. فقال: هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته بإبلك ورعاتها؟. فقال أيُّوب: إنها ماله، أعارنيها، وهو أولى بها، إن شاء تركها، وإن شاء أخذها، وقد تحققت، وطيبت النفس أني ومالي للفناء والزوال. فقال له إبليس: فإن ربك أرسل إليها ناراً من السماء، فاحترقت كلها.

وبقي الناس مبهوتين وقوفاً عليها، يتعجبون منها، فمنهم من يقول: ما كان أيُّوب يعبد شيئاً، وما كان إلا في غرور. ومنهم من يقول: لو كان إله أيُّوب يقدر أن يصنع شيئاً، لمنع وليه من حرق مواشيه. ومنهم من يقول: بل هو الذي فعل ما فعل، فشمت به عدوه، وفجع به صديقه.

فقال أيُّوب: الحمد لله الذي أعطاني[1]، وحيث شاء، نزع مني، عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود إلى القبر، وعرياناً أحشر إلى ربي. ليس ينبغي لك أن تفرح، حين أعارك الله، وتجزع، حين قبض عاريته، فهو أولى بك، وبما أعطاك، ولو علم الله فيك، أيها العبد، خيراً، لنقل روحك مع تلك الأرواح، وصيرك شهيداً مع الشهداء، ولكنه علم فيك شراً، فأخرك وخلصك من البلاء، كما يخلص الزوان من القمح الخالص.

فرجع إبليس إلى أصحابه خائباً ذليلاً، وقال لهم: ماذا عندكم من القوة؟، إني لم أكلم قلبه. فقال عفريت من عظمائهم: عندي من القوة ما لو شئت، صحت صوتاً، لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه. فقال له إبليس: فأت الغنم، ورعاتها. فانطلق يؤم الغنم ورعاتها، حتى إذا توسطها، صاح صوتاً، ماتت منه الغنم جميعاً، وماتت رعاتها، ثمَّ إن إبليس خرج متمثلاً بقهرمان الرعاة، حتى جاء إلى أيُّوب، وهو قائم يصلِّي، فقال له مثل قوله الأول، ورد عليه أيُّوب مثل ما قال في النوبة الأولى.

ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه، فقال: ماذا عندكم من القوة؟، فإني لم أكلم قلب أيُّوب. فقال عفريت من عظمائهم: عندي من القوة ما إذا شئت، تحولت ريحاً عاصفاً تنسف كل شيءٍ، تأتي عليه حتى لا يبقى منه شيء. فقال له إبليس: فأت الفدادين والحرث. فانطلق يؤمهم، حتى قرب من الفدادين، واستوى في الحرث، وأولادها رتع، فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف،

(1) «قال: عريانًا خرجت من بطن أمي، وعريانًا أعود إلى هناك. الرب أعطى والرب أخذ». العهد. القديم، سفر أيُّوب 1: 21.

فنسفت كل شيءٍ من ذلك، حتى كأنه لم يكن، ثمَّ إن إبليس خرج متمثلاً بقهرمان الحرث، حتى جاء إلى أيُّوب، وهو قائم يصلِّي، فقال له مثل قوله الأول، فأجابه أيُّوب بمثل جوابه الأول فجعل إبليس يصيب ماله، الأول فالأول، حتى أتى على آخره.

أولاد أيُّوب

قال: وأيُّوب، كلما انتهى إليه بهلاك مال من ماله، حمد لله، وأحسن الثناء عليه، ورضي بالقضاء، ووطن نفسه بالصبر على البلاء، حتى ما بقي له مال، فلمَّا رأى إبليس أنه قد أفنى ماله، ولم ينل منه شيئاً، ولا نجح في شيء من أفعاله، شق عليه ذلك، وصعد سريعاً، ووقف الموقف الذي كان يقفه، وقال: إلهي، إن أيُّوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده، فأنت معطيه المال، فهل أنت مسلطي على ولده، فإنها الفتنة المضلة، والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال، ولا يقوى عليها صبرهم؟. فقال الله تعالى له: انطلق فقد سلطتك على ولده[1].

فانقضَّ عدو الله حتى جاء بني نبي الله أيُّوب، وهم في قصرهم، فلم يزل يزلزله، حتى تداعى القصر من قواعده، ثمَّ جعل يناطح بجُدُره بعضها بعضاً، فرماهم بالخشب والجندل[2]، حتى مثل بهم كل مثلة، ثمَّ رفع بهم القصر وقلبه، فصاروا منكسين، ثمَّ إن إبليس انطلق إلى أيُّوب، متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة، وهو جريح، مشدوخ الرأس، والوجه يسيل دمه من دماغه، فأخبره بذلك، وقال له: يا أيُّوب، لو رأيت بنيك، كيف عذبوا؟، وكيف قلب بهم القصر؟، وكيف نكسوا على رؤوسهم، تسيل دماؤهم وأدمغتهم، لتقطع قلبك.

فلم يزل يقول هذا، ويردده، حتى رق أيُّوب لذلك، وبكى وقبض قبضة من التراب، فوضعها على رأسه، فاغتنم إبليس الفرصة منه لذلك، فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيُّوب، مسروراً.

جسد أيُّوب

ثمَّ لم يلبث أيُّوب أن أبصر، فاستغفر، وشكر، فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته، فبدروا إبليس، وسبقوه إلى الله، والله أعلم بما كان، فوقف إبليس خاسئاً ذليلاً، فقال: إلهي، إنما هون على أيُّوب خطر المال والولد، أنه يرى أنك، مهما متعته بنفسه، فأنت تعيد له المال والولد، فهل أنت مسلطي على نفسه وبدنه، فإني لك زعيم لئن ابتليته في جسده، لينسينك، وليكفرن بك، وليجحدن نعمتك؟.

فقال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على جميع جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه

(1) وصية أيُّوب: 497.

(2) الحجر. تاج العروس: جندل.

وقلبه، ولا على عقله[1]. وكان، والله أعلم به، أنه لم يسلطه عليه إلا رحمةً؛ ليعظم له الثواب، ويجعله عبرةً للصابرين، وذكرى للعابدين، في كل بلاء نزل بهم؛ ليتأسوا به في الصبر، ورجاء الثواب.

فانقض عدو الله سريعاً، فوجد أيُّوب ساجداً، فقبل أن يرفع رأسه، أتاه من قبل الأرض، في موضع وجهه، ونفخ في منخريه نفخةً، اشتعل منها جسده، فذهل، وخرج به، من فرقه إلى قدمه، ثآليل مثل إليات الغنم[2]، ووقعت فيه حكة، لا يملكها، ولا يتماسك عن حكها، فحك بأظفاره، حتى سقطت كلها، ثمَّ حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثمَّ بالفخار والحجارة الخشنة، فلم يزل يحكها، حتى نزل لحمه، وتقطع، وتغير، وأنتن، فأخرجه أهل القرية، فجعلوه على كناسةٍ، وجعلوا له عريشاً، فرفضه خلق الله كلهم، غير امرأته، رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، وكانت تختلف إليه بما يصلحه وتكرمه.

أصحاب أيُّوب

فلمَّا رأى أصحابه الثلاثة[3] ما ابتلاه الله به، اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء، انطلقوا إليه وهو في بلائه، فبكتوه، ولاموه، وقالوا له: تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به.

قال: وكان حضر معهم فتى حديث السن، وكان قد آمن به وصدقه، فقال: إنكم تكلَّمتم، أيها الكهول، وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيُّوب عليكم، من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون، أيها الكهول، حق من انتقصتم؟، وحرمة من انتهكتم؟، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟، ألم تعلموا أن أيُّوب نبي الله وحبيبه، وخيرته وصفوته من أهل الأرض، في يومكم هذا؟، ثمَّ إنكم لم تعلموا، ولا أطلعكم الله تعالى على أنه سخط شيئاً من أمره، منذ ما آتاه إلى يومكم هذا؟، ولا علمتم أنه نزع منه شيئاً من الكرامة التي أكرمه الله بها؟، ولا أن أيُّوب غير الحق، في طول ما صحبتموه، إلى يومكم هذا؟.

فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم، ووضعه في أنفسكم، لقد علمتم أن الله تعالى يبتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ثمَّ إن بلاءهم ليس دليلاً على سخطه عليهم، ولا هوانهم عليه، ولكنه كرامة وخير لهم، ولو كان أيُّوب ليس هو من الله بهذه المنزلة، إلا أنكم

(1) وصية أيُّوب: 498.

(2) جامع البيان 18: 487. وعن وهب: كان يخرج منه مثل ثدي المرأة، ثمَّ يتفقأ. تفسير عبد الرزاق 3: 122. علل الشرائع 1: 79، وفي العهد القديم، سفر أيُّوب 2: 7 أن الشيطان ضربه بقرحٍ رديء من باطن قدمه إلى هامته.

(3) وصية أيُّوب: 501.

آخيتموه على وجه الصحبة، لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء، ولا يعيره بالمصيبة، ولا يعيبه بما لا يعلم، وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه، ويبكي معه، ويستغفر الله له، ويحزن لحزنه، ويدله على رشد أمره، وليس بحكيمٍ، ولا رشيدٍ من جهل هذا.

فالله الله، أيها الكهول، فقد كان لكم في عظم الله وجلاله، وذكر الموت، ما يقطع ألسنتكم، ويكسر قلوبكم، ألم تعلموا أن لله عباداً، أسكتتهم خشيته من غير عي، ولا بكم، وأنهم لهم الفصحاء النبلاء، البلغاء الألباء، العالمون بالله وآياته، ولكنهم، إذا ذكروا عظمة الله، انقطعت ألسنتهم، واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم، وطاشت عقولهم؛ إعظاماً لله تعالى، وإعزازاً وإجلالاً، فإذا استفاقوا، استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة، يعدون أنفسهم مع الخاطئين الظالمين، وإنهم براء، ويعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين، وإنهم لأكياس أقوياء، وإنهم لا يستكثرون لله الكثير، ولا يرضون له بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال، فهم مروعون خاشعون مستكينون.

فقال أيُّوب: إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة، في قلب المؤمن الكبير والصغير، فمتى نبتت في القلب، أظهرها الله تعالى على اللسان، وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب، ولا طول التجربة، فإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا، لم تسقط منزلته عند الحكماء، وهم يرون من الله تعالى عليه، نور الكرامة.

ثم إن أيُّوب أقبل على الثلاثة، وقال: أتيتموني غضاباً، رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم قبل أن تضربوا، كيف بكم، لو قلت لكم: تصدقوا عني بأموالكم، لعل الله يخلصني؟، وقربوا عني قرباناً، لعل الله يتقبلها، ويرضى عني؟، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم، وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم، فبهنائكم بغيتم وتعززتم، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم، ثمَّ صدقتم، لوجدتم لكم عيوباً، سترها الله عليكم بالعافية التي ألبسكم إياها، وقد كنت، فيما خلا، الرجال توقرني، وأنا مسموع كلامي، معروف حقي، منتصف من خصمي، فأصبحت اليوم، وليس لي رأي، ولا كلام معكم، فأنتم اليوم أشدُّ علي من مصيبتي.

ثم إنه أعرض عنهم، وأقبل على ربه مستغيثاً متضرعاً إليه، فقال: رب، لأي شيء خلقتني، ليتني إذ كرهتني، ما خلقتني، يا ليتني كنت حيضةً، ألقتني أمي، أو ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت، والعمل الذي عملت، فصرفت وجهك الكريم عني، لو كنت أمتني، وألحقتني بآبائي، فالموت كان أجمل لي.

يا إلهي، ألم أكن للغريب داراً، وللمسكين قراراً، ولليتيم ولياً، وللأرملة قيماً؟، إلهي، أنا عبد ذليل، إن أحسنت، فالمنة لك، وإن أسأت، فبيدك عقوبتي، جعلتني للبلاء غرضاً، وللفتنة نصباً، وقد وقع علي بلاء، لو سلط على جبلٍ، لضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي؟.

إلهي، تقطعت أصابعي، فإني لا أرفع الأكلة من الطعام إلا بيدي جميعاً، فما يبلغان فمي إلا

على الجهد مني.

إلهي، تساقطت لهواتي، ولحم رأس، فما بين أذني من سداد، بل إحداهما ترى من الأخرى، وإن دماغي ليسيل من فمي.

إلهي، تساقط شعر عيني، كإنما أحرق بالنار وجهي، وحدقتاي متدليتان على خدي، وورم لساني، حتى ملأ فمي، فما أدخل فيه طعاماً إلا غصني، وورمت شفتاي، حتى غطت العليا أنفي، والسفلى ذقني، وتقطعت أمعائي في بطني، وإني لأدخل الطعام، فيخرج، كما دخل، ما أحسه، ولا ينفعني، وذهبت قوة رجلي، فكأنهما قد يبستا، ولا أطيق حملهما، وذهب المال، فصرت أسأل بكفي، ويطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة، فيمن بها علي، ويعيرني.

إلهي هلك أولادي، ولو بقي واحد منهم، أعانني على بلائي ونفعني، قد ملني أهلي، وعقني أرحامي، وتنكرت لي معارفي، ورغب عني صديقي، وقطعني أصحابي، وجحدت حقوقي، ونسيت صنائعي، أصرخ، فلا يصرخونني، وأعتذر، فلا يعذرونني، دعوت غلامي، فلم يجبني، وتضرعت لأمتي، فلم ترحمني، وإن قضاءك هو الذي أذلني وأدناني، وأهانني وأقامني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني، وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري، فأطلق لساني؛ لأتكلّم بملء فمي، ولو كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه، لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي، ولكنه ألقاني، وتخلى عني، فهو يراني ولا أراه، ويسمعني ولا أسمعه، ولا نظر إلي فرحمني، ولا دنا مني، ولا أدناني، فأتكلّم ببراءتي، وأخاصم عن نفسي.

الفرج

فلمّا قال ذلك أيُّوب، وأصحابه عنده، أظلّته غمامة، حتى ظنَّ أصحابه أنه عذاب، ثمَّ نودي: يا أيُّوب، إن الله تعالى يقول لك: ها أنا قد دنوت منك، فلم أزل منك قريباً، فقم، فأدل بعذرك، وتكلَّم ببراءتك عن نفسك، واشدد عليك إزارك، وقم مقام جبار، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني، إلا جبار مثلي، ولا ينبغي أن يخاصمني، إلا من يجعل الزمام في فم الأسد، والسخال[1] في فم العنقاء، واللجام في فم التنين، ويكيل مكيالاً من النور، ويزن مثقالاً من الريح، ويصر صرةً من الشمس، ويرد أمس، لقد منتك نفسك أمراً، ما يبلغ بمثل قوتك، ولو كنت، إذ منتك نفسك ذلك، ودعتك إليه، تذكرت أي مرام، رامت بك؟، أم أردت أن تكاثرني بضعفك؟، أم أردت أن تخاصمني بغيك؟، أم أردت أن تحاجّني بخطئك؟.

أين كنت مني يوم خلقت الأرض، فوضعتها على أساسها، هل علمت بأي مقدار قدرتها؟، أم كنت معي تمر بأطرافها؟، أم تعلم ما بعد زواياها؟، أم على أي شيء وضعت أكنافها؟، أبطاعتك حمل الماء الأرض؟، أم بحكمتك كانت الأرض على الماء غطاءً؟. أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفاً في الهواء، لا معاليق تمسكها، ولا تحملها دعائم من تحتها، هل يبلغ من

(1) أولاد الغنم من الضأن والمعز. لسان العرب: بهم.

حكمتك أن تجري وتسير نجومها؟، أم هل بأمرك يختلف ليلها ونهارها؟. أين كنت مني يوم فجرت البحار، وأنبعت الأنهار؟، أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها؟، أم قدرتك فتحت الأرحام، حين بلغت مدتها؟.

أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب، ونصبت شوامخ الجبال، هل لك أن تطيق حملها؟، أم كنت تدري كم مثقال ما فيها؟، أين الماء الذي أنزلته من السماء؟، هل تدري كم بلدة أهلكتها؟، وكم من قطرة أحصيتها، وقسمت الأرزاق؟، أم قدرتك تثير السحاب، وتنثر الماء؟، هل تدري ما أصوات الرعد؟، أم من أي شيء لهب البرق؟، وهل رأيت عمق البحر؟، أم هل تدري ما بعد الهواء؟، أم هل تدري أين خزانة النهار بالليل؟، وأين طريق النور؟، وبأي لغة تتكلّم الأشجار؟، أين خزانة الريح؟،

وأين جبال البرد؟، أم هل تدري من جعل العقول في أجواف الرجال؟، ومن شق الأسماع والأبصار، وذلت الملائكة لملكه؟، ومن قهر الجبارين بجبروته، وقسم أرزاق الدواب والعباد بحكمته؟، ومن قسم للأسد أرزاقها، وعرف الطير معاشها، وعطفها على أفراخها؟، ومن أعتق الوحوش من الخدمة، وجعل مساكنها البرية، ولا تأنس بالأصوات، ولا تهاب السلاطين؟، أبحكمتك، عطفت عليها أمهاتها، حتى أخرجت لها طعاماً من أجوافها، وآثرتها بالعيش على نفوسها؟، أم بحكمتك يبصر العقاب الصيد البعيد واضحاً في أماكن الفلا؟.

أين أنت يوم خلقت البهموت، مكانه في منقطع التراب، واللوثيان، يحملان الجبال والقرى والعمران، أنيابها كأنها شجر الصنوبر الطوال، ورؤوسها كأنها الجبال، وعروق أفخاذها كأنها عمد النحاس؟، أأنت ملأت جلودها لحماً، أم أنت ملأت رؤوسها دماغاً؟، هل لك في خلقها من شرك؟، أم لك بالقوة التي غلبتها يدان؟، أم هل يبلغ من قوتك أن تضع يديك على رؤوسها؟، أم تعقد على طريق فتحبسها؟، أم تصدهما عن قوتها؟.

أين أنت يوم خلقت التنين، ورزقته في البحر، ومسكنه في السماء، وعيناه تتوقدان ناراً، ومنخاراه يثوران دخاناً، أذناه مثل قوس السحاب، يثور منها لهب، كأنه إعصار العجاج، جوفه يحترق، ونفسه يلتهب، وزبده جمر كأمثال الصخور، وكأن ضرب أسنانه أصوات الصواعق، وكأن نظر عينيه لمع البرق، تمر به الجيوش، وهو متكئ، لا يفزعه شيء، ليس فيه مفصل، زبر الحديد عنده مثل التبن، والنحاس عنده مثل الخيوط، لا يفزع من النشاب، ولا يخشى وقع الصخور على جسده، ويطير في الهواء، كأنه عصفور، فيهلك كل شيء، يمر به، هل أنت آخذه بأحبولتك، وواضح اللجام في شدقه؟، هل تحصي عمره؟، أم هل تعرف أجله؟، أم تعرف رزقه؟، أم هل تدري ماذا خرب من الأرض، وماذا يخرب فيما بقي من عمره؟، أم هل تطيق غضبه، حين يغضب؟، أم تأمره، فيطيعك؟.

فقال أيُّوب: قصرت عن هذا الأمر الذي ورد علي، ليت الأرض انشقت لي، فذهبت،

ولم أتكلَّم بشيءٍ، يسخط ربي، حين اجتمع علي البلاء، إلهي، قد جعلتني لك مثل العدو، وقد كنت تعرفني، وتعرف نصحي، وقد علمت أن كل الذي ذكرت صنع يديك، وتدبير حكمتك، وأعظم من هذا لو شئت، علمت أن لا يعجزك شيء، ولا تخفي عليك خافية، ولا تغيب عنك غائبة، من هذا الذي يظن أن يسر عنك سراً.

وأنت تعلم ما يخطر على القلوب، وقد علمت منك، في بلائي هذا، ما لم أكن أعلم، وخفت أن يكون أمراً، أكثر مما كنت أخاف، إنما كنت أسمع بصوتك، فأما الآن فهو نظر العين، وإنما تكلَّمت حين تكلَّمت، لتعذرني، وسكت حين سكت، لترحمني، كلمة زلت عن لساني، فلن أعود، وقد وضعت يدي على فمي، وعضضت على لساني، وألصقت بالتراب خدي، ودسست فيه وجهي؛ لصغاري، وسكت حين أسكتتني خطيئتي، فاغفر لي ما قلت، فلن أعود لشيء، تكرهه مني.

فقال الله تعالى: يا أيُّوب، نفذ فيك حكمي، وسبقت رحمتي غضبي، إذ أخطأت، فقد غفرت لك ما قلت، ورحمتك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، لتكون لمن خلفك آيةً، وتكون عبرةً لأهل البلاء، وعزاءً للصابرين، { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } سورة ص: 42. فيه شفاء، وقرب عن أصحابك قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك. فركض برجله، فانفجرت له عين، فدخل فيها، فاغتسل، فأذهب الله عنه ما كان فيه من البلاء، ثمَّ إنه خرج وجلس.

فأقبلت امرأته، فقامت تلتمسه في مضجعه، فلم تجده، فقامت متكدرة كالوالهة، فمرت به، فقالت: يا عبد الله، هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا؟. فقال لها: وهل تعرفينه، إذا رأيته؟. فقالت: نعم، وكيف لا أعرفه؟، فتبسم، وقال: ها أنا هو. فعرفته لمَّا ضحك، فاعتنقته.

ايوب مع امرأته

قال: وكان يخرج لحاجته، فإذا قضى حاجته، أمسكت امرأته بيده، حتى يبلغ، فلمَّا كان ذات يوم أبطأ عليها، وذلك أن الله تعالى أوحى إلى أيُّوب في مكانه: { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ }، فاستبطأته، فذهبت لتنظر ما شأنه، فأقبل عليها، وقد أذهب الله تعالى عنه ما أصابه من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلمَّا رأته قالت له: هل رأيت نبي الله المبتلي؟، فقال: إني أنا هو، وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله تعالى سحابتين، فلمَّا كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب، حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق، حتى فاض[1].

ويروى أن الله تعالى أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يحثو منه في ثوبه، فناداه: يا أيُّوب، ألم أغنك عما ترى؟. قال: بلى، يا رب، ولكن لا غنى لي عن فضلك ورزقك ورحمتك، ومن يشبع

(1) المستدرك على الصحيحين 2: 635. والأندر الكدس من القمح خاصةً. لسان العرب: ندر.

من نعمتك؟[1].

وقال: لم يكن بأيُّوب أكلة، وإنما كان يخرج منه مثل ثدي النساء، ثمَّ يتفقأ[2]. وقد لبث في ذلك البلاء ثلاث سنين، لم يزد يوماً واحداً، فلمَّا غلب أيُّوب إبليس، ولم يستطع له على شيء، اعترض امرأته، على هيئةٍ، ليست كهيئة بني آدم، في العظم والجسم والجمال، على مركبٍ، ليس من مراكب الناس، له عظم وبهاء وجمال، فقال لها: أنت صاحبة أيُّوب المبتلى؟. قالت: نعم. قال: فهل تعرفينني؟. قالت: لا. قال: أنا إله الأرض، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت، وذلك أنه عبد إله السماء، وتركني، وأغضبني، ولو سجد لي سجدةً واحدةً، رددت عليكما ما كان لكما، من مال وولد، فإنهم عندي. ثمَّ أراها إياهم في بطن الوادي الذي لقيها فيه، وقال لها: لو أن صاحبك أكل طعاماً، لم يسم عليه، لعوفي مما هو فيه من البلاء، والله أعلم، وأراد عدو الله أن يأتيه من قبلها.

ورأيت في بعض الكتب[3] أن إبليس قال لرحمة: وإن شئت، اسجدي لي سجدةً واحدةً، حتى أرد عليك الأولاد والمال، وأعافي زوجك. فرجعت إلى أيُّوب، فأخبرته بما قال لها، وما أراد، فقال: لقد أراد عدو الله أن يفتنك عن دينك، ثمَّ إن أيُّوب أقسم، إن عافاه الله، ليضربنها مائة جلدة، فقال عند ذلك: { مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ } سورة ص: 41. من طمع إبليس في سجود حرمتي له، ودعائه إياها، وإياي إلى الكفر.

ثمَّ إن الله تعالى رحم رحمة، امرأة أيُّوب، بصبرها معه على البلاء، وخفف عنها، وأراد أن يبر يمين أيُّوب، فأمره أن يأخذ جماعةً من الشجر، مبلغ مائة قضيب، خفافاً لطافاً، فيضربها ضربةً واحدة، كما قال تعالى: { وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ } سورة ص: 44. وقد كانت امرأة أيُّوب تتكسب، وتعمل للناس، وتجيئه بقوته، فلمَّا طال عليها البلاء، وسئمها الناس، فلم يستعملها أحد، التمست يوماً من الأيام، ما تطعمه، فما وجدت شيئاً، فجزت قرناً من رأسها، فباعته برغيف، وأتته به، فقال لها: أين قرنك؟[4]. فأخبرته، فقال عند ذلك: { مَسَّنِيَ الضُّرُّ }، { فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ } سورة الأنبياء: 83. قال وهب: كان له سبع بنات، وثلاث بنين، فأحيا الله لهما أولادهما وأموالهما، وردَّ عليه كل شيءٍ لهما بعينه[5]، قال: قيل لأيُّوب: ما كان أشق عليك في طول بلائك؟ قال: شماتة الأعداء[6].

(1) المستدرك على الصحيحين 2: 636. وجامع البيان 18: 505. وفي العهد القديم، سفر أيُّوب 42: 11 أعطاه كل واحد من أخوته وأخواته ومعارفه قرطاً من ذهب.

(2) دمامل متقرحة. قصص لليهود: 182.

(3) جامع البيان 18: 498. والقصة مع الشيطان في وصية أيُّوب: 499.

(4) جامع البيان 18: 469.

(5) النبوة: 138.

(6) الكشف والبيان 2: 409. وأساطير اليهود 2: 187.

وفاة أيُّوب

وذُكر [عن وهب]: أن عمر أيُّوب كان ثلاثاً وتسعين سنة، وأنه أوصى عند موته، إلى ابنه جومل، وأن الله بعث بعده، بشر بن أيُّوب، نبياً، وسماه: ذا الكفل. وأمره بالدعاء إلى توحيده، وأنه كان مقيماً بالشام، طول عمره حتى مات، وكان مبلغ عمره خمساً، وتسعين سنة، وأن بشرا أوصى ابنه عبدان، وأن الله تعالى بعث بعده، شعيباً، والله أعلم[1].

(1) المستدرك على الصحيحين 2: 636. وبصيغة «ذُكر» في تاريخ الرسل والملوك 1: 195. وقصص الأنبياء للثعلبي: 147. والكشف والبيان 6: 287 – 299.

ذو الكفل

وقال:[1] ذو الكفل بشر بن أيُّوب الصابر، بعثه الله بعد أبيه رسولًا إلى أرض الروم، فآمنوا به وصدقوه واتبعوه، ثمَّ إن الله تعالى أمرهم بالجهاد، فكفوا عن ذلك وضعفوا، وقالوا: يا بشر، إنا نحب الحياة، ونكره المات، ومع ذلك نكره أن نعصي الله تعالى ورسوله، فلو سألت الله أن يطيل أعمارنا، ولا يميتنا، إلا إذا شئنا، ونعبده، ونجاهد أعداءه. فقال لهم بشر: لقد سألتموني عظيماً، وكلفتموني شططاً.

ثم إنه قام وصلى ودعا، وقال: إلهي، أمرتني بتبليغ الرسالة، فبلغتها، وأمرتني أن أجاهد أعداءك، وأنت تعلم أني لا أملك إلا نفسي، وأن قومي قد سألوني في ذلك ما أنت أعلم به مني، فلا تؤاخذني بجريرة غيري، فأنا أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك. قال: فأوحى الله تعالى إليه: يا بشر، إني سمعت مقالة قومك، وإني قد أعطيتهم ما سألوني، طولت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاؤوا، فكن كفيلاً لهم مني بذلك، فبلغهم بشر رسالة الله، وأخبرهم بما أوحى الله إليه، وتكفل لهم بذلك، كما أمر الله تعالى، فسمي ذا الكفل.

ثم إنهم توالدوا وكثروا ونموا، حتى ضاقت عليهم البلاد، وتنغصت معيشتهم، وتأذوا بكثرتهم، فسألوا بشراً أن يدعو الله، فيردهم إلى آجالهم، فأوحى الله تعالى إلى بشر: أما علم قومك أن اختياري لهم خير اختيارهم لأنفسهم؟. ثمَّ إنهم ردوا إلى أعمارهم، فماتوا بآجالهم. قال: فلذلك كثرت الروم، حتى يقال: إن الدنيا دارهم خمسة أسداسها للروم، وسموا روماً؛ لأنهم نسبوا إلى جدهم روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم. قال وهب: وكان بشر بن أيُّوب المسمى ذا الكفل مقيماً بالشام حتى مات، وكان عمره خمساً وتسعين سنة. والله أعلم.

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 232. عن وهب بن مُنبِّه. في المستدرك على الصحيحين 2: 636. وذو الكفل من الشخصيات المختلف فيها في التراث اليهودي أيضاً، فقد يكون عوبديا، أو حزقيال. اليهودية والإسلام: 299.

شعيب

قال وهب: إن شعيباً وأيوب وبلعم بن باعورا كانوا من ولد رهطٍ، آمنوا بإبراهيم، يوم أحرق، فنجا، وهاجروا معه إلى الشام، فزوجهم بنات لوط، فكل نبي كان قبل إسرائيل، وبعد إبراهيم من نسل أولئك الرهط، فبعث الله شعيباً إلى أهل مدين، ولم يكونوا فصيلة شعيب، ولا قبيلته التي كان منها، ولكنهم كانوا أمة من الأمم بعث إليهم شعيب(1).

وكان غلاماً غلام وضيء، في نهاية الحسن والجمال، فلمّا كبر، أعطي فهماً وعلماً، وكان قليل الكلام، دائم الفكر، ناحل الجسد، قليل اللحم، وكان أبوه إذا تأمل ضعفه ونحافته، يقول: إلهي وسيدي، إنك قد كثرت الشعوب والقبائل في أرض مدين، فبارك لي في شعبي هذا، يعني به ولده، فرأى في منامه أن الله قد بارك لك في شعبه هذا، وقد جعله نبياً ورسولًا إلى أهل مدين، فمن ذلك سمي شعيباً، وسقط عنه الاسم الآخر (يثرون)(2).

قال: إن الله بعث شعيباً إلى أهل مدين، وهم أصحاب الأيكة، فكانت الأيكة من الشجر الملتف، وكانوا أهل كفرٍ بالله وبخسٍ للناس في المكاييل والموازين، وإفسادٍ لأموالهم، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق وبسط لهم في العيش استدراجاً منه لهم مع كفرهم به(3).

وكان عليهم ملك جبار، لا يطيقه أحد من ملوك عصره، وكانوا ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، مع كفرهم بالله، وتكذيبهم لنبيه، وعتوهم، وكانوا يسوفون، إذا اكتالوا لأنفسهم، أو وزنوا لها، فكانوا في سعة من العيش، فأمرهم الملك باحتكار الطعام، ونقص مكاييلهم وموازينهم، ووعظهم شعيب، فأرسل إليه الملك: ما تقول فيما صنعت، أراضٍ، أم أنت ساخط؟. فقال شعيب: أوحى الله تعالى إلي أن الملك، إذا صنع الملك إذا صنع مثل ما صنعت، يقال له: فاجر. فكذبه الملك، وأخرجه، وقومه من مدينته.

فزادهم شعيب في الوعظ، { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ } سورة هود: 87. فآذوه بالنفي من بلادهم، فسلط الله عليهم الحر والغيم، حتى أنضجهم، فلبثوا فيه تسعة أيام، وصار ماؤهم حميا، لا يستطيعون شربه، فانطلقوا

---

(1) المعارف: 41. والنبوة: 145.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 420. وفي التلمود: 177. وأساطير اليهود 2: 226 أنه تحول من عبادة الأصنام إلى تقوى الرب ومخافته. ويثرون اسم مدياني معناه فضل، لكاهن مديان، وحمي موسى، ويدعى أيضا رعوئيل، أي صديق أو خليل الله. ويظهر أن هذا الاسم كان اسمه الشخصي، ويثرون لقب شرفٍ، أطلق عليه. وبينما كانت بناته السبع يرعين أغنامه، أسدى إليهن موسى الهارب من مصر خدمةً، أدت إلى تعرفه بأسرة يثرون، وزواجه بصفورة إحدى بناته، ورعى موسى أغنام حميه مدة 40 سنة، ثمَّ دعاه الله، فرجع إلى مصر. قاموس الكتاب المقدس: يثرون.

(3) المستدرك على الصحيحين 2: 620 وتاريخ الرسل والملوك 1: 326.

إلى غيظة لهم، وهو قوله تعالى { وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ } سورة ص: 13. فرفع الله لهم سحابة سوداء، فاجتمعوا في ظلها، فأرسل الله عليهم ناراً منهان فأحرقتهم، فلم ينج منهم أحد، وذلك قوله تعالى { فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ } سورة الشعراء: 189.

فلمّا أصاب قومه ما أصابهم، لحق شعيب، والذين آمنو معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا[1].

(1) النبوة: 144 - 145.

لقمان الحكيم

قال وهب: كان لقمان ابن أخت أيُّوب[1]، وكان لقمان عبداً حبشياً لرجل من بني إسرائيل في زمن داود، فاشتراه، فأعتقه، كان حبشياً أسود، غليظ الشفتين والمنخرين، غليظ العضدين والساقين، وكان رجلاً صالحاً أبيض القلب، وليس يصطفي الله عباده على الحسن والجمال، وإنما يصطفيهم على ما يعلم من غائب أمرهم.

وإن لقمان خُيِّر بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة. قال: فبينما كان يعظ الناس يوماً وهم مجتمعون عليه، إذ مرَّ به عظيم من عظماء بني إسرائيل. فقال: ما هذه الجماعة؟ فقيل له: جماعة اجتمعت على لقمان الحكيم. فأقبل إليه. فقال له: ألست عبد بني فلان؟ فقال: نعم. فقال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وتركي ما لا يعنيني. فانصرف عنه متعجباً وتركه[2].

وقال: قرأت من حكمته نحوا من عشرة آلاف باب، لم يسمع الناس كلاماً أحسن منه، ثمَّ نظرت فرأيت الناس قد أدخلوه في كلامهم، واستعانوا به في خطبهم ورسائلهم، ووصلوا به بلاغاتهم[3]. ولم يوح إليه، وكان رجلًا صالحاً[4].

فأول ما رُئي من حكمته أنه، بينما هو مع مولاه، إذ دخل المخرج[5]، فأطال فيه الجلوس، فناده لقمان: إن طول الجلوس على الخلاء، ينتج منه الكبد، ويورث الباسور، وتصعد الحرارة في الرأس، فاجلس هوينا، وقم. قال: فخرج، وكتب حكمته على باب الحش[6].

وقال لقمان لابنه: يا بني، إذا سافرت فلا تنم على دابتك فإن كثرة النوم سريع في دبرها، فإذا نزلت أرضاً مكلئة، فأعطها حظها من الكلأ، وأبدأ بعلفها وسقيها قبل نفسك، وإذا بعدت عليك المنازل، فعليك بالدلج[7]، فإن الأرض تطوى بالليل.

وإذا أردت النزول فلا تنزل على قارعة الطريق فإنها مأوى الحيات والسباع ولكن عليك

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 307. والكشف والبيان 7: 312.

(2) بحر العلوم 3: 23، 24.

(3) المعارف: 55.

(4) تفسير ابن أبي حاتم 9: 3097.

(5) المرحاض.

(6) في عيون الأخبار 3: 297. عن وهب، «قال: قال: لقمان لابنه: إن طول الجلوس على الخلاء يرفع الحرارة إلى الرأس، ويورث الباسور ويتوجع له الكبد، فاجلس هوينى وقم هوينى. فكتبت حكمته على باب الحش». والحش المرحاض.

(7) الليل. لسان العرب: دلج.

من بقاع الأرض بأحسنها لونا وألينها تربة وأكثرها كلأً فانزلها، وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس { وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ } سورة المؤمنون: 29.

وإذا أردت قضاء حاجة، فأبعد المذهب في الأرض وعليك بالسترة، وإذا ارتحلت من منزلٍ، فصل ركعتين، وودع الأرض التي ارتحلت عنها، وسلم عليها، وعلى أهلها، فإن لكلِّ بقعة من الأرض أهلاً من الملائكة. وإذا مررت ببقعة من الأرض، أو واد أو جبل، فأكثر من ذكر الله فإن الجبال والبقاع ينادي بعضها بعضاً: هل مرَّ بكن اليوم ذاكر لله؟. وإن استطعت ألا تطعم طعاماً حتى تتصدق منه، فافعل.

وعليك بذكر الله، ما دمت راكباً، وبالتسبيح ما دمت صائماً، وبالدعاء ما دمت خالياً، وإياك والسير في أول الليل وعليك بالتعريس والدلجة، من نصف الليل إلى آخره، وإياك ورفع الصوت في سيرك إلا بذكر الله، وسافر بسيفك وقوسك وجميع سلاحك، وخفك وعمامتك وإبرتك وخيوطك، وتزود معك الأدوية تنتفع بها، وتنفع من صحبك من المرضى والزمنى.

وكن لأصحابك موافقاص في كل شيء، يقربك إلى الله، ويباعدك من معصيته، وأكثر التبسم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوك فأعنهم، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم، واجهد رأيك، وإذا رأيتهم يمشون، فامش معهم، أو يعملون فاعمل معهم، وإن تصدقوا أو أعطوا، فأعط.

واسمع لمن هو أكبر منك، وإن تحيرتم في طريق، فانزلوا، وإن شككتم في القصد، فتثبتوا وتآمروا، وإن رأيتم خيالاً واحداً، فلا تسألوه عن طريقكم، فإن الشخص الواحد في الفلاة هو الذي حيركم، واحذروا الشخصين أيضاً، إلا أن تروا ما لا يرى، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وإن العاقل إذا أبصر شيئاً بعينيه، عرف الحق بقلبه[1].

(1) عيون الأخبار 1: 220.

موسى بن عمران

قال: هو موسى بن عمران بن قاهث[1] بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

ولم يكن بين آل يعقوب وأيُّوب نبي، حتى كان موسى، وكان موسىآدم جعداً طوالاً، كأنه من رجال شنوءة. وكان هارون أطول من موسى وأكثر لحماً، وأبيض جسماً، وأغلظ، وأسن من موسى بثلاث سنين، وكانت في جبهة هارون شامة، وفي أرنبة أنف موسى شامة، وعلى طرف لسانه شامة، ولا يعرف أحد، قبله ولا بعده، كانت على طرف لسانه شامة سوداء[2].

قال عبد الله بن عباس، ووهب، وكعب الأحبار[3]، بعضهم يزيد على بعض، في بعض أحاديثهم وأقاويلهم على ما ذكر من ذلك، والله أعلم وأحكم: إن الله، لمَّا أهلك الريان بن الوليد ملك مصر، توارثها الفراعنة[4]، فأولهم ابن له، يقال له: سنحات بن الوليد، وكان سنحات مكرماً لبني إسرائيل، وكانوا يعبدون الله علانية، ويتلون الصحف جهراً.

وكان بمصر رجل، يقال له: مصعب بن شمس، وقيل: زاعوق بن شمس، وكان يرعى الغنم البقر لقومه، وله امرأة، يقال لها: راعونة، وهما من أولاد العمالقة، فأتت عليه مائة وعشرون سنة، ولم يرزق ولداً، فبينما هو ذات يوم في البقر يرعاها، إذ نظر إلى بقرة منهم، قد وضعت عجلاً، فتأوه من أجل أنه لم يرزق ولداً، فنادته البقرة: يا مصعب، لا تعجل، فإنه يولد لك ولد مشؤوم، يكون ركناً من أركان جهنم، فرجع إلى زوجته، وذكر لها ذلك، ثمَّ إنه واقعها، فحملت بفرعون، ومات مصعب قبل ولادته.

فلمَّا ولدته أمه، سمته الوليد بن مصعب، ثمَّ أخذت في تربيته حتى إذا بلغ، سلمته أمه إلى النَّجَّار، فلم يزل يتعلم حتى حذق صنعة النَّجَّارة، ثمَّ إنه ترك النَّجَّارة، وولع بالقمار حتى كان لا يصبر عنه، فعاتبته أمه في ذلك، فقال لها: يا أمي، إني عون نفسي، فلزمه هذا اللقب، ولم يكن يعرف إلا بعون نفسه.

فخرج يوماً فقامر، فقمر، وانصرف إلى منزله، وقد قمروه قميصاً كان عليه، فهرب على وجهه، حتى صار إلى قرية من قرى مصر، يقال لها: نخلة، فعرض نفسه على بقالٍ هناك، ليخدمه فخدمه، وكان يدعى عون نفسه، وكان يؤذي المشترين، حتى تأذى به البقال، فطرده من عنده، فخرج ومعه درهم، وكان عليه ثوب خلق، فاشترى به البقل والبطيخ، وقعد على قارعة الطريق ليبيعه، وإذا بعريف السوق، وقد وقف عليه، فطالب بحق الطريق، فقال فرعون: وما حق

(1) هو عمرام بن قهات، أبو موسى وهارون. العهد القديم، سفر الخروج 6: 18، 20.

(2) المستدرك على الصحيحين 2: 631. والمعارف: 43. وبحر العلوم 1: 537.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 432 - 520.

(4) الرواية عن ابن إسحاق في تاريخ الرسل والملوك 1: 231. فهو يروي عن وهب.

الطريق؟، قال: حق الملك سنحات، فإنه أمر أن يؤخذ من كلِّ من يبيع على الطريق شيئاً، يكون عليه درهم، فقال فرعون: يا هذا، ليس معي إلا قيمة درهم واحد، فما أعطيك منه؟ !.

وتلاحيا جميعاً حتى غضب فرعون وأخذ منه غصباً متاعه ومضى، وجعل بعد ذلك يدور بأرض مصر، يسرق، فيهرب مرة، ويقع مرة، ويحبس مرة، ويُخَلَّى مرة، واتفق أن رجلاً من العملاقة، جمح به فرسه، فلم يقدر أن يضبطه، فوثب فرعون إلى الفرس، وأخذ بلجامه، فربطه له، وأوقفه، فقال له الرجل: إنك قد أحسنت، وإني أراك جلداً قوياً، فلو أقمت معي، لاتَّخذتك سائساً، فقام معه، وتبعه إلى منزله، فأعطاه ثوباً كساه به، وجعل يخدمه، ويسوس فرسه حتى مات الرجل، ولم يخلف أحداً من الورثة، فاستولَّى فرعون على جميع أمواله، وحملها إلى أمه، وقال لها: ابشري، هذا خير كثير، ثمَّ لم يزل يأكل ذلك حتى أتى عليه جميعه.

ثم إنه ضاق به الأمر، ولم يعلم حيلة المعاش، حتى وقع في قلبه أن يقعد على باب مصر، ويطالب أرباب الجنائز بشيء، ويظهر أنه بإذن الملك، فقعد، وبسط بساطاً لنفسه، وجعل بين يديه غلاماً، وكان لا تخرج عليه جنازة إلا قال: الملك أمرني بذلك، فكان الناس يعطونه، حتى اجتمع معه مال كثير، والملك لا يعرف ذلك، حتى ماتت للملك ابنة، فحملت إلى المقابر، فتعلق بها أعوان فرعون على العادة، فاتصل صنعه وحديثه إلى الملك، فغضب من ذلك، وسأل عن خبره، فقيل له: إنه يزعم أن الملك هو الذي أمره بذلك، فأمر الملك بإحضاره، فلمَّا وقف فرعون بين يديه، دعا له، وقص له قصته، وأنه ضاق به الأمر، فلم يعرف حيلة غير ذلك.

قال: فهم الملك بقتله، فقال: أيها الملك، لا تعجل فإني أفدي نفسي بالمال الذي جمعته، فحمل من المال العظيم ما انخدع به الملك، وطاب قلبه عليه، ثمَّ إن الملك أوقف فرعون على عمله ذلك، وأن يحمل للملك دخله، قال: فقسط فرعون على جنائز الملوك ألف دينار لكلِّ جنازة، وعلى جنائز الوزراء سبعمائة درهم لكلِّ جنازة، وعلى جنائز القواد خمسمائة، وما دون ذلك فمن المائة إلى الخمسين إلى العشرة، إلى ثلاثة دراهم، ثمَّ إن الناس صرفوا الملك عن هذه الحالة وقالوا: إنه يشيع عنك أنك تأخذ عن الموتى خراجاً، ويقبح ذكرك عند الملوك، قال: فدعاه الملك، وصرفه عن عمله، واستخرج منه ما كان أخذه من الناس.

ثم إن فرعون قال للملك بعد ذلك: إن جدي كان على حرس أبيك، فاجعل لي ذلك، فجعل الحراسة إليه، فكان على حراسة الملك، وكان أمر الحرس شديداً، لأن ذلك الملك كان كثير الأعداء، فقال لفرعون: شدد في الحرس، وكل من لقيته بالليل فاقتله، كائناً من كان، ثمَّ خلع الملك على فرعون، وجعل معه عدةً من الأعوان والحراس، فخرج فرعون من عنده، واتَّخذ لنفسه قبة في وسط المدينة، وكان يوجه الأعوان والحرس، يتحارسون في المدينة، فكلُّ من أتوا به في الليل، أمر بقتله.

رؤيا الملك سنحات

قال: فمرَّ على ذلك زمان، حتى اتفق في ليلة من الليالي أن الملك سنحات رأى رؤيا هائلةً أفزعته، فدعا المنجمين والكهنة، وقال: إني رأيت في المنام، كأني على سريري هذا جالس، وقد اتكأت عليه، فإذا أنا بعقرب سوداء، لها أربعة قرون، في وسط قرونها شعلة نار، قد بلغ شعاعها جميع أرض مصر ، فجاءت العقرب حتى صعدت على السرير، وفتحت فاها، فرأيت لها أنياباً حداداً، وقالت: يا سنحات، قد اقترب أجلك، فاختر مني واحدة من ثلاث، أما أن أبلعك أو أقتلك، أو أضربك.

فاخترت الضربة، فضربتني ضربةً، رمتني إلى الأرض، ثمَّ استوت جالسة على سريري، وقالت: يا أهل مصر، كونوا عبيداً لي إلى آخر الدهر، ثمَّ رأيت عمران بن مصعب[1] بعد ذلك، وقد خرجت من ظهره حية سوداء، لها قرون من ذهب وفضة، وحديد ونحاس، فقرن الذهب قد بلغ السماء، وقرن الفضة قد بلغ المشرق، وقرن الحديد قد بلغ المغرب، وقرن النحاس قد تعلق به قوم، بيض الوجوه، ولهم نور، فهذا ما رأيت، فعبروه لي.

فقالوا: أيها الملك إن هذه الرؤيا لها شأن عظيم، فأجلنا شهراً، فأجابهم إلى ذلك، فخرجوا من عنده، وهم يقولون: ليغلبن على ملكه رجل، لا أصل له، ولا فرع، وأما الحيَّة التي خرجت من ظهر عمران، فيخرج من ظهره ولد، يغلب على كل ملك، يكون بأرض مصر، وإن هلاك سنحات قد اقترب.

فبقي سنحات مغموماً، قد امتنع من الطعام والشراب، حتى إنه وقع في قلبه أن يخرج ليلاً إلى وزير من وزرائه؛ ليفرج عنه ما هو فيه، فخرج سراً، ليس معه أحد من الخدم، فأخذه أعوان فرعون والحرس، فحملوه إلى فرعون، فكلما قال لهم: إني الملك سنحات، لم يبالوا به، فظنوا أنه يخدعهم، حتى قال ذلك لفرعون، فلم يسمع منه، وأمر بإنزاله عن فرسه، ثمَّ ضرب عنقه، وأخذوا سلبه. ثمَّ عرفوا بعد ذلك، أنه كان الملك، فبادر فرعون بمن معه في الحال من الحرس والأعوان، وكانوا كثيراً، فدخل قصر الملك، وكان لا يمنع من الدخول لجلالة قدره، وقرب منزلته، فلماً دخل فرعون، استولى على سرير الملك سنحات، ووضع التاج على رأسه، فلمَّا أصبح فتح الخزائن، ودعا الوزراء والقواد، وأصلح ما بينهم وبينه بالمال، فصاروا له أولياء، ودانوا له، واستوى له الملك على مصر.

وبعث إلى أسباط بني إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة، فأقبلوا إليه، وخروا سجداً، وقصدوا

(1) هو عمرام بن قهات، أبو موسى وهارون. سفر الخروج 6: 18، 20.

بالسجود الله[1]، فلمّا فرغ فرعون من ذلك أقبل على إبليس، وقال: يا شيخ، كنت مباركاً، وإنك أول من سجد لي فمن أنت؟، قال: أيها الملك، أنا رجل من أهل مصر، وأنا أشير على الملوك بمصالحهم، ثمَّ قال لفرعون: أنا اتَّخذ لك ولقومك أصناماً يعبدونها، فقال له فرعون: افعل ما بدا لك.

فاتخَذ لهم أصناماً، واتخَذ لفرعون ثوراً من ذهبٍ، يعبده، وأمر فرعون قومه بعبادة الأصنام فلم يخالفوه، وأما الثور الذي اتخَذه لفرعون، فثور من ذهب، قوائمه من الفضة، وعيناه من الياقوت، وأذناه من الزبرجد، وأنفه من أنياب الفيلة، وأسنانه من اللؤلؤ، وأمر فبني لهذا الصنم بيت من رخام، وفرشوه بالديباج، ووضع في صدر البيت سرير من الفضة، قوائمه من العاج والأبنوس، وعلى حافة ذلك السرير أشجار من ذهب، أغصانها من الفضة، وأوراقها من الزبرجد الأخضر، على كل غصن فيها طيور من الفضة، مناقيرها من الجوهر، في منقار كل طائر جوهرة، يصيح في جوف كل طائرٍ شيطان، يقول: فرعون ربكم يا أهل مصر، وكان فرعون يعبد الثور، والقبط يعبدون الأصنام، وبنو إسرائيل يعبدون الله، ثمَّ إن فرعون استعبد الناس، ووضع عليهم الخراج الثقيل.

الآيات قبل مولد موسى

فبينما فرعون قاعد على سريره، إذ أشرف عليه رجل من جدار القصر، وهو يقول: يا ملعون، أتظن أن ربك غافل عما تفعل بالناس، واستعبادك إياهم، وهم عبيد رب العالمين، ففزع من ذلك، وتحول إلى قصرٍ آخر جديدٍ، فجاءه الرجل ثانيةً عاضاً على أنامله، وهو يقول: هلكت يا ملعون، إن لم تؤمن بربك الذي خلقك ورزقك، ثمَّ غاب عنه.

العجوزان

ثم إن فرعون ركب ذات يوم فرسه، وخرج متنزِّهاً، وخرج معه أصحابه، فجعل يمرُّ على آثار الأمم الماضية، فبينما هو كذلك، إذ مرَّ ببناءٍ كان ليوسف، فبينما هو ينظر فيه، وإذا هو بامرأتين كبيرتين، قد عميتا من الكبر، وهما تقولان: يا من أهلك عاداً الأولى، أهلك فرعون، أنه طغى، فسمع فرعون ذلك، فدنا منهما، وقال: من أنتما؟ قالتا: نحن ممن آمن بإله السماوات والأرض، فمن أنت؟، قال هامان: هذا إلهكم فرعون، قالت إحداهما: تعساً، وبؤساً لفرعون، ولمن يزعم أنه عبد لفرعون، بل إلهنا إله السماوات والأرض، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وهو القادر على كل شيء، فأمر بهما فرعونن فطرحهما في قدور العذاب، وهما تقولان: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

---

(1) «فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنفٍ، ومرروا حياتهم بعبوديةٍ قاسيةٍ في الطين واللبن، وفي كل عمل في الحقل. كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفًا». العهد القديم، سفر الخروج 1: 13 – 14. تفاصيل استعبداد بني إسرائيل في التلمود: 156 – 158.

فلمّا انصرف فرعون إلى منزله، سأل عن العجوزين فأخبروه بما صنعوه، فارتاع من ذلك، ووقع الخوف في قلبه، وقال: ما أظن أن يكون هلاكي إلا على يدي بني إسرائيل، وقد قتلت منهم خلقاً كثيراً، ولكن ائتوني بعمران بن مصعب؛ لأنه كبير فيهم؛ لأصنع إليه معروفاً، فلمّا دخل عليه عمران، قال: يا عمران، إنه وقع في قلبي أني أستوزرك، فإني أراك محباً لي، فقال عمران: فأنا بين يديك، فأمرني بما شئت، فدعا له بخلعة سنية وتاج، فجعله على رأس عمران، وجعله سيد وزرائه، حتى كان هامان وغيره يحسدونه، وكان تحت فرعون امرأة، ثمَّ إنه وقع إليه خبر آسية بنت مزاحم وحسنها وجمالها.

آسية بنت مزاحم

فلمّا وصفت آسية بنت مزاحم لفرعون، أحب أن يتزوج بها، فأرسل إلى أبيها: أن ابعث ابنتك هذه، فإنها أمتي، فاغتم مزاحم لذلك، ثمَّ دخل على فرعون، وأخوه عمران واقف على رأسه، فقال أيها الملك: إن ابنتي هذه صغيرة، لا تصلح لمثلك، فقال له فرعون : كذبت، فقد بلغني أنها بالغة، وقد عرفت وقت ولادتها، فلمّا رأى مزاحم ذلك، قال: أيها الملك، اجعل لها مهراً، كما أمرنا ربنا بذلك، فغضب فرعون من قوله، وقال: يا هذا، احملها إلي، فإن قبلتها، أكرمتها، وإلا، رددتها إليك، فقال له عمران: أيها الملك، لا تفضحني في ابنة أخي، وأكرمها بخلعة ومهر، فأجابه إلى ذلك.

فانصرف مزاحم إلى ابنته آسية، فأخبرها بجميع ذلك، وقال يا بنية، لا تمتنعي عليه، فإن امتنعت، كان هلاكي وهلاكك، وهلاك عمك عمران، قال: فبكت بكاء شديداً، وقالت: كيف تزوجني بكافر يدعي الربوبية، قال مزاحم: صدقت، ولكن لا آمنه على نفسي ونفسك، ومع هذا لا يضرك كفره، ولم يزل بها حتى أجابته، فانصرف مزاحم، فأخبر فرعون برضاها، ففرح بذلك، وأمهرها عشرة آلاف أوقيةٍ من الذهب، ومثلها من الفضة، وبعث إليها مع ذلك هديةً عظيمة، وعدة ثياب فاخرة، وبعث تاجاً عظيماً، وإكليلاً مرصعاً بأنواع الجواهر، وعدةً من الإماء والعبيد، ثمَّ أمر بذبح البقر والغنم، واتّخذ من أنواع الأطعمة ما لا يحصى ولا يوصف، ولم يبق كبير، ولا صغير حتى حضر ذلك.

ثم زُفَّت إليه في موكبٍ عظيم، وشأنٍ جسيم، وإكرام قد جاوز الوصف، والناس بين حاسد لها، وذام لكونها مؤمنة تحت فرعون ، فزفت، حتى صارت إلى فرعون، فلمّا دخلت إلى الدار، نظرت إلى حسن بنائها، فقالت: ما أحسنها !، لو كان من بناها طائعاً لربه، ثمَّ دخلت قبتها، فأقبل فرعون حتى دخل عليها، فلمّا هم بها خذله الله تعالى بقدرته، فلم يقدر عليها، وكان ذلك حاله معها، حتى فارقها.

الآيات التي رآها فرعون

فبينما هو معها في قبتها إذ سمع هاتفاً يقول: ويلك يا فرعون !، فقد قرب زوال ملكك،

على يدي فتى من بني إسرائيل[1]، فقال فرعون لآسية: أسمعت؟، فقالت: قد سمعت، وليس هذا من عمل النساء.

وبينهما هو أيضاً نائم على سريره، إذ رأى رجلاً شاباً، قد دخل عليه من غير حجاب، وتحته أسد عظيم، فوقف بين يديه، وبيده عصا، فضرب بها رأس فرعون، ثمَّ قال: اعرف نفسك يا بن راعونة، وانظر من أبوك، ثمَّ أخذ برجله، وقذفه في اليم، فانتبه فزعاً مرعوباً، فدعا المعبرين، وذكر لهم رؤياه، فاستأجلوه يومهم، فأجلهم، فلمَّا انصرفوا، قال بعضهم لبعض: هذه الرؤيا تدل على هلاك فرعون، ولكن إن أخبرناه بذلك، خشينا على أنفسنا منه، فلمَّا كان من الغد، دخلوا عليه، وقالوا: إن ذلك من أضغاث الأحلام، فلا يهولنك ذلك، وكان في تلك الليلة، قد طلع نجم موسى، ولكنهم كتموه.

ورأى فرعون في تلك الليلة ذلك الرجل بعينه، قد أتاه، وفي يده عصا، فلمَّا قرب منه ضرب بها رأس فرعون ، وقال: ويلك يا فرعون ! ما أقل حياءك من خالق السماوات والأرض !، كلما رأيت آية ازددت كفراً.

ثم رأى في نومه كان الأرض قد انفجرت، وأدخلته في جوفها، فانتبه فزعاً مرعوباً، ودعا المعبرين، وقص عليهم رؤياه، فقال أحدهم: إن هذه الرؤيا تدل على مولودٍ، يكون هلاكك، وهلاك ملكك على يديه، فلحقه من ذلك أمر عظيم، حتى كادت تخرج نفسه من شدَّة الجزع، حتى كادت روحه تزهق.

قتل الأطفال

فعند ذلك استشار فرعون وزراءه، وأهل مملكته فيما خبره المعبرون، فقالوا: الرأي في ذلك أن توكل بالحبالى، وتحملهن إلى دارك، فإن كان ذكراً قتلته، وإن كان أنثى تركته[2].

ففعل فرعون ذلك، حتى قتل اثني عشر ألف امرأة حبلى، وسبعين ألف طفل[3]، وكان يعذب الحبالى حتى يسقطن، فضجت الملائكة من ذلك إلى ربها، فأوحى الله إليهم: أن اسكنوا فإن له أجلاً معدوداً محدوداً، ثمَّ بشرهم الله بموسى، وحمل أمه به.

قال وهب بن مُنبِّه، وكعب الأحبار: إن فرعون اللعين كان قد منع وزراءه، وكبراء أهل مملكته من أهلهم، والاجتماع بهم، والخلوة معهم؛ لأنه كان قد بلغه أن ذلك المولود من أولاد أقرب الناس إليه، وكان عمران ممن قد منع من ذلك، وكان إذا نام فرعون، يقعد عند رأسه لا

(1) تفسير مقاتل 2: 489، وتاريخ الرسل والملوك 1: 232، وقصص الأنبياء للثعلبي: 150.

(2) جامع البيان 2: 42، وأساطير اليهود 2: 196. وفي العهد القديم، سفر الخروج 1: 15 - 16. «وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة، واسم الأخرى فوعة، وقال: «حينما تولِّدان العبرانيات، وتنظرانهن على الكراسي، إن كان ابنًا فاقتلاه، وإن كان بنتًا، فتحيا».

(3) عن وهب أنه ذبح في طلب موسى تسعين ألف وليد. الكشف والبيان 7: 234.

يفارقه، حتى يستيقظ من نومه.

فبينما عمران قاعد ذات ليلةٍ على ذلك الكرسي، إذ نظر إلى امرأته أياذخت[1]، وقد حملت إليه على جناح ملك، فلمّا نظر إليها عمران، فزع فزعاً شديداً، وقام على قدميه، وقال لها: من جاء بك؟، فقال الملك: يا عمران، إن الله يأمرك أن تواقع أهلك على فراش فرعون؛ ليكون هواناً لفرعون، ثمَّ جذب الملك فراش فرعون من تحته، وألقاه لعمران، فواقعها عليه، فحملت بموسى، ثمَّ عاد عمران إلى كرسيه، وقعد عليه، ولم يشعر به فرعون، وألقى الملك فراش فرعون تحته كما كان، وحمل امرأة عمران إلى منزلها.

فلمّا أصبح فرعون، دخل عليه المنجمون، فقالوا له: إن ذلك المولود الذي كنا نحذرك منه، قد حملت به أمه، وإنه قد ظهر نجمه، وعلا شعاعه، فعند ذلك شدد فرعون في الطلب، ودعا العجائز والقوابل، وأمرهن أن يدرن على نساء بني إسرائيل الحوامل، ففعلن ذلك، ولم يكن القوابل يدخلن دار عمران؛ لعلمهن أنه يكون دائماً عند فرعون، فلمّا تم لموسى في بطن أمه تسعة أشهر، أخذها الطلق نصف الليل، وليس عندها أحد إلا أختها، فاحتملت الطلق، حتى وضعت موسى، وهو نور يتلألأ ففرحت به، إلا أنها مكروبة خائفة عليه من فرعون وأعوانه[2].

ميلاد موسى

فلمّا وضعته استوى قاعداً بإذن الله تعالى، وقال: يا أمي لا تخافي، فإن الله معنا[3]، وسمع فرعون في تلك الليلة، هاتفاً في قصره يقول: ولد موسى، وهلك فرعون، وصار كل صنم في تلك الليلة منكوساً، وأصبح فرعون ممتلئاً غماً، وأمر بالتشديد في أمر المولودين وقتلهم، فأخذت أم موسى في رضاعه، وهي خائفة لا تأمن أحداً؛ خوفاً أن يصل خبره إلى فرعون فيقتله.

وكانت إذا خرجت في حاجةٍ، تعمد إلى موسى، فتضعه في مهدٍ، وتضعه في التنور وتغطيه، فاتّفق أنها خرجت يوماً، وكانت قد فعلت ذلك، وكانت أختها قد عجنت عجيناً، فأرادت أن تخبز، فأمرت بسجر التنور، فسجروه من غير أن يعلم أحد أن موسى في التنور، واتفق أن هامان وقع في قلبه أن المولود في بيت عمران، وكان يحسد عمران على منزلته عند فرعون، فجاء حتى كبس دار عمران، وقال: ها هنا مولود، فقالت خالة موسى، وهي تسجر التنور: كيف يكون هنا مولود، وعمران محبوس عندكم ليلاً ونهاراً؟.

فجعل هامان، ومن معه يفتشون زوايا الدار، حتى جاء إلى التنور وهو يسجر، والنار تعلو

(1) هي يوكابد. في أساطير اليهود 2: 205، وهي عمة عمران وزوجته أيضاً، وسفر الخروج 6: 20، وقاموس الكتاب المقدس: يوكابد.

(2) سرد آخر في تاريخ دمشق 61: 17.
وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 151. عن مجاهد.

(3) ما كاد الطفل يتم يوماً واحداً من عمره، إلا بدا يمشي، ويتكلّم مع والديه. أساطير اليهود 2: 206.

منه فانصرف، وعلم أنه ليس في دار عمران مولود، ورجعت أم موسى إلى دارها، فإذا هي بهامان والأعوان والحرس يخرجون من دارها، فكادت نفسها تزهق من الغم، فاستعجلت، ودخلت منزلها، وقالت: هل نظر هامان إلى ولدي في التنور؟.

فأسرعت إلى التنور، فإذا به يسجر، والنار تعلو منه، فلطمت وجهها، وقالت: ما نفعني حذري، قد أحرقت ولدي، فناداها موسى: لا تخافي علي يا أمي، فإن الله يصرف عني حرها، فادلي يدك، واخرجيني، فدلت يدها، فأخرجته من التنور، ولم تمسه النار، ولم تمس أمه بإذن الله تعالى، ثمَّ أدخلته المهد[1].

فلمَّا كان بعد أربعين يوماً[2]، أقبلت أمه إلى نجار بمصر، يقال له: سونام[3]، فقالت له: يا سونام اتَّخذ لي تابوتاً، طوله كذا، وعرضه كذا، واحكمه؛ لئلاً يدخل الماء فيه[4]، وأعطيك كذا وكذا، فقال: وما تصنعين به؟، قالت: إني ولدت مولوداً، وأخاف عليه من فرعون أن يقتله، وأريد أن ألقيه في البحر.

فظن النَّجَّار أنها تتَّخذه لهارون، وكان بينه وبين موسى سنتان، ففعل ذلك، وكان موسى قد ولد في سنة القتل، وهارون في سنة الترك، وكان فرعون يقتل المولودين سنة، ويتركهم سنة، فقالت له: يا سونام، ليس هذا لهارون، هذا لآخر، ولدته في هذه الأيام، وضمنت له ما أراد من الأجر، وكان النَّجَّار من أقربائها، فلذلك أفشت سرها له.

فلمَّا انصرفت قال النَّجَّار: لأخبرن بذلك هامان، فنهض من موضعه في ساعته، وسار ليخبر هامان، فأخذته الأرض إلى كعبيه، وسمع الأرض تقول: وعزة ربي، لئن لم ترجع، وتتخذ التابوت في نهاية الإحكام كما ضمنت، وإلا ابتلعتك، فبكى سونام عند ذلك، وضمن أن يتخذ التابوت، ولا يذكر موسى لأحد، فحلت عنه الأرض، فرجع إلى منزله، واتَّخذ التابوت، وحمله في جوف الليل إلى دار عمران، وسلمه إلى أم موسى، وأبى أن يأخذ عنه أجرةً، ولا ثمناً، والتمس منها أن تريه المولود، فلمَّا رأى المولود، أخذه وقبله، وضمه إلى صدره[5].

ومات عمران، قبل أن يُتمَّ موسى أربعين يوماً، فلمَّا كان بعد ذلك، عمدت أم موسى إلى ذلك التابوت، ففرشته وأرضعت موسى، وكحلته، ودهنته، ووضعته فيه، وأغلقت عليه بابه،

---

(1) تاريخ دمشق 61: 18.

(2) ثلاثة أشهر في سفر الخروج 2: 2.

(3) حزقيل القبطي في تفسير مقاتل 2: 490.

(4) «أخذت له سفطاً من البردي، وطلته بالطين والزفت، ووضعت الولد فيه، ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيدٍ لتعرف ماذا يفعل به.». العهد القديم، سفر الخروج 2: 3 - 4. وكان مطلياً من الخارج بالقار، ومن الداخل بالطين. أساطير اليهود 2: 208.

(5) قصة النجار وموسى في قصص الأنبياء للثعلبي: 152.

وهي باكية، ثمَّ حملت التابوت في نصف الليل، وليس معها أحد إلا أختها، حتى صارت إلى شاطئ النيل، فتصور لها إبليس على صورة حية سوداء، وهي تقول لها: إن ألقيته في اليم ابتلعته، فعلمت أنه إبليس(1)، فلم تكترث بقوله، ثمَّ فتحت التابوت، فأخرجته وأرضعته، وبكت بكاءً شديداً، فسمعت النداء: { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } سورة القصص: 7.

ثم جعلت موسى في التابوت وأطبقته، وأغلقت بابه، وطرحته في النيل(2)، فأمر الله الملائكة بحفظ التابوت، وأمر البحر بحفظه، وكثرت الأحلام على فرعون، وداخله الرعب، والفزع، وأمر بالزيادة في الحرس، ولم يكن يأتيه النوم؛ لشدَّة فزعه وخوفه، وبقى التابوت في النيل أربعين يوماً.

في دار فرعون

فلمَّا أصبح فرعون، صعد إلى قصره على صرحٍ له، فجلس فيه، وهو يشرف على النيل، فإذا هو بتابوت، والرياح والأمواج تضربه، حتى أوقفته حذاء قصر فرعون.

قال كعب: وكان لفرعون سبع بنات، ليس فيهن واحدة إلاّ وبها أنواع من الأمراض، وكان الأطباء قد أشاروا عليه أن دواءهن المداومة على الاغتسال في ماء النيل، وكان قد اتَّخذ في داره حوضاً عظيماً كالبركة الكبيرة، يركد فيه الماء، فكن يغتسلن فيه، فلمَّا أراد الله وقوع التابوت إلى ديار فرعون، أمر الرياح والأمواج أن تضرب التابوت فضربته، فألقته في ذلك النهر، وكان على حافتي النهر أشجار غرسها فرعون، فركد، وجعل في ذلك الحوض، وكان على حافتي الحوض بنات فرعون.

فبادرت الكبيرة(3)، وأخذت التابوت وفتحته، وإذا فيه موسى، وله شعاع ونور، فأخرجته، وحين لسمته، ذهب ما بها من البلاء(4)، وتناولته البنات بينهن، حتى شفين مما بهن، وصرن صحيحات ببركة موسى، وأقبلن بالتابوت إلى آسية، وذكرن لها قصته، وكيف شفين به، فنظرت آسية إلى الغلام، فأخرجته من التابوت، وقبلته، ولم تعلم أنه ابن عمها عمران، فدعت

---

(1) إبليس مع أم موسى في قصص الأنبياء للثعلبي: 151.

(2) كان فرعون قد أمر برمي كل ذكر في النهر. «ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلًا: كل ابنٍ يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنتٍ تستحيونها». العهد القديم، سفر الخروج 1: 22.

(3) «فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشياتٍ على جانب النهر. فرأت السفط بين الحلفاء، فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد، وإذا هو صبي يبكي. فرقت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون: «هل أذهب وأدعو لك امرأةً مرضعةً من العبرانيات لترضع لك الولد؟»، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنًا، ودعت اسمه موسى، وقالت: إني انتشلته من الماء. العهد القديم، سفر الخروج 2: 5 - 10. فمعناه بالعبرانية: منتشل. قاموس الكتاب المقدس: موسى. والقصة في التلمود: 162.

(4) هو البرص والدمامل المؤلمة. أساطير اليهود 2: 239.

جارية، وأمرتها بحمله، فاحتملت الجارية التابوت، ومضت به مع آسية إلى فرعون.

فلماً رآها فرعون فزع[1]، فقالت له آسية: لا تخف، وذكرت له حديث التابوت والبنات، وكيف ذهب بلاؤهن ببركته، ثمَّ فتحت التابوت، وأخرجت موسى فوضعته في حجرها، فنظر إليه فرعون، ورأى حسنه وجماله ونظافته ونوره، فقال: يا آسية، إني أخاف أن يكون هذا عدوي، ولا بد لي من قتله، فعندها { وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } سورة القصص: 9[2]، ثمَّ قالت: أيها الملك، أنت متمكن من قتله في إي وقتٍ تشاء، فإن كان عدوك، فقد وقعت به، وإن لم يكن ذلك، فلا يكون قد عجلت عليه، ولكن أيها الملك، ليس لك ولد، فأطعم الناس لأجله، فلم تزل به حتى فعل ذلك، فجاع الطفل فأتى بالمراضع، فلم يقبل ثدي واحدة منهن.

حديث رضاع موسى

ويلغ أمَّه أن التابوت وقع إلى فرعون، فقالت لابنتها كلثوم[3]: اخرجي، فقُصيٍّ أثر أخيك، وعرِّفيني خبره، فخرجت وقصَّت، حتى دخلت قصر فرعون، مع المرضعات، ونظرت فإذا هي بموسى أخيها في حجر آسية، فتقدَّمت إليها، وقالت، كما قال الله: { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } سورة القصص:12. فلم تعرفها آسية أنها ابنة عمها لرثاثة حالها، فقال فرعون لكلثوم: من هؤلاء القوم الذين لهذا الغلام ناصحون؟، فقالت: هم قوم من آل إبراهيم، فقال: اذهبي وائتني بهم، فرجعت كلثوم إلى أمها، فأخبرتها بذلك، فقامت أمها من ساعتها، ودخلت على فرعون وموسى بين يديه.

قال: فعرفتها آسية عند ذلك، فقالت لها: خذي هذا الطفل، وأعرضي عليه لبنك، فلمَّا أخذته أمه، وجد موسى رائحة أمه، فضحك لذلك، وقبل ثديها، وارتضع منها، فقال لها فرعون: إني أرى لبنك غزيراً، فهل لك ولد؟، فقالت: وهل ترك الملك ولداً لم يقتله؟!، قال فرعون: ويلك من قتل ولدك؟، فقالت: الملك أعلم بذلك، ولم يعلم فرعون أنها امرأة عمران، ثمَّ قالت لها آسية: يا هذه، إنا نحب أن تكوني عندي، إلى أن يستغني هذا الغلام عن الرضاع، فأقامت عندها، واتَّخذت آسية لموسى مهداً من صفائح الذهب، فلبثت أمه عند آسية سنتين، فلماً أرادت الانصراف إلى بيتها، أمرت لها آسية بوقر[4] من الذهب، وأوقار من الثياب الفاخرة،

---

(1) «لما نظر إليه فرعون قال عبراني من الأعداء-فغاظه ذلك، وقال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح». تاريخ دمشق 61: 19.

(2) قال لامرأته: عسى أن ينفعك، فأما أنا فلا أريد نفعه. قال وهب، قال ابن عبَّاس: لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعه الله به ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه. تاريخ دمشق 61: 19.

(3) أخته مريم، ميريام. أساطير اليهود 2: 211.

(4) حمل ثقيل. المعجم الوسيط: وقر.

وغير ذلك من الهدايا، فانصرفت إلى بيتها غنية مستبشرة[1].

آيات موسى

فلماً صار موسى من أبناء ثلاث سنين، دعاه فرعون، وأقعده في حجره، وجعل يلاعبه، فضرب موسى بيده لحيته، وقبض عليها، ثمَّ لطمه لطمةً، تألم لها فرعون، وقال في نفسه: لا شك أن هذا عدوي، وهم بقتله، فجاءت آسية، وقالت: إن الصبيان لهم جرأة، ولعب من غير معرفة وعقل، وأنا أريك أنه لا يعقل، فأمرت بإحضار طشت من فضة، ثمَّ طرحت فيه جمرة ودرة، وقدمته إلى موسى، وقالت: خذ يا ولدي، أيهما شئت.

فأراد موسى أن يأخذ الدُّرَّة، فضرب جبريل بيده إلى جمرة النار، فأخذ موسى جمرة النار بيده، ورفعها إلى فيه، فاحترق لسانه، فقذفها من فيه، وبكى بكاءً شديداً، فقالت آسية لفرعون: الآن علمت ذلك، لو كان له تمييز، لم يختر الجمرة على الدرة، فسكن ما بفرعون عند ذلك[2].

آية أخرى

فلمّا أتى عليه أربع وعشرون سنةً، جعل يجلس إلى كهول بني إسرائيل، ويقول لهم: ماذا عليكم من النذر، إن فرج الله عليكم هذا البلاء؟، قالوا: يا موسى، والله نكثر من العبادة والصلاة، ونطيع ربنا، ولا نعصيه أبداً، فقال لهم موسى: والله، إني لأحبكم محبة الأخ لأخيه، فلا يغرنكم غضبي مع فرعون، فإني أرجو الله أن يسلطني عليه، فخلا به واحد منهم، وقال: يا موسى، لولا قرابتك من فرعون، لقلت: إنك ذلك الرجل الذي نرجو الفرج على يديه. ثمَّ إن موسى آخى ذلك الرجل الذي خلا به، وكان موسى يفشي له بسره، وكان يجلس مع بني إسرائيل، ويجلسون إليه، وكان أحب إليهم من أنفسهم، فأنبت الله موسى نباتاً حسناً.

[قالوا له: إن آباءنا أخبرونا أن الله يفرج عنا على يدي رجل أنت شبهه، فتكون لنا الأرض، كما كانت أول مرة في زمن يعقوب، وإنما سخط الله علينا، وملك فرعون علينا؛ لأنا لم نطع ربنا، ولم نصدق رسلنا. فجعل موسى يقول لهم: أبشروا يا بني إسرائيل، ثمَّ أبشروا، فإني أرجو أن يكون قد تقارب ذلك، فاتقوا الله وأطيعوه، ولا تسخطوه كما أسخطتموه أول مرة، فلا يرضى عنكم أبداً.

قالوا يا موسى: أما تقدر أن تشفع لنا إلى فرعون، بمنزلتك عنده، أن يرفه عنا شهراً من العمل، فقد قرحت أيدينا ومناكبنا من نقل الحجارة وبناء المدائن، فنستريح شهراً، فقد كسرت

---

(1) تاريخ دمشق 61: 19.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 154. وتاريخ دمشق 61: 19. وكان موسى، وهو طفل يلهو، قد وضع تاج فرعون على رأسه، فجيء بجوهرة وجمرة، فأراد موسى أخذ الجوهرة، فحرك جبريل الجوهرة، وجعل الجمرة مكانها، فالتقطها موسى، ووضعها في فمه. أساطير اليهود 2: 1446، وهي في التلمود: 164، غير موجودة في التوراة، فهي فمن قصص الأجداه. الإسرائيليات في تفسير الطبري: 119. باختلاف طفيف.

ظهورنا، وذهبت قوتنا. فقال لهم موسى: فهل تعلمون يا بني إسرائيل، أن الذي أنتم فيه، من البلاء، عقوبة من الله للذي سلف من ذنوبكم. قالوا: يا موسى، ما منا صغير ولا كبير، إلا وهو يعرف ذلك، مقر على نفسه بخطيئته. قال لهم موسى: فما لله عليكم من الشكر، إن أهلك عدوكم، وفرج عنكم، وردكم إلى ملككم؟. قالوا يا موسى: وهل يكون ذلك أبداً؟. قال: عسى الله أن يفعل بكم ذلك، فينظر كيف شكركم، وحمدكم عند الرخاء، وصبركم عند البلاء. قال وهب: وكذلك الأنبياء، يجري الله الحكمة على ألسنتهم من قبل الوحي.

فقالوا: يا موسى، إذا، والله، نكثر صلاتنا وصيامنا، ونواسي المساكين في أموالنا، ونطعم الجائع، ونكسو العاري، ونطيع ربنا ورسلنا. قال موسى يا بني إسرائيل، زعموا أن عبداً من عبيد الله غضب غضباً، في الله على قومه، أنهم عبدوا الأوثان من دون الله، فعمد إلى تلك الأوثان، فكسرها غضباً لله فأخذه قومه، فألقوه في النار، فأمر الله النار أن تكون عليه برداً وسلاماً، فأنجاه الله من تلك النار، لمّا علم من صدق يقينه.

قالوا يا موسى: إن هذا الذي تذكر هو إبراهيم الخليل بن تارح، وهو أبو إسحاق، وهو جد يعقوب، وهو إسرائيل أبونا. فلمّا فرغوا من حديثهم، خلا به فتى من قومه، فقال لموسى: لولا أني أخاف، لأخبرتك خبراً صادقاً أنك أنت الذي نرجوه، ولكنك من فرعون بمنزلة، وهو يحبك حباً شديداً.

فقال له موسى: وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلهاً واحداً، لا أحلف بعزة فرعون المخلوق الضعيف، إلا ما أخبرتني الخبر كله؟. فقال له الفتى: يا موسى، أشهد بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، إنك أنت الذي نرجو، وننتظر أن يهلك الله عدونا على يده، ويفرج الله عنا به. قال له موسى: وإله بني إسرائيل، إني لأحبكم حب الوالدة لولدها، وحب الأخ لأخيه، ولا يغرنكم حب فرعون إياي، فإن أكن أنا ذلك أو غيري.

قال: فلم يزل موسى يتآلفهم، ويتآلف بهم، ويجلس إليهم، ويتحدث معهم، حتى صار موسى أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم، حتى أنهم صاروا، إذا فقدوا موسى ساعة واحدة، صاروا كالغنم لا راعي لها][1].

وكان موسى يذكر لبني إسرائيل ما عليه فرعون من الضلالة والكفر، وكان موسى يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويبغض أهل الكفر حتى شاع خبره بذلك في البلد والمدينة[2]، وأنه مخالف لرأي فرعون، فلمّا بلغ ثلاثين سنة[3]، إذ هو ذات يوم في وقت الظهيرة، وذلك قوله: { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ

(1) تاريخ دمشق 61: 29.

(2) مدينة منف في مصر. هي مدينة منفر، ممفيس، تقع في محافظة الجيزة على بعد 19 كم جنوب القاهرة.

(3) في حوالي الثامنة عشرة من عمره. التلمود: 164.

عَدُوِّهِ } سورة القصص: 15.

قتل القبطي

لَمَّا اشتدَّ عليهم أمر موسى، نصبوا له العداوة في كل نواحي المدينة؛ ليقتلوه، فصار من أمر موسى لا يدخل المدينة إلا خائفاً مستخفياً. قال: فبينا موسى ذات يوم، وهو داخل { الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ } يعني من شيعة موسى، والآخر { مِنْ عَدُوِّهِ } يعني من آل فرعون كافراً { فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } يعني به القبطي، وكان موسى أوتي بسطة في الخلق، وشدَّة في القوة، فدنا موسى منهما، فإذا هو بالفتى المؤمن الذي كان عاهده موسى، وأفشى إليه سرَّه، وقد تعلق به عظيم من عظماء الفراعنة، يريد أن يدخله على فرعون، فقال له موسى: ويحك، خلِّ سبيله. قال له الفرعوني: هل تعلم يا موسى، أن هذا الفتى سب سيدنا فرعون؟. فقال له موسى: كذبت يا خبيث، بل السيد الله، ولعنة الله على فرعون وعمله.

فلمَّا سمع الفرعوني كلام موسى، ترك الفتى، وتعلق بموسى، وزعم أن يدخله على فرعون، فنازعه موسى، فلم يخل عنه، { فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ } يعني فمات، ولم يكن يريد قتله، وليس يراهما إلا الله والفتى الإسرائيلي الذي كان من شيعة موسى فقال موسى، حين قتل الرجل: { هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } سورة القصص: 15 – 16[1]، وكان موسى خائفاً إلى أن جاءته النبوة، فأوحى الله إليه: أن العبد الذي قتلته، لو أقر لي بالعبودية ساعة، لأذيقنك أليم العذاب، وعلم أهل المدينة بفعل موسى، وعلم فرعون بذلك، ولم يصدق[2].

فلمَّا كان من الغد، خرج صباحاً، وهو يخاف أن يؤخذ بدم القتيل، { فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ } على آخر من القبط، والقبطي يقول: قتلت ابن عمي بالأمس، فأقبلا حتى لحقا بموسى، فقال له: يا موسى، أعني على هذا القبطي، فإنه يريد أن يحملني إلى فرعون، { قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ } سورة القصص: 18. أغويتني أمس حتى قتلت لأجلك رجلاً، واليوم تأمرني أن أقتل الآخر، فحزن الفتى من كلام، وعلم أن موسى قد ندم على ما كان منه بالأمس.

ثم إن موسى لم يجد بداً من نصرته؛ لأنه قد استغاث به، فحسر عن ذراعيه، ودنا من الرجل، ففزع، وظن أنه يريد أن يقتله، { فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ }، فخلى القبطي

---

(1) العهد القديم، سفر الخروج 2: 11 – 15. وهناك سبب مختلف تماماً، يتعلق باعتداء ضابط مصري على شرف زوجة أحد العمال الإسرائيليين. أساطير اليهود 2: 217.

(2) الزهد لأحمد بن حنبل: 64. وحلية الأولياء 4: 60. وقصص الأنبياء للثعلبي: 155.

عن الإسرائيلي، ومضى، حتى دخل على فرعون، فأخبره بقتل موسى الرجل بالأمس، فأرسل فرعون في طلب موسى، وأذن لأول ياء المقتول أن يقتلوه حيثما وجدوه، وكان مؤمن من آل فرعون واقفاً، فسمع ذلك من فرعون، فبادر إلى موسى، وقال: { إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } سورة القصص: 19 - 21[1].

في مدين

فخرج موسى خائفاً يترقب نحو أرض مِدْين، فإذا هو براعٍ فألقى إليه ثيابه، وأخذ منه جبة من صوف، وكساء من صوف، ومضى بلا زادٍ، ولا راحلة، حافي القدمين، لا يعرف الطريق، متوكلاً على ربه حيث يقول: { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مِدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ } سورة القصص: 22.

فلم يزل موسى يسير، حتى جاء إلى أرض مدين، في اليوم السادس أو السابع[2]، وبه جهد من الجوع والعطش، فإذا هو بجماعة من أهل مِدْين على بئر لهم، يسقون الماء لأغنامهم بدلو عظيم، يجره جماعة منهم، وإذا بامرأتين، تذودان غنمهما عن غنم الرعاة، وهو قوله تعالى: { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ }، وهو شعيب بن صنعون، نبي هؤلاء القوم[3]، وكلهم يحسدونه على ما آتاه الله.

قال لهما موسى: فهذا الماء لهم خاصة أو لجميع الخلق؟، فقالتا: بل لجميع الخلق، وكانوا إذا فرغوا يغدون إلى صخرة، وهي حجر عظيم، يطبقونه على رأس البئر، لا يقدر أحد على نزعه، فصبر موسى حتى فرغ الناس من سقي أغنامهم، وأطبقوا الحجر، وانصرفوا، ثمَّ قام موسى، وقال للمرأتين: قدما أغنامكما إلى الحوض، ثمَّ إنه تقدم إلى البئر، فضرب الحجر برجله، فدحاه أربعين ذراعاً، وسقى أغنامهما، فلمَّا فرغ من ذلك { ثمَّ تولَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } سورة القصص: 23 - 24.

ثم قام يصلِّي، وكان في ذلك الوقت، يتمنى شبعه بخبز شعير، وانصرفت المرأتان إلى أبيهما

---

(1) الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، هو حزقيل بن صابون القبطي في تفسير مقاتل 2: 493، وسمعان، في جامع البيان 19: 547، عن ابن إسحاق.

(2) قيل: بين مصر ومدين مسيرة ثماني ليال. جامع البيان 19: 550.

(3) «وكان لكاهن مديان سبع بناتٍ، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن. فأتى الرعاة وطردوهن. فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن. فلما أتين إلى رعوئيل (شعيب) أبيهن قال: ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم؟، فقلن: رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة، وإنه استقى لنا أيضًا وسقى الغنم. فقال لبناته: وأين هو؟، لماذا تركتن الرجل؟، ادعونه ليأكل طعامًا». العهد القديم، سفر الخروج 2: 16 - 20. وقد تزوج موسى صفورة. أساطير اليهود 2: 229. والعهد القديم، سفر الخروج 2: 21.

شعيب، وخبرتاه بها كان، فقال شعيب لإحداهما، وهي أشدُّ حياءً، واسمها شرفا: اذهبي فأتني به، فأقبلت إلى موسى، وهي شديدة الحياء، فوقفت بحذائه، وأومأت إليه، و{ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا }.

فقام موسى، ومرَّت من بين يديه، فكشفت الريح عن ساقها، فقال لها: تأخَّري ورائي، ودليني على الطريق، وتأخرت عنه، وكانت ترمي أمامه حصاة، وعن يمينه حصاة، وعن شماله، حتى دخلا مدين[1]، ووقف موسى بباب شعيب، فبادرت الابنة فدخلت، وخبرت أباها، بمجيئه، فأذن له، فدخل موسى، وشعيب يومئذ شيخ كبير قد كف بصره، فسلم موسى عليه، فردَّ عليه السلام، وعانقه، ثمَّ أقعده بين يديه، وسأله عن حاله وقصته، وما جاء به إلى هناك.

فأخبره موسى كما قال الله { فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }، ثمَّ دعا شعيب بالطعام، فأكل علي اسم الله، فلمَّا فرغ من أكله، حمد الله، فقالت شرفا عند ذلك: { يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } فعند ذلك رغب فيه شعيب { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ }، فرضي موسى، { قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } سورة القصص: 25 - 28. يعني لا سلطان علي، فرضي شعيب، وجميع المؤمنين من أهل مدين، وزوجه ابنته صفراء[2] أمامهم، فنزل موسى مسجد شعيب، ودعا صفراء، فخبرها بتزويجه بها.

عصا موسى

والتمس موسى منها عصا، فقالت: ادخل البيت، فإنه بيت أبي، وإليه كان يأوي، فخذ منه، وكان فيه عصي معلقة، فدخل وصلى ركعتين، ونظر إلى عصي الأنبياء، فأخذ من جملتها عصا حمراء، فدخل شعيب إلى البيت، فرأى باب البيت مفتوحاً، فقال: هل دخله أحد؟، قالت صفراء: نعم، دخله موسى، وصلى فيه ركعتين، وأخذ منه عصا للرعي، فقال علي بموسى، وتلك العصا، فلمَّا حضر بين يديه، أخذ منه العصا وجعلها، أسفل تلك العصي، وطرح عليها جميع ما هناك من العصي.

ثم قال لموسى: ادخل فخذ عصاك، فدخل موسى، وجعل يفتش، حتى أخذ تلك العصا بعينها، فقال له شعيب: ادفعها إلي، فلماً دفعها إليه لمسها شعيب، ثمَّ قال: يا موسى، إن هذه العصا من أشجار الجنَّة، أهديت لآدم يوم خرج من الجنَّة، فتوكأ عليها، ثمَّ توكأ عليها هابيل، ثمَّ شيث وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فلا تخرجها من

(1) تاريخ دمشق 61: 36.

(2) تاريخ دمشق 61: 42. وقد تزوج موسى صفورة. العهد القديم، سفر الخروج 2: 21. وأساطير اليهود 2: 263.

يدك، يا موسى، إني لا أراك بعيني، ولكن أراك بقلبي، فقد رأيتك في منامي[1].

وإني موصيك، فاعلم أن أهل مِدْين قوم حساد، فإذا رأوك، وقد كفيتني أمر غنمي، حسدوني فيدلونك على موضع لا ماء فيه، ولا كلأ، وإنما هنا وادٍ، يعرف بكذا وكذا، كثير الأشجار، غير أن فيه حية عظيمة، لا تمر بها غنم إلا ابتلعت منها، فإن دلوك على ذلك الوادي، فلا تخرج إليه، فإني أخاف من الحيَّة عليك، وعلى غنمي.

فخرج موسى بغنم شعيب، وهي يومئذ أربعون رأساً، وموسى يقول: أعظم الجهد عند الله قتل هذه الحيَّة، ثمَّ مضى بغنمه، وتعمد ذلك الوادي، فلمَّا تفرَّقت المواشي فيه، وإذا بتلك الحيَّة قد أقبلت إلى الغنم، فأخذ موسى عصاه، وبادر إليها، وضربها ضربةً، أتت عليها، ثمَّ رجع عشية إلى شعيب، فأخبره، ففرح بذلك، وبلغ ذلك أهل مِدْين ففرحوا، وشكروه على ذلك شكراً كثيراً وأحبوه.

الذئب مع موسى

قال كعب، ووهب: بينما موسى في غنمه، وإذا بذئبٍ قد أقبل نحو غنمه، فغدا عليه موسى، حتى أخذه، ثمَّ قال له: ألم تعلم أيها الذئب، أن موسى ختن شعيب ؟، فنطق الذئب بإذن الله، وقال: يا موسى، والذي أنطقني بين يديك، إني لم أعرف أول ما قصدت، أنك موسى، ولا أن هذه الأغنام لشعيب النبي، وما جئت إلا وقد أجهدني الجوع، فتفضل علي بشاة منها؛ فإني أكاد أهلك من الجوع، قال موسى: أتفضل عليك بما لا أملك؟ !، اذهب عني، وإلا خلعت مفاصلك خلعاً، فمضى الذئب على وجهه هارباً، وبلغت غنم شعيب ثمانين رأساً، ثمَّ مائة وخمسين، ولم تزل كلَّ سنة تزيد حتى بلغت أربعمائة، ولم يتجرأ أحد من رعاة مِدْين، أن يقرب الماء حتى يسقي موسى وكان شعيب يقعد في مسجد، فيجتمع إليه المؤمنون يستمعون إلى نصحه[2].

خروج موسى من مدين

فلماً عزم موسى على الخروج، بكى شعيب، وقال: إنك يا موسى، مبارك علي، وكيف تخرج بابنتي، وقرة عيني؟ وإني قد ضعفت، وكبرت، فلا تضيعني مع كبر سني، وكثرة حسادي، وتترك غنمي شاردة، لا راعي لها، ولا راد؟، قال موسى: إن غنمك لا تحتاج إلى راع، لأن الذئاب والأسود، قد أخذت عليهم العهود ألا يضروها، وقد جعلت هذا الكبش الأعين الأقرن راعيها،

---

(1) تاريخ دمشق 61: 43. وفي التلمود: 169. تفاصيل قصة العصا. وهي لاحظ موشيه (موسى) أثناء إقامته عند رعويل المديني (شعيب) وجود عصا في حديقته، فأخذها لتكون بيده عصا للمشي، وهي عصا يوسف ذاتها، أخذها رعوئيل معه، عندما هرب من مصر، وكانت العصا نفسها أخذها آدام، عندما خرج من جنة عدن، وكان نوح قد ورثها، فأعطاها لابنه شيم (سام)، واتناقلت في أيدي نسله، إلاأى أن صار في ملك إبرهام (إبراهيم) فلما ترك كل ممتلكاته الدنيوية ليصحاق (لإسحاق)، كانت هذه العصا من بينها، ولما هرب يعقوب إلى بلاد النهرين (حران)، حمل هذه العصا معه، ثمَّ لما اقام بمصر أعطاها ليوسف ابنه. وأساطير اليهود: 229.

(2) الكشف والبيان 6: 244.

وهو الذي يسوقها، وقد طالت غيبتي عن أمي وخالتي وأخي هارون، وأختي، فإنهم في مملكة فرعون، فقال شعيب: لو دعوت الله أن يرد بصري لأراك به، فإني عميت من كثرة البكاء على قومي، فقال موسى: ادع أنت، وأنا أؤمن على دعائك، فقام شعيب، وبسط يديه وقال: يا رب، إبراهيم الخليل، وإسماعيل الصفي، وإسحاق الذبيح، ويعقوب الكظيم، ويوسف الصديق رد قوتي وبصري.

فأمن موسى على دعائه، وإذا جبريل، قد وافاه، ومعه شربة من شراب الجنَّة، فناوله إياها، فلماً شربها، رد الله عليه بصره وقوته[1]، فبادر إلى موسى، وتعانقا، وقال: يا موسى، إني أكره أن أمنعك عن أمك وخالتك وأخيك، غير أن ابنتي هذه نعم الصاحبة لك، فكن بها شفيقاً بمنزلة الوالد، ثمَّ أقبل على ابنته صفراء، وقال لها: يا بنية، اصحبيه، ولا تخالفيه، فنعم الصاحب هو لك، فإنه لا يريد لك إلا المصالح، ثمَّ إنه، دعا لهما وخرج، وشيعهما بجماعة من أهل مدين[2].

ثم سار موسى بأهله، وغنمه بين يديه، فلمَّا خرج من مِدْين دعا لصحرائها ومائها بالبركة، فماء هذه البئر يزداد إلى يوم القيامة، وسار يريد أرض مصر، [وأكبر همه، طلب أخيه هارون، وأخته مريم، وهما يومئذٍ، بأرض مصر في مملكة فرعون، وليس لموسى هم أكبر منهما، والاجتماع جميعاً؛ للخروج من أرض مصر، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، ولا بمعالمها، غير أنه يؤم الغرب، ويدع الشرق، ويرى أنه الوجه إلى أرض مصر][3]، فلم يزل يجد في مسيره، حتى بلغ جانب وادي الطور في عشيةٍ شديدة البرد، وجاء الليل والرياح تهب، فأنزل موسى أهله وولده، وضرب خيمة لهم، على شفير الوادي، وأدخل أهله فيها، وهطلت السماء بالمطر والثلج، وكانت امرأته حاملاً، فأخذها الطلق في وقتها[4].

وكان موسى قد جمع من الحطب اليابس، وأراد أن يوقد، وكان معه زناد وقداحة،

(1) هو أعمى كما سبق. المستدرك على الصحيحين 2: 620.

(2) تاريخ دمشق 61: 42. أساطير اليهود: 252.

(3) تاريخ دمشق 61: 44.

(4) في الكشف والبيان الكشف 6: 239. قال وهب بن مُنبِّه:. و«حدثنا المحاربي، عن عبد الرحمن بن سليمان العبسي، عن إدريس بن سنانٍ، عن جده وهب بن مُنبِّه، قال: كان على موسى يوم ناجى ربه عند الشجرة جبة من صوفٍ، وتبان من صوفٍ، وقلنسوة من صوفٍ». مصنف ابن أبي شيبة 7: 185. و«حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا أبي، عن جده، عن ثور بن يزيد؛ قال: قال وهب بن مُنبِّه:. المجالسة وجواهر العلم 7: 212.

فأخرجهما، وضرب واحدةً بالأخرى، فلم يقدر، فاجتهد فلم يكن ذلك، فغضب، ورمى بهما[1]، وخرج من الخيمة، وهو يردِّد مع نفسه: من أين أحل على النار؟، فاغتم لذلك، فإذا هو بنارٍ تلوح من بعيد[2].

قال: فانطلق يسير حتى وقف منها قريبًا، فإذا هو بنارٍ عظيمةٍ، تفور من فرع شجرةٍ خضراء، شديدة الخَضِرة[3]، لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرمًا، ولا تزداد الشجرة على شدَّة الحريق إلا خضرةً وحسنًا، فوقف ينظر؛ لا يدري علام يضع أمرها؟ إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق، وأوقد إليها، فاحترقت، فإنه إنما يمنع النار شدَّة خضرتها، وكثرة مائها، وكثافة ورقها، وعظم جذعها، فوضع أمرها على هذا.

فوقف، وهو يطمع أن يسقط منها شيء يقتبسه، فلمَّا طال ذلك عليه، أهوى إليها بضغثٍ[4] في يده؛ وهو يريد أن يقتبس من لهبها، فلمَّا فعل ذلك موسى مالت نحوه؛ كأنها تريده، فاستأخر عنها وهاب، ثمَّ عاد فطاف بها، فلم تزل تطمعه ويطمع فيها، ولم يكن شيء بأوشك من خمودها، فاشتدَّ عند ذلك عجبه، وفكر موسى في أمرها، وقال: هي نار ممتنعة، لا يقتبس منها، ولكنها تتضرم في جوف شجرةٍ فلا تحرقها، ثمَّ خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عينٍ.

فلمَّا رأى ذلك موسى قال: إن لهذه النار لشأنًا، ثمَّ وضع أمرها على أنها مأمورة، أو مصنوعة، لا يدري من أمرها، ولا بم أمرت؟ ولا من صنعها، ولا لم صنعت؟ فوقف متحيرًا، لا يدري أيرجع أم يقيم؟.

فبينما هو على ذلك إذ رمى طرفه نحو فرعها، فإذا هو أشدُّ ما كان خضرةً، وإذا الخَضِرة

---

(1) عن وهب بن مُنبِّه، قال: خرج موسى، ومعه أهله يؤم الشام، وأكبر همه، طلب أخيه هارون، وأخته مريم، وهما يومئذ، بأرض مصر في مملكة فرعون، وليس لموسى هم أكبر منهما، والاجتماع جميعاً؛ للخروج من أرض مصر، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، ولا بمعالمها، غير أنه يؤم الغرب، ويدع الشرق، ويرى أنه الوجه إلى أرض مصر، فلم يزل كذلك، حتى ألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن، في البقعة المباركة، في عشية شاتية شديدة البرد، ذات رياح ومطر وجليد، فنزل إلى جانب الطور، حين أمسى، وجنه الليل، واشتدَّ عليه البرد والظلمة، فعمد إلى زنده، فقدحها، فلم تور شيئاً، وعسر عليه، مما أصابه من النداوة، وذلك من تقدير الله، ثمَّ أعاد الثانية، فلم تور شيئاً، ولم تزد إلا نداوةً. قال: وكان عهده أن زنده لا يقدح بها، إلا مرة، حتى تنور فيها النار، فلما آيس منه، تركه. تاريخ دمشق 61: 44.

(2) عوسجة وحولها شجر زيتون. تفسير مقاتل 2: 496. وجامع البيان 18: 276. وهي الحرشة المشتعلة. أساطير اليهود 2: 2237. قال وهب بن مُنبِّه: وقف، وهو يطمع أن يسقط منها شيء، فيقتبسه، فلما طال ذلك، أهوى إليها بضغث في يده، وهو يريد أن يقتبس من لهبها، فلما فعل ذلك، مالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر عنها، ثمَّ عاد، فطاف بها، فنودي: يا موسى، { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } سورة طه: 12. بحر العلوم 2: 390.

(3) بحر العلوم 2: 390. وهي عوسجة وحولها شجر زيتون. تفسير مقاتل 2: 496. وجامع البيان 18: 276. وهي الحرشة المشتعلة. أساطير اليهود 2: 2237.

(4) الضغث ما ملأ الكفَّ من النبات. لسان العرب: ضغث.

ساطعة في السماء، ينظر إليه، يغشى الظلام، ثمَّ لم تزل الخَضِرة تنور وتصفر وتبيض، حتى صارت نورًا ساطعًا، عمودًا بين السماء والأرض عليه مثل شعاع الشمس تكل دونه الأبصار؛ كلما نظر إليه يكاد يخطف بصره، فعند ذلك اشتدَّ خوفه وحزنه، فرد يده على عينيه، ولصق بالأرض، وسمع الخفق والوجس، إلا أنه يسمع حينئذٍ شيئًا لم يسمع السامعون بمثله عظمًا.

فلمَّا بلغ موسى الكرب، واشتدَّ عليه الهول، وكاد أن يخالط في عقله في شدَّة الخوف لمَّا يسمع ويرى، نودي من الشجرة، فقيل: يا موسى فأجاب سريعًا، وما يدري من دعاه؟ وما كان سرعة إجابته إلا استئناسًا بالأنس، فقال: لبيك، مرارًا إني أسمع صوتك، وأوجس وجسك، ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ فقال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك فلمَّا سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه جل وعز، فأيقن به، فقال: كذلك أنت يا إلهي، فكلامك أسمع أم رسولك؟ قال بل أنا الذي أكلمك، فادن مني[1].

فجمع موسى يديه في العصا، ثمَّ تحامل، حتى استقلَّ قائمًا، فرعدت فرائصه، حتى اختلفت واضطربت رجلاه، وانقطع لسانه، وانكسر قلبه، ولم يبق منه عظم يحمل آخر، فهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجري فيه، ثمَّ زحف على ذلك، وهو مرعوب، حتى وقف قريبًا من الشجرة التي نودي منها، فقال له الرَّبُّ تبارك وتعالى: { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ } قال: وما تصنع بها؟ ولا أحد أعلم بذلك منه قال موسى: { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى } سورة طه: 17- 18. وكان لموسى في العصا مآرب[2]؛ كانت لها شعبتان ومحجن تحت الشعبتين، قال له الرب تبارك وتعالى: ألقها يا موسى فظنَّ موسى أنه يقول: ارفضها فألقاها على وجه الرفض.

ثم حانت منه نظرة، فإذا بأعظم ثعبانٍ نظر إليه الناظرون، يدبُّ يلتمس؛ كأنه يبتغي شيئًا يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل، فيقتلعها، ويطعن بأنيابٍ من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة، فتجتثها، عيناه توقدان نارًا، وقد عاد المحجن عرفًا فيه شعر مثل النيازك، وعاد الشعبتان فمًا مثل القليب الواسع، وفيه أضراس وأنياب لهما صريف فلمَّا عاين ذلك موسى { وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ } سورة النمل: 10. فذهب حتى أمعن، فرأى أنه قد أعجز الحيَّة.

ثم ذكر ربه، فوقف استحياءً منه، ثمَّ نودي: يا موسى، إلي ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف، { قَالَ خُذْهَا } بيمينك { وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } سورة طه: 21. وعلى موسى حينئذٍ مدرعة من صوفٍ،[3] قد خلها بخلالٍ من عيدانٍ، فلماَّ أمره بأخذها، ثنى طرف

---

(1) العهد القديم، سفر الخروج 3: 1 - 4. وفي أساطير اليهود 2: 285. «اخلع نعليك، فإن المكان الذي تقف فيه هو أرض مقدسة». تأويل مختلف الحديث: 398. وفي المجالسة وجواهر العلم 4: 293.

(2) أساطير اليهود 2: 250.

(3) مصنف ابن أبي شيبة 7: 185. والكشف والبيان 6: 239. والمجالسة وجواهر العلم 7: 212.

المدرعة على يده، فقال له ملك: أورأيت يا موسى لو أذن لنا الله لَّما تحاذر، أكانت المدرعة تغني عنك شيئًا؟ قال: لا ولكني ضعيف، ومن ضعفٍ خلقت فكشف عن يده، ثمَّ وضعها في الحيَّة، حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثمَّ قبض، فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين، فقال له الله: ادنُ. فلم يزل يدنيه، حتى أسند ظهره بجذع الشجرة، فاستقر، وذهب عنه الرعدة، وجمع يديه في العصا، وخضع برأسه وعنقه.

ثم قال له: إني قد أقمتك اليوم مقامًا، لا ينبغي لبشرٍ بعدك أن يقوم مقامك؛ أدنيتك وقربتك حتى سمعت كلامي، وكنت بأقرب الأمكنة مني، فانطلق برسالتي، فإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي ونصري، وإني قد ألبستك جنةً من سلطاني، تستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جنودي، بعثتك إلى خلقٍ ضعيفٍ من خلقي؛ بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي، وعبد دوني، وزعم أنه لا يعرفني.

وإني أقسم بعزتي، لولا العذر والحجة اللذان وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبارٍ، يغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار؛ فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علي وسقط من عيني ووسعه حلمي، واستغنيت بما عندي، وحق لي أني أنا الغني؛ لا غني غيري، فبلغه رسالاتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي، وإخلاص اسمي، وذكره بأيامي، وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ } سورة طه: 44. أخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة.

ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا؛ فإن ناصيته بيدي، ليس يطرف، ولا ينطق، ولا يتنفس إلا بإذني، قل له: أجب ربك؛ فإنه واسع المغفرة، وإنه قد أمهلك أربعمائة سنةٍ، وفي كلها أنت مبارز لمحاربته، تشبه وتمثل به، وتصد عباده عن سبيله، وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، لم تسقم، ولم تهرم، ولم تفتقر، ولم تغلب، ولو شاء أن يعجل ذلك لك، أو يسلبكه فعل، ولكنه ذو أناةٍ وحلمٍ عظيمٍ وجاهده بنفسك وأخيك، وأنتما محتسبان لجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنودٍ لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف، الذي قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ولا قليل مني تغلب الفئة الكثيرة بإذني.

ولا يعجبكما زينته، ولا ما مُتِّع به، ولا تمدَّا إلى ذلك أعينكما؛ فإنها زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينةٍ يعلم فرعون حين ينظر إليها، أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما، فعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك، وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، فإني لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم علي؛ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفورًا، لم تكلّمه الدنيا، ولم يطفه الهوى.

واعلم أنه لم يتزيَّن لي العباد بزينةٍ، هي أبلغ من الزهد في الدنيا؛ فإنها زينة المتقين عليهم منها لباس، يعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقا، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنه من أهان لي وليا، أو أخافه، فقد بارزني بالمحاربة وبادأني، وعرض بنفسه، ودعاني إليها، فأنا أسرع شيءٍ إلى نصرة أوليائي، أيظن الذي يحاربني أن يقوم لي؟ أويظن الذي يغازيني أن يعجزني؟ أويظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني؟ وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة؛ لا أكل نصرتهم إلى غيري؟[1].

فقال: { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي }[2]، فأوحى الله: { قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى } سورة طه: 25 - 32، 36[3].

ثم ذكر موسى ما كان منه، من قتل النفس، فقال: { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } سورة القصص: 33. ثم ذكر نعمته عليه فقال: { وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى } حين أنجيناك من اليم، وخلعناك من يدي فرعون ، فلم يقتلك بالقبطي، { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، { فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ }، ثمَّ { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } سورة طه: 37 - 43. لموسى وهارون.

[قال: إن موسى قال: يا ربِّ، بمَ اتَّخذتني كليمًا؟. طَلَب العمل الذي أسعده الله به ليكثر منه، فقال الله تعالى له: أتذكر إذ ندَّ من غنمك جدي، فاتبعته أكثر النهار وأتعبك، ثمَّ أخذته وقبلته وضممته إلى صدرك، وقلت له: أتعبتني وأتعبت نفسك، ولم تغضب عليه، من أجل ذلك اتَّخذتك كليماً][4].

وكان موسى في المخاطبة مع ربه، وصفراء ابنة شعيب، قد اشتدَّ الطلق بها، فسمع أنينها سكان ذلك الوادي من الجن، وكبيرهم يسمى الشماخ بن الصميدع بن عمرو بن صفان الجني، فقال لهم: هذه ابنة شعيب امرأة موسى بن عمران بهذه الشدَّة، وأنتم عنها غافلون، فأتوا إليها، وأوقدوا عندها النار، وجلسوا عندها وحولها، حتى ولدت ثمَّ انصرفوا عنها.

موسى في مصر

ولمَّا بعث الله موسى، وعزم على المسير إلى مصر، ذكر مولوداً له أراد أن يختنه، فأمر الله ملكاً

---

(1) الزهد لأحمد بن حنبل: 57. وفي تفسير ابن أبي حاتم 9: 2843.

(2) «قال موسى: لست بالرجل الفصيح، ولا أرى كيف يمكن للكلمات أن تنفع في موقف كهذا». أساطير اليهود 2: 251. وفي التلمود: 183. فقال موشيه للرب: رحماك يا رب، إني لست أحسن الكلام.

(3) تاريخ دمشق 61: 48.

(4) الجامع لإحكام القرآن 6: 18.

فأتاه به من عند أمه، فأخذ موسى حجرين حادين فكسرهما، وختن بهما ابنه، وذكر موسى اسم الله، حتى انقطع الدم عنه، وأخذه الملك حتى وضعه بين يدي أمه[1]، وقيض الله لصفراء بنت شعيب راعياً[2] من أرض مِدْين، فعرفها، وحملها إلى شعيب، فلم تزل عنده حتى فرغ موسى من أمر فرعون، وعاد إلى بلاد التيه، فبلغ ذلك شعيباً، فردَّ عيه امرأته.

مبعث هارون

ثمَّ سار موسى إلى الطور حتى أتى العمران، فأوحى الله إلى هارون، يبشره بقدوم أخيه موسى، وهو يومئذ وزير من وزراء فرعون، لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً على مرتبة أبيه عمران، فبينما هارون قائم، إذ أتاه آتٍ في منامه، ومعه شراب أبيض في كأس من الياقوت، فقال له: يا هارون، اشرب هذه الشربة، فإنها تحفة البشارة، وهذا أخوك موسى، قد قدم من أرض مِدْين رسولاً، وأنت شريكه في الرسالة إلى فرعون.

فانتبه هارون خائفاً، وظن أنه من الشيطان، وعاد إلى النوم، فعاوده القائل ثلاث مرات، ثمَّ قال له: قم إلى أخيك، فقام فزعاً، وإذا قد وفاه جبريل، وقال: لا تخف يا هارون، فإني جبريل الأمين، ثمَّ حمله جبريل حتى انتهى به إلى شاطئ النيل، وموسى من الجانب الآخر من النيل، ثمَّ التقيا وتعانقا[3]، وبشره بالشركة في الرسالة. ثمَّ أقبلا يريدان أمهما وجبريل معهما، حتى انتهيا إلى باب أمهما، فقال هارون: دعني أقرع الباب، فإنها تعرف قرعي، ولا تعرف قرعك، وربما فزعت.

قال: فتقدَّم هارون وقرع الباب، وكانت أمه قائمةً تصلي، فأنكرت ذلك، ثمَّ قالت: هو قرع هارون، فقامت من محرابها حتى دنت من الباب، وقالت من هذا؟، فما تمالك موسى حين سمع صوتها حتى قال: أنا ولدك موسى، وهذا أخي هارون، فعجلت وفتحت الباب، فلمَّا نظرت إليه صاحت صيحةً عظيمة، ووقعت مغشياً عليها، وبقيت شاخصةً، فقال جبريل: لا يفيقها من غشيتها إلا دموعك يا موسى، فعند ذلك وضع موسى وجهه على وجهها، ولم يزل يبكي عليها حتى أفاقت.

قال: ثمَّ دخلوا الدار، وذكر لها موسى كيف خرج إلى مدين، وكيف رعى الغنم لشعيب، وكيف تزوج ابنته، وكيف صيره الله رسولًا، فخرَّت أمه ساجدة لله شكراً، ثمَّ حمل جبريل هارون من عند أمه، ومن عند أخيه موسى إلى عند رأس فرعون، كما كان، فلمَّا كان من الغد خرج موسى

---

(1) وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوانةً، وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه. فقالت: إنك عريس دمٍ لي. فانفك عنه حينئذٍ، قالت: عريس دمٍ من أجل الختان. العهد القديم، سفر الخروج 4: 24 – 26.

(2) في قصص الأنبياء للثعلبي: 162. «قالوا».

(3) «وقال الرب لهارون: اذهب إلى البرية لاستقبال موسى. فذهب والتقاه في جبل الله وقبله. فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذي أرسله، وبكلِّ الآيات التي أوصاه بها». العهد القديم، سفر الخروج 4: 27 – 29. وأساطير اليهود 2: 254.

متنكراً، فجعل ينظر إلى ما أحدثه فرعون بأرض مصر، من البنيان، ثمَّ رجع إلى أمه.

فلماً كان في الليلة الثانية، خرج موسى نصف الليل إلى قصر فرعون، فلمّا وصل إلى بابه، نظر إلى الحجاب والأسود والجنود كلهم نيام. فتقدَّم موسى، وقرع باب فرعون بعصاه فانفتح، ودخل موسى إلى قصره، وللقصر سبعة أبواب، فقرع كل باب منها بعصاه، وهو يقول: باسم الله الفتاح العليم، حتى دخل إلى صحن الدار، ولم يزل يتقدم حتى صار إلى قبضة فرعون، ولها أربعة أبواب مشبكة بصفائح الذهب، فقرع باباً منها، فانفتح ودخل، وإذا هو بفرعون نائم، وهارون قاعد عند رأسه على كرسيه، فلمّا رآه هارون قام إليه، وأخرجه من القبة، وقال: يا أخي عجلت في هذا الوقت، فانصرف الآن، فإني أدبر لك حتى نلتقي به في غير هذا الوقت، فخرج موسى، وتغلقت الأبواب من ورائه بإذن الله، وذهب إلى أمه، وأخبرها بذلك.

فلماً كان من الغد، صار موسى إلى باب فرعون، فلم يزل على ذلك أياماً حتى دخل على فرعون وزير من وزرائه، فقال أيها الملك: إني رأيت اليوم على بابك رجلاً أنكرته[1]، فسألت عنه فقيل: هذا موسى بن عمران، فعند ذلك تغير وجه فرعون، حين سمع بذكر موسى، وقال: ما صفته؟، فقال: هو رجل طويل أسمر، حسن اللون، حديد النظر، كث اللحية، عليه جبة صوف، ومدرعة صوف، وفي يده عصا حمراء، وفي رجليه نعلان مخصوفان.

فقال فرعون لهامان: ألك به معرفة؟، قال: لا، قال: فاخرج إليه، وسله عن اسمه، ونسبه، فخرج إليه، فعرفه ولم ينكره، فقال لأعوانه: خذوا هذا الغلام، واحبسوه حتى يأتيكم أمر الملك، ففعلوا ذلك، وانصرف هامان، فاخبر فرعون بأنه موسى، وأنه قد أمر بحبسه، فلم يتكلّم فرعون حتى أتت ساعة، ثمَّ التفت إلى هارون، وقال: يا هارون، موسى أخوك قدم من أرض مِدْين فلم تخبرني؟، قال: أيها الملك، أردت أن أخبرك، فخفت غضبك، وهو الآن في حبسك، أحضره إليك وسله فيما ورد به إلى مصر.

موسى وفرعون

ودعا فرعون بالفراشين، وأمرهم بتزيين قصره، وقبته الأرجوانية، وكان فيها ثلاثمائة وستون سلسلة من فضة، في كل سلسلة قنديل من الذهب، وتاج فرعون معلق بسلسلة من ذهب في رأس القبة، وأمر ففرش سريره بأنواع الفرش، ثمَّ قعد عليه، والتاج على رأسه، وهارون واقف عن يمينه، في يده عمود من ذهب، والوزراء قيام عن يمينه وشماله، فلمّا فرغ من زينته، أرسل إلى موسى فأحضره، وكان قد شاع خبره في البلد، وخافت عليه بنو إسرائيل، ولم يشكوا في أنه يقتله.

فلماً صار موسى إلى باب فرعون، قال: اللهم، إني أعوذ بك من شره وأستعيذك عليه، فاكفني أمره وشره، إنك على كل شيء قدير. قال وهب: إن موسى، لمَّا دخل على فرعون، كان

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 242، وقصص الأنبياء للثعلبي: 163.

أمامه سلطان الله، وعن يمينه ملائكة الله، وعن يساره ملائكة الله، فلمَّا رأى ذلك سرير فرعون، اهتز حتى رجف عليه فرعون، وتغير لونه، وجعل يقطر منه البول، ولم يستطع النظر إلى موسى، وذلك من قدرة الله أن اهتز سريره، والله يفعل ما يشاء[1].

ثم دخل حتى وقف بين يديه، فلمَّا نظر إليه فرعون، عرفه حقَّ المعرفة، لكنه قال له: من أنت؟، قال: أنا عبد الله ورسوله، وكليمه، قال فرعون: إنك عبد فرعون، وابن عبده وابن أمته، قال موسى: إن الله أعز من أن يكون له ند، قال فرعون : وأنت رسول إلى من؟، قال: إليك، والى جميع أهل مصر، قال: فيم إذن أرسلت؟، قال: ليقولوا لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وإني عبده ورسوله، قال: فما حجتك؟، فإن لكلِّ داعٍ بينة.

قال: إن أتيتك ببينةٍ واحدة، تؤمن بي؟، قال: نعم، فقال موسى: يا هارون، انزل عن الكرسي، وبلغ الرسالة، فنزل، وقال: يا فرعون، { إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ } بالبنيان، ونقل الأحجار { قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ }، فتحير فرعون ، لأن هارون عنده، شهيد له على أخيه لاختصاصه، وقربه منه، { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } سورة طه: 47، 49 – 50[2].

وكان هارون، كلما تكلَّم أخوه موسى، صدقه فيه، وأعانه عليه، فغضب فرعون على هارون، وقال: يا هامان اخلع ما على هارون من لباس؛ حتى يذوق الذل والهوان، وكان عليه ثياب فاخرة، وحلي كثيرة، فنزعها هامان عن هارون جميعها، حتى بقى بالسراويل، فأخذ هامان جميع ذلك، ثمَّ قال فرعون: يا هارون، إنك مقيم عندي، فمن أين لك الرسالة مع أخيك موسى؟، فقال هارون: إن الله جعلني رسولًا مع أخي موسى إليك، وإلى أهل مصر كلهم.

ثم إن موسى بادر، فنزع المدرعة وألبسها إياه، وبقى موسى بجبةٍ، ينظر إلى هارون، فلمَّا مس جلد هارون خشونة المدرعة، اقشعر جلده، فنزل جبريل، وحياهما عن ربهما، وقال لموسى: إن أخاك هارون قد حزن على لباس فرعون، وهذا قميص من الله كونه، فكان بإذنه، فنظر موسى فإذا هو قميص من لؤلؤة فارعة على هارون.

فلمَّا نظر إليه فرعون، عجب منه، وقال: من كساك هذا القميص، ولم تبرح من عندي؟، قال هارون: كسانيه ربي، قال فرعون : فتقدَّم إلي، فتقدَّم إليه، فجعل ينظر في القميص، وقد كبر من نوره وضوءه، ولم يقدر على لمسه، فجمع فرعون تجار بلد مصر؛ ليقوموا هذا القميص، فجعل القوم ينظرون إلى قميصٍ، ليس له سدى، ولا لحمة، ولا خياطة، يسطع من النور، فقالوا: أيها

---

(1) تاريخ دمشق 61: 61.

(2) «وما اسم إلهكما؟، وبمن تتكوَّن قوته؟، ومن أين تأتي قدرته؟، ...». أساطير اليهود 2: 2257. وهو في التلمود: 185. وقبله أن موشيه وهارون كان واقفين قرب بوابات قصر فرعون، ظنهما الحراس من بعض الوافدين لتقديم الولاء، فأدخلوهما.

الملك، إنا لا نعرف هذا القميص، ولا رأينا مثله، فكيف نقومه؟ !، وأكثروا عليه، فقال لهم: قوموا زراً من أزراره. فقوموه بخراج أرض مصر عشر سنين، وخراج مصر يومئذٍ، يملأ سبعين بيتاً ذهباً وفضة.

فأقبل فرعون على موسى، وقال: { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ . قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }.

وكان فرعون متكئاً، فاستوى جالساً، وقال: { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ } يعني إلى ما يقول موسى، قال موسى: { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } سورة الشعراء: 18 - 31[1].

انقلاب عصا موسى

فبينما هما في المخاطبة والمحاورة، وإذا بالعصا قد اضطربت في كف موسى، فناداه جبريل: أطلقها يا نبي الله، { فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } سورة طه: 20. ثعبان مبين، أعظم ثعبان، نظر إليه الناظرون، أسود مدلهم، يدب على قوائم غلاظ، فصارت في مثل بدن البختي العظيم، إلا أنه أطول منه بدناً وعنقاً ومشفراً.

وإن له ذنباً، يقوم عليه، فيشرف على حيطان المدينة برأسه وعنقه، ثمَّ يقع على الأرض، فلا يلوي على شئ إلا حطمه، ويحش بقوائمه الصخر والرخام، والحيطان والبيوت، حين يرمي بعضها على بعض، فما مرَّ بشيء إلا حطمه بكلكله.

يتنفس في البيوت والجزائر، فيشتعل كل شئ فيه ناراً، وله عينان تتوقدان ناراً، ومنخران يخرج منهما الدخان، وقد صار له المحجن عرفاً، علو ظهره، وشعره أسود غليظ مثل الرماح الطوال، لا يصيب منه شيء إلا قطعه، وقد جعلت الشعبتان له فماً، مثل القليب الواسع، يخرج منه رياح السموم، لا تصيب أحداً منهم نفخة، إلا صار أسود، مثل الليل الدامس.

في فيه أضراس وأنياب، في أعلى شدقه اثنان وسبعون ضرساً، وفي أسفله مثل ذلك، له صرير، يصم من سمعه، ما يسمع الرجل كلام جليسه، إذا صرت أضراسه، بعضها على بعض، وإنه ليهدر مثل البعير، يتزبد شدقاه زبداً أبيض، يتطاير لعابه، فلا يقع منه قطرة على أحد إلا

(1) الحوار باختلاف في التلمود: 186.

اشتعل برصاً.

فأدخل الثعبان أحد شدقيه تحت سرير فرعون، والآخر فوقه، وفرعون على سريره، فسلح في ثيابه، فلمَّا عاين الناس ذلك من أمر الثعبان، وكان قد اجتمع أهل المدينة بأسرها، فلمَّا انهزموا، ولوا ذاهبين، وتزاحموا في الأبواب وتضاغطوا، وضاقت عليهم، فوطئ بعضهم بعضاً، فمات يومئذ خمسة وعشرون ألفاً.

وقام فرعون فوقع عن سريره، وكان الله قد أملأه، حتى صار آيةً، كان يمكث أربعين يوماً، لا يخرج من بطنه شيء، ولا يحدث إلا في كل أربعين يوماً مرة، فلمَّا كان يومئذٍ، أحدث في ثيابه، حتى علم بذلك جلساؤه، وكان يأكل ويشرب جاهداً، لا يبصق، ولا يتمخط، ولا يتنحنح، ولا يسعل، ولا تذرف عيناه، ولا يمرض، ولا يصدع، ولا يسقم، ولا يهرم، ولا يفتقر، شاب السن، والله يملي له أربع مائة سنة.

فلمَّا كان يوم الثعبان، وعاين ما عاين، أحدث وامتخط وبصق، وأخذه الصداع والمرض، واختلف بطنه أربعين مرة، فلم يزل بعد ذلك يختلف حتى مات، فلمَّا عاين من أمر موسى والثعبان، خاف أن يدخل قومه من ذلك الرعب، مثل الذي دخله فيؤمنوا به][1].

وآسية (بنت مزاحم، زوجة فرعون) تنظر إلى ذلك، وهي متعجبة، ثمَّ أقبلت الحيَّة إلى القبة الأرجوانية التي فيها فرعون، فوضعت لحيها الأسفل تحت القبة، ولحيها الأعلى فوق القبة، ورفعت القبة ثمانين ذراعاً في الهواء، ثمَّ قالت: يا فرعون، وعزة ربي، لو أذن لين لابتلعتك مع قصورك، وأموالك، وجميع ما جمعت، فلمَّا نظر فرعون إلى ذلك، وثب عن سريره، وكان به عرج، فجعل يعدو بعرجته، وقد أخذت الحيَّة ذيل ثيابه، حتى رمى بنفسه خلف السرير، وجعل يقول: يا موسى، يا موسى، بحق التربية، وبحق الرضاع، وبحق آسية.

فلماً سمع موسى ذكر آسية، صاح بالحيَّة، وكان اسمها صافورا، فالتفتت إليه، وأقبلت نحوه كالكلب الذي يكون لصاحبه مستأنساً، فأدخل موسى يده في فيها، وقبض على لسانها، فإذا هي عصا كما كانت. فلماً نظر فرعون إلى ذلك رجع إلى موضعه، وقال: يا موسى، لقد تعلمت بعدي سحراً عظيًا، فقال موسى: يا فرعون أسحر هذا؟، ولا يفلح الساحرون !، قال فرعون: يا موسى، هل عندك غير هذا؟، قال: نعم، آية أخرى.

قال: ثمَّ أدخل يده في جيبه، ثمَّ أخرجها، وعليها نور شعاع كشعاع الشمس، بيضاء كالثلج[2]، فذلك قوله تعالى: { فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } سورة الشعراء: 33 - 37.

(1) تاريخ دمشق 61.

(2) «لها شعاع كشعاع الشمس، يغشى البصر من شدة بياضها». تفسير مقاتل 1: 406.

موسى والسحرة

فمشى فرعون بضعاً وعشرين ليلة، حتى كادت نفسه أن تخرج، ثمَّ استمسك و{ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } سورة الشعراء: 34 - 35 .أأقتله؟.

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } العبد الصالح، وكان اسمه، فيما يزعمون، حبرك: { أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } بعصاه ويده؟!. ثمَّ خوفهم عقاب الله، وحذرهم ما أصاب الأمم قبلهم، وقال: { يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} سورة غافر: 28، 29.

وقال الملا من قومه، وقد وهنهم من سلطان الله ما وهنهم: { أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } سورة الشعراء: 36 - 37. أي كاثره بالسحرة، لعلك أن تجد في السحرة من جاء بمثل ما جاء به، وقد كان موسى وهارون خرجا من عنده، حين أراهم من سلطان الله ما أراهم، وبعث فرعون في مملكته، فلم يترك في سلطانه ساحراً إلا أتي به.

فذكر لي، والله أعلم، أنه جمع له خمسة عشر ألف ساحر، فلمَّا اجتمعوا إليه، أمرهم أمره، فقال لهم: قد جاءنا ساحر، ما رأينا مثله قط، وإنكم إن غلبتموه، أكرمتكم وفضلتكم، وقربتكم على أهل مملكتي. قالوا: إن لنا ذلك عليك، إن غلبناه ؟!. قال: نعم. قالوا: فعد لنا موعداً، نجتمع نحن وهو.

فكان رءوس السحرة الذين جمع فرعون لموسى: ساتور، وعادور، وحطحط، ومصفى، أربعة، وهم الذين آمنوا، حين رأوا ما رأوا من سلطان الله، فآمنت السحرة جميعاً، وقالوا لفرعون حين توعدهم القتل والصلب: { لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ }. فبعث فرعون الى موسى: { فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى }، فجمع فرعون الناس لذلك الجمع، ثمَّ أمر السحرة فقال: { ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى }، فصف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه.

وخرج موسى، ومعه أخوه، يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه، ومعه أشراف أهل مملكته، وقد استكف له الناس، فقال موسى للسحرة حين جاءهم: { وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى }، فتراد السحره بينهم، وقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر. ثمَّ قالوا وأشار بعضهم الى بعض بتناج: { قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى }.

ثم قالوا: { إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى }، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثمَّ أبصار الناس بعد، ثمَّ ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي، يركب بعضها بعضا { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى }.

وقال: والله، إن كانت لعصياً في أيديهم، ولقد عادت حيات، وما تعدو عصاي هذه، أو كما حدث نفسه، فأوحى الله إليه: { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى }، وفرج عن موسى، فألقى عصاه من يده، فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي حيات، في عين فرعون، وأعين الناس، تسعى، فجعلت تلقفها، تبتلعها حية حية، حتى ما يرى في الوادي قليل، ولا كثير مما ألقوا.

ثم أخذها موسى، فإذا هي عصاه في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى }، لو كان هذا سحراً، ما غلبنا. فقال لهم فرعون، وأسف ورأى الغلبة البينة: {آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشدُّ عذابًا وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا } أي لن نؤثرك على الله، وعلى ما جاءنا من الحجج مع نبيه، فاصنع ما بدا لك، { إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } سورة طه: 58 – 73. ثمَّ صلبوا على سبعين جذعاً، بعد قطع الأيدي والأرجل، فرجع عدو الله مغلوباً ملعوناً، ثمَّ أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر[1].

الصرح الذي بناه فرعون

فعند ذلك أقبل فرعون على هامان وقال: { فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى } سورة غافر: 38[2]، فعندها جمع هامان خمسين ألف بناء وصانع، فلما عزموا على البناء، خرج فرعون في سادات قومه، ثمَّ أمرهم بالبناء، فأخذوا في ذلك، وأسرعوا، فكانوا يبنون بالليل والنهار لا يفترون، حتى ارتفع الصرح في الهواء ارتفاعاً، ما انتهى إليه أحد قط. فاشتدَّ ذلك على موسى وهارون؛ لأن بني إسرائيل كانوا معذبين في بنائه، فأوحى الله إلى موسى: لا تحزن، فإني سأبطل ما بناه فرعون، فلا تعجل، فلمّا فرغ من بنائه أمر الله جبريل، فلطم الصرح لطمةً، فإذا عاليه سافله، ومات من كان فيه من الفعلة، ممن كانوا على دين فرعون،

---

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 410.

(2) فكرة الوصول إلى الإله في السماء كانت عند النمرود، عن طريق صندوق ترفعه أربع نسور، مع فكرة قتل الإله رماه نمرود بسهم، وهنا الفكرة نفسها عن طريق بناء صرح، وقتل الإله أيضاً «فلما بني له الصرح، ارتقى فوقه، فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء، فردت إليه وهي متلطخة دماً، فقال: قد قتلت إله موسى». جامع البيان 19: 581.

والمؤمنون يزيدون ويجتمعون، إلى موسى وهارون[1].

الآيات التسع

الطوفان

عن وهب وكعب قالا: لَمَّا كان بعد هلاك الصرح جاءهم الطوفان، وهو أول ما جاءهم[2]، فدام عليهم ثمانية أيام بلياليها، لا يرون فيها شمساً، حتى امتلأت الأسواق والدور، وأخذت في الخراب، فخافوا الغرق والتجأوا إلى فرعون، فقال لهم: انصرفوا، فإني سأكشفها عنكم، فدعا فرعون موسى، وسأله أن يدعو لهم، ويدفع عنهم الطوفان؛ ليؤمن به هو وقومه، فطمع موسى في إيمانه، فدعا الله تعالى، فكشف عنهم الطوفان[3].

الجراد

قال وهب: فلَمَّا كشف الله تعالى عنهم الطوفان، ازدادوا كفراً، فبعث الله عليهم الجراد، تأكل أشجارهم وزروعهم، وثمارهم، وكل ما كان في بيوتهم من المتاع، حتى أكل الأبواب، فدام عليهم ثمانية أيام، ففزعوا إلى فرعون، فوعدهم بصرفه عنهم، وضمن لموسى إن دعا ربه بكشفه عنهم، أن يؤمن به، فدعا موسى ربه، فأرسل الله على الجراد ريحاً باردة، فقتل الجراد حتى لم يبق منه شيء، فلم يؤمنوا[4].

القُمَّل

فأرسل الله عليهم القُمَّل[5]، حتى أكل جميع ما في بيوتهم، وجميع ما كان على وجه الأرض، فضجوا إلى فرعون، فوعدهم بصرفه عنهم، ثمَّ دعا موسى ووعده بالإيمان إن صرف عنهم ذلك، فدعا موسى ربه، فصرف عنهم القُمَّل، وأماته جميعه.

الضفادع

ثم إنهم ازدادوا بعد ذلك كفراً، فأرسل الله عليهم الضفادع، وكانت عليهم أشدُّ من ذلك كله، لأنها كانت تقع في قدورهم وطعامهم وثيابهم وفرشهم، والضفادع لها رائحة كريهة، فبقوا على ذلك ثمانية أيام، ففزعوا إلى فرعون، فدعا موسى، وضمن له الإيمان إن كشفه عنهم، فدعا

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 170.

(2) هي العقوبات أو البلايا العشر التي نزلت على المصريين، وهي الطوفان، وتحويل ماء النيل دماً، والضفادع، والقُمَّل، وغزو الحيوانات المفترسة، ووباء يصيب قطعان الماشية، والدمامل، وتساقط الجليد، والظلمة الحالكة، وقتل الأولاد الأبكار. أساطير اليهود 2: 262. بزيادة غزو الحيوانات المفترسة.

(3) تاريخ دمشق 61: 72.

(4) تاريخ دمشق 61: 73.

(5) صغار الجراد (الدبى) جامع البيان 13: 60. أو دويبة تأكل السنابل. لسان العرب: قمل. وفي أساطير اليهود 2: 309 أنه الحشرات التي ملأت ثياب المصريين.

موسى ربه، فكشفه عنهم، بأن أماتها كلها، فأرسل عليهم مطراً قوياً جرفها كلها إلى البحر[1].

الماء دماً

ثم إنهم بعد ذلك لم يؤمنوا، وازدادوا كفراً فأرسل الله إلى موسى: {اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ سورة الشعراء: 63. يعني النيل، فضربه موسى بعصاه، فتحول في وقته دماً[2]، فاشتدَّ بآل فرعون العطش، وكادوا يهلكون، وكان آل فرعون، وآل إسرائيل يعمدان جميعاً إلى موضع واحد من بحر النيل، فإذا أخذ الإسرائيلي من البحر شيئاً يكون معه ماء، وإذا أخذ الفرعوني يكون معه دماً، ودام ذلك عليهم ثمانية أيام، ثمَّ أجهدهم العطش، فضجوا إلى فرعون، فسأل موسى، وضمن له الإيمان، فدعا موسى ربه في ذلك فكشفه الله عنهم؛ وذلك كله لطمع موسى في إيمان فرعون وقومه، ثمَّ إنهم لم يؤمنوا بعد كشف الرجز، ونكثوا في قولهم وازدادوا كفراً[3].

حزقيل مؤمن آل فرعون

وقال الملأ من قوم فرعون ما أخبر الله تعالى به عنهم، قال الله تعالى: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } سورة الأعراف: 127. وقال الله تعالى إخباراً عن فرعون: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }.

فلمّا عزم فرعون على قتل موسى، أقبل حزقيل على القوم، وكان خازن فرعون وزوج ماشطة بناته، فقال ما أخبر الله تعالى به عنه: { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }.

فخوفهم المؤمن[4]، وقال ما أخبر الله تعالى به عنه: { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }.

---

(1) قصة الضفادع في العهد القديم، سفر الخروج 8: 11 – 15. وهي مع قصة القُمَّل في التلمود: 170. وتاريخ دمشق 61: 74.

(2) «رفع موسى العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده، فتحول كل الماء الذي في النهر دمًا». العهد القديم، سفر الخروج 7: 20. والتلمود: 169.

(3) تاريخ دمشق 61: 75. والآيات التسع في أساطير اليهود: 263 – 276. وفي التلمود: 170 أنواع أخرى.

(4) مختلف في تعيينه، فهو ابن عم فرعون، أو اسمه جبريل، عن ابن إسحاق، جامع البيان 21: 376، أو هو حزقيل من أصحاب فرعون. قصص الأنبياء للثعلبي: 166.

فلمّا سمع فرعون كلامهم، غضب، وقال: كأنك ممن اتبع موسى، فارجع عن ذلك، وإلا عاقبتك بأنواع العذاب، فقال له حزقيل: { يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ }.

ثم قال: { وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }، ولحق بموسى وهارون، وفارق فرعون وقومه[1]، قال الله تعالى: { فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } سورة غافر: 26، 28 – 33، 38 – 45.

قتل الماشطة

قال كعب ووهب: كانت لبنات فرعون ماشطة مؤمنة، هي امرأة حزقيل المؤمن، وكانت إذا مشطت بناته، يوضع لها كرسي من ذهبٍ، وفي يدها مشط من ذهب، فبينما هي تمشط إحدى بناته، إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بإله الخلق. قالت ابنة فرعون: إنما ذلك أبي !. فقالت: ومن أبوك؟. إنما عنيت من كفر بإله موسى وهارون.

فقامت البنت حتى دخلت على أبيها فرعون، فأخبرته بذلك، فغضب فرعون، وأمر بإحضارها، وقال لها: ما هذا الذي قد بلغني عنك من قولك في إله موسى؟، فقالت صدقوا، وأنا مؤمنة بإله موسى وهارون، فاقض ما أنت قاضٍ. فأمر بأوتادٍ من حديد، وبطحت الماشطة، وشدت يداها، ورجلاها إلى الأوتاد، ثمَّ أوتي بأولادها، وقدم الأكبر، وقال لها: يا ماشطة، إن عدت إلى ديننا وإلا قتلناك وأولادك، فأبت أن تكفر بعد إيمانها، فذبحوا الأكبر على صدرها، فقالت: الحمد لله الذي ردَّ روحه إلى جنته، ثمَّ ذبح الثاني على صدرها، فقالت كذلك، ثمَّ أتى بالأصغر، فأنطقه الله، فقال: يا أماه، لا ترجعي إلى دين فرعون، فإن عذاب فرعون يفنى، وعذاب الله يبقى. فذبحوا الطفل على صدرها، ولم يعتبروا بقوله وكلامه.

ثم قال فرعون: عليَّ بالتنور، وكان قد اتّخذ تنوراً من نحاس، قوائمه من الحديد، وكان مجوَّفاً، فإذا غضب اللعين على أحد من الناس، أمر بإحمائه، وسجره بالنار، ثمَّ ألقى فيه من أراد قتله، فأمر به، فأُحمي وسُجر، ثمَّ أخذ الماشطة، وأولادها، وطرحهم في ذلك التنور، فاحترقوا، وطلب زوجها، فلم يجده[2].

---

(1) جامع البيان 21: 394.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 168.

قتل آسية بنت مزاحم

وكان فرعون مغموماً بقتل الماشطة، فلم يشعر إلا وآسية قد خرجت عليه، حاسرةً عن وجهها، فلمّا نظر إليها فرعون، فزع، وظن أن نائبةً نابتها، لأنه لم يعرف ذلك منها، فقالت له: يا ملعون، كم نصبر عليك، وأنت تقتل أولياء الله؟ !، حتى قتلت الماشطة، ولم تعرف حقها، يا ملعون، إلى كم تأكل رزق ربك، وتكفر به ولا تشكره، وكم ترى يا ملعون، من آيةٍ، ولا تعتبر؟ !.

ثم بادرت إلى عمود كان بين يديه من الذهب لتضربه، فصاح فرعون، فاجتمع إليه هامان ووزراؤه، فقال لهم: اعلموا أن موسى قد أفسد آسية علي، مع كرامتها لدي، وصارت عدوةً لي بعد طول الصحبة والمحبة، ولا أدري كيف وصل إليها سحره، ثمَّ دعا أمها، وقال لها: أتنصحين ابنتك؟، قالت: نعم، قال: فانصحيها، وداويها حتى تعود إلى طاعتي، وتترك هذا الجنون. فلمّا كلمتها أمها، لم تبال بقولها، وقالت لأمها: ارجعي إلى منزلك، فإني ما برزت إلا لأطلب الشهادة.

فلماً علم فرعون أنها لا ترجع، استشار هامان في قتلها، فقال: أيها الملك، إنها عدوة لك، وقد فسدت عليك، وإنك إن تركتهان أفسدت عليك دينك وقومك، فيجب أن تقتلها؛ ليعلم الكلُّ أنك إذا لم تبق عليها، مع صحبتك إياها، وأنك لم تتحاش فيها أحداً، فيكون في هذا زجر عظيم لغيرها.

فأمر فرعون بنزع ما كان على آسية من ثيابها وحليها، ودعا بأوتاد من حديد فأوقدها في يدها ورجليها وصدرها، حتى خرجت من صدرها، فهبط عليها جبريل، وبشرها بالجنَّة، وأن الله يزوجها بسيد ولد آدم محمد ﷺ، فقالت له: من أنت أيها البشير؟، فقال: أنا جبريل رسول رب العالمين، ثمَّ ناولها جبريل كأساً فيه شراب الجنَّة، فسقاها، وقبض ملك الموت روحها، ولم تتألم من ذلك؛ لكرامتها على الله[1].

حديث النيل وانقطاعه

ثم بعث الله الظلمة على أهل مصر ثلاثة أيام، فلم يعرفوا الليل من النهار، وانقطع عنهم النيل حتى أضر بهم العطش فضجوا إلى فرعون ، وقالوا قد هلكنا من العطش، فأمر فرعون بجميع جنوده، ثمَّ خرج بهم ليجري لهم النيل، فسار بهم على شاطئ النيل غير بعيد، ثمَّ أوقفهم كلهم، وانفرد عنهم حتى بعد بحيث لا يرونه، ثمَّ نزل من فرسه، ورفع يديه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي، إني علمت أنك إله السماوات والأرض، لا إله فيهما سواك، وأن حلمك هو الذي يحملني على أن أسألك ما ليس لي بحق، وأن الخلق خلقك، وقد علمت ما هم فيه من العطش، وأنت المتكفل بأرزاقهم.

---

(1) قصتها بشكل مختلف في جامع البيان 23: 500.

اللهم، إني أسألك أن يجري لي النيل، إنك على كلِّ شيء قدير، فلمَّا فرغ من كلامه، نظر إلى الماء في النيل ينصب فيه، فركب فرعون فرسه، وجعل يسير، والنيل يجري معه، فإذا وقف، وقف النيل معه، حتى جاء إلى قوم بمصر، فلمَّا رآه القوم سجدوا له، وازدادوا كفراً، وقالوا: هذا أتانا بالماء، وإن النيل في طاعته، فلماً علم موسى وأخوه هارون، اشتدَّ عليهم ذلك[1].

غرق فرعون

فعند ذلك أوحى الله إلى موسى، أنه قد اقترب أجل فرعون وهلاكه، هو وقومه، وأن الله ينصره على فرعون، ويورثه أرضه، فهبط جبريل في صورة آدمي، حسن اللباس، وأقبل حتى وقف بين يدي فرعون، فقال له فرعون: من أنت؟، فقال: أنا عبد من عبيد الملك، جئتك مستعدياً على عبد من عبيدي، مكنته من نعمتي، وأحسنت إليه كثيراً، فاستكبر وبغى، وجحد حقي، وتسمى باسمي، وادعى في جميع ما أنعمت به عليه أنه له، ولا منعم عليه، فقال فرعون: بئس ذلك من عبد !، فقال جبريل: فما جزاؤه عندك؟، قال: جزاؤه عندي أن يغرق في هذا اليم، فقال له جبريل: إني أسألك أن تكتب لي خطاً بذلك، فكتب له خطاً بذلك.

وأخذه جبريل، وخرج من عنده، حتى صار إلى موسى، فأخبره، فقال موسى: إن ربك يأمرك أن ترحل عن موضعك، فعند ذلك نادى موسى في بني إسرائيل، وأخبرهم بالرحيل، فارتحلوا، وهم يومئذ ستمائة ألف، كلهم من ولد يعقوب، فلماً فسمع فرعون بارتحال موسى وقومه، ونادى في جنوده، حتى اجتمعوا، وكانوا في الكثرة بحيث لا يحصون، وشاورهم في اتباع موسى، لأنه ظن أنه خرج هارباً منه، فلمَّا اجتمعوا سار بهم، حتى قرب من بني إسرائيل، فقال بنو إسرائيل: يا موسى، قد قرب منا العدو، ولحقنا، فقال موسى: { كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ }[2].

فقالوا يا موسى: قرب منا القوم، وليس بين أيدينا إلا البحر، ومن ورائنا السيف، وقد هلكنا[3]، فأوحى تعالى إلى موسى: { اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } سورة الشعراء: 62 - 63، وصار فيه اثنا عشر طريقاً للأسباط، لكلِّ سبط منهم طريق، يمرون فيه، ويتحدثون، ويرى بعضهم بعضاً، وموسى بين أيديهم، وهارون من ورائهم حتى عبروا البحر[4].

---

(1) بعد الآيات التسع التي كانت عقوبة لبني إسرائيل، «اكتنفت الظلمة البلد بأسره، ولثلاثة أيام، وثلاث ليالٍ، عجز الناس، حتى عن رؤية أيديهم أمامهم، وخلال هذه المدة، أهلك الله من كان عاصي القلب من بني إسرائيل، حتى لا يبتهج بذلك المصريون. التلمود: 170.

(2) التلمود: 172، 173.

(3) أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 18.

(4) مدَّ موشيه (موسى) عصاه على البحر، كما أمره الله، فانشق الماء، وعبر بنو إسرائيل، في وسط البحر الأحمر، على اليبس. التلمود: 174. الكشف والبيان 6: 255. وأساطير اليهود، دار الكتاب 3: 26. والإسرائيليات في تفسير الطبري: 145.

ووقفوا ينظرون إلى البحر، وإلى جنود فرعون، كيف يفعلون في أمرهم، فأقبل فرعون وهامان عن يمينه، ووزرائه وجنوده خلفه، ينظرون إلى البحر يابساً، وإلى تلك الطرق المنفسحة في الماء، فحدثت نفسه أن يسرع في تلك الطرق قبل الانحلال، حتى يلحق بموسى، فتقدّم ليعبر على فرسه، فتأخر فرسه ونفر، فهبط جبريل على رمكة في صورة آدمي[1]، فقال: أيها الملك، ما يمنعك من العبور، ثمّ تقدم جبريل إلى جنبه، فاشتم فرسه رائحة الرمكة، فتبعها الفرس، وتقدم جبريل، وتبعه فرعون وجنوده.

وجبريل يقول: أيها الملك، لا تعجل، وجعل ميكائيل يسوق الناس حتى لم يبق من قوم فرعون على الساحل أحد، فأخرج جبريل الصحيفة، فقال أيها الملك: أتعرف هذه الصحيفة؟، فلمّا فتحها علم أنه هالك، وجعل الطرفان ينظر بعضها إلى بعض، والناس يغرقون، وفرعون ناظر إليهم، فلمّا استيقن الموت قال: { آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }، فقال له: { آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } سورة يونس: 90 – 91.

ثم غرق القوم كلهم، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم كيف يغرقون، فذلك قوله: { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كان عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } سورة القصص: 40. ثمّ إن بني إسرائيل قالوا: إن فرعون لم يغرق، فأمر الله تعالى البحر، فألقاه على الساحل، وكان لشكهم في ذلك، لا لكفرهم، وكانوا يرون أن الله تعالى يحلم عنه[2].

فلمّا عبر موسى ببني إسرائيل البحر إلى الطور، فإذا هم في طريقهم بقوم، قد اتّخذوا أصناماً[3]، وقد نصبوها على كراسي لهم، وزينوها، فقال سفاؤهم: يا موسى، { اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } يعني عالمي زمانهم، حيث أخرجهم من مملكة فرعون، ونجاهم من خدمته، وحيث غرق فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم، ثمّ قال لهم موسى: ويلكم، استغفروا الله مما قلتم، وساروا، وفي قلوبهم حب الأصنام حتى قرب من الطور، فاستخلف أخاه هارون[4]، فذلك قوله: { اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ } سورة الأعراف: 138 – 140، 142.

السامري

وخرج موسى إلى البقعة المباركة التي كلمه الله فيها، حين بعثه إلى فرعون، وهو صائم

(1) أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 29.

(2) تاريخ دمشق 61: 81. «فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتًا على شاطئ البحر». العهد القديم، سفر الخروج 14: 30. وأساطير اليهود، دار الكتاب 3: 32، 34.

(3) أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 40.

(4) جامع البيان 13: 87.

متطهر، يطمع في أن يكلمه الله تعالى، وهو في ذلك يكثر التسبيح، والتقديس، فلمّا مضى إلى هناك، قال السامري لبني إسرائيل، وكان معهم زينة فرعون وحليه: إن هذه الحلي والزينة لا تصلح لكم، والله يرزقكم ما هو خير منها، فاحملوها إلي لاتّخذ لكم منها عجلاً، تعبدونه[1]، فحملوها إليه، فاتّخذ لهم عجلاً بذلك.

وكان معه قبضة من أثر حافر فرس جبريل، فطرحها في جوف ذلك، فصار له خوار، فقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم، وإله موسى؛ لقول الله: { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا }، فمال إليه كثير منهم، وامتنع آخرون، وخرجوا إلى هارون، وذكروا له ذلك.

فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، { وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } سورة طه: 89 - 91. فاغتم لذلك هارون، ولم يمكنه أن يغير عليهم بالسيف، خوفاً أن يقتتلوا، وموسى لا يعلم، فأوحى الله إلى موسى: { وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى . قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } سورة طه: 83 - 85.

ثم حمله جبريل إلى الموضع الذي كلمه ربه فيه حتى وقف، فذلك قوله تعالى: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} سورة مريم: 52. فسمع موسى في ذلك المكان صرير القلم[2]، حين يجري في الألواح، وكانت الألواح من الزمرد الأخضر[3].

***

قال وهب: إن في الألواح التي كتب الله لموسى التي قال الله تعالى: { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ } سورة الأعراف: 145. قال له: يا موسى، اعبدني، ولا تشرك معي شيئًا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض؛ فإنهم خلقي كلهم، فإذا أشرك بي غضبت، وإذا غضبت لعنت، وإن لعنتي تدرك الرابع من الولد، وإني إذا أطعت رضيت، فإذا رضيت باركت، والبركة مني تدرك الأمة بعد الأمة.

يا موسى، لا تحلف باسمي كاذبًا؛ فإني لا أزكي من حلف باسمي كاذبًا. يا موسى، وقر والديك[4]؛ فإنه من وقر والديه، مددت له في عمره، ووهبت له ولدًا، يبره، ومن عق والديه،

---

(1) كان المصريون اطلقوا بني إسرائيل بثروات عظيمة، وماشية وقطعان، وأمتعة نفسية، وأخذوا أواني من ذهب وفضة مما كانوا يظلمونهم. التلمود: 172.

(2) هو صريف القلم. وهو المستعمل مع الأقلام، أما الصرير، فهو صوت الباب. لسان العرب: صرف، صرر.

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 483.

(4) باختلاف طفيف في تفسير عبد الرزاق 2 : 101 . حدثنا عبد الرزاق، عن عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهبًا ، يقول في قوله تعالى: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء} سورة الأعراف: 145. قال: كتب له لا تشرك بي شيئًا من أهل السماء ، ولا من أهل الأرض ، فإن كل ذلك خلقي ، ولا تحلف باسمي كاذبًا ، فإن من حلف باسمي كاذبًا فإني لا أزكيه ، ووقر والديك.

قصرت له من عمره، ووهبت له ولدًا، يعقه. يا موسى، احفظ السبت؛ فإنه آخر يوم فرغت فيه من خلقي. يا موسى، لا تزن، ولا تسرق. يا موسى، لا تول وجهك عن عدوي. يا موسى، ولا تزن بامرأة جارك الذي يأمنك. يا موسى، لا تغلب جارك على ماله، ولا تخلفه على امرأته[1].

وإن هذه الكلمات العشر التي كتب الله لموسى في الألواح، مكتوبات في القرآن وذلك أن الله تعالى يقول: { مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } سورة المائدة: 72. وقال الله تعالى في الوالدين: { أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ } سورة لقمان: 14.

وقال في القاتل: { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } سورة النساء: 93. وقال في الحلف: { وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ } سورة البقرة: 224. وقال في الشهادة: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } سورة الإسراء: 36. وقال في الحسد: { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ } سورة النساء: 54.

وقال في الزنا: { وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } سورة الإسراء: 32. وقال في السرقة: { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } سورة المائدة: 38. وقال في حليلة الجار: { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ } سورة النساء: 24. وقال في التحاب بين الناس: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } سورة الحجرات: 10. وقال في الذبائح: { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ } سورة الأنعام: 121. وقال في السبت: { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } سورة البقرة: 65.

فمن عادى نعمة الله بحسده، وسخط أمره، وضاد قضاءه، فمعرفته في سجن مظلم، وسويداء قلبه، لا أدري أتبقى معه حتى يختم له بها، أم تسلب، فيموت كافرًا، عدواً لله، وإن تفضل الله عليه بأن يتركها عليه، وختم له بها، لا أدري متى ينجو من النار[2].

طلب موسى رؤية ربه

فلمّا سمع موسى صرير القلم، عند جريانه، حدثته نفسه برؤية ربه تعالى، فقال: { رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ }، فإنك أنت الحنان المنان، ذو الفضل والإحسان، فتفضل علي، ولا تحرمني النظر إلى وجهك الكريم، يا ذا الجلال والإكرام، فأوحى الله تعالى إليه: لقد سألتني شيئاً، لم يسأله أحد قبلك من خلقي، من الإنس، ولا من الجنّ، ولا من الملائكة، وهل تستطيع ذلك يا موسى؟، فإنه لا يراني أحد من خلقي، إلا مات صعقاً، فقال: يا رب، أن أراك وأموت أحب إلي من أن لا

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم 5: 1564. وهي في نوادر الأصول 4: 22. باختلاف طفيف.

(2) نوادر الأصول 4: 22. وقد كتب الرب بيده، الوصايا العشر على لوحين وأعطاهما موسى. أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 122.

أراك وأحيا، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى { لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي }. سورة: الأعراف: 143.

[قال وهب: لمَّا سأل موسى الرؤية، أرسل الله تعالى الضباب والصواعق والظلمة، والرعد والبرق، فأحاطت بالجبل الذي عليه موسى، وأمر الله تعالى ملائكة السماوات أن يعرضوا على موسى أربعة فراسخٍ، من كلِّ ناحية.

فمرَّت به ملائكة سماء الدنيا كثيراً، مثل البقر، تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس، بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد. ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى، فهبطوا عليه مثل الأسود، لهم لجب بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع، واقشعرت كل شعرة في جسده، فقال: ندمت على مسألتي، فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء، إن خرجت احترقت، وإن قعدت مت؟. فقال له حبر الملائكة ورئيسهم: يا موسى، اصبر لمَّا سألت، فقليل من كثيرٍ ما رأيت.

ثم هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور، لهم قصف ورجف ولجب شديد، وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس والتهليل، كلجب الجيش العظيم، ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى مما رأى، واشتدَّ فزعه، وآيس من الحياة، فقال له رئيس الملائكة: مكانك يا ابن عمران، حتى ترى ما لا صبر لك عليه. ثم هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة، لا يشبههم شيء من الذين مروا به، ألوانهم كهلب النار، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس، لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به.

ثم هبطت عليه ملائكة السماء الخامسة في سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يتبعهم طرفه، ولم ير مثل أصواتهم، فامتلأ جوف موسى فزعاً، واشتدَّ خوفه، وكثر بكاؤه، ثمَّ قال له حبر الملائكة وكبيرهم: يا ابن عمران، مكانك، حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه. ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي الذي أراد رؤيتي، فاعترضوا عليه. فهبطوا، وفي يد كل منهم حربة طويلة، تلتهب ناراً، أشدُّ ضوءً من الشمس، لباسهم كلهب النار، وإذا سبحوا وقدسوا، جاوبهم كل من كان قبلهم، من ملائكة السماوات، كلهم يقولون بشدَّة أصواتهم: سبوح قدوس، رب العزة أبداً لا يموت. وفي رأس كل ملكٍ منهم، أربعة أوجه، فلمَّا رآهم موسى رفع رأسه، وصوته يسبِّح معهم ويبكي، ويقول: رب، اذكرني، ولا تنس عبدك، لا أدري هل أتخلص مما أنا فيه أو لا؟، إن خرجت احترقت، وان مكثت احترقت. فقال له رئيس الملائكة وكبيرهم: أوشك يا ابن عمران، أن يشتد خوفك، وينخلع قلبك، فاصبر للذي سألت.

ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة، قال الله تعالى: أروه إياه، فلمَّا بدا نور العرش، انصدع الجبل من عظمة رب العزة، ورفعت ملائكة السماوات أصواتهم جميعاً، يقولون: سبحان الملك القدوس، رب العزة أبداً لا يموت. بشدَّة أصواتهم، فارتج الجبل واندك، { وَخَرَّ

مُوسَى صَعِقًا } على وجهه، ليس معه روح، فقلب الله الحجر الذي كان موسى عليه، وجعله كهيئة القبة؛ لئلا يحترق موسى.

وأرسل الله عليه روح الحياة برحمته، فقام موسى يسبِّح الله، ويقول: آمنت بأنك ربي، وصدقت بأنه لا يراك أحد، فيحيا، ومن نظر إلى ملائكتك، انخلع قلبه، فما أعظمك، وأعظم ملائكتك!، أنت رب الأرباب، وإله الآلهة، وملك الملوك، لا يعدلك شيء، ولا يقوم لك شيء، تبت إليك، لك الحمد، لا شريك لك، أنت رب العالمين][1].

فنظر موسى إلى اختلاف ألوانهم وصورهم، ولغاتهم وزيهم وأصواتهم، فأخذته الرعدة والخوف، وندم على ما كان منه، من طلب الرؤية، ولم يستطع الكلام، وجلس على دكة من الجبل، قال الله تعالى: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } لا يعقل من أمره شيئاً، ثمَّ إنه الله تعالى أزال الخوف عنه، ورد إليه استغفاره، وذلك قول الله تعالى: { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } أي المصدقين أنه لا يراك أحد في دار الدنيا.

ثم أوحى الله تعالى إليه: { إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } يعني سائر ما في التوراة{ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } سورة الأعراف: 143 – 145[2].

مناقب أمة محمد في التوراة

قال وهب بن مُنبِّه[3]: إن الله لمَّا قرب موسى نجياً، قال: يا رب، إني أجد في الكتاب الذي أنزلته علي ذكر أمةٍ، هي خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي، فنودي: يا موسى إنهم أمة محمد، قال: يا رب، فإني أجد أمة أناجيلهم في صدورهم، ويقرؤون كتابهم ظاهراً، ومن كان قبلهم يقرؤون باطناً، فاجعلهم أمتي، فنودي: يا موسى، إنهم أمة محمد، قال: فإني أجد أمةً، يقاتلون في سبيل الله رأس الضلالة الأعور الدجال الكذاب، فاجعلهم أمتي، فنودي: إنهم أمة محمد، قال: فإني أجد أمةً، تباح لهم أكل الأغنام، ومن كان قبلهم كانوا يحرقونها، فاجعلهم أمتي، فنودي: إنهم أمة محمد، قال: فإني أجد أمةً، إذا هم أحدهم بحسنة واحدة وعملها، كتبت له عشراً، وإن هو لم يعملها، كتبت له حسنة واحدة، وإن هم بسيئةٍ واحدة، لم يعملها، لم تكتب عليه، وأن هو عملها، كتبت عليه سيئةً واحدة، فاجعلهم

---

(1) القول بنصه رواه ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم الأول بأحاديث أهل الكتاب. جامع البيان 13: 91 – 92. وهو يقصد وهب بن مُنبِّه. وبحر العلوم 1: 548.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 486. وفي العهد القديم، سفر الخروج 32: 15 – 16. «فانصرف موسى، ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده: لوحان مكتوبان على جانبيهما. من هنا ومن هنا كانا مكتوبين. واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين».

(3) في قصص الأنبياء للكسائي: 486. ودلائل النبوة 1: 380. والبداية والنهاية 8: 534.

أمتي فنودي: إنهم أمة محمد[1].

ثم أوحى الله تعالى إلى موسى: أني أقرب إليك منك إلى نفسك، فأكثر من ذكري، ومن ذكر حبيبي محمد ﷺ، وأخبر بني إسرائيل أنه من لقيني منهم، وهو يشهد أن لا إله إلا أنا، وأن محمداً عبدي ورسولي، كتبت له براءة من النار، وجعلت له نصيباً من الجنَّة، يا موسى، إني لم أخلق خلقاً، من بني آدم، أكرم علي من محمد ﷺ، وإن جميع المرسلين من قبلك، آمنوا به، واشتاقوا إليه، وكذلك من يأتي بعدك من المرسلين، يا موسى، إن محمداً ﷺ أول نبي يذكر، وآخر نبي يفقد، وأول من يبعث، وأمته خير الأمم، وهم عندي على ثلاث خصال: مسيئهم يغفر له، وسابقهم بالخيرات في الجنَّة بغير حساب، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً.

يا موسى، أنا المحمود، وهو محمد، فقد اشتققت اسمه من اسمي، وإنه ليقمع الشياطين، وإنه أمته تصطف لقتال المشركين كصفوف الملائكة، يحكمون بالعدل، ويرضون بالقضاء، وهم الحامدون على السراء والضراء، يا موسى، طوبى لمن آمن بمحمد ﷺ، أجمع له بين خيري الدنيا والآخرة، يا موسى، لو أتى يوم القيامة، فلا يخرج أحد من قبره، حتى يخرج محمد ﷺ من قبره، ولا يدخل أحد الجنَّة، حتى يدخلها محمد وأمته، يا موسى، يصلِّي محمد وأمته، ركعتين قبل طلوع الشمس، فأغفر لمن صلاها ما أذنب في يومه وليلته، ويكون في جواري يومه ذلك.

يا موسى، يصلِّي محمد وأمته، أربع ركعات بعد الزوال، فاغفر لمن صلاها، وافتح له أبواب السماء، وأعطيه بأول ركعة الجنَّة، وبالثانية أثقل موازينه، وبالثالثة أوكل به ملائكة، يستغفرون له، وبالرابعة تشرف عليه الحور العين، يا موسى، أربع ركعات يصلِّيها محمد وأمته بالعشيات، لم يبق ملك في السماوات والأرض، إلا استغفر لمن صلاها، ومن استغفرت له الملائكة، لا أعذبه بالنار، يا موسى، ثلاث ركعات يصلونها، حين تغرب الشمس، عندي أفضل من عبادة سنة، وأربع ركعات يصلونها، إذا غاب الشفق، افتح لمن صلاها أبواب السماء.

يا موسى، يصوم محمد وأمته في السنة شهراً، اغفر لمن صامه ما أذنب فيه، طول سنته، وفيه ليلة القَدَر، من استغفر فيها، أعطيته أفضل ما أعطيت الأنبياء من أمتك، يا موسى، يحج محمد وأمته إلى بيتي الحرام، فمن حج خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه، يا موسى، إن محمداً هو القمر المنير الباهر، والنجم المضيء الزاهر، والبحر الزاخر]ب

فعند ذلك قال موسى: اللهم، اجعلني من أمة محمد، فقال الله: { قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } سورة الأعراف: 144. فرضي موسى.

ثم أقبل موسى على بني إسرائيل وعاتبهم، فأخبروه بقول السامري، وهو مغضب عليه، وكيف حملهم على حمل الحلي إليه، فأقبل موسى على السامري، وهو مغضب، { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ

(1) جامع البيان 13: 124. وقصص الأنبياء للثعلبي: 183. عن كعب.

يَا سَامِرِيُّ } يقول: ما قصتك؟ ولم فعلت ذلك؟، { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي } أن ألقها في فم العجل، يكون له خوار، وكان ذلك ببركة القبضة.

فهم موسى، بقتل السامري، فيقال: إن الله أوحى إليه: لا تقتل السامري، فإنه سخي في قومه، ولكن أخرجه من عسكرك، فذلك قوله: { قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ } سورة طه: 95 – 97 ثمَّ عمد موسى إلى صخرة عظيمة، فلم يزل يضرب بها العجل، حتى تقطع وتكسر، ثمَّ أمر بإحراقه فأحرق، حتى صار رماداً، ثمَّ ذراه في البحر.

توبة الذين عبدوا العجل

ثم قال موسى: لو كان هذا إلهاً، ما كان يمكنني كسره، وإحراقه بالنار، ثمَّ أمر السامري، حتى بال عليه كما عبده[1]، وسكت عن موسى الغضب، وأخذ الألواح، وكان قد تكسر منها شيء، فرفع منها ما رفع، وبقي ما بقي، ثمَّ أقبل على بني إسرائيل، وقال: { إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ } بعد عبادة الله، وبعد أن نجاكم من فرعون، فقالوا: يا موسى، سل ربك حتى يتوب علينا، فأوحى الله تعالى إليه: أنه لا توبة لهم، لأن في قلوبهم مرضاً من حب العجل، فأخرج رماد العجل، وألقاه في الماء، وأمرهم أن يشربوا منه، فإنه يظهر ما في قلوبهم، على وجوههم، ففعل ذلك بهم، فلمّا شربوا منه، لم يبق منهم أحد، ممن في قلبه شيء من حب العجل، إلا أصبح مصفراً لونه[2]، وارماً وجهه وبطنه، دون من لم يكن من ذلك في قلبه شيء.

فلمّا رأوا أنه دام عليهم، ولم تزل عنهم الصفرة، وأيقنوا بالموت، قالوا: يا موسى: هل من شيء، غير التوبة الخالصة، وقد أخلصنا في توبتنا، حتى لو أمرتنا بقتل أنفسنا، قتلناها، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، أني قد رضيت بحكمهم في أنفسهم، فأمرهم بقتلها، إن كانوا صادقين في قولهم، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، غضبت عليهم وأرسلت عليهم العذاب، وذلك قوله: { فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } سورة البقرة: 54.

فقالوا كيف نقتل أنفسنا؟، فقال موسى: يقوم الذين لم يعبدوا العجل إلى الذين يعبونه، فيقتلونهم، فقام من لم يعبد العجل بالسيوف والخناجر إلى أولئك الذي عبدوه، وأرسل الله عليهم الظلمة حتى لا يبصر بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل كان يأتي إلى أخيه وابن عمه وأبيه وقرابته، وهو لا يعرفه من شدَّة الظلمة، فيقتله، فلم يزالوا كذلك، حتى خاضوا في الدماء، فصاح النساء والصبيان إلى موسى: العفو، يا نبي الله، فبكى موسى، ودعا بالعفو عنهم، فلم

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 188.

(2) «وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى، وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل. ثمَّ أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار، وطحنه حتى صار ناعماً، وذراه على وجه الماء، وسقى بني إسرائيل». العهد القديم، سفر الخروج 32: 19 – 20.

يعمل بعد ذلك فيهم السلاح، وقبل الله توبتهم[1]، ورفع الظلمة عنهم.

الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه

وكان هارون يقرأ عليهم التوراة، كل سبت، ويشرع لهم الأحكام، حتى صاروا إلى صالح العيش، وكثرة الأموال، وكانوا إذا اغتسلوا في مواضعهم، يكشفون عوراتهم، وكانوا يرون موسى عند اغتساله يستتر، فاعتقدوا أن في بدنه عيباً، حتى قال بعضهم لبعض: إنه آدر[2]، وكان موسى إذا اغتسل، يضع ثوبه على حجر هناك، ويستر نفسه بكسائه، ثمَّ يضرب الحجر بعصاه، حتى يتفجر منه الماء فيغتسل، ثمَّ يلبس ثوبه.

ففعل ذلك يوماً، فلمَّا أراد أن يلبس ثوبه، انقطع الحجر من مكانه، وجعل يمرُّ على وجه الأرض، وعليه ثياب موسى، فعدا موسى خلفه عرياناً، ووضع يده على سوءته، وهو يقول: أيها الحجر، قف بثوبي، فناده الحجر بإذن الله: إني مأمور، فخذ ثوبك مني، فلم يزل يعدو خلفه حتى وقف في جماعةٍ من بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى، ولا عيب فيه، فندموا على ما كان منهم[3].

طلب بني إسرائيل رؤية الله

ثم أقبل بنو إسرائيل على موسى وقالوا: { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً } البقرة: 55. فأوحى الله تعالى إليه: أكلهم يريد ذلك، أو بعضهم؟، وهو أعلم بذلك، فقال الصالحون منهم: إن الله أجل في أنفسنا، من أن نراه في الدنيا، وقال الباقون: إن هؤلاء، إنما يمتنعون من ذلك، لضعف قلوبهم، وأما نحن، فلا بد لنا من ذلك.

فأوحى الله تعالى إلى موسى: إن اختر منهم سبعين رجلاً، وسر بهم إلى جبل الطور، واحمل معك أخاك هارون، واستخلف على عسكرك يوشع بن نون، ففعل موسى ذلك، فلمَّا بلغ بهم الجبل، ألقى الله تعالى الغمام على الجبل حتى أظله، وموسى واقف تحته، ومعه القوم، فأوحى الله تعالى إليه: أن قل لهؤلاء يشدون على قلوبهم، فقال لهم موسى ذلك، فقالوا: نحن أقوياء، فأمر الله تعالى الملائكة أن يهبطوا إلى الجبل، وهم في صورهم.

فلمَّا رآهم بنو إسرائيل، أخذتهم الرعدة والخوف والجزع، وندموا ولم يطيقوا الكلام، ونودوا من السماء: يا بني إسرائيل، فصعقوا وماتوا عن آخرهم، فخر موسى ساجداً، وقال: { قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } سورة الأعراف: 155. فأحياهم الله تعالى، وذلك قوله: { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } سورة البقرة: 56.

---

(1) قبول التوبة في أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 139 بتفاصيل أخرى. والقصة والعدد في التلمود البابلي. الإسرائيليات في تفسير الطبري: 145.

(2) متفخ الخصية، لتسرب سائل فيها.

(3) أسماؤهم في أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 260.

فقالوا: يا موسى، قد علمنا أنا لا نطيق رؤية ربنا، ولا سماع كلامه، ولكن كن السفير في بلاغ كلامه إلينا، فأوحى الله تعالى إليه: أن قل لهم أن يحفظوا وصيتي، ويرعوا حقي، ويذكروا نعمتي، حين أنجيتهم من عذاب فرعون، فرجعوا إلى عسكرهم، وأخبروا قومهم بما رأوا، ثمَّ إنهم بدلوا التوراة بعد ذلك، وزادوا فيها، ونقصوا منها، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: { كان فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } سورة البقرة: 75. واختلفوا على موسى وآذوه[1].

الجبل فوق بني إسرائيل

ثم قال موسى: يا ربِّ، إنك قد علمت أنهم ردوا كتابك، وكذبوا بآياتك، فأمر الله تعالى جبريل أن يوقع جبل طور سيناء عليهم، فقطع جبريل ذلك الجبل، ورفعه في الهواء على رؤوسهم، حتى صار عليهم ظلةً، فلم يروا السماء، ونودوا: إن قبلتم هذا الكتاب، وإن لم تقبلونه، فإني ألقي عليكم هذا الجبل، قالوا: سمعنا وعصينا، والجبل يدنو منهم، حتى كاد أن يسقط عليهم، فأيقنوا بالموت، وإن لم يؤمنوا، وخرجوا إلى قصرٍ، وسجدوا هناك بين راضٍ وساخط، على حواجبهم، وهم يلاحظون الجبل خوفاً من أن يسقط عليهم، فلذلك أكثر سجود اليهود على حواجبهم، فلمَّا قبلوا الكتاب، رد الله تعالى عنهم الجبل[2].

في الطريق إلى الأرض المقدسة

ثم إن الله أوحى إلى موسى: أن اسر ببني إسرائيل إلى باب الحطة[3]، فإنها الأرض المقدسة، فإذا أردتم دخولها، فلا تدخلوها إلا ساجدين شاكرين لربكم، ثمَّ سيروا بعد ذلك إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، وجاهدوا من فيها من الجبارين، فأخبرهم موسى بذلك[4]، فقالوا: إن بيننا وبين الأرض المقدسة، من المفاوز والقفار، ما لا يطاق سلوكه إلا بجهد، ومعنا النساء والصبيان والمشايخ، وكيف ندخل هذه المفاوز، وليس معنا زاد، ولا كسوة؟!.

فقال موسى: لا عليكم يا بني إسرائيل، فإن من خلق لكم البحر، ونجاكم من فرعون، يكفيكم جميع ذلك، فاذكروه وسبحوه، وتوكلوا عليه، إن كنتم مؤمنين، فأوحى الله إليه: أن يا موسى قل لهم، إنني ممطر عليكم المن والسلوى، وقد أمرت السماء أن تنزل عليكم بالمن، وأمرت الريح أن تأتيهم بالسلوى، وقد أمرت الحجر أن يتفجر لهم بالماء العذب، وأمرت الغمام أن يسير

---

(1) الكشف والبيان 4: 289. وأساطير اليهود، دار الكتاب 3: 89.

(2) قال تعالى في قصة الجبل: { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } سورة الأعراف: 171.

(3) باب من أبواب بيت المقدس، عن السدي. جامع البيان 2: 104.

(4) قال تعالى في دخول باب الأرض المقدسة: { وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } سورة الأعراف: 161.

معهم إذا ساروا، ويظلهم من الحر، وأمرت خفافهم ونعالهم ألا تتفلت[1].

فلمَّا سمعوا ذلك، طابت نفوسهم، ثمَّ ساروا نحو الأرض المقدسة، وكانوا إذا ساروا يظللهم الغمام، وإذا نزلوا، نزل عليهم الماء، والسماء تمطر عليهم بالمن والسلوى، والحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، كل عينٍ، تجري على سبط من الأسباط، وكانوا في حفظ ووديعة[2].

النقباء

ثم أوحى الله إلى موسى: أن اختر من بني إسرائيل اثني عشر رجلاً، من كلِّ سبط واحداً، معروفاً باسمه ونسبه، فذلك قوله: { وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا } سورة المائدة: 12[3]، فلما اختار منهم، قال: إني أريد أن ابعث بكم إلى أريحا، مدينة الجبارين، لتأتوني بخبرها، وخبر أهلها، وصفتهم، وتكتموا ذلك عن بني إسرائيل، فخرجوا ومعهم يوشع بن نون، وكالب بن يوقيا[4]، فلمَّا وصلوا قريباً من المدينة، فإذا هم برجل من الجبارين[5]، قد استقبلهم، فساقهم بين يديه إلى أريحا مدينة الجبارين، فاجتمع عليهم الجبارون، وجعلوا يتعجبون من ضعف أبدانهم، وقالوا: هؤلاء الذي يزعمون أنهم يخرجوننا من بلادنا، وهموا بقتلهم، فقال بعضهم: لا تقتلوهم، وليكونوا لكم عبيداً، فتركوهم.

فلمَّا جنَّهم الليل، هربوا على وجوههم، حتى بلغوا وادياً كثير الأشجار، يقال له: وادي العنقود، فرأوا هناك ثماراً أعجبتهم، فأخذوا من هناك رمانة، فجعل اثنان منهم يتراوحان على حملها، وقطفوا عنقوداً من عنب كرومهم، وجعلوه على خشبة بينهم، وتراوح على حمله رجلان رجلان، حتى صاروا إلى عسكر بني إسرائيل، فأخبروهم بما رأوا، وأروهم الرمانة والعنقود، ففزع بنو إسرائيل من ذلك[6].

وبلغ موسى صنيعهم، دعاهم إليه، وقال: أما قلت لكم اكتموا ما ترون، فلم تقبلوا حتى هولتم عليهم، وأرعبتم قلوبهم، ثمَّ دعا عليهم، فمات منهم عشرة، وبقي رجلان: يوشع بن

(1) تفسير ابن أبي حاتم 1: 115، 116. وجامع البيان 2: 100. والنبوة: 170. والعظمة 4: 1516. وهي في العهد القديم، سفر الخروج 16: 4 – 32. وأساطير اليهود، دار الكتاب 3: 56.

(2) الكشف والبيان 1: 203. وقصص الأنبياء للثعلبي: 218.

(3) أسماء الأسباط عن السدي: هم بنو يعقوب: يوسف، وبنيامين، وروبيل، ويهوذا، وشمعون، ولاوي، ودان، وقهاث. جامع البيان 1: 286، وتفسير مقاتل 1: 286. وهم في سفر التكوين 35: 23 – 26، وأسماء النقباء في سفر العدد 13: 4 – 16.

(4) هوشع، ودعاه موسى: يشوع، كان خادماً لموسى، وصار خليفته بعد موته. وكالب بن يفنة القنزي، كان، مع يشوع، أميناً في حَمَلة الاستيلاء على أرض كنعان. قاموس الكتاب المقدس: 1068. 758، وهما من الجواسيس الذين بعثهم موسى. أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 277.

(5) الجبارون هم العمالقة، أولاد عناق. أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 267.

(6) العظمة 5: 1528. وهناك أوصاف أخرى في أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 278، والعهد القديم، سفر العدد 14: 5 – 9.

نون، وكالب بن يوقيا، فإنهما كانا كتماه عنهم، ووقع الخوف في قلوب بني إسرائيل من الجبارين، وقالوا: يا موسى، إن مملكة فرعون كانت أخف علينا مما نحن فيه من دخول مدينة الجبارين، { إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } سورة المائدة: 24.

وقالوا: نريد علينا غيرك، فلا حاجة لنا فيك، وهموا بذلك، واختلفوا عليه، وهو يقول لهم: { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } سورة المائدة: 21. { قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا }، وهما يوشع بن نون، وكالب بن يافنا[1] { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ }، فلم يلتفتوا إلى قولهما، ولا إلى قول موسى.

فعندها قال موسى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } سورة المائدة: 23 - 26. فلم يدخل الأرض المقدسة أحد من بني إسرائيل، ممن ولد بمصر، وسلط الله عليهم التيهان، وهو ما بين الشام إلى أرض مدين.

التيه

فكان كلَّما خرج واحد منهم، تاه في الأرض، ولا يهتدي أن يرجع حتى يموت، أما المؤمنون، فلا يموتون وإن تاهوا، فلم يزالوا كذلك يتيهون في الأرض، يموت منهم واحد بعد واحد، حتى تفرق آخرهم على رأس الأربعين سنة، وسار موسى إلى باب الحطَّة، هو ومن معه.

وعلى باب الحطة مكتوب: أسماء الله العظمى، لا يدعو بها مؤمن إلا استجيب له دعاؤه، فأقبل المؤمنون فسجدوا عند الباب ودخلوا، وأما الظالمون الفاسقون، فقد دخلوا على أدبارهم، وهم يقولون: هطايا سمقايا، يعنون حنطة حمراء، فذلك قوله: { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ } سورة الأعراف: 162. وغلب موسى على مدينة الجبارين، وهرب من كان فيها، وتفرقوا في البلاد حتى أهلكهم الله.

بلقاء وبلعم بن باعورا

وإن بلعم بن باعوراء كان ينزل قرية من قرى البلقاء، وكان يحسن اسم الله الأعظم، وكان متمسكاً بالدين، فلمَّا نزل موسى أرض كنعان من الشام، بين أريحا وبين الأردن وجبل البلقاء والتيه، فيما بين هذه المواضع.

قال: أرسل إليه (إلى بلعم) بالق الملك، فقال: إنا قد رهبنا من هؤلاء القوم، يعني موسى بن عمران، وإنه قد جاز البحر؛ ليخرجنا من بلادنا، وينزلها بني إسرائيل، ونحن قومك وليس لك بقاء بعدنا، ولا خير لك في الحياة بعدنا، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج، فادع عليهم.

(1) جامع البيان 10: 176، وأساطير اليهود، دار الكتاب 3: 290.

فقال بلعم: ويلكم، نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أدعو الله عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟، وإني لا أدخل في شيء من أموركم؟، فاعذروني. فقالوا: ما لنا من منزل في هذه الحال. فلم يزالوا يترفقون به ويتضرعون إليه.

قال بعض هؤلاء المسلمين باسنادهم: إنه كانت له امرأة، يحبها ويطيعها وينقاد لها، فدسوا لها هدايا، فقبلتها ثمَّ أتوها، فقالوا لها: قد نزل بنا ما ترين، فنحب أن تكلِّمي بلعام؛ فإنه مجاب الدعوة، فيدعو الله، فإنه لا خير فيه بعدنا. فقالت لبلعم: إن لهؤلاء القوم حقاً وجواراً وحرمة، وليس مثلك أسلم جيرانه عند الشدائد، وقد كانوا مجملين في أمرك، وأنت جدير أن تكافئهم، وتهتم بأمرهم.

فقال لها: لولا أني أعلم أن هذا الأمر من الله لأجبتهم إلى مرادهم. فقالت: انظر في أمرهم، ولينفعهم جوارك. فلم تزل به حتى ضل وغوى، وكان الله عزم له في أول مرة، على الرشد، ففتنته، فافتتن، فركب حمارة، فوجهها إلى الجبل الذي يطّلعه على عسكر بني إسرائيل، فلمّا سار غير بعيد، ربضت به حمارته، فنزل عنها فضربها حتى أذلقها، فقامت فلم تسر إلا قليلاً، حتى ربضت، ففعل بها مثل ذلك، فقامت فلم تسر إلا قليلاً، حتى ربضت فضربها حتى أذلقها، فقامت فأذن لها، فكلمته.

فقالت: يا بلعم، إني مأمورة، فلا تظلمني. فقال لها: ومن أمرك؟. قالت: الله أمرني، انظر إلى ما بين يديك، ألا ترى إلى الملائكة أمامي، تردني عن وجهي هذا، يقولون: أتذهبين إلى نبي الله والمؤمنين، يدعو عليهم بلعم؟!.

وقال بعض هؤلاء المسلمين: إن الحمارة قالت: ألا ترى الوادي أمامي، قد اضطرم ناراً. قال: فخلى سبيلها، ثمَّ انطلق حتى أشرف على رأس جبلٍ، يطل على بني إسرائيل، فجعل يدعو عليهم، فلا يدعو بشيءٍ، من سوء إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله لسانه إلى بني إسرائيل، وجعل يترحم على بني إسرائيل، ويصلِّي على موسى، فقال له قومه: يا بلعم، أتدري ما تصنع، إنما تدعو لهم؟!. فقال: هذا ما لا أملك، وهذا شيء قد غلب الله عليه، وأدلع لسانه.

فقال بعض هؤلاء المسلمين: جاءته لمعة، فذهبت ببصره فعمي، فقال لهم: قد ذهبت الدنيا والآخرة مني، ولم يبق إلا المكر والحيلة، وليس إليهم سبيل، وسأمكر لكم، واحتال لهم، اعلموا أنهم قوم، إذا أذنب مذنبهم، ولم تغير عامتهم، عمهم البلاء. فقالوا له: كيف لنا بشيء، يدخل عليهم منه ذنب، يعمهم من أجله العذاب؟.

قال: تدسُّون في عسكركم النساء، فإني لا أعلم فتنة، أوشك صرعةً للرجل من المرأة، فانظروا نساءً، لهن جمال، فأعطوهن السلع، ثمَّ أرسلوهن إلى العسكر، تبيعهن فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل، إذا أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم، كفيتموهم، ففعلوا ذلك.

فلمّا دخل النساء العسكر، مرت امرأة من الكنعانيين، بنت صوريا، برأس سبط بن شمعون بن يعقوب، وهو زمري شلوم، فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثمَّ أقبل بها حتى وقف بها على موسى، فقال: إني لأظنك يا موسى، ستقول هذه حرام عليك. فقال موسى: أجل، إنها حرام، فلا تقربها. فقال: والله، لا أطيعك في هذا. ثمَّ دخل بها قبته، فوقع عليها. فأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل.

وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، وهو صاحب أمر موسى، وكان رجلا قد أُتي بسطة في الخلق، وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء، والطاعون قد وقع في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت حربته من حديد كلها، فدخل عليهما القبة، وهما مضطجعان، فانتظمهما بحربته، ثمَّ خرج بهما، وقد رفعهما إلى السماء بحربته، قد أخذها بذراعيه، واعتمد بمرفقيه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته، فجعل يقول: اللهم، هكذا نفعل بمن عصاك. فرفع الله الطاعون عنهم، فحسب من هلك منهم في الطاعون سبعون ألفا من بني إسرائيل.

فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص، من كلِّ ذبيحة يذبحونها، القبة والذراع واللحي؛ لا عتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها إلى لحيته، والبكر من أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان البكر من ولد هارون[1].

المسير إلى الشام

ثم إن بني إسرائيل ملوا أكل المن والسلوى[2]، فقالوا: يا موسى { يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[3] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا }، فقال لهم موسى: { أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ } سورة البقرة: 61. فأبدلهم الله بالمن والسلوى ما سألوا، فساروا، وهم يزيدون على أربعين ألفاً، إلى مدائن الشام، ووقعوا في مدائن الزرع والحصاد.

قارون مع موسى

وكان لموسى ابن عم، يقال له: قارون بن يصهر بن وهب بن لاوي بن يعقوب[4]، وموسى هو ابن عمران بن مصعب، وكان قارون في نهاية الفقر، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يحلي تابوت التوراة بالذهب، وعلمه صنعة الكيمياء، وأخرج له من الذهب ما يحلي به التابوت، فنظر قارون إلى ذلك، وجاء إلى كلثوم أخت موسى، فقال لها: من أين لموسى هذا الذهب العظيم

(1) تاريخ دمشق 10: 406. وقصة بلعم (بلعام) في سفر العدد 22: 1، وما بعدها.

(2) أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 47.

(3) القثاء: الخيار الكبار، والفوم: جمع فومة، وهي السنبلة. المعجم الوسيط.

(4) قصص الأنبياء للثعلبي: 190.

الذي ينفقه على التابوت؟، قالت: إن الله أعطاه هدية نظيفة، وهي صنعة الكيمياء.

وكانت كلثوم أخت موسى، قد تعلمت ذلك من أخيها موسى، فعلمته لقارون، فاتّخذ منه ما أراد، واستغنى، وجعل يبني الدور والقصور، بصفائح الذهب المرصع بالجوهر، ثمَّ شق في داره أنهاراً، وغرس على حافاتها أشجاراً، وجعل أبدانها من الفضة، وأغصانها من الذهب، وأوراقها من الزبرجد، وكان إذا ركب، يسير بين يديه سبعون فرساً، مجللةً بأجلة الديباج، وجميع قلائدها من الذهب المرصع بالعقيق اليماني، قال الله: { إِنَّ قَارُونَ كان مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } سورة القصص: 76.

وكان كل يوم بزينته التي لم يسبقه أحد إلى مثلها، فركب وخرج من داره، فتعجب الناس من زينته، وحسنه، فقالوا: { يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ }، وقال قوم من المؤمنين: { وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا } سورة القصص: 79 - 80.

بغي قارون على موسى

وكان قارون يبغي على موسى، وموسى ينهاه عن ذلك، ولا ينتهي، ويقول: يا قارون، ارجع عن ذلك، فيقول: أنت لست أفضل مني، وأنا أتلو التوراة كما تتلوها أنت، وأنا من ولد يعقوب، كما أنت من ولده، وكان موسى يقول: إني كما تقول، ولكني رسول الله وكليمه، وقد علمت يا قارون، إن هذا من الأموال التي جمعتها، بعد أن كنت فقيراً، جمعتها من تعليم كلثوم أختي لك صنعة الكيمياء التي علمني ربي، فاحمد الله ربك، ولا تبغ الفساد في الأرض، واعتبر بفرعون وغيره، { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } سورة القصص: 77 - 78، وأنت تحسدني عليه.

ومن بغي قارون على موسى أنه بعث إلى امرأةٍ فاسقة، كان موسى قد نفاها من عسكره، فدعاها، وقال لها: إني أتزوج بك، وأريحك من فقرك، إن عملت لي عملاً أقوله لك، قالت: وما هو؟، قال: إذا اجتمع عندي بنو إسرائيل في مجلسي، فاحضري على الباب وادخلي، فإن الحاجب لا يمنعك، فإذا دخلت فقولي: ماذا لقيت من موسى؟ !، إنه دعاني إلى نفسه، فلم أطاوعه، فأخرجني من عسكره، فإذا قلت هذا تزوجتك، فقبلت المرأة ذلك، فانصرفت إلى منزلها.

فلمّا كان من الغد، خرجت من بيتها، وقد ألقى الله في قلبها التوبة، فأقبلت حتى وقفت على باب دار قارون، ثمَّ دخلت، وقالت: يا بني إسرائيل، هذا ما تلقى الأخيار من الأشرار، اعلموا أن قارون هذا دعاني بالأمس، وقال كذا، وكذا، وأمرني أن أكذب على موسى وكذب قارون، وإنما أخرجني موسى من عسكره، لمّا كان مني من الفساد، وأنا الآن تائبة إلى الله من ذلك كله.

فلما سمع قارون، ندم على ما كان منه، ثمَّ أقبلت بنو إسرائيل على قارون، يلومونه، ويوبخونه، ثمَّ خرجوا عنه، فبلغ ذلك موسى، فغضب، وقال: يا رب، إن قارون قد بغى علي،

فانصرني عليه، فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض بالطاعة لك، وسلطتك على قارون، فأقبل موسى حتى دخل على قارون، ثمَّ قال: يا عدو الله، أنت بعثت إلى امرأة؛ تقيمها على رءوس الأشهاد، تريد فضيحتي، يا أرض، خذيه، فساخت داره في الأرض ذراعاً، وسقط قارون عن سريره، فأخذته الأرض إلى ركبتيه.

فقال قارون: يا موسى، يا موسى، فقال: يا عدو لله، تبغي الفساد في الأرض، وتشرب بآنية الذهب والفضة، وأنا أدعوك إلى طاعة الله، فلا تقبل، وتقول: { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}، يا أرض، خذيه. فأخذته الأرض إلى حقويه، وساخت داره على قدر ذلك، فقال: يا موسى يا موسى، فقال: يا عدو الله، ألم تتعظ بهلاك الأمم وهلاك فرعون، يا أرض، خذيه. فأخذته الأرض إلى عنقه، فلم يقدر على الكلام، وقيل: إنه لو استغاث بربه، وقال: يا ربِّ، ارحمني، لرحمه لحلمه وكرمه.

قال: وجعل موسى يذكر لقارون شيئاً بعد شيء، وقارون لا يقدر على الكلام، ثمَّ قال للأرض: يا أرض، خذيه وداره وجميع ماله، ثمَّ قال للأرض: جلجلي به، كما جلجلت بفرعون وهامان وقوم لوط. فاضطربت داره اضطراباً شديداً، وغارت في الأرض.

عوج بن عناق

قال وهب: إن عوج بن عناق كانت أمه من بنات الجنِّ، وكانت من أحسن النساء، وكان عوج ولد في دار آدم في حياته، وكان الله قد جعله جباراً كما شاء، وكان لا يوصف طوله وعرضه، وكان قد عمي في الدنيا، وذلك أنه عاش ثلاثة آلاف وستمائة سنة، حتى أدرك زمان موسى، وبني إسرائيل، وكان عوج قد سأل نوحاً أن يحمله في السفينة فقال نوح: ومن يحملك يا عدو الله؟، وقيل: إنه الذي أتى بخشب السفينة لنوح، وقال له نوح: اغرب عني يا عدو الله، إني لا أحملك معي، فبقي في الأرض، وكان ماء الغرق منه إلى حجره، فكان يمشي فيه، يخوض ويأخذ ما شاء من الحيتان، ويرفعه بيده في الهواء، فتنضجه الشمس، في قبة الفلك، ثمَّ يأكله، والله أعلم بذلك[1].

فبقي كذلك حتى ذهب الماء، وظهرت الأرض، وكان يسير في الدنيا جميعها، برها وبحرها، ويفسد كل الفساد، وكان جباراً في خلقته، بارعاً في أفعاله، وكان سبب هلاكه على يدي موسى، وذلك أنه لمَّا حضر بنو إسرائيل في التيه، قصدهم، ووقف مشرفاً على عسكرهم، وهم لا يشعرون، حتى إنه حزر قدر عسكرهم، كم طوله، وكم عرضه، وكان قدر عسكرهم فرسخين طولًا وعرضاً، فمضى إلى أعظم جبل، بقرب بني إسرائيل، ليهلكهم جميعاً.

(1) لم يتمكَّن نوح من أن يجد مكاناً للعظيم أوج (عوج) الذي كان ملكاً لمنطقة باشان، ومن هنا فقد جلس آمناً على قمة الفلك، فهرب من مياه الطوفان، وقد تصدق عليه نوح بالطعام يومياً عبر إحدى فتحات الفلك، وقد أحسن نوح إليه؛ لن عوج كان قد وعده بأن يعمل في خدمته، هو ونسله إلى الأبد. مدراش بريشيت رابا 31: 31. قصص اليهود: 158، 352.

فبعث الله الهدهد؛ ليري بني إسرائيل قدرته، فأقبل الهدهد، وفي منقاره حجر من السماء، فقعد على رأس عوج بن عناق، ثمَّ ضرب وسط الحجر بالحجر الذي معه ضربةً واحدة، فانخرق في عنقه، فأخبر الله موسى بذلك، فسار موسى في بني إسرائيل، ومعه عصاه، فلمّا رآه موسى، حمل عليه، وكانت قامة موسى سبعة أذرع بذراعه، وبسطته سبعة أذرع، وطول عصاه سبعة أذرع، فضربه بالعصا على أسفل كعبه، فوقع ميتاً، فمكث زماناً بين أظهر بني إسرائيل، حتى خفي أثره، والله أعلم بذلك(1).

موسى والخَضِر

الخَضِر وساحم

قال وهب: بينما الخَضِر قاعد على شط البحر، إذا أتاه سائل، فوقف عليه، فقال له: أيها القاعد، أسألك بوجه الله أن تعطف عليَّ بخير. فغشي على الخَضِر ساعة من مقالة السائل بوجه الله، فأفاق، ثمَّ قال: أيها السائل، سألتني بوجه الله لا أدري ما أكافئك به، وليس من الأشياء أكرمَ عليَّ شيء من نفسي، فقد بذلتك نفسي بعزة وجه الله، فدونك فبعها، وانتفع بثمنها.

فذهب به السائل، فعرضه على البيع، فباعه من رجل غني، يقال له: ساحم بن أرقم، فذهب به إلى منزله، وله بستان صغير في داره، بجنبها جبل كبير، فدفع المسحاة إليه، وأمره أن ينحت شيئاً من ذلك الجبل الذي في البستان، قدر ما يغرس فيه شيئاً، وغاب ساحم إلى حاجته، وأقبل الخَضِر على النحت من ذلك الجبل، فأبطأ مولاه في حاجته، فجاء إلى بيته ممسياً، فقال لمن في البيت: أطعمتم هذا الغلام؟. قالوا: أيّما غلام؟. قال: الذي اشتريته اليوم، وجعلته في البستان. قالوا: لا علم لنا به. فاسترجع وأخذ الطعام، ودخل عليه، فإذا هو فرغ من ذلك الجبل، وبين هذه وذلك الجبل فرسخ في فرسخ، قد سوَّى في ذلك البستان وأصلحه، وفرغ منه، وقام إلى الصلاة.

فنظر ساحم إلى أمر عظيم، فتعجَّب، وكاد يغشى عليه، فدنا منه، فقال له: من أنت؟. قال: أنا عبدك. قال: نعم، فما قصتك؟، وما جنسك؟، وممن أنت؟. قال: أما القصة، فعبد بِيعَ، وآخر اشترى، وأما الجنس، فمن آدم، وآدم من تراب. قال: فمن أين لك هذه القوة التي أرى؟. قال: من الله. قال: فأسألك بوجه الله، لما صدقتني من أنت. فغشي على الخَضِر، وسقط ساعة مغشياً عليه.

فلمّا أفاق، قال: أنا الخَضِر المذنب. فغشي على ساحم ساعةَ علم أنه الخَضِر، فأفاق ثمَّ غشي عليه، ثمَّ أفاق، وهو يقول: سبحان خالق النور، أعتقت عبدك ووليك وحبيبك وصفيك، الخَضِر لوجهك، وأسألك التوبة مما كان من استعمالي إياه. فسجد الخَضِر سجدة، وهو يقول: يا

(1) العظمة 5: 1520. والقصة فيه، وفي جامع البيان 10: 199. قصته مع موسى فقط، وكذا في قصص الأنبياء للثعلبي: 214. وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 350 – 353 كامل قصته.

ربِّ بوجهك بذلت نفسي، وبوجهك أقررت بالرِّقِّ، وبوجهك بعت رقبتي، وبوجهك رددت إليَّ نفسي، فمن الذي رجاك، فخيبته، ومن الذي خافك، فلم تؤمنه، ومن الذي دعاك، فلم تجبه. يا ربِّ، أدعوك دعوة الخاطئين، يا ربِّ، أعتقني ساحم، فمن يعتقني من ذنوبي الموبقة؟، خلصني ساحم من عبودته، فمن يخلصني من سيئآتي وذنوبي عند ذي العرش؟.

فقال له ساحم: أقسمت عليك بعزة الله أن تخبرني بالسبب، كيف صرت عبداً؟، وما الذي صيَّرك إلى أن بعت نفسك. قال: الوجه الذي أعتقني له. ثمَّ قص عليه القصة. قال: وقد عظمت علينا مِنَّتك يا ساحم، فإن رأيت أن أقيم، فأؤدي بعض ما يجب من حقك أقمت، وإن أذنت لي بالرجوع بعد إذ أعتقتني، فأنت المأجور فيه. فقال ساحم: فقد أذنت لك يا ولي الله، ارجع بسلام، واذكرني في دعائك. فقال: اللهم، اغفر لساحم، وأرحمه رحمة لا عذاب بعدها. قال: فنُودي قد أجبت يا خضر.

الخَضِر والرجل على وجه الماء

قال: ومضى الخَضِر حتى أتى البحر، فإذا هو برجل قائم على وجه الماء، شاخص ببصره إلى السماء، وهو يقول: يا من أمسك السموات بأمره، فلا يسقط بعضها على بعض، يا من دحا الأرض وما فيها، فأحصى عدد ما فيها من مثاقيل رملها وحصبائها، يا من عاقب الخَضِر بذنبه، وابتلاه بالعبودة بذنبه، خلِّصه واجعل توبته مقبولة، بوجهك أكرم الوجوه.

فدنا منه الخَضِر، فقال: السلام عليك يا عبد الله، من أنت الذي تسأل التوبة للخضر؟. قال: أنا الذي آمنت بجلال ربي، فاشتغلت بأداء شكر إيماني، وإن الخَضِر لم يزل معصوماً حتى رغب في الدنيا، وأدخل في قلبه حبُّها فابتلي، فقد رحمته، وأخلصت له دعائي. فقال له: أنا الخَضِر. فقال: إليك إليك، أيها المذنب، لا تخالطني، أيها الميَّال إلى الميالة، والذَّيَّال[1] إلى الذيالة، والمغرور إلى المغرورة، أنسيت نعيم الآخرة، فجرك النسيان إلى طلب نعيم الدنيا، أو قد نسيت شدَّة الآخرة وبؤسها، فطلبت راحة الدنيا وسرورها؟، أليس الله أبلاك بها ابتلاك عقوبة منه عليك؟، فلو قد نجوت مما قد رأيت، لربحت. يا خضر الخاطئ.

تبوَّأت لنفسك مكاناً، كأنك تخلد فيها، وقد غرست لراحتك ظلاً، كأنك باقٍ فيها، أوَ ما علمت أن أمكنتها مبدلة، وأن أغراسها منقلعة، وأن عمرانها مخربة، وأن نعيمها زائل بمن فيها؟. يا خضر الخاطئ، أين كان قلبك ساعة غرستها، حتى فرغت قلبك لغرسها؟، أين كانت فكرتك عن الآخرة، أليس قد خلا قلبك عن ذكر الآخرة بذكر الدنيا ساعة؟، وإن الساعة في ذكر الآخرة لبلاغ للعاقلين. يا خضر، قد ابتليت بالدعاء لك من عبودة الرحمن.

***

---

(1) الذَّيَّال من الخيل المتبختر في مشيه. لسان العرب: ذيل.

قال: وذلك أن الخَضِر كان له موضع معلوم على بعض شواطئ البحر، فإذا خرج الخَضِر إلى البرِّ، عبد الله تعالى فيه. قال: فغرس في ذلك الموضع شجرةً، يعبد الله تعالى في ظل أغصانها، إذا اشتهى العبادة فيها، واستتر بها في عبادته، فعلم الله منه حبَّ الدنيا بقدر ما اشتهى من تنزهه بها، وإن كان ذلك في طاعته، فعاقبه الله تعالى بذلك السائل، حتى صارت عبادته في عبادة عبدٍ من عباد الله، ولم يدر الخَضِر أنه ابتلي بذنب، حتى سمع ما سمع من العابد القائم على ظهر الماء، وكان اسمه سادون بن أشى.

فلمّا سمع الخَضِر بذلك، خرَّ ساجداً، وهو يقول: يا ربِّ ما طلبت بذلك إلا وجهك ورضاك. فنودي: يا خضر، آثرت الدنيا على الآخرة، وفرغت قلبك لحبها دون حب الآخرة، وعزَّتي، ما لي في حبها رضاء، ولا أكرم مَن أحبَّها، ولو كان لي في حبها رضاء، لخصصت بها أوليائي، ولكن أزويها عنهم؛ لهوانها عليَّ، وكرامتهم لديَّ، أذهب، فلا مرغب لي فيمن رغب في الدنيا، وأمكنها من قلبه، فلولا ما أدركك من دعاء سادون، لأنزلت عليك بوائقي[1]، ولتتابعت عليك عقوباتي، وذلك أن سادون طلب، في مكانه الذي كان يسكن فيه، أن يراه فلم يره في مقعده، ولم يجده، فدعا الله أن يُدلَّه على الخَضِر، ويعلمه مكانه، وكان يعرف الخَضِر، والخَضِر لا يعرفه

***

قال: فأري أن الخَضِر أحبَّ الدنيا وزهرتها، وعوقب بعقوبة كذا وكذا، فوقف بين يدي الله قائماً على الماء، شاخصاً ببصره إلى السماء، وهو يقول: يا ربِّ، إن أنت أهنت عبدك الخَضِر بعد كرامته، فمن يكرمه؟، يا ربِّ، ارتكب عظيماً، وحمل ثقيلاً، وخان نفسه ونسي العهد، يا من لا ينسى كلَّ ما كان ويكون من أمر عباده، أذكر، عند ذنوب الخَضِر، ما مننت به عليه من أنواع طاعتك، وعظيم عبادته إياك، يا من ناصية الخَضِر بيده، يا من ليس له حراك نفسٍ، ولا عصمتها، ولا طرفة عين، إلا بأمرك ومشيئتك وقدرتك، يا ربِّ، فاغفر له ما قدرت عليه من معصيتك، وقدر عليه طاعتك، فإنها تذهب معصيتك، يا ربِّ، فاستجاب الله له، وخلص الخَضِر مما كان ابتلي به من العقوبة.

فرفع الخَضِر رأسه، وأتى من ساعته سادون، وهو يقول: يا سادون الممنون عليَّ بمنة الله وجلاله، أين عرفتني، ولم أعرفك يا أخي؟. فقال له سادون: يا خضر، إن قلوب أولياء الله زاهرة نائرة، لها شعاع كشعاع الشمس، تطلع على قلوب أولياء الله، ألا ترى إلى الشمس ما أعظمَ قدرَها، وأكثر ضوءَها، فلو غشيتها الظلمة القليلة، لأذهبت بأكثر ضوئها، وكذلك قلب وليِّ الله، صاف طاهر، فلو غشيه حبُّ الدنيا بقدر ذرَّةٍ، لأكدر ضوءها، ولأضعف شعاعها، فإذا خلص القلب من حبِّ الدنيا، تراه ينظر إلى أولياء الله في مظانهم، وقد عرفك قلبي، فو الله، لو

(1) بوائق جمع بائقة، وهي البلية. لسان العرب: بوق.

كان قلبك للدنيا مثل قلبي، لعرفني قلبك، كما عرفك قلبي.

فقال له الخَضِر: يا سادون، وكيف قلبك للدنيا؟. قال بلغ من بغض الدنيا ما لو أن الله تعالى عرض عليَّ الدنيا والجنَّة، لأبيت قبولها، ولست أريد الجنَّة مع ما أبغضها الله، وذلك أني أؤثر رضاء الله على رضائي، فإن رضاء الله ترك الدنيا ورضائي دخول الجنَّة، ولو أن الله خيَّرني بين أن أبقى في الدنيا ونعيمها، خالداً مخلداً أبداً لا أموت فيها، وبين أن يقبضني ويدخلني النار الساعة، لاخترت أن يقبضني ويدخلني النار الساعة، وذلك أني أؤثر سخطي على سخط الله تعالى، وأن حبَّ الدنيا سخط الله، ودخول النار سخطي، أفتجد ذلك في قلبك يا خضر؟. قال: لا. قال: لو كان ذلك في قلبك، لكان يراني قلبك.

اذهب؛ فليكن أكثر عبادتك بعض ما أبغض الله، وهي الدنيا، ليس حبُّها بجمع أموالها وشهواتها وزهرتها، ولكن حبُّ الدنيا أن يشغل قلبك عن حبِّ الآخرة، ولو طرفة عين، أبغضها بغضاً لا يكونن شيء أبغض إليك منها، فإنك لا تطيق أن تحبَّ الآخرة إلا على قدر ما تبغض الدنيا.

فقال: يا سادون، ادع الله تعالى أن يتوب عليَّ بما ارتكبت، فإني استحيي من ربي أن أدعوه، فقد حاربته مع عدوه. فقال سادون: يا ربِّ، قدرت على عبدك الذنب، فارتكب من الذنب ما ارتكب، وما كان أهلاً لذلك، وهو عدل منك، يا ربِّ، ثمَّ قدرت له الخلاص من عقوبتك، يا ربِّ، وألهمته طلب التوبة من ذنوبه، يا ربِّ، فتب عليه، فقد عرف ذنبه توبةَ مصرٍّ غير عائد، يا ربِّ، إن الخَضِر سألني أن أدعوك فقد دعوتك، مُدِّلاً عليك بما وعدتني، من حسن إجابتك في أوليائك.

فنودي: مُر الخَضِر أن يزهد في الدنيا، فإذا زهد في الدنيا اشتاق إليَّ، ومن اشتاق إليَّ اشتقت إليه، ولا أشتاق إلى من لا أريد مغفرته، ولم أرض عنه. فأخبره سادون، فزهد بعد ذلك الخَضِر زهداً، لم يزهد أحد مثله.

وكان سادون رجلاً ملاحاً، فكان ذات ليلة نائماً على شاطئ البحر، إذ خرجت سمكتان، فوقعتا حذاءه، فسكت عنهما سادون رجاء أن يخرجا إلى البرِّ، فيأخذهما. فنادته إحداهما: يا سادون، أبلغ حبُّك الدنيا أن تطمع في برِّها وبحرها!، والله، إنك طمعت أن تصطاد من هو أعبد إلى الله منك. فنادتها صاحبتها: يا هذه، أتمنين على سادون بعبادتك، ولم تؤدي شكر نعمةٍ أنعمها الله عليك.

فقال: من أنتما؟. فقالت الأخيرة: أما التي نادتك بالكلام الأول منَّت على الله، فمسخها الله الآن، فها هي ذي ممسوخة خرساء، وأما أنا، فمن جنس السمك الذي كان يونس بن متى في بطنها. فقال سادون: كيف خصَّها الله بيونس، من بين دواب البحر؟. قالت: كانت تعبد الله في البحر بزهدها. قال: فكيف كان زهدها؟. قالت: كانت لا تبرح، فإن أوتيت صيداً عفواً أكلته،

وإلا صبرت، فكانت دواب البحر تسمِّيها: السمكة الزاهدة. فأكرمها الله بنبيه ورسوله؛ إكراماً لها بزهدها. فزهد سادون في مكانه زهداً، وأخلص لله عبادته، فقام من ساعته، فمرَّ على الماء، فلمَّا توسَّط البحر، وقف فلم يزل إلى أن صار إلى الخَضِر، يعبد الله ويدعوه[1].

طلب موسى لقاء الخَضِر

أعطى الله تعالى: التوراة لموسى، وآتاه من العلم كثيراً، فقال: يا ربِّ، هل آتيت أحداً من عبادك مثلما آتيتني؟، فأوحى الله إليه: أن لي عبداً، آتيته من العلم ما لم آتك، يعني به الخَضر[2].

فقال موسى: يا رب، أسألك أن تأذن لي في طلبه، فإذن الله تعالى له في طلبه، وقال له: يا موسى، إنه من عبادي الذين لم أجعل للشيطان عليهم سبيلاً، وإن سكنه في جزيرة من جزائر البحر، فانطلق نحو البحر، فإني أدلك عليه، فسار موسى نحو البحر، ومعه فتاه يوشع بن نون، وقد حمل معه خبز الشعير، وحوتاً مالحاً، ومشيا على الساحل أياماً حتى وصلا إلى صخرة عظيمة على الساحل، فنظر موسى، فإذا هو بعين ماء يخرج، ويفيض إلى البحر، فقعد موسى عند الصخرة يستريح، فغلبته عيناه، فنام، وقعد يوشع بن نون عنده، وكان زادهما في زنبيل صغير موضوع إلى جنبهما، وكان في الزنبيل شيء من خبز الشعير وحوت مالح، قد أكلوا بعضه، فإذا بالحوت قد سقط في تلك العين، ومرَّ حتى صار إلى البحر.

وانتبه موسى بعد ذلك، وخشي يوشع أن يخبره بخبره، وبما شاهد من الحوت، فجعلا يمشيان، حتى بلغا نهراً، يصب في البحر، فقعد موسى على ساحل البحر، وقال ليوشع: { آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا }، فأخرج يوشع من الزنبيل خبز الشعير، ولم ير الحوت، فذكر ما كان من أمره، وذهابه في البحر، فأخبر موسى بذلك، وقال: نسيته، { وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ }، فقال موسى: { ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا } حتى صارا إلى الصخرة، ونظر موسى يمنة ويسرة، فإذا هو بالخَضِر، يصلِّي، بجزيرة من الساحل، فقال موسى لفتاه: إني قد وجدت صاحبي، فارجع أنت إلى بني إسرائيل، وكن مع هارون إلى أن أرجع إليكما، إن شاء الله، فمضى يوشع.

ونزل موسى عند الصخرة، فجعل موسى يمشي حتى وصل إلى الخَضر، فوقف ينتظر فراغه من الصلاة، فأحس به الخَضر، فالتفت من صلاته، وقال: السلام عليكم يا موسى بن عمران، فقال موسى: وعليك السلام، أيها العبد الصالح، ثمَّ قال موسى: من أين عرفتني؟، فقال: عرفك إلي من عرفني إليك، ثمَّ قال له الخَضر: يا موسى، سل عما بدا لك، فقال موسى: { هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ

---

(1) نوادر الأصول 4: 228.

(2) المعارف: 43. والبدء والتاريخ 3: 77. 196. واسم الخَضِر، فيما كان وهب بن مُنبِّه يزعم عن بني إسرائيل، إرميا بن خلقيا، وكان من سبط هارون بن عمران. تاريخ الرسل والملوك 1: 220.

تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا } سورة الكهف: 62، 63، 64، 66 – 67، 69، 70. يعني لا تسألني عنه، إذا كان منكراً عندك.

ثم سارا إلى الساحل، وإذا بطائرٍ، قد أقبل، وغمس منقاره في البحر، ثمَّ أخرجه، فمسحه على جناحه، ثمَّ طار نحو المغرب، حتى غاب، ثمَّ رجع نحو المشرق، فصاح، فقال الخَضِر: يا موسى، أتدري ما يقول هذا الطائر، قال: لا، قال الخَضِر: يقول: ما أتي بنو آدم من العلم إلا بقدر ما غمست منقاري به من هذا البحر، فعج موسى، من علمه.

سفينة المساكين

فسارا على البحر، فإذا هما بسفينةٍ، وقد رفع أهلها شراعها، وهم يسيرون في وسط البحر، فجعل الخَضر يومئ إليهم، فدخلوا إليه، وقالوا: ما حاجتك؟، قال: إنا نريد موضع كذا وكذا معكم، فقربوا السفينة وحملاهما وساروا حتى صاروا في لجة البحر، فعمد الخَضر إلى لوح من ألواح السفينة، فانتزعه، وسدَّ مكانه بخرقة، كانت معه، فقال له موسى: { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا}، وليس هذا جزاءهم، حيث يحملوننا في سفينتهم، قال الخَضر: { أَخَرَقْتَهَا لِتَغْرِقَ أَهْلَهَا}، فسكت موسى، ثمَّ { قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ }.

ثم ساروا قليلاً فاستقبلتهم سفينة ذلك الملك الذي في ذلك البلد، وكان يقال له: الجلندي بن كركر[1]، فقالوا: الملك يريد سفينتكم، إن لم يكن فيها عيب، فدخلوها، فوجدوا فيها عيباً، فهو موضع ذلك اللوح، فتركوها وانصرفوا، ولم يأخذوها، فلمَّا علم الخَضر انصرافهم، عمد إلى ذلك اللوح فرده مكانه، ثمَّ بلغوا الساحل.

الغلام الكافر

فخرج الخَضر وموسى من السفينة، وجعلا يمشيان، فلقيا غلماناً يلعبون، وفي وسطهم غلام، لم يكن فيهم أحسن منه، فأخرجه الخَضر من بينهم، وعمد إلى صخرة عظيمة، فضرب بها رأس الغلام، فقتله، فعظم ذلك على موسى، وقال: أيها العبد الصالح، { أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا }، قال: يا ابن عمران، { أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا }، قال موسى: { إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا } سورة الكهف. 71، 72، 73، 74 – 76.

الجدار

ثم سارا حتى { إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا

---

(1) في جامع البيان 18: 84، هدد بن بدد، وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 202، اسمه جلندي، وكان كافراً، وعن ابن إسحاق: منواه بن جلندي الأردني.

يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ }[1] الخَضر بأن جمع الطين والحجارة وسواه، فضجر موسى وقال: ما هذا التكلُّف لقوم استطعمتهم، فلم يطعموك، فهلا اتَّخذت عليه أجرة؟ !، قال له الخَضر: يا ابن عمران، { قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا . أَمَّا السَّفِينَةُ }، فإنما خرقتها؛ لأنها كانت لعشرة: خمسة مرضى، وخمسة أصحاء، وكان الأصحاء يعملون لأولئك المرضى[2]، وكان هناك ملك يقال له: الجلندي بن كركر، وكان يغصب كل سفينة لا يكون فيها عيب، فانتزعت لوحاً، لئلا يأخذها، ثمَّ رددت اللوح حين أمنت منه، ولم يضر أرباب السفينة ذلك الانتزاع.

{ وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ }، وكان اسمهما أصرم، وصريم[3]، { وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا }، ولو سقط الحائط، لكان يضيع الكنز، فأراد الله أن يبقيه عليهما؛ لأن أباهما كان صالحاً، ثمَّ قال الخَضر: يا ابن عمران: { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } سورة الكهف: 77 - 78. 79، 81، 82.

فبكى موسى على فراقه، فقال موسى للخضر: أوصني، قال الخَضر: يا موسى، اجعل همك في معادك، ولا تتدخل فيما لا يعنيك، ولا تأمن الخوف في أمنك، ولا تيأس من الأمن في خوفك، ولا ترد الإحسان في قدر، وتدبر الأمور في عاقبتك، قال موسى: زدني - رحمك الله -، قال: إياك والإعجاب بنفسك، والتفريط فيما بقى من عمرك، وهمة من لا يغفل عنك، قال له موسى: زدني - رحمك الله -، قال الخَضر: إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجيبة، ولا تعير الخاطئين بخطاياهم بعد الندم والتوبة، وابك على خطيئتك يا ابن عمران، قال له موسى: قد أبلغت في الوصية، فأتم الله عليك نعمته، وعمرك في رحمته، وكلأك من عدوه.

قال الخَضر: فأوصني أنت يا موسى، قال له موسى: إياك والغضب لغير الله، أو أن ترضى من أحد إلا في الله، ولا تحب الدنيا، وابغضها، فإن حبها يخرجك من الإيمان، ويدخلك في الكفر، قال له الخَضر: قد أبلغت في الوصية، فأعانك الله على طاعته، وأراك السرور في أمرك، وحببك إلى خلقه، وأوسع عليك من رزقه، قال له موسى: آمين، وودعه وعاد إلى بني إسرائيل.

البقرة

قال وهب وكعب : كان في بني إسرائيل رجل صالح، مات وترك زوجته حاملاً، فولدت ولداً سمته ميشا، فنشأ صالحاً، باراً بأمه كثير العبادة، يحتطب وينفق على أمه، ويأمرها بالصلاة، فكانت تصلي جالسة، إذا لم تقدر على القيام، ولم يزل كذلك، حتى ضعف عن الاحتطاب، فقالت

(1) قال وهب: كان جدارا طوله في السماء مائة ذراع. الكشف والبيان 6: 185. والجامع لأحكام القرآن 11: 33.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 202. عن كعب.

(3) قصص الأنبياء للثعلبي: 203.

له أمه: يا بني، إن أباك، لمَّا مات ترك عجلة، دفعتها إلى راعٍ، اسمه كذا، فسر إليه، وخذها منه ولا تتركها، وإن من علامتها أنك إذا نظرت إليها، يخيل إليكَ أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها وصفاء لونها، فخرج من عند أمه، فتمثل له إبليس في صورة راعٍ، فقال له: أين تريد؟، فأخبره، فقال له: إن ذلك الراعي قد مات، وإن الأسد أكل البقرة، وهذا ذنبها عندي، فقال له: كذبت، وإن أمي لم تخبرني بذلك.

فانصرف خائباً، وتوجه ميشا نحو الراعي، فسلم عليه، وذكر له مقالة أمه، فأعطاه الراعي البقرة، ودعا له فيها بالبركة، وأمسك ميشا أذن البقرة، ورجع إلى أمه، فأتاه إبليس، في صورة شيخ هرم، وقال له: يا فتى، احملني على بقرتك، وأجرك على الله تعالى، فقال له: إن أمي لم تأمرني بذلك، فقال: احملني عليها، وأنا أدفع لك، لكلِّ خطوة مثقالاً من ذهب، فقال: إني أمي لم تأمرني بذلك، فقال له إبليس: إنك لعاجز، لا تعرف حظ نفسك، فقال له ميشا: لقد أكثرت علي، فإن كنت آدمياً، فاذهب عني، فإني لا أعصي ربي بمخالفة أمي، وإن كنت شيطاناً، فعليك لعنة الله، فانصرف عنه خائباً.

ثم إن البقرة كلَّمت ميشا، وقالت له: أيها العبد البارُّ بأمه، إن الطريق بعيد فاركبني، فقال: إن أمي لم تأمرني بذلك، ولما وصل ميشا إلى أمه أخبرها بذلك، فقالت له: يا بني، اذهب بالبقرة إلى السوق، وبعها بثلاثة دنانير، ولا تمض البيع، حتى تستأذني، فذهب بها إلى السوق، فأتاه ملك، في صورة آدمي، وقال له: بكم تبيع بقرتك؟، قال: بثلاثة دنانير، على أن استأذن أمي، فقال له الملك: بعنيها بخمسة دنانير، ولا تستأذن أمك، قال: لا، ثمَّ أقبل إلى أمه، وأخبرها بذلك، فقالت له: بعها بخمسة دنانير، على أن تستأذني، فرجع إلى السوق.

فأتاه الملك، وقال له: بكم تبيعها؟، قال: بخمسة دنانير، على أن استأذن أمي، فقال: أنا أعطيك فيها عشرة دنانير، ولا تستأذن أمضك، قال: لا، ثمَّ عاد إلى أمه وأخبرها بذلك، فقالت له أمه: يا بني، اعلم أن هذه البقرة لا تساوي هذا الثمن، وأن هذا الذي يكلأك[1] فيها ملك من الملائكة، يختبرك، كيف برك بأمك، فإذا أتاك من الغد، فقل له: أيها الملك الكريم، أخبرني بكم أبيعها؟.

فلمَّا كان من الغد، أتاه الملك، فذكر له مقالة أمه، فقال له: ارجع ببقرتك إلى أمك، واعلم أنه سيقتل في بني إسرائيل قتيل، ولا يعرف قاتله، إلا من جهة هذه البقرة، فلا تبعها إلا بملء جلدها ذهباً، ثمَّ انصرف الملك عنه، فرجع ميشا بالبقرة إلى أمه، وأخبرها بذلك[2].

ثم قتل في بني إسرائيل قتيل، يعرف بـعاميل، وكان قد دعاه بعض أقاربه إلى ضيافة، فقتلوه وسلبوه، ثمَّ حملوه إلى محلة أخرى، فألقوه على باب دار، ثمَّ شاع الخبر بقتله، وتعلق

(1) يكلأ يؤخر البيع.

(2) النص كاملًا في قصص الأنبياء للثعلبي: 207 عن ابن عبَّاس ووهب، وغيرهما من أهل الكتاب.

ورثته بأهل الدار التي وجد على بابها، واستعدوا عليهم موسى، وحلفوا وأحضروا أربعين رجلاً من الصالحين، وشهدوا عليهم، فتحير موسى في أمرهم، فأوحى الله تعالى إليه: أن قل لأول ياء القتيل أن يشتروا بقرة، ويذبحوها ثمَّ يضربوا القتيل ببعضها، فإن الله تعالى يحيي القتيل، ويخبرهم بقاتله، فذكر موسى ذلك.

{ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ } ما صفة هذه البقرة؟، فأوحى الله تعالى إليه: { إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ }، فذكر لهم موسى ذلك، فقالوا: اسأل { لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا }. فأوحى الله تعالى إليه { إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ }[1]، فذكر لهم موسى ذلك، { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ[2] مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ }.

ثم جدوا في طلبها، فلم يجدوا تلك الصفة، إلا في بقرة ميشا، ولو إنهم ذبحوا أي بقرة كانت، لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، فشدد الله عليهم، وامتنع ميشا أن يبيعها إلا لموسى، فأجابوه إلى ذلك، وأقبلوا به إلى موسى، فقال له: بكم تبيعها؟، قال: لا مساومة بيني وبينك، ولا أبيعها إلا بملء جلدها ذهباً[3]، فقال لهم موسى: هذا بتشديدكم على أنفسكم، فضمنوا له ذلك، وضمن موسى لميشا ذلك، فأعطاهم البقرة فذبحوها، وضربوا القتيل بذنبها وسنامها[4]، فاستوى جالساً، وأخبرهم بصورة قتله ومن قتله، ثمَّ خر ميتاً.

فأخذ موسى قاتليه، فقتلهم، ثمَّ سلخوا البقرة، وملأوا جلدها ذهباً، ودفعوه لميشا، وذلك قوله تعالى: { فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } سورة البقرة: 67 – 70، 73[5].

وفاة هارون

فلمَّا كان بعد ذلك، نظر هارون إلى جبل التيه، فقال لموسى: ألا تمضي إلى ذلك الجبل، فننظر إلى ما فيه من الخَضِرة والنضارة في غد إن شاء الله، فلمَّا كان من الغد مضى مع هارون أولاده، فإذا هو جبل كثير المياه والعشب، وإذا فيه كهف واسع، يسطع منه النور، فدخلوا ذلك الكهف، فإذا هم بسريرٍ من ذهب، عليه أنواع من الفرش، مكتوب على حافتي السرير بالعبرانية، ذلك

(1) قال وهب: {تسر الناظرين } إذا نظرت إلى جلدها، يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها. تفسير ابن أبي حاتم 1: 140.

(2) ليست بذلول ولا صعبة. عن وهب. نفسه 1: 414.

(3) سرد مختصر عن وهب في بحر العلوم 1: 63.

(4) بفخذها. جامع البيان 2: 230، وأقوال أخرى في قصص الأنبياء: 208.

(5) العظمة 5: 1765. والكشف والبيان 1: 216. وبحر العلوم 1: 64.

لمن كان السرير على طوله، فتقدَّم موسى فنام عليه، فجاوزت رجلاه السرير لطوله، فنزل منه.

وصعد إليه هارون، فإذا هو على طوله، فقال: يا موسى إن هذا لي؛ لأنه على طولي، ثمَّ أراد أن ينزل، فإذا هو بملك الموت قد دخل على صورة شاب، حسن الوجه الثياب، فقال: السلام عليك يا ابن عمران، أتعرفني؟، قال موسى: فإنا لم نرك قبل هذا، فمن أنت؟، قال: أنا ملك الموت، أرسلني ربي لقبض روح هارون، فدمعت عينا هارون، وقال: يا أخي، أوصيك بأولادي فقربهم إليك، وتقرئ السلام مني لبني إسرائيل، فبكيا جميعاً، موسى وهارون وأولاده.

ثم إنه أخرج موسى وأولاده من الكهف، وقبض روح هارون، فغسلته الملائكة، وكفنوه بأكفان من الجنَّة، ثمَّ خرج موسى، وأولاد هارون، فصلوا عليه، وانصرفوا ثمَّ دخلت الملائكة، وسدوا باب الكهف[1]، وحزنت بنو إسرائيل على هارون حزناً شديداً، فأوحى الله إلى موسى: أن قل لبني إسرائيل: إني قد أبقيت فيكم شبهه ولينه ورفقه، وكانوا لا يشكون أنه هارون، وأحبوه حباً شديداً، وكان ينشر لهم التوراة، ويتلوها عليهم[2]، [وهو الذي كان يجمر الكنائس][3].

قال: إن الله تعالى أعطى موسى نورًا، فقال له هارون: هبه لي يا أخي. فوهبه له ثمَّ أعطاه هارون ابنيه، فكان في بيت المقدس آنية تعظمها الأنبياء والملوك من بعدهم، فكانا يسقيان في تلك الآنية الخمر، فنزلت نار من السماء فاختطفت ابني هارون فصعدت بهما، ففزع هارون لذلك فقام متشعثًا متوجهًا بوجهه إلى السماء بالدعاء والتضرع، فأوحى الله تعالى إلى هارون: هكذا أفعل بمن عصاني من أهل طاعتي، فكيف أفعل بمن عصاني من أهل معصيتي[4].

العابد والفاسق

وكان في بني إسرائيل رجلان، أحدهما أعبد أهل زمانه، وكان الآخر أفسق أهل زمانه، فماتا جميعاً في يوم واحد، فصلى موسى على الفاسق دون العابد بأمر الله تعالى، فعجبت بنو إسرائيل من ذلك، وقالوا: يا نبي الله: لم فعلت ذلك؟، فقال: سلوا زوجتيهما عن أحوالهما، فسألوا عن أحوال العابد، فقالت: إنه كان عابداً مجتهداً، غير أنه كان يقول: طوبى لنا، إن كان ما جاء به موسى حقاً، ثمَّ سألوا عن الآخر، وهو الفاسق، فقالت: إنه كثير الفسق غير أنه كان يقول: اللهم، بارك لنا فيها آتيتنا على لسان نبيك، وكليمك موسى، فقالت بنو إسرائيل: كان موسى أعرف بالرجلين منا.

---

(1) تفصيل آخر لموت هارون في أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 336.

(2) أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 338.

(3) مصنف بن أبي شيبة 7: 221.

(4) الزهد لأحمد بن حنبل: 71. وحِلية الأولياء 4: 59. ومصنف ابن أبي شيبة 7: 184. وفي تاريخ مدينة صنعاء: 435. سرد مختلف.

موسى وامرأة العابد

وكان في بني إسرائيل رجل عابد، وكان موسى يحبه، فأصابته مجاعة بعد موسى، فأرسل زوجته في طلب شيءٍ يأكلونه، وكانت جميلة، فأقبلت إلى رجل من أشراف بني إسرائيل، فذكرت له ما بها وبزوجها من المجاعة، وسألته شيئاً، فأبى أن يعطيها شيئاً، حتى تمكنه من نفسها، فرجعت إلى زوجها، وأخبرته بذلك، فقال لها: ارجعي إليه، وكلميه، فإنه لا يفعل ذلك، فعادت إليه وكلمته، فقال لها مثل مقالته الأولى، فرجعت إلى زوجها، وأخبرته بذلك، فقال: ارجعي إليه، فإنه لا يفعل ذلك، قال لها ذلك ثلاث مرات، وهو يقول كذلك، فأجابته.

فلمّا خلا بها، وأرادت أن يقربها، أخذتها الرعدة، فقال لها: ما بالك؟، فقالت: إني أخاف الله تعالى، فقال لها الرجل: أنت تخافين الله تعالى، مع فقرك، ولا أخافه أنا، وقد أغناني، فدفع لنا مالًا جزيلًا، ورجعت إلى بعلها، وأخبرته بذلك، فأوحى الله تعالى إلى موسى: أن قل لفلان بن فلان، إني غفرت له، فدعاه موسى، وسأله عن عمله، وأخبره بخبره مع المرأة، فقال له موسى: إن الله قد غفر لك ذنوبك كلها.

موسى وإبليس

وبينما موسى يوماً على باب منزله، إذ أقبل إبليس ـ لعنه الله ـ وعليه برنس، فلمّا دنا من موسى خلع برنسه، ووقف بين يديه، فلم يعرفه موسى، وقال: من أنت؟، فأخبره أنه إبليس، فقال له: ما الذي جاء بك؟، قال: جئت لأسلم عليك، قال موسى: لا سلم الله عليك، يا ملعون، ولكن لماذا البرنس؟، قال: يا نبي الله، أخطف به قلوب بني آدم، قال موسى: يا إبليس ما الذنب الذي إذا أذنبه العبد استحوذت عليه؟، فقال: إذا أعجبته نفسه، وتكبر واستكثر عمله، ونسي ذنبه، ولكن يا موسى: أوصيك بثلاث خصال، لا تخلون بامرأة لا تحل لك؛ فإنه ما خلا رجل بامرأة إلا كنت أنا صاحبه دون أصحابي، ولا تعاهدن عهداً إلا وفيت به؛ فإنه ما عاهداً أحد عهداً لربه إلا كنت أنا صاحبه دون أصحابي، لأنقضه عليه، ولا تهمن بصدقة إلا أوصلتها؛ فإنه ما هم أحد بصدقة أو خير إلا كنت صاحبه، حتى أحول بينه وبين ذلك، ثمَّ ولى وهو يقول: يا لها من ثلاث[1].

القَدَر

بلغني أن موسى رفع رأسه إلى السماء، فقال: إلهي وسيدي، لو شئت أن تطاع لأطعت، وأنت تحب أن تطاع، وأنت في ذلك تعصى، فأوحى الله إليه، إني لا أسأل عما أفعل، وهم يسألون، فقال: إلهي، خلقت خلقاً تعذبهم بالنار، فأوحى الله تعالى إليه: ان ازرع زرعاً واسقه، وقم إليه، وأحسن إليه، ففعل، ثمَّ حصده، فأوحى الله تعالى إليه، بعد أن صفاه ورفعه: فقال يا موسى، ما

(1) شعب الإيمان 5: 118.

فعل زرعك؟، قال: إلهي قد رفعته، وصفيته، قال: فهل تركت منه شيئاً؟، قال: نعم، ما لا خير فيه، قال: فكذلك أنا، لا أعذب من خلقي إلا من لا خير فيه، فسكت موسى عن ذلك[1].

وصية موسى

ثم قام موسى في بني إسرائيل خطيباً، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه ووعظهم وحذرهم وبشرهم، وأشهدهم على أنفسهم، وأشهد الله تعالى بالبلاغ، وقال لهم: { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } سورة النحل: 91، ولا تأكلوا الميتة والدم ولحم الخنزير[2]، { وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } سورة النساء: 2، { وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} سورة الأنعام: 121، { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } سورة المائدة: 2، واتقوا الله ما استطعتم في السر والعلانية، وعليكم بالصلاة والزكاة، وكونوا لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف، وللمسكين كالأخ الشقيق، وانصروا المظلوم على من ظلمه، ولا تحرفوا التوراة، فإن أنتم فعلتم ذلك، نزلت عليكم السكينة والرحمة[3].

وفاة موسى

قال كعب ووهب: فلما دنت وفاة موسى، أوحى الله إليه: إني قابضك[4]، فحزن موسى، وعلم أنه للموت لا محالة، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، إني قبضت أخاك هارون، فحزنت عليه، وأخبرتك إني قابضك، فحزنت، ما هكذا ينبغي لمثلك، وأنت تسمع كلامي، قال موسى: يا رب، أولادي أطفال، فأمره الله أن اضرب بعصاك البحر، فضرب بعصاه البحر، فانفلق، فإذا فيه صخرة سوداء.

فأوحى إليه، أن اضرب بعصاك الصخرة، فضرب الصخرة فانفلقت، وخرجت من جوفها دودة سوداء أصغر من ذبابة، وهي تنادي، بلسان فصيح: سبحان من لا ينساني في بعد مكاني، سبحان من يراني، ويعلم مكاني، ويرزقني وليس ينساني، فخر موسى ساجداً لله، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، إني حكمت على جميع خلقي بالموت، فكره موسى الموت، مع التسليم للموت لا للقاء ربه، ولكن لمرارته.

فنزل ملك الموت عليه، وهو جالس يقرأ التوراة، فقال: السلام عليك يا كليم الله. فقال موسى: وعليك السلام، من أنت؟. قال: أنا ملك الموت، جئتك لقبض روحك. قال موسى: فمن أين تقبض روحي؟. قال: من فيك. قال: قد كلمت به ربي. قال: فمن يدك. قال: قد أخذت

---

(1) القضاء والقَدَر للبيهقي: 261.

(2) تضمين قوله تعالى: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } سورة البقرة: 173.

(3) وصية أخرى في قصص الأنبياء للثعلبي: 219. وأساطير اليهود، دار الكتاب 3: 355.

(4) قال الرب لموسى هوذا أيامك قد قربت لكي تموت. العهد القديم، سفر التثنية 31: 14.

بها الألواح من ربي. قال: فمن رجليك. قال: قد وقفت بها على الطور، أناجي ربي. قال: فمن عينيك. قال: قد رأيت بها نور ربي. قال ملك الموت: أراك يا موسى، تكلّمني كلام من شرب الخمر. فاختلط عقل موسى عند ذلك، قال: ما شربت. قال: فادن مني حتى استنكهك. فدنا منه موسى، فاستنكهه، فقبض روحه في نكهته[1].

(1) استنهكه جهده وغلبه. لسان العرب: نهك. والقصة في أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 436. وسرد آخر وكيفية أخرى عن وهب في تاريخ الرسل والملوك 1: 434. وهو في المستدرك على الصحيحين 2: 634. والكشف والبيان 4: 46. وقصص الأنبياء للثعلبي: 220. والبداية والنهاية 2: 225. وفي حِلية الأولياء 4: 37. عن وهب كيفية أخرى. وهي في تاريخ دمشق 61: 176.

يوشع بن نون

قال وهب بن مُنبِّه[1]: بلغني أن يوشع بن نون، وهو فتى موسى أخذ من بعد موسى[2]، في الجهاد، ففتح الله على يديه نيفاً وثلاثين مدينة، من مدائن الكفار، فأول هذه المدائن مدينة أريحا[3]، فسار يوشع بن نون، حتى نزل بساحة الجبارين، وتقاتلوا، فقتل من الطائفتين خلق كثير، ثمَّ انهزم الجبارون، فدخلوا مدينتهم، وذلك يوم الجمعة عند المساء، وخشي يوشع بن نون إن غربت الشمس أن يحملوا عليهم، لأنها كانت ليلة السبت، وقد أمروا فيه بالعبادة، ولم يكن بينهم، وبين الغروب إلا قيد رمح.

وإن قيد رمح على العبادة مسيرة أربعين عاماً، وهي ساعة من ساعات الشمس، لأنها تسير في كل يوم مسيرة ستمائة عام، من شرقها إلى غربها. فنظر بنو إسرائيل إلى الجبارين، وهم فرحون بتمثال يوم السبت، فذهبوا إلى يوشع بن نون، وذكروا له إنهم يخافون جنودهم، فعند ذلك بسط يوشع بن نون يديه إلى السماء، ودعا ربه، وقال: اللهم، إن بني إسرائيل، ولد خليلك، قد أصبحوا كالشامة في جنب البعير، أو كالشامة البيضاء في الثور الأسود، بل أقل وأضعف، اللهم، إنك قد علمت ما نحن فيه، فاحبس الشمس بقية يومنا، حتى نجاهد أهل أريحا.

فأمر الله الملك الموكَّل بالشمس، أن يحبسها في برجها، فحبسها الملك، حتى فرغ يوشع بن نون من الحرب، وأبادهم الله، وأزاحهم عن أريحا[4]، فغنم غنائمها، ثمَّ غابت الشمس، فمن يومئذ بطلت أحكام النجوم، ولم تحل الغنائم، قبل نبينا محمد لأحد من الأنبياء، إلا ليوشع، وكان عنده القميص الذي كساه الله هارون، وله اثنا عشر علمًا، على عدد أسباط بني إسرائيل، فإذا غنم أحد منهم شيئاً، تغير علمه من ذلك القميص، حتى يرده إلى المغنم، وإن لم يرده وقعت عليهم الهزيمة، فتغير علم منهم، في ذلك اليوم، فدعا ذلك السبط، وسألهم، فأخرجوا قطعة منسوجة بالذهب، فأمر بها، فأحرقت بالنار.

ثم دخل يوشع بن نون مدينة أريحا، فاقتسموا غنائمها، فلمَّا فرغ يوشع بن نون من مدينة أريحا، سار بمن معه، نحو بلاد كنعان، فجعل يقاتلهم، حتى قتل منهم أكثر من ثلاثين ملكاً[5]، وفتح منهم ثلاثين حصناً، فلمَّا فرغ من ذلك نزل ببيت المقدس، مع بني إسرائيل، وكان يأمرهم

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 523.

(2) كان يوشع (يشوع) بعد موسى، وقد دام حكمه فيهم سبعاً وعشرين سنة. قاموس الكتاب المقدس: يوشع.

(3) أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 17.

(4) العهد القديم، سفر يشوع 10: 12 – 14. وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 3: 64، 4: 20.

(5) واحد وثلاثين ملكاً في أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 24.

بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، حتى قبضه الله إليه، وهو يومئذ، ابن مائة وعشرون سنة، وكان ملكه بعد موسى، أربعين سنة[1].

(1) العهد القديم، سفر يشوع 10: 28 - 42. دائرة المعارف الكتابية 8: 275. وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 28.

يوشا بن كالب بن يوقنا

وكان يوشع[1] قد استخلف كالب بن يوقنا[2] على بني إسرائيل، وكان كالب زاهداً، فسار، في بني إسرائيل، سيرةً حسنة، حتى قبضه الله تعالى، فاستخلف عليهم ابنه يوشا، وكان يشبه يوسف في حسنه، حتى إن النساء والرجال كانوا يفتتنون به، فدعا ربه أن يغير خلقه، فضرب الله تعالى وجهه بالجدري، فتمعط شعره[3]، وذهبت محاسنه، فأنكره الناس، فلا يستطيع أحد النظر إليه، لقبح منظره، وعلم بنو إسرائيل أنه هو الذي اختار ذلك، إيثاراً لطاعة ربه، فسيَّدوه على أنفسهم، وكانوا يسمعون له ويطيعون، وأقام فيهم أربعين سنة، حتى قبضه الله تعالى[4].

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 525.

(2) قال الطبري: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين، وأمور الأمم السالفين من أمتنا وغيرهم أن القيم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع، كان كالب بن يوفنا (يفنة القنزي)، ثمَّ حزقيل بن بوذي (بوزي) من بعده، وهو الذي يقال له ابن العجوز. جامع البيان 5: 272، وتاريخ الرسل والملوك 1: 271.
وكالب ختن موسى، وهو مع حزقيل الذي مرت قصته، الرجلان الذين أنعم الله عليهما، وهما المقصودان بقوله تعالى: { قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين } المائدة: 23.
واسم كالب عبري بمعنى كلب، كان من الجواسيس الاثني عشر الذين أرسلهم موسى؛ ليكتشفوا أرض كنعان، قبل دخولها، وقد شجع هو ويشوع بن نوع، بخلاف بقية الجواسيس على دخول كنعان. العهد القديم، سفر العدد 13: 30، 14: 6 – 9. دائرة المعارف الكتابية 6: 292.

(3) تساقط من داء.

(4) في قصص الأنبياء للثعلبي: 222. «قالت العلماء بأخبار الماضين، وأمور الأمم السالفين». وهي عبارة الطبري في تاريخ الرسل والملوك 1: 457، والقصة فيه، ويصرح الطبري في جامع البيان 5: 294 بالرواة، وهم ابن إسحاق، عن وهب بن مُنبِّه. وفيه: يوسافوس بن كالب.

العيزار

قال وهب(1): لَمَّا قبض الله يوشا بن كالب بن يوقنا، صار الأمر إلى العيزار بن هارون، وكان قد أسن، ولم يكن له ولد، وجعل قوم من بني إسرائيل يقولون: ما حرم العيزار الولد إلا لذنب، وخافوا أن تنقطع الحبورية عن ولد هارون، فبلغ ذلك العيزار، فدعا ربه، وقال: رب، هب لي من لدنك ذرية طيبة، ولداً تقياً رضياً، تكون له الحبورية، ويقوم بأمر بني إسرائيل، فاستجاب الله تعالى دعوته، فواقع العيزار زوجته، فحملت منه، وأقام العيزار في بني إسرائيل، يعبد الله، حتى تمت أيام زوجته صفوريا، وأخذها الطلق، فوضعت غلاماً حسناً جميلاً، ثمَّ نشأ الغلام، فخرج غلاماً حكيًا عليًا، وكان أشبه الناس بجده هارون بن عمران.

ثم إن العيزار جمع بني إسرائيل، فخطب فيهم، وقال: إني قد جعلت ولدي هذا، خليفةً عليكم من بعدي، وقد نعيت إلي نفسي، وإني أبشركم، من بعد ذلك، بولد يخرج من صلب ولدي هذا، يكون إنسياً جنياً برياً بحرياً، فإذا رأيتموه، فأطيعوه، وعلامته أن يكون ضخم الرأس، عريض الصدر، خميص البطن، دقيق الشفتين، أقنى الأنف، دقيق الحاجبين، أدعج العينين، حديد النظر، في خده شامة بيضاء، يكون صاحب البراري والجبال، كثير العجائب.

فاغتموا لقرب أجل العيزار، ثمَّ انصرف العيزار إلى منزله، فوجد فيه رجلاً، فقال له: من أدخلك داري؟، فقال: ما دخلتها إلا بإذن مالكها، فعلم العيزار أنه ملك الموت، فقال له: افعل ما أمرت به، فسقاه شربة من الجنَّة، فخر ميتاً، فغسله ولده وكفنه، وصلى عليه بنو إسرائيل ودفنه، وبقي ولده في بني إسرائيل، وسار فيهم سيرةً حسنةً، وكان يعظهم بها في التوراة، صباحاً ومساءً، حتى ماتت أمه صفوريا بنت موسى بن عمران(2).

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 527. وهو ألعازار بن هارون الثالث، وقد أصبح رئيس اللاويين، وثانياً لهارون في السلطة الكهنوتية. قاموس الكتاب المقدس: ألعازار.

(2) في التوراة أن العازار بن هارون بن عمران تزوج فوطيئيل، فولدت له فينحاس، ويجعل المؤرخون النبي إلياس حفيد فنحاص، فهو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هارون. تاريخ الرسل والملوك 1: 273. وهو في العهد القديم، سفر الخروج 6: 25.ودائرة المعارف الكتابية 1: 367.

حزقيل

لَمَّا قبض الله كالب وابنه، بعث الله تعالى حزقيل إلى بني إسرائيل نبياً، وهو حزقيل بن بوزي[1]، ويلقب بابن العجوز، وإنما لقب بابن العجوز، لأن أمه سألت الله تعالى الولد، وهي عجوز، وقد كبرت، وعقمت عن الولد، فوهبه الله تعالى لها، وهو الذي أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم، وهم ألوف حذر الموت، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم، بدعوته، في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } سورة البقرة: 243[2]. وقال ابن عبَّاس ووهب: كانوا أربعة آلاف.

وقال: أصابهم بلاء وشدَّة من الزمان، فشكوا ما أصابهم، وقالوا: يا ليتنا قد متنا، واسترحنا مما نحن فيه. فأوحى الله إلى حزقيل: أن قومك قد ضجوا من البلاء، وزعموا أنهم ودوا لو ماتوا، استراحوا، وأي راحة لهم في الموت، أيظنون أني لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت، فانطلق إلى جبانة[3] كذا، فإن فيها أقوأما ماتوا. فأتاهم، فأوحى الله تعالى إليه: يا حزقيل، قم فنادهم.

وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرقت، ومزقتها الطير والسباع، فنادى حزقيل: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تعودي، وتكتسي اللحم. فاكتست جميعاً اللحم، وبعد اللحم جلوداً ودماً، وعصباً وعروقاً، فكانت أجساداً، فنادى: أيتها الأرواح، إن الله تعالى يأمرك أن تعودي إلى أجسادك. فقاموا جميعاً، وعليهم ثيابهم التي ماتوا فيها، وكبروا تكبيرةً واحدة[4].

فرجعوا إلى قومهم، وتناسلوا بعدما أحياهم الله، وعاشوا دهراً، يعرفون أنهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوباً، إلا عاد رمياً مثل الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التي

(1) قالت العلماء بأخبار الأنبياء. قصص الأنبياء للثعلبي: 222- 224. والقول لوهب في جامع البيان 5: 272. «حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثنا محمد بن إسحاق، عن وهب بن مُنبِّه: إن كالب بن يوقنا لما قبضه الله بعد يوشع، خلف فيهم، يعني في بني إسرائيل، حزقيل بن بوزي، وهو ابن العجوز، وإنما سمي ابن العجوز؛ لأنها سألت الله الولد وقد كبرت وعقمت، فوهبه الله لها، فلذلك قيل له: ابن العجوز، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكر الله في الكتاب لمحمد كما بلغنا: { ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثمَّ أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون } سورة البقرة: 243. وحزقيال الكاهن بن بوزي. العهد القديم، سفر حزقيال 1: 3.
وحزقيال اسم عبري، معناه الله يقوي، وهو أحد الأنبياء الكبار، ولد وكبر ونشأ في فلسطين، وربما في أورشليم في بيئة الهيكل، أثناء خدمة النبي إرميا، ثمَّ حمل مسبياً إلى بابل، وقد امتد نشاط حزقيال النبوي فترة، تزيد عن 22 سنة، ولا يعرف وقت موته، ولا الطريقة التي مات بها. قاموس الكتاب المقدس: حزقيال.

(2) العهد القديم، سفر حزقيال: 37، وهناك تفاصيل أخرى في التلمود. سنهدرين: 92. اليهودية والإسلام: 290.

(3) مقبرة.

(4) العظمة 2: 609.

كتبها الله لهم[1].

رؤيا حزقيل

وإن حزقيل، كان فيمن سبا بختنصر مع دانيال ببيت المقدس، فزعم حزقيل أنه كان نائمًا على شاطئ الفرات، فأتاه ملك، وهو نائم، فأخذ برأسه، فاحتمله حتى وضعه في خزانة بيت المقدس، فقال حزقيل: سبحانك، ما أعظمك، يا رب، فقال الله: إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملني، وضقن من أن تسعني، وسعني قلب المؤمن الوارع اللين.

فرُفعت رأسي إلى السماء، فإذا السماوات منفرجاتٍ دون العرش، قال: فبدا لي العرش، ومن حوله، فنظرت إليهم من تلك الفرجة، فإذا العرش إذ نظرت إليه مظلا على السماوات والأرض، وإذا نظرت إلى السماوات والأرض رأيتهن معلقاتٍ ببطن العرش، وإذا الحَمَلة أربعة من الملائكة، لكلِّ ملكٍ منهم أربعة وجوهٍ: وجه إنسانٍ، ووجه نسرٍ، ووجه أسدٍ، ووجه ثورٍ.

فلمَّا أعجبني ذلك منهم، نظرت إلى أقدامهم، فإذا هم في تخوم الأرض، على عجلٍ تدور لها أعين، قال: وإذا ملك قائم بين يدي العرش له ستة أجنحةٍ، لها لون كلون فرعٍ، فلم يزل ذلك مقامه، منذ خلق الله الخلق إلى أن تقوم الساعة، فإذا هو جبريل، قال: وإذا ملك أسفل من ذلك، أعظم شيءٍ رأيته من الخلق، قال: فإذا هو ميكائيل، وهو خليفة على ملائكة السماء، وإذا ملائكة يطوفون بالعرش، منذ خلق الله الخلق إلى أن تقوم الساعة؛ يقولون: قدوس، قدوس، ربنا الله، الذي ملأت عظمته السماوات والأرض، وإذا ملائكة أسفل من ذلك، لكلِّ ملكٍ منهم ستة أجنحةٍ؛ جناحان يستر بهما وجهه من النور، وجناحان يغطي بهما جسده، وجناحان يطير بهما، وإذا هم الملائكة المقربون.

قال: وإذا ملائكة أسفل من ذلك؛ منهم الساجد، ومنهم القائم، لم يزالوا كذلك منذ خلق الله الخلق، إلى أن تقوم الساعة، قال: وإذا ملائكة أسفل من ذلك؛ سجود منذ خلق الله الخلق، إلى أن ينفخ في الصور، رفعوا رءوسهم، فإذا نظروا إلى العرش، قالوا: سبحانك، ما كنا نقدرك حق قدرك ثمَّ رأيت العرش تدلى من تلك الفرجة، فكان قدرها، ثمَّ أفضى بي إلى ما بين السماء والأرض، وكان ملء ما بينهما، ثمَّ دخل من باب الرحمة، فكان قدره، ثمَّ أفضى بي إلى المسجد، فكان قدره، ثمَّ وقع على الصخرة، فكان قدرها، قال: يا ابن آدم، قال: فصعقت، وسمعت صوتًا لم أسمع مثله قط، قال: فذهبت أقدر ذلك الصوت، فإذا قدره كعسكرٍ اجتمعوا، فأجلبوا بصوتٍ واحدٍ، وكيفيةٍ اجتمعت، فتدافعت ولقي بعضها بعضًا، أو هو أعظم من ذلك.

قال حزقيل: فلمَّا صعقت قال: أنعشوه؛ فإنه ضعيف، خلق من ضعفٍ ثمَّ قال: اذهب إلى قومك، فأنت طليعتي عليهم؛ كطليعة الجيش، من دعوته منهم، فأجابك، واهتدى بهداك، فلك مثل أجره، ومن غفلت عنه، حتى يموت ضلالًا، فعليك مثل وزره، لا يخفف ذلك من أوزارهم

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 224.

شيئًا، قال: ثمَّ عرج بالعرش، واحتملت، حتى رددت إلى شاطئ الفرات.

فبينا أنا نائم على شاطئ الفرات، إذ أتاني ملك فأخذ برأسي، فاحتملني، حتى أدخلني جنب بيت المقدس، فإذا أنا بحوض ماءٍ، لا يجوز قدمي، قال: ثمَّ أفضيت منه إلى الجنَّة، فإذا شجرها على شطوط أنهارها، وإذا هو شجر لا يتناثر ورقه، ولا يفنى ثمره، وإذا فيه الطلع، والغض، والينيع، والقطيف، قال: قلت: فما لباسها؟ قال: هو ثياب كنبات الجوز؛ ينفلق عن أي لونٍ شاء صاحبه قلت: ما أزواجها؟ قال: فعرضن علي، فذهبت لأقيس حسن وجوههن، فإذا هن لو جمع الشمس والقمر، كان وجه إحداهن أضوأ منهما، وإذا لحم إحداهن لا يواري عظمها، وإذا عظمها لا يواري مخها، وإذا هي إذا نام عنها صاحبها، استيقظ وهي بكر، قال: فعجبت من ذلك.

قال حزقيل: فقيل لي: أتعجب من هذا؟ قال: قلت: وما لي لا أعجب؟ قال: فإنه من أكل من هذه الثمار التي رأيت خلد، ومن تزوج من هذه الأزواج انقطع عنه الهم والحزن، قال: ثمَّ أخذ برأسي، فردني إلى حيث كنت، قال حزقيل: فبينا أنا نائم على شاطئ الفرات، إذ أتاني ملك، فأخذ برأسي، فاحتملني، حتى وضعني في بقاعٍ من الأرض، قد كانت معركةً، وإذا فيه عشرة آلاف قتيلٍ، قد بددت الطير والسباع لحومهم، وفرقت بين أوصالهم، ثمَّ قال لي: إن قومًا يزعمون أنه من مات منهم، أو قتل فقد انفلت مني، وذهبت عنه قدرتي، فادعهم، قال حزقيل: فدعوتهم، فإذا كل عظمٍ قد أقبل إلى مفصله الذي منه انقطع؛ ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذي فارقه، حتى أم بعضها بعضًا، ثمَّ نبت عليها اللحم، ثمَّ نبتت العروق، ثمَّ انبسطت الجلود، وأنا أنظر إلى ذلك، ثمَّ قال: ادع لي أرواحهم.

قال حزقيل: فدعوتها، قال: فإذا كل روحٍ قد أقبل إلى جسده الذي فارق، قال: فلمَّا جلسوا، قال: سلهم فيما كنتم؟ قالوا: إنا لمَّا متنا، وفارقتنا الحياة لقينا ملكًا يقال له: ميكائيل، فقال: هلموا أعمالكم، وخذوا أجوركم كذلك سنتنا فيكم، وفيمن كان قبلكم، وفيمن هو كائن بعدكم، قال: فنظر في أعمالنا، فوجدونا نعبد الأوثان، فسلَّط الدود على أجسادنا، وجعلت الأرواح تألمه، وسلَّط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألمه، فلم نزل كذلك نعذَّب، حتى دعوتنا ثمَّ احتملني، فردني حيث كنت[1].

(1) الزهد لأحمد بن حنبل: 69. والعظمة 2: 604.

إلياس

قال وهب[1]: لمّا قبض الله تعالى حزقيل، عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر فيهم الفساد، ونسوا عهد الله إليهم في التوراة، حتى نصبوا الأوثان، وعبدوها من دون الله، فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبياً، وهو إلياس[2] بن نسي بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران. وإنما كانت الأنبياء، بعد موسى، يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا، وضيعوا من أحكام التوراة، وبنو إسرائيل يومئذٍ، متفرقون في أرض الشام، وفيهم ملوك كثيرة.

مبعث إلياس

وكان سبب ذلك[3] أن يوشع بن نون، لمّا فتح أرض الشام، وملكها، بوأها بني إسرائيل، وقسمها بينهم، فأخذ سبط منهم بعلبك ونواحيها، وهم سبط إلياس، فبعث الله تعالى إليهم نبياً، وعليهم يومئذٍ ملك، يقال له: أخآب. قد ضل وأضل قومه، وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان هو، وقومه يعبدون صنماً، يقال له: بعل. وكان طوله عشرين ذراعاً، وكان له أربعة وجوه[4].

أخآب وأيزابيل

قال: فجعل إلياس يدعوهم إلى الله تعالى، ولا يطيعونه، ولا يجيبونه إلى ذلك، إلا ما كان من أمر أخآب الملك الذي كان ببعلبك، فإنه آمن به وصدقه، وكان إلياس يقوم أمره، ويسدده ويرشده، وكان لأخآب امرأة، يقال لها: أزبيل. وكان يستخلفها على رعيته، إذا غاب عنهم في غزاةٍ، أو غيرها، فكانت تبرز بين الناس، كما يبرز زوجها، وتركب كما يركب، وتجلس كما يجلس، في مجلس القضاء، وتقضي بين الناس، وكانت قتالةً للأنبياء، وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم، يكتم إيمانه، وكان قد خلص من بين يديها، ثلاثمائة نبي، كانت تريد قتل كل واحد منهم، إذا بعث، سوى الذين قتلتهم، وكانت في نفسها غير محصنة، ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها، وهي مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك، من ملوك بني إسرائيل، وقتلتهم كلهم بالاغتيال، وكانت معمرة، ويقال: إنها ولدت سبعين ولداً.

صاحب الجنينة

وكان لأخآب هذا، جار من بني إسرائيل، رجل صالح يقال له: مزدكي. وكانت له جنينة،

---

(1) قال ابن إسحاق، والعلماء من أصحاب الأخبار. قصص الأنبياء للثعلبي: 224 – 229. والقصة عن وهب بن مُنبِّه. جامع البيان 21: 97.

(2) هو إيليا النبي العظيم، ظهر في أيام أخآب الملك. دائرة المعارف الكتابية 1: 569.

(3) النبوة: 274.

(4) شرور أخآب التي انتهت به إلى عبادة بعل، إله الصيدونيين، وهو معبود الملكة إيزابل في العهد القديم، سفر الملوك الأول. 16: 29 – 34.

يعيش منها، ويقبل على عمارتها ويزينها، وكانت الجنينة إلى جانب قصرٍ للملك وامرأته، وكانا يشرفان على تلك الجنينة، يتنزهان فيها، ويأكلان ويشربان، ويقيلان فيها حيناً، وكان أخآب مع ذلك، يحسن جوار صاحبها مزدكي، وامرأته أزبيل تحسده على ذلك؛ لأجل تلك الجنينة، وتحتال على غصبها، لمَّا سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها، ويقولون: ما أحلى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر!. ويتعجبون من أمر الملك وامرأته، كيف لم يغصباها!.

فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكي، في أن تقتله، وتأخذ جنيته، والملك ينهاها عن ذلك، وهو غافل عما تريد به، مقبل على عبادة ربه، وإصلاح معيشته، فجمعت أربيل جمعاً من الناس، وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكي بالزور أنه يسب أخآب الملك، فأجابوها إلى ما سألتهم، من الشهادة بالزور، وكان حكمهم، في ذلك الزمان، على من يسب الملك القتل، إن قامت البينة، فأحضرت مزدكي، وقالت له: بلغنا عنك أنك شتمت الملك، واغتبته. فأنكر مزدكي ذلك، فأقامت البينة، فشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس، فأمرت بقتله، فقتل وأخذت جنينته غصباً، فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح.

فلمَّا قدم الملك من السفر، أخبرته الخبر، فقال لها: ما أصبت خيراً، ولا وفقت، ولا أرانا نفلح بعدها أبداً، وإنا كنا عن جنينته لأغنياء، وقد كنا نتنزه فيها، وقد جاورنا، وتحرم بنا منذ زمان طويل، فأحسنا جواره، وكففنا عنه الأذى؛ لوجوب حقه علينا، فقبحت بنا الجوار، وما حملك على اجترائك عليه، إلا سفهك وسوء رأيك، وقلة تفكرك في العواقب. فقالت: إنما غضبت لك، وحكمت بحكمك. فقال لها: ما كان يسع حلمك، وعظيم خطرك العفو عن رجلٍ واحد، فتحفظين جواره. فقالت: قد كان ما كان.

فبعث الله تعالى إلياس إلى أخآب وقومه، وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليه لوليه، حين قتلوه بين أظهرهم ظلماً، وقد آلى على نفسه أنهما، إن لم يتوبا من صنعهما، ويردا الجنينة على ورثة مزدكي، وإلا، يهلكهما، يعني أخآب وامرأته، في جوف الجنينة، أشر ما يكون بسفك دمهما، ثمَّ يدعهما جيفتين ملقاتين فيها، حتى تتعرى عظامهما عن لحومهما، ولا يمتعان بها إلا قليلاً.

قال: فجاء إلياس، وأخبر الملك بما أوحى الله إليه في أمره، وأمر امرأته والجنينة، فلمَّا سمع الملك ذلك، اشتدَّ غضبه، ثمَّ قال له: يا إلياس، والله، ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً، والله، ما أرى فلاناً وفلاناً، وسمى ملوكاً منهم، عبدوا الأوثان، إلا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون، ويتمتعون مملكين، ما ينقص من دنياهم، ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل، شيء، وما نرى لكم علينا من فضل. قال: ثمَّ هم بتعذيب إلياس وقتله[1].

---

(1) النبوة: 275. وما بعدها. وقصة جنينة المزدكي (وهو نابوت) في سفر الملوك الأول، 21: 1 - 16. ودائرة المعارف الكتابية 1: 562.

هروب إلياس

فلمّا سمع إلياس ذلك، وأحس بالشر، رفضه وخرج عنه، فلحق بشواهق الجبال، وعاد الملك إلى عبادة بعل، فارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه، فدخل مغاراً، فيقال: إنه بقي فيه سبع سنين[1]، شريداً وحيداً فريداً خائفاً، يأوي إلى الشعاب والكهوف، ويأكل من نبات الأرض، وثمار الشجر، وهم في طلبه، وقد وضعوا عليه العيون، يتوقعون أخباره، ويجتهدون في أخذه، والله تعالى يستره ويحفظه، ويدفع عنه البلاء.

فلمّا تمَّ له سبع سنين، أذن الله تعالى في إظهاره عليهم، وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله تعالى ابن الملك أخآب، وكان أحب أولاده إليه، وأعزهم عليه، وأشبههم به، فأدنف[2]حتى يئس منه، فدعا صنمه بعلاً، وكانوا قد فتنوا ببعل، فعظموه، حتى إنهم سموا مدينتهم به، فقالوا لها: بعلبك. وجعلوا له أربعمائة سادنٍ، فوكلوهم به، وجعلوهم أمناءه، وجعل الشيطان يدخل في جوف الصنم، فيكلمهم بأنواع الكلام، والأربعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان، ويوسوس لهم شريعةً من الضلال، فيكتبونها للناس، ويعملون بها، ويسمونهم الأنبياء.

فلمّا اشتدَّ مرض ابن الملك، طلب الملك أن يشفعوا له إلى بعل، ويطلبوا منه، لابنه الشفاء والعافية، فدعوه له، فلم يجبهم، ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم، فلم يمكنه الولوج في جوفه، ولا الكلام، وهم مجتهدون في التضرع إليه، والمريض لا يزداد بذلك إلا ألماً وجهداً.

فلمّا طال عليهم ذلك، قالوا لأخآب: أيها الملك، إن في ناحية الشام، آلهة أخرى، وهي في العظم مثل إلهك، فابعث إليها الأنبياء، يشفعون لك إليها، فلعلها أن تشفع إلى بعل، فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك، لكان قد أجابك. وشفى مرض ابنك. فقال أخآب: لأي شيءٍ غضب علي، وأنا أطيعه، وأطلب رضاه، ولم أسخطه ساعةً قط؟. قالوا: من أجل أنك لم تقتل إلياس، وفرطت فيه، حتى نجا سالماً، هو كافر بإلهك، يعبد غيره، فذلك الذي أغضبه عليك. قال أخآب: وكيف لي أن أقتله في يومي، هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني، وليس لإلياس مطلب، ولا يعرف له موضع، فيقصد، فلو عوفي ابني، تفرغت لطلبه، ولم يكن لي هم، ولا شغل غيره، حتى آخذه وأقتله، وأريح إلهي منه وأرضيه.

ثمَّ إنه بعث الأربعمائة النبي؛ ليشفعوا إلى الآلهة التي بالشام، ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملك؛ ليشفي ابنه، فانطلقوا إلى الأصنام وكلموها، فمنع الله الشيطان الولوج في الأصنام، ولم تكلِّمهم، فرجعوا إلى الملك، وأخبروه بذلك، قال الملك: وكيف لي أن أقتل إلياس في هذا اليوم؟.

---

(1) في أساطير اليهود 4: 190. لم يكن ارتفاع إيليا عن الأرض قطعاً لعلاقته بالبشر، فهو يعمل معيناً لهم في وقت الحاجة، ومعلماً ومدليلاً. وبعد سبع سنوات من صعوده كتب كتاباً إلى ملك يهوذا.

(2) مرض. لسان العرب: دنف.

عودة إلياس

فخرج أربعمائة، حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس، أوحى الله إليه أن يهبط من الجبل، ويعارضهم، ويستوقفهم، ويكلمهم، وقال له: لا تخف، فإني سأصرف عنك شرهم، وألقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل، فلمَّا لقيهم، استوقفهم، فلمَّا وقفوا، قال لهم: إن الله أرسلني إليكم، وإلى من وراءكم، فاسمعوا أيها القوم، رسالة ربكم؛ لتبلغوها صاحبكم، ارجعوا إليه، وقولوا له: إن الله تعالى يقول لك: ألست تعلم يا أخآب، أنني أنا الله لا إله إلا أنا، إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم، وأحياهم وأماتهم؟، فلا يحملنك جهلك، وقلة عقلك على أن تشرك بي، وتطلب الشفاء لابنك، من غيري، ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً، إلا ما شئت، وإني آليت باسمي، لأغيظنك في ابنك، وأميتنه من فوره هذا، حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً دوني، فلمَّا قال لهم ذلك، رجعوا، وقد ملئوا منه رعباً.

فلمَّا صاروا إلى الملك، ووصلوا إليه، قالوا له ما قال لهم إلياس، وأخبروه بأن إلياس انحط عليهم من الجبل، وهو رجل نحيف طويل، وقد قشف، وقحل، وتمعط (تساقط) شعره، ويبس جلده، وعليه جبة من شعرٍ وعباءة وقد خللها على صدره بخلال، فاستوقفنا، فلمَّا وقفنا، صار معنا، فقذف له في قلوبنا الرعب والهيبة، وتقطعت ألسنتنا، ونحن في هذا العدد الكثير، وهو واحد، فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه، وملأ أعيننا منه، حتى رجعنا إليك.

ثم إنهم قصوا عليه كلام إلياس، فقال أخآب: لا أنتفع بالحياة، ما دام إلياس حياً، ما الذي منعكم أن تبطشوا به، حين لقيتموه، وتوقفوه، وتأتوني به، وأنتم تعلمون أنه طلبتي وعدوي؟. قالوا له: قد أخبرناك بالذي منعنا عنه، ومن كلامه والبطش به، فقال أخآب: إذن، ما نطيق إلياس إلا بالمكر والخديعة. فقيض له خمسين رجلاً من قومه، من ذوي القوة والبأس، وعهد إليهم عهده، وأمرهم بالاحتيال عليه، وأن يطمعوه بأنهم قد آمنوا به، هم ومن وراءهم، ليطمئن إليهم، ويغتر بهم، ويمكنهم من نفسه، فيأتون به ملكهم.

فانطلقوا، حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس، ثمَّ إنهم تفرقوا فيه، وهم ينادون بأعلى أصواتهم، ويقولون: يا نبي الله، ابرز لنا، وأشرف علينا بنفسك، فإنا قد آمنا بك وصدقناك، وملكنا أخآب، وكذلك جميع قومنا، مقرون بذلك، ويقرؤون عليك السلام، ويقولون: قد بلغتنا رسالتك، وعرفنا ما قلت، وآمنا بك، وأجبناك إلى ما دعوتنا إليه، فهلم إلينا، فأنت نبينا، ورسول ربنا، فأقم بين أظهرنا، واحكم بيننا، فإننا ننقاد إلى ما أمرتنا، وننتهي عما نهيتنا، وليس يسعك أن تتخلف عنا بعد إيماننا بك، وطاعتنا لك، فتداركنا، وارجع إلينا. وكل هذا كان مكراً منهم وخديعة.

فلمَّا سمع إلياس مقالتهم، وقع في قلبه إيمانهم، وخاف الله، وأشفق من سخطه، إن هو لم يظهر لهم، ولم يجبهم، بعد الذي سمع منهم. فلمَّا صمم على البروز إليهم، رجع إلى نفسه، وقال:

لو أني دعوت الله تعالى، فسألته أن يعلمني ما في نفوسهم، ويطّلعني على حقيقة أمرهم. وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى، وتُوفّيقاً له، فقال: اللهم، إن كانوا صادقين فيما يقولون، فأذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين، فاكفنيهم، وارمهم بنارٍ، تحرقهم جميعاً. فما استتم قوله، حتى حصبوا بالنار من فوقهم، فأحرقوا أجمعون.

وبلغ أخآب وقومه الخبر، فلم يرتدع عن ضمير السوء، واحتال ثانياً في أمر إلياس، فقيض له فئةً أخرى، مثل عدد أولئك، وأوقى منهم، وأمكن في الحيلة والرأي، فأقبلوا، حتى وافوا ذلك الجبل، وارتقوه متفرقين، وجعلوا ينادون: يا نبي الله، إنا نعوذ بالله، وبك من غضب الله وسطوته، إنا لسنا كالذين أتوك قبلاً، أولئك فرقة نافقوا وخالفوا، فصاروا إليك؛ ليمكروا بك من غير رأينا، ولو علمنا بهم، لقتلناهم، والآن قد كفاك الله أمرهم، وأهلكهم بسوء نياتهم، وانتقم لنا ولك منهم. فلمّا سمع إلياس مقالتهم، دعا الله بدعوته الأولى، فأمطر عليهم ناراً، فأحرقوا جميعاً عن آخرهم، كل ذلك، وابن الملك في البلاء الشديد من وجعه، كما وعده الله تعالى على لسان نبيه إلياس، لا يقضى عليه، فيموت، ولا يخفف عنه من عذابه.

فلمّا سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً، ازداد غيظاً إلى غيظه، وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه، إلا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه، فوجه نحو إلياس الكاتب المؤمن الذي هو كاتب امرأته، رجاء أن يأنس إليه، فينزل معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً، ولا مكروهاً. وإنما أظهر له ذلك، لمّا اطلع عليه من إيمانه، وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه، مغضياً عنه، لمّا هو عليه، من الكفاية والأمانة والحكمة، وسداد الرأي، والبصارة بالأمور.

فلمّا وجهه نحوه، أرسل معه فئةً من أصحابه، وعهد إليهم، دون الكاتب، أن يوثقوا إلياس، ويأتوه به، إن أراد التخلف عنهم، وإن جاء معهم آنساً بالكاتب، وواثقاً بمكانته، لم يوحشوه، ولم يروعوه. ثمَّ إنه أظهر للكاتب الإنابة، فقال له: إنه قد آن لي أن أتوب وأتعظ، فقد أصابتنا بلايا، من حريق أصحابنا، والبلاء الذي فيه ابني، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس، ولست آمن أن يدعو علي، وعلى جميع قومي، فنهلك بدعوته، فكن رسولنا إليه، وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا في توبتنا، وما نريد من رضا ربنا، وخلع أصنامنا، إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا، يأمرنا وينهانا، ويخبرنا بما يرضي ربنا. قال: ثمَّ إنه أمر قومه أن يعتزلوا الأصنام.

وقال له: أخبر إلياس بأنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد، وقد أهملنا أمرها، حتى ينزل إلينا، فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها. وكان ذلك كله مكراً من الملك.

فانطلق الكاتب، والفئة معه، حتى علوا الجبل الذي فيه إلياس، فناداه الكاتب، فعرف إلياس صوته، فتاقت نفسه إليه، وأنس به، وكان مشتاقاً إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن ابرز إلى أخيك الصالح، فألقه، وجدد منه العهد. فبرز إليه وصافحه، وسلم عليه، وقال له: ما الخبر؟. فقال له المؤمن: إنه قد بعثني إليك هذا الجبار الطاغي وقومه، وقص عليه ما قاله، وقال

له: إني لخائف، إن رجعت إليه، ولست معي أن يقتلني، فأمرني بما شئت أن أفعله، وانتهي إليه، إن شئت انقطعت إليك، وكنت معك وتركته، وإن شئت، جاهدته معك، وإن شئت أرسلتني إليه بما تحب، فأبلغه رسالتك، وإن شئت، دعوت ربك يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً.

فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن كل ما جاءك منهم مكر وكذب؛ ليظفروا بك، وأن أخآب، إن أخبرته رسله أنك قد لقيت هذا الرجل، ولم يأت بك إليه، فإنه يتهمه، ويعرف أنه قد داهن في أمرك، ولم يأمن أن يقتله، فانطلق معه، فإن انطلاقك معه عذره، وبراءته عند أخآب، وإني سأشغله عنكما، وأضاعف على ابنه البلاء، حتى لا يكون له هم غيره، ثمَّ أميته على شر حال، فإذا مات هو، فارجع أنت، ولا تقم عنده.

فانطلق إلياس معهم، حتى قدموا على أخآب، فلمّا دخلوا عليه، شدد الله على ابنه الوجع، وأخذ الموت يكظمه، فشغل الله بذلك أخآب وأصحابه عن إلياس، ورجع إلياس سالماً إلى مكانه. فلمّا مات ابن أخآب، وفرغوا من أمره، وقر جزعه، انتبه لإلياس، وسأل عنه الكاتب المؤمن الذي جاء به، فقال له: ليس لي به علم، وذلك أنه قد شغلني عنه موت ابنك، والجزع عليه، ولم أكن أحسبك، إلا قد استوثقت منه.

فأطرق عنه أخآب، وتركه لمّا كان به، من الحزن على ابنه. فلمّا طال الأمر على إلياس من المكث في الجبل، والمقام به، واشتاق إلى العمران والناس، نزل من الجبل، وانطلق حتى نزل بامرأة من بني إسرائيل، وهي أم يونس بن متى ذي النون، فاستخفى عندها ستة أشهر، ويونس ابنها يومئذٍ، مولود رضيع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها، تواسيه بذات يدها، ولا تدخر عنه كرامةً، تقدر عليها.

هروب إلياس ثانية

قال: ثمَّ إن إلياس سئم ضيق البيوت، بعد قعوده في الجبال ودوحها، فأحب اللحوق بالجبال، فعاد إلى مكانه في الجبال، فجزعت أم يونس لفراقه، وأوحشها فقده، ثمَّ لم يلبث إلا قليلاً، حتى مات ابنها يونس، حين فطمته، فعظمت مصيبتها به، فخرجت في طلب إلياس، فلم تزل ترقى الجبال، وتطوف فيها حتى عثرت عليه، ووجدته، فسلمت عليه، وقالت له: إني فجعت بعدك بموت ابني، وعظمت به مصيبتي، واشتدَّ لفقده بلائي، وليس لي ولد غيره، فارحمني، وادع ربك تعالى أن يحيي إلي ابني، فيجبر مصيبتي، فإني قد تركته مسجى، لم أدفنه، وقد أخفيت مكانه. فقال لها إلياس: ليس هذا مما أمرت به، وإنما أنا عبد مأمور، أعمل بما أمرني ربي به، ولم يأمرني بهذا.

فجزعت المرأة، وتضرعت، فعطف الله قلب إلياس عليها، فقال لها: ومتى مات ابنك؟. فقالت: منذ سبعة أيام. فانطلق إلياس معها، وسار سبعة أيام، حتى أتى إلى منزلها، فوجد ابنها يونس ميتاً منذ أربعة عشر يوماً، فتوضأ إلياس، وصلى ودعا، فأحيا الله يونس بن متى، فلمّا عاش

وجلس، وثب إلياس وانصرف، وتركه وعاد إلى موضعه.

فلمّا طال عصيان قومه، ضاق إلياس بذلك ذرعاً، وأجهده البلاء، فأوحى الله إليه بعد سبع سنين، وهو خائف مذعور مجهود: يا إلياس، ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه، ألست أميني على وحيي، وحجتي في أرضي، وصفوتي من خلقي؟، فاسألني، أعطك، فإني ذو الرحمة الواسعة، والفضل العظيم. قال إلياس: تميتني، وتلحقني بآبائي، فإني قد مللت بني إسرائيل، وملوني، وأبغضتهم فيك، وأبغضوني. فأوحى الله إليه: يا إلياس، ما هذا اليوم الذي أعري منك الأرض وأهلها، وإنما قوامها وصلاحها بك، وأشباهك، ولكن سلني، أعطك.

قال إلياس: فإن لم تمتني يا إلهي، فأعطني ثأري من بني إسرائيل. فأوحى الله تعالى إليه: فأي شيء تريد أن أعطيك يا إلياس؟. قال: تمكنني من خزائن السماء، سبع سنين، فلا تنشئ عليهم سحابةً، إلا بدعوتي، ولا تمطر عليهم، سبع سنين، قطرةً، إلا بشفاعتي، فإنهم لا يذلهم إلا ذلك. قال الله تعالى: يا إلياس، أنا أرحم بعبادي من ذلك، وإن كانوا ظالمين. قال: فست سنين. قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، وإن كانوا ظالمين. قال: فخمس سنين. قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، وإن كانوا ظالمين. قال: فأربع سنين. قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، وإن كانوا ظالمين، ولكني أعطيك ثأرك منهم ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك، ولا أنشر عليهم سحابةً إلا بدعوتك، ولا أنزل عليهم قطرةً إلا بشفاعتك. قال إلياس: فبأي شيءٍ أعيش؟. قال: أسخر لك جيشاً من الطير تنقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط. قال إلياس: قد رضيت.

فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت المواشي والدواب والهوام والشجر، وجهد الناس جهداً شديداً، وإلياس على حاله مختفٍ من قومه بموضعٍ، ينساق له فيه الرزق، ويأتيه حيثما كان، وقد عرفه بذلك قومه، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيتٍ، قالوا: لقد دخل إلياس هذا المكان. فيطلبونه ويلقى منهم أهل ذلك المكان شراً، ثمَّ إنهم طلبوه، فوجدوه، فهرب منهم إلى الجبال. والله أعلم.

مع إليسع

ثم إن إلياس أتى إلى بيت امرأةٍ من بني إسرائيل، لها ابن يسمى اليسع بن أخطوب، وكان به ضر، فآوته، وأخفت أمره، فدعا له، فعوفي من الضر الذي كان به[1]، واتبع اليسع إلياس، وآمن به وصدقه ولزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب، وكان إلياس قد أسن وكبر، وكان إليسع غلاماً شاباً.

ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق، ممن لم يعصوني سوى بني إسرائيل، من البهائم والدواب والهوام والشجر والنبات، بحبس المطر عن بني إسرائيل،

(1) كان الابن ميتاً فدعا له، فحيي. العهد القديم، سفر الملوك الأول 17: 23، والقصة فيه، واسم المرأة صرفة، وهي في مدينة صيدون.

فيزعمون، والله، أعلم أن إلياس قال: يا رب، دعني أكن الذي يدعو لهم، وآتيهم بالفرج، مما هم فيه من البلاء الذي أصابهم؛ لعلهم يرجعون عما هم عليه، من عبادة غيرك. فقيل له: نعم. فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، وقال لهم: ويلكم، إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً، وقد هلكت البهائم والدواب والطير والشجر والنبات، بحبس المطر عنكم بخطاياكم، وإنكم على باطل وغرور، فإن كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التي تدعونها من دون الله، لن تغني عنكم شيئاً، فأخرجوا بأصنامكم هذه، فإن استجابت لكم، فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل، علمتم أنكم على باطل وغرور، فنزعتم عنها، ودعوت الله تعالى لكم أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء. قالوا: أنصفت.

فخرجوا ومعهم أوثانهم، فدعوها، فلم تستجب لهم، ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، فقالوا: يا إلياس، إنا قد هلكنا، فادع الله لنا. فدعا الله إلياس، ومعه اليسع بالفرج مما هم فيه، وأن يسقوا. فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر، وهم ينظرون إليها، فأقبلت نحوهم، وطبقت عليهم الأفق، ثمَّ أرسل الله عليهم المطر، فأغاثتهم، وأحيت بلادهم.

قال: فشكوا إلى إلياس هدم الجدران وعدم البذر، وقالوا: ليست لنا حبوب. فأوحى الله تعلى إليه أن يأمرهم بأن يبذروا الملح في الأرض، ففعلوا، فأنبت الله لهم منه الحمص، وأمرهم أن يبذروا الرمل، فأنبت الله لهم منه الدخن، فلمّا كشف الله تعالى عنهم الضر، نقضوا العهد، ولم ينزعوا عن كفرهم، ولم يقلعوا عن ضلالتهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه.

رفع إلياس إلى السماء

لمّا رأى إلياس ذلك، دعا ربه أن يريحه منهم، فقيل له: انتظر يوم كذا وكذا، فاخرج إلى موضع كذا وكذا، فإذا جاءك شيء فاركبه، ولا تهبه. فخرج إلياس، ومعه اليسع بن أخطوب حتى إذا كانا بالموضع الذي أمر بالخروج إليه، أقبل فرس من نار،حتى وقف بين يديه، فوثب عليه إلياس، فانطلق به الفرس، فناداه اليسع: يا إلياس، ما تأمرني به؟. فقذف إليه كساءه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بني إسرائيل، وذهب إلياس، فكان ذلك آخر العهد به، ورفع الله إلياس من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش، وكان إنسياً ملكياً، سماوياً أرضياً[1].

وسلّط الله تعالى على أخآب الملك، وامرأته وقومه، عدواً لهم، فقصدهم من حيث لا يشعرون به حتى رهقهم، فقتل أخآب الملك وامرأته في بستان مزدكي، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة، حتى بليت لحومهما، ورمت عظامهما.

(1) المعارف: 51. والعهد القديم، سفر الملوك الثاني 2: 1 – 13.

مبعث إليسع

ونبأ الله تعالى بفضله اليسع، وبعثه نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله تعالى إليه، وأيده بمثل ما أيد به عبده إلياس، فآمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظمونه، وينتهون إلى رأيه وأمره، وحكم الله تعالى فيهم قائم، إلى أن فارقهم اليسع[1].

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 464، والنبوة: 278. وهو أليشع، ومعنى اسمه الله خلاص، وهو تلميذ إيليا النبي (إلياس)، لبى دعوته، عندما كان شاباً، وقد رآه أيليا يعمل في مزرعة أبيه، فألقى رداءه عليه، ففهم أنه سيكون خليفته في النبوة. دائرة المعارف الكتابية 1: 404. وقصته في العهد القديم، سفر الملوك الثاني، الإصحاح الأول، وما بعده. وكان موت إليسع نذير شؤم على بني إسرائيل، إذ غزا الآراميون أرضهم في يوم دفنه. أساطير اليهود 4: 222.

يونس بن متى

قال وهب: وبعث الله تبارك وتعالى من بعد اليسع، يونس بن متى[1]، إلى أهل نينوى، من بلاد الموصل.

مبعث يونس

وكان قومه يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم يونس بن متى بالنهي عن عبادتها، والأمر بالتوحيد، لا يصبر على الناس، فلحق بالجبل، يعبد الله تعالى فيه، وكان حسن القراءة، يستمع لقراءته الوحش، كما كان داود في زمانه، وكان يعتريه حدة، قال رسول الله : كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة، فلمّا حمل أعباء النبوة، تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل، ولذلك السبب ذهب مغاضباً[2].

وكان يدعوهم إلى الإسلام، وترك ما هم عليه، فدعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أن العذاب يجيئهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً فانظروا، فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت، فاعلموا أن العذاب مصبحكم. فلمّا كان في جوف الليل خرج ماشياً من بين ظهرانيهم، فلمّا أصبحوا تغشاهم العذاب، كما يغشي الثوب القصير، إذا أدخل فيه صاحبه.

وغامت السماء غيماً أسود هائلاً، يشبه دخاناً شديداً، وهبط حتى غشى مدينتهم، واسودت سطوحهم، فلمّا رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا نبيَّهم، فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح، وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النية، وفرَّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام، فحنَّ بعضهم إلى بعض، وعلت أصواتهم، واختلطت أصوات الأنعام بأصواتهم، وحنينها بحنينهم، وعجُّوا وضجُّوا إلى الله تعالى، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس. فرحمهم ربهم، واستجاب دعاءهم، وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم، وتدلَّى إلى سمعهم، وذلك يوم عاشوراء[3].

---

(1) المعارف: 52. و هو يونان بن أمتاي. العهد القديم، سفر يونان 1: 1، والسفر في التوراة باسمه. ومعنى يونان حمامة، وعلى الرغم تعصبه لقوميته اليهودية، فإنه أرسل إلى أمة معادية لشعبه. دائرة المعارف الكتابية 8: 356.

(2) الحديث ليس للرسول ، إنما هو لوهب. جامع البيان . 18: 513. وفي سيرة ابن إسحاق: 132. وتفسير ابن حاتم 10: 3229. وهو في العهد القديم، سفر يونان 1: 1 – 3.

(3) قصص الأنبياء للثعلبي: 359. وفي العهد القديم، سفر يونان 3: 10.

خروج يونس

وكان يونس وعدهم العذاب، فخرج ينتظر العذاب وهلاك قومه، فلم ير شيئاً، وكان من كذِب، ولم تكن له بينة قُتل، فقال يونس لمّا كشف عنهم العذاب: كيف أرجع إلى قومي وقد كذّبتهم؟. فانطلق عاتباً على ربّه، مغاضباً لقومه، فأتى البحر، فإذ سفينة قد شُحنت، فركب السفينة لوحده بغير أجر، فلمّا دخلها، وقفت السفينة، والسفن تسير يميناً وشمالاً، قالوا: ما لسفينتكم؟. قال يونس: إن فيها عبداً آبقاً، ولا تجري ما لم تلقوه، فقالوا: وأنت يا نبي، العبد، فلا نلقيك. فاقترعوا فوقعت القرعة عليه ثلاثاً، فوقع في الماء، ووكّل عليه حوت فابتلعه، وكان في بطنه أربعين ليلة، فسمع تسبيح الحصى[1].

نجاة يونس

{ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } سورة الأنبياء: 87.، فاستجاب الله له[2]. فأمر الحوت، فنبذه على ساحل البحر عرياناً، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطينٍ، فجعل يستظل بها، ووكل الله به سخلا يشرب من لبنها، فيبست الشجرة فبكى عليها، فأوحى الله إليه: تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف إنسان أهلكهم![3].

فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت يا غلام؟. قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنك لقيت يونس، قال الغلام: إن كنت يونس فقد تعلم أنه لم يكن لي بينة، فإن قلت: فمن يشهد لي؟ قال يونس: يشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، قال الغلام: أراهما؟ قال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالا: نعم. فرجع الغلام إلى قومه، فقال للملك: إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام، وكان له أخوة وكان في منعة فأمر الملك بقتله، فقال: إن لي بينة فانسلوا معه إلى البقعة والشجرة، فقال الغلام: أنشدكما هل أشهدكما يونس؟ قالا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني[4].

---

(1) قال ابن عبّاس ووهب. الكشف والبيان 8: 170. العهد القديم، سفر يونان 1: 4 - 17. وبقي في بطن الحوت ثلاثة أيام. في أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 227. ولقصة يونان ما يشابهها في الأدب البوذي، كقصة «ميتاف:داكا» الذي كان مسافراً في إحدى السفن، فوقفت السفينة في الماء في اليوم السابع من أقلاعها، ولم تعد تتحرك، فألقى البحارة قرعةً، وقعت سبع مرات متتالية على ميتافنداكا، فطرحوه في البحر، وأعطوه قطعة من القصب الضخم، سبح عليها، حتى وصل إلى بر الأمان. قاموس الكتاب المقدس: يونان.

(2) العهد القديم، سفر يونان 2: 1 – 10.

(3) تفسير عبد الرزاق 3: 107. وحِلية الأولياء 4: 42. والقصة في العهد القديم، سفر يونان 4: 11.

(4) قصة الآية على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير والسدي ووهب وغيرهم. الكشف والبيان 5: 153. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 361.

وسرد آخر مختصر في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 395.

وقال: قال يونس لجبريل: دُلَّني على أعبد أهل الأرض. قال: فدلَّه على رجلٍ قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه يقول: إلهي! متعتني ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل، يا بار، يا وصول[1].

(1) المجالسة وجوهر العلم 2: 32.

كوشان إلى عبدون

قال وهب بن مُنبِّه[1]: لَمَّا نبَّأ الله تعالى اليسع، بعد إلياس، واستخلفه على بني إسرائيل، وكان فيهم ما شاء الله أن يكون، ثمَّ قبضه الله تعالى إليه، وخلف فيهم الخلوف، وعظمت فيهم الخطايا، وكان عندهم التابوت، يتوارثونه كابراً عن كابر، { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } سورة البقرة: 248. وكانوا لا يلقاهم عدو، فيقدمون التابوت، ويزحفون به معهم، إلا هزم الله تعالى ذلك العدو، وكان الله تعالى قد بارك لهم في أرزاقهم، فكان أحدهم، فيما يذكرون، يجمع التراب على صخرة، ثمَّ يبذر فيه الحب، فيخرج الله له ما يأكل منه هو وعياله، ويكون لأحدهم الزيتونة، فيعصر منها ما يأكل هو وعياله سنةً.

فلمَّا كثرت أحداثهم، وعظمت ذنوبهم، وتركوا ما عهد الله إليهم، سلط الله عليهم العمالقة، وهم قوم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر، ما بين مصر وفلسطين، وكان جالوت الملك فيهم، فظهروا على بني إسرائيل، وغلبوهم على كثيرٍ من أراضيهم، وسبوا كثيراً من ذراريهم، وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاماً وضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم.

وبقوا على اضطرابٍ من أمرهم، واختلافٍ من حالهم يتمادون أحياناً في غيهم وضلالتهم، فسلط الله تعالى عليهم من ينتقم له منهم؛ ليرجعوا إلى التوبة أحياناً، ويكفيهم الله شر من بغى عليهم، حتى بعث الله فيهم طالوت ملكاً، ورد عليهم توراتهم، فانتظم أمرهم، واستوثق ملكهم.

وكان مدة ما بين وفاة يوشع بن نون التي آل أمر بني إسرائيل في بعضها إلى القضاة منهم، والساسة، وفي بعضها إلى غيرهم، ممن يقهرهم، ويتملك عليهم، إلى أن ثبت الملك فيهم، ورجعت النبوة إليهم بشمويل بن بالي، أربعمائة سنة وستين سنة، وكان آخر من ملكهم في هذه المدة، رجل من نسل لوط، يقال له: كوشان، فقهرهم وأذلهم ثماني سنين، ثمَّ أنقذهم من يده أخ لكالب الأصغر، يقال له عتنيل بن قيس، فقام بأمرهم فيما قيل، أربعين سنة[2].

وسلَّط عليهم ملك، يقال له عجلون، فملكهم ثماني عشرة سنة[3]، ثمَّ تنقذهم منه، فيما قيل،

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 232 – 239.

(2) كوشان رشعتايم، معناه كوشان ذو الشرين، ملك يرام النهرين، استخدمه الرب لتأديب بني إسرائيل بسبب عملهم الشرور بعد موت يشوع بن نون، فاستعبدهم كوشان مدة ثماني سنين، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب، فبعث لهم منقذاً هو عثنيئيل بن قناز، أخو كالب الأصغر، فخلصهم من يدي كوشان. دائرة المعارف الكتابية 6: 442. وما يختص بحكم عثنيئيل في أساطير اليهود، دار الكتاب: 38.

(3) معناه عجل أو دائرة، وهو ملك موآب في عصر القضاة، ضرب بني إسرائيل، واستولى على مدينة أريحا، واستعبدهم ثماني عشرة سنة، حتى صرخوا للرب، فخلصهم إهود بن جيرا. دائرة المعارف الكتابية 5: 202.

رجل من سبط بنيامين يقال له إهود بن جيرا الأشل اليمنى[1]، فقام بأمرهم ثمانين سنة، ثمَّ سلط عليهم ملك من الكنعانيين يقال له يابين[2]، فملكهم عشرين سنة، ثمَّ تنقذهم، فيما قيل، امرأة نبية من أنبيائهم يقال لها دبورا[3]، فدبر أمرهم، فيما قيل، رجل من قبلها يقال له باراق أربعين سنة[4].

ثم سلَّط عليهم قوم من نسل لوط كانت منازلهم في تخوم الحجاز فملكوهم سبع سنين، ثمَّ تنقذهم منهم رجل، من ولد نفثالي بن يعقوب يقال له جدعون بن يواش، فدبر أمرهم أربعين سنة[5]، ثمَّ دبر أمرهم من بعد جدعون ابنه أبيملك بن جدعون ثلاث سنين[6].

ثم دبرهم من بعد ابيملك تولغ بن فوا بن خال أبيملك، وقيل إنه ابن عمه، ثلاثاً وعشرين سنة[7]، ثمَّ دبر أمرهم بعد تولغ رجل من بني إسرائيل يقال له: يائير اثنتين وعشرين سنة[8]، ثمَّ ملكهم بنو عمون، وهم قوم من أهل فلسطين ثماني عشرة سنة[9].

ثم قام بأمرهم رجل منهم، يقال له: يفتاح ست سنين[10]، ثمَّ دبرهم من بعده يحشون،

(1) معنى اسمه المتحد أو القوي، وهو ابن جيرا، من سبط بنيامين، كان قاضياً لبني إسرائيل، وقد أنقذهم من موآب، (ابن لوط من ابنته الكبرى)ن وذلك أنه قتله بيده اليسرى، وكان أعسر. العهد القديم، سفر الأخبار الأيام الأول 7: 10. ودائرة المعارف الكتابية 1: 505.

(2) معنى يابين الله يراقب، وهو اسم ملك من ملوك كنعان، أسلم الرب بني إسرائيل بيده، لأنهم عادوا لفع لاشر، بعد موت إهود. وقد ضايق بني إسرائيل لمدة عشرين سنة. العهد القديم، سفر القضاة 4: 1 - 3. دائرة المعارف الكتابية 8: 231.

(3) دبورة النبية هي نبية وقاضية، مانت تقود أمتها في وقت الأزمات، وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها للقضاء. العهد القديم، سفر القضاة 4: 5. وأساطير اليهود، دار الكتاب: 44.

(4) باراق اسم عبري معناه برق، وقد استدعته دبورا ليقود عشرة آلف مقاتل، لمواجهة جيش يابين ملك الكنعانيين، وقد انتصر عليه. دائرة المعارف الكتابية 2: 50.

(5) معنى جدعون قاطع أو حاطب، وهو الابن الأصغر ليوآش، صار أعظم قائد، وقاضياً خامساً لبني إسرائيل. دائرة المعارف الكتابية 2: 512. وأساطير اليهود، دار الكتاب: 50.

(6) أبيالك بن جدعون، أراد أن يكون ملكاً بعد أبيه، وحكم فعلًا ثلاث سنين. العهد القديم، سفر القضاة 9: 22. دائرة المعارف الكتابية 1: 68.

(7) تولع بن فواة بن دودو، قضى لإسرائيل ثلاثاً وعشرين سنة. العهد القديم، سفر القضاة 10: 1، 2. دائرة المعارف الكتابية 2: 407.

(8) يائير الجلعادي، وهو القاضي الثامن لبني لإسرائيل لمدة اثنتين وعشرين سنة. العهد القديم، سفر القضاة 10: 3 - 5. ودائرة المعارف الكتابية 8: 229.

(9) حطم العمونيون بني إسرائيل، وأرضخوهم لحكمهم ثماني عشرة سنة، ووجدوا في يفتاح قائداً مقتدراً لهم. دائرة المعارف الكتابية 5: 333.

(10) كان يفتاح ابناً غير شرعي لجلعاد، وقد طرده أبناؤه الشرعيون، وعندما حارب بنو عمون إسرائيل، ذهب إليه الشيوخ، ونصبوه قائداً عليهم، وقضى لهم ست سنين. دائرة المعارف الكتابية 8: 297. أساطير اليهود: 54.

وهو رجل من بني إسرائيل سبع سنين، ثمَّ دبرهم بعده الون عشر سنين[1]، ثمَّ من بعده عبدون، ويسمِّيه بعضهم: عكرون، ثماني سنين[2]، ثمَّ قهرهم أهل فلسطين وملوكهم أربعين سنة، ثمَّ وليهم شمشون، وهو من بني إسرائيل، عشرين سنة.

(1) لم أعثر على ترجمة يحشون، والون، وليس لهما ذكر بين قضاة بني إسرائيل.

(2) عبدون بن هليل، كان له أربعون ابناً، وثلاثون حفيداً، وقد قضى لإسرائيل ثماني سنين. وبعد موته عاد بنو إسرائيل لعمل الشرور، فدفعهم الرب ليد الفسطينيين أربعين سنة، إلى أن اقام لهم الرب شمشون. دائرة المعارف الكتابية 5: 173.

شمشون

قال وهب بن مُنبِّه[1]: إن شمشون كان فيهم رجلًا مسلمًا، وكانت أمه قد جعلته نذيراً، وكان من أهل قريةٍ، من قرى الروم، كانوا يعبدون الأصنام، وكان منزله منها على خمسة أميالٍ، فكان يغزوهم وحده، ويجاهدهم في الله، فيقتل منهم، ويسبي، ويصيب الأموال، وكان إذا قاتلهم، لقيهم بالجحفة[2]، لا يلقاهم بغيرها، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه، فتعب وعطش، انفجر له من الحجر ماء عذب، فيشرب منه، حتى يروى.

وكان قد أُعطي قوة في البطش، وكان لا يوثقه حديد، ولا غيره، فكان كذلك، فجاهدهم في الله، ألف شهرٍ، يصيب منهم حاجته، ولا يقدرون منه على شيءٍ، فاحتالوا عليه، وقالوا: لن نأتيه إلا من قبل امرأته[3]، فجعلوا لها جعلًا، فأجابتهم، وقالت: نعم، أنا أوثقه لكم. فأعطوها حبلاً وثيقاً، وقالوا لها: إذا نام، فأوثقي يده إلى عنقه، حتى نأتيه، فنأخذه. فلمّا نام، أوثقت يده إلى عنقه بذلك الحبل.

فلمّا انتبه من نومه، جذبه بيده، فوقع من عنقه، فقال لها: لم فعلت ذلك؟ فقالت: أجرب به قوتك، ما رأيت مثلك قط، فهل في الأرض شيء، يغلبك؟. قال: لا، إلا شيء واحد، قالت: ما هو؟. قال: ما أنا بمخبرك به، فلم تزل تسأله عن ذلك، وكان ذا شعر طويل كثير، فقال لها: ويحك، إن أمي كانت قد جعلتني نذيرة[4]، فلا يغلبني شيء أبداً، ولا يضبطني إلا شعري، فلماً نام، أوثقت يده إلى عنقه، بشعر رأسه، فأوثقه ذلك، وبعثت إلى القوم، فجاؤا، فأخذوه، فجدعوا أنفه وأذنيه، وفقأوا عينيه، وأوقفوه للناس، بين ظهراني المدينة، وكانت مدينة ذات أساطين.

وكان ملكهم قد أشرف عليها، هو والناس؛ لينظروا إلى شمشون، وما يصنع به، فدعا الله

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 382. والكشف والبيان 10: 256. وقصة شمسون عند الطبري. تاريخ الرسل والملوك 2: 23.

وقد جعله الثعلبي في قصص الأنبياء: 383. في أيام ملوك الطوائف، في الفترة بين عيسى والرسول، والقصة في الأصل من تراث بني إسرائيل، قبل زمن عيسى، إذ وردت في العهد القديم، سفر القضاة، فهو ممن حكم بني إسرائيل، كما مر، سأشير إلى بعض مشاهدها في سفر القضاة، وأجملها فيما بعد.

(2) في رواية الطبري. تاريخ الرسل والملوك 2: 22 «وكان إذا لقيهم، لقيهم بلحي بعير لا يلقاهم بغيره»، وهو في العهد القديم، سفر القضاة 16: 17. «ووجد لحى حمار طرياً، فمد يده، وأخذه، وضرب به ألف رجل». وأساطير اليهود 4: 59. والتغيير بين الحمار الذي يدل على استخدامه في المدينة، والبعير الذي يدل على استخدامه في البادية، من إعادة صياغة القصة، ونقلها من بيئة إلى أخرى، وإلى الجحفة، ذهب الثعلبي، وهي الترس، يكون من الجلود ليس فيه خشب ولا عقب، وهو مثل الدرقة. جامع البيان 13: 422. حاشية الشيخ أحمد محمود شاكر. فيكون وهب أو الثعلبي أو غيرهما من الرواة، قد أفرغها من محتواها الإسرائيلي.

(3) دليلة. العهد القديم، سفر القضاة 16: 4.

(4) نذير الله من بطن أمي. العهد القديم، سفر القضاة 16: 17.

شمشون، حين مثلوا به، وأوقفوه على الناس، أن يسلطه عليهم، فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة التي عليها الملك والناس الذين معه، فيجتذبها جميعاً، فجذبها، فانهارت المدينة بمن فيها، فهلكوا فيها هدماً، وهلكت أيضاً امرأته معهم، ورد الله تعالى إليه بصره، وما أصابوه من جسده تاماً، وعاد كما كان[1].

(1) شمشون اسم عبري معناه شمس، كان قاضياً لبني إسرائيل، قضى مدة عشرين سنة، وكان معروفاً بقوته العجيبة، وعند اكتمال شبابه تزوج بامرأة من تمنة، وهي مدينة فلسطينية، وكان ذلك بدون رضى والديه، وضد الناموس، وكان في ذهابه إلى تلك المدينة قابل أسداً وقتله، ثمَّ وجد بعد ذلك، في جثة الأسد دبراً من النحل، فأكل من العسل، وأعطى والديه، وعندما كان في الاحتفال بزفافه، حاجى الفلسطينيين أحجية مؤسسة على هذه الحادثة، ووعد بهدية ثمينة، لمن يحلها في سبعة أيام الوليمة.

واشترط عليهم أن يقدموا مثل هذه الهدية له، إن لم يقدروا على حل الأحجية، ولما لم يقدروا، استنجدوا بزوجته التي ألحت عليه، حتى عرفت منه الجواب، وإذ كان الفلسطينيون قد هددوها هي وأهلها، تهديداً شديداً، أخبرتهم بالحل، وعرف شمشون ما حدث، وقدم لهم الهدية، ولكنه قدمها على حساب ثلاثين من بني شعبهم ومواطنيهم الذين قتلهم.

ثم هجر امرأته التي خانته، وبعد مضي وقت، عاد إلى تمنة ليصالح امرأته، فوجد أنها كانت قد تزوجت بشخص آخر، ورفضوا أن يسمحوا له بأن يراها، فأمسك ثلاثمائة من بنات آوى، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين، ثمَّ أضرم المشاعل ناراً، وأطلق بنات آوى بين مزارع الفلسطينيين وكرومهم، وأحرقها، وعقابا لشمشون، اقتص الفلسطينيون من امرأته، فأحرقوها هي وأهلها بالنار. ولما رأى شمشون ذلك العمل الوحشي، قتل منهم عدداً كبيراً.

ثم لجأ شمشون إلى صخرة عظيمة، في أرض يهوذا، فأتى إليه الفلسطينيون للانتقام منه، وضربوا كل البلاد حواليه، فجاء ثلاثة آلاف من رجال يهوذا إلى شمشون ولاموه؛ لأنه أثار عليهم الفلسطينيين، فأذن لهم أن يوثقوه ويسلموه إلى أيديهم، ففرحوا بأن يأخذوه ويأسروه، وإذ به يحل الوثاق من ذراعيه، ويقبض على فك حمار، ويضرب به ألفاً من الفلسطينيين، وفي ذلك الوقت عطش، ففتح الله له ينبوع ماء في الكفة، فشرب وانتعش.

وبعد ذلك ذهب شمشون إلى غزة، حيث تعرف على دليلة، وهي امرأة بغي، وقد احتالت دليلة عليه، حتى كشفت سر قوته العظيمة، وعرفت أنه كان في شعره، لأنه كان نذير الرب من بطن أمه. فأتى الفلسطينيون عليه وهو نائم، وجزوا شعره، وأوثقوه بسلاسل من نحاس، وقلعوا عينيه، ثمَّ أخذوه إلى غزة، ووضعوه في السجن، وإذ كانوا قد أسروا عدوهم القوي، اجتمع أقطاب الفلسطينيين للفرح، وطلبوا شمشون ليسخروا منه.

وكان في وسط البيت عمودان كبيران، فقاده صبي إلى ما بينهما، وكان قد اجتمع في البيت جمهور من شرفاء الفلسطينيين، ووقف على السطح نحو 3000، ليروا شمشون يلعب، فطلب شمشون إذناً بأن يستند على العمودين اللذين عن جانبيه، فلما وقعت يداه عليهما، صلى إلى الله من أجل المعونة، ثمَّ قبض على العمودين، وانحنى بكلِّ قوته، فزعزعهما، وسقط البيت عليه، وعلى من فيه، فماتوا جميعاً. قاموس الكتاب المقدس: شمشون.

شمويل

ثم بقوا بغير رئيس ولا مدبر لأمرهم، بعد شمشون، فيما قيل، عشر سنين[1]، ثمَّ دبَّر أمرهم بعد ذلك عالي الكاهن، وفي أيامه غلب أهل غزة وعسقلان على تابوت الميثاق، فلمَّا مضى من وقت قيامه بأمرهم أربعين سنة[2]، بعث شمويل نبياً، فدبر شمويل أمرهم، فيما ذكر، عشر سنين، ثمَّ سألوا شمويل حين نالهم، بالذل والهوان بمعصيتهم ربهم، أعداؤهم، أن يبعث لهم ملكاً، يجاهدون معه في سبيل الله، فقال لهم شمويل ما قد قصَّ الله في كتابه العزيز[3].

مولد شمويل

كان لأبي شمويل امرأتان، إحداهما عجوز عاقر، لم تلد له ولداً، وهي أم شمويل، والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد.

قال: وكان لبني إسرائيل عيد من أعيادهم، أقاموا فيه شرائطه، وقربوا القرابين، فحضر أبو شمويل، وامرأتاه، وأولاده العشر ذلك العيد، فلمَّا قربوا قربانهم، أخذ كل واحدٍ منهم نصيباً، وكان لأم الأول اد عشرة أنصباء، وللعجوز نصيب واحد، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر، من الحسد والبغي، فقالت أم الأولاد للعجوز: الحمد لله الذي كثرني بولدي، وقللك. فوجمت العجوز وجوماً شديداً.

فلمَّا كان عند السحر، عمدت إلى متعبدها، فقالت: اللهم، بعلمك وسمعك، كانت مقالة صاحبتي، واستطالتها علي بنعمك التي أنعمتها عليها، وأنت ابتدأتها بالنعمة والإحسان، فارحم ضعفي، وارزقني ولداً تقياً رضياً، واجعله لك ذخراً، في مسجد من مساجدك، يعبدك ولا يكفرك، ويطيعك ولا يجحدك، فإذا رحمت ضعفي ومسكنتي، وأجبت دعوتي، فاجعل لي علامةً، أعرف بها قبول دعائي. فلمَّا أصبحت، حاضت، وكان قبل ذلك قد يئست من الحيض، فجعله الله علامةً لمَّا سألته، فألم بها زوجها، فحملت وكتمت أمرها.

ولقي بنو إسرائيل في ذلك الوقت، من عدوهم بلاء وشدَّة، ولم يكن لهم نبي، يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً، يشير عليهم، ويجاهدون عدوهم معه، وكان سبط النبوة قد هلك، ولم يبق منه إلا تلك المرأة الحبلى. فلمَّا علموا بحملها، تعجبوا من أمرها، وقالوا:

---

(1) شمشون بن منوح، من أواخر قضاة إسرائيل، قضى لإسرائيل عشرين سنة. دائرة المعارف الكتابية 4: 554، 557. وأساطير اليهود، دار الكتاب: 58. وله قصة مفردة، تأتي لاحقاً.

(2) كان عالي رئيساً للكهنة، وقد قضى فسرائيل ربعين سنة. العهد القديم، سفر صموئيل الأول 4: 18. ودائرة المعارف الكتابية 5: 151.

(3) إضافة من تاريخ الرسل والملوك 1: 466. وهي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 387. وشمويل هو صموئيل بن القانة بن يروحام في العهد القديم، سفر صموئيل الأول 1: 1.

ما حملك هذا إلا نبي؛ لأن اليائسات لا يحملن، إلا بالأنبياء، كسارة، امرأة إبراهيم، حملت بإسحاق، وإيشاع، امرأة زكريا، حملت بيحيى، فأخذوها وحبسوها في بيتٍ، رهبة أن تلد جاريةً، فتبدلها بغلام، لَمَّا ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها، فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولداً ذكراً، فولدت غلاماً، وسمته شمويل. تقول: سمع الله دعائي[1].

مبعث شمويل

فلمَّا شبَّ الغلام، أسلمته؛ ليتعلَّم التوراة، فكلفه عيلي وتبنَّاه، فلمَّا بلغ الغلام الوقت الذي يبعثه الله فيه نبياً، أتاه جبريل، وهو نائم إلى جانب الشيخ عيلي الكاهن، وكان لا يأمن عليه أحداً، فدعاه جبريل بلحن الشيخ: يا شمويل. فقام الغلام مرعوباً فزعاً إلى الشيخ، وقال: يا أبتاه، أدعوتني؟. فكره الشيخ أن يقول لا، فيفزع الغلام، فقال: يا بني، ارجع فنم.

فرجع الغلام فنام، ثمَّ دعاه جبريل ثانياً، فانتبه الغلام، وقال: أدعوتني يا أبتاه؟. فقال الشيخ: ما شأنك؟. قال: أما دعوتني؟. قال: لا. فقال شمويل: فإني سمعت صوتاً في البيت، وليس فيه غيرنا. فقال له الشيخ: ارجع فتوضأ، وصل، فإنك، إن دعيت باسمك، فأجب، وقل: لبيك، أنا طوعك، فأمرني بما شئت، أفعل ما تأمرني به. ففعل ذلك الغلام، فنودي ثالثةً، فقال: لبيك، أنا طوعك، فأمرني بأمرك، أفعل ما تأمرني به.

فظهر له جبريل، فقال له: اذهب إلى قومك، فبلغهم رسالة ربك، فإن الله سبحانه قد بعثك فيهم نبياً، وإن الله قد ذرأك للنبوة، ورحم وحدة أمك ذلك اليوم الذي تاهت عليها ضرتها فيه، فلا أحد اليوم أشدُّ منها عضداً، ولا ملاذاً، فانطلق إلى عيلي، فقل له: إنك كنت خليفة الله على عباده ودينه، فقمت زماناً بأمره، حاكماً بكتابه، محافظاً على حدوده، فلمَّا امتدت مدتك، ودق عظمك، وذهبت قوتك، وفني عمرك، وقرب أجلك، وصرت أفقر ما يكون إلى الله تعالى، ولم تزل فقيراً إليه، عطلت الحدود، وجرت بين الخصوم، وعملت بالرِّشا والمصانعات، وأضعفت حكم الحق، حتى عزَّ الباطل وأهله، وذلَّ الحق وحزبه، وظهر المنكر، وخفي المعروف، وفشا الكذب، وقل الصدق، وما كان الله عاهدك على هذا، ولا عليه استخلفك، فبئسما ختمت به علمك. بلغه هذه الرسالة، وقم بعده بالخلافة. فلمَّا بلغه شمويل هذه الرسالة، فزع وجزع[2].

وكان السبب[3] فيما عاتب الله عبده عيلي، ووبخه عليه أنه كان له ابنان شابان، فأحدثا شيئاً في القربان، لم يكن فيه، وذلك أنه كان مسواط القربان الذي كان يسوطونه به كلابين، فما أخرجا كان للكاهن الذي كان يسوطه، فجعله ابناه كلاليب، فأوحى الله إلى شمويل: أن انطلق إلى عيلي، فقل له: منعك حب الولد أن تزجر ابنيك أن يحدثا في قرباني، وأن يعصياني، فلأنزعن

(1) العهد القديم، سفر صموئيل الأول 1: 9 – 18. وأساطير اليهود، دار الكتاب: 72.

(2) العهد القديم، سفر صموئيل الأول 3: 1 – 14.

(3) تاريخ الرسل والملوك 1: 469.

الكهانة منك، ومن ولديك، ولأهلكنك وإياهما. فأخبر شمويل عيلي، ففزع فزعاً شديداً.

وسار إليهم عدوهم، ومن حولهم، فأمر عيلي ابنيه أن يخرجا بالناس، فيقاتلا ذلك العدو، فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فلمّا تأهبوا للقتال، جعل عيلي يتوقع ماذا صنع القوم، فجاءه رجل، وهو قاعد على كرسيه، فأخبره بأن الناس قد انهزموا، وأن ابنيك قد قتلا. قال: فما فعل بالتابوت؟. قال: ذهب به العدو. قال: فشهق ووقع على قفاه من كرسيه، فمات[1]. فلمّا بلغ ملكهم إيلاف الخبر: أن التابوت قد سلب، وأن عيلي قد مات، مات كمداً.

فلمّا مات الأمير والوزير، وأخذ التابوت، مرج أمر بني إسرائيل، واختل، واجترأ عليهم عدوهم، فقالوا لشمويل: { ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }. وذلك بعد ما دبر شمويل أمرهم عشر سنين، فلمّا نالهم الذل والهوان، والقتل والسبي، من عدوهم بشؤم معصيتهم، سألوا نبيهم شمويل أن يبعث لهم ملكاً، يقاتلون معه في سبيل الله، وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملك، وإطاعة الملك للأنبياء، وكان الملك هو الذي يسير بالجيوش، ويقاتل العدو، وكان النبي منهم هو الذي يقيم له أمره، ويشير عليه، ويرشده، ويأتيه بالخبر من عند الله تعالى.

قال: بعث الله شمويل نبياً في بني إسرائيل، فلبثوا أربعين سنةً، في أحسن حال، ثمّ كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان، فسألوا شمويل أن يبعث لهم ملكاً[2]، فذلك قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }. يعني شمويل، وهو بالعبرانية إسماعيل بن بالي بن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة، صاحب عموصا بن عزريا[3].

فقال لهم نبيهم: { هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا }، فأجابوا بما قص الله في كتابه: { قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } سورة البقرة: 246. فلمّا أخذ شمويل عليهم الميثاق، على الطاعة والجماعة والجهاد، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً.

طالوت وجالوت

وإن شمويل، لمّا قالوا له: { ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً، فأتي بعصا، وقرنٍ فيه دهن القدس، وقيل له: إن صاحبكَم الذي يكون ملكاً طوله طول هذه العصا، وانظر إلى القرن الذي فيه الدهن، فإذا دخل عليك رجل، فنشّ الدهن الذي في

(1) العهد القديم، سفر صموئيل الأول 4: 16 – 18.

(2) تاريخ الرسل والملوك 1: 466.

(3) جامع البيان 5: 292. وهو اشماويل، وهو بالعربية إسماعيل بن هلقابا، واسم أمه حنة، وهو من نسل هارون بن عمران أخي موسى. تفسير مقاتل 1: 205. ومعنى صموئيل أو أشمويل اسم الله، أو اسمه إيل. دائرة المعارف الكتابية 5: 44.

القرن، فهو ملك بني إسرائيل، فادهن به رأسه، وملكه عليهم[1]. ثمَّ إنهم قاسوا أنفسهم بالعصا، فلم يكونوا مثلها، وكان طالوت بطولها، واسمه بالسريانية شاول، وبالعبرانية شاؤول بن قيس بن أفيل بن صارر بن بخورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل[2]، وكان رجلًا دبَّاغاً يعمل الأدم[3].

قال: ضاعت حُمُر لأبي طالوت فأرسله، وغلاماً له، يطلبانها، فمرَّ ببيت شمويل، فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي، فسألناه في أمر الحُمُر؛ ليرشدنا ويدعو لنا فيها بخير، فقال له: نعم[4].

فدخلا عليه، فبينما هما عنده يذكران له خبر الحمر، إذ نش الدهن في القرن[5]، فقام شمويل، وقاس طالوت بالعصا، فكانت على طوله، فقال له شمويل: قرب رأسك إلي. فدهنه بدهن القدس، ثمَّ إنه قال له: أنت ملك بني إسرائيل، وقد أمرني ربي أن أملكك عليهم. فقال طالوت: أنا؟. فقال: نعم، أو ما علمت أن سبطي أدنى أسباط بني إسرائيل؟. قال: بلى. قال: أو ما علمت أن بيتي أدنى بيت في بني إسرائيل؟. قال: بلى. قال: فبأي آية؟. قال: بآية أنك ترجع، وقد وجد أبوك الحمر. فكان كذلك.

ثم إن شمويل قال لبني إسرائيل: { إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ }، وإنما قالوا ذلك، لأنه كان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط مملكة، وكان سبط النبوة سبط لاوي بن يعقوب، ومنهم موسى وهارون. وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب، ومنهم داود وسليمان، ولم يكن طالوت من سبط النبوة، ولا من سبط المملكة، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب[6]، وكانوا عملوا ذنباً عظيماً، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً، فغضب الله عليهم، ونزع النبوة والملك منهم.

فلمَّا قال لهم: { إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا }، أنكروا ذلك، لأنه كان من ذلك السبط، فقالوا: { أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ }، ومع ذلك إنه فقير، { لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ }، فقال لهم شمويل: { قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ }، قال

(1) الجامع لإحكام القرآن 2: 245.

(2) عن وهب. اسم طالوت بالسريانية: شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن يحرب بن أفيح بن آيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. جامع البيان 5: 307.

(3) العهد القديم، سفر صموئيل الأول 9: 1 – 2. وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 79 إنهم قالوا: نريد ملكاً، حتى نكون مثل بقية الأمم.، والعهد القديم، سفر صموئيل الأول 8: 4، 20، 19، 5.

(4) المعارف: 44.

(5) تفسير ابن أبي حاتم 2: 463.

(6) جامع البيان 5: 310.

وهب: فاجتمع بنو إسرائيل فكان طالوت فوقهم من منكبه فصاعدًا[1]، { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ } سورة البقرة: 246 – 248.

التابوت

كان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين[2]، وكان من عود الشمشار[3] الذي تتخذ منه الأمشاط، مموهاً بالذهب، وكان عند آدم إلى أن مات، ثمَّ عند شيث إلى أن مات[4]، ثمَّ توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إلى إبراهيم، فلمَّا مات كان عند إسماعيل؛ لأنه أكبر ولده، فلمَّا مات إسماعيل، كان عند ولده قيدار، فنازعه فيه ولد إسحاق، وقالوا له: إن النبوة صرفت عنكم، وليس لكم إلا هذا النور الواحد. يعني نور محمد ، فأعطنا التابوت، فكان يمتنع عليهم، ويقول: إنه وصية أبي، ولا أعطيه لأحد من العالمين.

فذهب ذات يومٍ؛ ليفتح ذلك التابوت، فعسر عليه فتحه، فناداه منادٍ من السماء: مهلا يا قيدار، فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل، إنه وصية نبي، ولا يفتحه إلا نبي، فادفعه إلى ابن عمك، يعقوب، إسرائيل الله. فحمل قيذار التابوت على عنقه، وخرج يريد أرض كنعان، وكان بها يعقوب.

فلمَّا قرب قيدار، صر التابوت صرةً، سمعها يعقوب، فقال لبنيه: أقسم بالله، لقد جاءكم قيدار بالتابوت، فقوموا نحوه. فقام يعقوب وأولاده جميعاً، فلمَّا نظر يعقوب إلى قيدار، سعى إليه باكياً، وقال: يا قيدار، ما لي أرى لونك متغيراً، وقوتك ضعيفة، أرهقك عدو، أم أتيت بمعصية بعد أبيك إسماعيل؟!. قال: ما أرهقني عدو، ولا أتيت بمعصية، ولكن أثقل ظهري نور محمد، فلذلك تغيَّر لوني، وضعف ركني. قال يعقوب: أفي بنات إسحاق؟. قال: لا. ولكن في العربية الجرهمية، وهي الغاضرة[5].

فقال يعقوب: بخٍ بخٍ، شرفاً لمحمد لم يكن الله ليخرجه، إلا في العربيات الطاهرات، يا قيدار، وأنا مبشرك ببشارة. قال: وما هي؟. قال: اعلم أن العامرية قد ولدت البارحة غلاماً. قال قيدار: وما أعلمك يا ابن عمي، وأنت بأرض الشام، وهي بأرض الحرم؟. قال يعقوب:

(1) تفسير ابن أبي حاتم 2: 466.

(2) وهو صندوق صنعه موسى بأمره تعالى، طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، مصنوع من خشب السنط، ومغشى بصفائح ذهبٍ نقي، من داخله وخارجه، يحيط برأسه أكليل من ذهب، وغطاؤه وحلقتاه من ذهب، فيه وعاء المن، وعصا هارون، ولوحا التوراة اللذان كتبهما الله بيده، وكتاب التوراة كله، حمله العبرانيون في التيه، وعندما عبروا نهر الأردن، وهم يحملونه، انشق تيار الماء، وعبروا، ومصيره مجهول. قاموس الكتاب المقدس: تابوت العهد.

(3) الشمشاد. تفسير مقاتل 1: 206.

(4) النبوة: 47.

(5) الكشف والبيان 2: 212. والغضير الناعم. لسان العرب: غضر.

قد علمت ذلك، لأني رأيت أبواب السماء قد فتحت، ورأيت نوراً، كالقمر المدور بين السماء والأرض، ورأيت الملائكة ينزلون من السماء، بالبركات والرحمة، فعلمت أن ذلك من أجل محمد . ثمَّ إن قيدار دفع التابوت إلى ابن عمه يعقوب، ورجع إلى أهله، فوجدها قد ولدت غلاماً، فسماه حملاً، وفيه نور محمد .

وكان التابوت في بني إسرائيل، إلى أن وصل إلى موسى، وكان موسى يضع فيه التوراة، ومتاعاً من متاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثمَّ تداولته أنبياء بني إسرائيل، إلى وقت شمويل، فوصل إلى شمويل، وقد تكامل أمر التابوت بما فيه، وكان فيه ما ذُكر الله في كتابه: { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } سورة البقرة: 248.

وعن بعض علماء بني إسرائيل في السكنية: رأس هرةٍ، كانت إذا صرخت في التابوت صرخةً، أيقنوا بالنصر، وجاءهم الفتح. وهي روح من الله تكلّمهم، إذا اختلفوا في شيء، فتخبرهم بيان ما يريدون[1].

***

وكان التابوت عند بني إسرائيل، إذا اختلفوا في شيء، تكلَّم، وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال، أقاموه بين أيديهم، يستفتحون به على عدوهم. فلمّا عصوا، وأفسدوا، سلط الله عليهم العمالقة، فغلبوهم على التابوت، وسلبوهم إياه، وذلك في أيام عيلي الكاهن الذي ربى شمويل، وقد مضت القصة فيه، وكان جالوت، يوم سبي من قومه التابوت، صغيراً، فلمّا ذهب التابوت، اختل أمر بني إسرائيل، إلى أن بعث الله طالوت ملكاً، فسألوه الآية على ملكه، فقال لهم شمويل: { إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ }.

وكانت قصة ذلك التابوت أن القوم الذين سبوا التابوت، أتوا به قريةً من قرى فلسطين، يقال لها: أردن[2]، وجعلوه في بيت صنم لهم، ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغد، وإذا الصنم تحته، فأخذوه وجعلوه فوقه، وسمروا قدمي الصنم على التابوت، فأصبحوا من الغد، وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه، وأصبح ملقى تحت التابوت، فأصبحت الأصنام كلها منكسةً، فأخرجوه من بيت الأصنام، ووضعوه في ناحيةٍ من مدينتهم، فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم، حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء، فأخرجوه من مدينتكم.

قال: فأخرجوه إلى قرية أخرى، فبعث الله على أهل تلك القرية فأراً، يبيت الرجل صحيحاً،

(1) تفسير عبد الرزاق 1: 460.

(2) كذا. وأزدود في الكشف والبيان 2: 214. ولعلها أسدود، في غزة.

فيقرضه الفأر، فيصبح ميتاً، وقد أكلت ما في جوفه[1]، فأخرجوه منها إلى الصحراء، ودفنوه في مجرى لهم، فكان كل من تبرز هناك، أخذه الباسور والقولنج، فأخرجوه ووضعوه في بيت، فمكث فيهم عشر سنين، وسبعة أشهر، لا يدنو أحد منه، إلا احترق، وأصابهم في المدينة الآفات والعاهات، وفي مواشيهم الموت، وفي نسائهم الطاعون، فتحيروا.

وكانت عندهم امرأة، من نساء بني إسرائيل، من أولاد الأنبياء، فقالت: إنكم لا تزالون ترون ما تكرهون، ما دام هذا التابوت فيكم، فأخرجوه عنكم. فأتوا بعجلةٍ بإشارة تلك المرأة، فحملوا عليها التابوت، ثمَّ علقوها على ثورين، وضربوا جنوبهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكل الله بهما أربعةً من الملائكة، يسوقونهما، فلم يمر التابوت بأرض، إلا كانت مقدسة، فأقبلا، حتى وقفا على أرضٍ، فيها حصاد لبني إسرائيل، فكسر برثنهما، وقطع حبالهما، ووضع التابوت فيها، ورجع الثوران إلى أرضهما، فلم تدر بنو إسرائيل إلا والتابوت عندهم، فكبروا، وحمدوا الله تعالى، واجتمعوا على طالوت[2].

قتال طالوت جالوت

فلمّا أوحى الله إلى شمويل أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت، من بيت المقدس، بالجنود، لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه، أو مريض لمرضه، أو ضرير لضره، أو معذور لعذره[3]، وذلك أنهم لمَّا رأوا التابوت قالوا: قد أتانا التابوت، وهو نصر لا شك فيه، فسارعوا إلى الجهاد، فقال طالوت: لا حاجة لي فيما أرى، لا يخرج معي رجل، بني بناءً، لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة مشتغل بها، ولا رجل عليه دين، ولا رجل، تزوج بامرأة، ولم يدخل بها،، ولا يتبعني إلا الشاب النشط الفارغ.

فاجتمع ثمانون ألفاً على شرطه، فخرج بهم، وكان في حر شديد، فشكوا قلة المياه بينهم وبين عدوهم، وقالوا: إن المياه لا تحملنا، فادع الله تعالى أن يجري لنا نهراً. فقال لهم طالوت بأمر شمويل: { إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ }[4]؛ ليرى طاعتكم، وهو أعلم بكم. وهو نهر بين الأردن وفلسطين عذب، يقال له: أدمى. { فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ }، وهو ملء الكف، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، وكانوا ثلاثمائة، وبضعة عشر

(1) تفسير عبد الرزاق 1: 359، وجامع البيان 5: 321، وفيه أن فارةً، تأكل جوف الرجل من دبره، إذا جلس للتغوط. وأساطير اليهود، دار الكتاب 4: 76، وفي العهد القديم، سفر صموئيل الأول 5: 6.

(2) عن وهب. تاريخ الرسل والملوك 1: 471. وفي جامع البيان 5: 336. وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 76.

(3) سرد آخر عن وهب في تفسير عبد الرزاق 1: 358.

(4) تفسير ابن أبي حاتم 11: 157.

رجلاً[1].

فمن اغترف غرفةً بيده، كما أمر الله تعالى قوي قلبه، وصح ورجح إيمانه، وعبر النهر سالماً، وكفته تلك الغرفة الواحدة، لشربه وحمله ودوابه، والذين شربوا، وخالفوا أمر الله تعالى، أسودت شفاههم، وغلبهم العطش، فلم يرووا، وبقوا على شاطئ النهر، وجبنوا عن لقاء العدو، ولم يشهدوا الفتح. فلمّا جاوز النهر، مع طالوت، القليل الذين ثبتوا معه، قالوا، يعني الذين شربوا، وخالفوا أمر الله تعالى: { لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ }، وانصرفوا عن طالوت، ولم يشهدوا قتال جالوت، و{ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } سورة البقرة: 249. ومروا قاصدين الجهاد.

داود وجالوت

عبر النهر مع طالوت فيمن عبر، إيشا أبو داود، ومعه ثلاثة عشر ابناً له، وكان داود أصغرهم وأحقرهم، فأتى ذات يوم أباه، فقال: يا ابتاه، ما قذفت بمقلاعي هذه شيئاً، إلا أصبته، وصرعته. فقال: أبشر يا بني، فإن الله قد جعل رزقك في قذافتك. يعني في مقلاعك، ثمَّ أتاه يوماً آخر، فقال: يا أبتاه، لقد دخلت بين الجبال، فرأيت أسداً رابضاً، فركبته، وقبضت بأذنيه، فلم يهمني، فقبضت على فكيه، ففطرتهما برأسه، وعنقه إلى لبته بيدي، من غير سكينٍ، ولا ضرب بحديدٍ، وتراه هناك مقتولاً. فقال له أبوه: أبشر يا بني، فإن هذا خير، أعطاكه الله. ثمَّ أتاه يوماً آخر، وقال: يا أبت، إني لأمشي بين الجبال، فأسبح فما يبقى جبل، إلا سبح معي. قال: أبشر يا بني، فإن هذا خير، أعطاكه الله، وسيكون لك شأن عظيم.

فلمّا وصلت بني إسرائيل، مع طالوت، إلى عسكر جالوت، أرسل جالوت إلى طالوت: أن ابرز إلي، أو أبرز إلي من يقاتلني، فإن قتلني، فلكم ملكي، وإن قتلته، فلي ملككم. فشق ذلك على طالوت، فنادى في عسكره: من قتل جالوت، زوجته ابنتي، وناصفته مملكتي. فهاب الناس قتال جالوت، فلم يجبه أحد، فسأل طالوت نبيهم شمويل، فدعا الله تعالى في ذلك، فأتى بقرنٍ فيه دهن القدس، وشبه تنورٍ من حديد.

وقيل له: إن الذي يقتل جالوت هو الذي يوضع هذا القرن على رأسه، فيغلي الدهن، حتى يدهن منه رأسه، ولا يسيل على وجهه، بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنور، فيملؤه، ولا يتقلقل فيه. فدعا طالوت أشداء بني إسرائيل وأقوياءهم، فجربهم، فلم يوافقه منهم أحد.

فأوحى الله إلى شمويل: أن في ولد إيشا من يقتل جالوت، وإني أريد أن أجعله خليفةً في الأرض من بعدك، أعلمه فصل الخطاب، وهو راعي الغنم، فقل لإيشا، يعرض عليك بنيه

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 543.

واحداً واحداً[1]. فدعا إيشا، وقال له: اعرض علي بنيك. فأخرج له اثني عشر ولداً، أمثال السواري، وفيهم رجل بارع، فجعل يعرضهم على القرن، والتنور، فلا يرى شيئاً، ويقول لذلك الجسيم، ارجع، فيردده على التنور.

فأوحى الله تعالى إليه: إنا لا نأخذ الرجال على صورهم، ولكنا نأخذهم على صالح هممهم وقلوبهم. فقال لإيشا: هل بقي لك ولد غيرهم؟. قال: لا. قال شمويل: رب، قد زعم أنه له ولد غيرهم. فقال: كذب. فقال شمويل: يا إيشا، إن ربي كذبك. قال: صدق الله، يا نبي الله، إن لي ابناً صغيراً، يقال له: داود. استحيت أن يراه الناس؛ لقصر قامته وحقارته[2]، وخلفته في الغنم، يرعاها، وهو في شعب كذا وكذا، وكان داود قصيراً سقيماً، مصفراً أزرق العينين، فدعاه طالوت.

ويقال: خرج إليه، فوجد الوادي قد حال بالماء بينه، وبين الزريبة التي كان يتروح إليها، فوجده يحمل الغنم شاتين شاتين، يعبر بهما السيل، ولا يخوض بهما الماء، فلمّا رآه شمويل، قال: هذا هو لا شك فيه، هذا يرحم البهائم، فهو أرحم بالناس، فدعاه فوضع القرن على رأسه، ففاض، وأجلسه في التنور، فملأه.

فلمّا رأى طالوت ذلك، قال له: هل لك أن تقتل جالوت، وأزوجك ابنتي، وأجري حكمك في مملكتي؟[3]. قال: نعم[4]. قال: فهل لقيت من نفسك شيئاً، تتقوى به على قتله؟. قال: نعم، أنا راعي الغنم، فيجيء الأسد والنمر والذئب ليأخذ شيئاً، فأقوم إليه وأقبضه، وأفتح لحييه عنها، وأحرفها إلى قفاه. فلمّا سمع طالوت منه ذلك، رده إلى عسكره، فمر داود في الطريق بحجر، فناداه: يا داود، احملني، فإني حجر هارون الذي قتل به ملك كذا وكذا، فوضعه في مخلاته، ثمّ مرَّ بحجر آخر، فناداه: يا داود، احملني، فإني حجر موسى الذي قتل فيه ملك كذا وكذا، فحمله في مخلاته، ثمّ مرَّ بحجر آخر، فقال: احملني، فإني حجرك الذي تقتل به جالوت، وقد خبأني الله لك، فوضعه في مخلاته[5].

فلمّا تصافوا للقتال، برز جالوت، وسأل المبارزة، فأنتدب له داود، وكان طالوت أعطاه فرساً ودرعاً وسلاحاً، فركب الفرس، ولبس السلاح، وسار قليلاً، فوجد في نفسه زهواً، فانصرف وعاد سريعاً إلى الملك، فقال من حوله: جبن الغلام. فجاء حتى وقف على الملك، فقال

(1) كان لداود سبعة أخوة. البدء والتاريخ 1: 45، عن وهب، وهو في العهد القديم، سفر صموئيل الأول: 16، وأربعة أخوة، عن ابن إسحاق في جامع البيان 5: 356، والقصة فيه.

(2) أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. العهد القديم، سفر صموئيل الأول 16: 12.

(3) العهد القديم، سفر صموئيل الأول 17: 25.

(4) تفسير عبد الرزاق 1: 366. وجامع البيان 5: 355، وتفسير مقاتل 1: 132.

(5) في جامع البيان 5: 358. وأساطير اليهود، دار الكتاب 4: 101.

له: ما شأنك؟. فقال له داود: إن الله تعالى، إن لم ينصرني، فما يغني عني هذا السلاح شيئاً، فدعني أقاتل كما أريد. فقال له طالوت: افعل ما تريد. فأخذ داود مخلاته، فتقلدها، وأخذ المقلاع، ومضى نحو جالوت.

مخلاة داود

وكان جالوت من أشدِّ الناس وأقواهم، وكان يهزم الجيوش وحده، وكان له بيضة، وزنها ثلاثمائة رطل حديد، وكان له فرس أبلق، مثله في الشدَّة والقوة، وعظم الخلق، فلمَّا برز جالوت إلى داود، ألقى الله تعالى في قلبه الرعب، فقال له: أنت تبرز إلي؟. قال: نعم. وكان جالوت راكباً على فرس أبلق، وعليه السلاح التام، فقال له: يا بني، تأتيني بالحجر بالمقلاع، كما يؤتى الكلب بالحجر؟. قال: نعم. أنت أشر من الكلب. قال: لا جرم، لأقسمن لحمك بين سباع الأرض، وطير السماء. فقال داود: باسم الله، ويقسم الله لحمك بين السباع، وطير السماء. وأخذ حجراً منها وقال: باسم الله، إله إبراهيم، ووضعه في مقلاعه، وأخذ حجراً ثانياً، وقال: باسم الله، إله إسحاق، ووضعه في مقلاعه، ثمَّ أخرج ثالثاً، وقال: باسم الله، إله يعقوب، ووضعه في مقلاعه[1].

مقتل جالوت

فصارت الأحجار الثلاثة كلها حجراً واحداً، وأدار المقلاع، ورمى به، فسخر الله له الريح، حتى أصاب الحجر أنف البيضة، فخالط دماغه، وخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً.

ولمَّا قتل داود جالوت، ذكر الناس داود، وعظم في أنفسهم، فجاء داود إلى طالوت، وقال له: أنجز إلي ما وعدتني، وأعطني امرأتي. فقال له طالوت: أتريد ابنة الملك بغير صداق، عجل صداق ابنتي، وشأنك بها. فقال داود لطالوت: ما شرطت علي صداقاً، وليس لي شيء، فتحكم في الصداق بما تريد، وأقرضني مهرها، وعلي الأداء والوفاء لك به، فقال طالوت: أصدقها نصيبك من الملك. فقال له بنو إسرائيل: لا تظلمه، وأنجز له ما وعدته.

مع طالوت

فلمَّا رأى طالوت ميل بني إسرائيل إلى داود، أحسن ثناءه عليه، وقال: لا حاجة لابنتي في المال، ولا أكلفك ما لا تطيق، أنت رجل جريء، وفي جبالنا أعداء من المشركين، فانطلق فجاهدهم، فإذا قتلت منهم مائتي رجلٍ وجئتني برؤوسهم، زوجتك ابنتي. فأتاهم داود، وجعل كلما قتل منهم رجلاً، احتز رأسه، ونظمه في خيط، حتى نظم رؤوسهم، ثمَّ جاء بهم طالوت، وألقاهم بين يديه، وقال له: ادفع لي امرأتي. فزوجه امرأته، وأجرى خاتمه في ملكه، فمال

(1) العهد القديم، سفر صموئيل الأول ١٧: 45.

الناس إلى داود، وأحبه بنو إسرائيل، وأكثروا من ذكره، فوجد طالوت من ذلك، في نفسه[1]، فأراد قتله.

كانت الأنبياء والملوك يومئذٍ، يتوكؤون على العصي، ويغرزون في أطراف العصي أزجةً[2] من حديد، وكان داود جالساً في ناحية البيت، فدخل طالوت، فرماه بالعصا بغتةً؛ ليقتله بها صبراً، فلمَّا أحس داود بذلك، حاد عن رميته، وأمال نفسه من غير أن يبرح من مكانه، فارتكزت العكازة في الجدار، فقال له داود: أردت قتلي؟. قال له طالوت: لا، بل أردت أن أقف على ثباتك عند الطعان، ورباطة جأشك للأقران. فقال له داود: أفلقيته على ما قدرته في؟. قال: نعم، ولكنك لعلك فزعت. قال: معاذ الله، إن أخاف إلا الله، ولا ألجأ إلا إليه، ولا يدفع الشر إلا هو.

ثم إن داود انتزعها من الجدار، وهزها هزةً منكرة، وقال له: اثبت لي كما ثبت لك. فأيقن طالوت بالهلاك، فقال له: أنشدك بالله، وبحرمة المصاهرة التي بيني وبينك. وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت، ولكن كان مقال تخويفٍ وتحذير، فقال داود لطالوت: إن الله قد كتب في التوراة جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة، والبادي أظلم. قال طالوت: أفلا تقول قول هابيل: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة المائدة: 28.

فقال داود: قد عفوت عنك لوجه الله تعالى. فلبث طالوت زماناً، يريد قتل داود، فعزم على أن يأتيه، ويقتله في داره، فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود، أخبرها رجل، يقال له: ذو العينين. فقالت لداود: إنك لمقتول الليلة. قال: ومن يقتلني؟. قالت: أبي. قال: وهل أجرمت جرماً؟. قالت: حدثني من لا يكذب، ولا عليك بأس أن تغيب الليلة، حتى تنظر مصداق ذلك. فقال: لئن كان أراد ذلك، لا أستطيع خروجاً، ولكن ائتيني بزق من خمر. فأتته به، فوضعه في مضجعه على السرير وسجاه، ودخل تحت السرير.

فدخل طالوت نصف الليل، وأراد أن يقتل داود، فلم يجده، فقال لابنته: أين بعلك؟. فقالت: هو نائم على السرير. فضربه بالسيف، فسال الخمر، فلمَّا وجد ريح الخمر، قال: رحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر!، وخرج، فلمَّا أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً، فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت، لخليق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني. ثمَّ إنه استتر بحجابه وحراسه، وأغلق دونه الأبواب.

فأتى داود ذات ليلةٍ، وقد هدأت العيون، وأعمى الله عنه الحجاب، وفتح الله له الأبواب، فدخل عليه، وهو نائم على فراشه، فوضع سهماً عند رأسه، وسهماً عند رجليه، وسهماً عن يمينه، وسهماً عن شماله، ثمَّ خرج، فلمَّا استيقظ طالوت، وجد السهام، فعرفها، فقال: رحم الله داود،

(1) جامع البيان 5: 360. وتفسير مقاتل 1: 134. والعهد القديم، سفر صموئيل الأول 18: 27 - 29.

(2) الأزجة جمع زج، حديدة تركب في أسفل الرمح، والسنان في أعلاه. لسان العرب: زجج.

هو خير مني، ظفرت به، فقصدت قتله، وظفر بي فكف عني، لو شاء لوضع هذا السهم في حلقي، وما أنا بالذي آمنه.

فلمّا كانت الليلة القابلة، أتاه داود ثانيةً، وأعمى الله عنه أعين الحجاب، فدخل، وهو نائم على فراشه، فأخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضأ منه، وكوزه الذي كان يشرب به، وقطع شعرات من لحيته، وشيئاً من هدب ثيابه، ثمَّ خرج وهرب وتوارى، فلمّا أصبح طالوت، ورأى ذلك، سلط على داود العيون، وشد في طلبه، فلم يقدر عليه.

ثم إن طالوت ركب ذات يوم، فوجد داود يمشي في البرية، فقال طالوت في نفسه: اليوم أقتل داود، أنا راكب، وهو ماشٍ. وكان داود، إذا فر، لم يدرك، فركض طالوت في أثره، واشتدَّ داود في الجري، فدخل غاراً، فأوحى الله إلى العنكبوت، فنسجت عليه بيتاً، فلمّا انتهى طالوت إلى الغار، ونظر إلى بناء العنكبوت، قال: لو كان ههنا، لخرق بيت العنكبوت. فتركه ومضى.

فلمّا مضى، خرج داود من الغار، وانطلق إلى الجبل مع المتعبدين، فجعل يتعبد فيه، فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود، إلا قتله، فجعل يقتل العلماء، فلم يكن يقدر، في بني إسرائيل، على عالم، ويطيق قتله إلا قتله، ولم يكن يحارب جيشاً إلا هزمه، حتى أتي بامرأةٍ، تعلم الاسم الأعظم، فأمر خبازه بقتلها، فرحمها الخباز، وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم، فتركها، ووضع الله في قلب طالوت التوبة، فندم على ما فعل، وأقبل على البكاء، حتى رحمه الناس، وكان كل ليلةٍ، يخرج إلى القبور، فيبكي وينادي: أنشد الله عبداً، يعلم لي توبة إلا أخبرني بها.

فلمّا كثر عليهم بكاؤه، ناداه منادٍ من القبور: يا طالوت، أما ترضى أنك قتلتنا أحياءً، حتى تؤذينا أمواتاً. فازداد حزنا وبكاء، فرحمه الخباز، وقال له: ما لك أيها الملك؟. فقال: هل تعلم لي في الأرض عالماً، أسأله: هل لي من توبة؟. فقال له الخباز: أيها الملك، هل تدري ما مثلك؟. قال: لا. قال: ما مثلك إلا كمثل ملكٍ، نزل قرية عشاءً، فصاح الديك، فتطير منه، فقال: لا تتركوا في هذه القرية ديكاً إلا ذبحتموه.

فلمّا أراد أن ينام، قال لأصحابه: إذا صاح الديك، فأيقظونا، حتى ندلج. فقيل له: وهل تركت ديكاً، يسمع صوته؟. وأنت، هل تركت عالماً في الأرض؟. فازداد حزنا وبكاء.

فلمّا رأى الخباز ذلك، قال: أرأيت، إذا دللتك على عالم، لعلك تقتله. قال: لا. فتوثق منه الخباز بالإيمان، فأخبره أن المرأة العالمة عنده، فقال له: انطلق بنا إليها، أسألها هل لي من توبة. وكانت تعلم الاسم الأعظم، وكان إنما يعلم هذا الاسم أهل بيت لها، فنيت رجالهم، وعلمت نساؤهم. فلمّا بلغ طالوت الباب، قال له الخباز: إنها، إن رأتك، فزعت منك. ثمَّ جعله خلفه، ودخل عليها الخباز، فقال: ألست أعظم الناس عليك منةً، أنجيتك من القتل، وأوثقتك عندي؟. قالت: بلى. قال: لي إليك حاجة، هذا طالوت يسأل: هل له من توبة.

فلمَّا سمعت بذكره، غشي عليها من الفرق، فلمَّا أفاقت، قال لها: إنه لا يريد قتلك، ولكن يسألك: هل له من توبة؟. قالت: لا، والله، ما له من توبة، ولكن هل تعلمون قبر يوشع بن نون؟. قالوا: نعم. قالت: فانطلقوا بنا إلى قبره. فلمَّا وصلوا إليه، صلت عنده ركعتين، ثمَّ إنها نادت: يا صاحب القبر.

فخرج يوشع بن نون من القبر، ينفض التراب عن رأسه، فلمَّا نظر إلى الثلاثة: المرأة والخباز والملك، قال لهم: أقامت القيامة؟. قالوا: لا. ولكن هذا طالوت، يسألك: هل له من توبة؟. فقال له يوشع بن نون: ما فعلت يا طالوت، بعدي؟. قال: لم أدع شيئاً من الشر إلا فعلته، وقد جئت أطلب التوبة. قال: كم لك من ولدٍ؟. قال: عشرة رجال. قال: ما أعلم لك من توبة، إلا أن تتخلى عن ملكك، وتخرج أنت وولدك، تجاهد في سبيل الله، ثمَّ تقدم ولدك، حتى يقتلوا بين يديك، ثمَّ إنك تقاتل، حتى تقتل آخرهم، ثمَّ رجع شمويل إلى القبر، فسقط ميتاً.

مقتل طالوت

ورجع طالوت أحزن ما يكون، وخاف أن لا يتابعه ولده، فبكى حتى ذهبت أشفار عينيه، ونحل جسمه، فدخل عليه أولاده، فقال لهم: أرأيتم، لو دفعت إلى النار، أكنتم تنقذونني؟. قالوا: نعم، ننقذك بما قدرنا عليه. قال: فإنها النار، إن لم تفعلوا ما أقول لكم. قالوا: فاعرض علينا مقالتك. فذكر لهم القصة، فقالوا: وإنك لمقتول بعدنا؟. قال: نعم. قالوا: لا خير لنا في الحياة بعدك، قد طابت أنفسنا بالذي سألت. فتجهز بأولاده إلى الغزو، وكانوا عشرة، فقاتلوا بين يديه، حتى قتلوا، ثمَّ شد بعدهم، فقاتل حتى قتل، فجاء قاتله إلى داود، يبشره بقوله له: قد قتلك عدوك. فقال داود: ما كنت بالذي تحيا بعده. فضرب عنقه[1].

نونا القاضي

قال وهب: كان في زمن طالوت قاضيان، يقضيان بين بني إسرائيل بالحق، من غير أن يميلا عنه، ثمَّ تغير حالهما ومالا، فشكا بنو إسرائيل ذلك إلى طالوت، فقال: اختاروا من بينكم، رجلاً أوليه الحكم بينكم، فاتفق رأيهم على نونا، فاستدعاه طالوت، وعرض ذلك عليه فأبى، ثمَّ قال نونا: إن كان لا بد من ذلك، فأجلني شهراً، فأجله، فرجع نونا إلى منزله، وحمى حديدةً، وقربها من عينيه، حتى ذهب نورهما، ثمَّ داواهما حتى صلحتا، وبقي أعمى، ثمَّ أقبل إلى طالوت، فلمَّا رآه، قال: من فعل بك هذا؟، قال: أنا فعلته بنفسي، قال: وما حملك على ذلك؟، قال: كي لا أهاب أحداً في الحكم، ولا أخشاه.

ثم اتَّخذ لنفسه عريشاً، يشرف على القاضيين، فإذا هما حكما بالحق سكت، وإن عدلا عن

(1) بأسلوب سردي آخر في قصص الأنبياء للكسائي: 548. والقصة مختصرة عن وهب في تفسير عبد الرزاق 1: 364. والقصة في العهد القديم، سفر صموئيل الأول: 18، 19.

الحق، رد ما حكما به، فلا يصل أحد إليه، وكان لبني إسرائيل سوق، يجتمعون فيها، فدخل السوق رجل، ومعه رمكة وراءها فلوة[1] يريد بيعها، فأقبل سارق، وسرق الفلوة، وذهب بها إلى منزله، وكان له بقرة لبون، فآلف بين الفلوة والبقرة، فصارت تتبعها إلى المرعى، وتشرب من لبنها، فلمّا كان في السنة الأخرى، أقبل صاحب الفلوة، فرأى فلوته وراء البقرة، فتعلق بها وادعاها، وقال: هذه فلوتي، سرقت مني في العام الماضي، فأنكر السارق.

فاحتكما إلى القاضي، فحكم بها لصاحب البقرة، من أجل أنها تتبعها، ولا تتبع الرمكة، وأقبلا إلى نونا، وقد كان سمع كلامهما، وقالا له: احكم بيننا، فقال لهما: اذهبا عني اليوم، فإني حائض، وائتياني في غد، فقال صاحب البقرة: يا نونا، وهل تحيض الرجال؟، فقال له نونا: يا عدو الله، فهل رأيت بقرة ولدت فلوة، ثمَّ قضى بها لصاحب الرمكة، ولم يزل نونا، يقضي في بني إسرائيل، حتى مات طالوت[2].

(1) الفلو هو المهر من الخيل.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 552.

داود

قال وهب بن مُنبِّه: ثمَّ استخلف الله بعد إشماويل داود بن إيشا[1]، وكان سابع سبعة إخوة له، هو أصغرهم. وكان يرعى الغنم على أبيه، وكان فيه قصر وزرق، وقرع في ناحية من رأسه،[وكان داود أحمر الوجه، دقيق الساقين، سبط الرأس، قليل الشعر، أبيض الجسم، طويل اللحية فيها جعودة، حسن الصوت، وكان اذا تلا الزبور، وقفت الحيوانات حوله، من الوحوش والطيور، وكان يهلك الناس فى مجلسه؛ من صوته الحسن، ونغمته اللذيذة، والترجيع والالحان، ولم يعط أحد من خلق الله مثل صوته، وكان يقرأ الزبور تسعين لحناً، لحن منها يفيق المجنون والمغمى عليه، وما صنعت المزامير والعيدان والبرابط، وسائر أنواع الاوتار والملاهى، إلا على نغماته وأجناس صوته، بتعليم ابليس وعفاريته][2].

وكان تزوج ابنة طالوت، وكان شرط ذلك على طالوت، إن قتل جالوت، فولدت له: أبشالوم، وهو بكره، وهو الذي خرج على أبيه، وأراد نزعه من الملك، ثمَّ تزوج امرأة أوريا بن حنان، بعد أن قتل، فولدت له سليمان بن داود[3].

***

قال: لمَّا سلمت بنو إسرائيل الملك لطالوت، أوحى الله إلى نبي بني إسرائيل: أن قل لطالوت: فليغز أهل مدين، فلا يترك فيها حيا إلا قتله، فإني سأظهره عليهم، فخرج بالناس حتى أتى مدين، فقتل من كان فيها، إلا ملكهم فإنه أسره، وساق مواشيهم، فأوحى الله إلى أشمويل: ألا تعجب من طالوت إذ أمرته بأمري فاختل فيه، فجاء بملكهم أسيراً، وساق مواشيهم؟!، فالقه، فقل له: لأنزعن الملك من بيته، ثمَّ لا يعود فيه إلى يوم القيامة، فإني إنما أكرم من أطاعني، وأهين من هان عليه أمري.

فلقيه فقال له: ما صنعت!، لم جئت بملكهم أسيراً، ولم سقت مواشيهم؟. قال: إنما سقت المواشي لأقربها، قال له أشمويل: إن الله قد نزع من بيتك الملك ثمَّ لا يعود فيه إلى يوم القيامة.

فأوحى الله إلى أشمويل: انطلق إلى إيشى فيعرض عليك بنيه، فادهن الذي آمرك بدهن

---

(1) المستدرك على الصحيحين 2: 640. وعن وهب أيضاً في جامع البيان 5: 356. وتاريخ الرسل والملوك 1: 476. ولم يصرح به في قصص الأنبياء للثعلبي: 244. وهو داود بن يسي «وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر». العهد القديم، سفر صموئيل الأول 16: 12. ويلاحظ أن وهب بن مُنبِّه قد لخص القصة، وهي متفرقة في مواضع من سفر صموئيل الأول.

(2) وفي العرائس (قصص الأنبياء للثعلبي) قال وهب وكعب:. تاريخ الخميس 1: 8. وهو غير موجود في العرائس الآن.

(3) المعارف: 46. وتاريخ الرسل والملوك 1: 476. والبداية والنهاية 2: 300.

القدس، يكن ملكاً على بني إسرائيل. فانطلق حتى أتى إيشى، فقال: اعرض علي بنيك. فدعا إيشى أكبر ولده، فأقبل رجل جسيم حسن المنظر، فلمّا نظر إليه أشمويل أعجبه، فقال: الحمد لله، إن الله بصير بالعباد!. فأوحى الله إليه: إن عينيك تبصران ما ظهر، وإني أطلع على ما في القلوب، ليس بهذا!. فقال: ليس بهذا، اعرض علي غيره، فعرض عليه ستةً، في كل ذلك يقول: ليس بهذا، اعرض علي غيره.

فقال: هل لك من ولد غيرهم؟. فقال: بلى، لي غلام أمغر، وهو راعٍ في الغنم. قال: أرسل إليه. فلمّا أن جاء داود، جاء غلام أمغر، فدهنه بدهن القدس[1]، وقال لأبيه: اكتم هذا، فإن طالوت لو يطّلع عليه قتله فسار جالوت في قومه إلى بني إسرائيل فعسكر، وسار طالوت ببني إسرائيل وعسكر، وتهيئوا للقتال، فأرسل جالوت إلى طالوت: لم يقتل قومي وقومك؟ ابرز لي، أو أبرز لي من شئت، فإن قتلتك كان الملك لي، وإن قتلتني كان الملك لك فأرسل طالوت في عسكره صائحا: من يبرز لجالوت؟!. ثمَّ ذكر قصة طالوت وجالوت وقتل داود إياه، وما كان من طالوت إلى داود. ولما قتل داود جالوت، وانهزم جنده قال الناس: قتل داود جالوت وخلع طالوت، وأقبل الناس على داود مكانه حتى لم يسمع لطالوت بذكر[2].

مبعث داود

وبعث الله تعالى داود[3]، وأقام صدراً من زمانه، على عبادة ربه، ورحمته للمساكين. وكان قل يوم إلا وهو يخرج متنكراً، لا يعرف، فإذا لقي القدام، سألهم عن مقدمهم، ثمَّ يقول: أرأيتم داود النبي؟، كيف حاله هو لأمته؟، ومن هو بين ظهريه؟، وهل تنقمون من أمره شيئا؟. فيقولون: لا، هو خير خلق الله لنفسه ولأمته.

حتى بعث الله ملكاً في صورة رجل قادم، فلقيه داود، فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه وأمته، إلا أن فيه خصلة، لو لم تكن فيه، لكان كاملاً. قال: ما هي؟. قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين. فعند ذلك نصب داود إلى ربه في الدعاء، أن يعلمه عملاً بيده، يستغني به، ويغني به عياله، فألان الله له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدروع، وهو أول من عملها، فقال الله { أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ } سورة سبأ: 11. يعني المسامير في الحلق.

---

(1) العهد القديم، سفر صموئيل الأول 16: 12. «فقال الرب: قم امسحه، لأن هذا هو». وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 98.

(2) تاريخ الرسل والملوك 1: 478. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 243. «قالت العلماء بأخبار الأنبياء». حيث قدم الثعلبي ملخصاً للأحداث، ولم يصرح باسم وهب. وفي العهد القديم، سفر صموئيل الأول 18: 5. «وحسن في أعين جميع الشعب وفي أعين عبيد شاول أيضًا».

(3) قصص الأنبياء للكسائي: 533 – 566.

قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدَّق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث، يتصدق به، يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها][1]، وألان له الحديد، حتى كان يمده ويقصره، بغير نار ولا سندان ولا مطرقة، ولم يكن الناس قبله يعرفون الدروع، بل كانت دروعهم صفائح.

وكان لقمان، يجلس مع داود، ويرى ما يصنع، ويهم أن يسأله عنها، لأنه لم يرها من قبل، فيسكت، لَمَّا فرغ داود من الدروع، قام وأفرغها على نفسه، وقال: نعم الرداء هذا للحرب، فقال لقمان عند ذلك: إن من الصمت لحكمة، والله أعلم.

وكان قد قسم الأيام، يوماً لعبادة ربه، ويوماً لنسائه، ويوماً لقضائه وحكمه بين الناس، وكان يوم عبادته، يقصد إليه العباد من الجبال والمقابر والكهوف، وتأتيه الوحوش والسباع والطير من الهواء، وتعطف حول محرابه، وكان محرابه كالطور العظيم، بناه بالصخر المنحوت، والرخام الملون، وللمحراب اثنا عشر مدخلاً، على عدد الأسباط، وكان يوم عبادته يدعو بأسفار الزبور، ويأخذ في ترجيع ألحانه، فما كان شيء أطيب من مزاميره.

وكانت الوحوش والطير تأتيه عند ترجيعه[2]، فإذا أخذ في ترجيعه، مدت أعناقها نحوه، حتى لو أخذت من أعناقها، لم تشعر؛ لطيبة نغمة داود[3]، [قال وهب: عن وهب بن مُنَبِّه: إن بدء ما صنعت المزامير والبرابط والصنوج على صوت داود، كان يقرأ الزبور بصوتٍ، لم تسمع الآذان بمثله قط، فتعكف الجن والإنس، والطير والدواب على صوته، حتى يهلك بعضها جوعاً، فخرج إبليس مذعوراً، لَمَّا رأى من استئناس الناس والدواب بصوت داود بالزبور، فدعا عفاريته، فقال: ما هذا الذي دهاكم؟، فيمن أنتم بين ظهريه؟. قالوا: مرنا بما أحببت. قال: فإنه لا يصرفهم عنه إلا ما يشبه ما يسمعون منه. فعند ذلك احتفروا المزامير والبرابط، واتَّخذوا الصنوج، على أصناف صوته، فلمَّا سمع ذلك غواة الناس والجن، انصرفوا إليهم][4]، وأما يوم نسائه، فلا يراه أحد من بني إسرائيل، وأما يوم قضائه، فإن الخصوم كانوا يحضرونه، وكذلك الأحبار، فكانوا يتعلمون الأحكام والقضاء منه، وترف عليه الطيور، وتسبح معه الجبال، وتقدس معه الوحوش والسباع.

وكان داود محبوباً في بني إسرائيل، كحب الوالدة لولدها، حتى قالوا: إن داود أفضل عند الله، من إبراهيم وإسماعيل ويعقوب، فبلغه ذلك، فجمعهم، وقال: يا بني إسرائيل، بلغني أنكم فضلتموني على آبائي، فمهلاً يا بني إسرائيل، فإن الله تعالى اتَّخذ إبراهيم خليلاً، وخصه بالحنفية

(1) تاريخ دمشق 17: 91.

(2) جامع البيان 21: 185.

(3) العظمة 5: 1703. وفي البداية والنهاية 2: 301.

(4) تاريخ دمشق 17: 100.

السمحاء، وأنزل عليه الصحف، ونصره على نمرود، وجعل النار عليه برداً وسلاماً، وجعل يصف فضائل الأنبياء، نبياً بعد نبي، حتى انتهى إلى نفسه، فسكت، فقالوا: نحب أن تخبرنا بفضلك، فقال: إن الله تعالى اتخذني نبياً، وجعل قتل جالوت على يدي، وأنزل علي الزبور[1].

ثم وقع في قلبه ما وقع، فدخل محرابه يتعبد، ثمَّ رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهي، إنك فضلت آبائي، وأعطيتهم كرامات، وأنا أسألك أن تخصني بكرامة، كما أكرمتهم، فأوحى الله تعالى إليه أن أول فضيلةٍ، جعلتها لك، الصوت الحسن الذي لم أعطه أحداً قبلك، غير أبيك آدم، وأمرت الجبال أن تؤوب معك، وألنت لك الحديد، وهديتك إلى صنعة الدروع، وأمرت الملائكة أن تصطف على رأسك، وتسبح معك، وكذلك الطير والوحش، وأعطيتك العافية، وقد ابتليت إبراهيم بالنار، فصبر ولم يفزع إلى أحد، وابتليت إسحاق بالذبح، فاستسلم واختار ما عندي، وابتليت موسى في طفولته باليم، حتى وقع في يد عدوه فرعون، وجاهده، هو وأخوه هارون، إلى أن شابا، وابتلي إلياس واليسع بالفراعنة، فصبرا وجاهدا، حتى جعلت لهما فرجاً ومخرجاً، فخر داود ساجداً.

ثم إن داود رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم، إني علمت أنك سميتني داود[2]، لأنك تودني، ويودني كل شيء من خلقك بقدرتك، وإني أسألك أن تجعلني أسوة بالأنبياء، فتبتليني كما ابتليتهم، حتى تذكرني كما تذكرهم، فأوحى الله تعالى إليه: أن استعد للبلاء والفتنة، واصبر عليها[3].

فتنة داود

ثمَّ إن الله أمهله مدةً من عمره، حتى نسي، فبينما هو في محرابه، ذات يوم، وذلك في يوم السبت، وهو يعبد ربه، وينبسط في قراءة التوراة، فإذا هو بطيرٍ، لم تر العيون مثله، في حسنه وجماله وكثرة ألوانه، فلمّا رآه داود، تحير وذهل، وترك قراءة الزبور والتوراة، وجعل ينظر إليه، قال وهب: لو ظهر الطائر لأهل زماننا، لتركوا المأكل والمشرب، واشتغلوا به عن كل ما في الدنيا.

فلمّا نظر داود إلى ذلك الطائر، وحسنه، رأى ما لا يقدر أحد أن يبلغ وصفه، فقال في نفسه: ما هذا من طيور الدنيا، ولكن من طيور الجنَّة، قد حن إلى صوتي، فمد يده ليأخذه، فنفر وطار غير بعيد، فلم يزل يتبعه، حتى سقط على شجرة إلى جنب الحوض الرخامي، خلف المحراب، وكان هذا الحوض لنساء بني إسرائيل، يغتسلن فيه، وعليه قنديل معلق من بلور، لا ينطفئ ليلاً ولا نهاراً، وكان ماء هذا الحوض من ماء المعمودية، وهو أصفى لوناً من الفضة.

(1) العهد القديم، سفر صموئيل الثاني 5: 1 - 3.

(2) معنى داود محبوب. قاموس الكتاب المقدس: داود.

(3) وأسباب أخرى في أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 121.

فاطلع داود لينظر أين سقط الطائر، فسمع للنساء خضخضة، ثمَّ نظر إلى امرأةٍ، تغتسل في ذلك الحوض، فلمَّا وقع بصره عليها، صرفه عنها، وكانت من أتم النساء خلقاً، وأحسنهن قامةً، ولم يكن في بني إسرائيل، مثل حسنها وجمالها، واسمها نسايع بنت ناسوع[1]، وهي امرأة أوريا بن حنان، فلماَّ صرف بصره عنها، عاد إلى المحراب، يستغفر الله، وكان زوجها أوريا بن حنان غائباً مع نوال بن صفوريا، وهو ابن أخت داود، خرج في جيش له، فقتل هناك[2].

الخصمان

ثم إن الله أمر جبريل وميكائيل، في صورة رجلين، أن يهبطا إلى الأرض في نفرٍ من الملائكة، فهبطا، في صورة رجلين آدميين خصمين، وذلك يوم عبادة داود، وقد رفع صوته بقراءته، وحسن مزاميره، فلم يشعر، إلا وجبريل وميكائيل قد انقضا عليه من سقف المحراب، في صورة آدميين، قويٍ وضعيفٍ، فقاما بين يديه، وكان داود قد سمع صرير السقف، وتشققه، حين نزلا وبقي السقف منفرجاً، حتى رأى منه السماء، ففزع داود منهما.

فقالت له الملائكة، يعني جبريل وميكائيل: لا تخف، أيها المتشدد في المذنبين، وارجع إلى مجلسك، واسمع قولنا، فإنا جئناك من موضع بعيد، فقال لهما: ما هذا يوم قضاء وحكم، فقالا: لا بد أن تقضي بيننا، فقد بغى بعضنا على بعض، وأنت المطلوب بذلك، فرجع داود إلى مجلسه، وقال لهما: قولا ما أردتما، فقال له جبريل: يا نبي الله، { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً } وكل نعاجه بيض سمان، وما في نعاجه، إلا من نتجت له عدة أبطنٍ، استمتع بها، وبنتاجها عدة سنين، { وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ }، يقول: وغالبني في الكلام، لأنه أعلا مني مرتبةً عند الناس، وله قدر وجاه، وإني شكوت ذلك إلى ربي، فأرسلني إليك، لأنك خليفة في الأرض.

فغضب داود، حتى بان الغضب في وجهه، { قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ }، فقال ميكائيل: يا نبي الله، قد يبغي من هو ليس بخليط، فازداد داود غضباً، وضرب بيده عموداً بين يديه، وقال: لقد هممت أن أضربك بهذا العمود، فصاح العمود في كف داود، وثقل عليه حمله، فتبسم ميكائيل في وجه داود، وحرك رأسه، ثمَّ قال: أنت أحق بالعمود مني يا داود، لأنك تقضي للمدعي، من غير أن تقبل على المدعى عليه، وتسمع كلامه، ولأنك غيبت أوريا بن حنان، وأمرت بتقديمه أمام التابوت في القتال حتى قتل، ثمَّ تزوجت بزوجته، ولك

(1) سابغ بنت شائع في قصص الأنبياء للثعلبي: 248، وبنت شوعة في أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 121، وقصتها فيه.

(2) القصة في العهد القديم، سفر صموئيل الثاني 11: 1 – 15، 26 – 27.

تسع وتسعون امرأة، وليس لأوريا إلا امرأة واحدة، ثمَّ وثبا، وشقا السقف، وخرجا منه، كما دخلا فيه، ونزلا[1].

{ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ } سورة ص: 23 - 24. ولم يزل في سجوده، يضطرب ويتضرع. قال وهب: كان داود، إذا دعا في جوف الليل، قال: اللهم، نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حي قيوم، اغفر لي ذنبي العظيم، إنك عظيم، وإنما يغفر العظيم العظيم. إليك رفعت رأسي عامر السماء نظر العبيد إلى أربابها. اللهم، تساقطت القرى وأبطل ذكرها، وأنت دائب الدهر معد كرسي القضاء.

وكان من تحميده: الحمد لله عدد قطر المطر، وورق الشجر، وتسبيح الملائكة، وعدد ما في البر والبحر. والحمد لله عدد أنفاس الخلق ولفظهم وطرفهم وظلالهم، وعدد ما عن أيمانهم وشمائلهم، وعدد ما قهره ملكه، ووسعه حفظه، وأحاطت به قدرته، وأحصاه علمه. والحمد لله عدد ما تجري به الرياح، وتحمله السحاب، وعدد ما يختلف به الليل والنهار، وتسير به الشمس والقمر والنجوم. والحمد لله عدد كل شيء أدركه بصره، ونفذ فيه علمه، وبلغ فيه لطفه. والحمد لله الذي أدعوه فيجيبني وإن كنت بطيئا حين يدعوني. والحمد لله الذي أسأله فيعطيني، وإن كنت بخيلا حين يستقرضني.

والحمد لله الذي أستعفيه فيعافيني، وإن كنت متعرضا لمَّا يهلكني. والحمد لله الذي حلم في الذنوب عن عقوبتي حتى كأني لا ذنب لي، ولو يؤاخذني لم يظلمني سيدي.

والحمد لله الذي أرجوه أيام حياتي، وهو ذخري في آخرتي، ولو رجوت غيره لا نقطع رجائي. والحمد لله الذي تمسي أبواب الملوك مغلقة دوني، وبابه مفتوح لكلٍّ ما شئت من حاجاتي بغير شفيع، فيقضيها لي. والحمد لله الذي أخلو به في كل حاجاتي، وأضع عنده سري في أي ساعة شئت من ساعاتي. والحمد لله الذي يتحبب إلي وهو عني غني فربي أحمد شيء عندي وأحقه بحمدي[2].

مسجد داود

وإن داود أراد أن يعلم عدة لبني إسرائيل كم هم فبعث لذلك نقباء وعرفاء وأمرهم أن يدفعوا إليه ما بلغ عددهم فعتب الله عليه ذلك وقال قد علمت أني وعدت إبراهيم أن أبارك فيه وفي ذريته حتى أجعلهم كعدد نجوم السماء وأجعلهم لا يحصى عددهم فأردت أن تعلم عددها قلت إنه لا يحصى عددهم فاختاروا بين أن ابتليكم بالجوع ثلاث سنين أو أسلط عليهم العدو ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام فشاور داود بني إسرائيل فقالوا ما لنا بالجوع ثلاث سنين صبر

(1) القصة في العهد القديم، سفر صموئيل الثاني 12: 1 - 15.

(2) عيون الأخبار 2: 308.

ولا بالعدو ثلاثة أشهر فإن كان لا بدَّ، فالموت بيده لا بيد غيره.

فمات منهم في ساعة من نهار ألوف كثيرة لا يدري ما عددهم، فلمَّا رأى ذلك داود شق عليه ما بلغه من كثرة الموت فتبتل إلى الله فدعاه، فقال أي رب، أنا آكل الحماض وبنو إسرائيل يضرسون، أنا طلبت ذلك وأمرت به بني إسرائيل، فما كان من شيء، فبي، واعف عن بني إسرائيل، فاستجاب الله له، ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم ثمَّ يغمدونها، وهم يرفعون في سلم من ذهب، من الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان، ينبغي أن نبني لله فيه مسجداً، ونكرمه. فأسس داود قواعده، وأراد أن يأخذ في بنائه، فأوحى إليه: أن هذا بيت مقدس، وإنك قد صبغت يديك في الدماء، فلست ببانيه، ولكن ابناً لك، أملكه بعدك، اسمه: سليمان. وأسلمه من الدنيا، فلمَّا ملك سليمان، بناه وشرفه[1].

ابشالوم بن داود

ولما نظر سفهاء بني إسرائيل، إلى ما نزل بداود، قال بعضهم لبعض: إن داود لا ينجو من هذه الخطيئة أبداً، وعزموا على خلعه، وأقبلوا إلى أكبر بنيه، وهو ابشالوم[2]، وقالوا له: إنا لك ناصحون، وإن أباك قد كبر وعجز عن سياسة بني إسرائيل، وقد وقع في خطيئةٍ، ما وقع أحد في مثلها ونجا، وأنت أكبر أولاده، والرأي أن تدعو الناس إلى نفسك، فإن كره داود ذلك، فقل له: إنما فعلت ذلك، لكي لا يطمع الأعداء فينا، ويتعرضوا للملك، فأجابهم إلى ذلك.

وخلعوا داود، وبلغ داود ذلك، فعلم أنه عقوبة لذنبه، وخاف على نفسه، فخرج هارباً، وليس معه غير رجلين، أحدهما وزيره إيشا، والآخر نوال بن صفوريا صاحب جيشه، ولم يكن في بني إسرائيل، بعد داود، أشدُّ بطشاً منه، ولا أصوب رأياً، ولا أجزل عقلاً، فسار بهما إلى جبل من جبال بيت المقدس، وقال: أكون فيه إلى أن يفرج الله عني، وبينما هو سائر، إذ لقيه رجل من سفهاء بني إسرائيل، كان داود قد أقام عليه الحد، ونفاه من عسكره، فلمَّا رآه في تلك الحال، شمت به، وقال: الحمد لله الذي أذلك وأهانك وسلبك ملكك، فسل نوال سيفه، وهم بقتله، فمنعه داود من ذلك، وقال: إنما أصابني ذلك بخطيئتي، وظلمي لنفسي، ومواقعتي الخطيئة، ثمَّ سار إلى الجبل، هو وأصحابه، وهم خائفون على أنفسهم من القتل.

ودعا ابشالوم رجلًا من سفهاء بني إسرائيل، اسمه نوفيل، كان صديقاً قديماً، واستشاره في أمره، فقال له: إنك لا تهنأ بالملك، وأبوك حي، فينبغي أن تحتال على قتله، فعاجله بالقتل، ما

---

(1) تاريخ دمشق 17: 104.
مرآة الزمان 2: 176. وفي العهد القديم، سفر صموئيل الثاني 7: 13. «هو يبني بيتًا لاسمي، وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد». بمعنى أنه لن يبني بيتاً للرب، بل الرب يصنع له بيتاً، فيثبت كرسي مملكته، ويقيم له نسلاً ومملكة. دائرة المعارف الكتابية 3: 403.

(2) إيشى في تاريخ الرسل والملوك 1: 285، عن أهل الكتاب. وأبشالوم في البدء والتاريخ 1: 45.

دام مسخوطاً عليه، فإنه ما نزل به ما نزل، إلا وقد قارب ذنباً عظيماً، ولا يبعد أن يقبل الله تعالى توبته، فلا تتمكن من قتله، فإنه قتل جالوت، وفرق جموعه، وغزا أكابر الملوك، وظفر بهم، ولم يظفر به أحد، فسر إليه وحاربه، ما دمت قادراً عليه، فقوي عزم ايشالوم على محاربة أبيه.

وبلغ ذلك داود، فقال لوزيره ايشا: إن ابني ابشالوم قد خرج علي، وعزم على محاربتي، فسر إليه وانصحه واثن عزمه عن ذلك، فسار ايشا إلى ابشالوم، فلمّا دخل عليه، قربه وأدناه وسأله عن حال أبيه، وكيف هو مع خطيئته، فقال له: إني أتيتك ناصحاً لك، لترجع عما عزمت إليه، وإن أباك لا بد أن يتوب الله تعالى عليه، ويرضى عنه، ويعود إليه ملكه، ولا يغرنك سفهاء بني إسرائيل، وهل سمعت بأن أحداً قتل أباه وخالفه ولم يخذل؟، وهل سمعت بأن نبياً وقع في خطيئةٍ، وتاب منها، ولم يتب الله تعالى عليه؟، وهل تطمع أن تبلغ مبلغ أبيك في حلمه وفضله؟، وماذا يكون عذرك، عند الله، إذا قدمت عليه، وقد حاربت أباك، وهو نبي الله تعالى، وخليفته في الأرض؟.

ولم يزل ينصحه ويخوفه، حتى ثنى عزمه، وأجابه إلى أن يرجع إلى طاعة أبيه، وقال له: الصواب ما قلت، وإني لا أبدأ أبي بمحاربة، وإذا حاربني، منعت نفسي منه، قال ايشا: طب نفساً، وقر عيناً، فإن أباك، إذا قبل الله تعالى توبته، قبل هو أيضاً توبتك، ولم يؤاخذك، وإن أباك أكرم من أن يقتل ولده.

ثم رجع ايشا إلى داود، وأعلمه بما كان بينه وبين ابنه، وأنه قد رجع عما كان عازماً عليه، من محاربته، وبلغ ذلك نوفيل، فخاف على نفسه من داود، أن يقتله إذا عاد الأمر إليه، فعمد إلى حبلٍ، وخنق به نفسه حتى مات[1].

توبة داود

وإن داود، لمّا دخل عليه الملكان، فقضى على نفسه، تحولا في صورتهما فعرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، وعلم داود أنما فتناه، فخر ساجداً أربعين يوماً، لا يرفع رأسه إلا لحاجةٍ، ولوقت صلاة مكتوبة، ثمّ يعود، فيسجد تمام أربعين يوماً، لا يأكل ولا يشرب، وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه، وهو ينادي ربه، ويسأله التوبة، وكان يقول في سجوده:

سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء، سبحان خالق النور، سبحان الحائل بين القلوب، سبحان خالق النور، إلهي، خليت بيني وبين عدوي إبليس، فلم أقم لفتنته، إذ زلت بي قدمي.

سبحان خالق النور، إلهي، تبكي الثكلى على ولدها، إذا فقدته، وداود يبكي على خطيئته.

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 285، وفيه: أن قائد الجيش قتل ابنه، وقصص الأنبياء للثعلبي: 254، وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 124 انحشر بين أغصان شجرة البلوط، وبقي معلقاً إلى أن مات.

سبحان خالق النور، إلهي، لم اتعظ بما وعظت به غيري، سبحان خالق النور، إلهي، يغسل الثوب، فيذهب درنه ووسخه، والخطيئة لازمة بي لا تذهب عني.

سبحان خالق النور، إلهي، لم اتعظ بما وعظت به غيري.

سبحان خالق النور، إلهي أمرتني أن أكون لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف، فنسيت عهدك.

سبحان خالق النور، إلهي، خلقتني، وكان في سابق علمك ما أنا إليه صائر.

سبحان خالق النور، إلهي أمرتني أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج الرحيم فنسيت عهدك.

سبحان خالق النور، إلهي، الويل لداود، إذا كشف عنه الغطاء، فيقال: هذا داود الخاطىء.

سبحان خالق النور، إلهي، بأي عينين أنظر بهما إليك يوم القيامة، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي.

سبحان خالق النور، إلهي، بأي قدم أقوم بها أمامك، يوم تزل أقدام الخاطئين، يوم القيامة من سوء الحساب.

سبحان خالق النور، إلهي، مضت النجوم، وكنت أعرفها بأسمائها، فتؤنسني، فتركتني، والخطيئة لازمة لي.

سبحان خالق النور، إلهي، أمطرت السماء، ولم تمطر حولي، وأعشبت الأرض، ولم تعشب حولي بخطيئتي.

سبحان خالق النور، إلهي، أنا الذي لا أطيق حر شمسك، فكيف أطيق حر نارك.

سبحان خالق النور، إلهي، أنا الذي لا أطيق صوت رعدك، فكيف أطيق صوت جهنم.

سبحان خالق النور، إلهي، يستتر الخاطئون بخطاياهم، وأنت شاهد حيث كانوا.

سبحان خالق النور، إلهي، رق القلب، وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدي.

سبحان خالق النور، إلهي، الطير تسبح لك بأصوات ضعاف، تخافك، وأنا العبد الخاطىء الذي لم ارع وصيتك.

سبحان خالق النور، إلهي، الويل لداود، من الذنب العظيم الذي أصاب.

سبحان خالق النور، إلهي، أنا المستغيث، وأنت المغيث، فمن يدعو المغيث إلا المستغيث.

سبحان خالق النور، إلهي، أسألك بآبائي إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، أن تعطيني سؤالي.

سبحان خالق النور، اللهم، برحمتك اغفر لي ذنوبي، ولا تباعدني من رحمتك لهواني، فإنك

أرحم الراحمين.

سبحان خالق النور، إلهي، إني أعوذ بك من دعوة لا تستجاب، وصلاة لا تقبل، وذنب لا يغفر، وعذاب لا يفتر.

سبحان خالق النور، إلهي، إني أعوذ بك، بنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني.

سبحان خالق النور، إلهي، فررت إليك بذنوبي، وأعترف بخطيئتي، فلا تجعلني من القانطين، ولا تخزني يوم يبعثون.

سبحان خالق النور، إلهي، فرغ الحنين، وفرغت الدموع، وتناثر الدود من ركبتي، وخطيئتي ألزم بي من جلدي. سبحان خالق النور.

قالوا: فأتاه نداء: يا داود، أجائع أنت فتطعم؟، أظمآن أنت فتسقى؟، أمظلوم أنت فتنصر؟. ولم يجبه في ذكر خطيئته بشيء، فصاح صيحة هاج منها ما حوله، ثمَّ نادى: ياربي، الذنب الذي أصبته. فنودي: يا داود، ارفع رأسك، فقد غفرت لك. فلم يرفع رأسه، حتى جاء جبريل فرفعه.

وإن داود أتاه نداء: أني قد غفرت لك. قال: يا ربي، كيف وأنت لا تظلم أحداً. قال: اذهب إلى قبر أوريا، فناده، وأنا أسمعه نداءك، فتحلل منه.

عند قبر أوريا

فانطلق، حتى أتى قبره، وقد لبس المسوح، حتى جلس عند قبره، ثمَّ نادى: يا أوريا. فقال: لبيك، من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني؟. قال: أنا داود. قال: ما جاء بك يا نبي الله؟. قال: أسألك أن تجعلني في حل مما كان مني إليك. قال: وما كان منك إلي؟. قال: عرضتك للقتل. قال: عرضتني للجنة، وأنت في حل. فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، ألم تعلم أني حكم عدل، لا أقضي بالتعنت والتغرير، ألا أعلمته أنك قد تزوجت إمراته.

فرجع إليه فناداه فأجابه. فقال: من هذا الذي قطع علي لذتي؟. قال: أنا داود. قال: يا نبي الله، أليس قد عفوت عنك؟. قال: نعم، ولكن إنما فعلت ذلك بك؛ لمكان امرأتك، وتزوجتها. فسكت فلم يجبه، ودعاه فلم يجبه، وعاوده فلم يجبه، فقام عند قبره، وجعل التراب على رأسه، ثمَّ نادى: الويل ثمَّ الويل لداود، سبحان خالق النور، الويل لداود، ثمَّ الويل الطويل له، حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور، الويل لداود، ثمَّ الويل الطويل، سبحان خالق النور، إذا نصبت الموازين بالقسط ليوم القيامة، سبحان خالق النور، الويل لداود، ثمَّ الويل الطويل له، حين يؤخذ برقبته، ثمَّ يدفع إلى المظلوم، سبحان خالق النور، الويل لداود، ثمَّ الويل الطويل، حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور، الويل لداود، ثمَّ الويل الطويل، حين تقربه الزبانية مع الظالمين إلى النار، سبحان خالق النور.

فأتاه نداء من السماء: يا داود، قد غفرت لك ذنبك، ورحمتك، ورثيت لمكان امرأتك،

واستجبت دعاءك، وأقلت عثرتك. قال: يا رب، كيف لي أن تعفو عني، وصاحبي لم يعف عني. قال: يا داود، وإن يعفو، أو لم يعف، فأنا أعطيه يوم القيامة، ما لم تر عيناه، ولم تسمع أذناه، فأقول له: قد أرضيت عبدي؟. فيقول: من أين لي هذا، ولم يبلغه عملي. فأقول له: هذا عوض من أجل عبدي داود، فأستوهبك منه، فيهبك لي. فقال داود: يا رب، الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي[1].

وقال: إن داود لمَّا تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة، لا ترقأ له دمعة ليلا ونهارا، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام: فكان يوم للقضاء بين بني إسرائيل، ويوم لنسائه، ويوم يسيح في الفيافي وفي الجبال والساحل، ويوم يخلوا في دار له فيها أربعة آلاف محراب، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ويساعدونه على ذلك.

فإذا كان يوم سياحته، يخرج في الفيافي فيرفع صوته بالمزامير، فيبكي وتبكي معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتى تسيل من دموعهم مثل الأنهار، ثمَّ يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير، فيبكي وتبكي معه الحجارة والجبال والدواب والطير حتى تسيل أودية من بكائهم، ثمَّ يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الحيتان ودواب البحر والسباع وطير الماء، فإذا أمسى رجع. فإذا كان يوم نوحه على نفسه، نادى مناديه: أن اليوم يوم نوح داود على نفسه، فليحضر من يساعده.

فيدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط له ثلاث فرش من مسوح، حشوها ليف فيجلس عليها وتجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب، ثمَّ يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، ويرفع الرهبان معه أصواتهم، فلا يزال يبكي حتى يغرق الفراش من دموعه، ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب فيجيء ابنه سليمان فيحمله، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ثمَّ يمسح بها وجهه ويقول: يا رب اغفر ما ترى، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله[2]. فاستبشرت بنو إسرائيل، حين تاب الله على داود، ورد عليه حسنه وجماله وصوته، واجتمعوا إليه[3].

ولمَّا تاب الله على داود، قال: يا رب، أغفرت لي؟. قال: نعم. قال: فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي، فأستغفر منها لي وللخاطئين إلى يوم القيامة؟. قال: فوسم الله خطيئته في يده اليمنى، فما رفع فيها طعاماً ولا شراباً، إلا بكى، إذا رآها، وما كان خطيباً في الناس، إلا بسط راحته،

---

(1) الكشف والبيان 8: 191. ومنه نتف في تفسير عبد الرزاق 3: 114. وفي جامع البيان 21: 185. وهو في قصص الأنبياء للثعلبي: 251.

(2) الزهد لأحمد بن حنبل: 61. والكشف والبيان 8: 194. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 252. وحِلية الأولياء 4: 93.

(3) أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 126.

فاستقبل الناس؛ ليروا وسم خطيئته[1]. قال: كان يبدأ، إذا دعا، فيستغفر للخاطئين قبل نفسه، فيقول: اللهم، اغفر للخاطئين، فعساك أن تغفر لداود معهم[2].

السلسلة

ثمَّ أوحى الله إليه أن يجعل بينه، وبين الناس سلسلةً من حديد، ويجعل فيها جرساً، ويدليها في المحراب، وأخبره الله أن الناس يشهدون بالزور، ويتجاحدون، وإني قد جعلت هذه السلسلة فصلاً، بين المحق والمبطل، فإنها تتدلى للمحق، وتتقلص عن المبطل، فترتفع حتى لا يصلها، وكان، إذا جاء الخصمان، حركا السلسلة، فيتحرك الجرس، فيسمعه داود، فيطَّلع إليهما من المحراب، فيحكم بينهما. ثمَّ إنه جاءه رجلان يختصمان، فقال أحدهما: إني استودعت صاحبي هذا جوهراً ولؤلؤاً وياقوتاً، وإنه جحدني وخانني، فقال داود: ما تقول؟، قال: صدق، وقد استودعني أمانة، وقد دفعتها إليه، ولكنه أراد أن يغرمني، ليتكثر بمالي، فقال داود للذي ادعى: تناول السلسلة، فمد يده، فنالها، وكان خصمه قد عمد إلى الجوهر، فجعله في جوف قصبة، ثمَّ سدها، وأقبل يتوكأ عليها، فلمَّا قال له داود: تناول السلسلة، كما نالها صاحبك، دفع القصبة إلى صاحبه، وهو صاحب المال، وكان في جوفها الجوهر، وقال: امسك عصاي، لأقرب من السلسلة، فأخذها من يده، وفي جوفها متاعه.

فحلف الرجل بالله أنه دفع إليه متاعه بعينه، وأنه عنده، فدنت منه السلسلة، فكاد أن ينالها، ثمَّ ارتفعت، فلم ينلها، ثمَّ دنت منه، فلمَّا أراد أخذها، قرعت يده، ثمَّ تقلصت، ولم تستقر في يده، فلمَّا رأى ذلك داود، قال: إن أمرك عجيب، ولقد نظرت في أمرك، وتدبرت، فما أشبهك بأنك صدقت وكذبت، وأديت الأمانة وخنت، وبررت بيمينك وأثمت، ثمَّ قال لصاحب الوديعة: فتش رحلك، فلعل الرجل أدى الأمانة، ودسها في شيء.

فانطلق الرجل، فاستبرأ رحله، وسأله أهله، ورجع إلى داود، ولم ير شيئاً، فأخبره بذلك، هذا والقصبة مستندة إلى جانب المحراب، لم يمسها صاحبها، فقال داود لصاحب الجوهر: هل لهذا الرجل متاع عندك، قد دس متاعك فيه، ليبر بيمينه، فإذا استرده صار إليه؟، قال: لا أعلم أن له عندي متاعاً، إلا أنه دفع لي قصبة له، كان يتوكأ عليها، لمَّا أتى السلسلة، فناولني إياها، فلم تزل بيدي حتى أمرتني بالانطلاق إلى أهلي، قال داود: فأين القصبة؟، قال: هي المسندة إلى جنب المحراب.

قال داود: علي بالقصبة، فأحضرت بين يديه، فأمر بشقها، فإذا متاع الرجل فيها برمته، فدفعه إلى صاحبه، وحكم على الخائن أن ينادى باسمه ونسبه، في أسباط بني إسرائيل، ثمَّ لا يصدق خبره، ولا تقبل شهادته حتى يتوب، فإذا تاب، فهو عند الله بمنزلة داود، ولم يكن داود

(1) جامع البيان 21: 186.

(2) نوادر الأصول 2: 183. وقصص الأنبياء للثعلبي: 253.

يضرب مذنباً إلا صاحب حد واجب، وحكي أن السلسلة ارتفعت، من ذلك اليوم، ولم تعد بعد ذلك[1].

مع لقمان الحكيم

وكان لقمان أكثر الناس ملازمةً لداود، وكان معمراً، فإنه ولد قبل داود بزمان، وكان معه يوم قتل جالوت، إلى أن وقع في الخطيئة، وتاب الله عليه، وكان داود يقول له: يا لقمان، إنك أوتيت الحكمة، وصرف عنك البلاء، وكان لقمان كثير الصمت، ويقول: لا خير في الكلام إلا في ذكر الله تعالى، ولا خير في السكوت إلا في تفكر المعاد، وإن صاحب السكوت يعلوه الوقار، ويسلم الناس منه، لا سيما إذا تواضع وقنع[2].

ولما عاد داود إلى ملكه، واستقام له بقبول التوبة، رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهي، قد أتممت علي نعمتك، وألهمتني معرفتك، وجعلتني خليفةً في أرضك، اللهم، إني أسألك أن تهب لي ولداً، تورثه الخلافة من بعدي، وتجعله مؤيداً عزيزاً، تعز به أهل طاعتك، وتذل به أهل معصيتك، فأوحى الله تعالى إليه: أني قد استجبت دعوتك، ففرح داود، وعلم أن الله تعالى صادق الوعد، ولا يخلف الميعاد.

مولد سليمان

قال كعب: وكان لداود يومئذ، أولاد، منهم ابشالوم، وهو أكبرهم، وهو من ابنة طالوت، ولما رجع إلى داود ملكه، اعتزله ابشالوم، وذهب إلى الشام، في جماعة من سفهاء بني إسرائيل، مخالفاً له، وكان جملة أولاد داود: امنون وبجرامون ودنياه وشفيطا ومرعم وسعيا وسوان وماخان ودانيال، وكلهم من ابنة طالوت[3].

فلمّا أوحى الله إليه: أنه يرزقه ولداً، يورثه الخلافة، اغتسل ودخل إلى زوجته نسايع بنت ناسوع، التي كانت زوجة أوريا بن حنان، فواقعها، فحملت منه بسليمان.

ونودي إبليس تلك الليلة: يا ملعون، إنه قد حمل، في هذه الليلة، برجلٍ طويلٍ جزيل نبيل خليل، حسن جميل، يطول حزنك من أجله، ويكون أولادك خدماً له، ففزع إبليس من ذلك، ونادى في جنده، فاجتمع إليه العفاريت والشياطين، فأخبرهم بما سمعه، وقال لهم: الزموا مكانكم هذا، حتى أعود إليكم بخبر هذا المولود.

---

(1) البدء والتاريخ 3: 102، مختصراً. وفي البداية والنهاية 2: 308. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 245. نسبة القصة إلى الضحاك، عن ابن عبّاس.

(2) المعارف: 55. والبدء والتاريخ 3: 102 مختصراً. وفي قصص الأنبياء للثعلبي: 247. بصيغة «رُوي».

(3) كان سليمان الابن العاشر للملك داود، والابن الاثني له من بثشبع التي كانت زوجة أوريا الحثي، وقد ولد لداود ستة أبناء في مدينة حبرون (الخليل) هم: أمنون وميلاب وابشالوم وأدونيا وشفطيا ويثرعام، من أمهات مختلفات. العهد القديم، سفر صموئيل الثاني 3: 2 0 5. ودائرة المعارف الكتابية 4: 419.

ثم إنه فكر في نفسه، وقال: لا يجوز أن يكون هذا المولود، إلا من نسل داود، فإنه اليوم خير أهل الأرض، ثمَّ أقبل إلى محراب داود، فرأى أعلام الملائكة مركوزة، والملائكة حوله مصطفة، يسبِّحون الله تعالى، ويقدِّسونه، وسمع هاتفاً يقول: يا ملعون، إن البشرى حصلت لنسايع، لأنها قد حملت بسليمان، المسلم في الدنيا والآخرة، المسلط على سلوك الدنيا.

فلمّا سمع إبليس اللعين ذكر سليمان، أقبل على بعض الملائكة، وقال: من سليمان المنوه باسمه؟، قال له ملك: هو ابن داود يكون على يديه هلاكك، وهلاك ملكك، فرجع إبليس إلى جنوده، وهو يذوب كما يذوب الرصاص، وسمع بنو إسرائيل هاتفاً، يقول: هذا ملك الأرض، ورسول رب العزة، وكذلك سمعت البهائم كلها، والوحوش والطير والهوام مثل ذلك.

ولما دنت ولادة سليمان، نزلت الملائكة، وبأيديهم أعلام البشرى، فركزتها على يمين امرأة داود وشمالها، إلى أن وضعته، وهو شديد البياض، مكلثم الوجه، دقيق الحاجبين، ملون العينين، أنور الوجه، فطارت عقول الشياطين، وفزعوا وخروا مغشياً عليهم، فلم يفيقوا إلا بعد سبعين يوماً، وأصبحت الدنيا ضاحكة مستبشرة، والوحوش ساجدة نحو منزل نسايع، ودخل جبريل على داود، وقال: السلام عليك يا داود، هنيئاً لك بهذا المولود الذي أقر الله به عينك.

فأسرع داود إلى منزله، فرأى الأعلام مصفوفة، والملائكة قائمة، وهم يقولون: إنا لم تنزل من السماء، منذ خلقنا الله تعالى، إلا عند ولادة أبيك إبراهيم، وابنك سليمان، فخر داود لربه ساجداً شاكراً، على ما أولاه من نعمة، وقرب قرباناً عظيماً، وضحكت الأرض عند ولادة سليمان، وحين تاب الله تعالى على آدم واستبشرت بولادة سليمان.

موت ابشالوم بن داود

لَّما ولد سليمان، دعا داود ابن أخته نوال بن صوريا، وقال: إن ابني ابشالوم، اعتزلني خوفاً على نفسه، وما كنت بالذي أقتل ولدي، وقد رزقني الله تعالى هذا الولد المبارك الميمون، وتاب علي من خطيئتي، فامض في نفر من أصحابك، وائتني به مكرماً، فليس هو بأعظم جرماً مني، وإياك أن تناله بمكروه، أو تقتله، فإني قاتلك به.

فخرج نوال في طلبه، فأدركه في موضع من الشام، وقد اجتمع معه جماعة، من سفهاء بني إسرائيل، فقاتله قتالًا شديداً، ثمَّ انهزم ابشالوم، وبينما هو هارب في ظلمة الليل، مرَّ بشجرة، قد تدلى غصن منها، فعلق الغصن ببرنس، كان على رأسه، وخرج الفرس من تحته، فأدركه نوال، وقال له: أحي أنت؟، قال: نعم، فادركني، واحملني إلى أبي إن كان له في حاجة، فطعنه نوال فقتله، وتركه معلقاً بالشجرة، ورجع إلى داود، فأخبره بما كان منه، فغضب داود، وقال: بعثتك لتأتني به فقتلته، فسوف أقتلك به عاجلاً أم آجلاً، كن على يقين من ذلك، ويقال: إن بعض أولاده، وثب على نوال فقتله.

أصحاب السبت

قال ابن عبَّاس، ووهب بن مُنبِّه: إن قوماً من بني إسرائيل سكنوا قرية، على شاطئ البحر بين مصر ومدين، يقالها: أيلة. حرم الله عليهم صيد الحيتان، وسائر العمل يوم السبت، وأمرهم أن يتفرغوا لعبادته ذلك اليوم، وذلك في زمان داود، فكان، إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت في البحر، إلا اجتمع هناك، ويخرجن من الماء خراطيمهن، حتى لا يرى الماء من كثرتهن، حتى إذا مضى السبت، تفرقن، ولزمن مقر البحر، لا يرى منهن إلا القليل، فذلك قوله تعالى { إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ }.

فعمد رجال منهم، فحفروا الحياض حول البحر، وشرعوا إليها الأنهار، فإذا كانت عشية الجمعة، فتحوا تلك الأنهار، فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض، فلا تطيق الخروج منها؛ لبعد عمقها، وقلة الماء، فإذا كان يوم الأحد، أخذوها، قيل: إنهم كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعة، ويخرجونها يوم الأحد.

وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كثيراً، وفي غير يوم السبت، لا يأتيهم حوت واحد، فأخذ رجل منهم حوتاً، وربط في ذنبه خيطاً، ثمَّ ربطه إلى خشبةٍ، في الساحل، ثمَّ تركه في الماء إلى يوم الأحد، فأخذه وشواه، فوجد جار له ريح الحوت، فقال له: يا فلان، إني أجد في بيتك ريح حوت، فأنكره، فاطلع الجار في تنوره، فقال له: إني أرى الله سيعذبك. فلمَّا رأى العذاب لم يأخذه، أخذ في السبت الآخر حوتين، فلمَّا رأوا العذاب لا ينزل إليهم، أخذوا وملحوا، وأكلوا وباعوا، فأثروا وكثرت أموالهم، ولن تنزل عليهم عقوبة، فقست قلوبهم، وتجبروا وتجرأوا على الذنب، وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أحل لنا، وإنما حرم على آبائنا؛ لأنهم قتلوا أنبياءهم.

فلمَّا فعلوا ذلك، صار أهل تلك القرية، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلاثة أصناف: صنف أمسك ونهى، وصنف أمسك ولم ينه، وصنف انتهكوا الحرمة، فكان الذين نهوا اثني عشر ألفاً. فلمَّا أبى المجرمون قبول النصيحة، قال الناهون والممسكون: والله، لنخرجن من القرية، ولا نساكنكم في قرية واحدة، ثمَّ قسموا القرية بينهم بجدارٍ، ومكثوا على ذلك سنين، فلعنهم الله على لسان داود، وغضب عليهم فصرارهم على المعصية، فخرج الناهون ذات يومٍ، من بابهم، والمجرمون لم يفتحوا بابهم، ولا خرج منهم أحد.

فلمَّا أبطأوا، تسوروا عليهم الحائط، فإذا هم جميعاً قد مسخوا قردةً، فذلك قوله تعالى: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} سورة الأعراف: 165 - 166. نظيره قوله تعالى { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } سورة المائدة: 78.

فلمّا دخلوا عليهم، ورأوا أنهم قد مسخوا، عرفت القردة أنسباءهم من الأنس، ولم تعرف الأنس أنسباءهم من القردة، فجعل القرد يأتي نسيبه من الأنس، فيشم ثيابه، ويبكي، فيقول له الرجل: ألم ننهكم؟. فيقول القرد برأسه: نعم. فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم، ثمَّ خرج المسوخون من المدينة، وهاموا على وجوههم متحيرين، ومكثوا كذلك ثلاثة أيام، ثمَّ هلكوا، ثمَّ بعث الله عليهم ريحاً ومطراً، فقذفهم في البحر، فإذا كان يوم القيامة، أعادهم الله تعالى إلى صورهم البشَرْيَة، فيدخلهم النار(1).

استخلاف سليمان

لَمَّا استخلف داود ابنه سليمان، وعظه، فقال: فقال: يا بني، إياك والهزل؛ فإن نفعه قليل، ويهيج العداوة بين الإخوان، وإياك والغضب؛ فإن الغضب يستخف بصاحبه. وعليك بتقوى الله وطاعته؛ فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك، من غير شيء؛ فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس، وإن كانوا براء، واقطع طمعك عن الناس؛ فإنه هو الغنى، وإياك والطمع، فهو الفقر الحاضر، وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل، وعود نفسك ولسانك الصدق، وألزم الإحسان؛ فإن استطعت أن يكون يومك خيراً من أمسك، فافعل، وصل صلاة مودع، ولا تجالس السفهاء، ولا ترد على عالمٍ، ولا تمار في الدين، وإذا غضبت، فالصق نفسك بالأرض، وتحول من مكانك، وارج رحمة الله؛ فإنها واسعة، وسعت كل شيء(2).

وعن ابن عبَّاس، قال: استخلف داود سليمان في حياته، وكان سليمان يوم استخلف أتى عليه اثنتا عشرة سنة، وذلك أنه لَمَّا نفذ في الحكم، وأبصر داود فهمه، وكان الله جعله فهماً.

قال: فبينا داود جالس مع أخبار بني إسرائيل، فذكروا العقل عند داود، فقال له داود: يا نبي الله، ما العقل؟. قال: يا أبة، ما ارتدى العبد برداء، أجمل من فضل عقلٍ، يرتدي به عبد مؤمن، إن انكسر جبره عقله، وإن صرع نعشه، وإن زل عمده، وإن ذل أعزه، وإن اعوج أقامه، وإن عثر رفعه، وإن افتقر أغناه، وإن جاع أشبعه، وإن ظمئ أرواه، وإن حزن فرحه، وإن جمح كبحه، وإن استوحش آنسه، وإن خاف آمنه، وإن غوى أرشده، وإن تكلَّم صدقه، وإن كانت سوءة زينها، وإن انكشف ستره.

وإن أقام بين ظهراني قوم اغتبطوا به، وإن غاب عنهم أسفوا عليه، وإن خطب إليهم، وهو صعلوك، اغتفروا ذلك منه، وإن شهد شهادة، وهو غريب، تفرسوا فيه، فاحسنوا به الظن، فقبلوها، وإن نطق قالوا: بليغ، وإن سكت قالوا: لبيب، وإن بسط يده قالوا: جواد، وإن قبضها قالوا: مقتصد، وإن عنف قالوا: لم يأل، وإن رفق قالوا: شفيق، وإن افطر قالوا: معذور، وإن صام قالوا: مجتهد.

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 255.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 257.

فالعقل رأس الإيمان، ووسط الإيمان، وآخر الإيمان، فبه يصل العبد إلى الجنَّة، وبه يتفاضل اهل الدنيا في دنياهم، وأهل الجنَّة في درجاتهم؛ لأن العاقل إذا أخطأ رجع، وإذا أساء أحسن، والعقل يرد صاحبه إلى خير العواقب.

فتعجب داود، فقال: يا بني، فأين موضع العقل؟. قال: في الدماغ، يكون صاحب العقل رزيناً زميتاً، ولا يكون عجولاً جهولاً، ولا يستخفه الفرح، ولا يغلبه هواه. قال: فعجب داود من حكمته، فاستخلفه[1].

رفيق داود في الجنَّة

وكان من أمر داود، أنه سأل ربه أن يريه رفيقه في الجنَّة، فأوحى الله إليه: يا داود، إن أردت ذلك، فسر إلى ساحل البحر لتراه، فتدرع داود بمدرعة من صوف، واشتمل بكسائه، وانتعل بنعل مخصوف، وأخذ عصاه وسار، حتى أشرف على قريةٍ، فدخلها، فإذا أهلها يبيعون ويشترون، وإذا رجل قد انحدر من جبل قريب، من تلك القرية، وعليه مدرعة وثياب من صوف، وعلى رأسه حزمة من الحطب، وهو يقول: من يشتري الطيب بالطيب؟، فجاءه رجل، فابتاع منه الحطب برغيف من الحلال، فأخذه ومشى، وكسر نصفه، فتصدق به، وترك نصفه الآخر معه، فنظر إليه داود، فقال: لا شك في أن يكون هذا صاحبي، ثمَّ ولى الرجل إلى الجبل.

فصعد إليه داود وتبعه، حتى إذا صار إلى رأس الجبل، إذا بشجرتين بينهما مصلاة له، وإلى جنبيهما عين من الماء، فتوضأ ثمَّ قام إلى الصلاة، فصلى حتى غابت الشمس، ثمَّ قعد يدعو ربه، حتى أظلم الليل، ثمَّ مد يده إلى بقية الرغيف، فأكله ثمَّ شرب من ماء العين، وحمد الله على ذلك كثيراً، ثمَّ قام، فصلى ركعتين، فلمَّا سلم، وثب إليه داود، فسلم عليه، فرد، ثمَّ قال له: من أنت، يا من وصل إلى هذا المكان؟ !، فإني ما رأيت ها هنا أحداً، إلا العبد الصالح الخَضِر بن ملكان، وربما مرَّ بي متى بن حنويا، رفيق داود في الجنَّة.

فقال: أنا داود نبي الله، فمن أنت؟. قال: أنا متى بن عذري. فقال له داود: إني أسألك عن أمر. فقال: قل، وإن نسيت، أخبرتك به. قال داود: قل. قال: تسألني عن قولي من يشتري الطيب بالطيب. قال: نعم. قال: إني أجمع هذه الحزمة من المباح، الذي لا يأخذه غيري. فقال له داود: هل لك أن تصحبني، فأشركك في نعمتي، ويزول عنك ما أنت فيه من التعب؟. فقال: يا نبي الله، إني تركت الدنيا، ولا أريد العودة إليها، ولكن هل لك في صحبتي، فتقنع من الدنيا باليسير؟. فقال داود: إني لفي بني إسرائيل، آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، ثمَّ ودعه وسار.

ولم يزل داود، على ذلك، يسير أربعين يوماً، ولم يقع له على خبر، فلمَّا هم بالرجوع، أوحى الله إليه: يا داود، لا تعجل، فإنك ستراه عن قريب، [فجعل يسير في جبال فلسطين، والجبال

(1) تاريخ دمشق 22: 236.

والوحوش والطير تسلم عليه، حتى انتهى إلى خربة عظيمة، فوقف ينظر إليها، فأنطقها الله تعالى، وقالت: أنت داود، صاحب الألحان؟، قال: نعم، فأخبريني عنك، فقالت: أنا مدينة سنجرين، وكان يعبد صنماً من دون الله، فصيح به صيحة عظيمة، فهلك هو ومن معه.

ثم سار قليلًا، فرأى شجرة عالية، عارية الأغصان، فسلمت على داود، وقالت له: إني ها هنا من عهد عاد الأولى، وما عريت إلا من النمائم، وإنما اخضر ساقي؛ لأن الخَضِر جلس عندي، واسند ظهره إلي، ثمَّ تركها داود وسار، فتمثل له إبليس، في صورة شيخ كبير، بيده عكاز، وهو يبكي ويقول: لقد أقرحت قلبي يا متى، فقال له داود: أمات متى؟، قال: نعم، مات بالأمس، وهذا قبره، فقال له داود: كذبت، فإن ربي وعدني أن ألقاه وأزوره، وما أظنك إلا شيطاناً، ثمَّ تلا شيئاً من الزبور، فهرب إبليس.

ثم سار داود، فإذا هو برجل ساجد، على صخرة بيضاء، والصخرة مبتلة بدموعه، وهو يسبِّح الله تعالى، ويقدسه، فقال داود في نفسه: هذا صاحبي، ثمَّ وقف في انتظاره إلى أن غربت الشمس، وإذا بقرص قد وضع بين يديه، عليه ثلاث زيتونات، وقيل له: هذا أوان إفطارك يا متى، فافطر على رزق ربك إن شئت، فقام داود إليه، وسلم عليه، فردَّ عليه السلام.

فردد داود صوته بتلاوة الزبور وألحانه، فغشي على متى ليلته تلك، فلمّا أفاق قال: يا داود، أبعثك الله إلي بالرحمة أم بالعذاب؟، فقال: إن الله تعالى لم يبعثني إلا بالرحمة، ثمَّ ذكر له أنه سأل الله تعالى أن يجمع بينه، وبين رفيقه في الجنَّة، فأرسله إليه، فقام متى وعانقه، ثمَّ ودع كل واحد منهما صاحبه، ورجع داود إلى بني إسرائيل، وكان قد استخلف عليهم ولده سليمان، فلمّا رجع، رآه قد ساسهم أحسن سياسة، فحمد الله على ذلك كثيراً، ودعا لولده سليمان، لمّا رآه من حسن سياسته لهم.

وفاة داود

وكان داود شديد الغيرة على نسائه، وكان يغلق الأبواب عليهن، إذا خرج، ويحمل المفاتيح معه، فقيل: إنه رجع يوماً، وفتح باب نسائه، فرأى رجلاً، في وسط داره، في نهاية الجمال، فقال له داود، وهو مغضب: من أنت، يا هذا؟ ومن أدخلك داري؟، قال: ادخلني الدار من هو أحق بها منك، وأنا ملك الموت، جئتك لقبض روحك، فعند ذلك ارتعد داود، وتلجلج، وقال: ذرني، لأدخل إلى أهلي وأولادي، فأودعهم، فقال: لا سبيل إلى ذلك، فبكى داود، وقال: يا ملك الموت، قد بكيت على ذنبي كثيراً، فهل ينفعني ذلك؟. قال: نعم يا داود، قال: فمن لبني إسرائيل من بعدي؟. قال: ابنك، وخليفتك سليمان. قال: الآن طابت نفسي، فانته لمّا أمرت، فقبض روحه[1].

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 577. ومات داود في السبعين من عمره، ودفن في مدينة داود، ويقال: إن سليمان دفن كنزاً ضخماً في قبر داود. دائرة المعارف الكتابية 3: 406.

قال: إن الناس حضروا جنازة داود، فجلسوا في الشمس في يوم صائفٍ. وكان قد شيع جنازته يومئذٍ أربعون ألف راهبٍ، عليهم البرانس، سوى غيرهم من الناس، ولم يمت في بني إسرائيل، بعد موسى وهارون، أحد كانت بنو إسرائيل أشدُّ جزعًا عليه منهم، على داود. قال: فآذاهم الحر، فنادوا سليمان أن يعجل عليهم لَمَّا أصابهم من الحر، فخرج سليمان، فنادى الطير، فأجابت، فأمرها فأظلت الناس. قال: فتراص بعضهم إلى بعضٍ من كلِّ وجهٍ، حتى استمسكت الريح، فكاد الناس أن يهلكوا غماً، فصاحوا إلى سليمان، من الغم، فخرج سليمان، فنادى الطير أن أظلي الناس من ناحية الشمس، وتنحي عن ناحية الريح. ففعلت، فكان الناس في ظل، وتهب عليهم الريح، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان(1).

زبور داود

عن عبد الصمد بن معقلٍ، قال: سمعت رجلًا يسأل عمي وهب بن مُنبِّه في المسجد الحرام، فقال: حدثني – رحمك الله – عن زبور داود(2). فقال: نعم، وجدت في آخره ثلاثين سطرًا:

يا داود، اسمع مني، والحق أقول، من لقيني، وهو يحبني، أدخلته جنتي.

يا داود، اسمع مني والحق أقول، من لقيني، وهو يخاف عذابي، لم أعذبه.

يا داود، اسمع مني والحق أقول، من لقيني وهو مستحيٍ من معاصيه، أنسيت الحفظة ذنوبه.

يا داود، اسمع مني والحق أقول، لو أن عبدًا من عبادي، عمل حشو الدنيا ذنوبًا، مغاربها ومشارقها، ثمَّ ندم حلب شاةٍ، واستغفرني مرةً واحدةً، وعلمت من قلبه أن لا يعود إليها، ألقيتها عنه أسرع من هبوط الماء من السماء إلى الأرض.

يا داود، اسمع مني والحق أقول، لو أن عبدًا، أتاني بحسنةٍ واحدةٍ، حكمته في جنتي.

قال داود: من أجل ذلك لا يحل لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك.

قال: يا داود، إنما يكفي أوليائي اليسير من العمل، كما يكفي الطعام القليل من الملح.

---

(1) البداية والنهاية 2: 322. وحياة الحيوان الكبرى 2: 90.

(2) جاء في قصص الأنبياء للثعلبي: 244. «أنزل عليه (داود) الزبور بالعبرانية، مائةً وخمسين سورة: في خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصر وأهل بابل، وفي خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم من أهل أبرون، وفي خمسين منها موعظة وحكمة، ولم يكن فيها حلال ولا حرام». ولم يسم الثعلبي القائل.
والزبور هو الغالب على كتاب داود، أو صحف داود. لسان العرب، تاج العروس: زبر. وزبور داود هو المزامير، وهو في أيدي اليهود والنصارى، وهو مائة وخمسون مزموراً. الفهرست: 38. والطبعة التي اعتمد عليها من الكتاب المقدس، فيها العدد نفسه من المزامير.
وفي كتب وهب ترجمة الزبور، وقد نقل عنه القرطبي (ت 671) البشارة بالرسول، وقال: وزبور وهب بن مُنبِّه هذا الذي نقلت منه أصح ما يوجد من كتاب الزبور، فإنه أوثق وأعلم من كلِّ ترجمة في سالف الدهور ولكن النصارى مع ذلك يكذبون إذ هم جاهلون ومعاندون. الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام: 268.

يا داود، هل تدري متى أتولاهم؟، إذا طهروا قلوبهم من الشرك، ونزعوا من قلوبهم الشك، وعلموا أن لي جنةً ونارًا، وأني أحيي وأميت، وأبعث من في القبور، وأني لم أتَّخذ صاحبةً ولا ولدًا، فإن تُوفِّيتهم بيسيرٍ من العمل وهم يوقنون بذلك، جعلته عظيمًا عندهم.

هل تدري يا داود من أسرع مراً على الصراط؟، الذين يرضون بحكمي، وألسنتهم رطبة من ذكري.

هل تدري يا داود أي المؤمنين أعظم منزلةً عندي؟، الذي هو بما أعطى أشدُّ فرحًا بما حبس.

هل تدري يا داود أي الفقراء أفضل؟، الذين يرضون بحكمي وبقسمتي، ويحمدونني على ما أنعمت عليهم من المعاش.

هل تدري يا داود أي المؤمنين أحب إلي أن أطيل حياته؟، الذي إذا قال: لا إله إلا الله، اقشعر جلده، فإني أكره له الموت كما يكره الوالد لولده، ولابد منه، إني أريد أن أسره في دارٍ سوى هذه الدار، فإن نعيمها فيها بلاء، ورخاءها فيها شدَّة، فيها عدو لا يألوهم بها خبالًا، يجري منهم مجرى الدم، من أجل ذلك عجلت أوليائي إلى الجنَّة، لولا ذلك ما مات آدم ولا أولاده المؤمنين حتى ينفخ في الصور.

إني أدري ما تقول في نفسك يا داود، تقول قطعت عنهم عبادتك، أما تعلم يا داود، أني أعين المؤمن على عثرةٍ يعثرها، فكيف إذا ذاق الموت، وهو أعظم المصائب، وترى جسده الطيب بين أطباق الثرى، إنما أحبسه طول ما أحبسه؛ لأعظم له الأجر، وأجري عليه أحسن ما كان يعمله إلى يوم القيامة.

قال داود: لك الحمد إلهي، من أجل ذلك سميت نفسك: أرحم الراحمين. إلهي، فما جزاء من يعزي الحزين على المصائب ابتغاء مرضاتك؟. قال: جزاؤه أن ألبسه رداء الإيمان، ثمَّ لا أنزعه عنه أبدًا. قال: إلهي، فما جزاء من يشيع الجنائز ابتغاء مرضاتك؟. قال: جزاؤه أن تشيعه ملائكتي يوم يموت، وأصلي على روحه في الأرواح. قال: إلهي، فما جزاء مساعد الأرملة واليتيم ابتغاء مرضاتك؟. قال: جزاؤه أن أظله في ظل عرشي، يوم لا ظل إلا ظلي. قال: إلهي، فما جزاء من يبكي من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجنتيه؟. قال: جزاؤه أن أحرم وجهه على النار[1].

***

قال وهب: أوحى الله إلى داود في الزبور: يا عبدي الشكور، إني قد وهبت لك الزبور، وأتبعته بنصح مني من أعين السطور، ومن الوحي المحفوظ المحجوب من وراء الستور، فاعبدني به في الأيام والليالي والشهور؛ وأحببني من كلِّ قلبك، وحببني إلى خلقي، وأبغض من

(1) حِلية الأولياء 4: 47.

عبادي كل منافق جهول، قال: يا رب كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: تذكرهم آلائي[1].

وقال: وقف سائل على باب داود، فقال: يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، تصدقوا علينا بشيءٍ، رزقكم الله رزق التاجر المقيم في أهله. فقال داود: أعطوه، فوالذي نفسي بيده، إنها لفي الزبور[2].

وذكر وهب بن مُنبِّه في قصة داود النبي، وما أوحي إليه في الزبور: يا داود، إنه سيأتي من بعدك نبي يسمى: أحمد ومحمدًا، صادقًا سيدًا، لا أغضب عليه أبدًا، ولا يغضبني أبدًا، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأمته مرحومة، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل، حتى يأتوني يوم القيامة نورهم مثل نور الأنبياء، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا لي لكلِّ صلاةٍ، كما افترضت على الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم. وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم.

يا داود، فإني فضلت محمدًا وأمته على الأمم كلها، أعطيتهم ستة خصالٍ لم أعطها غيرهم من الأمم: لا آخذهم بالخطأ والنسيان، وكل ذنبٍ ركبوه على غير عمدٍ إذا استغفروني منه، غفرته لهم، وما قدموا لآخرتهم من شيءٍ طيبةً به أنفسهم، عجلته لهم أضعافًا مضاعفةً، ولهم في المذخور عندي أضعافًا مضاعفةً، وأفضل من ذلك، وأعطيتهم، على المصائب في البلايا، إذا صبروا، وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم، فإن دعوني استجبت لهم، فأما أن يروه عاجلًا، وأما أن أصرف عنهم سوءًا، وأما أن أدخره لهم في الآخرة.

يا داود، من لقيني من أمة محمدٍ، يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، صادقًا بها، فهو معي في جنتي وكرامتي، ومن لقيني، وقد كذب محمدًا، وكذب بما جاء به، واستهزأ بكتابي، صببت عليه في قبره العذاب صباً، وضربت الملائكة وجهه ودبره، عند منشره من قبره، ثمَّ أدخله في الدرك الأسفل من النار[3].

قال وهب: وجدت في حكمة داود: ينبغي للعاقل أن لا يشغل نفسه عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها هو وإخوانه والذين ينصحون له في دينه، ويصدقونه عن عيوبه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها، فيما يحل ويحمد، فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات، وفضل بلغة[4].

(1) عيون الأخبار 2: 288.

(2) حِلية الأولياء 4: 63.

(3) دلائل النبوة 1: 381. والبداية والنهاية 3: 547.

(4) عيون الأخبار 1: 393.

سليمان

ولم تزل الملائكة[1] موكلين بسليمان[2] يحفظونه، حتى أتى عليه ثلاث سنين، فاتّخذ داود طعاماً، دعا إليه جماعة من بني إسرائيل، فقال له سليمان: يا أبت، هلا جمعت الفقراء والمساكين، فخر داود ساجداً شكراً لله تعالى، على ما رأى فيه من علامات الخير، وقال: إلهي، الآن أتممت نعمتك علي، حيث أنطقت ولدي بالحكمة صبياً، وكان داود يلقن سليمان، كل يوم، شيئاً من التوراة والزبور، فيحفظه من ساعته، حتى حفظ التوراة والزبور في أقل من سنة.

فلمّا تمَّ له أربع سنين، قال لأبيه: يا أبت، قدم أهل الفضل لفضلهم، وأهل الستر لسترهم، وأهل العلم لعلمهم، وأهل الزهد لزهدهم، وأعرف لهم قدر حقهم، وكان لا يخرج كل يوم من محرابه، حتى يصلّي مائة ركعة، يقرأ في كل ركعةٍ، آيةً من التوراة، وآية من الزبور، فإذا فرغ من ذلك، دخل على أمه، فشكرها، وقضى من حقها بما يجب عليه، وهو مع ذلك مجتهد في عبادته، حتى إنه لم يكن يمر عليه وقت، إلا وله فيه تسبيح وتقديس.

وكان إذا مشى على الأرض، يسمع قائلًا، يقول له: طوبى لك يا ابن داود، فلقد أعطيت ما أعطي أبوك آدم، ورأت أمه، ذات يوم، على ثوبه نملة، فقالت له: اقتلها يا بني، فرفعها على يده، وقال: يا أماه، إن لكلّ حيوان لساناً، يطالب به قاتله يوم القيامة، بما جناه عليه، فلا أحب أن تقول هذه النملة: قتلني سليمان، فكان داود يستشيره في جميع أموره، ثمَّ يحكم، [كان سليمان أبيض جسيماً، وضيئاً جميلاً، كثير الشعر، يلبس الثياب البيض، وكان خاشعاً متواضعاً، يخالط المساكين ويجالسهم، ويقول: مسكين جالس مسكيناً][3].

الحمامة

وبينما داود، ذات يوم، جالس في مجلس من مجالس بني إسرائيل، وسليمان بين يديه، إذ أقبلت حمامة، فوقعت بين يدي سليمان، وقالت: يا ابن داود، أنا حمامة من حمام هذه الدار، وما رزقت فرخاً، أفرح به، فأمر يده على ظهرها، ثمَّ قال لها: اذهبي، أخرج الله من بطنك سبعين فرخاً، وكثر نسلك إلى يوم القيامة.

البقرة

وبينما داود يوماً على منزله، وابنه سليمان بين يديه، إذ أقبلت بقرة، فوقفت بين يديه،

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 566 - 639. وهو تتمة لما مرَّ في مولد سليمان.

(2) تاريخ الرسل والملوك 1: 486.

(3) قصص الأنبياء للثعلبي: 259. واسم لسليمان مشتق في العبرية من شالوم، أي سلام أو مسالم. دائرة المعارف الكتابية 4: 419.

وقالت: يا سليمان، أنا بقرة من بقر بني إسرائيل، وقد حملوني من العمل ما لا أطيق، وقد وضعت عندهم، عشرين بطناً ذبحوها كلها، وقد عزموا الآن على ذبحي، لمَّا علموا أني كبرت وعجزت عن العمل، قال داود: أيتها البقرة، ما خلقت إلا للذبح، فقال سليمان: صدقت يا نبي الله، ولكن أين الحرمة؟، وأين ما ذبحوا من أولادي؟.

ثم إن سليمان قام معها، وهي تدله على الطريق، حتى بلغت دار صاحبها، فقرع سليمان عليهم الباب، فقالوا له: هل من حاجة؟، قال: نعم، حاجتي أن تبيعوني هذه البقرة، ولا تذبحوها، قالوا: ومن أخبرك أنا نريد أن نذبحها؟، قال: هي التي أخبرتني، قالوا: قد وهبناها لك، وإنا ميتون بأجمعنا، قال سليمان: ومن أين علمتم ذلك؟، قالوا: إنا أصبنا في كتبنا أن غلاماً، من بني إسرائيل، يعطى منطق الروحانيين، وقد دعونا ربنا أن يكون موتنا عند رؤيته، وقد رأيناك، ورأينا علامتك، فأخذ سليمان البقرة، فلمَّا جاء المساء، أخبر بموت أولئك النفر كلهم.

الزرع الزاكي

وبينما سليمان، ذات يوم، يمشي في مزارع بني إسرائيل، إذ مرَّ بزرع على يمينه، قائم على سوقه قد استوسق، وبلغ الحصاد، وزرع على يساره حشيش، ليس فيه شيء من الحب، وليس بينهما غير حائط، فعجب من ذلك، فسمع قائلاً عن يمينه، يقول: صاحبي، إذا حصدني، أخرج مني حق الله تعالى، فلذلك أنا زاكٍ، وسمع قائلاً عن يساره يقول: صاحبي، إذا حصدني، لا يخرج مني حق الله تعالى، فلذلك أنا حشيش.

الرجلان الصالحان

وبينما سليمان، ذات يوم، جالس بين يدي أبيه داود، وإذا برجلين قد تقدما إلى داود، وكانا رجلين صالحين، فقال واحد منهما: يا نبي الله، إني اشتريت من هذا أرضاً، طولها كذا وعرضها كذا، وقد أصبت مالاً، في جانب منها، فجئت إليه وأخبرته؛ ليأخذه، فأبى أن يأخذ المال، وقال: ليس هو لي، فقال للآخر: ما تقول؟، قال: يا نبي الله، إني اشتريت هذه الأرض من قوم، وقد بادوا، وليس هو مالي، فقال داود: اقتسما المال بينكما بالسوية، فقالا: لا حاجة لنا فيه، فلم يدر داود ما يصنع، فقال سليمان: يا نبي الله، إن أذنت لي تكلَّمت، فقال: تكلَّم يا ولدي، بارك الله فيك، فقال سليمان لأحدهما: ألك ولد ذكر؟، قال: نعم، وقال للآخر: ألك بنت؟، قال: نعم، قال سليمان: اذهب، فزوج ابنتك من ابن هذا، وادفعا المال إليهما، فانصرفا وفعلا ذلك. ثمَّ اجتمعت بنو إسرائيل على سليمان، وقالوا: إنك عليم حكيم، فلو بنيت لنا بيتاً، نتذاكر فيه الحكمة، فقال: إني لست براعٍ لكم، ولا أحب أن انفرد بأمري، دون نبي الله وخليفته، قالوا: أنت اليوم أحب إلينا من كلِّ أحد.

الغنم التي أكلت الزرع

وبينما سليمان بين يدي أبيه، في يوم قضائه، وإذا بقوم قد تقدموا إلى داود، وقالوا: يا نبي

الله، إنا قوم، حرثنا أرضاً، وزرعناها وسقيناها، حتى بلغت الحصاد، فجاء هؤلاء إلينا، وأرسلوا فيها أغنامهم في الليل، حتى رعتها، وما بقي منها شيء، فقال داود لأرباب الغنم: ما تقولون؟، فقالوا: صدقوا، غير أنا لم نعلم بنشر الأغنام، فقال داود لأرباب الحرث: كم قيمة زرعكم؟، قالوا: كذا وكذا، وقال لأرباب الأغنام: كم قيمة أغنامكم؟، قالوا: كذا وكذا، قال داود: هذا قريب من هذا، ثمَّ قال لأصحاب الغنم: ادفعوا إليهم أغنامكم بقيمة زرعهم.

فقال سليمان: يا أبت، إن أذنت لي تكلَّمت، فقال: تكلَّم بما عندك يا بني، فقال سليمان لأرباب الغنم: ادفعوا أغنامكم إلى هؤلاء، حتى ينتفعوا بألبانها وسمنها وأصوافها ونتاجها، وخذوا أنتم، أرض هؤلاء، فاحرثوها وازرعوها واسقوها، حتى يقوم الزرع على سوقه، فإذا بلغ الحصاد، سلموا إليهم أرضهم بزرعها، وخذوا أغنامكم، فرضي الفريقان بذلك، فذلك قوله تعالى { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } سورة الأنبياء: 79.

وكان سليمان قد أعطى، من أبواب الحكمة ألوفاً، كل باب منها، على ألف فرع، كل فرع منها على ألف نوع من أنواع العلوم، وكان قد أعطي العلم الذي كان في الكتب الأولى، وكان سليمان يقسم النهار ساعات: ساعة لعبادته، وساعة لقراءة الزبور، وساعة لأبيه، وساعة لأمه، وساعة لنفسه، وساعة لذكر الأولين، وساعة للاشتغال بالعلم، وساعة لبني إسرائيل، وبقية الساعات لذكر الموت والحساب والعرض على الله تعالى.

وكان يخرج في كل أسبوع، فيقف على الجبال، ويقول: سبحان من يعلم زنة مثاقيلها !، فتجيبه الجبال، وتقول: سبحان من يعلم ذلك !، وسبحان من زين الدنيا بنوره وذكره، وإن بني إسرائيل حسدوا سليمان، على ما أوتي من العلم، في صغر سنه، فأوحى الله تعالى إلى داود: أن الحكمة تسعون جزءاً، سبعون منها في سليمان، وعشرون في بقية الناس.

خطبة سليمان

ثم إن الله تعالى أوحى إلى داود أن يقيم سليمان خطيباً، على رؤوس بني إسرائيل، ليسمعهم ما أوتي من الحكمة، وكان عمر سليمان، يومئذٍ، اثنتي عشر سنة[1]، فجمع داود بني إسرائيل، ثمَّ أمر سليمان أن يصعد منبره، فصعد، وحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وذكر منه قدرته وعظمته وعجائب مخلوقاته، ما يعجز الواصفون عن وصفه، وضرب لكلِّ شيء مثلاً، وقرأ عليهم سفر آدم، وصحف شيث، وأخذ في تفسير التوراة والزبور.

فتحيَّر بنو إسرائيل من غزارة علمه وحكمته، وسجدوا شكراً لله تعالى، وقالوا لداود:

---

(1) استخلف داود سليمان، في الثانية عشرة من عمره. أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 137. ولم يكن داود قد أعلن ذلك رسمياً، لكن الرب أخبره أن ابنه سيخلفه على العرش، وأنه أخبر بتشبع زوجته بذلك. العهد القديم، سفر الملوك الأول 1: 13، 17. وبعد ذلك أعلن داود لكل الشعب أن الله اختار سليمان لكرسي المملكة. العهد القديم، سفر أخبار الأيام الأول 28: 5. و29: 1. ودائرة المعارف الكتابية 4: 420.

هنيئاً لك هذا الولد المبارك، ولم يزالوا، من ذلك اليوم، يأخذون سليمان بالعين الجليلة الرفيعة، وأعطي سليمان، في حياة أبيه، سائر لغات بني آدم، ولغات الطير والوحش وغيرها، وأعطي من كرامات الأنبياء، من كلِّ نبي كرامة، وكان بنو إسرائيل يحبونه، ويفضلونه على أبيه، وهو يقول لهم: لا ينبغي أن تؤثروني على خليفة الله في الأرض.

الصحيفة

حتى إذا أتى على سليمان بضع وعشرون سنة، نزل عليه جبريل وقال: يا داود، إن معي صحيفةً من ذهب، فاجمع أولادك، واقرأ عليهم ما فيها، من المسائل، فمن أجابك بما فيها، فهو الخليفة من بعدك، فدعا داود جميع أولاده، وقرأ عليهم ما في الصحيفة، بحضرة مشايخ بني إسرائيل، فعجزوا عما فيها، ولم يجيبوا عنها، وكان سليمان أصغرهم سناً، فجعل بنو إسرائيل ينظرون إليه، ففطن لهم، وقال: سلوني عنها.

فقال داود لسليمان: يا بني، ما الشيء؟، قال: المؤمن، قال: صدقت، قال: فما بعض الشيء؟، قال: الفاجر، قال: صدقت، قال: فما لا شيء؟، قال: الكافر، قال: صدقت، قال فما كل شيء؟، قال: الماء؛ لأن منه كل شيء حي، قال: فأخبرني عن أكثر شيء؟، قال: الشرك في بني آدم، قال: أخبرني عن أقل شيء؟، قال اليقين في نبي آدم، قال: فأخبرني عن أمر شيء؟، قال: الفقر بعد الغنى، قال: فأخبرني عن أحلى شيء؟، قال: المال والولد، قال: أخبرني عن أقبح شيء؟، قال: الكفر بعد الأيمان، قال: فأحسن شيء؟، قال: الروح في الجسد، قال: فأوحش شيء؟، قال: الجسد بلا روح.

قال: فأقرب شيء؟، قال: الآخرة، قال: فأبعد شيء؟، قال: الدنيا من الآخرة، قال: فاخبرني عن شر شيء؟، قال: المرأة السيئة، قال: فأخبرني عن خير شيء؟، قال: المرأة الصالحة، وكان داود، عقب كل مسألة، يصدقه، ثمَّ التفت داود إلى بني إسرائيل، فقال: ما الذي أنكرتم من قول ابني سليمان؟، قالوا: ما أخطأ في شيء، فأمتعك الله له، وبارك لك ولنا فيه، قال داود: أرضيتم أن يكون خليفتي عليكم من بعدي؟، قالوا: نعم[1].

النبوة والمُلك لسليمان

لَّما قبض داود، هبط جبريل على سليمان، وعزاه في أبيه، وقال له: قم ببني إسرائيل، فأنت خليفة الله فيهم، فقام سليمان من عزائه، وفرق الطير عن قبر أبيه داود، وتعمم بعمامة الخلافة، وأخذ عصا موسى، فتوكأ عليها، ثمَّ هبط عليه جبريل، وقال: إن الله تعالى يخصك بالسلام، ويقول لك: أيها أحب إليك الملك أم العلم؟، فخر سليمان ساجداً، وعفر خديه، وقال: إن العلم أحب إلي من الملك؛ لأنه أنفع الأشياء.

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 257.

فأوحى الله يا ابن داود، إنك تواضعت، وإني أحب من يتواضع إلي، وقد اخترت العلم على الملك، وقد وهبت لك العلم والملك، وأضفت إلى ذلك كمال العقل، وزينة الخلق، وجمال الصورة، ونزعت عنك العجب، وسأطوي لك الأرض بأسرها، حتى تطأها بجيشك، وتشاهد عجائبها، فخر سليمان ساجداً لربه [1].

فلمّا رفع رأسه، فإذا الرياح الثمانية واقفة بين يديه[2]، وقالت: إن الله قد سخرنا لك، فأركبنا إذا شئت، وإلى أي موضع شئت، ثمَّ أقبلت الوحوش والسباع والطير مختلطةً، لا يؤذي بعضها بعضاً، فوقفت بين يديه، وسلمت عليه، وقالت: يا نبي الله، قد أمرنا لك بالطاعة، فأمرنا بما شئت، ثمَّ أقبلت السحابة المسخرة بين السماء والأرض، حتى وقفت في الهواء، وقالت: يا نبي الله، إنا أمرنا بطاعتك، وفوض الله إليه أمور الدنيا، شرقها وغربها.

حشر الطير لسليمان

فلمّا أعطى الله لسليمان الملك، أحب أن يستنطق الطير، فحشرت إليه[3]، وكان حاشرها جبريل وميكائيل، فأما جبريل، فكان يحشر طيور الشرق والغرب، وأما ميكائيل، كان يحشر طيور الهواء والجبال، فنظر سليمان إلى عجائب خلقها، وكان يسأل كل واحد منها، فيخبره بمسكنه ومعاشه ووكره وأعشاشه، وكيف يبيض، وكيف يحضن، وكيف يطير، وكان بين يديه سبعة ألوية من ألوية الأنبياء تمسكها الملائكة.

الخطافة

وجعلت الطيور تحضره، فوجاً فوجاً، وتكلّمه، فيقال: إن الخطافة، لمّا دنت منه سلمت عليه، ثمَّ قالت: يا نبي الله، أنا ممن اختارني نوح، وحملني في السفينة، وعني تنسل كل خطافة في الدنيا، وإني مخبرتك أن أباك آدم دعا لي، وقال: أيتها الخطافة، إنك مباركة، ونسلك مبارك علي، وستدركين، من أولادي، من خلافته مثل خلافتي، تحشر إليه الوحوش، والمردة من الجن، فإذا رأيته، فاقرأيه مني السلام، وقولي له: يا نبي الله، إن معي سورةً، تعجب الملائكة من نورها. فهل لك أن تسمعها مني؟. قال: نعم، فقرأت الخطافة { الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } سورة الفاتحة: 2 – 7.. ومدت صوتها بـ «آمين»،

---

(1) العهد القديم، سفر الملوك الأول 3: 6 – 15. وأساطير اليهود، دار الكتاب 4: 142.

(2) الرياح ثمان: أربع منها رحمة، وأربع عذاب، فأما الرحمة، فالناشرات والمنتشرات والمرسلات والذاريات، وأما العذاب، فالعقيم والصرصر، وهما في البر، والعاصف والقاصف، وهما في البحر. العظمة 2: 305.

(3) سأل سليمان الرب أن يعطيه الحكمة دون الذهب أو الفضة، فأعطاه، فاتيقظ، فراح يتلفت في الحقول، فسمع أصوات البهائم، وإذا به يفهم كل ما يقول واحدها للآخر. التلمود: 231. واستدعى وحوش البرية، وطيور السماء والزواحف والظلال والأطياف والأشباح. أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 145. وفي العهد القديم، سفر الملوك الأول 4: 33. «وتكلّم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك».

وسجدت، وسجد معها سليمان.

النسر

ثم تقدم النسر، وقال: السلام عليك يا نبي الله، إني ما رأيت ملكاً أعظم من ملكك، وإني صحبت أباك آدم، وساعته على حزنه، وشربت من دموعه، ولم أزل معه، حتى تاب الله تعالى عليه، وانتهيت إلى زمن إبراهيم، ولقد قال لي: إنه يكون من ذريتي من تسخر له الطير، فإذا بلغته ورأيته، فأقرأه مني السلام، وقد أديت وديعته، فاصطعني يا نبي الله، فإني عليم بمفاوز الأرض وجبالها، وإني معي آية عظيمة، وهي { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } سورة النساء: 87. ثم سجد، وسجد معه سليمان لله رب العالمين، فلمّا رفع رأسه، جعلَه سليمان ملكاً على الطيور.

العقاب

ثم تقدم إليه العقاب، في صورته وقال: يا نبي الله، إن الله تعالى خلقني، أعظم مما ترى، غير أن حزني على هابيل، حين قتله قابيل، صيرني إلى ما ترى، ولقد توحشت الأرض والجبال يوم قتل، ولقد علمني آدم قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } سورة الأعلى: 14 ـ 15. { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } سورة المؤمنون: 1. فأمرني بما شئت، فإنا لأمرك طائع، ثمَّ سجد بين يدي سليمان، فجعله عريف الطير كلها.

العنقاء

ثم تقدَّمت العنقاء[1]، وهي يومئذٍ شديدة البياض، منقارها في صفرة الياقوت الأصفر، وصدرها كالذهب الأحمر، ولها وجه كوجه الإنسان، وذوائب كذوائب النساء، ورجلان صفراوان، ولها، تحت أجنحتها، يدان في كل يد ثلاثون إصبعاً، فوقفت بين يديه، وسلمت عليه، وقالت: إن الله قد فضلك على كثير من الملوك، حين أبرزت إليك في صورتي هذه، وإني ما نطقت لأحد، إلا لصفوة الله آدم، فعجب من حسن صورتي، قال: أحسبك تشبهين طيور الجنان، فمنذ كم خلقك ربك؟، قالت: منذ ألف عام، ثمَّ تبخترت بين يديه، فقال: أيها الطائر، إنك تعجب بخلقك، والعجب يهلك صاحبه، أيها الطائر، لقد فاز المفلحون، وخسر المبطلون.

الغراب

ثم تقدَّم الغراب إليه، وسلم عليه وقال: يا نبي الله، لقد فضلك الله تعالى، على كثير من خلقه، ولقد خلقني الله تعالى شديد البياض، حتى سمعتهم يقولون: { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } سورة البقرة: 116. فصرت إلى ما ترى، ولقد دعا لي أبوك آدم، ثمَّ أبوك نوح بطول العمر، وسمعت آدم يقرأ: { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } سورة المدثر: 38. ثمَّ سجد بين يديه.

---

(1) طائر خرافي، يعشعش في متخيل الجماعة.

الحمامة

ثم تقدَّمت الحمامة، وسلمت عليه وقالت: يا نبي الله، أنا الحمامة التي اختارني أبوك آدم لنفسه إلفاً وأنساً، ولقد كنت آنس به، وبتسبيحه، وإنه علمني كلمات، حفظتهن عنه، وهي إلا إله إلا الله، وحده لا شريك له، محمد عبده ورسوله، سيد الأولين والآخرين، يأتي في آخر الزمان، وهو خاتم النبيين والمرسلين، فأمرني بما شئت، ثمَّ سجد بين يده.

الهدهد

ثم تقدَّم الهدهد، وهو يومئذٍ ذو ألوان، أصفر المنقار، أخضر الرجلين، حسن الريش، كثير الألوان، على رأسه تاج، فسلم عليه، وسجد بين يديه، وقال: يا نبي الله، إني رأيت الدنيا ضاحكة لك، وإن الله قد أعطاك ملكاً عظيماً، فاتَّخذني رسولاً، آتيك بالأخبار، فأكون لك دليلاً على مواضع الماء، فقال له سليمان: إنك كيس، فما لي أرى صبيان بني إسرائيل يصطادونك بالفخاخ، ولا تغني كياستك عنك شيئاً؟، قال: يا نبي الله، أما علمت أن الله تعالى كتب الخير والشر على الخلائق، ولقد سعد من سعد، وشقي من شقي، وأن القضاء، إذا نزل، لا تغني الحيلة عنه شيئاً؟، فأمره سليمان بملازمته، ثمَّ سجد بين يديه مراراً.

الديك

ثم تقدَّم الديك، وهو آخر من تقدم من الطيور، وهو أصفر الجناحان، أصفر الرجلين، أحمر الظهر، وسلم عليه، ثمَّ ضرب بجناحيه، وصاح صيحة، أسمع الملائكة والطيور، وقال في صيحته: يا غافلين، اذكروا الله، ثمَّ قال: يا نبي الله، إني كنت مع أبيك آدم، وكنت أوقظه وقت الصلاة، وكنت مع نوح في الفلك، ومع أبيك إبراهيم، وكثيراً ما كنت أسمع أباك إبراهيم، يقول: قل: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } سورة آل عمران: 26. وإني إذا صحت في بقعة، تفرقت منها الشياطين، فأمره سليمان بملازمته، حتى فرغ سليمان من حشر الطيور، وعرفها بأسمائها ومنطقها، ثمَّ إن الله أوحى إلى جبريل: أنه قد سبق في علمي أن أملك سليمان الدنيا، لتعلم الجن والإنس والملائكة، أني لم أخلق خلقاً، أفضل من ذرية آدم.

الخاتم

أنزل الله سبحانه وتعالى خاتم سليمان في يوم عاشوراء وذلك أن الله تعالى أسكن آدم الجنَّة وختمه بخاتم العز وقال يا آدم هذا خاتم عهدي فإذا نسيت عهدي يا آدم اخلعه منك ثمَّ ألبسه من أنبيائي من لا ينسى عهدي وأورثه خلافتك ففزع آدم وقال يا ربي من هذا الذي تورثه خلافتي قال الله تعالى ولدك سليمان أسلمه من الكبر وأجعله مثلا للمردة من ولدك الذين يفسدون في أطراف الأرض ويسمون أنفسهم ملوكا في أكنافها

فأخذه آدم، فتختم به فكان يضيء لنوره أشجار الجنَّة وتضحك حور الجنان وتميل الخزنة لرؤيته عجبا منه ومن حسنه وجماله فسبحان من أكرمه واصطفاه صلى الله عليه وسلم حتى عصى ربه ونسي عهده طار الخاتم من أصبعه طيرانا فزعًا مذعورا حتى استجار بركن من أركان العرش وأنطق الله الخاتم فقال إلهي وسيدي هذا آدم قد رفضني وأنت قد طهرتني به وجعلتني لأهل الطهارة فقال الله جل جلاله استقر فلك الأمان وسنجعلك لمن نسلمه من الكبر ونعزه بك على أن لا يملكك أحد بعده أبدا.

فلمَّا اصطفى الله سبحانه سليمان بالخلافة والولاية وأحب أن يرى عباده قدرته جعل عن سليمان عليه الصلاة والسلام في ذلك الخاتم وأنزله الله سبحانه إليه يوم عاشوراء صبيحة يوم الجمعة وسليمان قائم في محرابه وخلفه إثني عشر سبطا في كل سبط إثني عشر ألفا من العلماء والحكماء والقضاة من أهل التوراة والزبور ودراسة الكتب إلا أصحاب البرانيس والعكاكيز فقد أظلهم الطير من فوقهم.

فبينما سليمان في قراءة الزبور إذا ناداه جبريل، وقال له: السلام عليك يا سليمان، هذه هدية الله إليك خذ هذا الخاتم فتختم به فسجد سليمان لله رب العالمين شكرا وسجد من خلفه من أول النهار إلى آخره تعظيمًا لله وتحميدا له حتى إذا رفع رأسه صعد كرسيه واستقبل الناس بوجهه ورفع إليهم الخاتم فلمع في يده كالبرق الخاطف فقال لهم هذا خاتم جمع الله لي فيه سلطاني وعزتي وفضلني به على العالمين وهو خاتم الطاعة لا يمسه إلا عزيز تقي نقي قالوا له قد أدينا لك طاعتنا وأنت العزيز التقي النقي الأمين وكان على تربيع الخاتم مكتوب على الجانب الأول أنا الله لم أزل وعلى الثاني أنا الله الحي القيوم وعلى الثالث أنا الله العزيز لا عزيز غيري وعزيز من بستان الواعظين ورياض السامعين ألبسته إياه وعلى الرابع آية الكرسي محيط به لا إله إلا الله محمد رسول الله خاتم الأنبياء[1].

فلماً اجتمع بنو إسرائيل، لينظروا إلى الخاتم، قام سليمان خطيباً، ثمَّ تلا عليهم: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فلم يسمعها أحد، إلا امتلأ فرحاً، ثمَّ إنه أمر بعد ذلك باتخاذ البيض[2] والسيوف، وكان عنده اثنا عشر درعاً من نسج أبيه داود، ثمَّ قال سليمان: يا بني إسرائيل، إني قد أمرت بمجاهدة العدو.

سليمان والجن والشياطين

ثمَّ نشر جبريل جناحه الأيمن على شرق الأرض، والأيسر على غربها، ونادى: أيتها الجن والشياطين، من العمران والفلوات والجبال والآكام والأودية والظلمات، احضري وأجيبي، فأجابت وهي تقول: لبيك لبيك، يا منادي رب العزة، فحشرها إلى سليمان خاضعة ذليلة،

---

(1) بستان الواعظين: 266.

(2) البيض الدروع.

تسوقها الملائكة، كسوق الراعي لغنمه، حتى صارت إلى سليمان.

وهي يومئذ، أربعمائة فرقة، كل فرقة على غير دين الأخرى، وقد اسودت الأرض من كثرتها كالنمل، يقول بعضهم لبعض: هذا بغيكم على آدم وولده، حين قلتم إنكم أفضل منهم، فوقفوا بأجمعهم بين يدي سليمان، فجعل ينظر إلى اختلاف خلقها وعجائب صورها ولباسها، ما بين أصفر وأشقر وأسود وأبيض وأبلق، ومنهم على صور الخيل والبغال والحِمير والمواشي، ومنهم على صور الوحوش والسباع والكلاب، ولهم خراطيم، وأذناب وحوافر وأضفار، فخر ساجداً الله شكراً على ما أولاه، ثمَّ قال: إلهي وسيدي، ما علمت لك خلقاً مثل هؤلاء.

وجعل سليمان يسألهم عن قبائلهم وأنسابهم ومطاعمهم ومشاربهم وملوكهم وأديانهم، وهم يخبرونه بذلك، كله، فختم سليمان على أعناقهم، بخاتمه، وفرقهم وجندهم، وأنزلهم منازلهم، وصفد مردتهم بالحديد، فهم الشياطين منهم، بالعنت على سليمان، فحالت الملائكة بينهم وبينه، بأعمدة الحديد، ولم يزالوا حتى أدنوهم منه، وهم كالنمل والجراد، ولم يتأخر منهم غير صخر المارد، فإنه تأخر في جزيرة، تحصن فيها، وسيأتي خبره، إن شاء الله تعالى.

وبقي إبليس بغير أعوان، ولم يزل هارباً من سليمان، وفرق هؤلاء الشياطين، في الأعمال المختلفة، من عمل الحديد والنحاس، وقطع الأشجار والصخور، وبناء القرى والمدائن والحصون، وأمر نساءهم بغزل الإبريسم والقز والقطن، ونسج البسط، وعمل المحاريب والتماثيل، واتخاذ الجفان كالجوابي، والقدور الراسيات[1]، يأكل من كلِّ جفنة ألف إنسان..

وأمر طائفةً منهم بالغوص في البحار، وإخراج الأصداف والجواهر المختلفة الألوان، وأمر بعضهم بحفر الآبار والقنوات، وبعضهم باستخراج الكنوز، وجعل لهم أربعة ألوان من الملابس، يعرفون بها، فجعل على المقاتلة العمائم الخَضِر والبرانس، وألبس المؤمنين منهم ثياب الصوف، وجعل على الكتاب منهم والصناع ما يشاكلهم، وجعل طبقةً منهم في خدمة بني إسرائيل.

ثم سخر الله تعالى لسليمان هوام الأرض من الحيات والعقارب والحشرات والذباب والبعوض، فسأل كلاً منها عن اسمها، وضرها ونفعها، ومأكلها ومشربها ومسكنها، ومقدار أعمارها وعادتها، وغير ذلك من أحوالها، فأخبرته، ثمَّ صرفها، وقد أمرها ونهاها.

مطابخ سليمان

ثم أمر، بعد ذلك كله، لهؤلاء الخلق بالأطعمة والأشربة والقدور والآلات، حتى كان

(1) تضمين قوله تعالى: { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } سبأ: 12 - 13. والجفان جمع جفنة، وهي قصعة الأكل، شبهت بالجوابي، جمع جابية، وهي الحوض يجمع فيه الماء.

الطباخون ينادون في عسكره: من أراد طعاماً، فليأت، فكان الناس في أنعم العيش، وكانت له موائد منصوبة على طول ميل وأطول، ومعه كذا وكذا طباخ، مع كل طباخ شيطان، يعينه على ذبح البقر والغنم، واحتطاب الحطب، وغسل الجفان، ونصب القدور.

وكان له مخابز، في كل مخبز ألف خباز، وكان يذبح في عسكره، من الإبل والبقر والغنم، في كل يوم، زيادةً عن ثلاثين ألفاً، وكان يعمل، في مطابخه ومخابزه، كل يوم، ألف كُرٍّ[1] من الملح، وكان يضع للزهاد موائد من الخوص والخيزران، وكان سليمان يتولّى خدمتهم بنفسه، وكان للجان موائد من الحديد والنحاس، ولم يكونوا يأكلون من الطعام غير رائحته.

ثم إن سليمان رأى الجن قد ضعفوا، فقال لهم: ما أضعفكم؟!، فقالوا: إن موائدك يذكر عليها اسم الله تعالى، فلا يصل إليها إلا المؤمنون، وكانت الطير قد اشتهت، في أطعمتها، العدس، فكان يلقى للطير، في كل يوم، كراً من العدس، ومن سائر الحبوب سبعون ألف كر، وكانت لها حياض منقورة في الحجارة، تملأ بالماء، وكانت تأكل وتشرب، وتظل البلاد بأجنحتها.

طلب سليمان الرزق

فلمّا نظر سليمان إلى عظم ما آتاه الله من الملك، قال: إلهي، قد أعطيتني ما لم تعطه أحداً من خلقك، فإني أسألك أن تجعل أرزاق خلقك بيدي، فأوحى الله إليه: أنك لا تطيق ذلك، فلا يغرنك ما أنت فيه، من الملك، فإنه جنب ملكي، كالذرة في الفلاة، قال سليمان، يا رب، فيوماً واحداً، قيل له: إنك لا تطيق، فقال سليمان: فساعة واحدة، فأوحى الله إليه: قد أعطيتك ذلك، فاستعد لأرزاق خلقي، واجمع لهم، فإني فتحت لك أسباب الأرض، فابدأ بسكان البحر قبل سكان البر، فجمع سليمان من البر والشعير وغير ذلك، حتى جمع نيفاً ومائة ألف حمل بعير وبغل وأكثر.

ثم أمر الريح أن تحمله، وسار حتى نزل على ساحل البحر، ثمَّ أمر مناديه: يا سكان البحر، احضروا لقبض أرزاقكم، فاجتمعت الحيتان والضفادع ودواب البحر، على صور مختلفة، وإذا بحوت قد أخرج رأسه، كمثل الجبل العظيم، وقال: اشبعني يا ابن داود، فقال سليمان: دونك الطعام، فلم يزل يأكل منه حتى أتى عليه كله، ثمَّ قال: زدني يا نبي الله، فعجب سليمان منه، وقال له: هل في البحر مثلك؟.

فقال: يا نبي الله، إني في زمرة من الحيتان، فيها سبعون ألف زمرة، كل زمرة في مثل عدد الرمل والمطر وورق الشجر، وفي البحر حيتان، لو أدخلت أنا في جوف إحداها، ما كنت في جوفها، إلا كخردة في أرض فلاة، ولم يصبني الجوع، مثلما ما أصابني في يومي هذا، من حين خلقني ربي، إلى حين كان رزقي على يديك.

---

(1) نوع من مكاييل أهل العراق. تاج العروس: كرر. وهو 250 غرام.

فبكى سليمان، عند ذلك، وقال: يا رب، أقل عثرتي في مسألتي، فإن لا تفنى خزائنك، ولا يقدر أحد على قدرتك، فأوحى الله تعالى إليه: قد أقلت عثرتك، ولكن قف؛ لترى بعض جنودي، فإن الذي رأيت قليل من كثير، فوقف، فإذا بالبحر قد اضطرب، وخرج منه حوت مثل الجبل العظيم، يشق البحر شقاً، وهو يقول: سبحان المتكفل بأرزاق العباد، فقرب من البر، ونادى: يا ابن داود، لو لا اليد الباسطة عليك، لكنت أضعف الخلائق؛ لأنك لا تقدر أن تشبع حوتاً واحداً، فكيف تقدر أن تتكفل بأرزاق العباد؟، فقال سليمان عند ذلك: إن ملكه لا يساوي شيئاً في جنب عظمة الله تعالى، ثمَّ انصرف الحوت، وقال: يا ابن داود، لقد جوعتني في هذا اليوم؛ لأجل أني وكلت إليك[1].

بناء بيت المقدس

وأما بدء بناء بيت المقدس، وصفة بنائه، على ما ذكره أهل البصيرة بالسير[2] فهو أن الله بارك في نسل إبراهيم، حتى جعلهم في الكثرة غايةً لا يحصون، فلمَّا كان زمن داود لبث فيهم ثلاثين سنةً، بأرض فلسطين، وهم كل يوم يزدادون كثرةً، فأعجب داود بكثرتهم، فأمر بعدهم، فكانوا يعدون زماناً من الدهر حتى آيسوا، وعجزوا أن يحيط علمهم بعدد بني إسرائيل، فأوحى الله إلى داود: أني قد وعدت أباك إبراهيم، يوم أمرته، بذبح ولده، فصدقني وائتمر أمري أن أبارك له في ذريته، حتى يصيروا أكثر من عدد نجوم السماء، وحتى لا يحصيهم العادون، وأني قد أقسمت أن أبتليهم ببليةٍ، يقل منها عددهم، ويذهب عنك إعجابك بكثرتهم. وخيره بين أن يعذبهم بالجوع والقحط، ثلاث سنين، وبين أن يسلط عليهم عدوهم ثلاثة أشهر، وبين أن يرسل عليهم الطاعون ثلاثة أيام.

فجمع داود بني إسرائيل، وأخبرهم بما أوحى الله إليه، وخيره فيه، فقالوا: أنت أعلم بما هو أيسر لنا، وأنت نبينا، فانظر لنا، غير أن الجوع لا صبر لنا عليه، وتسليط العدو أمر فاضح، فإن كان لا بد، فالموت. فأمرهم داود أن يتجهزوا للموت، فاغتسلوا وتحنطوا ولبسوا الأكفان، وبرزوا إلى الصعيد بالذراري والأهلين، وأمرهم أن يضجوا إلى الله تعالى، ويتضرعوا إليه؛ لعله يرحمهم، وذلك في صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد.

وارتفع داود فوق الصخرة، فخر ساجداً، يبتهل إلى الله تعالى، فأرسل الله فيهم الطاعون، فأهلك منهم في يوم وليلةً، ما لم يتفرغوا من دفنهم إلا بعد موتهم بشهر، فلمَّا أصبحوا من اليوم الثاني، خر داود ساجداً لله تعالى، يبتهل إلى الله تعالى، ويقول: يا رب، أنا آكل الخل الحامض، وبنو إسرائيل يضرسون، يعني أذنبت، وبنو إسرائيل يعاقبون، فما كان من شيءٍ، ففي أنزله،

---

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 587.

(2) إعادة لبعض ما جاء في مسجد داود السالف، والرواية عن وهب. عن كعب. كما في تاريخ دمشق 22: 291. وفي البلدان لابن الفقيه: 149.

واعف عن بني إسرائيل.

فاستجاب الله دعاءه، وكشف عنهم الطاعون، ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم، وارتقوا في سلمٍ من ذهبٍ، في صخرة بيت المقدس إلى السماء، فقال داود لبني إسرائيل: إن الله قد من عليكم ورحمكم، فجددوا له شكراً. فقالوا: كيف تأمرنا؟. قال: آمركم أن تتخذوا في هذا الصعيد الذي رحمكم فيه مسجداً، لا يزال فيه منكم، وممن بعدكم ذاكر الله تعالى.

فأخذ داود في بنائه، فلمّا أرادوا أن يبتدئوا بالبناء، جاء رجل، صالح فقير، يختبرهم؛ ليعلم كيف إخلاصهم في بنائهم، فقال لبني إسرائيل: إن لي فيه موضعاً أنا محتاج إليه، ولا يحل لكم أن تحجبوني عن حقي. فقالوا له: يا هذا، ما من أحدٍ، من بني إسرائيل، إلا وله في هذا الصعيد حق مثل حقك، فلا تكن أبخل الناس، ولا تضايقنا فيه. فقال: أنا لا أعرف حقي، وأنتم لا تعرفون حقكم. فقالوا له: إما أن ترضى وتطيب نفساً، وإلا أخذناه منك كرهاً. فقال لهم: أتجدون ذلك في حكم الله، وفي حكم داود؟.

فرُفع خبره إلى داود، فقال: أرضوه. فقالوا: بكم نأخذه، يا نبي الله؟ قال: خذوه بمائة شاة. فقال الرجل: زد. فقال داود: بمائة بقرة. قال: زد. قال: بمائة بعير. قال: زدني، يا نبي الله، فإنما تشتريه لله تعالى، والله كريم لا يبخل. فقال داود: حيث قلت هذا، فاحتكم، أعطكه. فقال: تشتريه بحائط مثله، زيتوناً ونخلاً وعنباً؟.

قال: نعم. فقال: أنت تشتريه لله، فلا تبخل. قال: سل ما شئت، قال: أنت أكرم على الله مني، ولكن ابن لي حوله جداراً مشرفاً، ثمَّ تملؤه ذهباً، وإن شئت ورقاً. قال داود: هو هين. فالتفت الرجل إلى بني إسرائيل، وقال: هذا هو التائب المخلص. ثمَّ قال لداود: يا نبي الله، لئن يغفر الله لي ذنباً واحداً، أحب إلي من كلِّ شيءٍ، وهبته لي، ولكني كنت اختبركم. فجدوا في بناء بيت المقدس. وكان ذلك، فيما قيل، لإحدى عشرة سنةٍ، مضت من ملك داود.

وكان داود ينقل لهم الحجارة على عاتقه، وكذلك خيار بني إسرائيل، حتى رفعوه قامةً، فأوحى الله تعالى إلى داود: إن هذا بيت القدس، وإنك رجل سفاك للدماء، فلست ببانيه، ولكن ابناً لك، أملكه بعدك، اسمه سليمان، أسلمه من سفك الدماء، وأقضي إتمامه على يده، ويكون صيته وذكره وأجره باقياً لك.

فصلُّوا فيه زماناً إلى أن تُوفِّي داود، واستخلف سليمان، فأمره الله تعالى بإتمام بيت المقدس، فجمع سليمان الجن والإنس والشياطين، وقسم عليهم الأعمال، وخص كل طائفةٍ منهم بعملٍ يصلح لها، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل عمد الرخام، والبلور الأبيض الصافي من معادنه، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح، وجعلها اثني عشر ربضاً، وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط، وكانوا اثني عشر سبطاً.

***

فلمّا فرغ من بناء المدينة، ابتدأ في بناء المسجد، فوجه الشياطين فرقاً، فريقاً يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها،، وفريقاً يغوصون في البحر، ويستخرجون أنواع الدر، وفريقاً يقطعون أنواع الرخام، وفريقاً يغوصون على الجواهر[1]، وفريقاً يأتونه بالمسك والعنبر، وأنواع الطيب من أماكنها، فأتي من ذلك بشيء، لا يحصيه إلا الله تعالى، ثمَّ أحضر الصناع، وأمرهم بنحت تلك الحجارة، وتنضيدها ألواحاً، وإصلاح تلك الجواهر ونقشها، فكانوا يعالجونها، فتصوت صوتاً شديداً لصلابتها.

فكره سليمان تلك الأصوات، فدعا الجن، وقال لهم: هل عندكم حيلة في نحت هذه الجواهر من غير تصويت؟. فقالوا: يا نبي الله، ليس في الجن أكثر تجارب، ولا أكثر علماً، من صخر العفريت[2]، فأرسل إليه من يأتيك به. فطبع سليمان خاتمه طابعاً، وكان يطبع للشياطين بالنحاس، ولسائر الجن بالحديد، وكان إذا طبع بخاتمه، لمع ذلك كالبرق الخاطف، فكان لا يراه أحد، من جن، ولا شيطان إلا انقاد له بإذن الله تعالى[3].

فأرسل الطابع مع عشرة من الجن، فأتوه به، وهو في بعض جزائر البحر، فأروه الطابع، فلمّا نظر إليه، كاد أن يصعق خوفاً، فأقبل مسرعاً مع الرسل، حتى دخل على سليمان فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت في طريقه. فقالوا: يا نبي الله، إنه كان يضحك بعض الأحايين من الناس. فقال له سليمان: ما رضيت بتمردك علي، ترك المجيء إلي طائعاً، حتى صرت تسخر من الناس؟.

فقال: يا نبي الله إني لم أسخر منهم، غير أن ضحكي كان تعجباً مما كنت أسمع، وأرى في طريقي. فقال سليمان: وما ذاك؟. قال: اعلم أني مررت برجلٍ، على شط نهرٍ، ومعه بغلة، يريد سقيها، ومعه جرة، يريد أن يستقي فيها، فسقى البغلة، وملأ الجرة، ثمَّ أراد أن يقضي حاجته، فشد البغلة بإذن الجرة، فنفرت البغلة، وجرت الجرة، فكسرتها، فضحكت من حمق الرجل، حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة. ومررت برجلٍ، وهو جالس عند إسكاف، يستعمله في إصلاح خف له، فسمعته يشترط معه أن يصلحه، بحيث يبقى معه أربع سنين، ونسي نزول الموت به قبله، فضحكت من غفلته وجهله.

ومررت بعجوزٍ، تتكهن، وتخبر الناس بما لا يعلمون من أمر السماء، وقد كنت عهدت رجلاً، دفن في موضع فراشها، ذهباً كثيراً في الدهور الخالية، فرأيتها تموت جوعاً، وتحت فراشها ذهب كثير، لا تعلم بمكانه، ثمَّ تخبر الناس عن أمر السماء، فضحكت منها. ومررت برجل في بعض المدن، وقد كان به داء، فيما قبل، فأكل البصل، فبرأ من دائه، فصار يتطبب للناس، فكان

(1) مرآة الزمان 2: 195.

(2) قصة صخر الجني هي قصة أزموديوس في أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 160 - 163.

(3) القصة في عهد سليمان: -13 15. في القرآن والتاريخ: 149.

لا يأتيه أحد، يسأله عن علة إلا أمره بأكل البصل، وإنه لأضر شيءٍ، حتى إن ضره ليصل إلى الدماغ، فضحكت منه.

ومررت ببعض الأسواق، فرأيت الثوم، وهو أفضل الأدوية كلها يكال كيلاً، ورأيت الفلفل، وهو أحد السموم القاتلة يوزن وزناً، فضحكت من ذلك. ومررت بناسٍ، قد جلسوا يبتهلون إلى الله تعالى، ويسألونه المغفرة والرحمة، فمل منهم قوم، وقاموا، وجاء آخرون، وجلسوا، فرأيت الرحمة قد نزلت عليهم، فأخطأت الذين كانوا من أهل المجلس، وغشيت الذين جاؤوا فجلسوا، فضحكت؛ تعجباً للقضاء والقَدَر.

فقال سليمان له: هل عرفت من كثرة تجاربك، وجولاتك في البر والبحر شيئاً، تنحت به هذه الجواهر، فتلين فيسهل نحتها وثقبها، بلا صوت؟. فقال: نعم يا نبي الله، أعرف حجراً أبيض كاللبن، يقال له: السامور[1]. غير أني لا أعرف معدنه الذي هو فيه، وليس في الطير شيء، هو أحيل ولا أهدى من العقاب، فأمر بفراخه أن تجعل في صندوق من تلك الجواهر، فإنه يأتي بذلك الحجر، فيضرب به ظهر الصندوق، حتى يثقبه، ليصل إلى فراخه.

فأمر سليمان بفراخ العقاب أن تضم في صندوق من حجرٍ، يوماً وليلة، فحجب عن فراخه، فمر العقاب مسرعاً، وجاء بذلك الحجر بعد يوم وليلة، وثقب به الصندوق حتى وصل إلى فراخه. فوجه سليمان مع العقاب نفراً من الجن، حتى أتوه منه بقدر ما علم أن فيه كفاية، واستعمل ذلك في أدوات الصناع، فسهل عليهم نحتها من غير صوت، وهو حجر يستعمل في نقش الخواتيم، وثقب الجواهر إلى اليوم، وهو حجر عزيز ثمين.

***

فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمده بأساطين المها[2] الصافي، وسقفه بألواح الجواهر الثمينة، وفصص سقوفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج[3]، فلم يكن يومئذٍ، بيت في الأرض، أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر. فلمّا فرغ منه، جمع إليه أخيار بني إسرائيل، فأعلمهم أنه بناه لله، وأن كل شيءٍ فيه خالص لله، واتَّخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً، لم يتخذ في الأرض قط عيد أعظم من ذلك اليوم، ولا أطعمة أكثر منه، فذبح فيه من الجزر ألف جزور، ومن البقر خمسة وعشرين ألفاً معلوفة، ومن الغنم أربعمائة ألف شاة.

فلمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس، قرب قرباناً على الصخرة، ثمَّ قال: اللهم، أنت

(1) شامير دودة، بلمسها للصخور تشقها، وتنحتها، أسهمت في بناء الهيكل، وفي مدراش تهليم، أتى بهذه الدودة نسر من الجنَّة، وهي التي أكلت منسأة (عصا) سليمان. القرآن والتاريخ: 153.

(2) البلور. لسان العرب: مها.

(3) الفيروز الحجر المعروف.

وهبت لي هذا الملك مناً منك عليَّ، وجعلتني خليفتك على أرضك، وأكرمتني به من قبل أن أكون شيئاً، فلك الحمد، اللهم، إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خصالاً: أن لا يدخله أحد، يصلِّي فيه ركعتين مخلصاً فيهما إلا خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه، ولا يدخله مذنب إلا تبت عليه، ولا خائف إلا أمنته، ولا سقيم إلا شفيته، ولا مجدب إلا أخصبته وأغنيته، وإذا أجبت دعوتي، وأعطيتني طلبتي، فاجعل علامته أن تتقبل قرباني.

قال: فنزلت نار من السماء، فسدت ما بين الخافقين، ثمَّ امتدَّ منها عنق، فاحتمل القربان، وصعد به إلى السماء، وكان بيت المقدس على ما بناه سليمان، حتى غزا نبوخذ نصر بني إسرائيل، فخرب بيت المقدس، وألقى فيه الجيف، وكبسه بالتراب، ونقل جميع ما فيه، من الذهب والفضة والجواهر والآنية، إلى أرض بابل[1].

كرسي سليمان

وصنع صخر الجني لسليمان، كرسياً من أنياب الفيلة، قوائمه من الذهب، وعلماً فيه تماثيل على صور الوحوش والسباع، مما لم يسبقه إليه أحد، وكان سليمان يجلس على الكرسي، إذا وردت عليه الملوك، وكان لهذا الكرسي عارضتان من الذهب، ومراقٍ[2] من الياقوت والزبرجد واللؤلؤ، كل لؤلؤة بقدر بيض النعام.

وكان في أول مرقاةٍ كرمة من الذهب، ورقها من الزبرجد، مركبة عليها سوابيط[3]، من البسر[4] والرطب من أنواع الجواهر، وفي المرقاة الثانية نخل، وفوق رؤوس النخل طواويس ونسور وعقبان مرصعة بالجواهر، محشوة أجوافها بسحيق المسك والعنبر، فإذا دخلت الريح في أجوافها، اصفرت صفيراً، لم يسمع السامعون بمثله، وجعل على المرقاة الثالثة أسدين عظيمين، عن اليمين وعن الشمال.

فإذا صعد سليمان على المراقي، نشرت النسور والعقبان والطواويس أجنحتها، وصفرت، فينتثر المسك والعنبر منهم، وتمد الأسود أياديها نحوه، وتسبح الطيور، وينادي المنادي عن يمينه وشماله: { اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً } سورة سبأ: 13. على ما أعطاك الله، من الملك الذي لم يعطه أحداً، فإذا جلس سليمان، كبر بنو إسرائيل، ورفعوا أصواتهم بالثناء على الله وبين يديه حمائم من ذهب، مركبة على نصبٍ من فضة، في مناقيرها صحائف من الذهب، مكتوبة فيها آيات من

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 274. وفي قصص الأنبياء للكسائي: 581. وسرد آخر عن وهب في البلدان لابن الفقيه: 150.

(2) المراقي جمع مرقاة، وهي وسيلة الصعود، مثل درجة السلم. المعجم الوسيط: رقى.

(3) في الأصل: أسابيط، وهو خطأ، وما أثبته جمع ساباط، وهي سقيفة بين حائطين فوق ممر نافذ. تاج العروس: سبط.

(4) البسر التمر قبل أن يرطب. المعجم الوسيط: بسر.

الزبور، يقرأها سليمان، فإذا حضر الخصوم، فلا ينطقون إلا بالحق[1]، وكان سليمان، مع هذا الملك العظيم، يصعد له من العمل ما لا يصعد لأحد، من أهل زمانه.

ثم أمره الله بمجاهدة العدو، فأخذ بجمع الأموال والخيول، فحشرت إليه الخيول من الأطراف، بأجلة الديباج، وسروج الجوهر، ولجم الياقوت، حتى كان مربطه سبعة آلاف فرس، أغر محجل، وأصفر وأشقر وأحمر وأدهم، وعامتها من نسل فرس إسماعيل التي خصه الله تعالى بركوبه، ولم يكن أحد يركب الخيل قبله، وكان سليمان، إذا خرج إلى الغزو، لا يخرج معه شيطاناً ولا جنياً، وكان يخرج معه العباد من بني إسرائيل، الذين عاهدوا الله ألا يولوا الأدبار.

وادي النمل

وبينما سليمان يريد أرض الشام للغزو[2]، إذ نظر إلى كراديس النمل، وهم يزيدون على مائة ألف كردوس، ولهم أيدٍ وأرجل، وهم زرق العيون، فقال سليمان: إني أرى سحابة في الأرض، ولا أدري ما هي، فلم يتم كلامه، حتى أسمعته الريح: { يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا } سورة النمل: 18 - 19، ونزل عن فرسه، ونزل الناس معه.

وقال: هل تعلمون ما هذا السواد؟، هذه أمة من الأمم، يقال لها: النمل، ثمَّ أخبرهم بقول تلك النملة، وأمرهم أن يحمدوا الله على ما أولاهم، فسجدوا شكراً الله، ثمَّ أمر الدواب أن تبعد عن ناحيتهم، وجعلت النمل تدخل مساكنها، زمرةً بعد زمرة، والنملة تنادي: الوحا الوحا، فقد وافتكم الخيل، فزعق بها سليمان، وأراها الخاتم، فجاءته خاضعةً ذليلة، فوقفت بين يديه، وهي أكبر من الذئب، فسجدت بين يديه، ثمَّ رفعت رأسها، وقالت: يا نبي الله، ما سجدت قبلك إلا لأبيك إبراهيم، فأمرني بما شئت.

فقال لها سليمان: أخبريني عما تكلَّمت به، فقالت: يا نبي الله، إني لَمَّا رأيت عسكرك، ناديت في النمل أن تدخل مساكنها؛ كي لا تحطمها الخيل؛ لأني رأيت ملوكاً قبلك، كانوا إذا ركبوا، داخلهم العجب، فأفسدوا في الأرض، ولقد أدركت زيادةً على عشرين ألف ملك، ما وصل أحد منهم إلى ما وصلت إليه، فسبحان الذي أعطاك هذا الملك العظيم !.

فقال لها سليمان: ما اسمك؟، قالت: وليمة، وأنا كمثل غيري من الملوك، أريد الإصلاح لقومي، فقال لها سليمان: كم عددكم؟، ومنذ كم خلقتم؟، فقالت: يا نبي الله، لو أمرت الإنس والجن والشياطين أن يحشدوا إليك النمل، لعجزوا عن ذلك لكثرتهم، وإنا خلقنا قبل أبيك آدم بألفي عام، ثمَّ صاحت بالنمل، فأقبلت تسلم على سليمان بلغاتها، زمرةً بعد زمرة، على اختلاف

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 270. ووصف عرش سليمان في التلمود: 236. وأساطير اليهود، دار الكتاب 4: 153.

(2) ضلَّ طريقه حتى أتى على وادٍ للنمل. أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 157، والقصة فيه باختلاف طفيف.

ألوانها، ثمَّ قالت: يا نبي الله، إن النملة لا تموت، حتى يخرج من ظهرها كراديس من النمل، وإن النملة لتجمع في صيفها ما يملأ بيتها، وهي تظن أنه لا يكفيها، وتسبح الله وتقدسه، وتسأله أن يوسع عليها أرزاقها، فتعجب سليمان من كثرتها ولغاتها وهدايتها[1].

حشر البعوض لسليمان

وبينما كان سليمان متعجباً من كثرة النمل، إذ أوحى الله تعالى إليه: أن لي جنداً، أكثر من النمل، ثمَّ أمر ملك البعوض أن يحشرها إلى سليمان، فأقبلت إليه البعوض، وهي في كراديس مثل السحاب، فتقدَّم إليه ملكهم، في كردوس عظيم، فسلم عليه بلغته، وقال: يا نبي الله، إنا في الأرض، قبل خلق أبيك آدم، بألفي عام، فقال له سليمان: كم تعمرون؟، وأين تسكنون؟، ومن أين تأكلون؟، وكم عددكم؟، فقال ملكهم: إن تحت يدي سبعين سحابة، كل سحابة لا يعلم عددها، إلا الذي خلقها، فمنها ما يأوي إلى الجبال، ومنها ما يأوي إلى البحار، ومنها ما يأوي إلى الأشجار، ومنها ما يأوي إلى البراري والقفار، وما تموت بعوضة، حتى تلد كثيراً، ثمَّ سجد وانصرف.

بساط سليمان

وكان سليمان، إذا ركب الريح تقدَّم أمام بساطه، البعوض والزنابير، وكلُّ شيء يطير في الهواء يسير أمامه، ثمَّ الشياطين تسير بين يديه على اختلاف صورهم[2]، وهو جالس على كرسيه الأعظم في وسط البساط، وكان العلماء والأحبار من بني إسرائيل، يجلسون على كراسي، عن يمينه وشماله، والريح قد أقلته، والطير قد أظلته، وزمام الريح بيده، كالرجل إذا ركب الفرس، وأمسك اللجام بيده، يتغدَّى على مسيرة شهر، ويتعشَّى على مسيرة شهر[3].

وبينما سليمان على بساطه، إذ مرَّ على الطير، فلم ير الغراب، وكان الغراب أول من يستأذن سليمان في الانصراف، لبعد وكره، كي لا تحول بينه وبين وكره، ظلمة الليل، فلمَّا مضى ذلك اليوم، افتقده سليمان من الغد، فلم يره، واستبطأه، فلمَّا أقبل، قال: أيها الغراب، كيف اخترت هذا الموضع البعيد، في جزائر البحر؟، وجاوزت هؤلاء الكفرة الذين يعبدون غير الله تعالى، وأنا

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 262. والقصة من الأساطير اليهودية. القرآن والتاريخ: 161.

(2) أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 156. وهو بساط الريح. بيت ها مدراش 5: 22 – 26. في القرآن والتاريخ: 168، 515.

(3) قال محمد بن إسحاق، وغيره من أصحاب الأخبار: في قصص الأنبياء للثعلبي: 259. وهو لوهب، كما في جامع البيان 18: 481. وزاد الطبري في روايته عن وهب: قال: وذكر لي أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتاب، كتبه بعض أصحاب سليمان، إما من الجن، وأما من الإنس: نحن نزلناه وما بيناه، ومبنياً وجدناه، غدونا من إصطخر فقلناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله، فبائتون بالشام. قال: وكان، فيما بلغني، لتمر بعسكره الريح الرخاء، تهوي به إلى ما أراد، وإنها لتمر بالمزرعة فما تحركها. تاريخ الطبري 1: 487. وتفسير ابن أبي حاتم 9: 2856. وهو بساط الريح كان يطير بسليمان، وجيشه المؤلف من الشياطين والناس والوحوش والطيور. القرآن والتاريخ: 160. وأساطير اليهود، دار الكتاب 4: 156.

أريد أن تكون على مقدمتي؛ لتدلني على الطريق، وتعرفني باسم كلّ بحر، وكلّ جزيرة، وإذا بلغت مسكنك، ترني إياه.

قبة القوارير

[قال: ومما عملوا له مدينة من قوارير، عشرة آلاف ذراع في عشرة آلاف ذراع، فيها ألف سقف، ما بين كل سقفين عشرة أذرع، في كل سقف جميع ما يحتاج إليه من المساكن والقباب والمرافق، أسفلها أغلظ من الحديد، وأعلاها أرق من الماء، يرى من داخلها ما وراء خارجها، من صفائه ونقائه، والشمس بالنهار، والقمر بالليل.

وعلى السقف العلى قمّة بيضاء، عليها علم أبيض، يستضيء به في الليل الداجي العسكر كله، يتلألأ شعاعه مد البصر، وبها من الأركان ألف ركن على مناكب الشياطين، تحت كل ركن منها عشرة من الشياطين، تسع سليمان وجنوده وحشمه وأولياءه، علواً وسفلاً.

تحملها الريح إلى حيث يشاء، وكانت تلك المدينة له مستقراً، يأكل ويشرب، وينام ويتمتع بها، وفي أسفلها مرابط وإصطبلات، وأواري وأواخي (عروة لربط الدابة) لخيله ودوابه][1].

وركب سليمان في قبّة القوارير، وحملته الريح، مع جنوده من الجن والإنس، وكان الغراب على مقدمته، يدله على الطريق، ويخبره بكلّ جزيرة وبحر، حتى قطع جزائر كثيرة، وبلغ جزيرةً خربة، في وسطها شجرة كبيرة، فقال الغراب: يا نبي الله، هذه شجرتي ومسكني، وأنا أطير إليك، في كل يوم من هذا المكان، فقال سليمان: كيف اخترت هذا الموضع الموحش، على سعة الدنيا؟، فقال: يا نبي الله، إنما هو مسقط رأسي، وفي هذا العش نشأت وفرخت، فلا استقر في موضع غيره، ولا استطيب سواه، وإني أعدو من هذا المكان خميصاً، وأروح بطيناً، لا أحد معي، ولا علي، ولا لي، فقال سليمان صائحاً صيحة عظيمة: أيها الغراب، ليتني كنت مثل حالك في هذه الجزيرة، وأعود يوم القيامة لا لي، ولا علي، ثمَّ كان سليمان، بعد ذلك، لا يلبث إلا في محاربه الذي ولد فيه، وكان يقول، مثل الغراب: هو مولدي ونشأتي.

[وقال: إن سليمان كان إذا ركب (البساط)، حمل أهله وحشمه وخدمه، وكتابه في مركبه الذي هيئ له، واتّخذ فيه مطابخ ومخابز، ويحمل فيها تنانير الحديد، وقدوراً عظاماً، يسع كل قدر عشرة من الجُزُر[2].

وقد اتّخذ ميادين للدواب أمامه، فيطبخ الطباخون، ويخبز الخبازون، وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض، والريح تهوي بهم، فسار من اصطخر إلى اليمن، وتوغل في البادية، فسلك على مدينة الرسول، فقال سليمان: هذه دار هجرة نبي، يبعث في آخر الزمان، طوبى لمن

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 296.

(2) النوق المنحورة.

آمن به، واتبعه، ثمَّ أتى أرض الحرم، فرأى حول البيت أصناماً، تعبد من دون الله.

فجاوز البيت، فلمَّا جاوزه سليمان، بكى البيت، فأوحى الله تعالى إلى البيت: ما يبكيك؟. فقال: هذا نبي من أنبيائك، وقوم من أوليائك، مروا علي، فلم يهبطوا بي، ولم يصلوا عندي، ولم يذكروك بحضرتي، وهذه الأصنام تعبد حولي من دونك.

فأوحى الله تعالى: لا تبك، فإني سوف أملأوك وجوهاً سجداً لي، وأنزل فيك قرآناً جديداً، وأبعث منك نبياً في آخر الزمان، هو أحب أنبيائي إلي، وأجعل فيك عباداً من خلقي يعبدونني، وأفرض على عبادي فريضة، يدفون بها إليك دفاً، مثل دفيف النسور[1] إلى أوكارها، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها، والحمامة إلى بيضها، وأطهرك من الأوثان، وعبدة الشيطان. ثمَّ أمر الله سليمان أن ينزل عليه، ويصلِّي فيه، ويقرب عنده قرباناً، ففعل ذلك.

فذبح عند الكعبة خمسة آلاف ناقةٍ، وخمسة آلاف ثور، وعشرين ألف شاة، وقال لمن حضر من أشراف قومه: إن هذا المكان يخرج منه نبي عربي، ويعطى النصر على جميع من ناوأه، ويكون السيف على رقبة من خالفه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم، فطوبى لمن أدركه وصدقه. قالوا: فكم بيننا وبين خروجه، يا نبي الله؟. قال: قريب من ألف عام][2].

الحراث

وبينما سليمان يسير في الهواء، إذ مرَّ برجل، من بني إسرائيل، اسمه مرعبدا، يعمل بالمسحاة في حرثٍ له، فلما رأى بساط سليمان، قال: سبحان الله !، لقد أعطي آل داود ملكاً عظيماً، فحملت الريح صوته من الأرض إلى مسامع سليمان، فنظر إلى الطير؛ لأنها كانت تظله، فأمرها بضم أجنحتها، فإذا ضمتها، تركب الشياطين على أركان البساط، فإذا فعلت الشياطين ذلك، سكنت الريح، فتحط البساط إلى الأرض رويداً، ففعلوا ذلك، وصار البساط على الأرض.

فوثب سليمان عن كرسيه إلى مرعبدا، فسلم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال مرعبدا: ما الذي أنزلك يا سليمان، عن هذا الملك الذي هو قريب الزوال؟، فقال: انزلني ما سمعت منك، فقال مرعبدا: يا نبي الله، لا تنظر إلى هذا الملك، فإن الذين عرفوا الله وآمنوا به، لا يمدون أعينهم إلى الدنيا وزهرتها، فقال سليمان: صدقت يا مرعبدا، قال له مرعبدا: منذ كم أنت في هذا الملك؟، فقال: منذ سنيات يسيرة، قال: فهل تجد لمَّا مضى لذة؟، قال: لا، والله، إنه كالحلم، وقال: وأنا كذلك في موضعي هذا، فما يخرج من الأرض إلا بقدر قوتي.

فقال سليمان: صدقت، ولكن لكلِّ قوم رزق، قليله وكثيره إلى نفاذ، يا مرعبدا، إن الله

(1) حركة الطائر على الأرض قبل طيرانهلسان العرب: دفف.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 262.

عباداً، اشتغلوا بعبادته عن غيره، واشتغلوا بعيوب أنفسهم عن غيرهم، وأنت يا مرعبدا، منهم، ولن يعذب الله أمةً، يكون فيها مثلك، فسكت مرعبدا ساعةً، ثمَّ قال: يا نبي الله، من أين قلت هذا؟، فأوحى الله إلى سليمان: أني لأصرف العذاب عن خلقي، إذا كان فيهم واحد مثل مرعبدا، فقال سليمان: اللهم، اجعل من مرعبدا رفيقي في الجنَّة، فأوحى الله أن مرعبدا قد سبقك إليه لقمان، وأن رفيقك في الجنَّة، نبي يجيء من بعدك، يقال له: يحيى بن زكريا، فودعه سليمان، ورجع إلى بساطه[1].

سبأ وبلقيس

قال وهب: أول ملك ملك اليمن عبد شمس بن يعرب بن قحطان، وهو يعرف بسبأ، وإنما سمي به؛ لأنه كان أول من سبأ العرب[2]، وكان جباراً ذا قوة، ولا يعرف بلده إلا بسبأ، وكان قد أحكم بناء المدينة، وحصنها بسور عظيم، وأبواب من حديد، وغرس في جوانبها الغرس الكثير من أنواع الفواكه، [حتى صارت مأوى للوحوش والطيور، وذلك قوله تعالى: { لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ } سورة سبأ: 15.

وكان قد بنى لنفسه خاصةً، مائة قصر بالرخام والجزع اليماني[3]، وسقفها بالعاج والأبنوس، وجعل فيها التماثيل المشبكة بقضبان الذهب، وكان له سبعة بنين، لكلِّ واحد منهم بلاد ورساتيق، منهم: حِمير بن سبأ، وهو أكبرهم، وعمرو، ومرة والأشكر، وأنمار وكهلان وبجيلة، وكان حول سبأ خمس مدن للضعفاء والمساكين.

حديث سيل العرم

وكانوا، مع ذلك، كفرة عتاة متمردين، فبعث الله تعالى ثلاثة عشر نبياً[4]، يأمرونهم بطاعة الله تعالى، وينهونهم عن معصيته، فكذبوهم، وهموا بقتلهم، والرسل مع ذلك، يصبرون على أذاهم، ويذكرونهم بنعم الله عليهم.

وكانت لهم مسناة، ومن ورائها ماء، يجتمع فيها من العيون، وكان لهذه المسناة[5] ثلاثة أبواب، بعضها فوق بعض، يستقون منها الماء، فإذا فرغوا من الاستقاء، أغلقوا الأبواب إلى وقت الحاجة، ولهم أنواع السمك في ذلك الماء، وهم في بلدة طيبة، وعافية شاملة، فذلك قوله تعالى: { بلدة طيبة ورب غفور } سورة سبأ: 15. لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويتوب عمن تاب، وكان الأنبياء يحذرونهم نقمة الله، وهم لا يبالون، ويزدادون عتواً.

(1) الزهد لأحمد بن حنبل: 36. وقصص الأنبياء للثعلبي: 2259. وحِلية الأولياء 4: 59.

(2) وهو زجل بن يشخب بن يعرب بن قحطان. تفسير مقاتل 3: 62، والبدء والتاريخ 3: 131.

(3) الجزع نوع من العقيق، عليه خطوط، متوازية مستديرة، مختلفة الألوان. المعجم الوسيط: جزع.

(4) جامع البيان 20: 287.

(5) المسناة السَّدُّ الذي يحبس السيول، جامع البيان 20: 378، والعرم هو السَّدُّ.

وكان فيهم رجل، كبير السن، يقال له عمرو بن عامر، رأى رؤيا هائلة، ثلاث مرات في ثلاث ليالٍ، كان مدينة سبأ، وما حولها من المدائن والقرى، قد غرقت بأجمعها، فارتاع لذلك، وعرف أنه كائن لا محالة، فاحتال للنجاة من ذلك، فقال لابن له: انظر، إذا جلست في نادي قومي، ورأيتني أتحدث، فنازعني الكلام، وكذبني فيه، فإذا رددت عليك، فقم إلي، والطم وجهي، فقال الغلام: ولِمَ أفعل ذلك يا أبت؟، قال: لأمرٍ من الأمور، ولا تخبر به أحداً من أقاربك، وسترى برهان ذلك.

فلمَّا كان من الغد، خرج الشيخ إلى نادي قومه، وجلس يتكلَّم فيهم، فرد عليه ولده وكذبه، ووثب إليه ولطم وجهه، فقال الشيخ: إني لطمني ولدي هذا بينكم، والله لأقتلنه، فاجتمع إليه قومه، وقالوا له: لا تفعل، فلو فعل هذا غيره، لانتصفنا منه، وما زالوا يسألونه، حتى حالوا بينه، وبين ولده، فقال الشيخ: إذ منعتموني من قتله، فلا أمكث ببلدة، أصابني فيها هذا الذل، وحلف أن يبيع جميع ماله، من العقار والأراضي، ويتحول عنها إلى غيرها، فاغتم قومه لذلك، ثمَّ اشتروا منه عقاره جميعه، وقبض الثمن، وتحول إلى بلدة أخرى.

ثم كتب بعد ذلك، إلى بني عمه، من أهل سبأ، وأخبرهم بما رأى في منامه، وحذرهم الغرق، فاجتمع القوم إلى ملكهم سبأ، وأخبروه بذلك، فبعث الملك إلى الكهنة، فحضروا بين يديه فأخبرهم بذلك، فقالت الكهنة: إنا قد وجدنا في كتبنا أن هلاك هذه المدينة، يكون من قبل فأرات حمر، تنقب هذه المسناة، فيغرق أهلها، ففزع الملك، وعمد إلى المسناة، وأمر بعمارتها، وسد كل فرعٍ، كان فيها بالكلس والحجارة، وربطوا حول المسناة سنانير وهررة كثيرة، وهم، بعد ذلك، يكذبون الرسل، ولا يرجعون إلى طاعة الله.

فلمَّا أراد الله هلاكهم، أقبلت الفأرات الحمر، فتسارعت إليها السنانير، فلمَّا قربت منها، عرفت السنانير أنه من سخط الله عليهم، فتأخرت عنها، فدخلت الفأرات إلى تلك السدود، وجعلت تثقبها، حتى قربت من الماء[1]، وذلك في أول النهار، فأوحى الله تعالى إلى الأنبياء، أن يخرجوا عنها، فخرجوا وصاروا في رؤوس الجبال، ثمَّ انفتق الماء من المسناة، حتى توسعت ثمَّ انهدمت عن آخرها، وجاءهم السيل، وهم غافلون، فحمل سبأ وأهلها ومواشيهم إلى أعلى البلد، ثمَّ وقعت الضجة بأرض سبأ وقراها، وجاءهم السيل، وفاض الماء في دورها وقصورها، حتى صارت كلها لجة كالبحر، فذلك قوله تعالى: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ }.

فلم يزل الماء طافياً، حتى أهلكها، ثمَّ نضب الماء، ونبت في مواضع البساتين، الأثل والخمط والسدر، وكان قوم منهم قد التجأوا، عند معاينة السد، إلى جبل، فلم يزالوا هناك، حتى نضب الماء، وبنوا لأنفسهم دوراً، وعمروا مزارع، فلم يخرج لهم إلا دون القوت، وكانوا يتممون قوتهم

(1) جامع البيان 20: 381. والبدء والتاريخ 3: 133.

بالأثل والخمط والسدر، فذلك قوله تعالى: { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ }، فالخمط الأراك، والأثل الطرفاء، والسدر النبق، فذلك قوله تعالى: { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ } سورة سبأ: 16 - 17.

ثم انقرض أهل سبأ، وتناسل منهم قوم وهلكوا، ثمَّ جاء قوم آخرون من ولد حِمير بن سبأ، فنزلوا بلاد سبأ، وقالوا: هذه بلادنا، فأول ملك كان من ملوكهم، ملك يعرف بعمرو بن الحرث بن مرة بن مالك بن سبأ، ثمَّ ملك بعده الحارث بن شداد، من ولد حِمير بن سبأ، ثمَّ ملك بعده إبرهة بن اسن، وهو إبرهة ذو المنار، وإنما قيل: ذو المنار؛ لأنه أول من أقام المنار، وحد الحدود، ومسح الأرض من ولد قحطان.

ثم ملك بعده، رجل فظ غليظ، يقال له: شارحي الحِميري[1]، وكان من عادته أنه فرض، على أهل مملكته، في كل أسبوع، جاريةً يفتضها، ويردها إلى أهلها، وأهل بلده لا يقدرون على مخالفته، وكان له وزير، من أبناء ملوك حِمير، يقال له: ذوا شرح بن الهدهاد بن الملطاط بن عمرو بن مرة، وكان لهذا الوزير ألف قصر، [ملقم بالرخام والسقوف الصندل]، وكان له ألف فرس عتيق، وألف سيف يماني بالفصوص، وكان ذا حسن وجمال وعقل، وكان مولعاً بالصيد، وكان لحسنه، ربما تصور له الجن على صورة الظبي، فإذا اصطاده وأراد ذبحه، كلمه، وقال: لا تعجل علي، فإني جئت انظر إلى محاسن وجهك.

وكانت الجنُّ، كثيراً ما تؤذي أهل اليمن، فحلف ذوا شرح بن الهدهاد أن يقتل ملك الجن، ويتزوج ابنته، وكان اسم ملك الجن عمير بن الهيثم، ولم يكن في الجن، أحسن منه وجهاً، وكان لوجهه نور، وكانت له ابنة، يقال لها: عميرة، وكان حسنها يفتن من رآها من قبائل الجن.

وكان ذوا شرح، إذا ركب، يركب في جيش قليل، فمر، ذات يوم، على وادي أشجار من بلاد اليمن، فلمَّا جنه الليل، آوى إلى شجرة، وكان المكان مسكناً للجن، فلمَّا مضى من الليل بعضه، سمع همهمة الجن، فقام ونادى: معاشر الجن، قد نزلت بكم الليلة على أن تضيفوني، فاسمعوني من أشعاركم.

فجعلت الجنُّ تنشد له من أشعارها، ثمَّ تقدمت إليه عميرة بنت ملك الجن، على حسن صورتها، فلمَّا نظر إليها ذو شرح، ذهل عقله من حسنها وجمالها، ثمَّ غابت عن عينيه، فدخل حبها في قلبه، ولم يزل في مؤالفة الجن، وكانوا في واديهم، يهدي إليهم الهدايا التي تصلح لهم، فسمع به عمير بن الهيثم، ملك الجن، فصافاه وآخاه وآلفه، حتى صار كالأخ عنده.

فلمَّا رأى ذلك، ذوا شرح، وأنه قد استمكن من ملك الجن، قال له ذوا شرح: هل لك أن

(1) أول ملوك اليمن بعد حِمير بن سبأ، الحارث الرائش وهو الحرث بن قيس بن صيفي، ثمَّ أبرهة ذو المنار، ثمَّ افريقيس بن ابرهة، ثمَّ العبد ذو الأذعار، ثمَّ هداد بن شارحيل والد بلقيس، ثمَّ بلقيس بنت هداد. تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: 98 - 99.

تزوجني ابنتك عميرة؛ ليكون ذلك لي شرفاً إلى المات؟، فزوجه ابنته بحضرة سادات الجن، وانصرف ذوا شرح إلى مدينة سبأ، وأهدى هدايا كثيرة إلى ملك الجن، وإلى سادات قومه، ثمَّ زفت عميرة إليه، فدخل بها، فحملت منه في الحال والوقت، بقدرة الله.

ميلاد بلقيس

فلمَّا قاربت الولادة، وضعت جارية، جنية إنسية، كأحسن ما يكون، وهي بلقيس(1)، غير أن أمها لم تلبث بعدها، إلا قليلًا ثمَّ ماتت، وبقيت بلقيس يتيمة، لا أم لها، فربتها الجن، وكان لها من الحسن والجمال ما لا يوصف، حتى كان يقال لها: زهرة اليمن. ولما بلغت، قالت لأبيها، وهو ذوا شرح: يا أبت، إني كرهت الجن، فاحملني إلى بلاد الإنس، فإنهم أحب إلي من الجن، قال لها: يا بنية، إن لهم ملكاً فظاً غليظاً، وهو يفتض بنات العرب، وذكر لها كيف يفتض الأبكار، ثمَّ يردهن إلى أهاليهن، فقالت: لا عليك، يا أبت، بل أريد أن تبني لي قصراً خارج مدينة سبأ، وحولني إليه، ثمَّ إنك سترى ما يكون منه ومني، إن هو تعرض لي.

ففعل أبوها ذلك، بعد أن استعان، على بنائه، بجماعة من الجن، فتحولت إليه، ونزل معها جماعة من بنات الجن في قصرها، واتَّخذ لها فيه عرشاً، من العاج والأبنوس والذهب والفضة، ورصعه بأنواع الجواهر، وركب الجن عليه، قبةً رفيعة مرصعة بالجوهر، وعلى رأس القبة، رحى تدور بالريح، تسحق المسك والعنبر، وتنثره على القصر، وصنع لها من آلات الذهب والفضة والأواني، شيئاً لا يوصف.

فأقامت بلقيس في قصرها زماناً، ثمَّ انتشر حديثها، وبلغ ملك سبأ شراحي بن شراميل، فركب بخيله ورجله، حتى وقف على القصر، فعجب من حسن بنائه، ثمَّ انفذ من يدخل القصر، فلمَّا بلغوا الباب، منعوا من الدخول، فانصرفوا إلى الملك، وأخبروه، فبعث بجاريةٍ من جواري قصره، فدخلت ونظرت إلى بلقيس وحسنها وجمالها، ونظرت إلى بنات الجن عن يمينها وشمالها، ثمَّ نظرت إلى زينة القصر، فرجعت إلى الملك، وأخبرته بجميع ذلك، وأنها ابنة وزيرك.

فدعا الملك وزيره، وقال: لك مثل هذا القصر، ومثل هذه البنت، ولم تخبرني بها، ولم تستأذني في بناء القصر؟ !، فقال: أيها الملك، إن هذا القصر أنفقت عليه المال، الذي ورثته من أبي، وأما البنت، فهي ابنة عميرة بنت ملك الجن، قال الملك: صدقت، ولكن يجب عليك أن تزوجها مني، فقال: أيها الملك، حتى أستأذنها، قال له الملك: افعل ذلك.

فمضى الوزير إلى قصر ابنته، فإذن له، فدخل على ابنته بلقيس، وأخبرها بذلك، فقالت: يا أبت، زوجني منه، ولا تخف، فإني قاتلته قبل أن يصل إلي، فرجع أبوها، فأخبر الملك، ففرح،

(1) في قصص الأنبياء للثعلبي: 276 بلقيس بنت الملك، وليست بنتاً لوزير. واسم أبيها اليشرح وهو الهدهاد، وقيل: هي بلعمة بنت شراحيل بن ذي جدن بن اليشرح، واسم أمها الجنية، ريحانة بنت الشكر.

ثمَّ إنه أرسل إليها في الحال: أني قد اشتقت إليك، قبل أن أنظر إلى وجهك، فعجلي بالمسير إلي، فأرسلت إليه: أني إليك أشوق منك إلي، ثمَّ كتبت إليه: أن قصري بناه الجن، وقد جمعت فيه، من الآلات التي تصلح لمثلك، ما يجل عن الوصف، فإن رأيت أن تتحول إلى قصري فافعل.

فلمَّا وصل كتابها إليه، وثب من ساعته، ولبس أحسن ملبوسه من ثيابه، وركب في حشمه وعبيده. فبلغ ذلك بلقيس، فصعدت إلى سطح قصرها، ودعت أباها، وأمرته أن يقول: إن ابنتي هذه من بنات الجن، ولم تر قط مثل هؤلاء الجنود، ففرقهم في النواحي، وادخل أنت وحدك، ففعل أبوها ذلك، فأمر الملك بتفريق جنوده، وانفرد وحده، وجاء إلى القصر، فدخل، وكان للقصر سبعة أبواب.

وكانت بلقيس قد أقعدت، على كل باب منها، جارية من بنات الجن، كأنها الشمس في الحسن، وفي أيديهن أطباق الذهب، فيها دنانير ودراهم وطيب، وأمرتهن، إذا دخل الملك، أن ينثرن عليه ذلك، فدخل من الباب الأول، فنثر عليه ذلك، وكذلك الباب الثاني، حتى دخل سبعة أبواب، وكان يظن كل جارية رآها أنها بلقيس، فتقول: أنا خادمة من خدمها، وهي أمامك، فتقدَّمت إليه جارية، فأصعدته العرش، حتى تخرج إليه بلقيس.

وخرجت بلقيس من خدرها بحسنها وجمالها، والتاج على رأسها، وحولها جواريها، يحملن ذوائبها، ثمَّ جلست عنده على العرش، فأخذت في ملاعبته ومخادعته، ثمَّ أتي بمائدة من ذهب، عليها ألوان الأطعمة، فامتنع الملك عن الطعام، وقال: لا أريد أن أغفل عن حسن وجهك، ثمَّ إنه أكل، بعد أن ألزمته بالأكل، ثمَّ دعت بالشراب، فأتي بآلات الشراب، وأخذ في الشرب، حتى خاف الملك على نفسه السكر، فشربت بلقيس كأساً أخرى مملوءة، وأكرهته على شرب مثلها، فلم يتم شربها، حتى وقع على قفاه، لا يعقل من أمره شيئاً، فدعت بلقيس بسيفها، فذبحته، وقالت للجواري: اقبضوا على هذا الفاسق، فقبضوا على رجله، وجروه من أمامها.

ثم دعت أباها، فلمَّا دخل رأى الملك مذبوحاً، ففرح بذلك، ثمَّ كتب إلى خزان الملك، على لسانه: إني أحببت النزول بقصر هذه السيدة، فاجمعوا ما في الخزائن من الأموال، وأنفذوه إلي، فلمَّا ورد الكتاب إلى الخزان، جمعوا من الأموال شيئاً عظيمًا، فأنفذوه إلى قصر بلقيس، ثمَّ أمرت بعمل طعام كثير، ودعت سادات ملوك اليمن، وكانوا مائة سيد وأكثر، فلمَّا جلسوا في قصرها، أمرت بتقديم الطعام لهم، حتى إذا أكلوا وشربوا، ودب فيهم الشراب، جاءت فأشرفت عليهم، وقالت: أيها السادة، يقول لكم الملك، أريد أن توجهوا نساءكم وبناتكم إلي، فقالوا: لا كرامة له في ذلك، أما يكفيه أنه قد فضح بنات العرب، فطمع فينا أيضاً.

وغضبوا غضباً شديداً، فقالت لهم بلقيس: لا تغضبوا، حتى أنظر في أمركم، وأنا معاونة لكم، ثمَّ غابت عنهم ساعة، ورجعت فأشرفت عليهم، وقالت: إن الملك قد نام، فما قولكم أيها السادة، في هذا الملك، إن أرحتكم منه، فهل تملكوني عليكم؟، قالوا: نعم والله، وحلفوا لها،

فانصرفت عنهم بلقيس قليلاً، ورجعت، وبيدها رأس الملك، فألقته إليهم، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وخرجوا من قصرها، فرحين وعرف أهل سبأ بما قد أزيل عنهم، من البلاء والجور، وأن الملكة هي سيدة الزمان، بلقيس بنت ذوا شرح، ولم تزل ملكتهم بضع عشرة سنة[1]، حتى بعث الله سليمان نبياً وملكاً.

سليمان وبلقيس

وكان السبب في إيصال خبر بلقيس إلى سليمان، أنه كان سائراً على بساطه، ذات يوم، في الهواء، وكان الهدهد دليله على الماء؛ لأنه كان يرى الماء من فراسخ، فقال الهدهد، وكان اسمه يعقر في نفسه: إن هذا وقت نزول نبي الله إلى الأرض، فلأرتفعن في الهواء، أطلب الماء، فلمّا ارتفع رأى هدهداً آخر من ناحية اليمن، مقبلاً عليه، فالتقى به، فسأله: من أين أنت؟، قال: أنا من اليمن، قال الآخر: فأنت من أين؟، قال: أنا من الشام، من هداهد نبي الله، الملك سليمان، قال: ومن سليمان؟، فقال: نبي الله الملك، ملك الجن والإنس، والطير والوحوش، فقال: إن هذا ملك عظيم، حين تطيعه هذه الخلائق، فقال له: هل في اليمن ملك؟. قال: نعم، فيها ملكة، يقال لها: بلقيس، وهي في بلاد اليمن، وتحت يدها عشرة آلاف قائد، تحت يد كل قائد كذا وكذا ألف من العساكر، قال: فهل لك أن تنطلق معي، فنراها؟. قال: نعم.

فانطلق الهدهدان، فأتيا بلاد اليمن، ثمَّ صارا إلى قصر بلقيس، فتأمله وأبصره، وأبصر عرشها، وحضر وقت الصلاة على سليمان، فلم ير الهدهد[2]، ثم دعا العقاب، وقال: أنت عريف الطير، فتعرف خبر الهدهد، فطار العقاب في المشرق، فلم ير له أثراً، ثمَّ طار في المغرب، فإذا هو بالهدهد مقبلًا من بلاد اليمن، فأخبره بقول سليمان.

وجاء به فأوقفه أمام سليمان، فسجد له وحياه، فهم سليمان بأن ينتف ريشه، ويلقيه إلى الطير لتأكله، فقال له الهدهد: لبثت الأبد، وعشت الدهر، يا نبي الله، اذكر وقوفك بين الجنَّة والنار، فرماه من يده، وقال: أخبرني، أين كنت؟، وغبت عن عيني؟، قال: { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ }، ثمَّ خر ساجداً الله، وقال: { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[3] فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

فلماً فرغ الهدهد من قوله، قال سليمان: { سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }، وسأله

(1) قصة قتلها الملك مختلفة في بعض التفاصيل في الملوك المتوّجة من حمير: 159.

(2) جامع البيان 19: 442.
وفي أساطير اليهود 4: 145. «ذات مرة غاب الهدهد عن اجتماع عقده سليمان، فبحث عنه خدم الملك، فلم يعثروا عليه في أي مكان، فاستشاط الملك غضباً، وأمر بإحضاره، ولو من تحت الأرض، وعاقبه على تلكؤه».

(3) معنى

سليمان عن الماء، فقال: هو تحت قائمة كرسيك، فأمر سليمان بأن يحولوا البساط والكرسي، ثمَّ نقر الهدهد بمنقاره، فخرج الماء، فشرب الناس منه، وتوضأوا وصلوا، ثمَّ قال سليمان للهدهد: { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } سورة النمل: 20 - 28.

ثم أمر سليمان آصف بن برخيا[1]: أن اكتب كتاباً لطيفاً لهذه المرأة، فدعا آصف بصحيفة من فضة، وكتب فيها: { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } وختم الكتاب بختم المسك، وبعثه مع الهدهد، مع زمرة من الطير؛ يكونونَ أعواناً له على حمل الكتاب، فساروا نحو بلاد اليمن، ثمَّ انقضوا على قصر بلقيس، فإذا هي نائمة في قبتها.

[كانت لها كوة، يعني طاقة، مستقبلة للشمس، تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها، سجدت لها، فجاء الهدهد إلى تلك الكوة، فسدها بجناحيه، فارتفعت الشمس، ولم تعلم، فاستبطأت الشمس، فقامت تنظر، فرمى الصحيفة في وجهها. قالوا: فأخذت بلقيس الكتاب، وكانت كاتبة قارئةً عربيةً، من قوم تبع بن شراحيل الحِميري، فلمّا رأت الخاتم، ارتعدت وخضعت، لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكاً منها، وقالت: إن ملكاً رسله الطير لملك عظيم، فقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد][2].

فعجبت واستوت قاعدة، وأخذت الكتاب، وصاحت، حتى اجتمع قومها، ثمَّ قالت: { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }، فلمّا قرأت: { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ } علمت أنه من آدمي، فقرأت الكتاب عليهم، وعلمت أنه من رجل عظيم؛ لأن حامل الكتاب الهدهد، فقالت في نفسها: لا ينبغي لي أن أتكبر على هذا الرجل، ثمَّ إنها أحضرت كبار قومها، ورؤساء أهل مملكتها، وأخبرتهم بشأن الكتاب، وما فيه، وأنه قد أمرنا بالرحيل إليه. وقالت: إن كان ممن يطلب الدنيا، أرضيته بالمال، وإن كان نبياً، لم يرضه إلا الإسلام والدخول في طاعته، فمضى قومه على رأيها، ثمَّ إنها أمرت بتجهيز الهدايا، وذلك كله بحضور الهدهد، وهو يعقل ما يتفاوضون فيه[3].

***

عمدت بلقيس إلى خمسمائة جارية، وخمسمائة غلام، فألبست الجواري لباس الغلمان، الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان لباس الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب، وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمسمائة فرس، والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرسٍ لجام من ذهب مرصع

(1) من الجن، كان صدِّيقاً، يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل أعطى. جامع البيان 19: 466.

(2) الملوك المتوَّجة من حِمير: 166.

(3) جامع البيان 19: 451. والرسالة بصيغة أخرى في أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 146.

بالجواهر، غواشيها من الديباج الملون.

وبعثت إليه أيضاً خمسمائة لبنةً من ذهب، وخمسمائة لبنة من فضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع. وأرسلت إليه أيضاً المسك والعنبر والعود الالنجوج، وعمدت إلى حقة، فجعلت فيها درة يتيمة، غير مثقوبة، وخرزة جزعية، مثقوبة معرجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها، يقال له: المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجالاً من قومها، أصحاب رأي وعقل، وكتبت معه كتاباً بنسخة الهدية.

وقالت في الكتاب: إن كنت نبياً، فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبرنا بما في الحقة، قبل أن تفتحها، وأثقب الدرة ثقباً مستوياً، وأدخل خيطاً في الخرزة. وأمرت بلقيس الغلمان، فقالت لهم: إذا كلمكم سليمان، فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث، يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام، فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثمَّ قالت للرسول: انظر إلى الرجل، إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظرة غضب، فاعلم أنه ملك، ولا يهولنك منظره، فأنا أعز منه، وإن رأيته رجلاً بشاً لطيفاً، فاعلم أنه نبي مرسل، فتفهم قوله، ورد الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا.

***

فلمَّا رأى الهدهد ذلك، أقبل مسرعاً إلى سليمان، فأخبره الخبر كله، فأمر سليمان الجن أن يصنعوا لبناً من الذهب والفضة، ففعلوا ذلك، ثمَّ أمرهم أن يبسطوا له، من موضعه الذي هو فيه إلى تسع فراسخ، ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حيطاناً مشرفةً، من الذهب والفضة، ففعلوا، فقال لهم: أي الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر؟. فقالوا: يا نبي الله، إنا رأينا في بحر كذا دواب، مختلفةً ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواصٍ، فقال سليمان: علي بها الساعة، فأتوه بها، فقال: شدوها عن يمين الميدان، وعن يساره، وعلى لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوفة فيها.

ثم قال للجنِّ: علي بأولادكم. فاجتمع خلق كثير، فأقامهم فيها على يمين الميدان ويساره، ثمَّ قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه، ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر الإنس، فاصطفوا فراسخ، وأمر الوحوش والسباع والهوام والطيور، فاصطفوا فراسخ، عن يمينه ويساره. فلمَّا أقبل القوم، ودنوا من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها، تروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا.

فلمَّا جاءوا إلى الميدان، ورأوا الشياطين، نظروا إلى موضع عجيب، ففزعوا منهم، فقيل لهم: جوزوا فلا خوف عليكم، فكانوا يمرون على كردوسٍ كردوسٍ، من الجن والإنس والطير والسباع والوحوش، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق، وقال: ما وراءكم؟. فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا به، وأعطاه كتاب الملكة، فنظر فيه، قال: أين الحقة؟.

فأتي بها، فحركها، وجاءه جبرئيل، فأخبره بما في الحقة، فقال: إن فيها درة يتيمة، غير مثقوبة، وجزعة مثقوبة معوجة الثقب. فقال الرسول: صدقت، فاثقب الدرة، وادخل الخيط في الخرزة. فقال سليمان: من لي بثقبها؟. فسأل الإنس، فلم يكن عندهم علم ذلك، ثمَّ سأل الجن، فلم يكن عندهم علم ذلك، ثمَّ سأل الشياطين، فقالوا: ترسل إلى الأرضة.

فلمَّا أتت، أخذت شعرة في فيها، ومرت في الخرزة، حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: سلي حاجتك؟. فقالت: تصير رزقي في الشجر. فقال: لك ذاك. ثمَّ قال: من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط؟. فقالت دودة بيضاء: أنا لها، يا نبي الله. فأخذت الدودة الخيط في فيها، ودخلت الثقب، حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان: ما حاجتك؟. قالت: أن تصير رزقي في الفواكه. قال: لك ذاك.

ثم إنه ميَّز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية، تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثمَّ تجعله في اليد الأخرى، ثمَّ تضرب به على الوجه، والغلام كان يأخذه من الآنية بيده، ويضرب به وجهه، وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصب الماء صباً، وكان الغلام يحدر الماء على يده حدراً.

ثمَّ رد سليمان الهدية كلها، وقال: { أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ }، لإنكم أهل المفاخرة والمكاثرة في الدنيا، ولا تعرفون غير ذلك، وليست الدنيا من حاجتي؛ لأن الله سبحانه قد مكنني منها، وأعطاني فيها ما لم يعط أحداً، ومع ذاك، فالله سبحانه وتعالى أكرمني بالدين والنبوة والحكمة، ثمَّ قال للمنذر بن عمرو أمير القوم: { ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ } سورة النمل: 36 - 37. إن لم يأتوني مسلمين.

ولمَّا رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان، قالت: الله، ما هذا بملك، وما لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان: إني قادمة عليك بملوك قومي، حتى أنظر ما أمرك؟، وما تدعو إليه من دينك؟. ثمَّ أمرت بعرشها، فجعلته في سبعة أبياتٍ، بعضها داخل بعض، في آخر قصر من قصورها، ثمَّ أغلقت دونه الأبواب، ووكلت به حراساً يحفظونه، ثمَّ إنها قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي، فلا تخلص إليه أحد، ولا يراه حتى آتيك. ثمَّ إنها أمرت منادياً، ينادي في أهل مملكتها، ليؤذنهم بالرحيل، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيلٍ، من ملوك اليمن، تحت يد كل قيلٍ مائة ألف مقاتل[1].

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 280. وأرسلت له ستة آلاف غلام وفتاة، ولدوا في نفس السنة والشهر واليوم، وهم في نفس الطول والحجم، وكانوا جميعاً لابسين الأرجوان. جامع البيان 19: 456، 459. عن وهب بن مُنبِّه. والترجوم الثاني لإستير: 4. في القرآن والتاريخ: 183.

الصرح من قوارير

ثم إن سليمان، لمَّا بلغه أن بلقيس تريد أن تأتي إليه، أمر الجن والشياطين أن يعملوا صرحاً، كالبركة العظيمة العميقة، قدام مجلسه، ولا عبور لمجلسه إلا عليها، ويملؤها ماء، ويبنوها بالحجارة والرصاص والكلس والرخام، ثمَّ يجعلوا على الصرح، من فوق الماء، سطحاً من قوارير، زجاجاً صافياً على وجه الماء، ففعلت الجن والشياطين ذلك، وملئ الصرح، وكان سطحه ممرداً من قوارير، فإذا نظر إليه الناظر، ظن أنه لجة من الماء.

ثم إن بلقيس جمعت أموالها وكنوزها وجميع ما تملكه، وأخذته معها إلا عرشها، فإنها تركته، بعد أن أغلقت الأبواب عليه، وسارت، ومعها ملوك اليمن وساداتها، فعند ذلك قال سليمان: { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ }، قال سليمان: أريد أسرع من ذلك، فقال آصف بن برخيا[1]، وهو الذي عنده علم من الكتاب { أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ }، وكان يحفظ اسم الله الأعظم، { فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ }.

[وإنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها، يعاييها بذلك، كما فعلت هي بتوجيهها إليه الوصائف والوصفاء، ليميز بين الذكر والأنثى، فلمَّا جاءت بلقيس { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا }؛ لتخوضه إلى سليمان، فنظر سليمان، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنها كانت شعراء الساقين[2]، فلماً رأى سليمان ذلك، صرف بصره عنها وناداها { إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ }، وليس بماء، فلمَّا جلست قالت: يا سليمان، إني أريد أن أسألك عن شيء. قال: سلي. قالت: أسألك عن ماء، ليس من أرض، ولا من السماء.

وكان سليمان، إذا جاءه شيء لا يعلمه، سأل الإنس عنه، فإن كان عندهم علم ذلك، وإلا سأل الجن، فإن علموا، وإلا سأل الشياطين، فسأل الشياطين عن ذلك، فقالوا له: ما أهون ذلك!، أؤمر الخيل أن تجري، ثمَّ أملأ الآنية من عرقها. فقال لها سليمان: عرق الخيل، قالت: صدقت، ثمَّ قالت: أخبرني عن كون ربك؟. فوثب سليمان عن سريره، وخر ساجداً، وصعق، فقامت عنه، وتفرقت جنوده.

فجاءه جبريل، فقال: يا سليمان، يقول لك ربك: ما شأنك؟. قال: يا جبريل، ربي أعلم بما قالت، قال: فإن الله يأمرك أن تعود إلى سريرك، وترسل إليها، وإلى من حضرها من جنودك

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 168. وجامع البيان 19: 467.

(2) الترجوم الثاني لأستير: 4. في القرآن والتاريخ: 183.

وجنودها، فتسألها وتسألهم عما سألتك عنه، ففعل ذلك سليمان، فلمّا دخلوا عليه، واستقروا، قال لها: عماذا سألتني؟، قالت: سألتك عن ماء، ليس من أرض، ولا سماء، فأجبت، قال: وعن أي شيءٍ سألتني أيضاً؟. قالت: ما سألتك عن شيءٍ، إلا هذا، فسأل الجنود، فقالوا مثل قولها، وأنساهم الله تعالى ذلك، وكفى سليمان الجواب. ثمَّ إن سليمان دعاها إلى الإسلام، وكانت قد رأت حال الهدهد والهدية والرسل والعرش والصرح، فأجابت، { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } سورة النمل: 44].

وقال سليمان لبلقيس، لمّا أسلمت، وفرغ من أمرها: اختاري رجلاً من قومك أزوجك إياه. قالت: ومثلي يا نبي الله، ينكح الرجال، وقد كان لي في ملكي قومي من السلطان ما كان؟!. قال: نعم، إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك، ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لك. فقالت: زوجني، إن كان لا بد، من تبع الأكبر، ملك همدان، فزوجه إياها، ثمَّ ردها إلى اليمن، وسلط زوجها ذا تبع على اليمن، ودعا سليمان زوبعة أمير جن اليمن، فقال له: اعمل لذي تبع ما استعملك فيه.

فصنع لذي تبع المصانع باليمن، ثمَّ لم يزل بها ملكاً، يعمل له فيها ما أراد، حتى مات سليمان ابن داود. فلمّا أن حال الحول، وبلغ الجن موت سليمان، أقبل رجل منهم، فسلك تهامة، حتى إذا كان في جوف اليمن، صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن، إن سليمان نبي الله قد مات، فارفعوا أيديكم.

فعمدت الشياطين إلى حجرين عظيمين، فكتبوا فيها كتاباً بالمسند، يعني خط الحِميرية: نحن بنينا سلحين وبينون، وبنينا صرواح ومرواح وفنقون، وهنذة وهنيدة ودلوم. وهذه حصون كانت باليمن، عملتها الشياطين لذي تبع، ولولا صارخ بتهامة، لمّا رفعوا أيديهم،

فانطلقوا وتفرقوا، وانقضى ملك ذي تبع، وملك بلقيس، مع ملك سليمان[1].

القصر الذي بناه سليمان لبلقيس

قال وهب: بلغني أن سليمان كان قاعداً، ذات يوم، فقال للجن والشياطين: إني أحب أن تبنوا لبلقيس قصراً، يكون في نهاية الحسن، ولا تتركوا صورة جميلة إلا تبنونها فيه، فبنوا لها قصراً، ووضعوا فيه نخيلًا وأشجاراً وكروماً من الذهب، وأغصانها من الياقوت، وجعلوا فيه خدماً من الجن والإنس، فلما دخلت إليه بلقيس، بقيت متحيرة من عجائب ما رأت، ولم تجلس بلقيس على السرير، بعد إسلامها، ولم تلبس حريراً، ولم تتحل بالذهب، وكانت تقول: حسبي من الحسن والجمال توحيدي، وإسلامي لله رب العالمين، وتزويجي بنبي الله سليمان بن داود، ولم تجلس إلا مثل جلوس سليمان، ولم تأكل إلا مثل أكله، ولم تلبس إلا مثل لبسه، وولدت من سليمان ولداً، سمته رحبعيم.

وادي القردة

وبينما سليمان، ذات يوم، مع بلقيس إذ قال لها: أكل أهل اليمن، كانوا في طاعتك؟، قالت: نعم، غير وادٍ بأرض سبأ، كثير الأشجار والمياه، وهو طويل عريض، غلبت عليه القردة، وأزاحوا عنه سكانه، وهم في عدد، لا يحصون، وهم على دين اليهود، يعظمون يوم السبت، ولا يخرجون

(1) الملوك المتوَّجة من حِمير: 170 – 172. وقصص الأنبياء للثعلبي: 282. وأساطير اليهود، دار الكتاب 4: 148. قصص الأنبياء للثعلبي: 284. وليس في أساطير اليهود، دار الكتاب خبر زواجها بسليمان، ورواية الملوك المتوَّجة من حِمير والطبري، والثعلبي كلها عن وهب، فيبدو أن هناك أكثر من شكل للرواية عن وهب. وقصة سليمان والهدهد (ديك الغابة) وملكة قيطور، كيتور (سبأ) في الترجوم الثاني لإستير: 4. في القرآن والتاريخ: 181. وفي اليهودية والإسلام: 278.
وفي العهد القديم، سفر الملوك الأول 10: 1: 13. مجمل قصة ملكة سبأ، أورده هنا للكشف عن مديات المتخيل المقدس في تشعيب القصص، ولبيان إعادة الصياغة الإسلامية لأسطورة يهودية قديمة: «وسمعت ملكة سبا بخبر سليمان لمجد الرب، فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا، بجمال حاملةٍ أطيابًا وذهبًا كثيرًا جدا وحجارةً كريمةً. وأتت إلى سليمان وكلمته بكلّ ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكلّ كلامها. لم يكن أمر مخفيا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خدامه وملابسهم، وسقاته، ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب، لم يبق فيها روح بعد.
فقالت للملك: صحيحًا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي، فهوذا النصف لم أخبر به. زدت حكمةً وصلاحًا على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائمًا السامعين حكمتك. ليكن مباركًا الرب إلهك الذي سر بك وجعلك على كرسي إسرائيل. لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكًا، لتجري حكمًا وبرا.
وأعطت الملك مئةً وعشرين وزنة ذهبٍ وأطيابًا كثيرةً جدا وحجارةً كريمةً. لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة، الذي أعطته ملكة سبا للملك سليمان. وكذا سفن حيرام التي حملت ذهبًا من أوفير، أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرًا جدا وبحجارةٍ كريمةٍ.
فعمل سليمان خشب الصندل درابزينًا لبيت الرب وبيت الملك، وأعوادًا وربابًا للمغنين. لم يأت ولم ير مثل خشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم. وأعطى الملك سليمان لملكة سبا كل مشتهاها الذي طلبت، عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها». وهي في التلمود: 236 – 238.

فيه من منازلهم، فتعجب سليمان من ذلك، وأرسل العقاب؛ ليأتيه بخبره، ويعود إليه قبل أن يقوم من مقامه، فطار العقاب، فأشرف على الوادي، وتحقق مما فيه، وعاد إلى سليمان وأخبره بخبره، فركب سليمان في قبة القوارير، معه نفر من بين إسرائيل، حتى أشرف على الوادي فأمر الريح، فحطت بيساطه على شفير الوادي.

فلما رأته القردة، قال بعضهم لبعض: هذا نبي الله سليمان بن داود، الذي خضع له جميع الخلائق، فتعالوا نخضع له، وندخل في طاعته، ونسأله أن يقرنا في هذا الوادي، فتقدّموا إلى سليمان وسلموا عليه، وقالوا: يا نبي الله، نحن من اليهود الذين اعتدوا في السبت، فمسخنا قردةً، ونحن من نسلهم، وكانت المعصية مشؤومة علينا، ونحن على دين موسى بن عمران، نقوم بالسبت وسائر أحكام التوراة.

ولمَّا طُردنا من قريتنا، سكنا هذا الوادي، ونحن نسألك أن تقرنا فيه، وإن كنا نسمع من آبائنا وأجدادنا أنك نبي الله سليمان بن داود، وأنك تسخر لك الجن والإنس والوحوش والسباع، وتعلم منطق الطير، ويمنحك الله خاتم العز، وتبني بيت المقدس. فقال سليمان: إن في ذلك لآيةً لمن خاف عذاب الآخرة، ثمَّ كتب لهم سجلاً، بإقرارهم على الوادي، في لوح من نحاس، وألا يتعرض لهم أحد، ولا يخرجهم منه إلى آخر الدهر، وجعله في عنق كبيرهم، ثمَّ انصرف عنهم.

الساجد على الماء

وبينما سليمان يدور، في جزائر البحار، إذ نظر إلى رجلٍ ساجد، على أمواج البحر، وهو يقول: يا من اتَّخذ إبراهيم خليلاً، ووعد إسرائيل أن يخرج من ظهره، ملكاً رسولاً، اجمع بيني وبينه قبل فراق الدنيا، فألقت الريح كلامه في مسامع سليمان، فأمر سليمان الريح أن تدني البساط منه، ففعلت، فناداه: أيها الساجد على الماء، أقسمت عليك بالذي عرفك توحيده، وحملك على أمواج البحر، ألا ما رفعت رأسك، وكلمتني.

فرفع رأسه، وقال: من هذا الذي أقسم علي؟، قال: أنا سليمان، فقال الرجل: لبيك يا نبي الله، لقد كنت أسأل الله تعالى، أن يجمع بيني وبينك، وقد استجاب دعوتي، فله الحمد، ثمَّ صار أمام سليمان، وسلم عليه، وقال: يا نبي الله، إني على ما ترى من زمان يهوذا بن يعقوب، وإني رأيت في منامي أن وفاتي تكون يوم لقائك، فقال له سليمان: فمن أنت؟، قال: أنا خلوقيا، وكان أبي من أصحاب يهوذا، وإذا بملك الموت قد أقبل في صورة آدمي، حسن الوجه، فسلم عليهما، فردا السلام، وهما لا يعلمان من هو، ثمَّ دنا ملك الموت من الرجل، كأنه يسره في أذنه، فأصغى إليه، فقبض روحه، وأقبلت الملائكة، فجهزته.

فتعجَّب سليمان من قبض روحه، بغير نزاع، فأوحى الله تعالى إليه: أن هذا الرجل، إنما نال ذلك بالتوحيد الصادق، والرجاء الواسع، والحياء من الله، ثمَّ رفعه سليمان إلى دياره، وهو يتمنى أن يرى ملك الموت، ويتخذه صديقاً، فلم يشعر، إلا وملك الموت قد ظهر له، كأنه خرج من

تحت سريره، فقال له سليمان: من أنت؟، قال: أنا ملك الموت، فصعق سليمان، وغشي عليه، فقال ملك الموت: اللهم، إن سليمان تمنَّى رؤيتي، فلمَّا رآني جزع، وأنا أسألك أن تقويه على رؤيتي.

فأوحى الله تعالى إليه: أن ضع يدع على صدره، ففعل ذلك، فأفاق، وقال: يا ملك الموت، إن خلقك لعظيم، أفكل الملائكة مثلك؟، قال: يا نبي الله، إن رجلي الساعة، على منكبي ملكٍ، قد جاوزت قدماه الثرى، بمسيرة خمسمائة عام، وهو فاتح فاه، ولو أذن له أن يطبق شفتيه، لابتلع الأرض، ومن عليها، وملكٍ عنقه تحت العرش، ورجلاه قد جاوزت الثرى، بمسيرة ألف عام، وإن هذين الملكين، عند غيرهم من الملائكة، كجناح بعوضة، فقال سليمان: سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

ثم قال له ملك الموت: لو رأيتني في الصورة، التي أقبض فيها أرواح الكفار، لهالك ذلك، فقال سليمان: يا ملك الموت، أجئتني زائراً أم قابضاً؟، قال: بل زائر، فاستأنس به سليمان، وصار يأتيه في كل وقت، ثمَّ قال له سليمان: يا ملك الموت، إنك تأتي الدار، فتقبض روح كل من فيها، وتترك الدار خالية، فقال: يا نبي الله، ليس لي من الأمر شيء، وإنما هي صحائف، فيها أسماء، تلقى إلي، في ليلة النصف من شعبان، إلى مثلها من العام القابل، فيها أسماء المقبوضين في وقت انقطاع آجالهم، فأما أهل التوحيد، فأقبض أرواحهم، بيميني على حريرة بيضاء، مغموسة بالمسك، ثمَّ أرفعها إلى عليين، وأما أهل الكفر فأقبض أرواحهم، بشمالي على سرابيل من قطران، ثمَّ أرفعها إلى سجين.

الرجل المقبوض بالهند

قال وهب: إن ملك الموت نزل يوماً، على سليمان في صورة الآدميين، وفي مجلس سليمان رجل، من بني إسرائيل، فنظر ملك الموت إلى الرجل، حتى فزع منه فزعاً شديداً، حتى إذا خرج ملك الموت، أقبل الرجل على سليمان، وقال: يا نبي الله، إن الرجل الذي كان في مجلسك، أراه يحد نظره إلي، فقال: يا هذا، هو ملك الموت، فقال الرجل: يا نبي الله، أسألك أن تأمر الريح، فتحملني إلى أرض الهند.

فأمر الريح، فحملته إلى أرض الهند في ساعته، فقبض ملك الموت روح الرجل بأرض الهند، ودخل ملك الموت، بعد ذلك، على سليمان، فسلم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال له سليمان: يا ملك الموت، لقد كنت اليوم تحد النظر إلى ذلك الرجل، الذي كان في مجلسي، حتى خاف منك، فقال: يا نبي الله، إني كنت أمرت بقبض روحه، في موضع من أرض الهند، في وقت من هذا النهار، في هذا اليوم، فلمَّا رأيته عندك، نظرت إليه، وجعلت أتعجب متى يصل إلى أرض الهند، في هذا اليوم، فإذا الريح قد جاءت به، فقبضت روحه هناك كما أمرت، فتعجب سليمان من ذلك[1].

(1) مرآة الزمان 2: 239.

حديث الشياطين

ومن الشياطين طائفة، وجوههم في أقفيتهم، يخرج شرر النار من أفواههم، وهم يمشون على أربع، ولكلٍّ واحد رأسان: رأس بين كتفيه، ورأس عند ذنبه، وهم زرق العيون، خضر الوجوه، سود الأجسام، ومنهم من هو على صورة الأسد، يهمهم مثل همهمة الأسد، ومنهم من هو على صورة الكلاب، لهم نباح كنباح الكلاب، ومنهم من أرجلهم كأرجل الطير، وآذانهم في أوساطهم، ولهم نهيق كنهيق الحِمير، ومنهم من نصفه على صورة الكلب، ونصفه على صورة النسر، ولهم خراطيم كبار.

فجمعهم سليمان ذات يوم، ثمّ سألهم عن أفعالهم، فقال أحدهم: أنا المهر بن هفان، الذي حملني نوح معه، قال: فما عندك من الأعمال؟، قال: أنا الذي أخرجت عصير العنب، ونحن نازلون بأودية الهند، ونحن الذي نبين لبني آدم شرب الخمر والغناء، ونزين لهم جميع الملاهي، فأمر سليمان أن يصفدوا في الأغلال.

ثم نظر إلى آخر، كريه النظر، لونه كلون الدخان، قال له: من أنت؟، قال: أنا المهلهال صاحب السيف، وهو يقطر دماً من كلِّ شعرة من بدنه، وفي جنبه سيف معلق وسكين، وفي عنقه قلادة، فقال له سليمان، ما عملك؟، قال: ما يقطر، من أحد من الناس، قطرة دم، إلا وهي في هذه القلادة التي في عنقي، وهي من دم هابيل بن آدم، فأراد سليمان تصفيده، فقال له: لا تفعل، فإني أحشر إليك جبابرة الأرض، وأعطيك العهد ألا أفسد في مملكتك، فأخذ عليه العهد، وختم عنقه بخاتمه، وأطلقه.

الخيل ذوات الأجنحة

وقالت الشياطين لسليمان: يا نبي الله، إنا رأينا في الجزيرة الفلانية، خيلاً، لها أجنحة، تطير بها في الهواء[1]، فإن أذنت لنا، أتيناك منها بما نقدر عليه، فأذن لهم، ومعهم خمر، فجعلوه في حفائر تلك الجزيرة، وجاءت الخيل، فشربت منه، فسكرت، فنهضت عليها الشياطين، فوضعت اللجم في أفواهها، والسلاسل في أعناقها وركبتها، وساستها إلى أن أتت بها سليمان، فتعجب منها وجلس يستعرضها، حتى فاتته صلاة العصر، فأمر بردها، وضرب بالسيف سوقها وأعناقها، حتى عقر منها سبعمائة فرس[2].

حديث دهنان

كان لسليمانِ قناص، اسمه زكريا، وله ولد اسمه دهنان، كان من العباد، وله زوجة، تقوم

(1) لم يرد وصف خيل سليمان في القرآن الكريم بأن لها أجنحة، ولكنه موجود في الثقافة السائدة آنذاك، ففي سنن أبي داود 14 : 241 أن رسول الله ، رأى لعبة لعائشة، فسأله عنها، فقالت: فرس له جناحان، قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً، لها أجنحة.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 266.

على رأسه عند الطعام، وتقول: هتك الله ستر امرأة، تخون زوجها، فقدمت له، يوماً، سمكة مشويةً، ووقفت تقول مقالتها، فاضطربت السمكة، وسقطت عن المائدة، فردها إلى مكانها، وقال لها: قولي ما قلت، فقالت، فسقطت، فردها، فقام دهنان، ودخل على عابد من عباد بني إسرائيل، وذكر له ذلك، فقال: هل في بيتك من تتهمه بها؟، قال: ما في بيتي إلا جارية للخدمة، فقال: اذهب، واكشفها، فعاد دهنان إلى منزله وكشفها، فإذا هي رجل، فطلق المرأة، وباع الغلام، وأقسم ألا يتزوج أبداً.

حديث وفاة بلقيس

وأقامت بلقيس، عند سليمان، سبع سنين وسبعة أشهر، ثمَّ تُوفِّيت، فدفنها تحت حائط، بمدينة تدمر من أرض الشام، ولم يعلم أحد بموضع قبرها، إلى أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان[1].

المدينة التي في المشرق

وبينما سليمان، ذات يوم، جالس، إذ أخبرته الريح، بمدينة عظيمة في المشرق، حولها مدن كثيرة، وبها ملك جبار، من أولاد عاد الأولى، لا يعرف التوحيد، هو وأهل مملكته، وله مجلس مبني بالنحاس والحديد، فيه صورة كل الدنيا، وإن عدة من الملوك غزوه، فلم يقدروا عليه؛ لقوته وقوة أهل مملكته، فدعا سليمان عفريتاً، يقال له: فقطس، وسأله عن هذه المدينة، فقال: يا نبي الله، هذه مدينة أسسها شيث، وأسكنها أولاده، وهم يتوارثونها، وكانوا مؤمنين إلى زمن موسى بن عمران، فأغواهم إبليس، فهم يعبدون صنماً من زبرجد.

فقال له سليمان: سر إليها، واستعن بالعفاريت، واقتلعها وائتني بها، فقال: ادع لي، فدعا له، فذهب إليها واقتلعها وحملها على كاهله، حتى أوقفها على رأس سليمان، فأمر سليمان الريح، فأمالته، حتى أشرف عليها، فرآهم سود الوجوه، لهم شعور كأذناب الخيل، ولهم لغات يتكلَّمون بها مثل الخطاطيف، وأعينهم مثل أعين الحيتان، فكلمهم بلغتهم، وقال لهم: أين أنتم؟، قالوا: في مدينتنا، قال: صدقتم، ولكن مدينتكم مقتلعة، وبينكم وبين أرضكم مسيرة سنين، ثمَّ دعاهم إلى الطاعة، فأبوا، فسلط عليهم العفاريت، فأهلكهم، ثمَّ أمر أن ترد المدينة إلى مكانها، وأسكنها قوماً مؤمنين، فهم يتوارثونها إلى يوم القيامة.

حديث المدينة التي في المغرب

ثم أتاه جني عظيم، معه جماعة، فقال: يا نبي الله، إني مؤمن وأصحابي، وإني أخبرك بمدينة عظيمة بالمغرب، بناها شيث، وهي عجيبة، فسر إليها، فسار إليها على بساطه، حتى أشرف عليها، فإذا ملكها أعور أعرج، جالس فوق كرسي، وعلى يمينه صنم من ذهبٍ مرصعٍ بالجواهر،

---

(1) من ملوك الدولة الأموية في الشام، تُوفِّيَ سنة 96 هـ. الإعلام 1: 78.

فصاح به سليمان، وقال له: ويلك، ما تعبد؟، فأشار إلى الصنم، فقال: لم لا تعبد الله، وتشهد أني رسول الله؟، فقال: إن كنت صادقاً، فادع الله أن يرد عيني ورجلي، فدعا له سليمان، فعافاه الله تعالى وآمن بالله، وهو وقومه، وانصرف عنه سليمان، حتى بلغ السد الذي هو قريب من جبل قاف، ثمَّ سأل الريح: ما وراء هذا؟، فقالت: علم الله تعالى.

حديث اللؤلؤتين

ثم إن سليمان قال لعفاريته: هل تعرفون لؤلؤتين: صفراء وبيضاء، بقدر سبعين ميلاً، في عرض مثل ذلك؟، فقالوا: ما سمعنا بذلك، أفي بحر الدنيا هما؟، قال: نعم، في البحر المحيط بالعالم الأعظم، وأمر الغواصين، وكانوا لا يفارقونه في سفر ولا في حضر، أن يغوصوا في اللجة الخَضِراء في البحر الأعظم، وكان عددهم سبعين شيطاناً، فاعترضتهم ملائكة البحر.

فقالت الشياطين: نحن أعوان نبي الله سليمان بن داود، أمرنا بإخراج اللؤلؤتين من هذا الموضع، فتركوهم، فلمَّا غاصوا، أخرجوا اللؤلؤتين، وأمر سليمان الشياطين، فبنوا هناك قبة عظيمة، ووضع إحدى اللؤلؤتين على رأس القبة، وعلق على القبة قناديل من الجواهر، وجعل لها أبواباً من الذهب، وبنى حول القبة، بيوتاً، وأسكنها صالحي بني إسرائيل، فهم يتوارثونها، ثمَّ مضى سليمان إلى المغرب، وبنى هناك قبة أخرى، ووضع اللؤلؤة الثانية على رأسها، وبنى حول القبة مساكن، أسكنها كثيراً من صالحي بني إسرائيل.

القبة

وبينما سليمان على ساحل البحر، والريح من تحته، والإنس عن يمينه، والجن عن شماله، والطير تظله، إذ نظر إلى عظم أمواج البحر، فدعته نفسه أن يعلم ما في قعر البحر، فأمر الريح، فسكنت تحته، ثمَّ قعد على كرسي ملكه، ثمَّ دا رأس الغواصين، فقال له: اختر لي من أصحابك مائة رجل، فاختار له مائة رجل، فقال له: اختر لي من المائة ثلاثين، فاختار له ثلاثين، فقال له: اختر لي من الثلاثين عشرة، فاختار له عشرة، فقال: اختر لي من العشرة ثلاثة، فقال لواحدٍ منهم: غص حتى تنظر إلى قعر البحر، وتأتيني بالخبر. فقال له: سمعاً وطاعةً لك يا نبي الله.

فغاص في البحر، وابعد ثمَّ خرج، فقال له سليمان: ما الذي رأيت؟. قال يا نبي الله، ما رأيت إلا أمواجاً وحيتاناً، غير أني رأيت ملكاً عظيماً، فقال: أين تريد؟. فقلت له: إن نبي الله سليمان أرسلني انظر له قعر هذا البحر. فقال: ارجع إليه، فاقرأ عليه مني السلام، وقل له: إن قوماً ركبوا هذا البحر منذ أربعين عاماً، فعاب عليهم مركبهم، فخرجوا يصلحونه، فسقط من أحدهم قدوم، فهو يتجلجل في البحر، ولم يبلغ قعره بعد، فرجع إليه وأخبره بالخبر، فتعجب نبي الله سليمان من ذلك، ولها عما كان يقصد إليه.

فبينما هو على شاطئ البحر، إذ رأى قبةً من زجاج، تضربها الأمواج في لجة البحر، فعارضها، وقال للغواصين: غوصوا في إثرها. فغاصوا، فأخرجوها، فلمَّا وضعت القبة على ساحل البحر،

انفتح لها بابان بمصراعين، وخرج من القبة شاب، عليه ثياب، أبيض من اللبن، وكأن رأسه يقطر ماءً، فجاء حتى وقف بين يدي سليمان، فقال له سليمان: يا فتى، من الجن أنت أم من الإنس؟. قال: بل من الإنس.

قال: فتعجَّب منه ومن زيِّه، ثمَّ قال له: ما بلغ منك ما أرى؟. فقال: يا نبي الله، كانت لي والدة، وكنت من أبر الناس بها، أطعمها وأسقيها بيدي، ولا أترك شيئاً من صنائع البر إلا صنعته بها، فلمَّا حضرتها الوفاة، سألتها أن تدعو لي، فرفعت رأسها إلى السماء، وقالت: يا رب، قد عرفت بر ولدي بي، فارزقه العبادة في موضع، لا يكون لإبليس وجنوده عليه سبيل. ثمَّ ماتت فدفنتها، فخرجت يوماً إلى ساحل البحر، فإذا أنا بهذه القبة، فدعتني نفسي أن أدخلها، فلمَّا دخلتها، انطبقت علي أبوابها، وتزاخرت الأمواج بها، وكان هذا آخر عهدي، يا نبي الله.

فقال له سليمان: فمن أيم مطعمك ومشربك؟. فقال: يا نبي الله، إذا كان الليل، جاءني طير أبيض، في منقاره شيء أبيض، فيدفعه إلي، فآكلها، فهو يقوتني من الطعام والشراب. فقال له سليمان: فمن أين تعرف الليل والنهار، وأنت في ظلمة هذا البحر؟. فقال: يا نبي الله، في القبة خيطان: خيط أبيض، وخيط اسود، فإذا رأيت الخيط الأبيض زائداً، علمت أنه النهار، وإذا رأيت الخيط الأسود زائداً، علمت أنه الليل. فقال له سليمان: هل لك في صحبتنا رغبة؟. قال: لا، يا نبي الله، إن تشأ تأذن لي أن أعود إلى قبتي. فأذن له سليمان، فانطلق ودخلها، وانطبق عليه بابها، وتزاخرت به الأمواج، فكان آخر العهد به(1).

التنين

ثمَّ إن سليمان أمر الريح، فحملته، فنظر إلى التنين المحدق بالعالم، فجعل يسير أياماً، على طرف من أطرافه، فإذا هو بملك، فقال له: يا ابن داود، ألم تعلم أنه محيط بهذا العالم، الذي هو مسيرة خمسمائة عام، يا ابن داود، إنك لو سمعت صرير لسان هذا التنين، لطار فؤادك، ولو أنك وضعت الدنيا في فيه، لكانت كالخردلة في فلاة. فعند ذلك، أمر سليمان الريح أن ترد بساطه إلى مستقر الغمام، فسار هنالك، حتى نظر إلى ملائكةٍ، يخرج من أفواههم النور الساطع، يسبِّحون الله، ويقدِّسونه، ولا يفترون، ثمَّ نظر إلى مجمع القطر من السحاب، فإذا هو لا يقطر قطرة، إلا بإذن الله تعالى، ثمَّ نزل من هناك، بجنوده إلى مسكن الليل والنهار، فإذا هو بملك الموت، وهو يقول: اللهم، اعط كل منفق خلفاً، وكل ممسك تلفاً، ثمَّ أمر الريح أن تحط ببساطه إلى الأرض المقدسة.

***

وقال سليمان: يا رب، أرني السمكة التي عليها قرار الأرضين، فأوحى الله أن سر إلى مجمع البحار، فأمر الله، دابةً من دواب البحار، فأخرجت وسطها، فجعلت تخرج وسطها ثلاثة أشهرٍ

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 269.

الليل مع النهار، لا تفتر ساعةً، فقال سليمان بعد ثلاثة أشهرٍ: يا رب، أما آن لها أن يخرج رأسها أو ذنبها؟ فأوحى الله إليه: يا سليمان، لو أنها أخرجت إلى السنة المقبلة ليلها ونهارها على نحو ما رأيتها، ما أخرجت رأسها ولا ذنبها من البحر، وهل تدري يا سليمان كم رزق هذه السمكة التي عليها قرار الأرضين؟ قال: لا. قال: إن غداءها سبعون ألف سمكةٍ مثل هذه، وعشاءها سبعون ألف سمكةٍ مثل هذه، ما فارقها رزقها طرفة عينٍ، فارجع يا سليمان، فإنك لا تطيق أن ترى هذه، فكيف تطيق أن تنظر إلى السمكة التي عليها قرار الأرضين؟ فقال سليمان: لا سلطان إلا سلطانك، ولا ملك إلا ملكك(1).

سليمان والنبطي

قال وهب: حبس سليمان نبطياً من أهل دستميسان وقيده. فجاء أهل السجن يشكونه، فدعا به وقال: ويلك، أما يشغلك ما أنت فيه من ضيق المجلس، وثقل الحديد حتى يشكوك الناس؟!. فقال: لا أعود، يا نبي الله.

فقال: زيدوه قيداً وردوه. ففعلوا ذلك، فعاود أهل السجن يشكونه، فدعا به وقال له مثل قوله الأول، فقال: لا أعود. فقال: زيدوه قيداً آخر وردوه. ففعلوا، فلم يقم إلا يوماً حتى عاد أهل السجن يشكونه، فأحضره، وقال له مثل قوله الأول وزاده قيداً، فلم يكفه ذلك، وعادوا فشكوه.

فلمّا شكوه الرابعة، نقله عنهم إلى سجن الجن، فجاء الجن يضجون منه ويشكونه، فدعا به وأمر بضربه، فضرب وزاده قيداً آخر، فشكوه ثلاثاً في كل ذلك يزيدونه قيداً، فلمّا كان في الرابعة، قال لهم: ما الذي يصنع بكم حتى ضججتم منه؟. فقالوا: يا نبي الله، أعظم ما نشكو منه السعاية والنميمة، قد تقاتلنا على يده. فأخرجه عنهم، ودعا بصخر المارد، وكان ينقل الصخر من فارس إلى الشام، فقال له: يا صخر، اكفني مؤونة هذا النبطي، وليكن معك في سلسلة. ففعل ذلك.

فبينا سليمان في بعض مواكبه، وقد حملته الريح، إذ عارضه صخر في الهواء والنبطي معه في سلسلة، وصخر يستغيث إلى سليمان، ويستوقفه، فأمر سليمان الريح، فركدت ودعا به، فسأله عن شأنه، فقال: يا نبي الله، اعفني من هذا النبطي، واقرن معي مائة عفريت في موضعه. قال: وما الذي يصنع بك؟. قال: يا نبي الله، يدعني حتى إذا حملت الصخرة على رأسي، استقدم في سلسلتي، ولفها على صدره، ثمَّ جذبني وطرح نفسه على وجهه، فأقع على وجهي، وتقع الصخرة على عنقي وظهري، فأقول له: ما شأنك؟. فيقول: أثرت، ويريد عثرت.

ثم أقوم، فأجعلها على رأسي، وأقول له: تأخر، فكن من ورائي حتى لا تعثر. فيفعل، ثمَّ يقبض على الطوق الذي في عنقه ويستعقده، فيطرحني على ظهري، وتقع الصخرة على جنبي، فأقول: ويلك؟، ماذا دهاك؟!. فيقول: أنت شيطان من الشيوط، ونهن لا تلهق بك. يريد: أنت

(1) العظمة 4: 1394.

شيطان من الشيطان، ونحن لا نلحق بك. فضحك سليمان، ثمَّ قال: قد جعلتك يا نبطي، عريفاً على الجن النقالة، فخذهم بالجد، واستعجلهم في الحمل. فمضى لذلك.

فقال له الجن: إن بيننا وبينك رحماً ماسة، فانظر لنا في ولايتك. قال لهم: وأي رحم بيننا وأنتم من الجن، وأنا من الإنس؟. قالوا: إن هاهنا امتزاجا آخر، لا تعرفه. قال: وما هو؟. قالوا: إنه لمَّا ملك سليمان، أتته ملكة دستميسان، فسألته أن يوجه معها شيطانين، يبنيان لها قصراً من وقت طلوع الشمس إلى الظهر، ففعل ذلك، ووجه معها شيطانين، يقال لأحدهما: أكي. فبنياه لها إلى قبل الظهر.

فلمَّا فرغا منه، قالا لها: أشغلينا في عمل آخر إلى الليل، فإنا لا نجسر أن نرجع إلى سليمان. قالت: ما لي عمل، قد فرغتما من عملي الذي أردت. قالا: فإنا نهدم القصر ونتشاغل بذلك إلى آخر النهار، فتحتاجين أن ترجعي إلى سليمان، فتعيدي عليه المسألة.

فلمَّا رأت الجد منهما دفعت إلى أحدهما مسحاً أسود، وقالت: اغسله حتى يبيض. وقالت للآخر: تعال حتى أشغلك في عمل آخر. واستلقت على قفاها، وكشفت عن فرجها، وقالت: رش على هذا الجرح ماءً، وروحه حتى يلتحم. وكان الذي فعلت به هذا يسمى أكي. فلمَّا روحها ساعة، ورآه لا يلتحم، دعته نفسه إلى مواقعتها، ففعل وأحبلها فولدت الشيصبان وتالي وداقويه، وهم بنو عمك وأقرباؤك، فلينفعنا هذا عندك.

فقال النبطي: هذه، لعمري، رحم ماسة، وهي في رعاية وحفاظ، ولن أدع القيام بشأنكم، فما الذي تشكون؟. قالوا: ما نحن فيه من التعب، ونقل هذا الصخر من فارس إلى الشام. قال: أو ليس إنما تنقلونه ذاهبين، فتستريحون راجعين؟. قالوا: بلى. قال: فهذا نصف الطريق.

فتركهم، وانطلق إلى سليمان، فقال: يا نبي الله، أتظن أنك قد شغلت هؤلاء الجن الذين ينقلون الصخر، وكففتهم عن التولع ببني آدم؟. قال: نعم. قال: فاعلم أنهم يرجعون فرغاً، يعبثون بالناس في طريقهم، ويؤذونهم. قال: فما ينبغي أن أصنع بهم؟. قال: تحملهم الصخر من فارس إلى الشام، لبناء بيت المقدس، ويحملون من الشام إلى فارس المرمر، فيبنى لك به ما تريد، وتكفهم عن أذى الناس. ففعل بهم ذلك.

فقالوا للنبطي: ويحك، زدتنا تعباً على تعبنا، وقد رجونا أن تخفف عنا. قال: أو ليس عملكم إنما هو بالنهار، وبالليل أنتم مستريحون؟. قالوا: بلى. قال: فإنما تعملون نصف الدهر، ونصفه تبطلون.

ثم انطلق إلى سليمان، فقال: يا نبي الله، اعلم أن هؤلاء الجن النقالة يعملون نهارهم، فإذا كان الليل، عرجوا إلى السماء، واسترقوا السمع، وأتوا الكهان فخبروهم بذلك، وعبثوا بالناس والبهائم. قال: فما الحل؟. قال: تبني حول مدينتك هذه ،أركاناً معلقة على عددهم، فإذا فرغوا من عملهم نهاراً، أمرتهم فصعدوا ليلهم إلى هذه الأركان، وتأمرهم بالتسبيح والتهليل إلى

الصباح، فيكون لك ثواب ذلك، ومن فقدت صوته منهم، عذبته، فإنك تعرف أصواتهم، ولا يخفى عليك شيء منها.

ففعل ذلك بهم، فشكوا إلى إبليس ما قد حل بهم، فقال: ليس وراء هذه الشدَّة شيء، فتوقعوا الآن الفرج. فلم تمض إلا أيام يسيرة، حتى مات سليمان[1].

ابنة ملك صيدون

سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر، يقال لها صيدون، بها ملك عظيم السلطان، لم يكن للناس اليه سبيل، لمكانه في البحر، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً، لا يمتنع منه شيء، في بر ولا بحر، إنما يركب إليه، إذا ركب على الريح.

فخرج إلى تلك المدينة، تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستفاء ما فيها، وأصاب فيما أصاب ابنة لذلك الملك، لم ير مثلها حسناً وجمالاً، فاصطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت على جفاء منها، وقلة ثقة، وأحبها حباً، لم يحبه شيئاً من نسائه، ووقعت نفسه عليها، فكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها، ولا يرقأ دمعها، فقال لها، لَمَّا رأى ما بها، وهو يشق عليه من ذلك ما يرى: ويحك، ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ؟!.

قالت: إنه أبي أذكره، وأذكر ملكه، وما كان فيه وما أصابه، فيحزنني ذلك. قال: فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه، وسلطاناً هو أعظم من سلطانه، وهداك للإسلام، وهو خير من ذلك كله. قالت: إن ذلك لكذلك، ولكني إذا ذكرته، أصابني ما قد ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين، فصوروا صورة أبي في داري التي أنا فيها، أراها بكرة وعشياً، لرجوت أن يذهب ذلك حزني، وأن يسلي عني بعض ما أجد في نفسي.

فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثلوا لها صوره أبيها في دارها، حتى ما تنكر منه شيئاً. فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها في نفسه، إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه، حين صنعوه لها، فأزرته وقمصته وعممته، وردته بمثل ثيابه التي كان يلبس، مثل ما كان يكون فيه، من هيئة، ثمَّ كانت، إذا خرج سليمان من دارها، تغدو عليه في ولائدها، حتى تسجد له ويسجدن له، كما كانت تصنع به في ملكه، وتروح كل عشية بمثل ذلك، لا يعلم سليمان بشيء من ذلك أربعين صباحاً.

وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقاً، وكان لا يرد عن أبواب سليمان، أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل، حاضراً كان سليمان، أو غائبا، فأتاه فقال: يا نبي الله، كبرت سني، ودق عظمي، ونفد عمري، وقد حان مني الذهاب، وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت، أذكر فيه من مضى من أنبياء الله، وأثني عليهم بعلمي فيهم، وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون، من

(1) البلدان لابن الفقيه: 274.

كثير من أمورهم، فقال: افعل.

فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيباً، فذكر من مضى من أنبياء الله، فأثنى على كل نبي بما فيه، وذكر ما فضله الله به، حتى انتهى الى سليمان وذكره، فقال: ما كان احلمك في صغرك، وأورعك في صغرك، وأفضلك في صغرك، وأحكم أمرك في صغرك، وأبعدك من كلّ ما يكره في صغرك!. ثمّ انصرف، فوجد سليمان في نفسه حتى ملأه غضباً.

فلمّا دخل سليمان داره، أرسل إليه، فقال: يا آصف، ذكرت من مضى من أنبياء الله، فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم، وعلى كل حال من أمرهم، فلمّا ذكرتني، جعلت تثني علي بخير في صغري، وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري، فما الذي أحدثت في آخر أمري؟. قال: إن غير الله ليعبد في داركن منذ أربعين صباحاً، في هوى امرأة، فقال: في داري؟!. فقال: في دارك. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون!، لقد عرفت أنك ما قلت إلا عن شيء بلغك.

ثم رجع سليمان إلى داره، فكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها، ثمّ أمر بثياب الطهرة فأتي بها، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار، ولا ينسجها الا الأبكار، ولا يغسلها إلا الأبكار، ولا تمسها امرأة، قد رأت الدم، فلبسها ثمّ خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برمادٍ، ففرش له، ثمّ أقبل تائباً إلى الله، حتى جلس على ذلك الرماد، فتمعك فيه بثيابه؛ تذللاً لله وتضرعاً إليه، يبكي ويدعو، ويستغفر مما كان في داره، ويقول فيما يقول، فيما ذكر لي والله أعلم: رب، ماذا ببلائك عند آل داود أن يعبدوا غيرك، وأن يقروا في دورهم وأهاليهم عبادة غيرك؟!.

***

فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى، يبكي إلى الله ويتضرع إليه ويستغفره، ثمّ رجع إلى داره، وكانت أم ولد له، يقال لها: الأمينة. كان إذا دخل مذهبه، أو أراد إصابة امرأة من نسائه، وضع خاتمه عندها حتى يتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر، وكان ملكه في خاتمه، فوضعه يوماً من تلك الأيام عندها، كما كان يضعه ثمّ دخل مذهبه.

وأتاها الشيطان صاحب البحر، وكان اسمه صخراً، في صورة سليمان، لا تنكر منه شيئاً، فقال: خاتمي، يا أمينة. فناولته إياه، فجعله في يده، ثمّ خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سليمان، فأتى الأمينة، وقد تغيرت حالته وهيئته عند كل من رآه، فقال: يا أمينة، خاتمي. فقالت: ومن أنت؟. قال: أنا سليمان بن داود. فقالت: كذبت، لست بسليمان بن داود، وقد جاء سليمان فأخذ خاتمه، وهو ذاك جالس على سريره في ملكه. فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته.

فخرج، فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل، فيقول: أنا سليمان بن داود، فيحثون عليه التراب ويسبونه، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون، أي شيء يقول؟!، يزعم أنه سليمان بن داود. فلمّا رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق،

فيعطونه كل يوم سمكتين، فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة، وشوى الأخرى، فأكلها، فمكث بذلك أربعين صباحاً، عدة ما عبد ذلك الوثن في داره.

فأنكر آصف بن برخيا، وعظماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين صباحاً، فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل، هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت؟!. قالوا: نعم. قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه، فأسألهن: هل أنكرن منه في خاصة أمره، ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته؟. فدخل على نسائه فقال: ويحكن، هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا؟. فقلن: أشده ما يدع امرأة منا في دمها، ولا يغتسل من جنابة. فقال: إنا لله وإنا اليه راجعون!، ان هذا لهو البلاء المبين. ثمَّ خرج إلى بني إسرائيل، فقال: ما في الخاصة أعظم مما في العامة.

فلمّا مضى أربعون صباحاً، طار الشيطان عن مجلسه، ثمَّ مرَّ بالبحر، فقذف الخاتم فيه، فبلعته سمكة، وبصر بعض الصيادين، فأخذها، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك، حتى إذا كان العشي، أعطاه سمكتيه، فأعطى السمكة التي أخذت الخاتم، ثمَّ خرج سليمان بسمكتيه، فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة، ثمَّ عمد إلى السمكة الأخرى، فبقرها ليشويها، فاستقبله خاتمه في جوفها.

فأخذه فجعله في يده، ووقع ساجداً لله، وعكف عليه الطير والجن، وأقبل عليه الناس، وعرف أن الذي دخل عليه لمّا كان أحدث في داره، فرجع إلى ملكه، وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين فقال: ائتوني به، فطلبته له الشياطين حتى أخذوه، فأتى به، فجاب له صخرة، فأدخله

فيها، ثمَّ سد عليه بأخرى، ثمَّ أوثقها بالحديد والرصاص، ثمَّ أمر به فقذف في البحر[1].

وفاة سليمان

كان سليمان، على طول سفره، يرى شخصاً أمامه، يسبق كل شيء، فقال له: أيها الشخص، من أنت؟ فإني أراك تسبق الريح، قال: أنا ملك الموت، المفرق للشمل، فتغير لون سليمان، ووقعت عليه الرعدة، ولم يكن التغير بادياً عليه، حتى عاد إلى منزله، فلمّا دخل الناس عليه، رأوه متغير الوجه، مهموم القلب، فقالوا: يا نبي الله، ما حالك؟، وما قصتك؟، فإنا لم نرك هكذا، فقال: تعرض لي، في سفري هذا، ملك الموت، فالذي بي من التغير منه، وإن كان قد أتى إلي، وانصرف عني، فلا بد أن يعود، وهذا ابني رحبعيم جعلته خليفة عليكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: السمع والطاعة.

ولما رأى الشياطين استخلافه ابنه، فرحوا وعلموا أنه، إذا مات، استراحوا من التعب والنصب، وأخذ سليمان في الصوم والصلاة والعبادة، حتى وكل بنفسه طائراً، يوقظه، كي لا ينام، وكانت الطيور تتناوب عليه، وكان سليمان يحاكي، في تلاوة زبوره، شيئاً من نغمة أبيه داود، وكانت أمه جالسةً وراء المحراب، فكان يتلو الزبور، فيبلغ ذكر النار، فيغشى عليه، فكانت أمه تنضح الماء على وجهه، فيفيق، فلمّا ضعف على العبادة، توكأ على عصاه، من شدَّة ضعفه.

فبينما هو في محرابه قائماً متوكئاً، إذ أتاه ملك الموت، من فوق رأسه، فرفع رأسه، فقال ملك الموت: يا ابن داود، خذ هذه الشمة الطيبة، فشمها، فخرجت روحه فيها، فأخذتها الملائكة، ورفعتها إلى عليين، وبقي سليمان ميتاً قائماً على عصاه، لا يميل، ولا يتحرك، فلمّا نظروا إليه، على

---

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 449. قصص الأنبياء للثعلبي: 286. قصص الأنبياء للكسائي: 629. تاريخ دمشق 22: 247. تاريخ الخميس 1: 252. وفي أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 166 باختصار.
ويذكر العهد القديم صراحة أن سليمان انحرف في أواخر أيامه، عن طريق الرب، وعمل الشر في عينيه، وكان سبب ذلك تعدد الزوجات لأغراض سياسية، وقد سمح سليمان للكثيرات منهم بأن يعبدن آلهتهن، فغضب الرب عليه. دائرة المعارف الكتابية 4: 427.
وفي العهد القديم، سفر الملوك الأول 11: 1 – 12. «أحب الملك سليمان نساءً غريبةً كثيرةً مع بنت فرعون: موآبياتٍ وعمونياتٍ وأدومياتٍ وصيدونياتٍ وحثياتٍ من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: «لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مئةٍ من النساء السيدات، وثلاث مئةٍ من السراري، فأمالت نساؤه قلبه.
وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهةٍ أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. ذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه. حينئذٍ بنى سليمان مرتفعةً لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن.
فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهةً أخرى، فلم يحفظ ما أوصي به الرب. فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك».

تلك الحالة، أهابوه، وقالوا: إنه لم يمت، وإنه لحي، وخافوا أن يمسوه. ولم تزل الإنس والجن والشياطين والطير في الطاعة، حتى مضت سنة.

فلمّا كان بعد ذلك، وقعت الأرضة إلى أسفل العصا، فذلك قوله: { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ } يعني عصاه، فخر سليمان كالخشبة اليابسة، فأقبل رحبعيم بن سليمان، مع علماء بني إسرائيل، فنظروا إليه، وعرفوا موته، وكانت الجن تدعي علم الغيب، { فَلَمَّا خَرَّ } يعني سليمان { تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } سورة سبأ: 14.

وعاش سليمان ستين سنة، وكان في ملكه ونبوته أربعين سنة[1]، وبقي متوكئاً على عصاه سنةً، وتفرقت بنو إسرائيل من بعده، ثلاث فرق، فرقة كفروا واتبعوا السحرة، وفرقة اعتزلوا، وقالوا: لا نطيق بعده أحداً، وفرقة اتبعوا رحبعيم.

(1) «وكانت الأيام التي ملك فيها سليمان في أورشليم على كل إسرائيل أربعين سنةً. ثمَّ اضطجع سليمان مع آبائه ودفن في مدينة داود أبيه، وملك رحبعام ابنه عوضًا عنه». العهد القديم، سفر الملوك الأول 11: 42 - 43. وقد انقسمت إسرائيل بعد سليمان إلى مملكتين، هما مملكة يهوذا، وملوكها: رحبعام، وأبيام، وآسا، ويهوشافاط، ويهورام، وأخزيا، وعثليا، ويوآش، وأمصيا، وعزيا، ويوثام، وآحاز، وحزقيا، ومنسى، وآمون، ويوشيا، ويهوأحاز، ويهوياقيم، ويهوياكين، وصدقيا. ومملكة إسرائيل، أو الشمال وملوكها يربعام، وعمري، وأخآب، وهوشع. دائرة المعارف الكتابية 8: 315، 247. ولم تأت قصص هؤلاء في كتب الثقافة الإسلامية، ومنها كتاب وهب، على ذكر هؤلاء كلهم، ولا على الترتيب نفسه.

رحبعيم وأبيا وأسا

ثم ملك من بعد سليمان، ابن يقال له: رحبعم[1]، وكان قد استخلفه، فنبأه الله تعالى، وكان نبياً، ولم يكن رسولاً، ثمَّ قبض، وكان ملكه سبع عشرة سنة، ثمَّ ملكهم بعده ابنه أبيا بن رحبعم، وكان ملكه ثلاثاً وستين سنة[2]، ثمَّ ملك بعده ابنه أسا بن أبيا، وكان رجلًا صالحاً، وكان أعرج، يعتريه عرق النسا، فطمع فيه الملوك لضعفه[3].

وافترقت ملوك بني إسرائيل، فغزاهم ملك من ملوك الهند، يقال له: رزح[4] الهند، في جمع كثير، وقبيلة كبيرة، فبعث الله تعالى عليهم ملائكةً، فهزموهم، فقصدوا البحر، حتى إذا ركبوه جميعاً، بعث الله تعالى عليهم الرياح والأمواج، فضربت سفنهم في بعضها، فتكسرت، وغرق رزح الهند، ومن كان معه، واضطربت الأمواج حتى ألقت أثقالهم وأموالهم وسلبهم إلى محلة بني إسرائيل، ونودوا: أن خذوا ما غنمكم الله تعالى، وكونوا له من الشاكرين.

ثم لم تزل تغزوهم الملوك، ملكاً بعد ملكٍ، من ملوك العراق وغيرهم، فيهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد، وفشت فيهم المعاصي، وعبد بعض ملوك بني إسرائيل الأصنام، من دون الله تعالى، فغضب الله عليهم بكفرهم ومعصيتهم، وسلط عليهم بختنصر[5].

(1) رحبعام بن سليمان من زوجته نعمة العمونية، وانقسمت المملكة في زمنه إلى مملكتي يهوذا، ومملكة إسرائيل، حيث انتشرت فيها عبادة الأوثان، وفي السنة الخامسة من ملكه، غزا ملك مصر مملكته، واستولى على المدن الحصينة، ونهب الهيكل والقصر الملكي، كانت له ثماني عشرة زوجة، وستون سرية، ملك سبع عشرة سنة، وخلفه ابنه أبيا. قاموس الكتاب المقدس: رحبعام. قصة حكمه في العهد القديم، سفر الملوك الأول 12: 1 - 14.

(2) في تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: 72. أبيا، وفي تاريخ الرسل والملوك 1: 304. وهو أبيام أو أبيا بن رحبعام، من ملوك مملكة إسرائيل، تولى الحكم بعد أبيه ثلاث سنين، وقد عمل جميع خطايا أبيه. العهد القديم، سفر الملوك الأول 14: 31، 15: 1 - 2. ومعنى أبيام أبو اليم (البحر)، أو أبو الغرب، كما سماه أبوه، أملاً باسترداد مملكة داود وسليمان، فكان الاسم موضع سخرية، فتغير الاسم إلى أبيا، بمعنى أبي يهوه. دائرة المعارف الكتابية 1: 62.

(3) أسا بن أبيا، تاريخ الرسل والملوك 1: 304، وقد ملك آسا على مملكة يهوذا إحدى وأربعين سنة، وكان مستقيماً في عيني الرب. العهد القديم، سفر الملوك الأول 15: 9 - 11. معنى الاسم في العبرية المؤآسي أو الطبيب. وقد نزع من الهيكل، جميع الأصنام التي عملها رحبعام وأبيا، وأعاد الأقداس له. دائرة المعارف الكتابية 1: 10.

(4) تاريخ الرسل والملوك 1: 517. والقصة فيه.

(5) قصص الأنبياء للثعلبي: 289.

زرح ملك الهند

قال وهب: إن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل يقال له أسا بن أبيا، كان رجلاً صالحاً، وكان أعرج، وكان ملك من ملوك الهند يقال له زرح[1]، وكان ملكا جبارا فاسقا يدعو الناس إلى عبادته، وكان أبيا عابد أصنام، له صنمان يعبدهما من دون الله، ويدعو الناس إلى عبادتهما، حتى أضل عامة بني إسرائيل، وكان يعبد الأصنام حتى تُوفِّي ثمَّ ملك ابنه أسا من بعده.

فلمّا ملكهم بعث فيهم مناديا ينادي: ألا إن الكفر قد مات وأهله، وعاش الإيمان وأهله، وانتكست الأصنام وعبادتها، وظهرت طاعة الله وأعمالها، فليس كافر من بني إسرائيل يطّلع رأسه بعد اليوم بكفر في ولايتي ودهري، إلا أني قاتله فإن الطوفان لم يغرق الدنيا وأهلها، ولم يخسف بالقرى، ولم تمطر الحجارة والنار من السماء إلا بترك طاعة الله، وإظهار معصيته، فمن أجل ذلك ينبغي لنا ألا نقر لله معصية يعمل بها، ولا نترك طاعة لله إلا أظهرناها جهدنا، حتى نطهر الأرض من نجسها، ونقيها من دنسها، ونجاهد من خالفنا في ذلك بالحرب والنفي من بلادنا، فلمّا سمع ذلك قومه ضجوا وكرهوا.

فأتوا أم أسا الملك، فشكوا إليها فعل ابنها بهم وبآلهتهم، ودعاءه إياهم إلى مفارقة دينهم، والدخول في عبادة ربهم، فتحملت لهم أمه أن تكلّمه وتصرفه إلى عبادة أصنام والده، فبينا الملك قاعد، وعنده أشراف قومه ورءوسهم وذوو طاعتهم، إذ اقبلت أم الملك فقام لها الملك من مجلسه، وأمرها أن تجلس فيه، معرفة بحقها، وتوقيرا لها فأبت عليه.

وقالت: لست ابني إن لم تجبني إلى ما أدعوك إليه، وتضع طاعتك في يدي حتى تفعل ما آمرك به، وتجيبني إلى أمر، إن أطعتني فيه رشدت وأخذت بحظك، وإن عصيتني فحظك بخست، ونفسك ظلمت، إنه بلغني يا بني، أنك بدأت قومك بالعظيم، دعوتهم إلى مخالفة دينهم، والكفر بآلهتهم، والتحول عما كان عليه آباؤهم، وأحدثت فيهم سنة، وأظهرت فيهم بدعة، أردت بذلك، فيما زعمت، تعظيماً لوقارك، ومعرفة بمكانك، وتشديداً لسلطانك.

وفي التقصير يا بني، دخلت، وبالشين أخذت، ودعوت جميع الناس إلى حربك، وانتدبت لقتالهم وحدك، أردت بذلك أن تعيد الأحرار لك عبيداً، والضعيف لك شديداً، سفهت بذلك رأي العلماء، وخالفت الحكماء، واتبعت رأي السفها.

ولعمري، ما حملك على ذلك يا بني، إلا كثرة طيشك، وحداثة سنك، وقلة علمك، فإن أنت رددت علي كلامي، ولم تعرف حقي، فلست من نسل والدك، ولا ينبغي الملك لمثلك.

(1) العهد القديم، سفر أخبار الأيام الثاني 14: 9 – 15. وهو أما من مصر، أو من العرب. قاموس الكتاب المقدس: زارح.

يا بني، بأي شيء تدل على قومك؟، لعلك أوتيت من الحروف مثل ما اتى موسى إلى فرعون، أن غرقه وأنجى قومه من الظلمة، أو لعلك أوتيت من القوة ما أوتي داود، أن قتل الأسد لقومه، ولحق الذئب فشق شدقه، وقتل جالوت الجبار وحده، أو لعلك أوتيت من الملك والحكمة أفضل مما أوتي سليمان بن داود رأس الحكماء، إذ صارت حكمته مثلاً للباقين بعده؟!. يا بني إنه ما يأتك من حسنة، فأنا أحظى الناس بها، وإن تكن الأخرى، فأنا أشقاهم بشقوتك.

فلمّا سمعها الملك، اشتدَّ غضبه، وضاق صدره، فقال لها: يا أمه، إنه لا ينبغي أن آكل على مائدة واحدة مع حبيبي وعدوي، كذلك لا ينبغي أن أعبد غير ربي، هلمي إلى أمر إن أطعتني فيه رشدت، وإن تركته غويت، أن تعبدي الله وتكفري بكلِّ آلهة دونه، فإنه ليس أحد يرد هذا علي، إلا هو لله عدو، وأنا ناصره لأني عبده.

قالت له: ما كنت لأفارق أصنامي، ولا دين آبائي وقومي ولا أترك ذلك لقولك، ولا أعبد الرب الذي تدعوني إليه. فقال لها الملك: حينئذ يا أمه، إن قولك هذا قد قطع فيما بيني وبينك رحمي.

وأمر بها الملك عند ذلك فأخرجوها وغربوها، ثمَّ أوصى إلى صاحب شرطته وبابه أن يقتلها إن هي ألمت بمكانه، فلمّا سمع ذلك منه الأسباط الذين كانوا حوله وقعت في قلوبهم المهابة، فأذعنوا له بالطاعة، وانقطعت فيما بينهم وبينه كل حيلة، وقالوا: قد فعل هذا بأمه، فأين نقع نحن منه، إذا خالفنا في أمره، ولم نجبه إلى دينه، فاحتالوا له كل حيلة، فحفظه الله، وأباد مكرهم.

فلمّا لم يكن لهم عن ذلك صبر، ولا على فراق دينهم قوام، ائتمروا بأن يهربوا من بلاده، ويسكنوا بلاداً غيرها، فخرجوا متوجهين الى زرح ملك الهند، يطلبون أن يستحملوه على أسا، ومن اتبعه، فلمّا دخلوا على زرح، سجدوا له، فقال لهم: من أنتم؟. قالوا: نحن عبيدك. قال: وأي عبيدي أنتم؟. قالوا: نحن من أرضك أرض الشام، وأنا كنا نعتز بملكِ، حتى ظهر فينا ملك صبي، حديث السن سفيه، فغير ديننا، وسفه رأينا، وكفر آباءنا، وهان عليه سخطنا.

فأتيناك لنعلمك ذلك، فتكون أنت أولى بملكنا، ونحن رءوسهم، وهي أرض كثير مالها، ضعيف أهلها، طيبة معيشتها، كثيرة أنضارها، وفيهم الكنوز، وملك ثلاثين ملكا، وهم الذين كان يوشع بن نون خليفة موسى سار بهم في البحر هو وقومه، فنحن وأرضنا لك، وبلادنا بلادك، وليس أحد فيها يناصبك، وهم دافعون أيديهم إليك بغير قتال، بأموالهم وأنفسهم مسالمة.

قال لهم زرح: لعمري، ما كنت لأجيبكم إلى ما دعوتموني إليه، ولا أستجيب إلى مقاتلة قوم، لعلهم أطوع لي منكم، حتى أبعث إليهم من قومي أمناء، فإن وقع الأمر على ما تكلَّمتم به قدامي، نفعكم ذلك عندي، وجعلتكم عليها ملوكاً، وإن كان كلامكم كذباً، فإني منزل بكم العقوبة التي تنبغي لمن كذبني. قال القوم: تكلَّمت بالعدل، وحكمت بالقسط، ونحن به راضون، فأمر عند ذلك بالأرزاق، فأجريت عليهم.

***

واختار من قومه أمناء؛ ليبعثهم جواسيس، فأوصاهم بوصيته، وخوفهم وحذرهم بطشه، إن هم كذبوه، ووعدهم المعروف، إن هم صدقوه، وقال زرح: إني مرسلكم لأمانتكم، وشحكم على دينكم، وحسن رأيكم في قومكم، لتطالعوا لي أرضاً من أرضي، وتبحثوا لي عن شأنها، وتعلموني علم أهلها وملكها وجنودها، وعددها وعدد مياهها، وفجاجها وطرقها، ومداخلها ومخارجها، وسهولتها وصعوبتها، حتى كأني شاهد ذلك وعالمه، وحاضر ذلك وخابره، وخذوا معكم من الخزائن من الياقوت والمرجان، والكسوة ما يفرغون إليه، إذا رأوه، ويشترون منكم، إذا نظروا إليه.

فأمكنهم من خزائنه حتى أخذوا منها، فجهزهم لبرهم وبحرهم، ووصف لهم القوم الذين أتوهم الطرق، ودلوهم على مقاصدها، فساروا كالتجار، حتى نزلوا ساحل البحر، ثمَّ ركبوا منه حتى ارسوا على ساحل إيلياء، ثمَّ ساروا حتى دخلوها، فخلفوا أثقالهم فيها، وأظهروا أمتعتهم وبضاعتهم، ودعوا الناس إلى أن يشتروا منهم، فلم يفرغوا لبضاعتهم، وكسدت تجارتهم، فجعلوا يعطون بالشيء القليل الشيء الكثير، لكيلا يخرجوهم من قريتهم، حتى يعلموا أخبارهم، ويحقوا شأنهم ويستخرجوا ما أمرهم به ملكهم من أخبارهم.

وكان أسا الملك قد تقدم إلى نساء بني إسرائيل ألا يقدر على امرأة، لا زوج لها بهيئة امرأة، لها زوج، إلا قتلها أو نفاها من بلاده إلى جزائر البحار، فإن إبليس لم يدخل على أهل الدين في دينهم بمكيدةٍ هي أشدُّ من النساء، فكانت المرأة التي لا زوج لها لا تخرج، إلا متنقبة في رثة الثياب، لئلا تعرف، فلمّا بذل هؤلاء الأمناء بضاعتهم ما ثمنه مائة درهم بدرهم، جعل نساء بني إسرائيل يشترين خفية، بالليل سراً، لا يعلم بهن أحد من أهل دينهن.

حتى أنفقوا بضاعتهم، واشتروا بها حاجتهم، واستوعبوا خبر مدينتهم وحصونهم، وعدد مياههم، وكانوا قد كتموا رءوس بضاعتهم ومحاسنها، من اللؤلؤ والمرجان والياقوت، هدية للملك، وجعل الأمناء يسألون من رأوا من أهل القرية عن خبر الملك وشأنه، إذ لم يشتر منهم شيئاً، وقالوا: ما شأن الملك لا يشتري منا شيئا؟!، إن كان غنياً، فإن عندنا من طرائف البضاعات، فنعطيه ما شاء، مما لم يدخل مثله في خزائنه، وإن كان محتاجاً، فما يمنعه أن يشهدنا، فنعطيه ما شاء بغير ثمن؟!.

قال لهم من حضرهم من أهل القرية: إن له من الغنى والخزائن وفنون المتاع ما لم يقدر على مثله، إنه استفرغ الخزائن التي كان موسى سار بها من مصر، والحلي الذي كان بنو إسرائيل أخذوا، وما جمع يوشع بن نون خليفة موسى، وما جمع سليمان رأس الحكماء والملوك، من الغنى الكثير، والآنية التي لا يقدر على مثلها.

قال الأمناء: فما قتاله؟، وبأي شيء عظمته؟، وما جنوده؟، أرأيتم لو أن ملكاً انحرف عليه،

ففتق ملكه، ما كان إذا قتاله إياه؟، وما عدته، وعدد جنوده؟، أم بأي الخيل والفرسان غلبته؟، أم من أجل كثرة جمعه وخزائنه، وقعت في قلوب الرجال هيبته؟. فأجابهم القوم وقالوا: إن أسا الملك قليلة عدته، ضعيفة قوته، غير أن له صديقاً، لو دعاه واستعان به على أن يزيل الجبال، أزالها، فإذا كان معه صديقه، فليس شيء من الخلق يطيقه.

قال لهم الأمناء: ومن صديق أسا؟، وكم عدد جنوده؟، وكيف مواجهته وقتاله؟، وكم عدد عساكره ومراكبه؟، وأين قراره ومسكنه؟. فأجابهم القوم: أما مسكنه، ففوق السموات العلا، مستو على عرشه، لا يحصى عدد جنوده، وكل شيء من الخلق له عبد، لو أمر البحر، لطم على البر، ولو أمر الأنهار، لغارت في عنصرها، لا يرى ولا يعرف قراره، وهو صديق أسا وناصره.

فجعل الأمناء يكتبون كل شيء أخبروا به، من أمر أسا وقضية أمره، فدخل بعض هؤلاء الأمناء عليه، فقالوا: يا ايها الملك، إن معنا هدية، نريد أن نهديها لك من طرائف بلادنا، أو تشتري منا، فنرخصه عليك. قال لهم: ائتوني بذلك حتى أنظر إليه. فلمّا أتوه به، قال لهم: هل يبقى هذا لأهله ويبقون له؟. قالوا: بل يفنى هذا، ويفنى أهله. قال لهم أسا: لا حاجة لي فيه، إنما طلبتي ما تبقى بهجته لأهله، لا تزول، ولا يزولون عنه.

فخرجوا من عنده، ورد عليهم هديتهم، فساروا من بيت المقدس متوجهين إلى زرح الهندي ملكهم، فلمّا أتوه نشروا له كتاب خبرهم، وأنبئوه بما انتهى إليهم من أمر ملكهم، وأخبروه بصديق أسا، فلمّا سمع زرح كلامهم، استحلفهم بعزته، وبالشمس والقمر اللذين يعبدونهما ولهما يصلون، ألا يكتموه من خبر ما رأوا في بني إسرائيل شيئاً، فصدقوه.

فلمّا فرغوا من خبرهم وخبر أسا ملكهم وصديقه، قال لهم زرح: إن بني إسرائيل، لمّا علموا أنكم جواسيس، وأنكم قد اطلعتم على عوراتهم، ذكروا لكم صديق أسا وهم كاذبون، أرادوا بذلك ترهيبكم، وإن صديق أسا لا يطيق أن يأتي بأكثر من جندي، ولا بأكمل من عدتي، ولا بأقسى قلوباً، ولا أجرأ على القتال من قومي، إن لقيني بألف، لقيته بأكثر من ذلك.

***

ثم عمد زرح عند ذلك، فكتب إلى كل من في طاعته أن يجهزوا من كلِّ مخلاف جنداً بعدتهم، حتى استمد يأجوج ومأجوج، والترك وفارس، مع من سواهم من الأمم، ممن جرت عليه لزرح طاعة، كتب:

من زرح الجبار الهندي ملك الأرضين، إلى من بلغته كتبي

أما بعد، فإن لي أرضاً، قد دنا حصادها، وأينع ثمرها، وأردت أن تبعثوا إلي بعمالٍ، أغنمهم ما حصدوا منها، وهم قوم، قصوا عني، وغلبوا على أطراف من أرضي، وقهروا من تحت أيديهم من رقيقي، وقد منحتهم من نهض إليهم معي، فإن قصرت بكم قوة، فعندي قوتكم، فإنه لا

تتعطل خزائني.

فاجتمعوا إليه من كلِّ ناحية، وأمدوه بالخيل والفرسان، والرجالة والعدة، فلمَّا اجتمعوا عنده أمكنهم من السلاح والجهاز من خزائنه، ثمَّ أمر بإحصاء عددهم وتعبيتهم، فبلغ عددهم ألف ألف ومائه ألف، سوى أهل بلادهم. وأمر بمائة مركب، فقرن له البغال، كل أربعة أبغل جميعاً، عليها سرير وقبة، وفي كل قبة منها جارية، ومع كل مركب عشرة من الخدم، وخمسة أفيال من فيلته، فبلغ في كل عسكر من عساكره مائة ألف، وجعل خاصته الذين يركبون معه مائة من رءوسهم، وجعل في كل عسكر عرفاء، وخطبهم وحرضهم على القتال.

فلمَّا نظر إليهم وسار فيهم، تعزز وتعظم شأنه في قلوب من حضره، ثمَّ قال زرح: أين صديق أسا؟، هل يستطيع أن يعصمه مني؟، أو من يطيق غلبتي؟، فلو أن أسا وصديقه ينظران إلي وإلى جندي، ما اجترءا على قتالي، لأن عندي بكلِّ واحد من جنده ألفا من جنودي، ليدخلن أسا أرضي أسيراً، ولأقدمن بقومه سبياً في جنودي.

فجعل زرح ينتقص اسا، ويقول فيه ما لا ينبغى، فبلغ أسا صنيع زرح وجمعه عليه، فدعا ربه، فقال: اللهم، أنت الذي بقوتك خلقت السموات والأرض ومن فيهن، حتى صار جميع ذلك في قبضتك، أنت ذو الاناة الرفيقة والغضب الشديد، أسألك ألا تذكرنا بخطايانا، فيما بيننا وبينك، ولا تعمدنا ولا تجزينا على معصيتك، ولكن تذكرنا برحمتك التي جعلتها للخلائق، فانظر إلى ضعفنا وقوة عدونا، وانظر إلى قلتنا وكثرة عدونا، وانظر إلى ما نحن فيه من الضيق والغم، وانظر إلى ما فيه عدونا من الفرح والراحة، فغرق زرحاً وجنوده في اليم، بالقَدَرة التي غرقت بها فرعون وجنوده، وأنجيت موسى وقومه، وأسألك أن تحل على زرح وقومه عذابك بغتة.

فأُري أسا في المنام، والله أعلم، أني قد سمعت كلامك، ووصل إلي جوارك، وإني على عرشي، وإني، إن غرقت زرح الهندي وقومه، لم يعلم بنو إسرائيل، ولا من كان بحضرتهم، كيف صنعت بهم، ولكن سأظهر في زرح وقومه، لك ولمن اتبعك، قدرة من قدرتي، حتى اكفيك مؤنتهم، وأهب لك غنيمتهم، وأضع في أيديكم عساكرهم، حتى يعلم أعداؤك أن صديق أسا لا يطاق وليه، ولا يهزم جنده، ولا يخيب مطيعه، فأنا أتمهل له حتى يفرغ من حاجته، ثمَّ أسوقه إليك عبداً، وعساكره لك ولقومك خولاً.

فسار زرح ومن معه، حتى حلوا على ساحل ترشيش[1]، فلم يكن إلا محلة يوم، حتى دفنوا أنهارها، ومحوا مروجها، حتى كان الطير ينقصف عليهم، والوحش لا تستطيع الهرب منهم، فساروا حتى كانوا على مرحلتين من إيلياء، ففرق زرح عساكره منها الى إيلياء، وامتلأت منهم

(1) ترشيش منطقة في تحديد موقعها اختلاف، ومن المرجح أنها في أسبانيا، بالقرب من جبل طارق. دائرة المعارف الكتابية 2: 362.

تلك الأرض، جبالها وسهولها، وامتلأت قلوب أهل الشام منهم رعباً، وعاينوا هلكتهم.

فسمع بهم أسا الملك، فبعث إليهم طليعة من قومه، وأمرهم أن يخبروه بعددهم وهيئتهم فسار القوم الذين بعثهم أسا حتى نظروا إليهم من رأس تل، ثمَّ رجعوا إلى أسا فاخبروه انه لم تر عيون بني آدم، ولا سمعت آذانهم مثلهم ومثل أفيالهم وخيولهم وفرسانهم، وما ظننا أن في الناس مثلهم كثرة وعدة، فلت من إحصائهم عقولنا، وفلت من قتالهم حيلتنا، وانقطع فيما بيننا وبينهم رجاؤنا

فسمع بذلك أهل القرية فشقوا ثيابهم، وذروا التراب على رءوسهم، وعجوا بالعويل في أزقتهم وأسواقهم، وجعل بعضهم يودع بعضاً، ثمَّ ساروا حتى أتوا الملك، فقالوا: نحن خارجون بأجمعنا إلى هؤلاء القوم، فدافعون إليهم أيدينا، لعلهم أن يرحمونا فيقرونا في بلادنا. قال لهم أسا الملك: معاذ الله أن نلقي بأيدينا في أيدي الكفرة، وأن نخلي بيت الله وكتابه للفجرة. قالوا: فاحتل لنا حيلة، واطلب إلى صديقك وربك الذي كنت تعدنا بنصره، وتدعونا إلى الإيمان به، فإن هو كشف عنا هذا البلاء، وإلا وضعنا أيدينا في أيدي عدونا؛ لعلنا نتخلص بذلك من القتل.

***

قال لهم أسا: إن ربي لا يطاق إلا بالتضرع والتبتل والاستكانة. قالوا: فأبرز له؛ لعله أن يجيبك فيرحم ضعفنا، فإن الصديق لا يسلم صديقه على مثل هذا. فدخل أسا لمصلى، ووضع تاجه من رأسه، وخلى ثيابه، ولبس المسوح، وافترش الرماد، ثمَّ مد يده يدعو ربه بقلب حزين، وتضرع كثير، ودموع سجال، وهو يقول: اللهم، رب السموات السبع ورب العرش العظيم، إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، أنت المستخفي من خلقك حيث شئت، لا يدرك قرارك، ولا يطاق كنه عظمتك.

أنت اليقظان الذي لا تنام، والجديد الذي لا تبليك الليالي والأيام، أسألك بالمسألة التي سألك بها إبراهيم خليلك، فأطفأت بها عنه النار، وألحقته بها بالأبرار، وبالدعاء الذي دعاك به نجيك موسى، فأنجيت بني إسرائيل من الظلمة، وأعتقتهم به من العبودية، وسيرتهم في البر والبحر، وغرقت فرعون ومن اتبعه، وبالتضرع الذى تضرع لك عبدك داود فرفعته، ووهبت له من بعد الضعف القوة، ونصرته على جالوت الجبار، وهزمته، وبالمسألة التي سألك بها سليمان نبيك، فمنحته الحكمة، ووهبت له الرفعة، وملكته على كل دابة.

أنت محيي الموتى، ومفني الدنيا، وتبقى وحدك خالداً لا تفنى، وجديداً لا تبلى، أسألك يا إلهي، أن ترحمني بإجابة دعوتي، فإني أعرج مسكين من أضعف عبادك، وأقلهم حيله، وقد حل بنا كرب عظيم، وحزب شديد، لا يطيق كشفه غيرك، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، فارحم ضعفنا بما شئت، فإنك ترحم من تشاء بما تشاء.

وجعل علماء بني إسرائيل يدعون الله خارجاً، وهم يقولون: اللهم، أجب اليوم عبدك، فإنه قد اعتصم بك وحدك، ولا تخل بينه وبين عدوك، واذكر حبه إياك، وفراقه أمه وجميع الخلائق إلا من أطاعك.

فألقى الله على أسا النوم، وهو في مصلاه ساجداً، ثمَّ أتاه من الله آت، والله أعلم، فقال: يا أسا، إن الحبيب لا يسلم حبيبه، وإن الله يقول: إني قد ألقيت عليك محبتي، ووجب لك نصري، فأنا الذي أكفيك عدوك، فإنه لا يهون من توكل علي، ولا يضعف من تقوى بي، كنت تذكرني في الرخاء، وأسلمك عند الشدائد، وكنت تدعوني آمنا، وأنا أسلمك خائفاً، إن الله القوي يقول: أنا أقسم أن لو كايدتك السموات والأرض بمن فيهن، لجعلت لك من جميع ذلك مخرجاً، فأنا الذي أبعث طرفاً من زبانيتي يقتلون أعدائي، فإني معك، ولن يخلص إليك ولا إلى من معك، أحد.

فخرج أسا من مصلاه، وهو يحمد الله، مسفراً وجهه، فأخبرهم بما قيل له، فأما المؤمنون فصدقوه، وأما المنافقون فكذبوه، وقال بعضهم لبعض: إن أسا دخل أعرج، وخرج أعرج، ولو كان صادقاً أن الله قد أجابه، إذاً لأصلح رجله، ولكن يغرينا ويمنينا، حتى تقع الحزب فينا، فيهلكنا. فبينا الملك يخبرهم عن صنع الله بهم، إذ قدم رسل من زرح، فدخلوا إيلياء ومعهم كتب من زرح إلى أسا، فيها شتم له ولقومه، وتكذيب بالله، وكتب فيها: أن ادع صديقك الذي أضللت به قومك، فليبارزني بجنوده، وليظهر لي مع ما أني أعلم أنه لن يطيقني هو ولا غيره، لأني أنا زرح الهندي الملك.

فلمَّا قرأ أسا الكتب التي قدم بها عليه، هملت عيناه بالبكاء، ثمَّ دخل مصلاه، ونشر تلك الكتب بين يدي الله، ثمَّ قال: اللهم، ليس لي شيء من الأشياء أحب إلي من لقائك، غير أني أتخوف أن يطفأ هذا النور الذي أظهرته في أيامي هذه، وقد حضرت هذه الصحائف وعلمت ما فيها، ولو كنت المراد بها كان ذلك يسيراً، غير أن عبدك زرحاً يكايدك ويتناولك، فخر بغير فخرٍ، وتكلَّم بغير صدق، وأنت حاضر ذلك وشاهده.

فأوحى الله إلى أسا، والله أعلم، أنه لا تبديل لكلماتي، ولا خلف لموعدي، ولا تحويل لأمري، فأخرج من مصلاك، ثمَّ مرَّ خيلك أن تجتمع، ثمَّ خرج بهم وبمن اتبعك، حتى تقفوا على نشز من الأرض. فخرج أسا فأخبرهم بما قيل له، فخرج اثنا عشر رجلاً من رؤسائهم، مع كل رجل منهم رهط من قومه، فلمَّا أن خرجوا، ودعوا أهاليهم بألا يرجعوا الى الدنيا، فوقفوا لزرح على رابية من الارض، فأبصروا منها زرحاً وقومه.

فلمَّا أبصرهم زرح، نفض رأسه؛ ليسخر منهم، وقال: إنما نهضت من بلادي، وأنفقت أموالي لمثل هؤلاء؟!. ودعا عند ذلك بالنفر الذين كانوا نعتوا عنده أسا وقومه، فقال: كذبتموني وزعمتم أن قومكم كثير عددهم!. فأمر بهم، وبالأمناء الذين كان بعثهم ليخبروه خبرهم، فقتلوا جميعاً، وأسا في ذلك كثير تضرعه، معتصم بربه، فقال زرح: ما أدري ما أفعل بهؤلاء القوم؟، وما

أدري ما قدر قلتهم في كثرتنا؟، إني لأستقلهم عن المحاربة، وأرى ألا اقاتلهم.

***

فأرسل زرح إلى أسا، فقال له: أين صديقك الذي كنت تعدنا به، وتزعم أنه يخلصك مما يحل بكم من سطواتي!، أفتضعون أيديكم في يدي، فأمضي فيكم حكمي، أو تلتمسون قتالي؟. فأجابه أسا، فقال: يا شقي، إنك لست تعلم ما تقول، ولست تدري، أتريد أن تغالب ربك بضعفك، أم تريد أن تكاثره بقلتك؟، هو أعز شيء وأعظمه، وأغلب شيء وأقهره، وعباده أذل وأضعف عنده، من أن ينظروا إليه معاينة هو معي في موقفي هذا، ولن يغلب أحد كان الله معه، فاجتهد يا شقي بجهدك، حتى تعلم ماذا يحل بك.

فلمّا اصطف قوم زرح وأخذوا مراتبهم، أمر زرح الرماة من قومه أن يرموهم بنشابهم، فبعث الله ملائكة من كلّ سماء، والله أعلم، عوناً لأسا وقومه، ومادة له، فوقفهم أسا في مواقفهم، فلمّا رموا نشابهم، حال المشركون بين ضوء الشمس وبين الأرض، كأنها سحابة طلعت، فنحتها الملائكة عن أسا وقومه، ثمَّ رمت بها الملائكة قوم زرح، فأصابت كل رجل منهم نشابته التي رمى بها، فقتل رماتهم بها كلها، وأسا وقومه في كل ذلك يحمدون الله كثيراً، ويعجون إليه بالتسبيح.

وتراءت الملائكة لهم، والله أعلم، فلمّا رآهم الشقي زرح، وقع الرعب في قلبه، وسقط في يده، وقال: إن أسا لعظيم كيده، ماض سحره، وكذلك بنو إسرائيل، حيث كانوا لا يغلب سحرهم ساحر، ولا يطيق مكرهم عالم، وإنما تعلموه من مصر، وبه ساروا في البحر، ثمَّ نادى الهندي في قومه: أن سلوا سيوفكم، ثمَّ احملوا عليهم حَمَلة واحدة، فدقوهم.

فسلوا سيوفهم ثمَّ حملوا على الملائكة، فقتلتهم الملائكة، فلم يبق منهم غير زرح ونسائه ورقيقه، فلمّا رأى ذلك، ولى مدبراً فاراً، هو ومن معه، وهو يقول: إن أسا ظهر علانية، وأهلكني صديقه سراً، وإني كنت أنظر إلى أسا، ومن معه واقفين لا يقاتلون، والحرب واقعة في قومي، فلمّا رأى أسا أن زرحاً قد ولى مدبراً، قال: اللهم، إن زرحاً قد ولى مدبراً، وإنك، إن لم تحل بيني وبينه، استنفر علينا قومه ثانية.

فأوحى الله إلى أسا: إنك لم تقتل من قتل منهم، ولكني قتلتهم، فقف مكانك، فإني لو خليت بينك وبينهم، أهلكوكم جميعاً، إنما يتقلب زرح في قبضتي، ولن ينصره أحد مني، وأنا لزرح بالمكان الذي لا يستطيع صدوداً عنه، ولا تحويلاً، وإني قد وهبت لك ولقومك، عساكره وما فيها، من فضة ومتاع ودابة، فهذا أجرك، إذ اعتصمت بي، ولا ألتمس منك أجراً على نصرتك.

فسار زرح حتى أتى البحر، يريد بذلك الهرب، ومعه مائة ألف، فهيئوا سفنهم ثمَّ ركبوا فيها، فلمّا ساروا في البحر، بعث الله الرياح من أطراف الأرضين والبحار إلى ذلك البحر، واضطربت من كلِّ ناحية أمواجه، وضربت السفن بعضها بعضاً، حتى تكسرت، فغرق زرح ومن كان معه، واضطربت بهم الأمواج، حتى فزع لذلك أهل القرى حولهم، ورجفت الأرض،

فبعث أسا من يعلمه علم ذلك.

فأوحى الله إليه، والله أعلم، أن اهبط أنت وقومك أهل قراكم، فخذوا ما غنمكم الله بقوة، وكونوا فيه من الشاكرين، فإني قد سوغت كل من أخذ من هذه العساكر شيئاً ما أخذه، فهبطوا يحمدون الله ويقدِّسونه، فنقلوا تلك العساكر إلى قراهم ثلاثة أشهر، والله أعلم.

يهوشافاط إلى شعياء

ثم ملك بعده يهوشافاظ بن أسا، إلى أن هلك، خمساً وعشرين سنة.

ثم ملكت عثليا، وتسمى غزليا ابنة عمرم أم أخزيا، وكانت قتلت أولاد ملوك بني إسرائيل، فلم يبق منهم إلا يواش بن أخزيا، فإنه ستر عنها، ثمَّ قتلها يواش وأصحابه، وكان ملكها سبع سنين[1].

ثم ملك يواش بن أخزيا إلى أن قتله أصحابه، وهو الذي قتل جدته، فكان ملكه أربعين سنة[2]. ثمَّ ملك أموصيا بن يواش إلى أن قتله أصحابه تسعاً وعشرين سنة[3]، ثمَّ ملك عوزيا بن أموصيا، وقد يقال لعوزيا: غوزيا، إلى أن تُوفِّي، اثنتين وخمسين سنة[4].

ثم ملك يوثام بن عوزيا إلى أن تُوفِّي، ست عشرة سنة[5].

ثم ملك آحاز بن يوثام إلى أن تُوفِّي، ست عشرة سنة[6].

ثم ملك حزقيا بن آحاز إلى أن تُوفي[7]، وقيل: إنه صاحب شعيا[8] الذي أعلمه شعيا انقضاء

(1) هي عثليا ابنة أخآب ملك مملكة إسرائيل، من زوجته إيزابل، وحفيدة عمري، سادس ملوك المملكة، ملكت ست سنوات قبل مقتلها. العهد القديم، سفر الملوك الثاني 11: 3، و12: 1، 2. وسفر الملوك الثاني 22: 12. ودائرة المعارف الكتابية 5: 190.

(2) هو يهواش بن أخزيا، تاسع ملوك مملكة يهوذا، قتل جدته عثليا، كان عمره حينتولى الحكم سبع سنوات، ودام حكمه أربعين سنة. العهد القديم، سفر الملوك الثاني 11، 12. ودائرة المعارف الكتابية 8: 304. وأساطير اليهود 4: 231.

(3) الملك العاشر لمملكة يهوذا، ملك تسعاً وعشرين سنة، في أوروشليم. دائرة المعارف الكتابية 1: 415. وأساطير اليهود 4: 233.

(4) عزيا خلف أباه على عرش يهوذا، وهو في السادسة عشرة من عمره، وملك اثنتين وخمسين سنة، ويسمى عزريا. العهد القديم، سفر الملوك الثاني 14: 21، 15. دائرة المعارف الكتابية 5: 256. وهو من الأنبياء العظام. أساطير اليهود 4: 234.

(5) يوثام بن عزيا (عزريا) ملك يهوذا، ملك ست عشرة سنة، والد آحاز. العهد القديم، سفر الملوك الثاني 15: 5، 7، و30 – 38. دائرة المعارف الكتابية 8: 334. وبعدما أصيب عزيا بالبرص، لم يعد صالحاً للحكم، فتولى يوثام حكم يهوذا طوال خمسة وعشرين عاماً. أساطير اليهود 4: 238.

(6) آحاز اسم مختصر ليهوآحاز، معناه حلزه الرب، ملك بعد أبيه ست عشرة سنة. العهد القديم، سفر أخبار الملوك الثاني 28: 1. دائرة المعارف الكتابية 1: 4.

(7) حكم تسعاً وعشرين سنة، من أعظم ملوك يهوذا. العهد القديم، سفر الملوك الثاني 18: 1 – 20. ودائرة المعارف الكتابية 3: 82. وبينما كانت مملكة الشمال (إسرائيل) تتهالك، اكتسبت مملكة يهوذا دفعة عظيمة، روحياً أو مادياً، على يد ملكها حزقيا. أساطير اليهود 4: 240.

(8) أشعياء، يعد ملك أنبياء بني إسرائيل كلهم. دائرةالمعارف الكتابية 1: 306.

عمره، فتضرع إلى ربه فزاده وأمهله، وأمر شعيا بإعلامه ذلك[٦].

(٦) تاريخ الرسل والملوك ١: 517 ـ 531. لا يذكر الطبري في أول القصة القائل، وهو وهب بن مُنبِّه، كما في المعارف: 46. ثمَّ يعود الطبري إلى السند، فيقول: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، قال: حدثني عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهب بن مُنبِّه يقول: إن ملكا من ملوك بنى إسرائيل يقال له أسا بن أبيا، كان رجلا صالحا، وكان أعرج. تاريخ الرسل والملوك ١: 517. والقصة مختصرة في قصص الأنبياء للثعلبي: 289. وقصص الأنبياء للكسائي: 6138.

أشعياء

قال محمد بن إسحاق بن يسار: [1] كان فيما أنزل الله على موسى، في خبره عن بني إسرائيل، وإحداثهم، وما هم فاعلون بعده، كما قال الله تعالى: { وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرًا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولًا . ثمَّ رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرةٍ وليتبروا ما علوا تتبيرًا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرًا } سورة الإسراء: 4 – 8.

فكانت بنو إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب، وكان الله في ذلك متجاوزاً عنهم، متعطفاً عليهم، محسناً إليهم، فكان أول ما أنزل بهم، بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع، كما أخبر على لسان موسى، أن ملكاً منهم كان يدعى صديقة[2]. وكان الله تعالى، إذا ملك الملك عليهم، بعث الله نبياً، يسدده ويرشده، ويكون فيما بينه، وبين الله تعالى، فيتحدث إليهم في أمرهم، ولا ينزل عليهم الكتب، إنما يأمروهم باتباع التوراة، والأحكام التي فيها، والنهي عن المعصية، والدعاء إلى ما تركوا من الطاعة.

مبعث أشعياء

فلمّا ملك الله ذلك الملك، بعث الله شعياء بن أمصيا[3]، وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى، وأشعياء هو الذي بشر بيت المقدس، حين شكا إليه الخراب، فقال: أبشر، فإنه يأتيك راكب الحمار، ومن بعده راكب البعير[4]، فملك ذلك الملك بني إسرائيل، وبيت المقدس زماناً.

فلمّا انقضى ملكه، عظمت الأحداث الرديئة، وأشعياء معه، فبعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل، فنزل هو وجنوده في ستمائة ألف راية، فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس، والملك مريض، في ساقه قرحة، فجاء إليه شعياء، فقال: يا ملك بني إسرائيل، إن سنحاريب ملك بابل، قد نزل هو وجنوده في ستمائة ألف رايةٍ، وقد هابهم الناس، وفرقوا منهم، فكبر ذلك على الملك، فقال: يا نبي الله، هل أتاك وحي من الله، فيما حدث، فتخبرنا به، كيف يفعل الله بنا، وبعدونا بسنحاريب وجنوده؟.

---

(1) عن وهب، كما في النبوة: 274

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 390. هو صدقيا الملك الابن الثالث ليوشيا، من ملوك يهوذا، ملك إحدى عشرة سنة. العهد القديم، سفر الملوك الثاني 24: 17. ودائرة المعارف الكتابية 5: 13.

(3) أشعيا بن آموص. العهد القديم، سفر أشعيا 1: 1.

(4) راكب الحمار هو المسيح، تاريخ اليعقوبي 1: 107، وراكب البعير هو محمد.

فقال له النبي: لم يأت وحي، فبينا هم على ذلك، أوحى الله إلى شعيا النبي: أن ائت ملك بني إسرائيل، فأمره أن يوصي بوصيته، ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته. فأتى النبي شعيا ملك بني إسرائيل صديقة، وقال له: إن ربك قد أوحى إلي أن آمرك أن توصي بوصيتك، وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك، فإنك ميت.

فلمّا قال ذلك شعياء لصديقة، أقبل على الله تعالى، وصلى ودعا وبكى، فقال في دعائه، وهو يبكي، ويتضرع إلى الله تعالى، بقلبٍ مخلصٍ، وظن صادق: اللهم، رب الأرباب، وإله الآلهة، القدوس المقدس، يا رحمن يا رحيم يا رؤوف، يا من لا تأخذه سنة، ولا نوم، أكرمتني بعملي وفعلي، وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك، وأنت أعلم به مني، بسري وعلانيتي لك.

ثم إن الله استجاب دعاءه ورحمه، وكان عبداً صالحاً، فأوحى الله تعالى إلى شعياء، وأمره أن يخبر صديقة الملك أن ربه قد استجاب له، وقبل منه، ورحمه، وقد أخر أجله خمس عشر سنةً، وأنجاه الله من عدوه سنحاريب، ملك بابل وجنوده، فأتى شعياء إليه، وأخبره بذلك، فلمّا قال ذلك، ذهب عنه الوجع، وانقطع عنه الحزن، وخر ساجداً، وقال: يا إلهي، وإله آبائي، لك سجدت وسبحت، وكبرت وعظمت، أنت الذي تعطي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت ترحم، وتستجيب دعوة المضطرين، أنت الذي أجبت دعوتي، ورحمت تضرعي.

فلمّا رفع رأسه، أوحى الله تعالى إلى شعياء أن قل للملك صديقة أن يأمر عبداً من عبيده، فيأتيه بماء التين، فيجعله على قرحته، فيشفى، ففعل ذلك، فبرأ، فقال الملك لشعياء: سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا. فقال الله لشعياء: قل له إني قد كفيتك عدوك، وأنجيتك منه، وإنهم سيصبحون موتى كلهم، إلا سنحاريب، وخمسة نفرٍ من كبرائه وكتابه. فلمّا أصبحوا، جاءهم صارخ، فصرخ على باب المدينة: يا ملك بني إسرائيل، إن الله قد كفاك عدوك، فأخرج، فإن سنحاريب ومن معه هلكوا.

فلمّا خرج الملك، التمس سنحاريب، فلم يجده في الموتى، فبعث الملك في طلبه، فأدركه الطلب في مفازةٍ، ومعه خمسة من كبرائه، أحدهم بختنصر، فجعلوهم في الجوامع[1]، ثمّ أتوا بهم إلى ملك بني إسرائيل، فلمّا رآهم، خر ساجداً، من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثمّ قال لسنحاريب: كيف ترى فعل ربنا بكم؟، ألم يقتلكم بحوله وقوته، ونحن وأنتم غافلون؟.

فقال سنحاريب: قد أتاني خبر ربكم، ونصره إياكم، ورحمته التي رحمكم بها، قبل أن أخرج من بلادي، فلم أطع مرشداً، ولم يلقني في الشقاء إلا قلة عقلي، ولو سمعت، وأطعت ما

(1) قيود اليد. لم تحصل هذه الاحداث في تاريخ بني إسرائيل نفسه. تنظر دائرة المعارف الكتابية 4: 446 وما بعدها.

غزوتكم، ولكن الشقوة غلبت علي، وعلى من معي. قال: فقال صديقة: الحمد لله، رب العزة الذي كفاناكم بما شاء، إن ربنا لم يبقك، ومن معك؛ لكرامةٍ لك عليه، وإنما أبقاك ومن معك؛ ليزدادوا شقاءً في الدنيا، وعذاباً في الآخرة، ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم وبمن معكم، ولدمك ومن معك، أهون على الله من دم قرادة، لو قتلت.

ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير جيشه، فقذف في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً، ما حول بيت المقدس وإيلياء، وكان يطعمهم في كل يوم، رغيفين من شعيرٍ، لكل رجل منهم. فقال سنحاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما تفعل بنا، فافعل ما أردت. فأمر بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله إلى شعياء أن قل لملك بني إسرائيل، ليرسل سنحاريب ومن معه؛ لينذروا من وراءهم، وليكرمهم ويحملهم، حتى يبلغوا بلادهم، فبلغ اشيعاء الملك ذلك، ففعل.

فخرج سنحاريب ومن معه؛ ينذرون من وراءهم، حتى قدموا بابل، فلمَّا قدموا، جمع الناس، فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده، فقال له كهانه وسحرته: يا ملك، قد كنا نقص عليك خبر ربهم، وخبر نبيهم، ووحي الله إلى نبيهم، فلم تطعنا، وهي أمة، لا يستطيعها أحد، وكان في أمر سنحاريب مما خوفوا به، ثمَّ كفاهم الله إياه تذكرةً وعبرةً. ثمَّ لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين، ثمَّ مات[1].

واستخلف من بعده بختنصر، وكان ابن ابنه، وكان بختنصر يعمل كما يعمل جده، ويقضي بقضائه، فلبث سبع عشرة سنة، ثمَّ قبض الله تعالى ملك بني إسرائيل صديقة، فمرج أمر بني إسرائيل، وتنافسوا في الملك، حتى قتل بعضهم بعضاً، وظهر فيهم البغي والفساد، ونبيهم أشعياء فيهم، لا يرجعون إليه، ولا يقبلون قوله، فلمَّا فعلوا ذلك، قال الله تعالى لأشعياء: قم في قومك، يوح على لسانك.

***

فلمَّا قام النبي، أطلق الله لسانه بالوحي، فقال: يا سماء، استمعي، ويا أرض، انصتي، فإن الله أراد أن يقضي شأن بني إسرائيل الذين رباهم بنعمة، واصطفاهم لنفسه، وخصهم بكرامته، وفضلهم على عباده، واستقبلهم بالكرامة، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها، فآوى شاردها، وجمع ضالتها، وجبر كسرها، وداوى مريضها، وأسمن مهزولها، وحفظ سمينها، فلمَّا فعل ذلك، بطرت، فتناطحت كباشها، فقتل بعضهم بعضاً، حتى لم يبق منها عظم صحيح، يجبر إليه آخر كسير.

فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لايدرون أجاءهم الخير أم الشر، وإن البعير يذكر وطنه، فينتابه، وإن الحمار يذكر المكان يشبع عليه، فيراجعه، وإن الثور يذكر المسرح الذي يسرح

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 535. والنبوة: 274. والقصة مختلفة في العهد القديم، سفر أشعيا 37: 37.

فيه، فيتنابه الحنين إليه، وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير، وهم أولوا الألباب والعقول، ليسوا ببقر، ولا حِميراً، وإني ضارب لهم مثلاً، فليسمعوه.

قل لهم: كيف ترون في أرضٍ، كانت خراباً مواتاً، فبقيت خراباً زماناً، لا عمران فيها، وكان لها رب حكيم قوي، فأقبل عليها بالعمارة، وكره أن تخرب أرضه، فأحاط عليها جداراً، وشيد فيها قصراً، وأجرى نهراً، وأنبت عليها غرساً من الزيتون والرمان، والنخيل والأعناب، وأنواع الثمار كلها، وولي ذلك، واستحفظه حفيظاً قوياً أميناً، فانتظرها، فلمّا أطلعت، جاء طلعها خرنوباً، فقال: بئست الأرض هذه، نرى أن يهدم جدارها وقصرها، ويغيض ماء نهرها، ويحرق غرسها، حتى تصير كما كانت أول مرةٍ، خراباً مواتاً، لا عمران فيها.

فقال الله تعالى: قل لهم: إن الجدار ذمتي، وإن القصر شريعتي، وإن النهر كتابي، وإن القيم نبيي، وإن الغراس هم، وإن الخرنوب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة، وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم، وإنهم مثل، ضربه الله تعالى لهم، فمرهم يتقربوا إلي بذبح البقر والغنم، وليس ينالني اللحم، ولا أكله، ولكن يتقربون إلي بالتقوى، والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها، فأيديهم مخضوبة منها، وبنانهم مزملة بدمائها، وهم يشيدون لي البيوت والمساجد، ويطهرون أجوافها، وينجسون قلوبهم وأجسادهم، ويدنسونها، فأي حاجة لي إلى تشييد البيوت، ولست أسكنها؟، وأي حاجة لي إلى تزويق المساجد، ولست أدخلها، وإنما أمرت برفعها؛ لأذكر فيها، وأسبح، ولتكون معلماً لمن أراد أن يصلِّي فيها، ويقولون: لو كان الله يقدر على أن يجمع ألفتنا، لجمعها.

ولو كان الله يقدر على أن يفقه قلوبنا، لفقهها، فاعمد إلى عودين يابسين، ثمَّ أنبتهما، وهم في أجمع ما يكون، فقل للعودين: إن الله يأمركما أن تكونا عوداً واحداً، فلمّا قال لهما ذلك اختلطا، فصارا عوداً واحداً، فقال الله: قل لهم: إني قد قدرت على أن أؤلف بين العودين اليابسين، فكيف لا أقدر على ألفهتم، إن شئت؟، أم كيف لا أقدر على أن أفقه قلوبهم، وأنا الذي صورتهم. يقولون: صمنا، فلم يرفع صيامنا، وصلينا، فلم تقبل صلاتنا، وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا، ودعونا مثل حنين الجمال، وبكينا مثل عواء الذئاب، فذلك لا يسمع، ولا يستجاب لنا.

قال الله تعالى: فسلهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم؟، ألست أسمع السامعين، وأنظر الناظرين، وأقرب المجيبين، وأرحم الراحمين؟، أذات يدي قلت؟، ويداي مبسوطتان بالخير، أنفق كيف أشاء ومفاتيح الخزائن عندي، لا يفتحها غيري؟، أم يقولون: رحمتي ضاقت، فكيف، ورحمتي وسعت كل شيء، إنما يتراحم المتراحمون بفضلي، أم يقولون: البخل يعتريني؟، أو لست أكرم الأكرمين، وأنا الفتاح بالخيرات؟، ألست أجود من أعطى، وأكرم من سئل؟.

ولو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التي نورت في قلوبهم، فنبذوها واشتروا بها الدنيا، لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هي أعدى العداة لهم، فكيف أرفع صيامهم، وهم يلبسونه

بقول الزور، ويتقوون عليه بطعمة الحرام؟، أم كيف أنور صلاتهم، وقلوبهم صاغية، تركن إلى من يحاربني، وينتهك محارمي؟، أم كيف تزكو عندي صدقاتهم، وهم يتصدقون بأموال غيرهم وإنما أؤجر عليها أهلها المغصوبين؟، أم كيف أستجيب لهم دعاءً، وإنما أستجيب قول المستضعف المسكين؟.

وإن من علامة رضاي رضا المسكين، ولو رحموا المساكين، وقربوا الضعفاء، وأنصفوا المظلوم، ونصروا المغصوب، وعالوا الغائب، وأدوا إلى اليتيم والأرملة والمسكين، وكل ذي حق حقه، ولو كان ينبغي لي أن أكلم البشر، إذن لكلمتهم، وكففت أذاهم، وكنت نور أبصارهم، وسمع آذانهم، ومعقول قلوبهم، وأعمرت أركانهم، وكنت قوة أيديهم وأرجلهم، وكنت ألسنتهم، إلا أن يقولوا، لمَّا سمعوا كلامي، وبلغتهم رسالاتي: إنها أقاويل منقولة، وأحاديث متوارثة، وتآليف مما يؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أن لو يشاءوا أن يأتوا بحديثٍ مثله، لفعلوا، وأن يطَّلعوا على علم الغيب، لاطلعوا بما توحي إليهم الشياطين، وكلهم ويستخفى بالذي يقول ويسر.

وهم يعلمون أني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما يبدون وما يكتمون، وإني قد قضيت، يوم خلقت السماء والأرض، قضاءً، بينته على نفسي، وجعلت له أجلاً مؤجلاً، لا بد أنه واقع، فإن صدقوا فما ينتحلون من علم الغيب، فليخبروك متى أنفذه، أو في أي زمانٍ يكون؟، وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون، فليأتوا بمثل هذه القَدَرة التي بها أمضيت، فإني مظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

وإن كانوا يقدرون على أن يقولوا مايشاؤون، فليأتوا بمثل هذه الحكمة التي أدبر بها أمر ذلك القضاء، إن كانوا صادقين، فإني قد قضيت، يوم خلقت السماوات والأرض، أن أجعل النبوة في الأحرار، وأن أجعل الملك في الرعاء، والعز في الأذلاء، والقوة في الضعفاء، والغنى في الفقراء، والثروة في الأقلاء، والمدائن في الفلوات، والآجام في المفاوز، والثروة في الغيطان، والعلم في الجهلة، والحكم في الأميين، فسلهم ممن هذا؟، ومن القيم بها؟، وعلى يد من أنشأه؟، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره؟.

فإني باعث لذلك نبياً، أمياً، لا أعمى من العميان، ولا ضالاً من الضالين، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا بصخابٍ في الأسواق، ولا متزيناً بالفحش، ولا قوالاً للخنى[1]، أسدده بكلِّ جميلٍ، وأهب له كل خلقٍ كريم، أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل والمعروف سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والاسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة.

وأعلم به بعد الجهالة، ثمَّ أرفع به بعد الخمالة، وأشهر به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة،

(1) الفحش.

وأغني به بعد الفقر، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به قلوباً مختلفة، وأهواءً متشتتةً، وأمماً متفرقة، وأجعل أمته خير أمةٍ، أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، بآياتي وتوحيدي، يصلون لي قياماً وقعوداً، وركعاً وسجوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم؛ إبتغاء رضوان الله، ألهمهم التكبير والتوحيد، والتسبيح والتمجيد، في مسيرهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يكبرون ويهللون ويقدّسون على رؤوس الأشراف ويطهرون لي الوجوه والأطراف، ويعقدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وقرآنهم في صدورهم، رهبان في الليل، ليوث في النهار، ذلك فضلي أتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

قال وهب: قال شعيا النبي، وذكر أصحاب رسول الله يوم بدرٍ، وذكر قصة العرب يوم بدرٍ، فقال: يدوسون الأمم كدياس البيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، ويهزمون بين يدي سيوفٍ مسلولةٍ وقسي موترةٍ. ثمَّ قال: وتشق في البادية مياه وسواقي في أرض الفلاة والأماكن العطاش، وتصير هنا محجةً، وطريق الحرم لا يمر به أنجاس الأمم، والجاهل به لا يضل هناك، ولا يكون به سباع ولا أسد، ويكون هناك من المخلصين، أعطى البادية كرامة لبنان، وبها الكرامات، ولبنان الشام وبيت المقدس. يريد: اجعل الكرامة التي كانت هناك بالوحي وظهور الأنبياء للبادية بالحجج وبالنبي صلى الله عليه وسلم. ثمَّ قال: وتفتح أبواب أبوابك دائمًا الليل والنهار لا تغلق، ويغذونك قبلةً، وتدعين بعد ذلك مدينة الرب؛ أي: بيت الله.

وقال وهب: وقرأت في كتاب شعيا: وقد أقسمت بنفسي كقسمي أيام الطوفان: أني لا أغرق الأرض بالطوفان، كذلك أقسمت أني لا أسخط عليك ولا أرفضك، وإن الجبال تزول والقلاع تتحط ونعمتي عليك لا تزول، وكل لسانٍ ولغةٍ تقوم معك بالخصومة تفلجين معها، ويسميك الله اسمًا جديدًا. يريد أنه سمي مسجد الحرام، وكان قبل ذلك يسمى الكعبة. قال: ويساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ، ويخدمك ولد يناوث بن إسماعيل، وإن الذئب والحمل يرعيان فيه معًا، وكذلك جميع السباع لا تؤذي ولا يفسد في كل حرم، وتبعدين من الظلم؛ فلا تخافي، ومن الضعف؛ فلا تضعفي، وكل سلاحٍ يصنعه صانع لا يعملَ فيك ويحج إليك عساكر الأمم، وسأبعث من الصبا قومًا، فيأتون من المَشرق مجيبين أفواجًا كالصعيد كثرةً[1].

فلمَّا فرغ نبيهم أشعياء من مقالته، عدوا عليه ليقتلوه، فهرب منهم، فلقيته شجرة، وانفلقت له، فدخل فيها، فأدركه الشيطان، فأخذ بهدبةٍ من ثوبه، فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها، فنشروها حتى قطعوها، وقطعوه، وهو في وسطها[2].

---

(1) المجالسة وجواهر العلم 5: 65.

(2) عن ابن إسحاق. تاريخ الرسل والملوك 1: 315. وهو لوهب، كما في المجالسة وجواهر العلم 3: 506. وفي المعارف: 50.

وللحديث سرد مختصر في تفسير ابن أبي حاتم 10: 3141. وفي تفسير ابن كثير 6: 76. ومشهد نشر أشعيا بالمنشار في سفر «صعود أشعياء»، وهو من الأسفار غير القانونية. قاموس الكتاب المقدس: أشعيا.

إرميا

فاستخلف الله على بني إسرائيل، بعد قتلهم أشعياء، رجلاً منهم يقال له: ناشئة بن أموص(يوشيا بن آمون)، وبعث لهم الخَضِر نبياً، واسم الخَضِر فيما كان وهب بن مُنَبِّه يزعم، عن بني إسرائيل، إرميا بن حلقيا، وكان من سبط بن عمران[1].

مبعث إرميا

قال الله لإرميا حين بعثه نبيا إلى بني إسرائيل: يا إرميا، من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك في بطن أمك قدستك[2]، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ السعي نبيتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اختبرتك، ولأمر عظيم اجتبيتك. فبعث الله إرميا إلى ذلك الملك من بني إسرائيل يسدده ويرشده، ويأتيه بالخبر من قبل الله فيما بينه وبين الله.

ثمَّ عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وركبوا المعاصي، واستحلوا المحارم، ونسوا ما كان الله صنع بهم، وما نجاهم من عدوهم سنحاريب وجنوده، فأوحى الله إلى إرميا: أن ائت قومك من بني إسرائيل، فاقصص عليهم ما آمرك به، وذكرهم نعمي عليهم، وعرفهم أحداثهم فقال إرميا: إني ضعيف إن لم تقوني، عاجز إن لم تبلغني، مخطئ إن لم تسددني، مخذول إن لم تنصرني، ذليل إن لم تعزني.

قال الله: ألم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي، وأن القلوب كلها والألسن بيدي، أقلبها كيف شئت فتطيعني؟!، وأني أنا الله الذي لا شيء مثلي، قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي، وأنا كلمت البحار ففهمت قولي، وأمرتها فعقلت أمري، وحددت عليها بالبطحاء فلا تعدى حدي، تأتي بأمواج كالجبال، حتى إذا بلغت حدي ألبستها مذلة طاعتي خوفا واعترافا لأمري، إني معك ولن يصل إليك شيء معي، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتي، ونستحق بذلك مثل أجر من اتبعك منهم، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، وإن تقصر به عنها تستحق بذلك مثل وزر من تركت في عماه، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا انطلق إلى قومك فقل: إن الله ذكر بكم صلاح آبائكم، فحمله ذلك على أن يستتيبكم يا معشر الأبناء.

وسلهم كيف وجد آباءهم مغبة طاعتي وكيف وجدوا هم مغبة معصيتي! وهل علموا أن أحدا قبلهم أطاعني فشقي بطاعتي، أو عصاني فسعد بمعصيتي! وأن الدواب مما تذكر أوطانها

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 293. يعود وهب إلى التراث اليهودي، وإرميا عندهم هو إرميا النبي بن حلقيا، وليس هو الخَضِر العبد الصالح في قصة موسى، وفي العهد القديم، سفر إرميا 1: 1 – 2. «إرميا بن حلقيا من الكهنة الذين في عناثوث في أرض بنيامين، الذي كانت كلمة الرب إليه في أيام يوشيا بن آمون ملك يهوذا، في السنة الثالثة عشرة من ملكه».

(2) «كانت كلمة الرب إلي قائلًا: قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك. جعلتك نبيا للشعوب». العهد القديم، سفر إرميا 1: 4 – 6. وما بعد.

الصالحة تنتابها، وأن هؤلاء القوم رتعوا في مروج الهلكة أما أحبارهم ورهبانهم فاتَّخذوا عبادي خولا يتعبدونهم دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي، حتى أجهلوهم أمري، وأنسوهم ذكري، وغروهم مني.

وأما أمراؤهم وقادتهم فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، ونبذوا كتابي، ونسوا عهدي، وغيروا سنتي، وادان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي، ويتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني، جرأة علي وغرة، وفرية علي وعلى رسلي فسبحان جلالي وعلو مكاني وعظمة شأني!، وهل ينبغي لبشر أن يطاع في معصيتي! وهل ينبغي أن أخلق عبادا أجعلهم أربابا من دوني!.

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيتعبدون في المساجد، ويتزينون بعمارتها لغيري لطلب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العلم، ويتعلمون فيها لغير العمل وأما أولاد الأنبياء فمكثورون مقهورون مغترون، يخوضون مع الخائضين، فيتمنون علي مثل نصرة آبائهم، والكرامة التي أكرمتهم بها، ويزعمون أن لا أحد أولى بذلك منهم مني بغير صدق ولا تفكر ولا تدبر ولا يذكرون كيف نصر آبائهم لي، وكيف كان جدهم في أمري، حين غير المغيرون، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم، فصبروا وصدقوا حتى عز أمري، وظهر ديني، فتأنيت بهؤلاء القوم لعلهم يستجيبون، فأطولت لهم، وصفحت عنهم لعلهم يرجعون، واكثرت ومددت لهم في العمر لعلهم يتفكرون، فأعذرت.

وفي كل ذلك أمطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض، وألبسهم العافية، وأظهرهم على العدو، فلا يزدادون إلا طغيانا وبعدا مني فحتى متى هذا! أبي يتمرسون! أم إياي يخادعون! فإني أحلف بعزتي لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم، ويضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم ثمَّ لأسلطن عليهم جبارا قاسيا عاتيا، ألبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرأفة والرحمة والليان، يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم، له عساكر مثل قطع السحاب، ومراكب أمثال العجاج، كان خفيق راياته طيران النسور، وكأن حَمَلة فرسانه كرير العقبان[1].

ثم أوحى الله إلى إرميا أني مهلك بني إسرائيل بيافث، ويافث أهل بابل، فهم من ولد يافث بن نوح، فلمَّا سمع إرميا وحي ربه صاح وبكى وشق ثيابه، ونبذ الرماد على رأسه، فقال: ملعون يوم ولدت فيه، ويوم لقنت فيه التوراة، ومن شر أيامي يوم ولدت فيه، فما أبقيت آخر الأنبياء إلا لَمَّا هو شر علي، لو أراد بي خيرا ما جعلني آخر الأنبياء من بني إسرائيل، فمن أجلي تصيبهم الشقوة والهلاك! فلمَّا سمع الله تضرع الخَضِر وبكاءه، وكيف يقول، ناداه:

يا إرميا، أشق عليك ما أوحيت لك! قال: نعم يا رب، أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أسر به، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أهلك بيت المقدس وبني إسرائيل حتى يكون

---

(1) بأسلوب مختلف في المجالسة وجواهر العلم 3: 265.

الأمر من قبلك في ذلك ففرح عند ذلك إرميا لمَّا قال له ربه، وطابت نفسه وقال: لا، والذي بعث موسى وأنبياءه بالحق، لا آمر ربي بهلاك بني إسرائيل أبدا.

ثم أتى ملك بني إسرائيل فأخبره بما أوحى الله إليه فاستبشر وفرح، وقال: إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة قدمناها لأنفسنا، وإن عفا عنا فبقدرته. ثمَّ إنهم لبثوا بعد هذا الوحي ثلاث سنين، لم يزدادوا إلا معصية وتماديا في الشر، وذلك حين اقترب هلاكهم، فقل الوحي حين لم يكونوا يتذكرون الآخرة، وأمسك عنهم حين ألهتهم الدنيا وشأنها، فقال لهم ملكهم: يا بني إسرائيل، انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يمسكم بأس الله، وقبل أن يبعث الله عليكم قوما لا رحمة لهم بكم، فإن ربكم قريب التوبة مبسوط اليدين بالخير، رحيم بمن تاب إليه فأبوا عليه أن ينزعوا عن شيء مما هم عليه.

بختنصر وبيت المقدس

وإن الله ألقى في قلب بختنصر بن نبوزراذان بن سنحاريب بن دارياس بن نمرود بن فالغ ابن عابر، ونمرود صاحب ابراهيم، الذي حاجه في ربه، أن يسير إلى بيت المقدس، ثمَّ يفعل فيه ما كان جده سنحاريب أراد أن يفعل فخرج في ستمائه ألف راية يريد أهل بيت المقدس، فلمَّا فصل سائرا أتى ملك بني إسرائيل الخبر أن بختنصر قد أقبل هو وجنوده يريدكم، فأرسل الملك إلى إرميا، فجاءه فقال: يا إرميا، أين ما زعمت لنا أن ربك أوحى إليك ألا يهلك أهل بيت المقدس حتى يكون منك الأمر في ذلك!. فقال إرميا للملك: إن ربي لا يخلف الميعاد، وأنا به واثق. فلمَّا اقترب الأجل ودنا انقطاع ملكهم، وعزم الله تعالى على هلاكهم، بعث الله ملَكاً من عنده، فقال له: اذهب إلى إرميا واستفته، وأمره بالذي يستفتيه فيه.

فأقبل الملك إلى إرميا، وقد تمثل له رجلا من بني إسرائيل فقال له إرميا: من أنت؟ قال: أنا رجل من بني إسرائيل أستفتيك في بعض أمري، فأذن له، فقال له الملك: يا نبي الله، أتيتك أستفتيك في أهل رحمي، وصلت أرحامهم بما أمرني الله به، لم آت إليهم إلا حسنا، ولم آلهم كرامة، فلا تزيدهم كرامتي إياهم إلا إسخاطا لي، فأفتني فيهم يا نبي الله! فقال له: أحسن فيما بينك وبين الله، وصل ما أمرك الله أن تصل، وأبشر بخير.

فانصرف عنه الملك، فمكث أياما ثمَّ أقبل إليه في صورة ذلك الرجل الذي كان جاءه، فقعد بين يديه، فقال له إرميا: من أنت؟ قال أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي، فقال له نبي الله: اوما طهرت لك أخلاقهم بعد، ولم تر منهم الذي تحب! قال: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا وقد أتيتها إليهم وأفضل من ذلك فقال النبي: ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم، واسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلح ذات بينكم، وأن يجمعكم على مرضاته، ويجنبكم سخطه فقام الملك من عنده فلبث أياما، وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد، ففزع منهم بنو إسرائيل فزعا شديدا،

وشق ذلك على ملك بني إسرائيل، فدعا إرميا فقال: يا نبي الله، أين ما وعدك الله؟. فقال: إني بربي واثق.

ثم إن الملك أقبل إلى إرميا وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده، فقعد بين يديه، فقال له إرميا: من أنت؟ قال: أنا الذي كنت أتيتك في شأن أهلي مرتين، فقال له النبي: أولم يأن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه! فقال الملك: يا نبي الله، كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه، وأعلم أن مآلهم في ذلك سخطي، فلمّا أتيتهم اليوم رأيتهم في عمل لا يرضاه الله ولا يحبه، قال له النبي: على أي عمل رأيتهم؟.

قال: يا نبي الله، رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله، فلو كانوا على مثل ما كانوا عليه قبل اليوم، لم يشتد غضبي عليهم، وصبرت لهم ورجوتهم، ولكني غضبت اليوم لله ولك، فأتيتك لأخبرك خبرهم، وإني أسألك بالله الذي هو بعثك بالحق إلا ما دعوت عليهم أن يهلكهم الله قال إرميا: يا ملك السموات والأرض، إن كانوا على حق وصواب فأبقهم، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم.

فلمّا خرجت الكلمة من في إرميا أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس فالتهب مكان القربان، وخسف بسبعة أبواب من أبوابها. فلمّا رأى ذلك إرميا صاح وشق ثيابه، ونبذ التراب على رأسه، وقال: يا ملك السماء ويا أرحم الراحمين، أين ميعادك الذي وعدتني! فنودي: يا إرميا، إنه لم يصبهم الذي أصابهم إلا بفتياك التي أفتيت بها رسولنا فاستيقن النبي أنها فتياه التي أفتى بها ثلاث مرات، وأنه رسول ربه. وطار إرميا حتى خالط الوحوش.

دخول بختنصر بيت المقدس

ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس، فوطئ الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، وخرب بيت المقدس، ثمَّ أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثمَّ يقذفه في بيت المقدس، فقذفوا فيه التراب حتى ملئوه ثمَّ انصرف راجعا إلى أرض بابل، واحتمل معه سبايا بني إسرائيل، وأمرهم أن يجمعوا من كان في بيت المقدس كلهم، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل، فاختار منهم مائه الف صبى، فلمّا خرجت غنائم جنده، وأراد أن يقسمها فيهم، قالت له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك، لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل، ففعل فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة.

وكان من أولئك الغلمان: دانيال، وحنانيا، وعزاريا، وميشايل[1]، وسبعة آلاف من أهل بيت داود، وأحد عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين، وثمانية آلاف من سبط

(1) نقل نبوخذ نصر إلى بابل كل ما يحتمل أن يثير مقاومة، وإرميا، ورهائن من النسل الملكي، ومن الشرفاء، كان منهم دانيال وأصحابه الثلاثة، كما أخذ خزائن بيت الرب، وخزائن بيت الملك. العهد القديم، سفر الملوك الثاني 24: 12 – 16. وسفر دانيال 1: 1 – 7. ودائرة المعارف الكتابية 8: 27.

أشر بن يعقوب وأربعة عشر ألفا من سبط زبالون ابن يعقوب، ونفثالي بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى ابني يعقوب، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب ومن بقي من بني إسرائيل.

وجعلهم بختنصر ثلاث فرق، فثلثا أقر بالشام، وثلثا سبى، وثلثا قتل وذهب بآنية بيت المقدس حتى أقدمها بابل، وذهب بالصبيان السبعين الألف حتى أقدمهم بابل، وكانت هذه الوقعه الاولى التي أنزلها الله ببني إسرائيل بإحداثهم وظلمهم.

ثم أحدثوا بعد ذلك أيضا، فبعث الله أرميا النبي ليخبرهم بغضب الله عليهم، فقام فيهم بوحي الله، فضربوه وقيدوه وسجنوه، فبعث الله عند ذلك بخت نصر، وهي الكرة الأخرى التي ذكرها الله، فقال: { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا } سورة الإسراء: 7. فقتل منهم وصلب وأحرق وجدع، وباع ذراريهم ونساءهم، ومثل بهم كل مثلة. وصارت طائفة منهم إلى مصر ولجئوا إلى ملكها.

فسار بخت نصر إلى ملك مصر فاقتتلا، فظفر به بخت نصر فأسره، وأسر بنى إسرائيل، وقتل جنوده، ثمَّ لحق بأرض بابل. وأقام أرميا بأرض مصر واتَّخذ جنينة، وزرع فيها بقلا يعيش منه، فأوحى الله إليه: إن لك هما وشغلا عن الزرع والمقام بأرض مصر، وكيف تسعك أرض أو تحملك، مع ما تعلم من سخطى على بنى إسرائيل، فليحزنك هذا القضاء الذي قضيته على إيليا وأهلها، وأنه ليس زمن العمران. ولكنه زمن الخراب، فاعمد إلى جنينتك هذه فاهدم جدارها، وانتف بقلها، وغور نهرها، والحق بإيليا، ولتكن بلادك حتى يبلغ كتابي أجله.

فخرج إرميا مذعوراً خائفاً، وذلك في زمان الثمار، فركب أتاناً له، وتزود سلة فيها عنب وتين، واتَّخذ سقاء جديداً فملأه ماء، ثمَّ فتل حبلاً جديداً، فرسن به أتانه، ثمَّ انطلق حتى إذا رفع له شخص بيت المقدس رأى خراباً عظيماً لا يوصف، فقال[1]: { أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ }، وحماره وعصيره وسلة تينه عنده حيث أماته الله وأمات حماره معه، وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد ثمَّ بعثه الله فقال له: { كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا }.

فنظر إلى حماره يتصل بعض إلى بعض، وقد كان مات معه، بالعروق والعصب، ثمَّ كيف كسى ذلك منه اللحم حتى استوى، ثمَّ جرى فيه الروح، فقام ينهق ثمَّ نظر إلى عصيره وتينه، فإذا هو على هيئته حين وضعه لم يتغير.

فلمَّا عاين من قدرة الله ما عاين، { قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } سورة البقرة: 259

(1) المعارف: 48. والبداية والنهاية 2: 384.

[1]. ثمَّ عمر الله إرميا بعد ذلك، فهو الذي يرى بفلوات الأرض والبلدان.

(1) من: «فخرج إرميا مذعوراً ... » في تفسير عبد الرزاق 1: 357. والعظمة 2: 620.

دانيال

ثم إن بختنصر أقام في سلطانه ما شاء الله أن يقيم، ثمَّ رأى رؤيا، فبينما هو قد أعجبه ما رأى إذ رأى شيئا أصابه فأنساه الذي كان رأى، فدعا دانيال، وحنانيا وعزاريا، وميشايل من ذراري الأنبياء، فقال: أخبروني عن رؤيا رأيتها، ثمَّ أصابني شيء فأنسانيها، وقد كانت أعجبتني ما هي؟ قالوا له: أخبرنا بها نخبرك بتأويلها، قال: ما أذكرها، وإن لم تخبروني بتأويلها لأنزعن أكتافكم فخرجوا من عنده، فدعوا الله واستغاثوا وتضرعوا إليه، وسألوه أن يعلمهم إياها، فأعلمهم الذي سألهم عنه.

وإن بختنصر رأى في منامه صنماً، رأسه من ذهبٍ، وصدره من فضةٍ، وبطنه من نحاسٍ، وفخذه من حديدٍ، وساقه من فخارٍ، ثمَّ رأى حجراً من السماء، قد وقع عليه، فدقه، ثمَّ ربا[1] الحجر، حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأى شجرةً، أصلها في الأرض، وفرعها في السماء، ثمَّ رأى رجلاً بيده فأس، وسمع منادياً، ينادي: اضرب جذعها؛ ليتفرق الطير عن فروعها، وتتفرق الدواب والسباع من تحتها، واترك أصلها قائماً.

فعبرها له دانيال، فقال: أما الصنم الذي رأيت رأسه من ذهب، فأنت الرأس الذهب، وأنت أفضل الملوك، وأما الصدر الذي رأيت من فضةٍ، فهو ابنك، يملك من بعدك، وأما البطن الذي رأيت من نحاس، فملك يكون بعد ابنك، وأما ما رأيت من الفخذ الذي من حديد، فتتفرق فرقتان في فارس، تكونان أشدُّ الملوك، وأما الفخار، فآخر ملكهم، يكون دون الحديد، وأما الحجر الذي رأيت قد وقع من السماء، وربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب، فنبي يبعثه الله في آخر الزمان، فيفرق ملكهم كلهم، ويربو ملكه، حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب.

وأما الشجرة التي رأيت[2]، والطير الذي عليها والسباع والدواب التي تحتها، وما أمر بقطعها، فيذهب ملكك، ويردك الله طائراً، نسراً عظيماً، فتملك الطيور، ثمَّ يردك الله ثوراً، فتملك الدواب، ثمَّ يردك الله أسداً، فتملك السباع والوحوش، وتكون منذ مسخك الله، على ما ذكرنا سبع سنين، في ذلك كله، وقلبك قلب إنسان، حتى تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، وهو يقدر على الأرض، ومن عليها، وأما ما رأيت من أن أصلها قائم، فإن ملكك قائم[3].

---

(1) زاد.

(2) النبوة: 250.

(3) الرؤيا وتعبيرها في المعارف: 49. وقصص الأنبياء للثعلبي: 298. والكشف والبيان 6: 79. والبداية والنهاية 3: 542.
ورؤيا الصنم، أو التمثال الذهب وتعبيرها في العهد القديم، سفر دانيال 2: 31 - 36. ورؤيا الشجرة فيه 4: 10 - 13.

ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصر: أرأيت هؤلاء الغلمان من بني إسرائيل الذين كنا سألناك أن تعطيناهم ففعلت! فإنا والله لقد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا، لقد رأينا نساءنا علقن بهم وصرفن وجوههن إليهم، فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم، قال: شأنكم بهم، فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده فليفعل، فأخرجوهم فلمّا قربوهم للقتل تضرعوا إلى الله فقالوا:

يا ربنا، أصابنا البلاء بذنوب غيرنا، فتحنن الله عليهم برحمته، فوعدهم أن يحييهم بعد قتلهم، فقتلوا إلا من استبقى بختنصر منهم، وكان ممن استبقى منهم: دانيال، وحنانيا، وعزاريا، وميشايل.

ثم إن الله تبارك وتعالى حين أراد هلاك بختنصر، انبعث فقال لمن كان في يديه من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيت الذي أخربت، وهؤلاء الناس الذين قتلت، من هم؟ وما هذا البيت؟ قالوا: هذا بيت الله ومسجد من مساجده، وهؤلاء أهله كانوا من ذراري الأنبياء، فظلموا وتعدوا وعصوا فسلطت عليهم بذنوبهم، وكان ربهم رب السموات والأرض، ورب الخلق كلهم يكرمهم ويمنعهم ويعزهم، فلمّا فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله وسلط عليهم غيرهم.

قال: فأخبروني ما الذي يطّلع بي إلى السماء العليا، لعلي أطلع إليها فأقتل من فيها واتّخذها ملكاً، فإني قد فرغت من الأرض ومن فيها، قالوا له: ما تقدر على ذلك وما يقدر على ذلك أحد من الخلائق، قال: لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم، فبكوا إلى الله وتضرعوا إليه، فبعث الله بقدرته، ليريه ضعفه وهوانه عليه، بعوضة فدخلت في منخره ثمَّ ساخت في دماغه حتى عضت بأم دماغه، فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه.

فلمّا عرف الموت قال لخاصته من أهله: إذا مت فشقوا رأسي، فانظروا ما هذا الذي قتلني؟ فلمّا مات شقوا رأسه، فوجدوا البعوضة عاضة بأم دماغه ليري الله العباد قدرته وسلطان[1]ه، ونجى الله من كان بقي في يديه من بني إسرائيل وترحم عليهم وردهم إلى الشام والى إيلياء المسجد المقدس، فبنوا فيه وربلوا وكثروا، حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه. فيزعمون أن الله أحيا أولئك الموتى الذين قتلوا فلحقوا بهم[2].

فلمّا مات بختنصر، استخلف ابنه فلسطاس، وكانت آنية بيت المقدس التي حملها بختنصر إلى بابل عنده، وكان نجسها بلحوم الخنزير، وشرب فيها الخمر، وأقصى دانيال، فلم يقبل منه، فاعتزل دانيال، فبينما فلسطاس قاعد ذات يوم، إذ بدت له كف معلقة بغير ساعد، فكتبت ثلاثة أحرف بمشهده، ثمَّ غابت، فعجب من ذلك، وتحير، ولم يدر ما هي!، فدعا دانيال، واعتذر إليه،

(1) تفصيل مسخ بختنصر في تفسير عبد الرزاق 2: 322. وهو في حِلية الأولياء 4: 64. وفي العهد القديم، سفر دانيال 4: 33 – 37.

(2) قصة بختنصر في تاريخ دمشق 71: 346 – 357. حيث يقول وهب: «سألني ابن عبَّاس عن قصة بختنصر فقصصتها عليه، وتفتح رواية ابن عبَّاس عن وهب الباب على تبادلهما رواية القصص.

وسأله أن يقرأ له ذلك الكتاب، ويخبره بتأويله.

فقال دانيال: بسم الله الرحمن الرحيم، وزن، فخف، ووعد، فأنجز، وجمع، ففرق. فقال: أما قوله: وزن، فخف: أي وزن عملك في الميزان، فخف، ووعد، فأنجز: أي وعد ملكك بالخراب، فأنجز اليوم، وجمع، ففرق: أي جمع لك ولوالدك من قبلك، ملكاً عظيماً، ثمَّ فرق اليوم، فلا يجتمع إلى يوم القيامة، فلم يلبث إلا قليلاً، حتى أهلكه الله تعالى، وضعف ملكهم، وبقي دانيال بأرض بابل، إلى أن مات بالسوس[1]، والله أعلم.

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 300. والمعارف: 49. والسوس بلدة بخوزستان. معجم البلدان 3: 280. وهي مدينة الشوش، جنوب إيران.

عُزير

ثم إنهم لَمَّا دخلوا الشام دخلوها، وليس معهم عهد من الله، كانت التوراة قد استبيحت منهم فحُرقت، وهلكت، وكان عُزير[1] من السبايا الذين كانوا ببابل، فرجع إلى الشام يبكي عليها ليله ونهاره، قد خرج من الناس فتوحد منهم، وإنما هو ببطون الأودية وبالفلوات يبكي، فبينما هو كذلك في حزنه على التوراة وبكائه عليها، إذ أقبل إليه رجل، وهو جالس، فقال: يا عُزير ما يبكيك؟ قال: أبكي على كتاب الله وعهده، كان بين أظهرنا فبلغت بنا خطايانا، وغضب ربنا علينا أن سلَّط علينا عدونا، فقتل رجالنا، وأخرب بلادنا، وأحرق كتاب الله الذي بين أظهرنا، الذي لا يصلح دنيانا وآخرتنا غيره، فعلام أبكي إذا لم أبك على هذا! قال: أفتحب ان يرد ذلك عليك؟. قال: وهل إلى ذلك من سبيل؟. قال: نعم ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك، ثمَّ موعدك هذا المكان غدا.

فرجع عُزير فصام وتطهر وطهر ثيابه، ثمَّ عمد إلى المكان الذي وعده، فجلس فيه، فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء، وكان ملكاً بعثه الله إليه، فسقاه من ذلك الإناء، فمثلت التوراة في صدره، فرجع إلى بني إسرائيل، فوضع لهم التوراة يعرفونها بحلالها وحرامها وسننها وفرائضها وحدودها[2]، فأحبوه حبا لم يحبوه شيئا قط، وقامت التوراة بين أظهرهم، وصلح بها أمرهم، واقام بين اظهرهم عزيز مؤديا لحق الله، ثمَّ قبضه الله على ذلك[3]، ثمَّ حدثت فيهم الأحداث حتى قالوا لعزيز: هو ابن الله، وعاد الله عليهم فبعث فيهم نبيا كما كان يصنع بهم، يسدد أمرهم، ويعلمهم ويأمرهم بإقامة التوراة وما فيها[4].

قال عُزير أتاني الملَك، فقلت: أخبرني ما بقي من الدنيا قال: لا علم لي، ولم تسألني عما لا أعلم؟ قال: أنا أعلم أنه عند انقضاء الدنيا واقربت الآخرة وآية ذلك أن يكثر الكذب ويقل الصدق، ويظهر الفجور وينعدم البر، وتعود الأرض عقيمًا من الأنهار، وترى الشمس في أثر

---

(1) المعارف: 50.

(2) تفسير عبد الرزاق 1: 360.

وفي سفر إسدراس الثاني: 14، 42، 48. أن عزرا (العُزير) نبي التوراة، كان جالساً تحت ظل شجرة سنديان، فكلمه الله من غابة قريبة، وطلب منه أن يجمع كمية كبيرة من أدوات الكتابة، وخمسة من الكتبة، يستطيعون نقل ما سيملى عليهم بسرعة، وفي اليوم القادم، أعطى الله عزرا كأساً من مشروب عجيب، فأخذ يملي على الكتبة الوحي بأحرف لا يعرفونها، فتم وضع أربعة وتسعين سفراً، وأمر الله عزرا بأن ينشر أربعة وعشرين منها، ويخفي سبعين إلى على الحكماء. موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية: 49.

وفي العهد القديم، سفر نحميا 2: 11 – 12. «فجئت إلى أورشليم وكنت هناك ثلاثة أيام. ثمَّ قمت ليلاً أنا ورجال قليلون معي، ولم أخبر أحدًا بما جعله إلهي في قلبي لأعمله في أورشليم».

(3) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 1: 412.

(4) تاريخ الرسل والملوك 1: 549 – 557. وهو في تفسير ابن أبي حاتم 9: 2926.

ذلك من مغربها، وتقطر الشجر دمًا، وتجول الأنواء، وتنطق الحجارة، ويملك من لم يكن برجالة الملك، وتخبر الطير، وتخرج من تحت سدوم دابة تكلِّم الناس كل يسمعها، وتضع الحبالى قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجًا، ويتعادى الأخلاء وتخرق الحكمة ويرفع العلم، وتكلِّم الأرض التي تليها، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون ويتعنون، فيما لا ينالون، ويعملون فيما لا يأكلون.

وقال الملك الذي جاءني: فإن القبور هي بطن الأرض، وإن الأرض هي أم الخلق، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق وتمت هذه القبور التي مد الله لها، انقطعت الدنيا ومات من عليها ولفظت الأرض ما في جوفها وأخرجت القبور ما فيها[1].

***

قال وهب: قال عُزير: اللهم، أي رب، إنك سميت الرحمن الرحيم أرحم الراحمين لأنك ترحم الخاطئين، وتتجاوز عن المذنبين، وتسميت الجواد لأنك تعطي أكثر مما تسأل، إنما نحن خلقك، وعمل يديك خلقت أجسادنا في أرحام أمهاتنا، فصورتنا كيف تشاء بقدرتك، جعلت لنا أركانًا، وجعلت فيها عظامًا، وشققت لها أسماعًا، وأبصارًا، ثمَّ جعلت لها في تلك الظلمة نورًا، وفي ذلك الضيق فسيحًا، وفي ذلك الغم روحًا، ثمَّ هيأت لها بحكمتك رزقًا للحامل والمحمول كلاهما أنت تحمل وترزق.

فلمَّا أخرجته لمدته، أمرت الأركان، فتخلت، وأمرت العروق فلصقت، وخلقت له لبنًا صافيًا من فضلك، وجعلت لخلقك الذي خلقت رزقًا، ثمَّ هيأت له من فضلك رزقًا تقوته به على مشيئتك، ثمَّ وعظته بكتابك وحكمتك، ثمَّ قضيت عليه الموت لا محالة ثمَّ أنت تعيده كما بدأته[2].

وقال: قال عُزير: يتجلى الله تبارك وتعالى العلي على كرسي الكبرياء والنور، ويحكم بين العباد حكمًا ليس فيه ظلم، وليس بعده تظالم، فينصف العبد من السيد والذليل من الشريف ويقول لخلقه حين يجمعهم: انظروا بمن كفرتم وحق من جحدتم وقول من كذبتم وانظروا ما أعددت لكم هذا ملك ونعيم ونضرة وسرور، وهذا الزقوم الحميم والويل الطويل والناس قيام لرب العالمين.

وقال عُزير: اللهم، بكلمتك خلقت جميع خلقك، فأتى على مشيئتك لم تأت فيه مؤنةً، ولم تنصب فيه نصبًا كان عرشك على الماء، والظلمة على الهواء، والملائكة يحملون عرشك، ويسبِّحون بحمدك، والخلق مطيع لك خاشع من خوفك لا يرى فيه نور إلا نورك، ولا يسمع فيه صوت إلا صوتك.

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم 10: 3399.

(2) العظمة 5: 1633. تفسير ابن أبي حاتم 8: 2661.

ثم فُتحت خزائن النور، وطريق الظلمة، وكان ليلًا ونهارًا يختلفان بأمرك، ثمَّ أمرت الماء، فجمد في وسط الهواء، فجعلت منه سبعًا سميتهن السماوات، وملائكتك يسبِّحون بحمدك غير محتاجٍ إلى ذلك، ولا مستأنسٍ بهم، ثمَّ أمرت الماء فانفتق من التراب، وأمرت التراب أن يتميز من الماء، فكان كذلك، فسميت جميع ذلك الأرضين، وجميع الماء البحار[1]، ثمَّ زرعت في أرضك كل نباتٍ فيها بكلمةٍ واحدةٍ في ترابٍ واحدٍ يسقى بماءٍ واحدٍ.

فجاء على مشيئتك مختلفًا أكله، ولونه، وريحه، وطعمه منه الحلو، ومنه الحامض والمر، والطيب ريحه، والمنتن، والقبيح، والحسن، ثمَّ خلقت الشمس سراجًا، والقمر نورًا، والنجوم ضياءً، ثمَّ خلق من الماء دواب الماء، وطير السماء، فخلقت منها أعمى بصرته، ومنها أصم أذنٍ فسمعته، ومنها ميت أنفسٍ أحييته خلقت ذلك كله بكلمةٍ واحدةٍ، منه ما عيشه الماء، ومنه ما لا صبر له على الماء خلقًا مختلفًا في الأجسام والألوان.

جنسته أجناسًا، وزوجته أزواجًا، وخلقته أصنافًا، وألهمته الذي له خلقته، ثمَّ خلقت من التراب، والماء دواب الأرض، وماشيتها وسباعها، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربعٍ، ومنهم العظيم، والصغير، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون: 14[2].

***

وقال: كان فيما ناجى به عُزير ربه: اللهم، فإن لك من كلِّ خلق خلقته خيرة اخترتها، وإنك اخترت من النبات الحبلة، ومن المواشي الضائنة، ومن الطير الحمامة، ومن البيوت بيت إيلياء، ومن إيلياء بيت المقدس، ومن جميع الخلائق آدم، ومن ولد آدم نوحا، ومن ولد نوح إبراهيم، ومن ولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق، ومن ولد إسحاق إسرائيل؛ اللهم فاصبحت خيرتك قد تمت ونفذت في كل ما اخترت إلا ما كان من ولد خليلك إبراهيم، فإنهم أصبحوا أعبداً لأهل معصيتك وخولاً لأعدائك، فما الذي سلط علينا ذلك؟، أمن أجل خطايانا؟، فالخاطئون ولدونا، أو من أجل ضعفنا؟، فمن ضعف خلقنا.

قال: فجاءني الملك فكلمني، فبينما أنا كذلك سمعت صوتاً، هالني فنظرت، فإذا امرأة حاسرة عن رأسها، ناشرة شعرها، شاقة جيبها، تلطم وجهها. وتصرخ بأعلى صوتها، وتحثو التراب على رأسها، فأقبلت عليها وتركت ما كنت فيه، فقلت لها: ما بالك أيتها المرأة وما الذي دهاك؟ أخبريني خبرك، فقد أصابت المصائب غيرك؛ قالت: إليك عني أيها الرجل، فإن ربي هو الذي أبكاني، ومصيبتي أعظم مما ترى؛ فقلت: فإن في الله عزاء من كلِّ مصيبة، وخلفاً من كلِّ هالك، وعوضاً من كلِّ فائت، فإياه فاستعيني، وإلى نظره لك فانظري.

(1) تفسير ابن أبي حاتم 9: 3003. 1: 273. 4: 1259.

(2) العظمة 3: 1054. و4: 1373. تفسير ابن أبيَ حاتم 1: 273.

قالت: إني كنت امرأة كثيراً مالي، عظيماً شرفي، وكنت عاقراً لا ولد لي، وكنت عند بعل له نسوة معي، وكلهن ولد له غيري، فملن به لحب الولد، فصرف وجهه عني، فحزنت وحزن أهلي وصديقي، فلمّا رأيت هواني عليه وسقوط منزلتي عنده، رغبت إلى ربي ودعوته فأجابني، واستوهبته غلاماً، فوهبه لي، فقرت به عيني، وفرح أهلي، وعطف الله به زوجي، وقطع عني ألسنة ضرائري، فربيت غلاماً، لم تحمل أنثى مثله حسناً وجمالاً، ونضرة وتماماً.

فلمّا بلغ أشده، وكمل به سروري، خطبت عليه عظيمة قومي، وبذلت دونه مالي، وخرجت من خلعتي، وجمعت رجال قومي، فخرج يمشي بينهم حتى دخل بيته، فلمّا قعد على سريره، خر منه فاندقت عنقه، فمات ابني وضل عملي وبطل نصيبي، وتلف مالي، فخرجت إلى هذه البرية أبكيه فيها لا أريد أن أرى أثراً من آثاره، ولا أحداً من أصحابه، ولن أبرح أبكيه حتى ألحق به.

قال عُزير: اذكري ربك وراجعيه، فقد أصابت المصائب غيرك أما رأيت هلاك إيلياء وهي سيدة المدائن وأم القرى؟، أو ما رأيت مصيبة أهلها وهم الرجال؟. قالت: إي، رحمك الله! إن هذا ليس لي بعزاء وليست لي بشيء منه أسوة، إنما تبكي مدينة خربت، ولو تعمر عادت كما كانت، وإنما تبغي قوما وعدهم الله الكرة على عدوهم، وأنا أبكي على أمر قد فات، وعلى مصيبة لا أستقيلها.

قال عُزير: فإنه خلق لمًا صار إليه، وكل شيء خلق للدنيا فلابد أن سيفنى، أما رأيت مدينتنا أصبحت خاوية على عروشها بعد عمارتها، وأوحشت بعد أنسها وأثاثها؟، أو ما رأيت مسجدنا، كيف غير حسنه، وهدم حصنه، وأطفىء نوره؟، أو ما رأيت عز أهلها كيف ذل، وشرفهم كيف خمل، ومجدهم كيف سقط، وفخرهم كيف بطل؟، أو ما رأيت كتاب الله كيف أحرق، وولي الله كيف رفع، وتابوت السكينة، كيف سبي؟.

أو ما رأيت نساء الملوك وبناتهم في بطون الأسواق، حاسرات عن السوق والوجوه والأشعار؟، أو ما رأيت الأشياخ الذين على وجوههم النور والسكينة، مقرنين في الحبال والقطار! أو ما ؟، رأيت الأحبار والرهبان مصفدين في الإسار؟، أو ما رأيت أبناء موسى وهارون تضرب عليهم السهام ويقتسمهم الأشرار، وولدان الملوك خدما للكفار؟، أو ما رأيت قتلانا لم يوار أحداً منهم قبر، ولم يعهد أحد منهم إلى ولد؟.

فالحكماء مبهوتون، والعلماء يموجون، والحلماء متحيرون، وأهل الرأي ملقون بأيديهم مستسلمون. قال: فبينا أنا أكلمها غشى وجهها نور مثل شعاع الشمس حال بيني وبين النظر إليها، فخمرت من شدته وجهي، ورددت يدي على بصري، ثمَّ كشفت وجهي فإذا أنا لا أحسها، ولا أرى مكانها، وإذا مدينة قد رفعت لي حصينة بسورها وأبوابها.

فلمّا نظرت إلى ذلك خررت صعقا، فجاءني الملك فأخذ بضبعي ونعشني وقال لي: ما أضعفك يا عُزير! وقد زعمت أن بك من القوة ما تخاطب به ربك، وتدلي بالعذر عن الخاطئين

من بني إسرائيل. قال له عُزير: مثل الذي رأيت وعاينت أضعفني وأذهب روحي.

قال الملك: فإن المرأة التي كلمتك هي المدينة التي تبكي عليها، صورها الله لك في صورة أنثى فكلمتك، فافقه عنها: أما قولها: أنها عمرت زماناً من دهرها عاقراً لا ولد لها، فكذلك كانت إيلياء صعيداً من الأرض، خراباً لا عمران فيها أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

وأما قولها: إن الله وهب لها غلاماً عند اليأس، فذلك حين أقبل الله عليها بالعمران فابتعث الله منها أنبياءه وأنزل كتابه.

وأما قولها: إنه هلك ولدها حين كمل في سرورها، فذلك حين غير أهلها نعم الله وبدلوها، ولم يزدادوا بالنعم عليهم إلا جرأة على الله وفساداً، فغير الله ما بهم وسلط عليهم عدوهم حتى أفناهم، وقد شفعك الله في قومك وكتابك ومدينتك، وسيعيدها الله عامرة كما رأيت: عليها حيطانها وأبوابها، وفيها مساجدها وأنهارها وأشجارها[1].

(1) عيون الأخبار 2: 300.

عيسى ابن مريم

قال وهب[1]: كان زكريا بن ادن[2]، وعمران بن ماتان من ولد سليمان بن داود، وكانا على ابنتين لرجل من بني إسرائيل، يقال إنه من ولد هارون، وكان اسم امرأة زكريا بليسفع[3]، واسم امرأة عمران حنة، وكان زكريا نجاراً، قبل أن يبعث نبياً، وكان كثير العبادة، لا يفتر عن التسبيح، فنزل جبريل على زكريا، وبشره بالنبوة والرسالة من ربه، فخر زكريا ساجداً شكراً لربه، ثمَّ خرج زكريا إلى بني إسرائيل، فدعاهم إلى طاعة الله، فصدقه بعضهم، وكذبهم آخرون، وعمران بن ماتان معه، يسمع كلامه، وينتفع بما يقوله، وكلاهما لم يرزق ولداً.

فبينما حنة، ذات يوم، جالسة إلى جنب عمران، وفي الدار نخلة، عليها حمامة، وهي تزق فراخها، إذ نظرت حنة إليها، فبكت شوقاً إلى ولد[4]، وذكرت ذلك لزوجها، فقال لها: صدقت، وقومي ندعُ ربنا، فوثبا معاً، وأسبغا الوضوء، وصليا، وقالا: اللهم، لا تخرجنا من الدنيا حتى ترزقنا ولداً، نفرح به، فاستجاب الله دعاءهما، ثمَّ نام عمران، فأتاه آت في منامه، وأمره بمواقعة زوجته، ووعده أن يرزقهما بمولودةٍ صالحة، ثمَّ جامعها، فحملت منه حنة، فلمّا علمت بالحمل، أخبرت زوجها، وقالت: إني جعلت ولدي هذا محرراً، وكان الناس، في ذلك الزمان، يتقربون إلى الله بتحرير أولادهم، ويجعلونهم خدماً في مسجد بيت المقدس، حتى يبلغوا، فإذا بلغوا، كان من أحب أن يقيم على الخدمة أقام، ومن أحب أن ينصرف انصرف[5].

مولد مريم

قال تعالى مخبراً عن حنة أم مريم: { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }، فقال لها عمران: أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى، عورة، لا تصلح لخدمة بيت المقدس؛ من أجل أنها تحيض، وكانوا لا يحررون إلا الغلمان، فوقع عليها الغم، إلى أن وضعت

---

(1) قال كعب الأحبار في قصص الأنبياء للكسائي: 655 - 705. والقول لوهب. في المعارف: 52

(2) زكريا كاهن من فرقة أبيا، وقد قسم داود الكهنة إلى أربع وعشرين فرقة، وكان على كل فرقة من هذه، أن تقوم بالخدمة في الهيكل مدة أسبوع، ما عدا أيام الأعياد الكبرى التي كانت تشترك فيها كل الفرق، كان زكريا أبو يوحنا المعمدان (يحيى) من الفرقة الثامنة، فرقة أبيا. قاموس الكتاب المقدس: زكريا. وفي إنجيل لوقا 1: 5 - 7. «كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا، وامرأته من بنات هارون واسمها أليصابات، وكانا كلاهما بارين أمام الله، سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد، إذ كانت أليصابات عاقرًا. وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما».

(3) أشياع في البدء والتاريخ 3: 116، وأشباع في قصص الأنبياء للثعلبي: 333.

(4) فتطلعت إلى السماوات، ورأت عشاً للعصافير في شجرة الغار. إنجيل البداية ليعقوب 3: 1. في أبوكريفا العهد الجديد 1: 53، والقصة فيه.

(5) قصص الأنبياء للثعلبي: 327.

مريم، { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ }.

ثم حملتها ودخلت بيت المسجد، وزكريا هناك، في جماعة من عباد بني إسرائيل، فقال لها: ما هذه، يا حنة؟، قالت: هذه ابنتي مريم، وقد جعلتها محررةً، وإن الله قد قبلها مني، فاقبلوها ولا تردوها، فقالت بنو إسرائيل لزكريا: ما تقول في هذه؟، قال: تقول حنة: هذه جارية، وقد حررتها، ولا بد من متكفل إلى أن تبلغ مبلغ الخدمة، قالوا: أينا يكفلها؟، قال زكريا: أنا أولى بها؛ لأنها من أقاربي، وأبي ابن خالتها، قالوا: بل نقترع، فمن أصابته القرعة، كفلها، فأخذوا أقلامهم، وساروا إلى عين سلوان، فألقوا أقلامهم، وقالوا: اللهم، من وقف قلمه، فهو يكفلها، فرست أقلامهم جميعاً، إلا قلم زكريا، فأخذها زكريا، واسترضع لها بعض نساء بني إسرائيل.

ومات أبوها عمران، فصارت مريم يتيمةً، غير أن الله تعالى أنبتها نباتاً حسناً، فكانت تنبت في اليوم، مثل الشهر، وفي الشهر مثل السنة، وبنى لها زكريا بناء رفيعاً، في وسط المسجد، لا يصعد إليه أحد، إلا زكريا، وكان يحمل طعامها ابن خالتها، يقال له: يوسف بن يعقوب النَّجَّار، وكان يوسف من العباد المجردين، وكانت مريم تصلي زيادة على العباد، وكان زكريا، إذا صعد إليها، يجد عندها، في الصيف، فاكهة الشتاء، وفي الشتاء، فاكهة الصيف، فيتعجب من ذلك، فقال لها، ذات يوم: يا مريم، { أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }.

طلب زكريا الولد

فلمَّا رأى زكريا ذلك، قال في نفسه: إن الذي يرزق هذه البنت الفاكهة في غير وقتها، قادر على أن يرزق العجوز العقيم والشيخ الكبير، ولداً، فقال عند ذلك: { رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } سورة آل عمران: 35، 36، 37، 38. وكان دعاؤه في محراب داود، فكلمه المحراب، وقال له: يا زكريا، أنت نوري وبهائي في ظلمات الليل، وقد كبر سنك، ورق جلدك، وليس لك ولد، فمن يقوم مقامك بعدك؟، فاغتم غما شديداً، وذكر ذلك لزوجته، فقالت: صدق، إنك كبرت، ولا ولد لك، وإن هذه الحبورية، ورثتها عن آبائك، ومن يستلم بعدك التوراة، وطبقات الزبور، وأقلام المحررين، ومفاتيح القربان، فاغتم زكريا لذلك.

ثم دخل على مريم، والغم ظاهر في وجهه، فسألته، فقال: إني أحب أن يكون لي ولد، وقد كبر سني، وسن خالتك، فقدمت إليه سلةً، فيها رطب وعنب وتين وزيتون وموز ورمان، وقالت له: كل من هذه الفاكهة، يذهب غمك؛ لأنها من الجنَّة، فأكل زكريا منها، فوجد في نفسه قوة ونشاطاً، مما لم يكن يعهده من قبل، ثمَّ خرج من عند مريم، وصلى في محرابه، فلمَّا فرغ من صلاته، أراد أن يدعو الله أن يرزقه ولداً فاستحيا، وجلس، ومكث كذلك سبعة أيام.

فلمَّا كان اليوم السابع، وهو يوم عاشوراء، وبينما هو يصلِّي، وفي نفسه أن يدعو ربه، وهو يستحيي، إذ ناداه المحراب: يا نبي الله، أوجدت ربك بخيلاً؟ أو لم تعلم أنه بك رحيم؟، فعند ذلك شرع في الدعاء، قال الله تعالى: { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا } يعني عن قومه { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا } يعني أظن أنك لم تخيبني في الدعاء، { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي } يعني الذرية من بعدي أن تصير الحبورية في غير أولاد الأنبياء، { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } يعني مكاني وحبوريتي والتابوت الذي فيه السكينة، وأقلام المحررين، ومفاتيح القربان، { وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا } سورة مريم: 3 – 6. يعني في بني إسرائيل.

فارتفعت دعوة زكريا، ولها نور ساطع، من كثرة ما أثنى على الله، فنزلت إليها زمرة من الملائكة، ورفعتها إلى الله تعالى، فاستجاب الله تعالى دعوته، وبعث إليها جبريل، وزمرةً من الملائكة، معهم أعلام البشرى، فركزوها على المحراب، فسطع لهم نور في المحراب، ووجد زكريا لهم رائحة، أزكى من المسك.

وناداه جبريل[1]: { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } سورة مريم: 7. يعني لم يجعل الله تعالى هذا الاسم، في أحد قبله، { مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } سورة آل عمران: 39. يعني لم يكن يأتي النساء؛ لكرمه على ربه، قال زكريا: { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ } سورة مريم: 8 – 9. الله يفعل ما يشاء، { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا } سورة آل عمران: 41. يعني بالعينين والشفتين من غير خرس[2].

فقال زكريا لجبريل: إن كان هذا الغلام ممن يرث الدنيا، فلا حاجة لنا به، وإن كان ممن يريد الآخرة، فمرحباً به، فقال له جبريل: إنه لا يريد إلا الآخرة، وجعل زكريا يفكر في كبر سنه، وسن زوجته، وكيف يرزقان الولد مع ذلك، فقال له جبريل: ألم تعلم أن الله تعالى خلق أباك آدم، من غير أب ولا أم، وهو قادر على أن يخرج الولد من الشيخ والعجوز، وكانت آية زكريا، في حمل امرأته، اعتقال لسانه، مع صحة بدنه، ثمَّ عاد زكريا إلى محرابه.

نشأة مريم

ومريم تزداد، على استقبال الأيام عبادة، فاقت بها نساء بني إسرائيل، حتى بلغت مبلغ النساء، وبينما زكريا قاعد في منزله، إذ وافته مريم، فقال لها: كيف خرجت من بيتك، ومفتاحه معي؟!، قالت: إني رأيت أمراً قبيحاً، يعني حيضتها، فجئتك بإذن الله، فأمرها زكريا أن تكون

---

(1) ملاك الرب في إنجيل لوقا 1: 12.

(2) إنجيل لوقا 1: 18 – 22.

عند خالتها، حتى تطهر، ففعلت ذلك، فلمّا تطهرت، واغتسلت، عادت إلى عبادتها في مكانها، وكان ذلك شأنها.

فذلك قوله: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا } سورة مريم: 16 – 21. فسكنت مريم إلى قوله.

ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم، واشتملت على عيسى[1]. قَالَ: وكان معها ذو قرابة لها يقال له يوسف النَّجّار[2]، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم، وكانت مريم ويوسف يخدمان في ذلك المسجد في ذلك الزمان، وكان لخدمته فضل عظيم، فرغبا في ذلك، فكانا يليان معالجته بأنفسهما وتجميره وكناسته وطهوره، وكل عمل يعمل فيه، فكان لا يعلم من أهل زمانهما أحد أشدُّ اجتهادا وعبادة منهما، وكان أول من أنكر حمل مريم صاحبها يوسف.

فلمّا رأى الذي بها استعظمه، وعظم عليه، وفظع به، ولم يدر على ماذا يضع أمرها! فإذا أراد يوسف أن يتهمها ذكر صلاحها وبراءتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها فلمّا اشتدَّ عليه ذلك كلمها، فكان أول كلامه إياها أن قَالَ لها: إنه قد وقع في نفسي من أمرك أمر قد حرصت على أن أميته، وأكتمه في نفسي، فغلبني ذلك، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري، قالت: فقل قولا جميلا، قَالَ: ما كنت لأقول إلا ذلك، فحدثيني: هل ينبت زرع بغير بذر؟

قالت: نعم، قَالَ: فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها؟ قالت: نعم، قَالَ: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، والبذر إنما كان من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر! أولم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث، وأنه جعل بتلك القَدَرة الغيث حياة للشجر بعد ما خلق كل واحد منهما وحده! أو تقول لم يقدر الله على أن ينبت الشجر، حتى استعان عليه بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته! قَالَ لها يوسف: لا أقول ذلك، ولكني أعلم أن الله بقدرته على ما يشاء يقول لذلك: كن فيكون قالت له مريم: أولم تعلم

---

(1) إنجيل لوقا 1: 26 – 38. وفي إنجيل البداية ليعقوب 11: 1 – 2. في أبوكريفا العهد الجديد 1: 57. «فأخذت الجرة، وخرجت لتملأها بالماء، فهو ذا صوت قائل: السلام لك، أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء ... لا تخافي يا مريم، لأنك وجدت نعمة أمام رب الجميع، وأنت تحبلين حسب كلمته».

(2) كانت مريم مخطوبة له. إنجيل متى 1: 18.

أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ قَالَ: بلى[1].

فلمَّا قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لَمَّا رأى من كتمانها لذلك ثمَّ تولَّى يوسف خدمة المسجد، وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه، وذلك لَمَّا رأى من رقة جسمها واصفرار لونها، وكلف وجهها، ونتوء بطنها، وضعف قوتها، ودأب نظرها، ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك، فلمَّا دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك، فإنهم إن ظفروا بك عيروك وقتلوا ولدك فأفضت عند ذلك إلى أختها، وأختها حينئذ حبلى، وقد بشرت بيحيى،

فلمَّا التقيا وجدت أم يحيى ما في بطنها خر لوجهه ساجدا معترفا بعيسى، فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له، ليس بينها حين ركبت الحمار وبين الإكاف شيء، فانطلق يوسف بها، حتى إذا كان متاخما لأرض مصر في منقطع بلاد قومها[2]، أدرك مريم النفاس، وألجأها إلى أري حمار، يعني مزود الحمار، في أصل نخلة، وذلك في زمان الشتاء، فاشتدَّ على مريم المخاض، فلمَّا وجدت منه شدَّة التجأت إلى النخلة، فاحتضنتها واحتوشتها الملائكة، قاموا صفوفا محدقين بها.

فلمَّا وضعت وهي محزونة، قيل لها: { أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا } سورة مريم: 24 – 26. فكان الرطب يتساقط عليها، وذلك في الشتاء[3].

ولادة عيسى والشياطين

فأصبحت الأصنام التي كانت تعبد من دون الله حين ولدت بكلِّ أرض مقلوبة منكوسة على رءوسها، ففزعت الشياطين وراءها، فلم يدروا ما سبب ذلك، فساروا عند ذلك مسرعين، حتى جاءوا إبليس، وهو على عرش له، في لجة خضراء، يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ويحتجب، يتمثل بحجب النور التي من دون الرحمن، فاتوه وقد خلاست ساعات من النهار، فلمَّا رأى إبليس جماعتهم، فزع من ذلك، ولم يرهم جميعا منذ فرقهم قبل تلك الساعة، إنما كان يراهم أشتاتا، فسألهم فأخبروه أنه قد حدث في الأرض حدث أصبحت الأصنام منكوسة على

(1) الحوار بين يوسف النجار ومريم في إنجيل البداية ليعقوب 13: 1 – 3. في 14: 1 – 3. وأبوكريفا العهد الجديد 1: 58.

(2) في مدينة بيت لحم. إنجيل لوقا 2: 5. وإنجيل البداية ليعقوب، الإصحاح 16 و17. والقصة فيه.

(3) قصة مريم والنخلة موجودة في إنجيل غير قانوني، هو الإنجيل المنحول لمتى، مع بعض الاختلاف. مريم في القرآن: 251. وكذا في مولد مريم وطفولة المخلص: 20. في القرآن والتاريخ «ثم الطفل يسوع... كان مضطجعاً في حضن أمه، قال لشجرة التمر: يا شجرة التمر، اميلي أغصانك، وانعشي أمي بأثمارك». مولد مريم وطفولة المخلص: 20. والقصة فيه.

رءوسها، ولم يكن شيء أعون على هلاك بني آدم منها، كنا ندخل في أجوافها فنكلمهم، وندبر أمرهم فيظنون أنها التي تكلِّمهم، فلمَّا أصابها هذا الحدث صغرها في أعين بني آدم، وأذلها وأدناها، ذلك وقد خشينا ألا يعبدوها بعد هذا أبدا واعلم أنا لم نأتك حتى أحصينا الأرض، وقلبنا البحار وكل شيء قوينا عليه، فلم نزدد بها أردنا إلا جهلا.

قالَ لهم إبليس: إن هذا لأمر عظيم، لقد علمت بأني كتمته، وكونوا على مكانكم هذا فطار إبليس عند ذلك، فلبث عنهم ثلاث ساعات، فمر فيهن بالمكان الذي ولد فيه عيسى، فلمَّا رأى الملائكة محدقين بذلك المكان، علم أن ذلك الحدث فيه، فأراد إبليس أن يأتيه من فوقه، فإذا فوقه رءوس الملائكة ومناكبهم عند السماء ثمَّ أراد أن يأتيه من تحت الأرض، فإذا أقدام الملائكة راسية أسفل مما أراد إبليس ثمَّ أراد أن يدخل من بينهم فنحوه عن ذلك.

ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال لهم: ما جئتكم حتى أحصيت الأرض كلها مشرقها ومغربها، وبرها وبحرها، والخافقين، والجو الأعلى، وكل هذا بلغت في ثلاث ساعات، وأخبرهم بمولد المسيح، وقال لهم: لقد كتمت شأنه، وما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمي، ولا وضعته قط، إلا وأنا حاضرها، وأني لأرجو أن أضل به أكثر مما يهتدي به، وما كان نبي قبله أشدَّ علي وعليكم منه.

وخرج في تلك الليلة قوم يؤمونه من أجل نجم طلع أنكروه، وكان قبل ذلك يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال.

فخرجوا يريدونه، ومعهم الذهب والمر واللبان، فمروا بملك من ملوك الشام، فسألهم: أين يريدون؟ فأخبروه بذلك، قَالَ: فما بال الذهب والمر واللبان اهديتموه له من بين الأشياء كلها؟ قَالُوا: تلك أمثاله: لأن الذهب هو سيد المتاع كله، وكذلك هذا النبي هو سيد أهل زمانه، ولأن المر يجبر به الجرح والكسر، وكذلك هذا النبي يشفي به الله كل سقيم ومريض، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، كذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء لا يرفع في زمانه أحد غيره.

فلمَّا قَالُوا ذلك لذلك الملك حدث نفسه بقتله، فقال: اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلموني ذلك، فإني أرغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدية إلى مريم، وأرادوا أن يرجعوا إلى هذا الملك ليعلموه مكان عيسى، فلقيهم ملك فقال لهم: لا ترجعوا إليه، ولا تعلموه بمكانه، فإنه إنما أراد بذلك ليقتله، فانصرفوا في طريق آخر، واحتملته مريم على ذلك الحمار ومعها يوسف، حتى وردا أرض مصر، فهي الربوة التي قَالَ الله: { وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ } سورة المؤمنون: 50.

فمكثت مريم اثنتي عشرة سنة تكتمه من الناس، لا يطَّلع عليه أحد، وكانت مريم لا تأمن عليه ولا على معيشته أحدا، كانت تلتقط السنبل من حيث ما سمعت بالحصاد، والمهد في منكبها

والوعاء الذي تجعل فيه السنبل في منكبها الآخر، حتى تم لعيسى اثنتا عشرة سنة،

الأعمى والمقعد

فكان أول آية رآها الناس منه أن أمه كانت نازلة في دار دهقان من أهل مصر، فكان ذلك الدهقان قد سرقت له خزانة، وكان لا يسكن في داره إلا المساكين، فلم يتهمهم، فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان، فلمّا أن رأى عيسى حزن أمه بمصيبة صاحب ضيافتها، قَالَ لها: يا أمه، أتحبين أن أدله على ماله؟. قالت: نعم يا بني، قَالَ: قولي له يجمع لي مساكين داره، فقالت مريم للدهقان ذلك، فجمع له مساكين داره، فلمّا اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم: أحدهما أعمى والآخر مقعد، فحمل المقعد على عاتق الأعمى، ثمَّ قَالَ له: قم به، قَالَ الأعمى: أنا أضعف من ذلك، قَالَ عيسى: فكيف قويت على ذلك البارحة؟ فلمّا سمعوه يقول ذلك، بعثوا الأعمى، حتى قام به، فلمّا استقل قائما حاملا هوي المقعد إلى كوة الخزانة قَالَ عيسى: هكذا احتالا لمالك البارحة، لأنه استعان الأعمى بقوته، والمقعد بعينيه، فقال المقعد والأعمى: صدق.

فردا على الدهقان ماله ذلك، فوضعه الدهقان في خزانته، وقال: يا مريم خذي نصفه، قالت: إني لم أخلق لذلك، قَالَ الدهقان: فأعطيه ابنك، قالت: هو أعظم مني شأنا، ثمَّ لم يلبث الدهقان أن أعرس ابن له فصنع له عيدا فجمع عليه أهل مصر كلهم، فلمّا انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام لم يحذرهم الدهقان، حتى نزلوا به، وليس عنده يومئذ شراب، فلمّا رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان، فيه صفان من جرار، فأمر عيسى يده على أفواهها، وهو يمشي، فكلما أمر يده على جرة امتلأت شرابا، حتى أتى عيسى على آخرها، وهو يومئذ ابن اثنتي عشرة سنة، فلمّا فعل ذلك عيسى فزع الناس لشأنه وما أعطاه الله من ذلك.

فأوحى الله إلى أمه مريم، أن اطلعي به إلى الشام، ففعلت الذي أمرت به، فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، فجاءه الوحي على ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين ثمَّ رفعه الله إليه، فلمّا رآه إبليس يوم لقيه على العقبة لم يطلق منه شيئا، فتمثل له برجل ذي سن وهيئة، وخرج معه شيطانان ماردان متمثلين كما تمثل إبليس، حتى خالطوا جماعة الناس.

وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفا، فمن أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق ذلك منهم أتاه عيسى يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله، فجاءه إبليس في هيئة يبهر الناس حسنها وجمالها، فلمّا رآه الناس فرغوا له، ومالوا نحوه، فجعل يخبرهم بالأعاجيب، فكان في قوله: إن شأن هذا الرجل لعجب، تكلّم في المهد، وأحيا الموتى، وأنبأ عن الغيب، وشفى المريض، فهذا الله قَالَ أحد صاحبيه: جهلت أيها الشيخ، وبئس ما قلت! لا ينبغي لله أن يتجلى للعباد، ولا يسكن الأرحام، ولا تسعه أجواف النساء، ولكنه ابن الله وقال الثالث: بئس ما قلتما، كلا كما قد أخطأ وجهل، ليس ينبغي لله أن يتخذ ولدا،

ولكنه إله معه، ثمَّ غابوا حين فرغوا من قولهم، فكان ذلك آخر العهد منهم[1].

الغلام المقتول

وبينما عيسى يلعب مع الصبيان بأرض مصر، إذ وثب غلام على صبي، فوكزه برجله فقتله، فألقاه بين يدي عيسى، وهو ملطخ بالدم، فاطلع الناس عليه، فاتهموه به، فأخذوه وانطلقوا به إلى قاضي مصر، فقالوا له: هذا قتل هذا. فسأله القاضي، فقال عيسى: لا أدري من قتله، وما أنا بصاحبه. فأرادوا أن يبطشوا بعيسى، فقال لهم: آتوني بالغلام. فقالوا له: ما تريد منه؟. قال: أريد أن أسأله من قتله؟. قالوا: وكيف يكلمك، وهو ميت؟.

فأخذوه، وأتوا به إلى مقتل الغلام، فأقبل عيسى على الدعاء، فأحياه الله تعالى، فقال له عيسى: من قتلك؟. قال: قتلني فلان. على الذي قتله، فقال بنو إسرائيل: من هذا؟. قال: هذا عيسى ابن مريم. قالوا: فمن هذا الذي معه؟. قال: قاضي بني إسرائيل. ثمَّ مات الغلام من ساعته[2]، فرجع عيسى إلى أمه، وتبعه خلق كثير من الناس، فقالت له أمه: يا بني، ألم أنهك عن هذا؟. فقال: { فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين } سورة يوسف: 64.

عودة عيسى وأمه إلى بيت المقدس

ولم يزل عيسى وأمه بمصر اثنتي عشر سنة، حتى أهلك الله الملك هيردس، فأرسل زكريا إلى مريم، وأمرها بالرجوع إلى بيت المقدس، فرجعت، فأقام عيسى فيهم، ما شاء الله، يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، ويريهم العجائب، ثمَّ خرج هو وأمه إلى قرية، اسمها ناصرة، وإليها ينسب النصارى[3]، ثمَّ أوحى الله تعالى إلى عيسى، بعد أن تمت له ثلاثون سنة، أن يبرز إلى الناس، ويدعوهم إلى الله تعالى، وأنزل عليه الإنجيل، فكانوا يقولون له: ما علامة نبوتك؟، فقال: { أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا } سورة آل عمران: [4]49.

فقالوا له: احي لنا سام بن نوح، فقام عيسى، وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى، فقام سام بن نوح، وهو أبيض الرأس واللحية، فقالوا له: ما هذا الشيب، ولم يكن الشيب في زمانك؟، فقال: لَّما سمعت النداء، ظننت أن القيامة قد قامت، فشاب رأسي ولحيتي من الهول، فقالوا له: منذ كم

---

(1) تاريخ الرسل والملوك 1: 594 – 599.

(2) القصة باختلاف طفيف في إنجيل الطفولة لتوما 9: 1 – 5. أبوكريفا العهد الجديد 1: 68.

(3) قصص الأنبياء للثعلبي: 342 – 343.

(4) قال وهب: كان يطير، ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عنهم سقط ميتاً، ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى، وليعلم أن الكمال لله. قصص الأنبياء للثعلبي: 345.
والقصة في إنجيل الطفولة لتوما 2: 1 – 5، وهي أنه صنع بعض الصلصال الطري، وشكل منه اثني عشر عصفوراً، وكان يوم السبت لما فعل تلك الأفعال، وكان هناك أيضاً عديد من الأطفال الآخرون يلعبون معه، فلما رأى أحد اليهود ما يفعله يسوع، أنه يلعب في السبت، ذهب في التو وقال لأبيه يوسف... فصفق يسوع بيديه، وصاح في العصافير، وقال لهم: انطلقوا بعيداً، فطارت العصافير، وانطلقت بعيداً صائحة.

أنت ميت؟، فقال: منذ أربعة آلاف سنة، وما ذهبت عني سكرات الموت إلى الآن، فادع الله تعالى يا عيسى، أن يعيدني إلى قبري، وكان بين عينيه أثر السجود، فدعا الله تعالى، فأعاده إلى قبره[1].

فقالوا: هذا سحر، فأرنا آية أخرى، قال: ما تريدون؟، قالوا: أخبرنا بما نأكل وما ندخر في بيوتنا؟، فأخبرهم بذلك، ولم يؤمنوا، فانصرف عنهم ذلك اليوم، وجاءهم من الغد، فقالوا: جاء الساحر بن الساحرة، فشق ذلك على عيسى، وقال: اللهم، إنك قد علمت أنهم نسبوني وأمي إلى السحر، فالعنهم، فمسخهم الله خنازير، فعاشوا ثلاثة أيام ثمَّ ماتوا، وانتشر خبره في اليهود، فأجمعوا على قتله، فلم يقدروا.

عيسى مع يهودي

وخرج عيسى، يسيح في الأرض، فصحبه يهودي، وكان مع اليهودي رغيفان، ومع عيسى رغيف. فقال له عيسى: أتشاركني في طعامك؟. قال اليهودي: نعم. فلمَّا رأى اليهودي أن عيسى ليس معه إلا رغيف واحد، ندم، فقام عيسى إلى الصلاة، فأكل اليهودي رغيفاً، فلمَّا قضى عيسى صلاته، قدما طعامهما، فقال عيسى لليهودي: أين الرغيف الآخر؟. فقال: ما كان إلا رغيف واحد. فأكل عيسى رغيفاً وصاحبه رغيفاً، ثمَّ انطلقا فجاءا إلى شجرة، فقال عيسى لصاحبه: لو أننا بتنا تحت هذه الشجرة، حتى نصبح!. فقال: أفعل.

فباتا ثمَّ أصبحا، فانطلقا منطلقين، فلقيا أعمى، فقال له عيسى: أرأيت، إن عالجتك حتى يرد الله عليك بصرك، فهل تشكره؟. قال نعم. فمس عيسى بصره، ودعا الله تعالى له، فإذا هو صحيح، فقال عيسى لليهودي: بالذي أراك الأعمى بصيراً، كم كان معك من رغيف؟. فقال: والله ما كان إلا رغيف واحد. فسكت عيسى عنه.

ومرا، فإذا هما بمقعد، فقال له عيسى: أرأيت إن عالجتك، فعافاك الله تعالى، فهل تشكره؟. قال: بلى. فدعا الله عيسى، فإذا هو صحيح قائم على رجليه، فقال صاحب عيسى: ما رأيت مثل هذا قط!. فقال عيسى: بالذي أراك الأعمى بصيراً والمقعد صحيحاً، من صاحب الرغيف الثالث؟. فحلف له اليهودي ما كان معه إلا رغيف واحد، فسكت عيسى.

وانطلقا حتى انتهيا إلى نهرٍ عجاجٍ، فقال عيسى: لا أرى جسراً ولا سفينة، فخذ بحجزتي من ورائي، وضع قدمك موضع قدمي. ففعل، ومشيا على الماء، فقال له عيسى: بالذي أراك الأعمى بصيراً، والمقعد صحيحاً، وسخر لك هذا البحر، حتى مشيت عليه، من صاحب الرغيف الثالث؟. فقال: لا، والله ما كان إلا رغيف واحد، فسكت عيسى.

وانطلقا فإذا هما بظباء يرعين، فدعا عيسى بظبي، فأتاه فذبحه، وشوى منه بعضاً وأكلاه، ثمَّ ضرب عيسى بقية الظبي بعصاه، وقال: قم بإذن الله، فإذا الظبي يعدو، فقال الرجل: سبحان

(1) الملوك المتوّجة من حمير: 35.

الله!. فقال عيسى: بالذي أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الآخر؟. فقال: ما كان إلا رغيف واحد.

فانطلقا فمرا بصاحب بقرٍ، فنادى عيسى: يا صاحب البقر، اجزر لنا من بقرك هذه عجلاً. قال: ابعث صاحبك يأخذه. فانطلق اليهودي، فجاء به، فذبحه وشواه، وصاحب البقر ينظر إليه، فقال له عيسى: كل ولا تكسر له عظماً. ففعل، فلمّا فرغ، قذف بعظامه في جلده، وضربه بعصاه، وقال: قم بإذن الله تعالى. فقام العجل، وله خوار، فقال: يا صاحب البقر، خذ عجلك. قال: ويحك، من أنت؟. قال: أنا عيسى بن مريم. قال: عيسى السحار!. ثمَّ فر منه. فقال عيسى لصاحبه: بالذي أحيا لك العجل، كم كان معك من رغيف؟. قال: ما كان معي إلا رغيف واحد. فسكت عيسى.

ومضيا حتى دخلا قريةً، فنزل عيسى في أسفلها، واليهودي في أعلاها، فأخذ اليهودي عصا عيسى، وقال: أنا الآن أبرئ المرضى، وأحيي الموتى. قال: وكان ملك تلك المدينة مريضاً مدنفاً. فانطلق اليهودي ينادي: من يبتغي طبيباً؟. حتى أتى قصر الملك، فأخبر بوجعه، فقال: ادخلوني عليه، فأنا أبرئه، وإن لقيتموه قد مات، فأنا أحييه. فقيل له: إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك، فليس من طبيبٍ، يداويه، ولا يشفيه إلا صلبه. فقال: إدخلوني عليه. فأدخلوه، فضرب الملك بعصاه، فمات، فعجل يضربه بالعصا، وهو ميت، ويقول: قم بإذن الله.

فأخذ ليصلب، فبلغ ذلك عيسى، فأقبل إليه، وقد رفع على الخشبة، فقال لهم: أرأيتم، إن أحييت لكم الملك، أتتركون لي صاحبي؟. قالوا: نعم. فدعا الله تعالى، فأحياه وقام، وأنزل اليهودي من الخشبة، فقال: يا عيسى، أنت أعظم الناس علي منةً، والله، لا أفارقك أبداً. فقال له عيسى: أنشدك الله الذي أحيا الظبي والعجل بعد ما أكلناهما، وأحيا هذا بعد ما مات، وأنزلك من الجذع، بعد ما صلبت، كم كان معك من رغيف؟. قال: والله، ما كان معي إلا رغيف واحد. قال: لا بأس.

ثم انطلقا، حتى أتيا قرية عظيمة خربة، فيها كنز، وفيها ثلاث لبناتٍ من ذهب، فقال الرجل لعيسى: هذا المال لك؟. فقال: أجل، واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة للذي أكل الرغيف الثالث. فقال اليهودي: أنا والله، أكلته، وأنت تصلي. فقال عيسى: هي لك كلها.

فانطلق عيسى، وتركه قائماً ينظر، وهو لا يستطيع أن يحمل واحدة منهن، وكلما أراد أن يحمل واحدة ثقلت عليه، فقال له عيسى: دعه، فإن له أهلاً، يهلكون عليه، فجعلت نفس اليهودي تطلع إلى المال، ويكره أن يعصي عيسى، ويعجزه حمل المال، فانطلق مع عيسى،

فبينما هما كذلك، إذ مرَّ بالمال ثلاثة نفرٍ، فأقاموا عليه، فقال اثنان منها لصاحبهما: انطلق إلى أهل هذه القرية، فأتنا بطعام وشراب ودواب، نحمل هذا المال عليها. فلمّا ذهب صاحبهما، قال أحدهما للآخر: هل لك أن نقتله، إذا رجع، ونقتسم المال فيما بيننا؟. قال: نعم. وقال الذي ذهب

في نفسه: أنا أجعل في الطعام سماً، فإذا أكلاه ماتا، ويصير المال كله إلي. ففعل ذلك.

فلمّا رجع إليهما، قتلاه، ثمَّ أكلا الطعام فماتا، وإن عيسى مرَّ بهم، وهم حوله مقتولون، فقال: لا إله إلا الله، هكذا تصنع الدنيا بأهلها. ثمَّ إن عيسى أحياهم بإذن الله، فاعتبروا، ومروا، ولم يأخذوا من المال شيئاً، فتطلعت نفس اليهودي، صاحب عيسى إلى المال، فقال: أعطني المال. فقال له عيسى: خذه لك، فهو حظك من الدنيا والآخرة. فلمّا ذهب ليحمله، خسف به الأرض، فانطلق عيسى[1].

التعرف على الحواريين

وبينما عيسى سائح على ساحل البحر، إذ مرَّ بقوم قصارين، فوقف عليهم، وقال لهم: أراكم تقصرون هذه الثياب، وتنظفونها من أوساخها، فلم لا تفعلون ذلك مع قلوبكم؟!، ثمَّ قال لهم: إني رسول الله إليكم جميعاً، وبشرهم برسول الله ، فقال: { وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } سورة الصف: 6. فآمنوا به واتبعوه، وكانوا اثني عشر رجلاً، أربعة منهم، كانوا يصيدون السمك، وهم شمعون، وأخ له اسمه أندريوس، ويعقوب، ويوحنا، وثمانية يقصرون الثياب، وهم بطرس، ولوقا، وتوما، ومتى، وجرجيس، ويحيى، وأيُّوب، ويونس، وكان من القصارين، رجل أسفل النهر، يقال له: يهوذا، لم يسمع كلام عيسى، فلمّا رأى أصحابه اتبعوه لحق بهم، وهو الذي ارتد بعد ذلك، ودل اليهود على عيسى، فصاروا به، قبل ارتداده، ثلاثة عشر.

فدعاهم عيسى إليه، وقال: قد أحسنتم إيمانكم، وقد عزمت أن أجعلكم رسلاً إلى جميع البلاد، فقالوا: كيف نقدر على ذلك، وألسنتنا عبرانية وسريانية، ولا يفهمون كلامنا؟، فقال: لا عليكم، فأجابوه بالسمع والطاعة فأمر توما أن يمضي إلى أرض بلاد الحبشة، ويدعوهم إلى الإيمان بالله، فقال: يا نبي الله، أخاف أن يكذبوني؟!، فقال: آمرك، وتعصي أمري؟!، اجلس، وأرسل شمعون إلى الهند، ويونس إلى أرض السند، ومتى إلى أرض فارس، وفرق الباقين في البلاد[2].

إحياء عُزير

وسأل بنو إسرائيل عيسى أن يحيي لهم عُزيراً، فقال: التمسوا قبره، فالتمسوه، فوجدوه في صندوقٍ من حجر، فعالجوه ليفتحوا بابه، فلم يستطيعوا ذلك، فرجعوا إلى عيسى، وأخبروه أنهم عجزوا أن يخرجوه من قبره، فأعطاهم ماء في إناء، وقال: انضحوه بهذا الماء، فإنه ينفتح، فانطلقوا ونضحوه بالماء، فانفتح طابقه، فأقامه عيسى في أكفانه، ونزعها عنه، ثمَّ جعل ينضح جسده بالماء، ولحمه ينبت وشعره، وهم ينظرون، ثمَّ قال عيسى: يا عُزير، احي بإذن الله، فإذا هو

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 349.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 351.

جالس، فقالوا: ما شهادتك على هذا الرجل؟، فقال عُزير: أشهد أنه روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وأنه عبد الله ونبيه وابن أمته، قالوا: يا عيسى، ادع ربك يحيه لنا، فيكن بين أظهرنا، فقال عيسى: ردوه إلى قبره، فإنه قد انقطع رزقه، وانقضى أجله، فردوه إلى قبره[1].

عيسى والقَدَر

ولما أنزل الله على عيسى الإنجيل، وعلمه الكتاب والحكمة، وإبراء الأكمه والأبرص، ورأى موضعه من الله، قال: اللهم، إنك رب عظيم، ولو شئت أن تطاع ما عصيت، وإن تحب أن تطاع، فأنت في ذلك تعصى، فكيف هذا يا رب؟، فأوحى الله إليه: أني لا أسأل عما افعل، وهم يسألون، يا عيسى، أنت كلمتي وروحي، وأنا خلقتك، ثمَّ قلت لك: كن فكنت، فانتهى عيسى، وقال: إن القَدَر سر الله في الأرض، فلا تتكلفوه.

المائدة

لَمَّا سأل الحواريُّون عيسى - صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليمًا - المائدة كره ذلك جدا، وقال: «يا قوم، اتقوا الله واقنعوا بما رزقكم الله تعالى في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء؛ فإنها إن نزلت عليكم، كانت آيةً من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آيةً، فابتلوا بها حتى كان بوارهم، يعني هلاكهم، فأبوا إلا أن تأتيهم فلذلك { قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } سورة المائدة: 113.

فلمَّا رأى عيسى أنهم قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها، ألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود، جبةً من شعرٍ، وعباءةً من شعرٍ، ثمَّ توضأ واغتسل ودخل الصلاة وصلى ما شاء الله، فلمَّا قضى صلاته قام قائمًا، فاستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا، فألصق الكعب بالكعب، وحاذى الأصابع بالأصابع، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى فوق صدره، وأغضى بصره، وطأطأ رأسه خشوعًا، ثمَّ أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت دموعه تسيل على خديه، وتقطر من أطراف لحيته، حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه، فلمَّا رأى ذلك دعا الله تعالى، فقال: { اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا } أي تكون لنا عظةً { لِأَوَّلِنَا وَآَخِرِنَا وَآَيَةً مِنْكَ } أي وعلامةً منك تكون بيننا وبينك { وَارْزُقْنَا } عليها طعامًا نأكله { وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } سورة المائدة: 114.

فأنزل الله تعالى عليهم سفرةً حمراء بين غمامتين، غمامةٍ فوقها وغمامةٍ تحتها، وهم ينظرون إليها في الهواء، تنقضُّ من ظلل السماء، وتهوي إليهم، وعيسى يبكي خوفًا للشروط التي اتَّخذ الله عليهم فيها، أنه يعذب من يكفر بها منهم، بعد نزولها عذابًا، لا يعذبه أحدًا من العالمين، وهو يدعو الله في مكانه، ويقول: إلهي، اجعلها رحمةً، إلهي لا تجعلها عذابًا، إلهي كم من عجيبةٍ سألتك فأعطيتني، إلهي اجعلنا لك شاكرين، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبًا وزجرًا، إلهي اجعلها

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 345.

سلامةً وعافيةً ولا تجعلها فتنةً ومثلةً.

فما زال يدعو بذلك حتى استقرَّت السفرة بين يدي عيسى، والحواريُّون وأصحابه حوله يجدون رائحةً طيبةً، لم يجدوا فيها مضى رائحةً مثلها قطُّ، وخرَّ عيسى ساجدًا؛ شكرًا له بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آيةً عظيمةً ذات عجبٍ وعبرةٍ، وأقبلت اليهود - لعنهم الله تعالى -، ينظرون فرأوا أمرًا عظيمًا عجيبًا، أورثهم كمدًا وغمًّا، ثمَّ انصرفوا بغيظٍ شديدٍ.

وأقبل عيسى والحواريُّون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة، فإذا عليها منديل مغطى، قال عيسى: من أجرأنا على كشف المنديل عن هذه السفرة، وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاءً عند ربه، فليكشف عن هذه الآية حتى نراها، ونحمد ربَّنا، ونذكر اسمه، ونأكل من رزقه الذي رزقنا؟. قال الحواريُّون: يا روح الله، وكلمته أنت أولانا بذلك، وأحقُّنا بالكشف عنه،

فقام عيسى، فاستأنف وضوءًا جديدًا، ثمَّ دخل مصلاه، فصلى لذلك ركعاتٍ، ثمَّ بكى طويلًا، ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها، ويجعل له ولقومه فيها بركةً ورزقاً، ثمَّ انصرف وجلس إلى السفرة، وتناول المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين. وكشف عن السفرة، فإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية، ليس عليها بواسير (زعانف)، وليس في جوفها شوكٌ، يسيل السمن منها سيلًا، قد نضد حولها فضول من كلِّ صنفٍ غير الكرَّاث، وعند رأسها خلٌّ، وعند ذنبها ملح، وحول البقول خمسة أرغفةٍ، على واحدٍ منها زيتون، وعلى الآخر تمرات، وعلى الآخر خمس رماناتٍ.

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى: يا روح الله، أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنَّة؟. فقال: أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتنتهوا عن المسائل؟. ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية!. فقال شمعون: لا، وإله إسرائيل، ما أردت بهذا سوءًا، يا ابن الصدِّيقة. فقال عيسى: ليس شيء مما ترون عليها من طعام الجنَّة، ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيءٌ، ابتدعه الله في الهواء بالقُدرة الغالبة القاهرة. فقال له: كن. فكان أسرع من طرفة عينٍ، فكلوا ما سألتم بسم الله، واحمدوا عليه ربَّكم، يمدَّكم منه، ويزدْكم؛ فإنه بديع قادر شاكر.

قالوا: يا روح الله وكلمته، إنا نحبُّ أن ترينا آيةً في هذه الآية، فقال عيسى: سبحان الله، ما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية، حتى تسألوا إليها آيةً أخرى؟!. ثمَّ أقبل عيسى على السمكة، فقال: يا سمكة، عودي بإذن الله حيةً كما كنت. فأحياها الله بقدرته، فاضطربت وعادت بإذن الله تعالى، حيَّةً طريَّةً، تلمظ كما يلمظ الأسد، تدور عيناها، لها بصيص، وعادت عليها بواسيرها، ففزع القوم منها وانحاشوا.

فلمَّا رأى عيسى ذلك منهم، قال: ما لكم تسألون الآية، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟!. ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون!، يا سمكة، عودي بإذن الله كما كنتِ. فعادت بإذن الله تعالى مشويةً، كما كانت في خلقها الأول.

فقالوا لعيسى: كن أنت يا روح الله وكلمته، الذي يبدأ بالأكل، ثمَّ نحن بعد. فقال عيسى: معاذ الله من ذلك، يبدأ بالأكل من طلبها. فلمّا رأى الحواريُّون وأصحابهم، خافوا أن يكون نزولها سخطةً، وفي أكلها مثلةً[1]، فتحاموها فلماَّ رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزمنى، وقال: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله الذي أنزلها ليكون مهنأها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا أكلكم باسم الله واختموه بحمد الله، ففعلوا فأكل منها ألف وثلاث مائة إنسانٍ بين رجلٍ وامرأةٍ يصدرون عنها كل واحدٍ منهم شبعان يتجشأ.

***

ونظر عيسى والحواريُّون، فإذا ما عليها كهيئتها إذ نزلت من السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقيرٍ أكلٍ منها وبرئ كل زمنٍ أكل منها فلم يزالوا أغنياء صحاحًا حتى خرجوا من الدنيا وندم الحواريُّون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامةً سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم المات

فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك، أقبلت بنو إسرائيل إليها من كلِّ مكانٍ، يزاحم بعضهم بعضًا، الأغنياء والفقراء، والنساء والصغار والكبار، والأصحَّاء والمرضى، يركب بعضهم بعضًا، فلمَّا رأى ذلك، جعلها نوائب بينهم، وكانت تنزل غُبًّا[2]، فتنزل يومًا ولا تنزل يومًا كناقة ثمود، ترد ماءهم يومًا، وتغيب عنهم في رعيها يومًا، فلبثوا في ذلك أربعين يومًا، تنزل غُبًّا عند ارتفاع الضحى، فلا تزال موضوعةً، يؤكل منها حتى إذا قاموا، ارتفعت عنهم بإذن الله تعالى إلى جو السماء، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض، حتى يتوارى عنهم.

فأوحى الله إلى نبيه عيسى أن اجعل رزقي في المائدة لليتامى والفقراء والزمنى، دون الأغنياء من الناس. فلمَّا فعل ذلك، ارتاب بها الأغنياء، وغمصوا ذلك، حتى شكُّوا فيها، وشكَّكوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته، وقذف وساوسه في قلوب المرتابين، حتى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة، ونزولها من السماء؛ فإنه قد ارتاب بها بشر منا كثير. قال عيسى: هلكتم وإله المسيح، طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم، فلمَّا أن فعل كذبتم بها وشككتم فيها، فأبشروا بالعذاب، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله تعالى.

فأوحى الله إلى عيسى إني آخذ المكذِّبين بشرطي، فإني معذِّب منهم من كفر بالمائدة، بعد نزولها، عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين. فقال عيسى مشتكيًا لربه: إلهي { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } سورة المائدة: 118. فلمَّا أمسى المرتابون بها، وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورةٍ مع نسائهم آمنين، فلمَّا كان في آخر الليل، مسخهم الله تعالى خنازير، وأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات، وأمسى سائر بني إسرائيل يطيفون بعيسى

(1) عقوبة. لسان العرب: مثل.

(2) غبَّ الأمر بعُد. لسان العرب: غبب.

خوفًا ورعبًا، مما لقي أصحابهم، فلمّا خرج عيسى، أقبلت الخنازير تسعى إليه وتلوذ به، فلمّا اجتمعت إليه، خرَّت له سجودًا، ودموعها تسيل، فجعل عيسى يسمِّي رجالًا منهم، يدعوهم بأسمائهم: يا فلان، يا فلان. فيومئ كل واحدٍ منهم برأسه، لا يستطيعون الكلام

فقال: قد كنت أحذِّركم عقاب الله، وأنذركم عذابه، وكأني كنت أنظر إليكم ممسوخين مثلةً من المثلات، فأخبر عنهم نبينا محمد أمته ذلك، حين استعجل كفار قريشٍ بالعذاب وقال: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} سورة الرعد: 6. وقال: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} سورة المائدة: 78. فقاموا بذلك ثلاثة أيام، وأهلوهم يبكون حولهم، وقد رقَّ لهم الناس، وخافوا ما نزل بهم، فلمّا رأى ذلك عيسى، دعا الله تعالى أن يميتهم، فأماتهم في اليوم الرابع، فلم تُر لهم جيفة في الأرض، فالله أعلم أين كانت جيفهم؟، غير أنها كانت عقوبةً استأصلت أهلها، حتى لم يبق لهم أثر في الأرض[1].

الجمجمة

قال وهب: بلغني والله أعلم، أن عيسى خرج من تلك القرية، بعد أن خصه الله بالملك، وسار في أهل مملكته وسياحته، إذ مرَّ بوادٍ، يقال له: وادي الغيمة، فإذا هو بجمجمةٍ بيضاء نخرة، قد مات صاحبها منذ زمان، فأعجبه بياضها، فأسبغ الوضوء، وصلى ركعتين، ورفع رأسه ويديه نحو السماء وقال: يا رب الأرباب، وسيد السادات، ومالك الملوك، وجبار الجبارين، أنت وليي في الدنيا والآخرة، أسألك أن تأذن لهذه الجمجمة أن تكلِّمني بلسان طلق ذلق، وتخبرني ما لقيت من العذاب منذ ماتت، وبأي صوت ماتت، والقبر وضيقه وضغطه، لمّا وضع التراب واللبن، وما عاشه من عذاب جهنم وغيرها.

فنودي من السماء: كلمها يا روح الله، تجبك، فوضع يده على الجمجمة ثمَّ قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فقالت الجمجمة: لبيك وسعديك يا روح الله، فأجابته وكلمته، وقالت: خير الأسماء سميت، وأفضل الذكر ذكرت، قال عيسى: ما لي أراك أيتها الجمجمة نخرة؟!، قالت: ذهب الدماغ، وأكل التراب اللحم والعروق، وبليت العظام، وطال مكثي في العراء، وتشرق الشمس علي وتغرب، قال عيسى: كيف مت؟.

قالت: جاءني ملك متلثم من السماء، تمثل برجلٍ، قد خرج من الحمام، فأصابني حر شديد، فأتيت منزلي، وقلت: ألقوا علي الثوب، فلمّا ألقوه، اشتدَّ مرضي، فاجتمع أهلي حولي يبكون، ولا يغني عني بكاؤهم شيئاً، فأتى ملك الموت، ومعه ملائكة مشوهة خلقهم، وجوههم كلاح، وأيديهم خشنة، قال عيسى: كيف كانت جثة ملك الموت؟، فقالت الجمجمة: رأسه في السماء، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى، ولما خرجت الروح من الجسد، بقي الجسد مطروحاً،

---

(1) العظمة 5: 1535 – 1541.

لا يضر ولا ينفع، ولا يأمر ولا ينهى، وحملوني إلى قبري، قال عيسى: فأي العذاب كان أشدُّ عليك، القبر وضيقه وضغطته أوعذاب جهنم؟.

قالت الجمجمة: إذا خرجت الروح من الجسد، ودفنت في قبر، يدخل ملكان فظان غليظان، ويسألانه عما عمل، فلمّا دخلا علي سألاني، فلم يكن عندي جواب، فقالا: أنت، أيتها النفس الخبيثة إلى جهنم مأواك، بما كسبت وبئس المصير، قالت: فجاءني إلف من الملائكة، يضربون وجهي بمقامع من حديد، ثمَّ مروا بروحي على شيخٍ، خشن اللحية، جالس على سرير، إذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، قال: ما كانت تعبد هذه النفس الخبيثة الغليظة؟، قالوا: قالت تعبد ثوراً من دون الله تعالى، قال: يا ويلك !، مالك وما للكفر؟!، ألم تدرك لقاء يومك هذا؟!، أما علمت أن الدنيا فانية، وأن الموت يأتيك، وأن مصيرك إلى سقر؟!، أما أيقنت بربك؟!.

فقلت: من هذا فقالوا: هذا نوح، ثمَّ ساروا بروحي فمروا بها على أناس، يحملون الحجارة على أعناقهم، كل حجرٍ أربعون قنطاراً، والقنطار خمسمائة رطل، فقلت: من هؤلاء؟، قالوا: الذين يسخرون الناس في دار الدنيا، ثمَّ ساروا بروحي، وإذا أنا بحفيرة، يعني البئر لا قعر لها، وفيها من الناس ما لا يحصى عدداً، وقد تشوهت وجوههم، وتعطلت مناخرهم، فقلت: من هؤلاء؟، قالوا: هؤلاء أكلة مال اليتيم ظلماً وعدواناً، ثمَّ ساروا بروحي، وإذا بنساءٍ معلقات، تضرب وجوههن وأجسامهن بمقامع من حديد، ومن نار، فقلت: من هؤلاء؟، فقالوا: اللاتي كن تحت بعولتهن، ولا يحفظن فروجهن ولا صلاتهن.

***

ثم مررت بنسوة أخر، تخرج من فروجهن رائحة نتنة، وهن في أشدِّ العذاب، فقلت: من هؤلاء النسوة؟، قالوا: هؤلاء اللاتي كن يزنين في دار الدنيا، ويقتلن أولادهن خوفاً من الفضيحة، ثمَّ ساروا بروحي وإذا برجالٍ قد تفتحت أفواههم إلى مالك خازن جهنم وهم كالفحم من نار جهنم، فقلت: من هؤلاء؟، فقالوا: الذين يرمون المحصنات العاملات المؤمنات في دار الدنيا، وإذا بملك جالس على كرسي يلتهب، فلمّا رآني، قال: ما كانت تعبد هذه الروح الخاطئة؟، فقالوا: ثور من دون الله تعالى، فقال: بعداً وسحقاً، ادخلوها حيث أمرتم، فأدخلت في الباب الأول، وإذا بصوتٍ أشدُّ من الرعد القاصف، وإذا بنارٍ، أشدُّ من نار الدنيا بسبعين ضعفاً.

ثم أدخلت في الباب الثاني، وإذا بنارٍ، تأكل النار الأولى، ثمَّ أدخلت في الباب الثالث، وإذا بنارٍ، تأكل النار الثانية، ثمَّ أدخلت في الباب الرابع، وإذا بنارٍ، تأكل النار الثالثة، ثمَّ أدخلت في الباب الخامس، وإذا بنارٍ، تأكل النار الرابعة، ثمَّ أدخلت في الباب السادس، وإذا بنارٍ، تأكل النار الخامسة، ثمَّ أدخلت في الباب السابع، وإذا بنارٍ، تأكل النار السادسة والخامسة والرابعة والثالثة والثانية، وإذا فيها بيت، فيه ألف من أنواع العذاب.

فلمّا دخلت ذلك البيت، فإذا بأصحابي كلهم، منكسين على رؤوسهم إلى أسفل الجحيم، وأرجلهم الى فوق، والزبانية يضربون وجوههم وأدبارهم، وكلما نضجت جلودهم، بدلوا جلوداً غيرها ووجوههم أشدُّ سواداً من الليل المظلم، وأعينهم أشدُّ زرقةً من الزجاج الصافي، فخلدت معهم في العذاب، إلى أن صاح صائح من السماء: اخرجي أيتها النفس الضالة، إلى جمجمة ملقاة بوادي الغيمة، فإن عيسى روح الله، قد سأل ربه أن تكلّمي معه، ولي أربع وسبعون سنةً، ما استرحت من العذاب إلا كل جمعة.

قال عيسى: من أي قوم أنت؟، قالت: أنا من قوم إلياس، قال عيسى: فما كنت تعبدين؟، قالت: نعبد ثوراً من دون الله تعالى، ونطعمه البيض والعسل المصفي، وكان على رأسه في كل يومٍ أربعون، يعطرونه ويزينونه بقلائد الذهب والجوهر، قال عيسى: لمّا رأيت الجنَّة، إيش رأيت فيها؟، قالت: رأيت لأهل الجنَّة أربع كراسٍ، كل كرسي يشرق عليه نور ساطع، وضياء لامع، فقلت: لمن هذه الكراسي؟، فقيل: لآدم وموسى وعيسى ومحمد.

ثم قالت الجمجمة: يا روح الله وكلمته، اسأل ربك أن يغفر لي ذنوبي، ويرحمني، وان يجيئني معك إلى دار الدنيا، فنمضي جميعاً، قال: فصلى ركعتين ورفع يده نحو السماء وقال: يا رب الأرباب، وسيد السادات، وجبار الجبارين، أنت وليي في الدنيا والآخرة، ومالك يوم الدين، اللهم، سيدي ومولاي، أسألك أن تغفر لهذه الجمجمة، وتجعلها رفيقي في الجنَّة، وأن تجيئها إلى دار الدنيا، فاستجاب الله تعالى دعاءه.

قال وهب: بلغني أنه عاشت بعد رفع عيسى ، اثنتي عشرة سنة، جعلنا الله وإياكم، من المتقين الفائزين الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون[1].

عيسى والشياطين الثلاثة

جاء إبليس إلى عيسى هو وأصحاب له، على صور الرجال ذوي هيئةٍ وشيبة، وعيسى يقول لبني إسرائيل: { قد جئتكم بآيةٍ من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين } سورة آل عمران: 49. فقال إبليس: أتخلق، وتشفي المرضى، وتحيي الموتى، وتنبئنا بالغيب؟، قال عيسى: نعم، قال إبليس: هذا الله! يا أيها الناس، فانظروا إليه، فإنه نزل إليكم ليريكم قدرته، فقال أحد أصحاب إبليس: بئسما قلت يا شيخ، أخطأت وجرت وقلت قولاً عظيماً، أتزعم أن الله يتجلى لخلقه؛ لينظروا إلى قدرته؟، وهل ينبغي لخلقه أن ينظروا إليه، أو يسمعوا كلامه، أو يقوموا لرؤيته؟ لا، ولكنه ابن الله، وليس هو الله.

فقال الثالث: كلاكما قال شططاً، وأخطأ وجار، وقال قولاً عظيماً، وهل ينبغي لله أن يتخذ

(1) يدعو للمروي له، مشاركةً للمتلقي في مضمون القصص.

صاحبةً، يكون له منها ولد؟ وهل ينبغي لولد هو من الله، أن تستقل به قوة امرأة، ويسعه رحم؟ ولكنه إله مع الله، وليس بولد لله، وليس هو الله كما قلتما، فتفرقوا على ذلك، ونطق الناس بقولهم، فصار ذلك كلام النصارى[1]، قال الله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} سورة المائدة: 17. وقال تعالى: { قَالُوا اتَّخذ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَه } سورة يونس البقرة: 68.[2]

عيسى وإبليس

ثمَّ جاء إبليس إلى عيسى ابن مريم، فعارضه في عقبة[3]، من عقبات الأرض المقدسة، يقال لها: عقبة فيق[4]، فقال له: أنت المسيح ابن مريم؟، قال عيسى: أنا المسيح عيسى بن مريم، روح الله وكلمته، وعبد الله وابن أمته، فقال له إبليس: فأنت إله الأرض، قال: بل إله الأرض ربي، قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك، أنك تخلق من الطين كهيئة الطير، فتنفخ فيه فيكون طيراً، قال عيسى: بل العظمة للذي خلقني، وخلق ما سخر لي، قال: فأنت الذي بلغ، من عظم ربوبيتك، أنك تشي المرضى، قال: بل العظمة للذي بإذنه شفيتهم، وإن شاء أمرضني، قال إبليس: فأنت الذي بلغ، من عظم ربوبيتك، أنك تحيي الموتى، قال عيسى: بل العظمة للذي بإذنه أحييهم، ولا بد أنه سيميت من أحييت ويميتني.

قال: فأنت الذي بلغ، من عظم ربوبيتك، أنك تعبر البحر، فلا تبتل قدماك، ولا ترسخ فيه، قال: بل العظمة للذي ذلله لي، قال: فأنت الذي بلغ، من عظم ربوبيتك، أنك تعلم الغيب، قال: بل العظمة لعالم الغيب والشهادة، ولست أعلم إلا ما علمني، قال: فأنت الذي بلغ، من عظم ربوبيتك، أنك كونت من غير أب، قال: بل العظمة للذي كونني، وكون آدم وحواء من قبلي، قال: فأنت الذي بلغ، من عظم ربوبيتك، أنك سيأتي عليك يوم، تعلو فيه على الخلائق كلها، فتكون السماوات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن دونك، وأنت فوق ذلك كله، تدبر الأمر، وتقسم الأرزاق.

فأعظم عيسى قوله، وضاق به ذرعاً، وسبح إعظاماً لَمَّا قال إبليس، فأتاه جبريل، فنفخ إبليس نفخةً، ذهب يلطم منها على وجهه، فلا يملك من نفسه شيئاً، حتى وقع بالخافق الأقصى، ثمَّ نهض، بالذي أعطاه الله من القوة، فسبق عيسى إلى أسفل العقبة، فسدها وملأ كل ثلمة وطريق، ثمَّ قال لعيسى: لقد غضبت غضب إله عظيم، وقد أخبرتك بأنك إله، وما أنت من البشر، ولو كنت من البشر ما قمت، منذ فارقتك، أربعين ليلة، لم تطعم ولم تشرب ولم تنم ولم يضعف لذلك جسمك، وهذا ما لا ينبغي لبشر.

(1) هنا إشارة إلى قصة السيد والعاقب من نصارى نجران، جامع البيان 6: 470.

(2) في تاريخ الرسل والملوك 1: 598. سرد آخر، عن وهب.

(3) مرقى صعب في الجبال.

(4) اسم لأربع مناطق. قاموس الكتاب المقدس: أفيق.

قال عيسى: إن جسدي ليتألم مما لم يتألم منه البشر، وإني لأطعم وأشرب، وأنام وأغفو، وأفرح وأحزن، وأجزع وأهلع، وأحتاج إلى أن أتنظف بالماء، وكيف تزعم أني إله، وأنت تعلم أني هكذا؟، ولم يزل إبليس يحاوره، حتى عرض عليه أن يأمر الشياطين بعبادته، والاعتراف بربوبيته. فضاق عيسى ذرعاً، وسبح لله تعالى، وقال: سبحان الله عما يقول وبحمده، ملء سمائه وأرضه، وعدد خلقه، ورضا نفسه، ومبلغ علمه، ومنتهى كلماته، وزنة عرشه، فهبط جبريل وميكائيل وإسرافيل.

فنفخه ميكائيل نفخةً، ذهب منها إلى مطلع الشمس، حتى صدم عين الشمس عند طلوعها، فخر حصيداً محترقاً، فأتبعه إسرافيل، فنفخه نحو مغرب الشمس، فانطلق، لا يملك من نفسه شيئاً، حتى حاذى عيسى، فقال: يا ابن مريم، لقد لقيت منك تعباً، ومرت به النفخة، حتى وقع في العين الحامية التي تغرب الشمس فيها، فلبث سبعة أيام وسبع ليالٍ، متى أراد الخروج منها، غطته الملائكة بأجنحتها، فما رام عيسى بعد ذلك، والله أعلم[1].

صعود عيسى إلى السماء

لمَّا أوحى الله إلى عيسى: { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } سورة آل عمران: 55. جزع من الموت جزعاً شديداً، وقال للحواريين: هذا الزمان الذي يقبض الله فيه الراعي، ثمَّ تفرق الرعية من بعده، فعرفوا أنه يعني نفسه، فبكوا وجزعوا، فقال: لا تبكوا من حزن الفراق، فسترون ما هو أشدُّ منه، ولست مفارقكم، حتى يظفر بي عدوي ثمَّ يأسرونني، فلا تدفعوا عني ولا تمنعوا، ثمَّ قال لأصحابه: أيكم يلقى عليه شبهي، فيؤخذ ويصلب، فيكون معي في الجنَّة، فقال رجل: أنا، فقال له عيسى: اجلس، فجلس، ثمَّ أعاد عيسى قوله، فقال الرجل كمقالته الأولى.

فألقى الله شبهه عليه، ودخل عيسى إلى بيت مظلم، فيه فرجة إلى السماء، فرفعه جبريل من الفرجة إلى السماء، ودعا يهوذا[2]، وهو رأس اليهود، رجلًا يقال له: طنطاوس، وقال له: اذهب إلى عيسى، وترفق به، فإذا ظفرت به، فاقتله فأقبل ومعه أعوانه، فدخل إلى منزل عيسى، فقالوا: لا علم لنا به، فطلبوه، فلم يروه، ثمَّ التقوا بالرجل الذي ألقي عليه شبهه، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، على أنه عيسى[3]، فذلك قوله تعالى: { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا } سورة النساء: 157.

---

(1) سرد مختصر عن وهب في بحر العلوم 1: 428. والقصة في إنجيل لوقا 1: 4 وما بعدها، بألفاظ أخرى.

(2) يهوذا الذي دل الشرط على مكان عيسى. تاريخ اليعقوبي 1: 77.

(3) جامع البيان 9: 368.

قال وهب وغيره من أهل الكتب: لمَّا رفع الله تعالى عيسى، لبث في السماء سبعة أيام، ثمَّ قال الله له: إن أعداءك اليهود أعجلوك عن العهد إلى أصحابك، فانزل إليهم، وأوصهم، واهبط على مريم المجدلانية؛ فإنه لم يبك عليك أحد بعدها، ولم يحزن عليك أحد حزنها، فنزل عليها، وأخبرها أنها أول من تلحق بك، وأمرها أن تجمع لك الحواريين، فتبثهم في الأرض دعاةً إلى الله تعالى.

مريم المجدلانية

وكانت قصة مريم المجدلانية أنها كانت من بني إسرائيل، في قرية من قرى أنطاكية، يقال لها مجدلان، وكانت امرأة صالحةً، وكانت تستحيض، فلا تطهر، فخطبها أشراف بني إسرائيل، فامتنعت، فظنوا أنها ترفعت بنفسها عنهم، ولم يكن ذلك ترفعاً، وإنما أرادت إخفاء علتها عنهم، فلمَّا سمعت بمجيء عيسى ابن مريم، وبما كان يشفي الله على يديه من المرضى والزمنى، أقبلت إليه رجاء الشفاء، فلمَّا رأت عيسى، وما ألبسه الله من الهيبة، استحيت، وانصرفت إلى ورائه، ووضعت يدها على ظهره، فقال عيسى: لقد مسني ذو عاهة بنيةٍ حسنة، ولقد أعطاه الله ما رجاه، وطهر بطهارتي، فأذهب الله عنها ما بها، وبرأت وطهرت.

فلمَّا أمر الله عيسى بالنزول عليها، بعد سبعة أيامٍ من رفعه، هبط عليها، فاشتعل الجبل، حين هبط نوراً، فجمعت له الحواريين، فبثهم في الأرض دعاةً إلى الله، ثمَّ رفعه الله، وكساه الريش، وألبسه النور، وقطع منه شهوة المطعم والمشرب، فهو يطير مع الملائكة حول العرش، فكان إنسياً ملكياً، أرضياً سماوياً. وتفرق الحواريُّون حيث أمرهم، فتلك الليلة التي أهبط فيها هي الليلة التي تزخرفها النصارى[1].

وكان بين موسى وبين داود خمسمائة عام، وبين داود ومولد عيسى ثلاثة مائة وسبعون سنة، وكان بين عيسى بن مريم وبين نبينا محمد ستمائة وستون سنة إلى أن بعثه الله سحبانه وتعالى، فذلك جملة السنين من زمانْ موسى الى زمان مبعث نبينا محمد أربعمائة وتسعون سنة[2].

وزعمت النصارى أن مريم ولدت عيسى لمضي ثلاث مائة سنة وثلاث وستين من وقت ولادة الإسكندر، وزعموا أن مولد يحيى بن زكريا كان قبل مولد عيسى بستة أشهر، وزعموا أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشر سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع ابن اثنين وثلاثين سنة، وأنها عاشت بعد رفعه ست سنين، فكانَ جميع عمرها ستا وخمسين سنة[3].

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 353.

(2) «بين موسى وداود خمسمائة عام، وبين داود وعيسى ألف ومائتا عام، وبين عيسى ومحمد ستمائة عام، وعشرون عاماً» المعارف: 13.

(3) المستدرك على الصحيحين 2: 651.

وفاة مريم ابنة عمران

لَمَّا أراد الله تعالى أن يرفع عيسى، آخى بين الحواريين، وأمر رجلين منهما، يقال لأحدهما: شمعون الصفار. والآخر: يحيى. أن يلتزما أمه، ولا يفارقاها، فانطلقا، ومعهما مريم إلى ماروت ملك الروم، يدعوانه إلى الله تعالى، وقد بعث الله إليه، قبل ذلك، يونس، فلمَّا أتوه، أمر بشمعون وبولس، فقتلا، وصلبا منكسين، وهربت مريم ويوحنا، حتى إذا كانا في بعض الطريق، لحقهما الطلب، فخافا، فانشقت لهما الأرض، فغابا فيها، وأقبل ماروت ملك الروم وأصحابه، فحفروا ذلك الموضع، فلم يجدوا شيئاً، فردوا التراب على حاله، وعلموا أنه أمر من الله تعالى، فسأل ملك الروم عن حال عيسى، فأخبروه به، فأسلم، كما ذكرنا، والله أعلم[1].

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 354.

الحواريُّون

قال وهب: وأصبح الحواريُّون على أبواب المدائن التي بعثوا إليها، يتكلَّم كل رجلٍ منهم بلغة الأمة التي بعث إليها، فبعث إلى أهل رومية رجلين من الحواريين، وبعث أندروادس ولوقا إلى أرض الحبشة، وبعث رجلًا إلى بابل، وبعث رجلًا إلى إفريقية، ورجلاً إلى أصحاب الكهف، ورجلًا إلى البربر، ورجلين إلى إنطاكية(1)، ورجلًا إلى السند والهند، وأقام شمعون مكانه، وهو رأسهم، وأمروا أن يستظهروا به فيما يهمهم(2).

يوحنا وبولس وشمعون

لما أصبح يوحنا وبولس(3) على باب إنطاكية، وملكها يومئذٍ مخلنطيس بن مخلنطيس(4)، وكان ظالما جباراً متكبراً، فلم يقدرا على الوصول إليه، وما أمكنهما أن يذكرا ما جاء فيه، مخافة أن يقتلا، قبل أن يبلغاه رسالة الله تعالى، فكانا كذلك مدة، حتى شخص الملك من منزله، إلى متنزهٍ له، فنادياه من بعيد بالإنذار، فلمَّا سمع أصواتهما، أرسل من يسمع مقالتهما، فبلغاه رسالة الله، فأمر الملك بجلد كل منهما مائة جلدة، وحلق رؤوسهما حلق الشماسة، ليمثل بهما(5)، ثمَّ أمر بهما إلى السجن ليخلدا فيه، فأوحى الله تعالى إلى شمعون(6) بخبرهما، وأمره بالانتصار لهما.

فخرج حتى بلغ إنطاكية فدخلها، وتلطف حتى صحب خواص الملك وبطانته، وأنسوا به وذكروه للملك، ثمَّ طرق السجن ليلاً، وكان له باب من حديد، طوله خمسون ذراعاً، وعرضه ثلاثون، وكان، إذا فتح، صر حتى يسمع صريره أقصاهم وأدناهم، فأرسل الله تعالى ملكاً، فاقتلع الباب من موضعه، فلم يسمع له صوت.

وألقى الله السبات على أهل السجن وحراسه، فدخله شمعون، واجتمع بيوحنا وبولس، وبشرهما، عن الله، بالثواب والخير، وانصرف عنهما، ورد الملك باب السجن إلى موضعه، وكان شمعون يدخل مع الملك وأصحابه، إلى بيوت أصنامهم، ويسجد لله ويبكي، ويكثر العبادة، وهم لا يشكون أنه يعبد أصنامهم، فأحبه الملك وقربه، وسأله عن نسبه، فقال له: أنا من بني

---

(1) إنطاكية مدينة على الضفة اليسرى لنهر العاصي، على بعد 30 كم من البحر المتوسط، في محافظة هتاي التركية.

(2) لم تذكر كل الأسماء، وهي «الأول سمعان الذي يقال له بطرس، وأندراوس أخوه. يعقوب بن زبدي، ويوحنا أخوه. فيلبس، وبرثولماوس. توما، ومتى العشار. يعقوب بن حلفى، ولباوس الملقب تداوس. سمعان القانوي، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه». إنجيل متى 10: 2 – 4.

(3) أعمال الرسل: 13.

(4) ملك الروم، تاريخ الرسل والملوك 1: 355، وهو أبطيحيس، عن وهب في قصص الأنبياء للثعلبي: 356.

(5) قص الشعر من علامات تنصيب القارئ في الكنيسة، ولكنه هنا عقوبة.

(6) شمعون الصفار، أو شلوم، أو سمعان. في قصص الأنبياء للثعلبي: 355، والقصة فيه.

إسرائيل، من بقية قوم انقرضوا، وليس لي من آنس به، فاعتمدتكم، رغبةً في قربكم، وحرصاً على إخائكم، قال الملك: قد قبلنا قولك، وسودناك علينا، فأنت أفضلنا وسيدنا.

فلبث فيهم زماناً، يصدرون عن رأيه، فلمّا تمكن أمره من الملك قال له: أيها الملك، بلغني أنك سجنت رجلين، كانا قد جاءاك، يدعوانك إلى غير دينك، وإلى عبادة إلهٍ غير إلهك، ويزعمان أن الله أرسلهما إليك، وعجبت كيف اجترآ عليك، فماذا قلت لهما، وما قالا لك؟، وهل أجبتهما بما كان ينبغي لك من الجواب؟، وهل سألتهما، حين عظما لك ربهما، أن يذكرا لك سائر عظمته، أو يحييا ميتاً؟، أو غير ذلك مما تعرف به مصداق قولهما؟.

قال الملك: لقد حال الغضب دون ما تقول، قال: فهل لك أن تدعوهما؟، قال: نعم، فأحضرهما بين يديه، فقال لهما شمعون: أخبراني من أرسلكما إلى هذا الملك وقومه؟، قالا: أرسلنا الله الذي هو على كل شيء قدير، فقال شمعون: صفا لي عظمته، قالا: هي أعظم من أن تحصى، قال: فأخبراني ماذا يبلغ من قدرته؟، قالا: إن شئت، وصفنا لك ما نطيق وصفه، وصفته أعظم من طاقتنا، وإن شئت، وصفنا لك ذلك في كلمتين تكفيان من كلام كثير، قال: نعم، صفا وأوجزا.

قالا: إنه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فوضع شمعون يده على رأسه، كالمنكر لمّا قالا، ثمَّ أقبل عليهما، وقال: إني أسألكما أمراً، فإن قدر إلهكما عليه، آمنا بكما، قالا: سل، قال: هل يقدر أن يخلق خلقاً، ونحن ننظر إليه؟، قالا: نعم، قال: اعملا ما تقولان، قالا: قد عملنا، فمتى شئت أريناك، فعندها خلا شمعون بالملك، قال: أيها الملك، إن هذين الرجلين ليسا ببعيدين من أن يكون ربهما كما قالا، ولا أظنهما عرضا أنفسهما للملك، بمثل هذا الموقف، إلا وعندهما ثقة من إلههما، وإني أخشى أن يدعوا ربهما، فيخلق خلقاً، ينظر إليه الناس، فيمرض ذلك قلوبهم، ويزهدون في إلهك، الذي تعبده، ويذهبان بالصواب والشرف، فهل لك أن تدعو إلهك، فيخلق هذا الخلق، الذي نريد أن نتمناه عليهما، فيكون لك ولإلهك شرف هذا اليوم؟، قال له الملك: ليس دونك سر، إن هذا الإله الذي نعبد، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ولا يحيي ولا يميت.

فقال شمعون: اعرضا علي بعض قدرة إلهكما، فإن أجابكما، وخلق الشيء، على أعيننا، ونحن ننظر إليه، فقد صدقتما، والقول قولكما، واجتمع الناس لينظروا، فأوحى الله إليهما أن اسالاه ما يريد، فإني مسخر لكما ما سألكما، قالا: قد أوحي إلينا أنه فاعل ما تسألنا، فسلنا، وكان شمعون قد عهد بالمدينة، غلاماً مطموس الوجه، لم تخلق له عينان، فأتي به، فقال: ادعوا ربكما أن يخلق له عينين، ونحن ننظر، قالا: نعم، فأوقفاه بين أيديهما، ودعوا الله وأعانهما شمعون سراً.

فأجابهم الله تعالى، فأخذ كل واحدٍ منهما حثوةً من تراب، وعجنه، وجعله كالبندقة، ووضعا البندقتين في موضع العينين من وجه الغلام، فانشق لهما البصر، ثمَّ صارت البندقتان

عينين، فخاف الملك، فقال له شمعون: لا تخف، إن عندي حيلة، قال له الملك: لعلهما ساحران؟ أرانا ما لا يكون، وما ليس بكائنٍ.

***

قال شمعون: ليس هذا من السحر، ولكني أخاف أن يأتي من إلهما، ما يعجز حيلتنا، فدعا شمعون بغلامٍ مطموس آخر، وعمل كما عملا، فانشق بصره، كما انشق بصر الأول، ففرح الملك وأصحابه بذلك، فقال شمعون: إنما صنع ما ترون إله، اخترته لنفسي، وهو الذي أظهر فلجكم[1]، فاسجدوا لهذا الإله الذي أظفركم بعدوكم، لعله يعينكم على ما يكون بعد هذا، فقال الملك: كيف نسجد لغير إلهنا؟، قال شمعون: ألم تخبرني أنه لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينتفع، فما قدرته عليك إن سجدت لغيره، قال: صدقت، وسجد الملك، وسجد قومه لسجوده.

ثم قال شمعون ليوحنا وبولس: إني أسألكما عن أمر، فإن قدر عليه إلهكما، فالحجة إذن، لكما والقول قولكما، قالا: سل عما بدا لك، قال: تسألان ربكما أن يحيي لنا ميتاً، حتى يكلمنا ويخبرنا ما خبره، ويعلمنا بما كان فيه، وما لقي بعدنا، قالا: نعم، إن الذي سألت يسير على الله، وهين عليه، فوضع شمعون يده على رأسه كالمعظم والمنكر لمَّا قالا، ثمَّ خلا بالملك، وقال: إنك قد رميت بأمر عظيم، وإني أخاف من أحيا إلههما الموتى، أن يميل الناس إليها، قال الملك: إنا نرجو ألا يأتيا بشيء، إلا أتيت أنت بمثله.

قال شمعون لهما: هل يقدر إلهكما على أن يحيي الموتى؟، قالا: نعم، قال الملك: إن عندنا ميتاً، قد مات منذ سبعة أيام، وهو ابن دهقان مدينتنا، فدعا به الملك، فأحضر في نعش، وقد تغير لونه وأروح[2]، فقال: دونكما، ادعوا أن يحييه إلهكما، فدعوا الله، فما لبث أن تفتقت عنه أكفانه، ورد الله إليه روحه، فسألوه متى مات، وماذا لقي.

فقال: مت منذ سبعة أيام، ثمَّ عرضت على عملي، فقذفت في سبعة أودية من نار، وذكر ما في الأودية من العذاب والحيات وغير ذلك، وقال: فلمَّا صرت إلى الوادي السابع، خفف عني العذاب، قالوا: فمن أين خفف عنك العذاب؟، قال: أحياني الله، ورد علي روحي، فجاءني شيء مثل الريح، فدخل في رأسي، فلمَّا صار في جسدي حييت، ثمَّ قيل لي: انظر فوقك، فشخصت ببصري، وفتحت أبواب السماء، فنظرت فإذا برجلٍ شاب، حسن الوجه، نحيف الجسم، أبيض تخالطه حمرة، متعلق بالعرش، يشفع لهؤلاء الرهط الثلاثة، يعني عيسى بن مريم، فقال له الملك: أي رهطٍ تعني؟، قال: هذا الشيخ الأجلخ، وهذا الكهل الأنزع، وهذا الفتى الرجل[3].

---

(1) الفوز والظفر.

(2) أنتن.

(3) الأجلخ: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه، والأنزع الذي انحسر شعره من جانبي جبهته، والرجل الذي شعر رأسه بين السبوطة والجعودة.

فما زالوا مجتهدين في الدعاء حتى شفعوا، والشافع لهم مصغٍ إليهم بأذنه، كأنه يسمع ما يقولون ثمَّ يرفعه إلى الله فيدعو به، فلمَّا فرغ من كلامه قال: إني أحذركم أيها القوم، مثل ما كنت فيه، فإنه لا إله إلا إله عيسى بن مريم رسول الله، قال شمعون: اعتصمنا بالله، وتوكلنا عليه، ثمَّ أخبر الملك بخبره وخبر أصحابه، ودعاهم إلى الله، فمنهم من آمن، ومنهم من تولَّى.

وكان الملك ممن آمن به في عصبة يسيرة، وأرسل الله على من تولَّى منهم صيحة من السماء، فإذا هم خامدون، وكان قد نعي إلى الدهقان ابنه، وكان اسم الدهقان حبيب النَّجَّار، ثمَّ لم يلبث أن جاءته البشارة بحياة ابنه، ولم يكن له ولد غيره، وأخبر خبر الحواريين، فآمن بهم، قبل أن يراهم، فأقبل مسرعاً، فلمَّا قص عليه ابنه قصته، ازداد إيماناً ويقيناً.

قال وهب: ويقال: والله أعلم، إن هذا هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: { وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين }، فأوجب الله له بكلامه، الجنَّة، وخبر أن يعمر هو وابنه، مائة عام، أو يعجل بهما إلى الجنَّة، فاختارا الجنَّة، وهو قوله تعالى: { أأتَّخذ من دونه آلهةً إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئًا ولا ينقذون}، ولم يزل يجاهد قومه، قبل أن تأخذهم الصيحة، ويدعوهم إلى الله، حتى قتلوه، { قيل ادخل الجنَّة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين } سورة يس: 20، 23، 26 - 27[1].

توما الحواري مع ملك الهند

وجاء توما إلى أرض الهند[2]، فبينما هو يتردد على ساحلهم، إذا هو بغلام، لملك الهند، يقال له: حيان، وكان تاجراً، فأتاه توما، فقال له: هل لك أن تبتاعني للملك؟، فقال له حيان: من أنت، أيها الرجل الكريم؟، قال له توما: إني كنت عبداً مملوكاً فأعتقني سيدي، وأمرني بالطلب لنفسي، فلم أصادف من الحرية ما كنت أظن، وكان حالي، يوم كنت عبداً، خيراً منه اليوم وأحسن، فقال له حيان: ما أرى عليك ميسم العبودية، وإني لأرى عليك أثر الخير، ثمَّ قال له: ما الذي تحسن من الأعمال؟، قال: أعمل سائر الأعمال.

فاشتراه بثلاثمائة مثقالٍ من الذهب، وانطلق به إلى الملك، فلمَّا رآه، أجله وعظمه، وسأل التاجر عنه، فأخبره أنه اشتراه على أن يعمل سائر الأعمال، فقال له الملك: أريد أن تبني لي قصراً، لم يعمل مثله لأحد قط، قال توما: لك ذلك علي، ولكن أرضك حارة، وإذا بني القصر في زمن الحر، كان حاراً، لا يسكن من حره، وكذلك في زمن البرد، يكون بارداً، وإني أرى أن يعمل في زمن الاعتدال، فوافقه الملك على رأيه، وعرضت للملك غزاة، فخرج إليها، واستخلف أخاه

(1) جامع البيان 20: 504.

(2) في قاموس الكتاب المقدس: توما. «يظن أن الرسول توما بشر في الهند إلى أن مات شهيداً، ويوجد مكان قرب مدراس، يسمى الآن جبل القديس توما، ولا يزال كثيرون في الشرق يدعون أنهم من مسيحي الكنائس التي أسسها هذا الرسول، ولا سيما سكان الملبار في الهند».

على الملك، وأمره أن يدفع لتوما، ما يحتاج إليه من الأموال للنفقة على القصر، فصرف له أموالاً كثيرة، ففرقها توما في الفقراء والمساكين، حتى أغناهم.

ثم مرض أخو الملك مرضاً شديداً، وغاب عن حسه وحركته، سبعة أيام، فقدم الملك، وهو على تلك الحال، فلمّا رد الله عليه روحه، قال الملك لتوما: ما فعلت في القصر؟، قال: قد فرغت منه، فقال الملك لأخيه: ما الذي أعطيته من مالي؟، قال: جميع ما في بيت مالك، قال: فهل رأيت القصر؟، قال: إنه قبض مني المال، ثمَّ اشتكيت، فقلت لتوما: أين بنيت القصر؟، قال: بنيته لك في السماء، قال الملك: وكيف لي بسلم أنال به السماء؟، قال توما: تنال السماء بالسلم الذي ناها به أخوك.

فقال له أخوه: اسمع مني أيها الملك، أخبرك بالعجب، فإنك لو تعلم ما أدخل عليك هذا الرجل من الخير، وصرف عنك من الشر، لقبلت قدميه، وجعلته فوق رأسك، قال: أخبرني خبره، قال: أخبرك أن الله عرج بروحي، فعرضني على النار، فرأيت أمراً عظيماً مهولاً، ووصفه لأخيه، ووصف له صفة ما يعذب به أهل الشرك بالله، وعبدة الأوثان، قال: ثمَّ قيل لي: إن الله عرضك على النار، فأراك ما رأيت، لتكون لمن خلفك نذيراً، وسيريك الجنَّة، لتبشر بها قومك، ولتخبر من خلفك بما رأيت، فأدخلت الجنَّة، ورأيت كذا وكذا، ووصف الجنَّة ونعيمها وما فيها.

وانتهيت إلى قصرٍ عظيم، من أعظم قصورها، وأبوابه مغلقة، فقلت لخزنة الجنَّة: إني أحب أن أشاهد باطن هذا القصر، فإني لم أر مثله، فقالوا: إن صاحبه الآن، في الدنيا، ومفاتيحه عند ملك من الملائكة، قلت: فلمن ادخر هذا القصر؟، قالوا: هذا لأخيك فلان، وهو الآن في الدنيا، وعنده رسول من عند الله، يقال له: توما الحواري، من حواري عيسى بن مريم.

فإذا رجعت إليه، فبشره وأخبره أنه القصر الذي بناه له توما في السماء، وأنفق فيه بيت ماله، ثمَّ رد الله، بعد ذلك، علي روحي، وأنت تعلم يا أخي، أن لي شطر مالك وملكك وخزائنك، وتعلم مالي بعد ذلك، من الأموال والخزائن، وأنا أعطيك جميع ذلك، على أن تعطيني قصرك الذي رأيته لك في الجنَّة، قال: يا أخي، ما كنت لأعطيك الباقي بالفاني، ثمَّ أقبل على توما، وآمن به، هو وأهل مملكته، ولم تزل تلك الأمة على دين عيسى، حتى أبادها الموت.

لوقا الحواري مع ملك فارس

وأصبح لوقا على باب مدينةٍ من مدائن فارس، وهي التي يسكنها الملك، فإذا غلمان من أبناء الملوك، وأبناء الوزراء جلوس على قارعة الطريق يلعبون، فجلس الحواري إلى جانب غلام منهم، وسأله كيف يلعب، فيغلب جميع أولئك، فلمّا تفرقوا دعاه الغلام إلى منزله، فقال له: اذهب إلى أبيك، واستأذنه في ذلك، فانطلق الغلام إلى أبيه، وأخبره بخبر الشيخ، فأذن له أن يأتيه به، فرجع إليه، وقال له: إن أبي يدعوك.

فأقبل معه، ولما ولج باب الدار، قال: بسم الله. فخرج كل شيطان في الدار، وصاحب الدار

ينظر إلى ذلك، وكانت الشياطين تظهر لهم، وتشاركهم في طعامهم وشرابهم، فعجب صاحب الدار من ذلك، وقدَّم الطعام، فأقبلت الشياطين لتأكل على عادتها، فقال لوقا: بسم الله، فنفرت الشياطين، وفرَّت من الدار، فقال للشيخ: قد رأيت منك اليوم، ما لم أره من أحد، وإن لك لشأناً، وخلا به، وقال: لا بد أن تخبرني خبرك، ولا تكتمني أمرك، قال: على أن تكتمه ولا تذكره إلا أن آذن لك، قال: نعم، فاستوثق منه، وأخبره بخبره، ثمَّ قال له لوقا: أخبرني أي مال الملك أحب إليه وأعجب عنده؟، قال: ما شيء من ماله أحب إليه، وأعجب عنده من برذون[1]، حتى إنه يركبه من سريره.

ثم أقام مدة، فقدم البرذون إلى الملك؛ ليركبه على عادته، فلمَّا صار إلى جانب السرير خرَّ ميتاً، فشقَّ ذلك على الملك وآلمه، وقال: وددت لو فديته بمال عظيم، وحزن جلساء الملك، وخواصه لحزنه، وجاء الرجل إلى لوقا، وقد حزن لحزن الملك، فسأله عن سبب حزنه، فذكر له قصة البرذون، فقال له: ارجع إلى الملك، وقل له: إني أحييه، إن أطاعني فيما أقول، فرجع إلى الملك، وأخبره بذلك، وقال: إن هذا الرجل، لَّما عبر إلى منزلي، نفرت منه الشياطين، ولم تطعم من طعامنا، وكانت تأكل معنا، قبل ذلك، وتشرب كما علمت.

وقد قال: إن أطاعني الملك، أحييت له برذونه، فقال الملك: إن نفسي لتطيب بكلِّ شيءٍ، أحيي به هذا البرذون، فعلي بالرجل. فأحضره إلى الملك، ولما دخل الدار لم يبق بها شيطان إلا خرج، ثمَّ جلس لوقا إلى جانب الملك، فقال له: بلغني أنك تحيي الموتى، فأحي برذوني هذا. فقال له: إن أطعتني فيما أقول لك أحي برذونك. قال الملك: مرني بما شئت. قال: ادع ابنك وامرأتك.

وكان ابنه ولي عهده، وامرأته منه بمكان، فدعاهما، فأخذ لوقا بقائمة من قوائم البرذون، وأخذ كل من الملك وابنه وامرأته بقائمة، ثمَّ قال الحواري بالفارسية: اللهم، رب السماوات والأرض، خالق السماوات والأرض وما فيهما، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أحي هذا العضو الذي في يدي، فتحرك ذلك العضو، ثمَّ قال للملك: قل كما قلت، فقال الملك مثل قوله، فتحرك العضو الذي في يده، ثمَّ قال لابنه: قل كما أقول، فقال، فتحرك العضو الثالث، ثمَّ قال لامرأته: قولي كما قلت، فدعت بدعائه، فتحرك العضو الذي في يدها.

ثم قال لهم: قولوا جميعاً كما أقول. فقالوا كلهم: اللهم، رب السماوات والأرض، خالق السماوات والأرض وما فيها، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أحي هذا البرذون. فقام البرذون حياً، ينفض ناصيته، فعجب الملك والناس من ذلك، وسأله الملك عن خبره، فأخبره أنه رسول عيسى بن مريم إليه وإلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فآمنوا به.

وقد قيل: إن الذي أرسل إلى أرض فارس متى الحواري، وإنه، لَّما دخل إلى الملك، كان الملك سكراناً، فلمَّا أحيا البرذون، أمر الملك أصحابه بقتل متى، فقتلوه، فلمَّا أفاق الملك من

(1) يطلق البرذون على البغل، وعلى الخيل غير العراب. لسان العرب: برذن.

سكره سأل عنه، فقيل له: إنك أمرت بقتله فقتلناه، فقال: ما علمت بذلك، فقاموا إليه وغسلوه وكفنوه ودفنوه، ويقال: إن الله تعالى بعد دفنه، خسف بالملك وأولاده وأهله، والله أعلم.

يونس الحواري

ومضى يونس، حتى صار قريباً من أرض السند[1]، فأدركه المساء في قريةٍ من قراها، فنظر إليه رجل من أشراف القرية، فأنزله عنده، وأكرمه، وقدم إليه طعاماً، فأكل فلمَّا فرغ من الأكل، قال: أنا يونس، رسول عيسى إليكم، وإلى جميع بلاد السند، لتؤمنوا بالله وبي، فكرهه صاحب المنزل، فلماَّ أصبح يونس، استوى على حماره، ومضى نحو مدينة السند، فعمد الرجل إلى ولدين له، فقتلهما، ثمَّ قال لأهل القرية: إن الرجل الذي رأيتموه عندي، عمد إلى ولدي فقتلهما، وهرب ولا أدري أين توجه.

فخرج أهل القرية متفرِّقين في طلبه، حتى لحقوا به على باب مدينة السند، فأخذوه وضربوه، ثمَّ أتوا به إلى القرية، حتى رآه صاحب المنزل الذي أضافه، فلمَّا رآه، قال: هذا جزائي منك بعد إكرامي لك؟، قال يونس: لا تعجل، وأرني ولديك، فدخل هو وأهل القرية معه، فنظروا إلى الولدين مذبوحين، فتقدَّم إليهما يونس، والناس ينظرون إليه، ودعا بالدعاء الذي كان عيسى قد علمه، وقال لهما: قوما بإذن الله.

فقام الغلامان على أرجلهما، فقال لهما يونس: من قتلكما؟، قالا: أبونا، فعجب أهل القرية، وقالوا: يا يونس، إن لك شأناً، فقال: إني رسول عيسى إليكم، أدعوكم إلى شهادة الله لا إله إلا الله، وأن عيسى رسول الله، فآمن به أهل القرية، ثمَّ قالوا: لصاحب المنزل: ما الذي حملك على أن قتلت ولديك، وكذبت هذا الرجل الغريب؟، فقال: إني أنكرت ما سمعت من دينه، ولم أعلم أنه صادق، فقتلت ولدي؛ ليقتل بهما، ولا يظهر هذا الذي هو عليه، والآن بان صدقه، وبلغ الخبر إلى مدينة السند، فآمنوا بأجمعهم، قبل أن يصل إليهم يونس، فلمَّا صار إليهم جددوا الإيمان على يديه، وأقام يونس عندهم، يعلمهم أحكام الإنجيل، فمن أجل ذلك وقع الإنجيل في بلاد السند[2].

---

(1) لم يذكر هذا الاسم في الحواريين الاثني عشر.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 682 – 693.

يحيى بن زكريا

قال وهب: إن السبب في قتل زكريا أن إبليس جاء إلى مجالس بني إسرائيل، فقذف بمريم زكريا، وقال: ما أحبلها غير زكريا. وهو الذي كان يدخل عليها، فطلبوا زكريا، فهرب، واتبعه سفهاؤهم وأشرارهم، فسلك وادياً، كثير الأشجار، فتشبه إبليس في صورة راعٍ، فقال: يا زكريا، قد أدركوك، فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة. ففعل، فانفتحت له، فدخَل فيها، وأخرج إبليس هدب ردائه منها، فمر بنو إسرائيل بالشيطان، فقالوا: يا راعي، هل رأيت رجلاً ههنا، من صفته كذا وكذا؟. قال: نعم، سحر هذه الشجرة، فانفتحت له، فدخل فيها، وهذا هدب ردائه.

فقطعوا الشجرة مع زكريا، وفلقوها فلقتين، بالمنشار طولاً[1]، [فلماً وقع المنشار على ظهره أن، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: يا زكريا، إما أن تكف عن أنينك، أو أقلب الأرض ومن عليها. قال: فسكت حتى قطع بنصفين][2]، فبعث الله الملائكة، فغسلوا زكريا، وصلوا عليه، ثمَّ دفنوه[3].

فلمّا تُوفّي زكريا كان خليفته يحيى، وكان في وقته، ملك يقال له: أجب (أخآب) بن عمري، وكانت له امرأة، يقال لها: اربيل (إيزابل)[4]، وكانت قتالةً للأنبياء والصالحين، وكانا قد بلغا عمراً طويلًا، حتى ولد لهما سبعون ولداً، واستكمل يحيى سني الأنبياء، فلمّا نبأه الله نهاهم، وذكرهم بالله ووعظهم، وكانوا يوقرونه، ويعرفون حقه، ويعظمون شأنه.

وكانت فتنة أجب الملك، وفساد دينه في تزوج اربيل، وذلك أنها كانت ترمى بالفجور، وكانت قد تزوجت سبعة أزواج، قبل الملك أجب، وهي تغتالهم وتقتلهم، إذا هم عيروها بالزنا، وكانت اربيل مسومة بجمال فائق، وكان الملك أجب يستخلفها، إذا غاب أو غزا، فكانت تبرز، كما يبرز الرجال، وتحكم بينهم، وتجبي المال، وتعرض السجناء، وتركب المراكب، كما يفعل الأمير والسلطان، وكانت تعرف رأي زوجها في يحيى، فتكف عنه، وتحمل قوله، وكان يحيى يقف عليها، ويكلمها ويذكرها، ويعيرها بمن قتلت من أزواجها[5].

فلم تزل كذلك، وهي تصابره، حتى خافت أن يفرط عليها، وعلى زوجها بالغضب، فأمرت به فسجن، مخافة أن يسيء إليه، فتكون قد هلكت وأهلكت زوجها، ثمَّ إنها عرضت

(1) علل الشرائع 1: 115.

(2) المجالسة وجواهر العلم 1: 333.

(3) قصص الأنبياء للثعلبي: 335.

(4) أخآب بن عمري، ملك من ملوك مملكة يهوذا، وكانت زوجته إيزابل. أساطير اليهود، دار الكتاب 4: 179.

(5) إنجيل لوقا 14: 3 – 11.

أهل السجن يوماً، فأبصرت فيهم، غلاماً حسناً شاباً، من أبناء الملوك، كان رهيناً عند زوجها، فعشقته، وأمرت صاحب السجن بإكرامه، وأن يجري عليه مالاً، ويجعل له منزلاً واسعاً، وكان يدخل إليها ليلاً سراً، فيبيت معها، فإذا أدركه الصبح، عاد إلى سجنه. وعلم يحيى بذلك، فوعظه وذكره، فبلغ قوله اربيل، فغضبت، وحدثت نفسها بقتله، مخافة أن يفشي سرها، فلمّا قدم زوجها، ركبت للقائه، وركبت معها ابنة له، كانت أكبر ولده، وكان يحبها ويكرمها، وكان لها رأي جزيل، ولم تكن تلقته في سفر، قبل هذا، فقال لها الملك أجب: لقد استوجبت الآن، تحفةً من أبيك، بما خرجت للقائه، وما عظمت من حقه، فاسألي ما شئت، فإنك لا تسألين شيئاً إلا بلغتك إياه، فقالت: مالي من حاجة إلى شيء، ولكن أريد أن تهب لي أهل السجن، فأفعل بهم ما شئت.

وكان ذلك بحيلةٍ من أمها، علمتها إياها، في أمر يحيى لتقتله، فوهب لها أهل السجن، فأمرت بهم فخرجوا، وعرضوا عليها، فلمّا مرَّ بها يحيى أمرت به، فأمسك وذبح في طست، ثمَّ لطخت يدها بدمه، وجاءت بالطست تحمله، وفيه رأس يحيى، ودمه يغلي، حتى وضعته قدام أبيها، وقالت: قد أتحفتك اليوم، لشرفك وخطرك، بذبحٍ، لم يذبح لملك مثله قط، قال أبوها: ومن هذا الذبيح؟، قالت: هو يحيى بن زكريا، قال: هلكت وأهلكت أباك وأمك وقومك، وهذا أول التغيير حقاً يقيناً، فلم يزالون يتعارفون بالتقصير والتغيير من الله، يوماً بعد يوم، حتى أبادهم الله تعالى، وسلط عليهم عدواً، ذبح البنت وأباها وأمها، وجميع من لم يغضب ليحيى بن زكريا.

وكان الملك قد عمد إلى رأس يحيى ودمه، فتركه في جرة، وحفر له حفرةً عميقة في بيته ودفنه، فغلا الدم، حتى امتلأ البيت، ثمَّ خرج إلى ساحة الدار يغلي، ثمَّ خرج من الدار إلى السكك والأزقة، وسلط الله عليهم عدواً، ثائراً لدم يحيى، فما زال يقتلهم، والدم يغلي، حتى قتل منهم سبعين ألفاً، فسكن غليان الدم، ومكثوا بعده، زماناً، خائفين أذلة. قال وهب: كان يحيى أكبر من عيسى بثلاثة أشهر[1]. وقال: إن يحيى بن زكريا لمّا قتل ردَّ الله إليه روحه، ثمَّ أوقف بين يديه، فقال له: يا يحيى، هذا عملك الذي عملته، وقد أعطيتك ثواب عملك لكلِّ واحدةٍ عشرًا، الحسنة بعشر أمثالها. فرأى يحيى إلى ثواب عمله؛ فإذا قد أعطي من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ. فقال الله: يا يحيى، هذا عملك وهذا ثوابه؛ فأين نعمائي عليك؟، ثمَّ قال الله للملائكة: أخرجوا نعمائي عليه. فأخرجوا نعمةً واحدةً من نعمه؛ فإذا قد استوعبت جميع أعماله والثواب. فقال يحيى: إلهي، ما هذه النعمة الجليلة العظيمة التي قد استوعبت عملي وعشرة أضعاف ثوابها؟. فقال الله: يا يحيى، هذه النعمة العظيمة الجليلة معرفتك بي. قال: فخرَّ يحيى على وجهه، فقال: إلهي، جازني برحمتك وبفضلك، لا بعملي[2].

---

(1) البدء والتاريخ 3: 118، وقصة الدم الذي يغلي، والأحداث نفسها مع زكريا في «مدراش إيخا». الإسرائيليات في تفسير الطبري 129.

(2) المجالسة وجواهر العلم 5: 416.

أصحاب الكهف

قال وهب: هم فتية من الروم دخلوا الكهف قبل المسيح، وضرب الله سبحانه على آذانهم فيه، فلمَّا بعث المسيح، أخبر بخبرهم. ثمَّ بعثهم الله بعد المسيح في الفترة بينه وبين النبي [1].

وقال: إن أصحاب الكهف كانوا من الروم[2] { فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } سورة الكهف: 13. وكان إيمانهم عبرة وتفكراً، في عظمة الله، وملكه وسلطانه، ثمَّ أتاهم بذلك وحي في النوم وإلهام، وقرأوا كتاباً من كتب الأنبياء، وكان ملك الروم الأول، من أبناء أولئك الفتية، وانتقل الملك من قبيلتهم، منذ أربعمائة سنة، حتى انقرضت تلك الأمة، وكانت الروم تأملهم وترجوهم، وكان ملوكهم يفزعون منهم، فلم يزل ذلك حالهم، فيما بينهم، وبين ملوكهم وقومهم، حتى أراد الله تعالى لهم، ما أراد من هداهم، والإيمان الذي نوره في قلوبهم.

فقال قائل منهم: إني رأيت رؤيا وقعت في قلبي، وأمراً بت فيه، فلست أبصر غيره، فاسمعوه، فإني معرضه عليكم، وهو أني نظرت في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والسحاب والمطر والنبات، والأحياء والأموات، والصغار والكبار، والبقاء والفناء، والشدَّة والرخاء، وتقلب الدنيا بأهلها، والأطباق التي يتصرف فيها الخلق، من طبق إلى طبق، من موت وحياة، ونقص وزيادة، وموت صغيرهم وهرم كبيرهم، وأشباه ذلك كثير، وهو أكثر مما يعد ويوصف.

فلمَّا نظرت إليها أجمع، رأيت أن لها خالقاً بديعاً ابتدعها، ورباً عظيماً يملكها، ويديرها ويخلقها ويرزقها، ويغنيها ويفقرها، ويحييها ويميتها، فلمَّا تم الرأي، نظرت في عظمة هذا الرب الذي ابتدع هذا الخلق، ودبره واحكم أمره، وإذا قدرته تأتي من وراء ذلك كله، ثمَّ نظرت في عظمة هذا الرب، هل وصفتها، كما وصفت القَدَرة؟، أو هل أعلم كنهها؟، فتحيرت فيها، وعجز عنها العلم، وما بقي، مما لم اذكر، أكثر وأعظم وأعجب مما شرحت، فماذا تقولون؟، وماذا تعرفون؟.

قالوا: لقد قلت قولاً عظيماً، وقضيت أمراً عجيباً، ولا نحسبك إلا قد أصبت فيه الرأي والنظر، وقد صدقناك، وبايعناك، ووقع في قلوبنا منه، ومن معرفته مثل الرأي الذي عرفت، وإن كنا نرى مثل الذي رأيت، من عجائب هذا الخلق، وعظمة الخالق، وإن كنا نكبر أن يخطر على قلوبنا منه، ومن معرفته، مثل الذي عرفت، ووقع في قلبك، ولكنا لم نشرح منه ما شرحت أنت، ولم نصف منه ما وصفت، ولكن الله أراد هداك وتفضيلك على غيرك، وأكرمك بما سبقت إليه، من هذا القول، وهذا العلم، وهذا المعرفة، ولكن حدثنا عما نسألك عنه، بعد سمعنا قولك، هل

---

(1) المعارف: 54.

(2) قصص الأنبياء للكسائي: 707 – 714.

ينبغي لهذا الرب، الذي وصفت بما وصفت من العظمة، أن يكون له شريك في ملكه؟، أو حاجة إلى شيءٍ من خلقه؟، وهل يغلبه شيء، فيستعين عليه بغيره؟.

قال لهم: لو كان له شريك، في شيء من أمره، لهبط ما يمسك، ولو كانت به حاجة إلى أحد من خلقه، لكان مثله، ولو كان يستعين على شيءٍ يغلبه بغيره، ما بلغت قدرته أذن، حيث بلغت، ولا أحاطت به، ولا وسع ما وسع له، من أمر خلقه، وقد بين ما خلق ورزق وأمات وأحيا.

فقالوا: صدقت، وعرفنا ما تقول: وثبت في قلوبنا، ولكن حدثنا ما بال خلقه يشركون به، وهم يعرفونه حق معرفته؟، قال: لأنه خلق فيهم الأهواء، وطبع فيهم الشهوات، وجبلهم على الضعف، وثبت معهم الشيطان؛ فمن أجل ذلك عدلوا عنه، وهم يعرفون أن الذين يعبدون من دونه، لا يحيونهم ولا يميتونهم، ولا يخلقونهم ولا يرزقونهم، ثمَّ إذا مسهم الضر، فإليه يجأرون، وإياه يدعون.

فعند ذلك أجمع رأيهم على أن يأووا إلى الكهف، وأن يكونوا في عزلة من قومهم وشركهم، ثمَّ إن الله ألقى عليهم السبات، ونومهم وهم في مدينة، من مدائن الروم، يقال لها: أفسوس، وعلى الروم يومئذ، ملك يقال له: دقيانوس[1]، ويقال، والله أعلم: إن عدتهم، يوم دخلوا كهفهم، سبعة نفر، قد سموا في هذا الكتاب بأسمائهم[2]،

وكانوا قوماً، يطلبون الصيد، لمَّا مسهم من الضر والحاجة، وهم يومئذٍ في الجبل، الذي فيه كهفهم، يطلبون الصيد، ومعهم كلابهم وبيزانهم وقسيهم، فلمَّا أجمعوا رأيهم على أن يأووا إلى الكهف، دخلوه، وألقى الله السبات عليهم، فناموا، وأخفي عن الخلق مكانهم، وصرف عنهم الأبصار والعقول، فلم يبصرهم أحد، ولا فطن بمكانهم، { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا } سورة الكهف: 25. حتى انقضت الأمة التي كانوا فيها، والملك الذي كان عليهم، وخرج من بعدهم المسيح، وهم في كهفهم، لا يعلم بهم أحد،

***

وقد كان عيسى، قبل أن يرفعه الله يحدِّث عنهم[3]، وعن إيمانهم وزمانهم وبصيرتهم، وكيف تفكروا في عظمة الله، وكيف نومهم الله تعالى في كهفهم، وكيف أخفى مكانهم عن الناس؛ ليكونوا عبرة لمن خلفهم، ورد الله تعالى إليهم أرواحهم، بعد ما رفع عيسى، وبعد المدة التي

---

(1) جامع البيان 17: 606، الملك داقيوس الأثيم (249 – 251م). رائحة المسيح 2: 141.

(2) هم سبعة عن ابن عبَّاس، تاريخ الرسل والملوك 1: 372، وعن ابن إسحاق ثمانية. تاريخ الرسل والملوك 1: 372، ويبدو أن ابن إسحاق اطلع على نسخة أخرى من قصتهم، أشير إليها في الحاشية: «بعض المصادر تذكر ثمانية بدلاً من سبعة». رائحة المسيح 2: 142، وهم مكسيليانوس، ويمليخا، ومرتينيانوس، وديونيسيوس، ويؤانس، وسرافيون، وقسطنطنوس، وانطونينوس. نفسه 2: 145.

(3) تاريخ الرسل والملوك 1: 373.

ذكر الله في القرآن، من سنيهم التي لبثوا فيها في كهفهم، ولزمهم كلب من كلاب صيدهم، فلبث سنيهم التي لبثوا بفناء الكهف، والفناء هو المضيق الذي هو موضع الباب، ولم يطعم الكلب، ولم يشرب؛ ليجعله الله آيةً من آياته.

فلمّا رد الله أرواحهم في أجسادهم { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا } سورة الكهف: 19. وهم يظنون أنهم أحياء، وقومهم أحياء، وأنهم على ما يعهدون من حالهم، فانطلق رجل منهم، يقال له: تمليخا، وكان أشدهم وأنجدهم، ذا بأس وقوة، فدخل المدينة، فلمّا شاهد المدينة، أنكرها، وأنكر كل شيء، خلقه الله تعالى فيها، من إنسان ودابة ودار وبنيان، ووجد الناس على حالٍ، لم يكن يعهدها، ورآهم يتعاملون بورق، لا يشبه الورق الذي معه، فتحير[1].

ولم يعرف، وأقبل وأدبر، وأبطأ على أصحابه، فعمد إلى مشيخة، من أهل المدينة، توسم فيهم الخير، وسمع من قولهم، فوجدهم، معهم الإنجيل، يقرأونه، وسمع ما فيه، من توحيد الله وسننه وشرائعه، وأنصت يسمع الإنجيل، حتى إذا فرغوا من قراءتهم، سألهم عن كتابهم، فقالوا: هذا كتاب الله، الذي أنزله على عيسى بن مريم، قال: وأين عيسى؟، قالوا: رفعه الله إليه، قال: كم لبث فيكم؟، قالوا: ثلاثاً وثلاثين سنة، قال: هل رأيتموه وأدركتم زمانه؟، قالوا: لا، كان زمانه قبل أن نولد، وقد وجدنا كتابه بأيدي آبائنا.

قال: أفكل أهل المدينة يؤمنون بهذا النبي، وهذا الكتاب، ويعملون بما فيه؟، قالوا: نعم، إلا مستخفٍ بذنب، أو ظالم لنفسه، قال: فهل سمعتم بدقيانوس الملك؟، وهل بقي له عقب؟، أو أحد من أهل ملته، يعمل بعمله، وعمل قومه؟، قالوا: لا، فلمّا أمنهم، واطمأن إليهم، قال: فاخبروني، هل كان عيسى يخبركم عن سبعة رهطٍ، خرجوا من هذا المدينة، في زمان دقيانوس وقومه، وما كانوا يعبدون من دون الله، حتى آووا إلى كهف من هذه الجبال؟.

وكانوا قد استخفوا منه، فلمّا قال لهم ذلك، أوجسوا في أنفسهم أنه منهم، قالوا: نعم، قد كان عيسى يخبرنا عنهم، ولعلك منهم، فإنا ننكر حالك كله، قال: فهل كان عيسى يذكر أسماءهم؟، قالوا: نعم، قال: فسموهم، فذكروا أسماءهم حتى وصلوا تمليخا، قال: فأنا تمليخا، فخروا له سجداً، وكانت تحيتهم، فيما بينهم، السجود، فأدخلوه مسجدهم، وعظموه ووقروه، وأكرموه، وجمعوا إليه أهل مدينتهم، وقراءهم وفقهاءهم، فتمسحوا به، وجعلوا له عيداً عظيماً.

فأقام أياماً بين أظهرهم، ثمَّ قال لهم: إن أصحابي الذي يحدثكم عنهم عيسى، لا أراهم إلا أنهم قد خافوا علي، وساء ظنهم في؛ لأنهم يظنون أن الزمان زمان دقيانوس، فانطلقوا بنا نعلمهم كيف أهلكه الله، وأهلك قومه، وطهر منهم الأرض، وكيف استبدل الله تعالى به، وبأهل ملته،

(1) دُهِش عندما رأى علامة الصليب. رائحة المسيح 2: 144.

قوماً يوحدونه ويعرفونه، ويهدون بالحق، وبه لا يعدلون.

فخرج القوم معه، حتى وصلوا إلى الموضع، الذي فيه أصحابه، فأوقفهم ودخل على أصحابه، فأخبرهم بما رأى، وبما لقي، فمدوا أيديهم إلى الله، وسألوه أن يطبق عليهم كهفهم، ففعل الله ذلك بهم، فبقي أهل المدينة وقوفاً متحيرين، وكان آخر العهد بهم، فتآمر الناس فيهم، وتنازعوا في أمرهم، حتى أجمعوا على أن يتخذوا عليهم مسجداً، يبنونه حول الكهف، ويجعلون الكهف وسطه، ويكتبون على بابه قصتهم، على شيء ليعرفوه، فنقشت قصتهم على حجر، ووضع على بابه[1].

الحواري في مدينة أصحاب الكهف

وقال وهب بن مُنبِّه:[2] جاء أحد حواري عيسى ابن مريم إلى مدينة أصحاب الكهف، فأراد أن يدخلها، فقيل له: إن على بابها صنماً، لا يدخلها أحد إلا سجد له. فكره أن يدخلها، فأتى حماماً قريباً من تلك المدينة، فكان فيه، وأجر نفسه من الحمامي، وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام في حمامه البركة، ودر عليه الرزق، وجعل يقوم عليه. وعلقه فتية من أهل المدينة، فجعل يخبرهم خبر السماء، وخبر الأرض، وخبر الآخرة، حتى آمنوا به وصدقوه، وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة، وكان شرطه على صاحب الحمام: إن الليل لي لا يحول بيني، وبين الصلاة أحد.

وكان على ذلك، حتى أتى ابن الملك بامرأةٍ، فدخل بها الحمام، فعيره الحواري، وقال له: أنت ابن الملك، وتدخل مع هذه؟!. فاستحيا، فذهب، فرجع مرة أخرى، فقال له مثل ذلك، فسبه وانتهره، ولم يلتفت، ثمَّ إنهما دخلا، فماتا جميعاً في الحمام، فأتى الملك، فقيل له: قتل صاحب الحمام ابنك. فالتمس، فلم يقدر عليه، فهرب، فقال: من كان يصحبه؟. فسموا الفتية، فالتمسوا، فخرجوا من المدينة، فمروا بصاحبٍ لهم، في زرعٍ، وهو على مثل إيمانهم، فذكروا له أنهم التمسوا، فانطلق معهم، ومعه كلب، حتى آواهم الليل إلى الكهف، فدخلوا، وقالوا: نبيت ههنا الليلة، ثمَّ نصبح إن شاء الله، فترون رأيكم.

فضرب الله على آذانهم. فخرج الملك في أصحابه، يتبعونهم، حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف، وكلما أراد الرجل منهم دخوله، أرعب، فلم يطق أحد دخوله، وقال قائل: أليس لو قدرت عليهم، قتلتهم؟. قال: بلى. قال: فابن عليهم باب الكهف، واتركهم فيه، يموتوا عطشاً

(1) جامع البيان 17: 634، وليس في الأصل بناء مسجد، والقصة من التراث المسيحي الشامي باللغة السريانية، كتبها نثراً زكريا الفصيح (ولد في غزة، ودرس في الإسكندرية وبيروت، تُوفِّي سنة 536م)، ويوحنا الأفسسي (ولد في آمد، وعين بطريكاً لمدينة أفسس في غرب تركيا، تُوفِّي سنة 578م)، وكتبها شعراً مار يعقوب السروجي (ولد في مدينة على ضفاف الفرات، درس في مدينة الرها، في تركيا، تُوفِّي سنة 521م). رائحة المسيح 2: 147، 148.

(2) تفسير عبد الرزاق 2: 325. والسند نفسه في تاريخ الرسل والملوك 2: 7. وفي بحر العلوم 2: 337. وقصص الأنبياء للثعلبي: 469. والكشف والبيان 6: 150.

وجوعاً. ففعل.

قال: تركهم بعد ما سد عليهم باب الكهف، زماناً بعد زمان، ثمَّ إن راعياً، أدركه المطر عند الكهف، فقال: لو فتحت هذا الكهف، فأدخلت فيه غنمي من المطر. فلم يزل يعالجه، حتى فتح، ورد الله إليهم أرواحهم من الغد، حين أصبحوا[1].

وعن وهب بن مُنبِّه، عن النعمان بن بشير الأنصاري[2]: سمعت رسول الله، يذكر الرقيم، قال: إن ثلاثة نفرٍ، خرجوا يرتادون لأهليهم، فبينما هم يمشون، إذ أصابتهم السماء، فأووا إلى كهفٍ، فانحطت صخرة من الجبل، فانطبقت على باب الكهف، فأوصدته عليهم، فقال قائل منهم: كل منكم يذكر أحسن عملٍ عمله، فلعل الله برحمته يرحمنا.

فقال رجل منهم: قد عملت حسنةً مرة، كان لي أجراء، يعملون عملاً، فاستأجرت كل رجلٍ منهم بأجرة معلومة، فجاء رجل منهم، ذات يومٍ، وسط النهار، فاستأجرته بشرط أصحابه، فعمل في بقية نهاره، كما عمل الرجل منهم في نهاره كله، فرأيت علي من الإكرام، ألا أنقصه مما استأجرت به أصحابه، لمّا اجتهد في عمله، فقال رجل منهم: أتعطي هذا ما أعطيتني، ولم يعمل إلا نصف النهار؟. قلت: يا عبد الله، لم أبخسك شيئاً من شرطك، إنما هو مالي، أحكم فيه ما شئت.

قال: فغضب وذهب، وترك أجره، فوضعت حقه في جانب من البيت، ما شاء الله، ثمَّ مرَّ بي بعد ذلك بقر، فاشتريت به، فنميته، فبلغ ما شاء الله، فمر بي بعد حينٍ، شيخ ضعيف لا أعرفه، فقال لي: إن لي عندك حقاً. فذكره حتى عرفته، قلت: إياك أبغي، وهذا حقك. وعرضتها عليه، فقال: يا عبد الله، لا تسخر بي، إن لم تتصدق علي، فأعطني حقي. قلت: والله، لا أسخر، إن هذا لحقك، وما لي فيه شيء. فدفعتها إليه، اللهم، إن كنت فعلت ذلك لوجهك، فافرج عنا. فانصدع الجبل، حتى أبصروا الضوء

وقال الآخر: قد عملت حسنة مرةً، كان لي فضل مالٍ، وأصاب الناس شدَّة، فجاءتني امرأة، تطلب مني معروفاً، فقلت: والله، ما هو دون نفسك. فأبت علي، وذهبت ورجعت ثلاث مراتٍ، وقلت: لا، والله، ما هو دون نفسك. فأبت علي وذهبت، وذكرت ذلك لزوجها، فقال لها: أعطيه نفسك، وأغيثي عيالك. فرجعت إلي، ونشدتني بالله، فأبيت عليها، وقلت: والله ما

---

(1) في آثار البلاد وأخبار العباد: 499 – 501. سرد آخر، فيه إجمال للقصة.

(2) النعمان بن بشير الأنصاري، صحابي، له مسند أحاديث، دعا أهل حمص إلى بيعة ابن الزبير، فقتل فيها سنة 64 هـ. سِيَر أعلام النبلاء 3: 412. والرواية عنه في المعجم الكبير للطبراني. 21: 160. تستمر هذه القصة بنية الكهف، فتنشئ عليها سرداً، يخرج عن سرد قصة أصحاب الكهف الواردة في القرآن الكريم، وفي الموروث المسيحي، وقد ذكرتها لروايتها عن وهب، وربما تكون هناك قصتان، قصة أصحاب الرقيم، وقصة أصحاب الكهف، وفي مجموعة الأقوال التي يوردها الطبري في جامع البيان: 17: 602. ما يغري بتتبع الفكرة، وتفصيلها في بحث مفرد.

هو دون نفسك. فلمَّا رأت ذلكن أسلمت إلي نفسها، فلمَّا كشفتها وهممت بها، ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك؟. قالت: أخاف الله رب العالمين. فقلت لها: خفته في الشدَّة، ولم أخفه في الرخاء. فتركتها وأعطيتها ما يحق بها كشفتها، اللهم، إن كنت فعلت ذلك لوجهك، فافرج عنا. فانصدع حتى تعارفنا.

وقال الآخر: قد عملت حسنةً مرةً، كان لي أبوان شيخان كبيران، وكان لي غنم، فكنت أطعم أبوي وأسقيهما، ثمَّ أرجع إلى غنمي. قال: فأصابني يوماً غيث، فحبسني حتى أمسيت، فأتيت أهلي، فأخذت محلبي، فحلبت غنمي، وتركتها قائمة مكانها، فمضيت إلى أبوي، فوجدتهما قد ناما، فشق علي أن أوقضهما، وشق علي أن أترك غنمي، فما برحت جالساً، ومحلبي في يدي، حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما. اللهم، إن فعلت ذلك لوجهك، فافرج عنا ما نحن فيه. قال النعمان: لكأني أسمع من رسول الله قال: كان الجبل ضيقاً، ففرج الله عنهم، فخرجوا[1].

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 362.

جرجيس

قال وهب بن مُنبِّه[1]: كان بالموصل ملك يقال له: داذنه[2]. وكان قد ملك الشام كلها، ودان له أهلها، وكان جباراً عاتياً، وكان يعبد صنماً، يقال له: أفلون. وكان جرجيس عبداً صالحاً، من أهل فلسطين، قد أدرك بقايا من حواريي عيسى[3]، وكان تاجراً عظيمًا، كثير المال، عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه؛ مخافة أن يفتنوه عن دينه، فخرج يريد ملك الموصل، ومعه مال، يريد أن يهديه إليه؛ حتى لا يجعل لأحدٍ من الملوك، عليه سلطاناً دونه.

فجاءه حين جاءه، وقد برز في مجلسٍ له، وأمر بصنمه أفلون، فنصب، والناس يعرضون عليه، فمن لم يسجد لصنمه، ألقي في النار، فلمّا رأى جرجيس ما يصنع، فزع به، وهاله وأعظمه، وحدث نفسه بجهاده، وألقى الله تعالى في نفسه بغضه ومجاهدته، فعمد إلى المال الذي أراد أن يهديه له، فقسمه في أهل ملته، حتى لم يبق منه شيء، وكره أن يجاهده بالمال، وأحب أن يلي ذلك بنفسه.

فأقبل عليه، وقال له: إنك عبد مملوك، لا تملك لنفسك شيئاً، ولا لغيرك، وإن فوقك رباً، هو الذي يملكك وغيرك، وهو الذي خلقك ورزقك، ويحييك ويميتك، ويضرك وينفعك، وإذا قال لشيء: كن. يكون، وإنك عمدت إلى خلقٍ من خلقه، أصم أبكم، لا ينطق ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنك من الله شيئاً، فزينته بالذهب والفضة؛ فتنةً للناس، ثمَّ عبدته من دون الله.

فكان من جواب الملك إياه أن سأله عن حاله وأمره، ومن هو؟، ومن أين هو؟. فأجابه جرجيس: أنا عبد الله، وابن عبده، وابن أمته، أذل عباده، وأفقرهم إليه، من التراب خلقت، وإليه أصير. فقال له الملك: لو كان ربك الذي تزعم، كما تقول، لرؤي عليك أثره، كما رؤي أثري على من حولي، ومن هو في طاعتي.

فأجابه جرجيس بتحميد الله، وتعظيم أمره، وقال: أتعدل أفلون[4] الأصم الأبكم الذي لا يغني عنك شيئاً، برب العالمين الذي قامت السماوات والأرض بأمره![5]، أم تعدل طوقليا[6]،

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 376. وفي تاريخ الرسل والملوك 2: 24. وقد روى القصة ابن عبّاس أيضاً، كما في النبوة: 259.

(2) داديانوس الفارسي، وهو رجل وثني.

(3) عن وهب: جرجيس من أهل فلسطين وكان قد أدرك بعض الحواريين، فبعث إلى ملك الموصل، وهو بعد المسيح. المعارف: 12. والبدء والتاريخ 3: 134.

(4) اسم صنم.

(5) في تفسير ابن أبي حاتم 9: 2908. شيء من كلام جرجيس.

(6) طرقبلينا. تاريخ الرسل والملوك 2: 25.

وما نال بولايتك، فإنه عظيم قومك بما نال إلياس بولاية الله تعالى، فإن إلياس كان، في بدء أمره، آدمياً، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، فلم تزل به كرامة الله تعالى، حتى أنبت له الريش، وألبسه النور، فعاد إنسياً ملكياً، سماوياً أرضياً، يطير مع الملائكة!، أم تعدل مجلطيس، وما نال بولايتك، فإنه عظيم قومك، بالمسيح ابن مريم، وما نال بولاية الله تعالى، فإن الله فضله على رجال العالمين، وجعله وأمه آيةً للمعتبرين!، أم تعدل أمر هذه الروح الطيبة التي اختارها الله لكلمته، وسودها على إمائه، وما نالت بولاية الله تعالى بأزبيل[1]، وما نالت بولايتك، فإنها كانت من شيعتك، وعلى ملتك، فاسلمها الله مع عظيم ملكها، حتى اقتحمت عليها الكلاب في بيتها، فانتهشت لحمها، وولغت في دمها، وقطعت الضباع أوصالها!.

فقال الملك: إنك لتحدثنا عن أشياء، ليس لنا بها علم، فأتني بالرجلين اللذين ذكرت أمرهما، حتى أنظر إليهما، فإني أنكر أن يكون هذا من البشر. قال له جرجيس: إنما جاءك الإنكار من قبل الغرة[2] بالله تعالى، وأما الرجلان، فلن تراهما ولا يريانك، إلا أن تعمل بعملهما، فتنزل منازلهما. فقال له الملك: أما نحن، فقد أعذرنا إليك، وتبين لنا كذبك؛ لأنك فخرت بأمورٍ، عجزت عنها، ولم تأت بتصديقها.

***

ثم خيره الملك بين العذاب، وبين السجود لأفلون. فقال جرجيس: إن كان أفلون هو الذي رفع السماء، ووضع الأرض[3]، فقد أصبت، وإلا، فاخسأ أيها النجس الملعون. فلما سمعه الملك، غضب، وسبه وسب إلهه، وأمر بخشبةٍ، فنصبت له، وجعل عليها أمشاط الحديد، فخدش بها جسده، حتى تقطع لحمه وجلده وعروقه، ونضح عليه خلال ذلك الخل والخردل، فحفظه الله تعالى من ذلك الألم والهلاك.

فلمّا رأى ذلك لم يقتله، أمر بستة مسامير من حديدٍ، فأحميت، حتى إذا جعلت ناراً، سمر بها رأسه، حتى سال دماغه، فحفظه الله من الألم والهلاك. فلمّا رأى ذلك لم يقتله، أمر بحوضٍ من نحاسٍ، وأوقد عليه حتى إذا جعله ناراً، أمر به، فأدخل في جوفه، وأطبق عليه، فلم يزل فيه حتى برد حره. فلمّا رأى ذلك لم يقتله، دعا به، فقال: يا جرجيس، أما تجد ألم هذا العذاب الذي تعذب به؟. فقال: إن ربي الذي أخبرتك به، حمل عني ألم العذاب، وصبرني؛ لأحتج عليك.

فلمّا قال له ذلك، أيقن الملك بالشر، وخافه على نفسه وملكه، واجتمع رأيه على أن يخلده في السجن. فقال له الملأ من قومه: إنك، إن تركته طليقاً في السجن، يكلم الناس، يوشك أن يميل بهم عليك، ولكن مرَّ له بعذابٍ في السجن، يشغله عن كلام الناس. فأمر به، فبطح في السجن

(1) إيزابيل زوجة الملك أخآب التي حاربت النبي إلياس.

(2) من الغرور. وهو الانخداع. لسان العرب: غرر.

(3) تفسير ابن أبي حاتم 9: 2908.

على وجهه، ثمَّ أوتده له في يديه ورجليه، أربعة أوتادٍ من حديدٍ، في كل ركن منها وتد.

ثم أمر بأسطوانةٍ من رخام، فوضعت على ظهره، وحمل تلك الأسطوانة ثمانية عشر رجلاً، فظل يومه ذلك موتداً تحت الحجر، فلمَّا أدركه الليل، أرسل الله تعالى إليه ملكاً، فقلع عنه الحجر، ونزع الأوتاد، وأطعمه وسقاه، وبشره بالنصر، فلمَّا أصبح، أخرجه من السجن، وقال له: الحق بعدوك، فجاهده في الله حق جهاده، فإن الله يقول لك: أبشر واصبر، فإني قد ابتليتك بعدوك هذا سبع سنين، يعذبك ويقتلك فيهن، أربع مرات، وفي كل ذلك أرد إليك روحك، فإذا كانت الرابعة، تقبلت روحك، وأوفيتك أجرك.

فلم يشعر الملك، وأصحابه، إلا وجرجيس قد وقف على رءوسهم، وهو يدعوهم إلى الله تعالى، فقال له الملك: يا جرجيس، من أخرجك من السجن؟. قال: أخرجني الذي سلطانه فوق سلطانك. فلمَّا قال له ذلك، ملئ غيظاً، ودعا بأصناف العذاب، حتى لم يخلف منها شيئاً، فلمَّا رآها جرجيس، أوجس في نفسه خيفة، وفزعاً منها، ثمَّ أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته، وهم يسمعون، فلمَّا فرغ من عتابه نفسه، مدوه بين خشبتين، ثمَّ وضعوا سيفاً على مفرق رأسه، فنشروه حتى سقط من بين رجليه، وصار قطعتين، فعمدوا إلى أجزائه، فقطعوها قطعاً.

وللملك سبعة أسودٍ ضارية، وكانوا صنفاً من أصناف عذابه، فرموا بجسده إليها، فأمرها الله تعالى، فخضعت له برؤوسها وأعناقها، وقامت على براثنها، فظل يومه ذلك، ميتاً، وهي أول موتةٍ ماتها، فلمَّا أدركه الليل، جمع الله جسده الذي قطعوه، بعضه إلى بعض، حتى سواه، ثمَّ رد الله تعالى إليه روحه، وأرسل ملكاً، فأخرجه من قعر الجب، فأطعمه وسقاه وبشره بالنصر.

فلمَّا أصبحوا، قال له الملك: يا جرجيس. قال: لبيك. قال: اعلم أن القَدَرة التي خلق الله تعالى بها آدم من التراب، هي التي أخرجتك من قعر الجب، الحق بعدوك، وجاهده في الله حق جهاده، ومت موت الصابرين. فلم يشعر الملك، وأصحابه إلا وقد أقبل جرجيس، وهم في عيدٍ لهم، عكوف عليه، صنعوه فرحاً بموت جرجيس. فلمَّا نظروا إليه، وقد أقبل، قال الملك: ما أشبه هذا بجرجيس!. قالوا: كأنه هو. قال الملك: ما بجرجيس من خفاءٍ، إنه لهو، ألا ترون إلى سكون ريحه، وقلة هيبته. قال جرجيس: أنا هو، بئس القوم أنتم!، قتلتم، ومثلتم، فأحياني الله بقدرته، فهلموا إلى هذا الرب العظيم الذي أراكم ما أراكم.

فلمَّا قال لهم ذلك، أقبل بعضهم على بعضٍ، وقالوا: ساحر، سحر أعينكم. وجمعوا من كان ببلادهم من السحرة، فلمَّا جاءوا، قال الملك لكبيرهم: اعرض علي من كبير سحرك ما يقر عيني. قال: ادع لي بثورٍ من البقر. فلمَّا أتي به، نفث في إحدى أذنيه، فانشقت باثنتين، ثمَّ نفث في الأخرى، فإذا هو ثوران، ثمَّ دعا ببذرٍ، فحرث وبذر، ونبت الزرع، وحصد، ثمَّ درس وذرى، وطحن وعجن وخبز، كل ذلك في ساعة واحدة، فقال الملك: هل تقدر أن تمسخه لي دابة؟. قال الساحر: أي دابة أمسخه لك؟. قال: كلباً. قال: ادع لي بقدحٍ من ماء. فلمَّا أتي بالقدح، نفث فيه

الساحر، ثمَّ قال: اعزم عليه أن يشربه. فشربه جرجيس حتى أتى على آخره.

فلمَّا فرغ منه، قال له الساحر: ماذا تجد؟. قال: ما أجد إلا خيراً، قد كنت عطشت، فلطف الله بي بهذا الشراب، فقواني به عليكم. فأقبل الساحر على الملك، فقال له: اعلم أيها الملك، إنك لو كنت تقايس رجلاً مثلك، إذن، لقد كنت غلبته، ولكنك تقايس جبار السماوات والأرض، وهو الملك الذي لا يرام.

***

قال: وكانت امرأة مسكينة، من أهل الشام، قد سمعت بجرجيس، وما يصنع من الأعاجيب، فأتته، وهو في أشدِّ ما هو فيه من البلاء، فقالت له: يا جرجيس، إني امرأة مسكينة، ولم يكن لي مال إلا ثوران، أحرث عليهما، فماتا، فجئتك لترحمني، وتدعو الله تعالى أن يحيي لي ثوري. فذرفت عيناه، ثمَّ دعا الله تعالى أن يحيي لها ثوريها، وأعطاها عصاً، وقال لها: اذهبي إلى ثوريك، فاقرعيهما بهذه العصا، وقولي لهما: احييا، بإذن الله. فقالت: يا جرجيس، مات ثوراي منذ أيام، ومزقتهما السباع، وبيني وبينهما أيام. فقال: لو لم تجدي منهما إلا سناً واحدة، ثمَّ قرعتهما بالعصا لقاما، بإذن الله تعالى.

فانطلقت حتى أتت مصرع ثوريها، وكان أول شيء بدا لها ذقن أحدهما، وشعر أذني الآخر، فجمعت أحدهما إلى الآخر، ثمَّ قرعتهما بالعصا، وقالت كما أمرها، فقام الثوران، بإذن الله تعالى، وعملت عليهما.

***

قال: فلمَّا قال الساحر للملك ما قال، قال رجل من أصحاب الملك، وكان أعظمهم من بعد الملك: إنكم قد وضعتم أمر هذا الرجل على السحر، وإنكم عذبتموه، فلم يصل إليه عذابكم، وقتلتموه، فلم يمت، فهل رأيتم ساحراً يدرأ عن نفسه الموت، وأحيا ميتاً قط؟. فقالوا له: إن كلامك لكلام رجلٍ، قد صبأ إليه[1]، فلعله استهواك. فقال: بل آمنت بالله، واشهدوا أني بريء مما تعبدون. فقام إليه الملك، وأصحابه بالخناجر، فقتلوه، فلمَّا رأى القوم ذلك، اتبع جرجيس أربعة آلاف رجل، فعمد إليهم الملك فأوثقهم، ثمَّ لم يزل يعذبهم بأنواع العذاب، حتى أفناهم.

فلمَّا فرغ منهم، قال لجرجيس: هلا دعوت ربك، فأحيا لك أصحابك، هؤلاء الذين قتلوا بجريرتك!. فقال له جرجيس: ما خلي بينك وبينهم، حتى حانت آجالهم. فقال رجل من عظماء أصحابه، يقال له مخليطس (مجليطيس)[2]: إنك زعمت يا جرجيس، أن إلهك هو الذي يبدأ الخلق، ثمَّ يعيده، وإني سائلك أمراً، إن فعله إلهك، آمنت بك، وصدقتك، وكفيتك، إن حولنا

---

(1) مال إليه.

(2) تاريخ الرسل والملوك 2: 30.

أربعة عشر كرسياً ومائدة، وبيننا أقداح وصحاف، وهي من أشجار شتى، فادع إلهك، ينشئ هذه الكراسي والأواني، كما بدأها أول مرةً، حتى تعود خضراء، يعرف كل عودٍ منها بلونه وورقه وزهره.

فقال له جرجيس: قد سألت أمراً عزيزاً علي وعليك، وإنه على الله لهين، ودعا الله، فما برحوا من مكانهم، حتى اخضرت تلك الكراسي والأواني كلها، وساخت عروقها، وألبست اللحاء، وتشعبت، فأورقت وأزهرت وأثمرت.

فلمّا نظروا إلى ذلك، انتدب له مخليطس الذي تمنى عليه ما تمنى، فقال: أنا أعذب لكم هذا الساحر عذاباً، يضل عنه كيده. فعمد إلى نحاسٍ، فصنع منه صورة ثورٍ أجوف واسعٍ، ثمَّ حشاها نفطاً ورصاصاً وكبريتاً وزرنيخاً، ثمَّ أدخل جرجيس مع الحشو، في جوفه، ثمَّ أوقد تحت الصورة، حتى التهبت، وذاب كل شيء فيها، واختلط، ومات جرجيس في جوفها. فلمّا مات، أرسل الله ريحاً عاصفاً، فملأت السماء سحاباً أسود مظلماً، فيه رعد وبرق وصواعق، وأرسل الله تبارك وتعالى إعصاراً، ملأ بلادهم عجاجاً وقتاماً، حتى اسود ما بين السماء والأرض، ومكثوا أياماً متحيرين في تلك الظلمة، لا يفصلون بين الليل والنهار.

وأرسل الله تعالى ميكائيل، فاحتمل الصورة التي فيها جرجيس، حتى إذا أقلها، ضرب بها الأرض، ففزع من روعها أهل الشام أجمعون، فخروا على وجوههم صعقين، وانكسرت الصورة، فخرج منها جرجيس حياً، فلمّا وقف يكلمهم، انكشفت الظلمة، وأسفر ما بين السماء والأرض، ورجعت إليهم أنفسهم.

فقال له رجل يقال له: طرقبلينا: لا ندري يا جرجيس، أأنت تصنع هذه الأعاجيب، أم ربك!، فإن كان ربك هو الذي يصنع هذا، فادعه يحيي موتانا؛ فإن في هذه القبور أمواتاً، منهم من نعرفه، ومنهم من لا نعرفه. فقال له جرجيس: لقد علمت أنما يصفح الله عنكم هذا الصفح، ويريكم هذه الأعاجيب، إلا كانت عليكم حجة، فتستوجبوا غضبه.

ثم إنه أمر بالقبور، فنبشت، وهي عظام رفات، وأقبل على الدعاء، فما برحوا من مكانهم، حتى نظروا إلى سبعة عشر إنساناً، تسعة رهطٍ، وخمس نسوةٍ، وثلاثة صبيةٍ، وإذا فيهم شيخ كبير. فقال له جرجيس: يا شيخ، ما اسمك؟. فقال: يا جرجيس، اسمي يوبيل. قال: متى مت؟. قال: في زمان كذا وكذا. فحسبوا فإذا هو مات منذ أربعمائة سنة.

فلمّا نظر الملك وأصحابه إلى ذلك، قالوا: ما بقي من أصناف العذاب شيء، إلا وقد عذبتموه به، إلا الجوع والعطش، فعذبوه بهما، فعمدوا إلى بيت عجوزٍ كبيرة، وكان لها ابن، أعمى أصم أبكم مقعد، فحصروه في بيتها، ولا يصل إليه من عند أحدٍ، طعام ولا شراب، فلمّا بلغ به الجوع، قال للعجوز: هل بقي عندك من طعام أو شراب؟. قالت: لا، والذي يحلف به ما عهدنا الطعام منذ كذا وكذا، وسأخرج ألتمس لك شيئاً.

فقال لها جرجيس: هل تعرفين الله تعالى؟. قالت: نعم. قال: فإياه تعبدين؟. قالت: لا. فدعاها إلى الله، فصدقته، وانطلقت تطلب له شيئاً، وفي بيتها دعامة من خشبةٍ يابسة، تحمل خشب البيت، فأقبل على الدعاء، فاخضرت تلك الدعامة، وأنبتت له كل فاكهةٍ، تؤكل أو تعرف، حتى كان مما أنبتت الليا واللوبيا[1]، وهو مثل البردي يكون بالشام.

وظهر للدعامة فروع من فوق البيت، أظلته وما حوله، فأقبلت العجوز، وهو فيها شاء يأكل رغداً، فلمَّا رأت الذي حدث في بيتها من بعدها، قالت: آمنت بالذي أطعمك، فادع هذا الرب العظيم؛ ليشفى ابني. قال: ادنيه مني. فأدنته، فبصق في عينيه، فأبصر، ونفث في أذنيه، فسمع، فقالت له: أطلق لسانه ورجليه – رحمك الله –. قال: خذيه، فإن له يوماً عظيماً.

***

وخرج الملك يوماً، يسير في مدينته، إذ وقع بصره على الشجرة، فقال: إني أرى شجرةً، بمكان ما كنت أعرفها به. قالوا: تلك شجرة، نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذبه بالجوع، فهو فيها شاء، وقد شبع منها، وأشبع العجوز الفقيرة، وشفى لها ابنها. فأمر الملك بالبيت، فهدم، وبالشجرة لتقطع. فلمَّا هموا بقطعها، أيبسها الله تعالى، وردها كما كانت أول مرة، فتركوها. وأمر بجرجيس، فبطح على وجهه، وأوتد له أربعة أوتاد، وأمر بعجلة، وأوقرها أسطواناً، وجعل في أسفل العجلة خناجر وشفاراً.

ثم دعا بأربعين ثوراً، فنهضت بالعجلة نهضة واحدةً، وجرجيس تحتها، فانقطع ثلاث قطع، فأمر بقطعه، فأحرقت بالنار، حتى إذا عادت رماداً، فبعث بذلك الرماد، وبعث معه رجالاً، فذروه في البحر، فلم يبرحوا من مكانهم، حتى سمعوا صوتاً من السماء: يا بحر، إن الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب، فإني أريد أن أعيده كما كان. ثمَّ أرسل الله تعالى الريح، فأخرجته، ثمَّ جمعته، حتى صار الرماد صبرةً وادةً، كهيئته قبل أن يذروه، فخرج منه جرجيس، مغبراً، ينفض رأسه، فرجعوا، ورجع جرجيس، فأخبروا الملك خبر الصوت الذي سمعوا، والريح التي جمعته.

فقال له الملك: هل لك يا جرجيس، فيما هو خير لي، ولك مما نحن فيه؟، ولولا أن يقول الناس إنك قهرتني وغلبتني، لاتبعتك، وآمنت بك، ولكن اسجد لأفلون سجدةً واحدةً، واذبح له شاةً واحدةً، ثمَّ إني أفعل ما يسرك. فقال له نعم، مهما شئت، فعلت، فأدخلني على صنمك. ففرح الملك بقوله، فقام وقبل يديه ورجليه ورأسه، وقال: إني أعزم عليك ألا تظل هذا اليوم إلا عندي، ولا تبيت هذه الليلة إلا في بيتي، وعلى فراشي، حتى تستريح، ويذهب عنك وصب[2] العذاب، ويرى الناس كرامتك علي.

---

(1) الليا نبت بالشام له حب. تاريخ الرسل والملوك 2: 32.

(2) الوصب الوجع. لسان العرب: وصب.

فأخلى له بيته، فظل فيه جرجيس، حتى إذا أدركه الليل، قام يصلِّي، ويقرأ الزبور، وكان أحسن الناس صوتاً. فلمَّا سمعت امرأة الملك، استجابت له، فلم يشعر إلا وهي خلفه، تبكي معه، فدعاها جرجيس إلى الإيمان، فآمنت به، وأمرها، فكتمت إيمانها.

فلمَّا أصبح، غدا به الملك إلى بيت الأصنام؛ ليسجد لها، وقيل للعجوز التي كان سجن في بيتها: هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك، فأصغى إلى الدنيا، وقد خرج به الملك إلى بيت أصنامه؛ ليسجد لها، فخرجت العجوز، تحمل ابنها على عاتقها، وتوبخ جرجيس، والناس مشغولون عنها.

فلمَّا دخل جرجيس بيت الأصنام، ودخل الناس معه، نظر فإذا العجوز، وابنها على عاتقها، أقرب الناس إليه مقاماً، فدعا ابن العجوز باسمه، فنطق وأجابه، ولم يكن يتكلَّم قبل ذلك، ثمَّ اقتحم عن عاتق أمه، يمشي على رجليه، وهما مستويتان، وما وطئ على الأرض قبل ذلك قط. فلمَّا وقف بين يدي جرجيس، قال: اذهب، فادع لي هذه الأصنام، وهي حينئذ سبعون صنماً، على منابر من ذهبٍ، وهم يعبدون الشمس والقمر معها، فقال له الغلام: كيف أدعو الأصنام؟. قال: قل لها: إن جرجيس يسألك، ويعزم عليك بالذي خلقك إلا أجبته.

***

قال: فلمَّا قال لها الغلام ذلك، أقبلت تتدحرج إلى جرجيس، فلمَّا انتهت إليه، ركل الأرض برجله، فخسف بها وبمنابرها، وخرج إبليس من جوف صنمٍ منها، هارباً فرقاً من الخسف، فلمَّا مرَّ بجرجيس، أخذ بناصيته، فخضع له، وكلمه جرجيس، فقال له: أخبرني أيها الروح النجسة، والخلق الملعون، ما الذي يحملك على أن تهلك نفسك، وتهلك الناس، وأنت تعلم أنك، وجندك تصيرون إلى جهنم؟.

فقال له إبليس: لو خيرت بين ما أشرقت عليه الشمس، وأظلم عليه الليل، وبين هلكة واحدٍ من بني آدم وضلالته، لاخترته هلكته على ذلك كله، وإنه ليقع لي، من الشهوة واللذة في ذلك، مثل جميع ما يتلذذ به جميع الخلائق. ألم تعلم يا جرجيس، أن الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة، فسجدوا كلهم، وامتنعت أنا من السجود، وقلت أنا خير منه!. فلمَّا قال هذا، أخلاه جرجيس، فما دخل إبليس منذ ذلك اليوم جوف صنمٍ، ولا يدخله بعدها، فيما يذكرون، أبداً.

فقال الملك: يا جرجيس، غررتني وخدعتني، وأهلكت آلهتي. فقال جرجيس للملك: إنما فعلت ذلك؛ لتعتبر، ولتعلم أنها لو كانت آلهةً، لامتنعت مني، فكيف ثقتك، ويلك، بآلهةٍ، لم تمنع أنفسها مني!، وإنما أنا مخلوق ضعيف، لا أملك إلا ما ملكني ربي. فلمَّا قال جرجيس هذا، كلمتهم امرأة الملك، وكشفت لهم إيمانها، وعددت عليهم أفعال جرجيس، والعبر التي أراهم الله تعالى، وقالت لهم: ما تنظرون من هذا الرجل إلا دعوةً، فيخسف الله بكم الأرض، كما خسف

بأصنامكم. الله الله، أيها القوم، في أنفسكم!. فقال لها الملك: ويحك يا إسكندرة!، ما أسرع ما أضلك هذا الساحر، في ليلة واحدةٍ، وأنا أقاسيه منذ سبع سنين، فلم يظفر مني بشيءٍ قط!. فقالت: أما رأيت الله كيف يظفره بك، ويسلطه عليك، فيكون له الفلاح، والحجة عليك، في كل مواطن!.

فأمر بها الملك عند ذلك، فحملت على خشبة جرجيس التي كان عليها علق، وجعلت عليها الأمشاط التي جعلت على جرجيس، فلمّا تألمت، قالت: ادع ربك يا جرجيس، فيخفف عني، فإني قد آلمني العذاب. فقال لها: انظري فوقك. فلمّا نظرت، ضحكت. فقال لها: ما الذي يضحكك؟. قالت: أرى ملكين فوقي، معهما تاج من حلي الجنَّة، ينتظران به خروج روحي. فلمّا خرجت روحها، زيناها بذلك التاج، ثمَّ صعدا بها إلى الجنَّة.

فلمّا قبض الله تعالى روحها، أقبل جرجيس على الدعاء، فقال: اللهم، أنت أكرمتني بهذا البلاء؛ لتعطيني فضائل الشهداء، فهذا آخر أيامي التي وعدتني فيه الراحة من بلائك، فإني أسألك ألا تقبض روحي، ولا أزول من مكاني هذا، حتى تنزل بهؤلاء القوم، من سطوتك ونقمتك، ما لا قبل لهم به، حتى تشفي به صدري، وتقر به عيني، فإنهم ظلموني وعذبوني. اللهم، وأسألك ألا يدعو بعدي داع، في بلاء وكرب، فيذكرني، ويشير باسمي، إلا فرجت عنه، ورحمته وأجبته، وشفعتني فيه. فلمّا فرغ من هذا الدعاء، أمطر الله عليهم ناراً من السماء.

فلمّا رأوا ذلك، عمدوا إليه، وضربوه بالسيوف؛ غيظاً عليه من شدَّة الحريق؛ ليعطيه الله تعالى بالقتلة الرابعة ما وعده، ثمَّ احترقت المدينة بجميع ما فيها، وصارت رماداً، فحملها الله من وجه الأرض، وجعل عاليها سافلها، فمكثت زماناً، يخرج من تحتها دخان منتن، لا يشمه أحد إلا سقم سقماً شديداً، وكان من آمن بجرجيس، وقتل معه أربعة وثلاثون ألفاً، وامرأة الملك[1].

قالوا: وكان جرجيس في أيام ملوك الطوائف.

---

(1) تاريخ الرسل والملوك 2: 24. قصص الأنبياء للثعلبي: 382. وقد روى القصة ابن عبَّاس أيضاً، كما في النبوة: 259. وقصص الأنبياء للكسائي: 731 وما بعدها، وقد نقله عنه المسعودي، وقال: وذلك موجود في كتاب «المبتدأ والسير» لوهب بن مُنبِّه وغيره. مروج الذهب 1: 79.

يلاحظ أن جرجيس لم يكن نبياً، ولم يذكر في القرآن الكريم، وكان وهب بن مُنبِّه يقول: نادى منادٍ من السماء أن يحيى بن زكريا سيد من ولدته النساء، وأن جرجيس سيد الشهداء. عن عبد الصمد بن معقل. تفسير عبد الرزاق 2: 354. والزهد لأحمد بن حنبل.

وكان الطبري قد ذكره بوصفه صالحاً ممن أدرك بقايا من حواري عيسى. تاريخ الرسل والملوك 2: 24. وقال ياقوت: وفي وسط مدينة الموصل قبر جرجيس النبي. معجم البلدان 5: 223. مما يدل على مقاربة جرجيس بوصفه نبياً، فكان أن أدرجه الكسائي والثعلبي في قصص الأنبياء. وهو القديس الشهيد مار جرجس، في الأصل، فيبدو أن وهب بن مُنبِّه على معرفة بمار جرجس الروماني، عندما سماه سيد الشهداء.

ذو القرنين

قال وهب: هو رجل من الإسكندرية، اسمه الإسكندروس، وكان حلم حلماً، رأى فيه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها، فقص رؤياه على قومه، فسموه: ذا القرنين، وكان في الفترة بعد عيسى[1].

وقال:[2] كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوزٍ من عجائزهم، ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندرليس، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاسٍ[3].

وهو أول من لبس العمامة، وذاك أنه كان في رأسه قرنان كالظلفين يتحركان، فلبس العمامة من أجل ذلك، وأنه دخل الحمام، ودخل كاتبه معه، فوضع ذو القرنين العمامة، فقال له ذا

(1) المعارف: 54. وتأويل مختلف الحديث: 196. يصحح البكري في المسالك والممالك 1: 139. قول وهب في زمان ذي القرنين، فيقول: «قال وهب بن مُنبِّه: إن الإسكندر كان في الفترة بعد عيسى. وهذا وهم لأن ملوك الطوائف إنما كانت بعد الإسكندر».
ويبدو أن الفترة من الرسل مدة طويلة غير محددة إلا ببدئها وانتهائها، وفيها يأتي الإسكندر قبل ملوك الطوائف الذين يقارب زمانهم نهاية الفترة، وهذه ما نستنتجه من وصية أرسطاطاليس للإسكندر، حيث يقول له بتنصيب أبناء الملوك وأهل النباهة كل في بلده، ويقبل الإسكندر ذلك، «وهم الذين يقال لهم: ملوك الطوائف». الأخبار الطوال: 38. والإسكندر»اسم يوناني معناه حامي البشر، وهو الإسكندر الكبير ملك مكدونيا (336-323 ق.م)، وفاتح أمبراطورية الفرس.
قال يوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول الميلادي: إن الإسكندر، بعد أن أخذ غزة، ذهب إلى أورشليم، وهناك تقابل مع رئيس الكهنة جدوع الذي أخبر الإسكندر بالنبوءات الخاصة به في سفر نبوءات دانيال، حيث تمثله الرؤيا بلاد اليونان على شكل تيس من الماعز، وقرنه الأول العظيم رمز للأسكندر الكبير. ويقول يوسيفوس: إن الإسكندر منح اليهود عدة امتيازات، ولما ذهب الإسكندر إلى مصر، زار هيكل «زيوس - أمون» في واحة سيوة، وقد أعلنت النبوة أنه ابن لذلك الإله.
لذا يظهر بعد ذلك على قطع النقود، وله قرنا كبش الإله المصري آمون، وجلد أسد الأله اليوناني هيركليز الذي كان ابنا لزيوس، في الأساطير اليونانية.
أما الأثر الباقي لفتوحاته، فهو انتشار اللغة اليونانية في كل ربوع الشرق الأدنى، ولذا فقد مهدت الطريق للترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم، وكذلك مهدت الطريق لكتابة العهد الجديد باللغة اليونانية. وقد كانت هذه اللغة شائعة في كل الأقطار ما حول شرقي البحر الأبيض المتوسط، وكان يفهمها معظم شعوب تلك البقاع. قاموس الكتاب المقدس: الإسكندر.

(2) القصة في العظمة 4: 1460، 1473. وفي بحر العلوم 2: 359.
وتوظف القصة في الملوك المتوّجة من حِمير: 91. توظيفاً، يخدم جانب اليمن في الصراع بين عرب الحجاز واليمن، فتخرج شخصياتها وأحداثها عما هو في الأصل المسيحي المنقول إلى الإسلام، وكان وهب يتعمد ذلك التوظيف، فهو يفرق بين شخصية ذي القرنين، من حِمير، وبين شخصية ذي القرنين الإسكندر الرومي، كما يتبين من الملوك المتوّجة من حِمير: 119.

(3) عن وهب بن مُنبِّه، قال: كان ذو القرنين ملكاً. قيل: لم سمي ذا القرنين قال: «اختلف فيه أهل الكتاب، فقال بعضهم: ملك الروم وفارس، وقال: بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين». العظمة 4: 1444. وهنا يفسر وهب معنى القرنين، إذ ذو القرنين (الإسكندر) ملك الروم والفرس، وهم يسكنون الأرض المعروفة آنذاك، فيكون ذو القرنين قد سيطر على المشرق والمغرب، حيث يكونان بين قرني الشمس.

القرنين: هذا أمر لم يطَّلع عليه خلق غيرك، فإن سمعت به من أحد، قتلتك.

فخرج الكاتب من الحمام، فأخذه كهيبة الموت، قال: فأتى الصحراء، فوضع فمه بالأرض، ثمَّ نادى: ألا إن للملك قرنين. ألا إن للملك قرنين. فأنبت الله من كلمته قصبتين، فمر بهما راع فأعجب بهما فقطعهما، واتَّخذهما مزماراً، وكان إذا زمر، خرج من القصبتين: ألا إن للملك قرنين ألا إن للملك قرنين.

فانتشر ذلك في المدينة، فأرسل ذو القرنين إلى الكاتب، فقال: لتصدقني أو لأقتلنك. قال: فقص عليه الكاتب القصة، فقال ذو القرنين: هذا أمر أراد الله أن يبديه. قال: فوضع العمامة عن رأسه[1].

وكان خارجياً في قومه، لم يكن أفضلهم حسباً، ولا موضعاً، ولكنه نشأ في أدب حسن، وحلم ومروءة وعفة، من لدن كان غلاماً إلى أن بلغ رجلاً، ولم يزل منذ نشأ يتخلق بمكارم الأخلاق، ويسمو إليها في الأمور، وكان قد حلم حلماً، رأى به أنه دنا من الشمس، حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها، فلمَّا قص رؤياه على قومه، سموه ذا القرنين. فلمَّا رأى هذه الرؤيا، بعدت همته، واشتدَّ أمره، وعلا صوته، وعز في قومه، وألقى الله عليه الهيبة؛ بسبب ما أراد به، وحدث نفسه بالأشياء كلها، فكان أول ما أجمع عليه رأيه الإسلام، فأسلم فحسن إسلامه، ثمَّ دعا قومه إلى أن يسلموا، فأسلموا عنوةً من عند آخرهم.

مسجد ذي القرنين

ثم أمرهم فبنوا له مسجداً قهراً، فلم يجدوا بداً من أن أجابوه، فاستعملهم في بنيان ذلك المسجد جميعاً، لَمَّا ألبسه الله من الهيبة والسلطان، ثمَّ أمرهم، فجعلوا طول المسجد أربعمائة ذراع، وعرضه مائتي ذراع، وعرض حائطه اثنتين وعشرين ذراعاً، وطول في السماء مائة ذراع، وأمرهم أن لا ينصبوا فيه سواري، قالوا له: يا ذا القرنين، فكيف له بخشبٍ، يبلغ ما بين الحائطين؟.

فقال لهم: إذا فرغتم من بنيان الحائطين، كبستموه بالتراب، حتى يستوي الكبس مع حيطان المسجد، فإذا فرغتم ذلك، فرضتم على الموسع قدره، وعلى المعسر قدره، من الذهب والفضة، وقطعتموه مثل قلامة الظفر، ثمَّ خلطتموه بذلك الكبس، وعملتم له خشباً من نحاس، تذيبون ذلك، وأنتم متمكنون من العمل، كيف شئتم، على أرض مستوية.

فإذا فرغتم من ذلك، وقد عملتم طول كل خشبة مائتي ذراع في أربعة وعشرين ذراعاً، للحائطين منها أربع وعشرون ذراعاً، ومائتا ذراع لَمَّا بين الحائطين، لكلِّ حائط اثنتا عشرة ذراعاً، ثمَّ تدعون المساكين لنهب ذلك التراب، فيسارعون إليه من أجل ما فيه من الذهب والفضة، فمن حمل شيئاً، فهو له. فأخرج المساكين ذلك التراب، وقد استقل السقف بما فيه،

(1) العظمة 4: 1470.

واستغنى المساكين، فجندهم أربعين ألفاً، وهم أول جندٍ اتبعه، وجعلهم أربعة أجناد، في كل جند عشرة آلاف، ثمَّ سيرهم في البلاد.

وحدث نفسه بالمسير، فاجتمع إليه قومه وأهل مدينته، فقالوا: يا ذا القرنين، إذاً ننشدك بالله، لا تؤثر علينا بنفسك غيرنا، ونحن ثروتك، وفينا كان مسقط رأسك، ونشأت وربيت، وهذه أموالنا وأنفسنا، فأنت الحكم فينا، وهذه أمك عجوز كبيرة .... [1].

وهي أعظم الرأي لرأيكم، ولكني بمنزلة المأخوذ بقلبه وسمعه وبصره، ويرفع من خلقه قدماً، لا يدري أين يتوجه، ولا ما يراد به، ولكن هلم معشر قومي، فادخلوا هذا المسجد، فأسلموا من عند آخركم، وإياكم أن تخافوا علي، فتهلكوا.

ثم دعا دهقان الإسكندرية، فقال له عمر مسجدي هذا. وعز عني أمي. فكان مما تخلفه الدهقان به أنه لمَّا رأى شدَّة وجد أمه، وطول بكائها، احتال لها؛ ليعزيها بما أصاب الناس قبلها، وبعدها من المصائب والبلايا، فأراد أن يعلمها أن الله تعالى لم يبرىء أحداً من البلايا والمصائب والفجعات، قبلها ولا بعدها، ثمَّ إنه صنع عيداً عظيماً، وكان منه حيلة لها، ثمَّ أذن مؤذنه: يا أيها الناس، إن فلاناً الدهقان قد أذن لكم أن تحضروا عيده، في يوم كذا وكذا.

فلمَّا كان اليوم الذي أراد أن يحضره فيه الناس، أذن مؤذنه: يا أيها الناس، إن فلاناً الدهقان قد أذن لكم لتحضروا عيده، في هذا اليوم، فأسرعوا إليه، واحذروا أن يحضره إلا رجل عري عن المصائب والبلايا والفجعات.

فلمَّا فعل هذا، لم يدر الناس على ما يضعون أمره، فقالوا: هذا رجل أنفق، فعظمت نفقته، ثمَّ ندم وأدركه البخل. فتدارك أمره فأجمع أمرهم أن يخلوه، وقالوا: من هذا الذي عري من البلايا، أم من هذا الذي لم يفجع، وتصبه المصائب، فإن أهون الناس مصيبة لهو الموت؛ لأنه أمر شامل، كتبه الله على جميع خلقه، فلا بد للعبد من أن يموت سوى مصائب أخرى، ورزايا عظام، تكون مما كتبه الله على أهل الدنيا. فكل هذا تسمعه أم ذي القرنين، وقد ملئت منه عجباً، وليست تدري ما يريد الدهقان.

ثم إن الدهقان بعث منادياً، بعدما تكلَّم الناس، وخاضوا فيه، فأذن: أيها الناس، إن فلاناً الدهقان قد أذن لكم؛ لتحضروا عنده، يوم كذا، فلا يحضرنه إلا رجل، قد ابتلي وأصيب أو فجع، وإياكم أن يحضره أحد من خلق الله، عري من البلايا؛ لأنه لا خير فيمن لا يصيبه البلاء. فلمَّا فعل هذا، تكلَّم الناس، فقالوا: هذا رجل، قد بخل ثمَّ ندم واستحيى. فتدارك رأيه، وحجا عيبه.

ولما اجتمع الناس، خطبهم، فقال: أيها الناس، إني ما جمعتكم لمَّا دعوتكم له، ولكن جمعتكم؛ لأكلمكم في ذي القرنين، فيما لحقنا به من فقد صاحبنا وفراقه: إنه عمد إلى أعظم أهل الأرض

---

(1) هنا سقط في الأصل، والكلام الآتي من كلام ذي القرنين.

حلماً وعلماً وحكماً وخطراً، وأبعدهم صوتاً، وأشدهم حيلة وبأساً، وقلباً وجناحاً، فاجتلح من بين أظهرنا في مثل قلتنا وضعفنا وحاجتنا إليه.

فلمَّا عظمت المصيبة علينا، نظرت في مواقع البلاء، فوجدت البلاء لنا الأسوة الحسنة، منذ يوم خلق الله تعالى آدم إلى يومنا هذا، فتعزيت بذلك، وأردت أن أقص عليكم هذا العزاء؛ لتصبروا وتسلموا وترضوا بقضاء ربكم - تبارك وتعالى -، ولو نظرتم فيما قصصت عليكم مع مواقع البلاء، لوجدتم أعظمه وأشده على النبيين، ثمَّ خيار الناس بعدهم.

وقد ابتلى الله آدم، أول خلقه، وهو خيرته وصفوته من خلقه، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكة، وأسكنه جنته، وأكرمه بكرامةٍ، لم يكرمها أحداً من خلقه، قبله ولا بعده، ثمَّ ابتلاه بأعظم بلية كانت في الدنيا، من حين خلقها الله، وذلك الخروج من الجنَّة، وهي المصيبة التي لا جبران لها، فمن مثل آدم؟، ومن هذا الذي ليس له أسوة حسنة، وعزاء عظيم بآدم؟. ثمَّ ابتلى الله من بعده إبرهيم بالحريق والجلاء، وابتلى إسحاق بالذبح، ويعقوب بالحزن والبلاء، وعمي البصر، ويوسف بالرق، وأيُّوب بالسقم والمال والولد، ويحيى بالذبح، وزكريا بالقتل، وعيسى بالأسر، وخلق من خلق الله كثير لا يحصيهم، إلا الله.

فلمَّا فرغ من هذا الكلام، عارضوا كلامه، وأجابوه فأحسنوا إجابته، ثمَّ قال لهم: انطلقوا بنا، نعز أم الإسكندروس، وننظر كيف صبرها؛ فإنها أعظمت مصيبة في ابنها. ولما دخلوا عليها، قالوا لها: هل حضرت الجمع؟، أو سمعت الكلام؟. قالت لهم: ما غاب عني من أمركم شيء، ولا سقط عني من كلامكم شيء.

وما كان منكم أحد أعظم مصيبة في الإسكندروس مني، ولقد صبرني الله ورضاني، وربط على قلبي، وإني أرجو أن يكون صبري وعزائي، في القوة والتسليم ،بقدر عظم مصيبتي، وإني لأرجوأن يكون أجري وثوابي، على قدر ذلك، وإني لأرجو لكم من الأجر، بقدر ما رزيتم من فقد أخيكم ،بأن تؤجروا، على قدر ما نويتم في أمه، أملتم، والله يأجرني، وإياكم، ويغفر لي ولكم ويرحمني، وإياكم، فلمَّا رأوا حسن عزائها وصبرها، انصرفوا وتركوها.

مبعث ذي القرنين

وانطلق ذو القرنين يسير على وجهه، حتى أمعن في البلاد، يؤم الغرب وجنوده يومئذ المساكين، فلمَّا أمعن في البلاد، أوحى الله إليه: يا ذا القرنين، إني باعثك إلى أمم الأرض، وهم أمم مختلفة ألسنتهم كلها، وهم جميع أهل الأرض، ومنهم أمتان بينهما طول الأرض كله، ومنهم أمتان بينهما عرض الأرض كله، وأمم منهم في وسط الأرض، منهم الجن والإنس، ويأجوج ومأجوج، فأما اللتان بينهما طول الأرض، فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، وأما الأخرى فعند مطلعها يقال لها المنسك، وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن، يقال له هاويل، وأما التي في قطر الأرض الأيسر فأمة يقال لها تاويل.

فلمَّا قال الله له ذلك، قال ذو القرنين: إلهي إنك قد ندبتني لأمرٍ عظيمٍ لا يقدر قدره إلا أنت، فأخبرني عن هذه الأمم التي تبعثني إليها، بأي قوم أكابرهم؟، وبأي جمع أكابرهم؟، وبأي حيلةٍ أكايدهم؟، وبأي صبرٍ أقاسيهم؟، وبأي لسانٍ أناطقهم؟، وكيف لي بأن أفقه لغاتهم؟، وبأي سمعٍ أعي قولهم؟، وبأي بصرٍ أنفذهم؟، وبأي حجةٍ أخصمهم؟، وبأي قلبٍ أعقل عنهم؟، وبأي حكمةٍ أدبر أمورهم؟، وبأي قسطٍ أعدل بينهم؟، وبأي حلمٍ أصابرهم؟، وبأي معرفةٍ أفصل بينهم؟، وبأي علمٍ أتقن أمرهم؟، وبأي يدٍ أسطو عليهم؟، وبأي رجلٍ أطأهم؟، وبأي طاقةٍ أحصيهم؟، وبأي جندٍ أقاتلهم؟، وبأي رفقٍ أستألفهم؟، فإنه ليس عندي يا إلهي شيء مما ذكرت، ولا نقوى عليهم ولا نطيقهم، وأنت الرب الرحيم، أرحم الراحمين، ولا تكلف نفسًا إلا وسعها، ولا تحملها إلا طاقتها، ولا تعنتها ولا تفدحها، بل أنت ترأف بها وترحمها، وتعذرها وتقبل منها دون جهدها وطاقتها،

فأوحى الله: إني سأطوقك ما حملتك، وأشرح لك صدرك فيسمع كل شيءٍ، وأشرح لك فهمك فتفقه كل شيءٍ، وأطلق لك، وأبسط لك لسانك، فتنطق به كل شيءٍ، وأفتح لك سمعك فتعي كل شيءٍ، وأحد لك بصرك فتنفذ كل شيءٍ، وأدبر لك أمرك، فتتقن كل شيءٍ، وأحصي لك فلا يفوتك شيء، وأحفظ عليك، فلا يعزب عنك شيء، وأشد لك ظهرك فلا يهدك شيء، وأشد لك ركنك، فلا يغلبك شيء، وأبسط لك يديك فتسطوان كل شيءٍ، وأشد لك وطأتك، فتبيد كل شيءٍ، وألبسك الهيبة، فلا يروعك شيء، وأمضي لك جناحك فلا يردعك، ولا يردك شيء، وأسخر لك النور والظلمة فأجعلها جندًا لك من جنودك[1]، يهديك النور من أمامك، وتحوطك الظلمة من ورائك، وتحوش عليك الأمم من ورائك[2]،

نحو مغرب الشمس

فلمَّا قيل له ذلك انطلق يؤم الأمة التي عند مغرب الشمس، فلمَّا بلغهم وجد جمعًا وعددًا لا يحصيهم إلا الله، وقوةً وبأسًا لا يطيقه إلا الله، وألسنةً مختلفةً، وأهواءً متشتةً، وقلوبًا متفرقةً، فلمَّا رأى منهم ذلك كابرهم بالظلمة، فضرب حولهم ثلاث عساكر منها، فأحاطت بهم من كلِّ مكانٍ، وحاشتهم حتى جمعتهم في مكانٍ واحدٍ، ثمَّ دخل عليهم بالنور، فدعاهم إلى الله وعبادته، فمنهم من آمن له، ومنهم من صد عنه، فعمد إلى الذين تولوا عنه، فأدخل عليهم الظلمة، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم، ودخلت في بيوتهم ودورهم، وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم، ومن كلِّ جانبٍ منهم، فماجوا فيها وتحيروا، فلمَّا أشفقوا أن يهلكوا فيها عجوا إليه بصوتٍ واحدٍ، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوةً، فدخلوا في دعوته، فجند من أهل المغرب أمةً

(1) حياة الحيوان الكبرى 2: 30. عن وهب.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 319. وخرافة الإسكندر: 268.

عظيمةً، فجعلهم جندًا واحدًا[1].

ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم من خلفهم، وتحوشهم من حولهم، والنور أمامه يقودهم، ويدله وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى، وهو يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن التي يقال لها هاويل، وسخر الله له يده وقلبه، ورأيه وعقله، ونظره وائتماره، فلا يخطئ إذا ائتمر، وإذا عمل عملًا أتقنه، فانطلق يقود تلك الأمم وهي تتبعه، فإذا انتهى إلى بحرٍ، أو مخاضةٍ بنى سفنًا من ألواحٍ صغارٍ أمثال النعال، فنظمها في ساعةٍ، ثمَّ حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم، وتلك الجنود، فإذا قطع تلك الأنهار والبحار فتقها، ثمَّ دفع إلى كل إنسانٍ لوحًا، فلا يكرثه حمله، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل، فعمل فيها كعمله في ناسك.

نحو مشرق الشمس

فلمَّا فرغ منهم مضى على وجهه في ناحية الأرض اليمنى، حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس[2]، فعمل فيها وجند منها جنودًا كفعله في الأمتين اللتين قبلهما، ثمَّ كر مقبلاً في ناحية الأرض اليسرى، وهو يريد تاويل، وهي الأمة التي بحيال هاويل، وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كلها، فلمَّا بلغها عمل فيها جندًا منها كفعله فيما قبلها[3].

جبل قاف

قال وهب: جاء ذو القرنين إلى الجبل المحيط بالدنيا، وهو ق، فقال: أنت ق؟. قال: نعم. قال: فما هذه الجبال الراسيات؟. قال: هذه من عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل بالأرض، أوحى إلي، فحركت عرقًا من عروقي.

فاستوحش ذو القرنين، فبعث الله تعالى إليه ملكًا يؤنسه، فقال: هل من ورائها أرض أخرى؟. قال: نعم، أرض بيضاء مسيرة خمسمائة عامٍ، مملوءة ثلجًا، لولا برد ذلك الثلج، لهلك أهل تلك البلدة من حر حَمَلَة العرش. فقال: هل وراءها أرض أخرى؟. قال: نعم. أرض مملوءة بردًا، لولا برد ذلك البرد، لهلك أهل تلك البلدة من حر حَمَلَة العرش. قال: قلت: أخبرني بعظيمٍ من عظمة الله بكلمةٍ واحدةٍ، قال: إن ما حدثتك لبين أصبعين من أصابع الله، كخردلةٍ في فلاةٍ من الأرض[4].

فلمَّا رأى ذلك ذو القرنين، خر ساجداً لله، فلم يرفع رأسه، حتى قواه الله، وأعانه على النظر إلى ذلك الجبل، والملك القابض عليه، وهو محيط بالأرض كلها، فقال له الملك: كيف قويت على

---

(1) أراد الإسكندر الوصول إلى أطراف العالم الخارجية، وفي الطريق توقف في مصر، حيث استعار سبعة آلاف عامل في النحاس والحديد، من ملك مصر؛ ليصبحوا جيشه المهول. خرافة الإسكندر: 268.

(2) حِلية الأولياء 4: 36. وتاريخ دمشق 17: 351.

(3) قصص الأنبياء للثعلبي: 321. وقصص الأنبياء للكسائي: 723.

(4) العظمة 4: 1488. وفي تاريخ مدينة صنعاء: 442.

أن تبلغ هذا الموضع، ولم يبلغه أحد من ولد آدم قبلك؟. قال ذو القرنين: قواني الله، الذي قواك على قبض هذا الجبل، فقال: إني موكل به، وهو جبل قاف المحيط بالأرض كلها، ولولا هذا الجبل، انكفأت الأرض بأهلها، وليس على وجه الأرض، جبل أعظم منه.

فلماً أراد ذو القرنين الرجوع، قال للملك: أوصني، قال الملك: يا ذا القرنين، لا يهمنك رزق غد، ولا تؤخر عمل اليوم لغد، ولا تحزن على ما فاتك، وعليك بالرفق، ولا تكن جباراً متكبراً[1]

يأجوج ومأجوج

فلمَّا فرغ منها عطف منها إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجنّ وسائر الإنس، ويأجوج ومأجوج[2]، فلماً كان في بعض الطريق مما يلي منقطع أرض الترك نحو المشرق، قالت له أمة من الإنس صالحة: يا ذا القرنين، إن بين هذين الجبلين خلقًا من خلق الله كثيرًا، فيهم مشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما يفترسها السباع، ويأكلون نشار الأرض كلها من الحيات، والعقارب، وكل ذي روح مما خلق الله في الأرض، وليس الله خلقٌ، ينمو كنمائهم في العام الواحد، ولا يزداد كزيادتهم، ولا يكثر ككثرتهم.

فإن كانت لهم مدة على ما نرى من زيادتهم ونمائهم، فلا شك أنهم سيملكون الأرض، ويجلون أهلها منها، ويظهرون عليها، فيفسدون فيها، وليست تمرُّ بنا سنة منذ جاوزنا، ورأيناهم إلا، ونحن نتوقعهم، وننتظر أن يطلّع أوائلهم من هذين الجبلين: { فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} سورة الكهف: 94 - 95. فقال: أعدُّوا لي الصخور والحديد والنحاس، حتى ارتاد بلادهم، وأعلم علمهم، وأفتش ما بين جبليهم.

ثم انطلق يؤمهم، حتى دُفع إليهم وتوسَّط بلادهم، فإذا هم على مقدارٍ واحدٍ، إناثهم وذكرانهم، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخالب في موضع الأظفار من أيدينا، وأضراس وأنياب كأضراس السبع وأنيابها، وأحناك كأحناك الإبل، وفوه، تسمع له حركةً إذا أكلوا كحركة الجزة من الإبل، أو كقضم البغل المسن، أو الفرس المقوى.

وهم هُلْب[3]، عليهم من الشعر في أجسادهم ما يواريهم، وما يتَّقون به الحرَّ والبرد إذا أصابهم، ولكلِّ واحدٍ منهم أذنان عظيمتان: إحداهما وبرة ظهرها وبطنها، والأخرى زغبة ظهرها وبطنها، تسعانه إذا لبسهما يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى، ويتصيف في إحداهما، ويشتو في الأخرى، وليس لهم ذكر، ولا أنثى إلا وقد عرف أجله الذي يموت فيه، ومنقطع

(1) قصص الأنبياء للكسائي: 722.

(2) هم جوج وماجوج. خرافة الإسكندر: 268، 369.

(3) الهلب الشعر الغليظ. لسان العرب: هلب.

عمره، وذلك أنه لا يموت من ذكورهم حتى يخرج من صلبه ألف ولدٍ، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولدٍ، فإذا كان ذلك أيقنا بالموت، وتهيآ له.

وهم يرزقون التنين في زمان الربيع، ويستمطرونه إذا تحيَّنوه، كما يستمطر الغيث لحينه، فيقذفون منه كل سنةٍ بواحدةٍ، فيأكلونه عامهم كله إلى مثلها من قابلٍ، فيغنيهم على كثرتهم ونمائهم، فإذا أمطروا أخصبوا وعاشوا وسمنوا، ورئي أثره عليهم، فدرت عليهم الإناث، وشبقت منه الرجال الذكور[1]، وإذا أخطأهم هزلوا، وأجدبوا، وجفرت الذكور، وحالت الإناث، وتبين أثر ذلك عليهم، وهم يتداعون تداعي الحمام، يعوون عواء الكلاب، ويتسافدون حيث ما التقوا، تسافد البهائم.

السَّدُّ

فلمَّا عاين ذلك منهم ذو القرنين، انصرف إلى ما بين الصدفين، فقاس ما بينهما وهو في منقطع أرض الترك، مما يلي الشمس، فوجد بعد ما بينهما مائة، فرسخٍ، فلمَّا أنشأ في عمله حفر له أساسًا، حتى بلغ الماء، ثمَّ جعل عرضه خمسين، فرسخًا، وجعل حشوه الصخور وطينه النحاس، ثمَّ يذاب، ثمَّ يصب عليه، فصار كأنه عرق من جبلٍ تحت الأرض، ثمَّ علاه، وشرفه بزبر الحديد والنحاس المذاب، وجعل خلاله عرقًا من نحاسٍ أصفر كأنه برد محبر من صفرة النحاس، وحمرته وسواد الحديد[2].

الأمة الصالحة

فلمَّا فرغ منه، وأحكمه[3]، انطلق عامدًا إلى جماعة الجن والإنس، فبينا هو يسير إذ دفع إلى أمةٍ صالحةٍ يهدون بالحق وبه يعدلون، فوجد أمةً مقتصدةً يقسمون بالسوية، ويحكمون بالعدل، ويتأسون به، ويتراحمون حالهم واحدة، وكلمتهم واحدة، وأخلاقهم سليمة، وطريقتهم مستقيمة، وقلوبهم مؤتلفة، وسيرتهم مستوية، وقبورهم بأبواب بيوتهم، وليس على بيوتهم أبواب، وليس عليهم أمراء، وليس بينهم قضاة، وليس فيهم أغنياء، ولا ملوك، ولا أشراف، ولا يتفاوتون، ولا يتفاضلون، ولا يتنازعون، ولا يستبون، ولا يقتتلون، ولا يقحطون، ولا يجردون، ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس، وهم أطول الناس أعمارًا، وليس لهم مسكين ولا فقير، ولا فظ ولا غليظ.

فلمَّا رأى ذلك ذو القرنين من أمرهم، تعجب منهم وقال لهم: أخبروني أيها القوم خبركم،

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 11: 58.

(2) قصص الأنبياء للثعلبي: 322. وفي خرافة الإسكندر: 269 ينقش الإسكندر كتابةً على بوابة السد، تتضمن نبوءة خرق شعب «الهون» وهم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، في قوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا } سورة الكهف: 93.

(3) باختصار عن وهب في البلدان لابن الفقيه: 594.

فإني قد أحصيت البلاد كلها، برها وبحرها، وشرقها وغربها، ونورها وظلمها، فلم أجد منها أحدًا مثلكم، فأخبروني خبركم. قالوا: نعم، فاسألنا عما بدا لك.

قال: أخبروني ما بال قبور موتاكم على باب بيوتكم؟. قالوا: عمدًا فعلنا ذلك؛ لئلا ننسى الموت، ولا يخرج ذكره من قلوبنا، قال: فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب؟. قالوا: ليس فينا متهم، وليس فينا إلا أمين مؤتمن، قال: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لا نتظالم. قال: فما بالكم ليس فيكم حكام؟. قالوا: لا نختصم. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لا نتكاثر.

قال: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟. قالوا: لا نتكابر. قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟. قالوا: لا نتنافس. قال: فما بالكم لا تتفاضلون؟. قالوا: من قبل أنا متواصلون متراحمون. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟. قالوا: من قبل ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا. قال: فما بالكم لا تستبون ولا تقتتلون؟. قالوا: من قبل أنا غلبنا طبائعنا بالعزم، وسسنا أنفسنا بالأحلام. قال: فما بالكم كلمتكم واحدة، وطريقتكم مستقيمة؟. قالوا: من قبل أنا لا نتكاذب، ولا نتخادع، ولا يغتاب بعضنا بعضًا.

قال: فأخبروني من أين تشابهت قلوبكم، واعتدلت سيرتكم؟. قالوا: صحت صدورنا، فنزع الله بذلك الغل والحسد من قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟. قالوا: من قبل أنا نقسم بالسوية. قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟. قالوا: من قبل الذل والتواضع. قال: فما بالكم أطول الناس أعمارًا؟. قالوا: من قبل أنا نتعاطى الحق، ونحكم بالعدل[1].

قال: فما بالكم لا تقحطون؟. قالوا: لا نغفل الاستغفار، قال: فما بالكم لا تحردون؟. قالوا: من قبل أنا وطنا أنفسنا للبلاء منذ كنا، فأحببناه وحرصنا عليه، فعرينا منه، قال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس؟. قالوا: لا نتوكل على غير الله، ولا نعمل بالأنواء والنجوم.

قال: حدثوني، أهكذا وجدتم آباءكم يعملون؟. قالوا: نعم، وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم، ويواسون فقراءهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون على من جهل عليهم، ويستغفرون لمن سبهم، ويصلون أرحامهم، ويردون أماناتهم، ويحفظون وقتهم لصلاتهم، ويوفون بعهودهم، ويصدقون في مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون عن أقاربهم، فأصلح الله بذلك أمرهم، وحفظهم به ما كانوا أحياءً، وكان حقا عليه أن يخلفهم في تركتهم[2].

ثم إنه رجع إلى العراق، وملك ملوك الطوائف كلها، ومات في طريقه قبل وصوله

(1) المجالسة وجواهر العلم 4: 44. وتاريخ دمشق 17: 352.

(2) العظمة 4: 1451. والكشف والبيان 6: 198.

بشهرزور[1]. قالوا: وكان عمره ستاً وثلاثين سنةً[2].

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: 326. وتاريخ الرسل والملوك 1: 578.

(2) مات الإسكندر في بابل في سن الثالثة والثلاثين. قاموس الكتاب المقدس: الإسكندر.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، (د.ت).
- آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ت 682هـ)، دار صادر، بيروت.
- آكام المرجان في أحكام الجان، ابن تقي الدين (محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقيّ ت 769هـ)، تحقيق إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، مصر، (د.ت).
- أبحاث في التاريخ الإسلامي، جواد علي، دراسة نصير الكعبي، المركز الأكاديمي للأبحاث، كندا، 2011.
- أبوكريفا العهد الجديد، تجميع لكتابات البوكريفا المسيحية، إبراهيم سالم الطرزي، (د. د)، ط1 2001.
- أبوكريفا العهد القديم، تجميع لكتابات الأبيجرافا وأبوكريفا العهد القديم، إبراهيم سالم طرزي، مطبعة مترويول، (د. م)، ط1 2006.
- أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، (ت نحو 67 هـ)، ضمن «التيجان في ملوك حِمير»، تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، 1979.
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، الفاكهي (محمد بن إسحاق بن العباس ت 275 هـ) تحقيق عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ط2 1414 هـ.
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الأزرقي (محمد بن عبد الله بن أحمد ت 250هـ)، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت.
- أخنوخ الثاني، ضمن «التوراة، كتابات ما بين العهدين، التوراة المنحول»، تحقيق أندريه دوبون سومر، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، سوريا، 1999.
- أساطير الأولين، القصص القرآني ومتوازياته التوراتية، فراس السواح، دار التكوين، دمشق، ط2 2016.
- أساطير اليهود، لويس جينزبيرج، ترجمة إدوارد وديع عبد المسيح، دار الكلمة، القاهرة، 2017. وترجمة حسن حمدي السماحي، دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة، 2007.
- الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة، علي الشوك، دار اللام، لندن، 1987.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله بن محمد (ت 463 هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة (د.ت).

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير (أبو الحسن، علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم ت 630 هـ)، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
- الإسرائيليات في تفسير الطبري، دراسة في اللغة والمصادر العبرية، آمال محمد عبد الرحمن، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2001.
- الإسرائيليات والموضوعات في كتب الحديث، د. محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة ط4 1408 هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت 852 هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992.
- أصول السنة، ابن أبي زمنين (محمد بن عبد الله بن عيسى المري الإلبيري ت 399هـ)، تحقيق عبد الله بن محمد عبد الرحيم، مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، 1415 هـ.
- اعتلال القلوب، الخرائطي (محمد بن جعفر بن محمد السامري ت 327 هـ)، تحقيق حمدي الدمرداش، نزار مصطفى الباز، السعودية، 2000.
- الأعلام، الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد ت 1396 هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، 2002.
- إكمال تهذيب الأسماء في أسماء الرجال، مغلطاي (مغلطاي بن قليح بن عبد الله ت 762 هـ)، تحقيق عادل بن محمد، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، 2001.
- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، القرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر ت 671هـ)، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، 1980.
- الإعلان بالتَّوبيخ لمن ذمَّ التَّاريخ، السَّخاويُّ (محمَّد بن عبد الرَّحمن ت 902 هـ)، دار الكتاب العربيِّ، بيروت، طبعة مصوَّرة 1983.
- إنجيل البداية ليعقوب، ضمن أبوكريفا العهد الجديد، الكتاب الأول، أناجيل الأبوكريفا المخفية، ترجمة إبراهيم سالم الطرزي، (د. م، ت) ط1 2001.
- الأنساب، الصحاري (سلمة بن مسلم بن إبراهيم العوتبي ت 511 هـ)، تحقيق محمد إحسان النص، (د.ن، د.م)، ط4 2006.
- الأولياء، ابن أبي الدنيا (عبد الله بن محمد بن عبيد ت 281هـ)، تحقيق محمد السعيد بسيوني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1413 هـ.
- بحر العلوم، السمر قندي (نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ت 373 هـ)، تحقيق علي محمد معوَّض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
- البدء والتاريخ، المقدسي (المطهر بن طاهر، كان حياً سنة 355 هـ)، تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

- البداية والنهاية، ابن كثير (إسماعيل بن عمر بن كثير ت 774 هـ)، تحقيق عبد عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، مصر، 1997.
- بستان الواعظين ورياض السامعين، ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد ت 597هـ)، تحقيق أيمن البحيري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط2 1998.
- البلدان، ابن الفقيه (أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ت 365)، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، 1996.
- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت 276هـ)، تحقيق محمد محيي الدين الصفر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2 1999.
- تاريخ ابن أبي خيثمة، ابن أبي خيثمة (أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة ت 279هـ)، تحقيق صلاح بن فتحي هلال، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة، 2006.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة السيد بكر، ورمضان عبد التواب، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1993.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت 748 هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.
- تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، ترجمة محمود فهمي حجازي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، 1991.
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسن ت 966 هـ) دار صادر، بيروت، (د.ت).
- تاريخ الرسل والملوك، الطبري (محمد بن جرير ت 310 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407 هـ.
- التاريخ العربي والمؤرخون، شاكر مصطفى، دار العلم للملايين، بيروت 1983.
- التاريخ الكبير، البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت 256 هـ)، تحقيق هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.
- التَّاريخ الكبير، البخاري (محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت 256 هـ)، تحقيق هاشم النَّدوي، دار الفكر،(د.ت).
- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب المعروف بابن واضح الأخباري ت 292 هـ) المكتبة المرتضوية، النجف، 1358 هـ.
- التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة، دار الجيل، بيروت، ط3 1991.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (أحمد بن علي أبو بكر ت 463 هـ) دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- تاريخ بيهق، ابن فندمه (علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي، الشهير بابن فندمه ت 565

هـ) ، دار اقرأ، دمشق، 1325 هـ.

- تاريخ خليفة، خليفة بن خياط الليثي العصفري (ت 240هـ) تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ومؤسسة الرسالة، بيروت ط2 1397هـ.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله ت 571 هـ)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995.
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، حمزة الأصفاهي (حمزة بن الحسن الأصفهاني ت 360 هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961.
- تاريخ مدينة صنعاء، الرازي (أحمد بن عبد الله بن محمد ت 460 هـ)، تحقيق حسين عبد الله العمري، دار الفكر، دمشق، ط3 1989.
- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي (محمد بن أحمد بن محمد الكلبي الغرناطي ت 741هـ)، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، 1416 هـ.
- تفسير ابن أبي حاتم، ابن أبي حاتم (عبد الرحمن بن محمد الرازي التميمي ت 327 هـ)، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، لبنان.
- تفسير القرآن، ابن المنذر (محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ت 319هـ)، تحقيق سعد بن محمد السعد، دار المآثر، السعودية، 2002.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (إسماعيل بن عمر الدمشقي ت 774 هـ)، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرين، مؤسسة قرطبة، مصر، 2000.
- تفسير عبد الرزاق (عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت 211 هـ)، تحقيق محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999.
- تفسير مجاهد، مجاهد (مجاهد بن جبر ت 104هـ)، تحقيق محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، 1989.
- تفسير مقاتل، مقاتل (مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي ت 150 هـ)، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت،2003.
- تفسير يحيى، يحيى (يحيى بن سلام بن ثعلبة القيرواني ت 200 هـ)، تحقيق هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
- التلمود البابلي، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، 2011.
- التلمود، كتاب اليهود المقدس، تاريخه وتعاليمه ومقتطفات من نصوصه، أحمد إيبش، دار قتيبة، دمشق، 2006.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، القرطبي (يوسف بن عبد الله بن محمد ت 463هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387 هـ.

- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي العسقلاني (محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ت 377 هـ)، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، ابن عراق الكناني (علي بن محمد بن علي ت 963هـ)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1399هـ.
- تهذيب الأسماء واللغات، النووي (يحيى بن شرف ت 676 هـ)، باعتناء مجموعة علماء، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تهذيب التهذيب، ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر ت 852 هـ) دار الفكر، بيروت، 1984.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي (يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ت 742 هـ) تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980.
- توثيق السنة في القرن الثاني الهجري، أسسه واتجاهاته، رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، مصر، 1981.
- التوراة، كتابات ما بين العهدين، التوراة المنحول، تحقيق أندريه دوبون سومر، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، سوريا، 1999.
- الملوك التيجان في ملوك حِمير، وهب بن مُنبِّه (الأبناوي الصنعاني الذماري ت 114 هـ)، تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، 1979.
- الثقات، ابن حبان (محمد بن حبان البستي ت 354 هـ)، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، 1975.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري (محمد بن جرير بن يزيد ت 310 هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر ت 671 هـ)، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، 2003.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت ت 463هـ)، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، السعودية، (د.ت).
- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ت 327 هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1952.
- حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت 430 هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405 هـ.
- الحور العين، الحميري (المؤلِّف: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني ت 573 هـ)، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1948.
- حياة الحيوان الكبرى، الدميري (محمد بن موسى بن عيسى ت 808هـ)، دار الكتب العلمية،

بيروت ط2 1424 هـ.

- الحياة اليونانية لآدم وحواء، ضمن «التوراة، كتابات ما بين العهدين، التوراة المنحول»، تحقيق أندريه دوبون سومر، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، سوريا، 1999.
- خرافة الإسكندر في القرآن، سورة الكهف، كيفن فان بلاديل، ضمن القرآن في محيطه التاريخي، جبرائيل سعيد رينولدز، منشورات الجمل، بيروت - بغداد، 2012.
- دائرة المعارف الكتابية، القس منيس عبد النور وآخرون، دار الثقافة، مصر، (د.ت).
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين ت 458 هـ)، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت 1985.
- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد ت 808 هـ) تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2 1988.
- ذكر المعتزلة من مقالات الإسلاميين، البلخي (عبد الله بن أحمد الكعبي ت 319 هـ) تحقيق فؤاد السيد، ضمن فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974.
- ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، الدمشقي (عبد العزيز بن التميمي ت 466هـ)، تحقيق عبد الله أحمد سليمان، دار العاصمة، السعودية، 1409ه.
- ذيل ميزان الاعتدال، العراقي (عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن ت 806 هـ)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.
- رائحة المسيح الذكية، إغناطيوس زكا الأول عيواص، (د.م)، 2008.
- الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات، الداني (عثمان بن سعيد بن عثمان ت 444هـ)، تحقيق دغش بن شبيب العجمي، دار الإمام أحمد، الكويت، 2000.
- الرقة والبكاء، ابن أبي الدنيا (عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الأموي القرشي ت 281هـ)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط3 1998.
- الرؤيا اليونانية لباروخ، ضمن «التوراة، كتابات ما بين العهدين، التوراة المنحول»، تحقيق أندريه دوبون سومر، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، سوريا، 1999.
- الزهد، ابن المبارك (عبد الله بن المبارك بن واضح ت 181 هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
- الزهد، ابن أبي الدنيا (عبد الله بن محمد بن عبيد ت 281هـ)، دار ابن كثير، دمشق، 1999.
- الزهد، ابن حنبل (أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت 241 هـ)، تحقيق حمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999.
- سفر أخنوخ الثاني، ضمن «التوراة، كتابات ما بين العهدين، التوراة المنحول»، تحقيق أندريه دوبون سومر، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، سوريا، 1999.

- سفر التكوين البابلي، قصة الخليقة ملحمة «حينما في الأعالي»، الكسندر هايدل، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات دار الجمل، المانيا - بغداد، 2007.
- سفر اليوبيل، من مخطوطات قمران، على النت.
- hps: / /dghaly.com /aicles /display /12496
- سنن الترمذي، الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى 279هـ)، تحقيق عزت عبد الدعاس، مطابع الفجر، حمص، 1968.
- سِيَر أعلام النبلاء، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت 748 هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.
- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، ابن إسحاق (محمد بن إسحاق بن يسار ت 151هـ)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1978.
- سيرة ابن هشام، ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيُّوب ت 213 هـ)، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1411 هـ.
- الشريعة، الآجري (محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي ت 360هـ)، تحقيق عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن، السعودية، ط2 1999.
- شعب الإيمان، البيهقي (أحمد بن الحسين بن علي ت 485 هـ)، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت 1410 هـ.
- صحيح ابن حبان (محمد بن حبان البستي ت 354 هـ) تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993.
- صحيح البخاري، البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ت 256 هـ)، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، 1987.
- صلة تاريخ الطبري، عُريب (عريب بن سعد القرطبي ت 369 هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، مصورة عن طبعة ليدن، 1897.
- الطبقات الكبرى، الزهري (محمد بن سعد بن منيع ت 230 هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
- طبقات المعتزلة، ابن المرتضى (أحمد بن يحيى ـ) تحقيق سوسنّه ديفلد، دار المنتظر، بيروت، ط2 1988.
- طبقات المعتزلة، كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، عبد الجبار (عماد الدين أبي الحسن، عبد الجبار بن أحمد ت 415 هـ) تحقيق فؤاد السيد، ضمن ضمن فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974.
- عجائب الملكوت للكسائي (أبو الحسن محمد بن عبد الله ت ق 5 هـ)، المتخيل المقدس، والأسطورة الإسلامية الكبرى، تحقيق محمد كريم الكواز، منشورات الجمل، بغداد، 2018.

- العظمة، أبو الشيخ (عبد الله بن محمد بن جعفر ت 369 هـ)، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، 1408 هـ.
- علل الشرائع، الشيخ الصدوق (محمد بن علي بن بابويه القمي ت 381 هـ)، دار المرتضى، بيروت، 2006.
- العلل ومعرفة الرجال، ابن حنبل (أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت 241 هـ)، وصي الله بن محمد ، دار الخاني، السعودية، 2010.
- فتح الباب في الكنى والألقاب، ابن منده (محمد بن إسحاق بن محمد العبدي ت 395 هـ) تحقيق نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر، السعودية، 1996.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، العسقلاني (أحمد بن علي ت 853 هـ)، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله، مكتبة الرياض العامة، السعودية 1379 هـ.
- عيون الأخبار، ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم ت 376هـ) تحقيق يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- فجر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط16 (د.ت).
- فكرة التاريخ عند العرب، من الكتاب إلى المقدمة، طريف الخالدي، ترجمة حسني زينه، منشورات الجمل، بيروت، 2015.
- فنون العجائب في أخبار الماضين من بني إسرائيل وغيرهم من العباد والزاهدين، النقاش (محمد بن علي بن عمر الأصبهاني الحنبلي النقاش ت 414هـ)، تحقيق طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، القاهرة.
- فهرسة ابن خير، ابن خير (محمد بن خير بن خليفة ت 575 هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009.
- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، الأردن، 1989.
- الفهرست، ابن النديم (محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي ت438هـ)، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط2 1997.
- قاموس الكتاب المقدس، مجموعة مؤلفين، دار الثقافة، القاهرة، 1997.
- القَدَر، الفريابي (جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض ت 301هـ)، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، أضواء السلف، السعودية، 1997.
- القرآن في محيطه التاريخي، جبرائيل سعيد رينولدز، منشورات الجمل، بيروت - بغداد، 2012.
- القرآن والتاريخ، رأفت عماري، معهد البحاث الدينية، الولايات المتحدة الأميركية، 2014.
- قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، الثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم ت 427 هـ)،

تصحيح عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

- قصص الأنبياء، الكسائي (أبو الحسن محمد بن عبد الله ت ق5)، تحقيق محمد كريم الكواز، منشورات الجمل، بغداد، 2018.
- قصص أهل الكتاب في القرآن، هاينريش شباير، ترجمة نبيل فياض، الرافدين للطباعة والنشر والإعلان، بيروت، 2018.
- قصص اليهود، لويس جينزبيرج، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2002. وهو أساطير اليهود نفسه.
- القضاء والقَدَر، أبو بكر البيهقي (أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي الخراساني ت 458هـ)، تحقيق محمد بن عبد الله آل عامر، مكتبة العبيكان، السعودية، 2000.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني ت 1067هـ)، مكتبة المثنى، بغداد، 1941.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ت 427 هـ)، تحقيق ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2002. وطبعة أخرى بتحقيق مجموعة أساتذة، دار التفسير، جدة – السعودية، 2015.
- الكنى والأسماء، الدولابي (محمد بن أحمد بن حماد الرازي ت 310هـ)، تحقيق نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم، بيروت، 2000.
- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911 هـ)، تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (علي بن محمد بن إبراهيم ت 741هـ)، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415 هـ.
- لسان العرب، ابن منظور (محمد بن مكرم ت 711 هـ) دار صادر، بيروت، 1955.
- لسان الميزان، ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت 852 هـ)، تحقيق دائرة المعارف النظامية، الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1986.
- المبتدأ في قصص الأنبياء، ابن إسحاق (محمَّد بن إسحاق بن يسار ت 151 هـ)، جمع محمَّد كريم الكوّاز، مؤسسة الانتشار العربيّ، بيروت، 2006.
- المتفق والمفترق، الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت ت 463 هـ)، تحقيق محمد صادق آيدن الحامدي، دار القادري، دمشق، 1997.
- المجالسة وجواهر العلم، الدينوري المالكي (أحمد بن مروان ت 333هـ)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، البحرين، 1419هـ.
- المجروحين من المحدِّثين والضعفاء والمتروكين، أبو حبان (محمد بن حبان البستي ت 354 هـ)، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، 1396هـ.

- المحن، التميمي (محمد بن أحمد بن تميم التميمي ت 333 هـ) تحقيق عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، السعودية، 1984.
- المدخل إلى العهد الجديد، فهيم عزيز، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، 1977.
- المدخل إلى العهد الجديد، موريس تاوضروس، دار القديس يوحنا، مصر، ط4 1977.
- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي (يوسف بن قِزْأوغلي بن عبد الله ت 654 هـ)، تحقيق مجموعة، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2013.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي (علي بن الحسين بن علي ت 346 هـ)، دار الأندلس، بيروت، 1983.
- مريم في القرآن، إعادة تقديمها، سليمان مراد، ضمن القرآن في محيطه التاريخي، جبرائيل سعيد رينولدز، منشورات الجمل، بيروت - بغداد، 2012.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله ت 749هـ)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1423 هـ.
- المسالك والممالك، ابن خرداذبّه (عبيد الله بن أحمد ت نحو 280 هـ)، دار صادر، بيروت، مصورة عن طبعة ليدن، 1889.
- المسالك والممالك، البكري (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي ت 487هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري (محمد بن عبد الله ت 405 هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.
- مسند أحمد، ابن حنبل (أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت 231 هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1999.
- مصنف بن أبي شيبة، ابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ت 235هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، 1409هـ.
- المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، (عبد الرزاق بن همام بن نافع ت 211 هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2 1402هـ.
- المعارف، ابن قتيبة (أحمد بن عبد الله بن مسلم ت 276 هـ) تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي (الحسين بن مسعود ت 510 هـ)، تحقيق محمد عبد الله النمر، دار طيبة، السعودية، 1997.
- معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي (شهاب الدين عبد الله بن ياقوت الرومي 626 هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- المعجم الأوسط، الطَّبرانيّ (سليمان بن أحمد ت 360 هـ) تحقيق طارق عوض الله، دار

الحرمين، القاهرة، 1415 هـ.

- معجم البلدان، ياقوت الحموي (شهاب الدين عبد الله بن ياقوت الرومي ت 626 هـ). دار صادر، بيروت، 1956.
- المعجم الصغير (الروض الداني)، الطبراني (سليمان بن أحمد ت 360 هـ)، محمد شكور محمود، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت - عمان، 1985.
- المعجم الكبير، الطبراني (سليمان بن أحمد ت 360 هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة الزهراء، الموصل، 1983.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ت 748 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
- المعرفة والتاريخ، الفسوي (يعقوب بن سفيان بن جوان ت 277 هـ)، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2 1981.
- المغازي الأُوَل ومؤلفوها، يوسف هوروفتس، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الخانجي، القاهرة ط2 2001.
- المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، بيروت، 1971.
- الملل والنّحل، الشَّهرستاني (محمّد بن عبد الكريم الشَّهرستاني ت 548 هـ)، تحقيق سعيد الغانمي، منشورات الجمل، بيروت - بغداد، 2013.
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت 597هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
- موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، محمد عجينة، العربية محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس- لبنان، 1994.
- موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية. رشاد الشامي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2002.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، 1999.
- الموضوعات، ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد ت 597هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، السعودية، 1966.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت 748 هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، 1963.
- النبوة، ابن بابويه (محمد بن علي بن الحسين القمي ت 381 هـ)، مؤسسة الضحى الثقافية، طهران، 1423 هـ.
- نشأة علم التاريخ عند العرب، عبد العزيز الدوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،

.2005

- نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب، مجهول من (ق 2 هـ)، مجمع الآثار والمفاخر الثقافية، طهران، 1417 هـ.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، النُّويريُّ (شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب ت 733 هـ)، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2004.
- نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الترمذي (محمد بن علي بن الحسن الحكيم ت 279 هـ)، تحقيق عبد الرحمن عميرة، ذار الجيل، بيروت.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي (علي بن أحمد بن محمد النيسابوري ت 468هـ)، عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
- وصية أيُّوب، ضمن «التوراة، كتابات ما بين العهدين، التوراة المنحول»، تحقيق أندريه دوبون سومر، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، سوريا، 1999.
- وعَّاظ السلاطين، رأي صريح في تاريخ الفكر الإسلامي، علي الوردي، دار كوفان للنشر، لندن، ط2 1995.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر ت 681 هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968.
- اليهودية والإسلام، إبراهام غايغر، ترجمة نبيل فياض، دار الرافدين، بيروت - بغداد، 2018.

المحتويات

نصّ الكتاب

سلسلة

نصوص تراثية

صدر من هذه السلسلة حتى الآن (2019) الكتب الآتية:



قصص الأنبياء للثعلبي

عدد الصفحات: 286

اسم المؤلف: محمد كريم الكواز

القياس: 16.5× 24

IBSN:9781927946749



العسل والنحل والنباتات التي تجرس منه

عدد الصفحات: 96

اسم المؤلف: أبي حنيفة الدينوري

القياس: 14.5× 22

IBSN:9781927946725.

حققه وقدم له: محمد جبار المعيبد.



كتاب السلاح من القرن الثاني الهجري

عدد الصفحات: 111

اسم المؤلف: أبو سعيد الأصمعي

القياس: 14.5× 22

IBSN:9781927946718

حققه وقدم له: محمد جبار المعيبد.

Kitab al-Mubtada (Book of Creation)

Wahb ibn Munabbih (114 A. H.) earliest book from early Islamic era

هذا الكتاب

اشتغلت الثقافة العربية الإسلامية بآلية الاستحواذ والإقصاء، فكانت تستحوذ على تراثات الأمم الأخرى، ثمَّ تقصي منها ما لا ينسجم مع تطلعاتها، وكتاب "المبتدأ" لوهب بن مُنبِّه (ت 114 هـ) جسَّد ذلك تجسيداً واضحة، فمعارفه من أهل الكتاب: اليهود والمسيحيين، تحوَّلت إلى منصَّة للتفسير والتاريخ والحديث والوعظ، يطلُّ منها المسلمون إلى أول الخلق وحيوات الأنبياء والأمم السالفة، وبين الحاجة المعرفية، وصراع المتنافسين على امتلاك السيادة الدينية، ضاع الكتاب الأصل، وبقيت نصوصه في بطون الكتب، وإلى أن تظهر مخطوطاته، وقد استغرقت في الغياب أربعة عشر قرناً، حان الوقت لجمع الكتاب، وتوثيق نصوصه، وتنظيم محتوياته، وهذا ما حصل، وبين الشعور بالمسؤولية وتناثر النصوص، وبين الكتاب المفقود والشكل الحالي له، يبقى الطريق مفتوحاً لأفكار جديدة في التنقيب، ولإضافات أخرى في الإعادة، إنما كان عملي خطوة على الطريق.

أ.د. محمد كريم الكواز



مولود في بغداد سنة 1951، حصل على الماجستير من قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد سنة 1987، والدكتوراه سنة 1990، وعلى لقب الأستاذية في البلاغة والنقد سنة 2007 من الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية، ليبيا، له 22 كتاباً منشوراً، ومجموعة بحوث في مجلات متعددة.

The Academic Center for Research

CANADA- TORONTO

ISBN 978-1-927946-91-6

9 781927 946916 >